

المجموعات التاريخية

صريحٌ ورويٌ



# أبوالنطارى في خلافة بني العباس

بقلم

الدكتور جان موريں فييه

دارالشرق  
بیروت





© جميع الحقوق محفوظة ، طبعة أولى ١٩٩٠

دار المشرق ش.م.م

ص.ب. ٩٤٦ ، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214-8011-1

التوزيع : المكتبة الشرقية

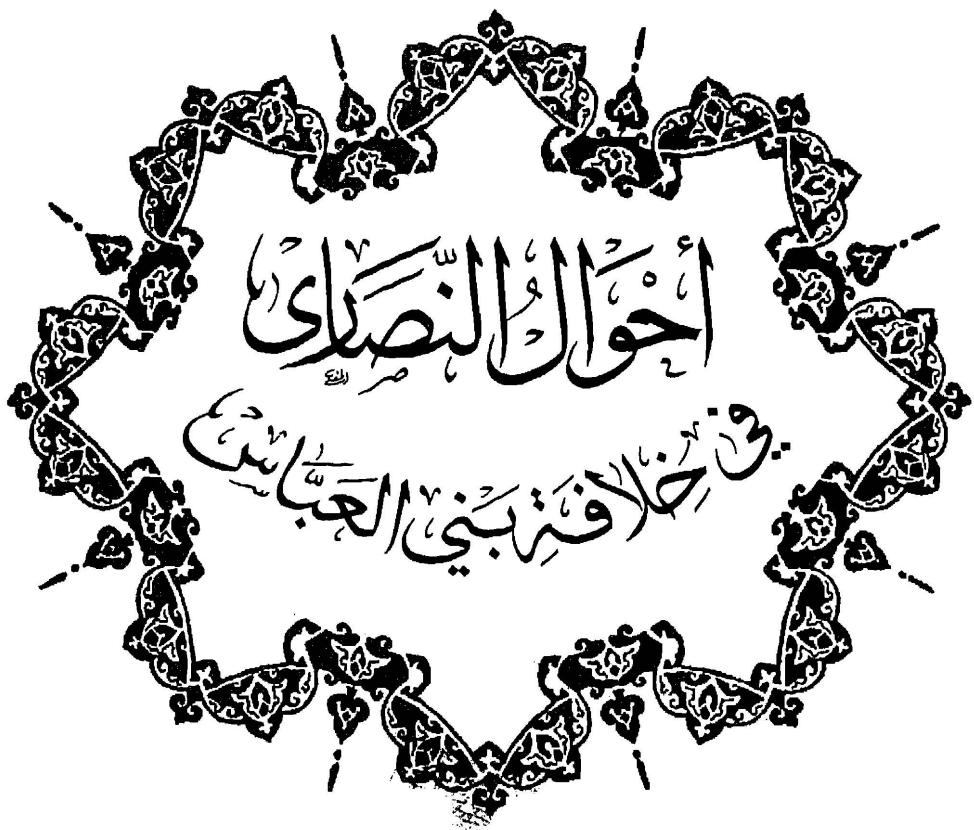
ص.ب. ١٩٨٦ ، بيروت - لبنان

تصميم الغلاف : جان قرباطاوي

مصدر صورة الغلاف :

صورة مطران أو جاثليق من رسوم سامراء

(القرن التاسع ميلادي/الثالث هجري)



أحوالِ النَّصَادِي

في خلافة زبني العجم

أ. الدكتور جان موريس فسيه

نُقَلَّةً إِلَى الْعَرَبِيَّةِ حُسْنِي زَيْنَه



كتار المشرق لشرمه

# مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

ساهم في اصدار هذا الكتاب  
مجلس كنائس الشرق الأوسط

لَا تُقْدِمْ عَلَى قَوْلِ الْبَاطِلِ  
وَلَا تَصْرِهِ عَلَى كِتْمَانِ الْحَقِّ

شيشرون ، في الخطابة ٢ : ١٥



## المصادر والمراجع

### أ - المصادر العربية

#### ١ - الكتب والمقالات

- ابن أبي أصيبيعة، موفق الدين أبو العباس: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ١٩٦٥.
- ابن الأثير، عز الدين: كتاب الكامل في التاريخ، ١٣ جزءاً، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٧.
- ابن الأزرق، أبو عبدالله الأندلسي: بدائع السلوك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، جزان، تونس، ١٩٧٧.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٣ جزءاً، طبعة القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٥.
- ابن جبير: رحلة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق كرنكوف، ٨ أجزاء، حيدر آباد، ١٣٥٧ - ١٣٥٩ / ١٩٤٠ - ١٩٤٢.
- ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأرباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ٨ أجزاء، بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٧٢.
- ابن رجب البغدادي: الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق هـ. لاوست وس. دهان PIFD الجزء الأول، دمشق، ١٩٥١.

- إبن الساعي ، تاج الدين: الجامع المختصر، تحقيق مصطفى جواد، الجزء التاسع ، بغداد، ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .
- نساء الخلفاء، تحقيق مصطفى جواد، سلسلة دخائر العرب، ٢٨ .
- إبن شاكر الكتبى : فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .
- إبن الطقطقى ، محمد بن علي: الفخرى في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت ١٩٦٦ .
- إبن عبد ربه: العقد الفريد، سبعة أجزاء، القاهرة، ط. ٣، ١٩٧٥ .
- إبن العربي: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية إسحاق أرملا، بيروت، ١٩٨٧ ، وقد ظهر من قبل بعنوان تاريخ الدول السريانية، بقلم إسحاق أرملا نفسه، وذلك في أجزاء: ملوك العرب، المشرق ٤٢ - ٤٧ (١٩٤٩ - ١٩٥٣) ص ٩٥ - ٥٠٦ ، ملوك النور، حتى العدد ٥٠ (١٩٥٦) .
- واختصر بالعربية بعنوان: مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠ .
- إبن الغوطى(?) ، انظر: الحوادث الجامدة.
- إبن قتيبة، أبو محمد عبد الله: عيون الأخبار، تحقيق أحمد زكي العدوى، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
- كتاب المعارف، تحقيق ثورة عكاشة، القاهرة، ١٣٥٣ هـ .
- إبن القفعى: تاريخ الحكماء، تحقيق أمين الخانجي، مصر، ١٣٢٦ / ١٩٠٨ .
- إبن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، جامعة دمشق، ١٣٨١ / ١٩٦١ مختارات (ص ٦٥٧ - ٨٩٣) : شرح الشروط العمرية .
- إبن كثير، إسماعيل: البداية والنهاية في التاريخ، ١٣ جزءاً، بيروت، الرياض .
- الأشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣ .
- الأزدي ، أبو زكريأ: تاريخ الموصل، تحقيق علي جيبة، القاهرة، ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .

الأزدي، محمد بن أحمد أبو المطهّر: حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز هيدلبرج، ١٩٠٢.

الأصفهاني، عهاد الدين: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق بهجت الأثري وجميل سعيد، جزان، بغداد، ١٣٧٥ / ١٩٥٥.

أمين، حسين: نظام الحكم في العصر السلاجقى، سومر، ٢٠ (١٩٦٤)، ص ٢٠٩ - ٢٦٦.

إيليا النصيبي: تاريخ إيليا برشنيايا، الترجمة العربية بقلم يوسف حبى، بغداد، مجمع اللغة السريانية، ١٩٧٥.

بابو، إسحاق روفائيل: تاريخ نصارى العراق، بغداد، ١٩٤٨.

أحوال نصارى بغداد في عهد الخليفة العباسية، بغداد، ١٩٦٠.  
البداية، انظر ابن كثير.

برصوم، انظر المؤلّف.

البستاني، فؤاد افرايم: تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسية، المشرق، ٣٢ (١٩٢٤) ص ٤٠٩ - ٤٤٠.

الثقافة الإنسانية في بغداد العباسية، محاضرة في مهرجان القرن الثاني عشر  
لبغداد، ١ - ٨ كانون الأول ١٩٦٢، مطبوعة على الآلة الكاتبة.  
موسوعته المعروفة ب دائرة المعارف.

البيروني: الآثار الباقيّة من القرون الخالية، تحقيق زاخاو، ليزغ، ١٨٧٨.

تاجر، جاك: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى العام ١٩٢٢، القاهرة، ١٩٥١.

تجارب، انظر MISKAWAIIH.

الشّنّوخي، أبو علي الحسن بن علي: نشوار المحاضرة، تحقيق عبد الشابلي، ٨ أجزاء بيروت، ١٩٧١ - ١٩٧٣.

الفرج بعد الشدّة، تحقيق عبد الشابلي، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٨.

التوحيدى، أبو حيّان: مثالب الوزيرين، طبعة دمشق ١٩٦١.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسالة في الرد على النصارى في ثلاث رسائل للجاحظ، سعى في نشره يوشع فنكل، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
- كتاب الناج، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، ١٩٧٠.
- جبر، جميل: الجاحظ ومجتمع عصره، بيروت، ١٩٥٧.
- الجندى، محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وأثاره، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٦٢ - ١٩٦٤.
- الجهشيارى، أبو عبدالله: كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٣٨.
- جواد، مصطفى: سيدات البلاط العباسى، بغداد، د. ت.، انظر ابن الساعى.
- الماجري، طه: الجاحظ حياته وأثاره، دار المعرفة، ١٩٦٢.
- حبي، يوسف: يوحنا بن حيلان معلم الفارابي في المنطق، بين التهرين، ٣ (١٩٧٥) ص ١٢٥ - ١٥٤.
- الحوادث الجامعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١/١٩٣٢، انظر: شذرات تاريخية.
- الذهبي، شمس الدين: كتاب دول الإسلام (التاريخ الصغير) جزان، حيدر آباد ١٣٦٤ - ١٣٦٥هـ.
- رحمة الله، مليحة: الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، بغداد، ١٣٩٠/١٩٧٠.
- رستم، عبد السلام: أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥.
- الزركلى، خير الدين: الأعلام، عشرة أجزاء، ط. ٢، القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩.
- الزيّات، حبيب: اليهود في الخلافة العباسية، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ١٤٩ - ١٧٣. (أعيد طبعه في الخزانة ج ٣، ١٩٤٦، ص ٥٤ - ٧٨).
- شهداء التصريحة في الإسلام، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ٤٥٩ - ٤٦٥ (الخزانة ج ٣، ص ١٠٢ - ١٠٨).
- الجوالى أو جزية رؤوس النصارى في الإسلام، المشرق ٤١ (١٩٤٧) ص ١٤٥ - ١٥٦ (الخزانة ج ٤، ١٩٤٨، ص ٥٤ - ٦٥).

- الأسماء والكنى والألقاب النصرانية في الإسلام، المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ص ١ - ٢١ ، (الخزانة ج ١ ، ١٩٥٢ ، ص ١ - ٢١).
- سهام النصارى واليهود في الإسلام، المشرق، ٤٣ (١٩٤٩) ص ١٦١ - ٢٩٢ . (مستلة، ١٩٥٠ ، ٩٤ صفحة).
- ساكو، لويس الأب، البطريرك تيموثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الإسلامي، مجلة بين النهرين، ١٤ - ١٥ ، ١٩٧٦ ، ص. ٢٢٥ - ٢٤٥ ، وتعقب سعيد الديوهجي ، المصدر نفسه، ١٦ ، ص. ٤٤٩ - ٤٥٣ .
- السامرائي، يونس أحمد: البحترى في سامراء بعد عصر المتوكّل ، بغداد، ١٩٧١ .
- السيوطى، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩ .
- الشاشتى: كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، ١٩٥١ . ١٩٦٦
- شدرات تاريخية من صحائف منسية، نشرها لويس شيخو في مجلة المشرق، ١٨ (١٩٢٠) ص ٥٩٦ - ٦٠٧ ، وهي الحوادث الجامدة المذكورة أعلاه، انظر كتابي: (Mossoul Chrétienne, 1959, P 46, n.2).
- شيخو، لويس: شعراء النصرانية بعد الإسلام، ط. ٢، بيروت ١٩٦٧ .  
الصabi: انظر هلال.
- صلبيا بن يوحنا (عمرو بن مقي): أخبار بطاركة كرسى المشرق، تحقيق جيسموندي ، روما، ١٨٩٦ .
- الصولي، أبو بكر محمد: أخبار الراضي والمتنبي بالله، مكتبة الصاوي ، مصر، ١٩٣٥ .
- الطبرى، أبو جعفر محمد: تاريخ، عشرة أجزاء، القاهرة، ١٦٩٠ - ١٩٦٩ .
- الطبرى، علي بن رين: الدين والدولة، حققه وقدم له عادل نويهض، بيروت، ١٩٧٧ .
- طه، سليم: التاريخ وكبار المؤرخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ - ٣٩٠ .

عبد الرقيب، يوسف: مستشفيات وأطباء في عهد الدولة الدوستكية، بين الـ ٢١ (١٩٧٨) ص ٥ - ١٤.

عروضي، نظامي: المقالات الأربع، ترجمة عبد الوهاب عزّام ويحيى الحشّاب، القاهرة ١٩٤٩.

عرب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبرى، تحقيق ميكال يان دى خويه، ليدن ١٨٩٧.

العلى، صالح أحمد: بغداد (استناداً إلى ابن الفقيه الهمذانى)، بغداد، ١٩٧٧.

عمر، فاروق: الولاء الأموي في العصر العباسى، آفاق عربية، ١٢ (١٩٧٨) ص ٥٧ - ٥٩.

العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد مسعود، القاهرة، ١٣١٢ / ١٨٩٤.

العميد، طاهر مظفر: بغداد، مدينة المنصور المدورة، النجف، ١٣٨٧ / ١٩٦٧.

الإمارة العباسية في سامراء، بغداد، ١٩٧٦.

عواد، كوركيس: كتاب الديارات للشافعى، ط. ١، بغداد، ١٩٥١ ط. ٢، بغداد ١٩٦٦. ديارات بغداد القديمة، ديارات الجانب الشرقي، مجلة مجمع اللغة السريانية، ٢ (١٩٧٦) ص ٤٧ - ٧٤، ديارات الجانب الغربى، ٣ (١٩٧٧) ص ٧٩ - ١٢٢.

عواد، ميخائيل: أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، هلل الصائب بغداد، ١٩٤٨.

الفهرست: أنظر ابن النديم.

قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٧.

الكامل: انظر ابن الأثير.

كتابجي، زكريّا: الترك في مؤلفات الجاحظ، بيروت، ١٩٧٢.

حالة، عمر رضا: أعلام النساء، خمسة أجزاء، دمشق، ١٩٥٩.

الكندي، أبو عمر محمد التجيبي: كتاب ولاة مصر، تحقيق سهيل نصار،  
١٩٥٩ / ١٣٧٩.

لؤلؤ ٢: أي اللؤلؤ المشور، ط ٢، حلب، ١٩٥٦، بقلم البطريرك  
إغناطيوس افرايم برصوم.

ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسى المشرق، تحقيق جيسموندي، روما،  
١٨٩٩.

متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد  
الهادي أبو ريدة، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٧.

السعودي، أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بللا،  
٧ أجزاء، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦ - ١٩٧٩.

كتاب التنبية والإشراف، تحقيق ميكال يان دي خويه، ليدن، ١٨٩٤.  
مسكوني، يوسف يعقوب: الديارات النصرانية في بغداد وضواحيها في  
العصور العباسية، المعرفة، ٢ (١٩٦٢) ص ٣٤ - ٤٠.

المقدسي، شمس الدين: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق ميكال  
يان دي خويه، ليدن، ١٨٧٧.

النديم: كتاب الفهرست، تحقيق ج. فلوجل، ١٨٧١.  
نشوار المحاضرة: أنظر التنوخي.

النصر الله، موسى فريد: آثار الديارات في العصر العباسى، رسالة، جامعة  
القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٢.

نظام الملك: سياسة نامة، نقله إلى العربية أحمد لواساني بعنوان: سير  
الملوك، أطروحة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٩.

النwoي، محبي الدين: منهاج الطالبين، النص العربي وترجمته إلى الفرنسية  
بقلم L.W.C. فان دن برغ، ثلاثة أجزاء، باتافيا، ١٨٩٢ - ١٨٩٤.

رياض الصالحين، قدم له وراجعيه حسن تيم، بيروت، د.ت.  
النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨ جزءاً،  
القاهرة ١٩٢٣ وما بعدها.

هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق أمدروز، ١٩٠٤.

رسوم دار الخلافة، مع ترجمة إلى الإنكليزية بقلم إيلي سالم، بيروت، ١٩٧٧ .  
الهمداني، محمد بن عبد الملك: تكميلة تاريخ الطبرى، تحقيق ألبرت كنعان،  
بيروت ١٩٥٨ - ١٩٦٢ .

الواسطي، غازى: الرد على أهل الذمة، النص العربي وترجمته إلى الإنكليزية  
بقلم ر. غوتيل، في J.O.A.S XLI (١٩٢١) ص ٣٨٣ - ٤٥٧ .  
ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) تحقيق د.  
س. مرغوليت، سبعة أجزاء، القاهرة، ١٩٢٣ - ١٩٢٥ .  
معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت، ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

## ٢ - الدوريات

- آفاق عربية، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.
- الأبحاث، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٨ وما بعدها.
- بين النهرين، الموصل، ١٩٧٣ وما بعدها.
- تراث الشعبي، بغداد، ١٩٧٠ وما بعدها.
- سومر، بغداد، ١٩٤٥ وما بعدها.
- لسان المشرق، الموصل، ١٩٤٨ - ١٩٥٢.
- مجلة مجمع اللغة السريانية، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.
- المسرة، لبنان ١٩١٠ وما بعدها.
- المشرق، بيروت، ١٨٩٨ - ١٩٧٠.
- المعرفة، بغداد، ١٩٦١ وما بعدها.

## ب - المصادر والمراجع الأجنبية

### ١ - الكتب والمقالات

- ABOTT, NABIA**, *Two Queens of Baghdad*, U. Chicago, 1946.
- ABDUL HAQ**, Historical Poems in the *Dīwān* of Abū Tammām, *Islamic Culture*, XIV (1940), p. (17-29).
- Abū Tammām, his Life and Poetry, *Ibid*, XXVI<sup>2</sup> (1952), p. 16-41.
- ABEL, ARMAND**, Les marchés de Bagdad, essai historico-géographique: situation, voies d'accès, ressources, dans *Bulletin de la Société belge d'études géographiques*, XI<sup>2</sup>, (déc. 1939), p. 148-164, 2 cartes.
- ABRAMOWSKI, R.**, *Dionysius von Tellmahre, jakobitischer Patriarch von 818-845, Zur Geschichte der Kirche unter dem Islam*, Leipzig, (1940) 1966.
- ABU HAYYAN**, v. *AL-TAWHIDI*.
- ABU'L-MAHASIN**, v. *IBN TAĞRIBIRDİ*.
- ABU YUSIF YA'QUB**, *Kitāb al-Harāğ* (livre de l'impôt foncier)
- tr. fr. E. FAGNAN, Paris, 1921.
- V. BEN SHEMESH.
- AHMAD, L.I.**, *The Role of the Turks in Iraq during the Caliphate of Mu' taṣim* (218-227/833-842), Thèse Ph.D., Manchester, 1965.
- ALLARD, MICHEL**, Les chrétiens à Bagdad, dans *Arabica*, IX (1962), p. 375-388 (numéro spécial sur Bagdad).
- ALLARD, MICHEL**, Histoire de la pensée arabe et société, dans *Etudes philosophiques offertes au Dr. Ibrahim Madkour*, Le Caire, 1974, p. 121-130 (Commentaire de la lettre [de Ğāhīz?] sur les secrétaires).
- ALLOUCHE, I.S.**, Un traité de polémique arabo-chrétien au IXème siècle, dans *Hesperis*, XXVI (1939) p. 123-155 (Traduction de al-Radd 'ala 'l-Nasāra).
- AMEDROZ, H.F.**, v. *MISKAWAYH*.
- Three Years of Buwayhid Rule in Baghdad (A.H. 389-393), *JRAS*, (1901) p. 501-536, 749-786 (= Hilāl).

- Abbasid Administration in its Decay, *JRAS*, (1913), p. 823-842.
- The Vizier Abū 'l Fadl b. al-'Amīd, *Der Islam*, III (1912), p. 323-351, = Miskawayh.
- The *Tajārib al-umam* of Abū 'Alī Miskawayh, *Der Islam*, V (1914), p. 335-357.

**AMEDROZ, H.F. et MARGOLIOUTH, D.S.**, *The Eclipse of the Abbasid Caliphate, (Original Chronicles of the 4th Islamic Century)* Oxford-Londres, 1920-1921, 7 vol.

**AMIN, HUSAYN**, L'administration au temps des Salgūkides (ar.), *Sūmer*, XX (1964), p. 209-226.

**ANAWATI, G.C.**, Polémique, apologie et dialogue islamo-chrétien, dans *Euntes docete*, (U. Pontif. Urbaniana), XXII (1969), p. 375-452.

**ARKOUN, MOHAMMED**, *Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVème/Xème siècle: Miskawayh, philosophe et historien*, Etudes philosophiques, XII, Vrin, 1970.

**ARKOUN MOHAMMED**, Pour un remembrement de la conscience islamique, dans *Mélanges offerts à Henry Corbin*, Tehran, 1977, p. 191-215.

**ARNALDEZ, ROGER**, Les chrétiens selon le Commentaire de Rāzī, dans *Mélanges islamologiques* (vol. à la mémoire d'Armand Abel), éd. P. SALMON, Leiden 1974, p. 45-57.

**ARNOLD, Th.W.**, *The Preaching of Islam*, éd. Sh.M. Ashraf, Lahore, 1961.  
**AL-ASNAWI**, v. V. PERLMANN, M.

**AL-BAĞDADI, 'ABD ALLAH**, Le livre des secrétaires, éd. et présentation D. SOURDEL, dans *BEO*, XIX (1952-1954), p. 128-153.

**AL-BAĞDADI, 'ABD AL-LATIF**, *K. al-Ifāda wa'l-Itibār*, tr. angl. The Eastern Key, par K.H. ZAND, JOHN A. et IVY E. VIDEAN, Londres, 1965.

**AI-BAĞDADI, AL-HATIB**, (Abû Bakr A.b. 'Alî b. Tâbit), v. KRENKOW.

**BAR HEBRAEUS** (Grégoire Abû'l-Farağ), *Chronicon Ecclesiasticum*, éd. syr., tr. lat. ABBELOOS J.B. et LAMY Th.J., 3 vol., Louvain, 1872-1877.

**BAR KALDUN, JEAN**, *Vie de Rabban Yousef Bousnaya*, tr. fr. CHABOT, J.B. ROC, II (1898).

**BAUMSTARK, ANTON**, *Geschichte der syrischen Literatur*, Bonn, 1922.

**BEN SHEMESH, A.**, *Taxation in Islam*, 3 vol., Leiden, 1958-1969. = les trois spécimens restants de K. al-Harâq: Vol. I, YAHYA b. ADAM AL-QURASI. Vol. II, QUDAMA b. GA'FAR Vol. III, ABU YUSIF.

**BERNHAUER, A. WALTER**, Mémoire sur les institutions de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs: *JA*, 5ème série, XV (1860) p. 460-508; XVI (1860), p. 114-190, 347-392; XVII (1861) p. 5-76. En fait l'auteur n'est pas al-Nabrawī mais al-Šayzarī (m 589/1193).

- BETTS, ROBERT BRENTON, *Christians in the Arab East. A Political Study*. Athènes, 1975.
- B.H., v. BAR HEBRAEUS, *Chron. Eccl.*
- BIDAWID, R.j., v. TIMOTHEE.
- BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, *The Islamic Dynasties*, Edinburgh U.P., 1967.
- BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, v. TA'ĀLIBĪ.
- BOUVAT, L., Les Barmécides, *Revue du monde musulman*, vol. XX, Paris, 1912.
- BOWEN, H., *The life and Times of 'Alī b. 'Isā, the Good Vizier*, Cambridge et Londres, 1928.
- BRAUN, O., v. TIMOTHEE.
- BROCKELMANN, CARL, *Geschichte der arabischen Litteratur (= GAL)*, 2 vo. et 3 suppléments, Leiden, 1943.
- BROOKS, B.W., Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids, dans *The English Historical Review*, XV (1900), p. 728-747; XVI (1901), p. 84-92.
- BUSSE, HERIBERT, *Chalif und Grosskönig. Die Buyiden im Iraq (945-1055)*, Beiruter Texte und Studien, Bd. 6, Beyrouth, 1969.
- CAETANI, L., *Annali dell'Islam*, 10 vol., Milan, 1905-1926.
- CAHEN, CLAUDE, Fiscalité, propriété, antagonismes sociaux en Haute Mésopotamie au temps des premiers Abbassides, d'après Denys de Tell Mahré, *Arabica*, I (1954), p. 136-152.
- \_\_\_\_\_, Compte rendu de F. LOEKKEGAARD, *Islamic Taxation*, dans *Arabica*, I (1954), p. 346-353.
- \_\_\_\_\_, L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman ancien, dans *Studia Islamica*, III (1955), p. 93-115 (suggère thèmes d'études).
- \_\_\_\_\_, Mouvements et organisations populaires dans les villes de l'Asie musulmane, milices et associations de foutouwwa, dans *Recueils de la Société Jean Bodin*, VII (1955), p. 273-288.
- \_\_\_\_\_, Compte rendu de IBN GAWZI, *Mir'at al-zamān*, et YUNINI, Dayl, dans *Arabica*, IV (1957), p. 191-194.
- \_\_\_\_\_, L'Islam et les minorités confessionnelles au cours de l'histoire, dans *La table ronde*, no. 126, juin 1958, p. 61-72.
- \_\_\_\_\_, Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen-Age, dans *Arabica*, V (1958), p. 225-250; VI (1959), p. 25-26, 233-265.
- \_\_\_\_\_, La changeante portée sociale de quelques doctrines religieuses, dans *L'élaboration de l'Islam*, p. 5-22.

\_\_\_\_\_, Histoire économico-sociale et islamologie: le problème de l'adaptation entre les autochtones et l'Islam, dans *Correspondance d'Orient*, no. 5, p. 197-215 (= *Colloque sur la sociologie musulmane*, Bruxelles, 1961).  
\_\_\_\_\_, Bagdad au temps de ses derniers califes, *Arabica* LX (1962), p. 289-302.

\_\_\_\_\_, différents articles dans *E.I.*<sup>2</sup>

**CANARD, MARIUS**, *Histoire de la dynastie des Hamdānides de Djazira et de Syrie*, t. I, Alger, 1951. (tables: dans *Arabica* XVIII (1971), p. 279-519).

\_\_\_\_\_, Quelques «à côté» de l'histoire des relations entre Byzance et les Arabes, dans *Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida*, I, Rome (1956), p. 98-119.

\_\_\_\_\_, Bagdad au IVème siècle de l'Hégire (Xème A.D.), dans *Arabica*, IX (1962), p. 267-288.

**CASPAR, ROBERT**, Les versions arabes du dialogue entre le catholicos Timothée I et le calife al-Mahadi (IIème/VIIème s.), dans *Islamochristiana*, III, (1977), p. 109-175.

**CERDIC** (*Annuaire du -*, 1976) = Eglises et groupes religieux dans la société française, intégration ou marginalisation, (5ème colloque du Centre de Sociologie du Protestantisme, Strasbourg, 7-9 octobre 1976), Strasbourg, 1977, U. des sciences humaines de Strasbourg, Coll. Hommes et Eglises 8.

**CHABOT, JEAN BAPTISTE**, *Littérature syriaque*, Paris, 1934 (Bibl. catholique des sciences religieuses).

**Chron. an. 813** = *Chronicon anonymum ad ann. Chr. 813 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., 1905, tr. lat. 1907, CSCO, *Chronica minora* III, T. vol. 5/Syr. 5, p. 243-260; V. Vol. 6/Syr. 6, p. 183-196.

**Chron. an. 846** = *Chronicon anonymum ad ann. p. Chr. 846 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., tr. lat. CHABOT, I.B., 1904, CSCO, *Chronica minora* II, T. vol 3/Syr. 3, p. 157-238; V. vol 4/Syr. 4, p. 121-180.

**Chron. 1234** = *Anonymi auctoris chronicon ad A.C. 1234 pertinens*, V. II, tr. ABOUNA, ALBERT, CSCO, vol. 354, Syr, 154, 1974. (= l'Edessénien anonyme.)

**DENNET, DANIEL C.Jr.**, *Conversion and the Poll Tax in Early Islam*, Harvard U. Press. 1950 (Harvard Historical Monographies, no. XXII); tr. ar. FAWZI FAHMI FAHIM. *al-Ǧizya wa'l-Islām*, Beyrouth, 1960.

**DE GOEJE, M.J.**, Mémoire sur la conquête de la Syrie, dans ses *Mémoires d'histoire et de géographie orientales*, 2ème éd., Leiden, 1886.

**DELLY, E.K.**, *La théologie d'Elie Bar Šénaya*, Rome, 1957 (*Studia Urbaniana*, 1).

**DENYS DE TELL MAHRÉ**, *Chronique* (4ème partie), tr. fr. CHABOT, J.B., Bibl. Hautes Etudes, fasc. 112, Paris, 1895. Ed. complète CHABOT,

J.B. et BROOKS, E.W. CSCO vol. 91 et 104; tr. partielle, CHABOT, J.B., CSCO vol. 121.

**DONOHUE, JOHN JOSEPH**, *The Development of Political and Social Institutions in Iraq under the Buwayhids*, 334-403 H., Thèse Harvard U., 1966 (dactylographiée).

**DOZY, R.P.A.**, *Al-mu'gam al-mufassal bi asmā' l-malābis 'ind al-'Arab*, tr. ar. par AKRAM FADHIL (Bagdad, 1971) du *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes* (1843).

**DUNLOP, D.M.**, The Translations of al-Bitrīq and Yahya [Yūhanā] b. al-Bitrīq, *JRAS*, 3d series, 1959, part 3/4, p. 140-150.

**EDELBY, NEOPHYTE**, *Essai sur l'autonomie législative et juridictionnelle des chrétiens d'Orient sous la domination musulmane*, Thèse dactylographiée U. Latran, Rome, 1951.

*L'élaboration de l'Islam*, Colloque 1959 du Centre d'études d'histoire des religions, Strasbourg, PUF, 1961.

**ELGOOD, CYRIL**, *A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate*, Cambridge U.P., 1951.

**ELIE DE NISIBE** (Bar Šināya) *Chronographie = La chronologie d'Élie bar Šināya*, tr. fr. DELAPORTE, L.J., Bibl. des Hautes Etudes, fasc. 181, Paris, 1910.

\_\_\_\_\_, *Opus chronologicum = Eliae metropolitae Nisibeni, Opus chronologicum*, T. syr. et V. lat. BROOKS, E.W. et CHABOT, J.B., CSCO vol. 62\*, 62\*\*, 63\* et 63\*\*.

**ELLISSÉEF, NIKITA**, *Nur ad-Din*, 3 vol., PIFD, 1967.

\_\_\_\_\_, *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits*, PIFD, 1949.

E.N., v. *Élie de NISIBE*.

**EUTYCHIUS**, v. *SA'ID* b. *AL-BITRIQ*.

**FARES, BISHR**, *Vision chrétienne et signes musulmans*, Mém. Inst. Eg., 56 (1961).

**FATTAL, ANTOINE**, *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, coll. *Recherches*, X. Beyrouth, 1958.

**FIEY, J.M.**, Rūm à l'est de l'Euphrate, dans *Le Muséon*, XC (1977), p. 365-420.

**FINKEL, JOSHUA**, A risāla of al-Jāhiz, dans *JOAS*, XLVII (1927), p.311-334.

**FRAYHA, ANIS**, Influence of Syriac Grammar on Arabic, dans *al-Abhath*, XIV (1961), p. 39-60.

**GAL v. BROCKELMANN**.

**GARDET, LOUIS**, *La cité musulmane*, Paris, 1954.

\_\_\_\_\_, Philosophie et religion en Islam avant l'an 330 H., dans *L'élaboration de l'Islam*, p. 39-60.

\_\_\_\_\_, *Les hommes de l'Islam, Approche de mentalités*, coll. Le Temps et les hommes, Paris 1977.

**GARSOIAN, NINA G.**, Le rôle de la hiérarchie chrétienne dans les rapports diplomatiques entre Byzance et les Sassanides, dans *Revue des Etudes Arméniennes*, Nelle série, X (1973-1974), p. 119-138.

**GCAL, V. GRAF.**

**GEORR, KHALIL**, *Les catégories d'Aristote dans leurs versions syro-arabes*, Beyrouth, 1948.

**GERMANUS, JULIUS**, The Role of the Turks in Islam, dans *Islamic Culture*, VII (1933), p. 519-532 et VIII (1933), p. 1-15.

**GOLDZIHER, IGNAZ**, Zür Literatur des Ichtilāf al-madāhib, *ZDMG*, XXXVIII (1884), p. 669-682.

\_\_\_\_\_, Usages juifs d'après la littérature religieuse des musulmans, dans *Revue de Etudes Juives*, XXVIII (1894), p. 75-94.

**GOTTHEIL, RICHARD**, A Fetwa on the Appointment of Dhimmis to Office, dans *Zeitschrift für Assyriologie*, XXVI (1912), p. 203-214.

**GRAF, GEORG**, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, 5 vol., Vatican, 1944-1953 (= *Studie Testi*, vol. 118, 133, 146, 147, 172).

**HAGE, WOLFGANG**, *Die Syrish-Jakobitische Kirche in Frühislamischer Zeit*, Wiesbaden, 1966.

**HARTMANN, ANGELIKA**, La conception gouvernementale du calife an-Nāṣir li-Dīn Allāh, dans *Orientalia Suecana*, XXII (1973), p. 52-61.

\_\_\_\_\_, *An-Nāṣir, li-Dīn Allāh (1180-1225), Politik, Religion, Kultur in der später 'Abbāsidenzzeit*, W. de Gruyter, Berlin-New York, 1975.

**HILĀL (AL-SABI)**, V. AMEDROZ, *Three Years*.

**HAMIDULLAH, MUHAMMAD**, Nouveaux documents sur les rapports de l'Europe avec l'Orient musulman au Moyen-Age, dans *Arabica*, VII (1960), p. 281-300.

**INAYATULLAH, SH.**, Contribution to the Historical Study of Hospitals in Medieval Islam, dans *Islamic Culture*, XVII (1944), p. 1-14.

**IBN AL-BANNA'**, v. *MAKDISI, G.*

**IBN AL-NAQQĀŠ, MUHAMMAD b. AL-DAKKALI**, *Fatwa sur la condition des dhimmi*, tr. M. BELIN, J.A., VIII (1851), p. 417-516; XIX (1852), p. 97-140.

**IBN QUDAMA**, *Précis de droit*, tr. H. LAOUST, PIFD, 1950.

**JEAN (moine)**, *Eloge du patriarche nestorien Mār Denha Ier (1265-1281)*, éd. P. BEDJAN, *Vie de Yahwālāhā*, éd. 1895, p. 332-346; Tr. CHABOT, J.B., J.A., 9ème série, V (1895), p. 110-141.

**JEAN b. KALDUN**, *Histoire de Rabban Youssef Bousnāya (+ 979)*, tr.

- CHABOT. J.B., *ROC*, 1900.
- KABIR, MAFIZULIA, Libraries and Academies during the Buwayhid Period, dans *Islamic Culture*, XXXIII (1959), p. 31-33.
- KAUFHOLD, HUBERT, *Syrische Texte zum islamischen Recht* (Johannes V. b. Abgārē), Munich, 1971.
- \_\_\_\_\_, *Die Rechtssammlung des Gabriel von Basra und ihr Verhältnis zu den anderen juristischen Sammelwerken der nestorianer*, Berlin, 1976.
- KAWERAU, PETER, *Die jakobitische Kirche im Zeitalter der syrischen Renaissance, Idee und Wirklichkeit*, Berlin, 1960.
- KHALIL, SAMIR, Deux cultures qui s'affrontent: Une controverse sur L'Irbāb au XIème s., entre Elie de Nisible et le vizir Abū l-Qāsim, dans *Mélanges H. Fleisch*, II, p. 619-649. [= *MUSJ*, 49 (1975-1976)].
- KHAN, M.S., The Eye-witness Reporters of Miskawayh's Contemporary History dans *Islamic Culture*, XXXVIII (1964), p.295-313.
- EL-KHATIB, NACHEAT, *Etude historique de l'époque abbasside à travers le K. al-Agānī*, thèse Paris Sorbonne, 1975, (ronéotypée).
- KRENKOW, FRITZ, The Tarikh Baghdad (vol. XXVII) of the Khatib Abu Bakr b. Ahmad b. Thabit al-Baghdadi, Short Account of the Biographies, *JRAS*, 1912, p. 31-79; Appendix, p. 77-79, The Appearance of the Prophet in Dreams.
- DE LACY O'LEARY, *How Greek Science Passed to the Arabs*, Londres, 1949/1951.
- LAOUST, HENRI, Ibn Katīr historien, dans *Arabica*, II (1955), p.42-88.
- \_\_\_\_\_, *La profession de foi d'Ibn Battā*, PIFD,.. 1958.
- \_\_\_\_\_, Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241-656/855-1258), *REI*, XXVII (1959), p. 69-128.
- \_\_\_\_\_, *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1965.
- \_\_\_\_\_, Les agitations religieuses à Bagdad aux IVème et Vème s. H., dans *Islamic Civilisation, 950-1150*, vo. 3. Papers on Islamic History, p. 169-185. (= *Colloquium Oxford*, 1969) éd. D.S. RICHARDS, Oxford, 1973.
- \_\_\_\_\_, v. *Ibn QUDAMA*.
- LECOMTE, GÉRARD, *Le traité des divergences du hadith d'Ibn Quatayba*, tr. annotée du K. Ta'wil muhalif al-hadīt, PIFD, 1962.
- \_\_\_\_\_, *Ibn Qutayba, L'homme, son œuvre, ses idées*, PIFD, 1965.
- LE STRANGE, GUY, *The Lands of the Eastern Caliphate*, 3ème éd., Londres, 1966.
- \_\_\_\_\_, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900.
- LEVY, REUBEN, *A Baghdad Chronicle*, Cambridge U. Press, 1929.
- LEWIS, BERNARD, *Studies in Classical and Ottoman Islam (7th-16th. c.)*, Variorum Reprints, Londres, 1976.

- MAKDISI, GEORGE**, Notes on Hilla and the Mazyadids in Medieval Islam, dans *JAOS*, LXXIV (1954), p. 249-262.
- \_\_\_\_\_, Ibn al-Bannā', Autograph Diary of an Eleventh-Century Historian of Baghdad, dans *BSOAS*, XVIII (1956), p. 9-31, 239-260; XIX (1957), p. 13-48, 281-303, 426-443.
- \_\_\_\_\_, The Topography of Eleventh Century Baghdad, Materials and Notes, dans *Arabica*, VI (1959), p. 178-197, 281-309.
- \_\_\_\_\_, *Ibn 'Aqīl et la résurgence de l'Islam traditionnel au XIème s.* (Vème s. H.) PIFD, 1963.
- AL-MAQRIZI, TAQI'L-DIN AHMAD**, *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte*, (tr. M. QUATREMERE du K. *al-sulūk fī ma'rīfat duwal al-mulūk*), 2 vol., Paris, 1845.
- MARGOLIOUTH, D.S.**, Some extracts from the K. *al-imtā 'wa 'l-mu'ānasa of ABU HAYYAN AL-TAWHIDI*, dans *Islamica* II (1926), p. 380-390.
- \_\_\_\_\_, Wit and Humour in Arabic Authors, dans *Islamic Culture*, I (1927), p. 522-534.
- \_\_\_\_\_, Meetings and Salons under the Caliphate, dans *Islamic Culture* III (1929), p. 1-17.
- MASON, HERBERT**, *Two Statesmen of Medieval Islam*, Mouton, La Haye-Paris, 1972.
- MASSIGNON, LOUIS**, La politique islamo-chrétienne des scribes nestoriens de Deir Quenna à la cour de Bagdad au IXème siècle, dans *Vivre et penser (Revue biblique)*, II (1942), p. 7-14; repris dans *Opuscula Minora*, I, p. 250-257, Beyrouth, 1963.
- \_\_\_\_\_, *La passion de Hallâj*, 2ème éd., NRF, 1975, 4 vol.
- MAWARDI, v. LAOUST.**
- MEYERHOF, MAX**, On the Transmission of Greek and Indian Science to the Arabs, dans *Islamic Culture*, XI (1937), p. 17-29.
- M.S. = MICHEL LE SYRIEN (LE SYRIAQUE)**, *Chronique de -*, éd. syr. et tr. fr. J.B. CHABOT, 4 vol., Paris 1899-1910, (et Bruxelles, 1963).
- MINGANA, ALPHONSE**, A Charter of Protection Granted to the Nestorian Chruch in A.D. 1138, by Muktafi, Caliph of Bagdad, dans *The Bulletin of the John Rylands Library*, X (1926).
- \_\_\_\_\_, Timothy's Apology, repris dans *Woodbrooke Studies*, II, Cambridge, 1928, préf., tr. et texte, p. 1-162.
- MORONY, MICHAEL C.**, Religious Communities in Late Sasanian and Early Muslim Iraq, dans *JESHO*, XVII (1974), p. 113-135.
- MORSY, ZAGHLOOL**, *La tolérance, essai d'anthologie*, Editions arabes, Lyon, 1975 (UNESCO).
- MOUBARAC, YOUAKIM**, Note sur les chrétiens et les lettres arabes, dans

- Mémorial du cinquantenaire (1914-1964), Ecole des Langues Orientales Anciennes de l'Inst. Cath. de Paris*, p. 123-130.
- MUFADDAL b. AL-FADA'IL**, *Histoire des sultans mamloûks*, texte ar. et tr. fr. E. BLOCHET, P.O., XII, p. 343-550; XIV, p. 375-672; XX, p. 1-269.
- MUIR, W.**, *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall*, Beyrouth, 1963.
- Muntazam**, v. *IBN AL-ĞAWZI*.
- NADVI, S.S.**, The Origins of the Barmakids, dans *Islamic Culture*, VI (1932), p. 19-28.
- NARSRALLAH, J.**, Abū 'l-Farağ al-Yabrûdî, médecin chrétien de Damas, Xème-XIème s., dans *Arabica*, XXIII (1976), p. 13-22.
- \_\_\_\_\_, Nazif b. Yumn, médecin, traducteur et théologien melkite du Xème s. dans *Arabica*, XXI (1974), p. 303-312.
- NAU, FRANCOIS**, Les traductions du grec en syriaque au VIIème s., *RHL*, IC (1929), p. 256-287.
- NWYIA, PAUL**, Actualité du concept de religion chez Hunayn b. Ishaq, dans *Arabica*, XXI (1974), p. 313-317.
- \_\_\_\_\_, Un dialogue islamo-chrétien au IXème s., dans *Axes*, IX. 5 (1977), p. 7-22.
- OMAR, FĀROUK**, *The Abbasid Caliphate (132-170/750-786)*, Bagdad, 1969.
- \_\_\_\_\_, Some Observations on the Reign of the 'Abbāsid Caliph al-Mahdī (158-169/775-785), dans *Arabica*, XXI (1974), p. 139-150, et *Sūmer* XXX (1974), p. 195-203.
- \_\_\_\_\_, A General Sketch of the Attitude fo the Early Abbasids towards Ahl al-Dimma, dans *Journal of the Syriac Academy*, I (1975), p. 29-35.
- \_\_\_\_\_, The Relations between the mu'tazilites and the Abbasids before al-Ma'mûn, dans *Sūmer*, XXXII (1976), p. 189-194.
- ORTIZ DE URBINA**, *Patrologia syriaca*, 1ère éd., Rome, 1958: 2ème éd. 1965.
- PELLAT, CHARLES**, Ğāhīz à Bagdad, *Rivista degli studi orientali*, XXVII (1952), p. 47-67.
- \_\_\_\_\_, Le dernier chapitre des Avares, de Ğāhīz, dans *Arabica*, III (1955); p. 322-352.
- \_\_\_\_\_, Al-Ğāhīz, pionnier de la géographie humaine (en arabe), *Machriq*, LX (1966), p. 165-205.
- \_\_\_\_\_, Essai d'inventaire de l'œuvre ğāhizienne, dans *Arabica* III (1956), p. 147-180.
- \_\_\_\_\_, Une charge contre les secrétaires d'Etat, attribuée à Ğāhīz, dans *Hesperis*, XLIII (1956), p. 29-50.
- \_\_\_\_\_, Al-Ğāhīz: les nations civilisées et les croyances religieuses (K. al-ahbār wa Kayfa taṣīḥh), dans *JA*, CCLV (1967), p. 65-90. Reproduit dans

*Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam (VIIème-XVème s.),*  
Varioum Reprints, 1976 [V].

**PERLMANN, MOSHE**, Asnawi's Tract against Christian Officials, dans *Ignace Goldziher Memorial Volume*, Jérusalem, part 2, 1958, p. 172-208; réédition: *Al-kalimat al-muhimma fi mubāṣarat ahl al-dimma*, U. Brookline (Mass.), 1969.

**PINTO, OLGA**, The Libraires of the Arabs during the Time of the Abbasids, tr. angl. F. KRENKOW, dans *Islamic Culture*, III (1929), p. 210-243.

**PUTMAN, HANS**, *L'Eglise et l'Islam sous Timothée I (780-823)*, coll. Recherches, nouvelle série, B. Orient chrétien, 3, Beyrouth, 1975.

**QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, GA'FAR AHMAD MAKKI**, *Qudāma b. Ġa'far et son œuvre*, thèse, Paris, 1955 (dactylographiée).

**QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, b. GA'FAR, AHMAD MAKKI**, v. *BEN SHEMES SH.*

**RONDOT, PIERRE**, L'évolution historique des Coptes, dans *Cahiers de l'Orient contemporain*, XXII (1950), p. 129-155; (compte-rendu de TAGHER).  
**SA'ID b. AL-BITRIQ**, *Annales*, éd. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUX, H. ZAYAT, CSCO, vol. 51, p. 1-88 (complété par YAHYA b. SA'ID, q.v.).

**SALMON, G.**, *Introduction topographique à l'Histoire de Bagdad d'al-Khatib al-Baġdādī*, Bibl. Hautes Etudes, fasc. 148, Paris, 1904.

**SAUVAGET, JEAN**, *Historiens arabes*, Paris, 1946 (= Initiations à l'Islam, V)

**SCHLUMBERGER, GUSTAVE**, *L'épopée byzantine, à la fin du Xème s.*, Paris 1900.

**SEGAL, J.B.**, Syriac Chronicles as Source Material for the History of Islamic Peoples, p. 246-258, dans *Historians of the Middle East*, éd. B. LEWIS et P.M. HOLT, Oxford U. Press, 1962.

**SELB, WALTER**, *'Abdišō b. Bahriż* Vienne, 1970.

**SHEDD, WILLIAM AMBROSE**, *Islam and the Oriental Churches, Their Historical Relation*, Philadelphie, 1904.

**SIVAN, EMMANUEL**, Notes sur la situation des chrétiens sous les Ayyūbides, dans *RHR*, CLXII, (1967), p. 117-130.

—, *L'Islam et la Croisade*, Paris, 1968.

**SOMOGYI, J. de**, The K. al-Muntazam of Ibn al-Jawzī, dans *JRAS*, (1932), p. 49-76.

**SOURDEL, DOMINIQUE**, Le «Livre des secrétaires» de Abd Allah al-Bagdādī, dans *BEO* (Damas), XIV (1952-1954), p. 115-153.

—, La valeur littéraire et documentaire du «Livre des vizirs» d'al-

- Ǧahšiyārī, d'après le chapitre consacré au califat de Hārūn al-Rašīd, dans *Arabica*, II (1955), p. 193-210.
- \_\_\_\_\_, Fragments d'al-Šūlī sur l'histoire des vizirs 'abbāsides, dans *BEO*, XV (1955-1957), p. 99-108.
- \_\_\_\_\_, Nouvelles recherches sur la seconde partie du «Livre des vizirs» d'al-Ǧahšiyārī, dans *Mélanges Louis Massignon*, PIFD, III, 1957, p. 271-299.
- \_\_\_\_\_, *Le vizirat 'abbāside de 749 à 936*, 2 vol., PIFD, 1959-1960.
- \_\_\_\_\_, La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, dans *Studia Islamica*, XIII (1960), p. 5-21.
- \_\_\_\_\_, La politique religieuse du calife al-Ma'mūn, dans *REI*, XXX (1962), P. 27-48.
- \_\_\_\_\_, Un pamphlet musulman anonyme d'époque abbasside contre les chrétiens, dans *REI*, XXXIV (1966), p. 1-33.
- AL-SULI, ABU BAKR MUHAMMAD b. YAHYA, *Al-Awrāq: Ābān al-Lāhiqī, le zindiq***, éd. ar., introduction et étude en russe et français, par A.E. KRYMSKI.
- TEOPHANES, *Chronographia***, éd. grecque et tr. lat. J. CLASSEN, vol. I, Bonn, 1839, (C.S. Historiae Byzantinae).
- TIBAWI, A.L.**, Christians under Muhammed and his first two Caliphs, dans *The Islamic Quarterly*, VI (1961), p. 30-46.
- TIMOTHÉE, *Timothei Patriarchae I, epistulae***, CSCO., vol. 74, 75, O. BRAUN, 1914-1915.
- \_\_\_\_\_, *Les lettres du patriarche nestorien I<sup>er</sup>*, R.J. BIDAWID, Rome, 1956 (Studi e Testi, 187).
- TIMOTHÉE, v. PUTMAN.**
- TISSERANT, EUGÈNE**, art. Nestorienne (Eglise), dans *DTC*, XI.1 (1931), col. 157-323.
- TOHMÉ, ANTOINE**, *Intérêt pour l'histoire sociale de «la réfutation des chrétiens» de Ǧāhīz*, mémoire, Beyrouth, 1977 (ronéotypé).
- TRITTON, A.S.**, Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1928), p. 485-508.
- \_\_\_\_\_, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, Oxford, 1930.
- \_\_\_\_\_, Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1931), p. 311-338.
- \_\_\_\_\_, Sketches of Life under the Caliphs, extraits de MUHAMMAD b. HILĀL AL-SĀBI K., al-Hafawāt, ms., dans *The Muslim World*, LIV (1964), p. 104-111, 170-179.
- TROUPEAU, GÉRARD**, Recherches sur un médecin-philosophe de Bagdad:

Ibn Atradī (XIème s.), dans *Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis*, Louvain 1969, p. 259-262.

TURAN, OSMAN, Les souverains saljoukides et leurs sujets non-musulmans, dans *Studia Islamica*, (1953), p. 65-100.

VAJDA, G., Une liste d'autorités du calife al-Nāṣir li Dīn Allāh, dans *Arabica*, VI (1959), p. 173-177.

\_\_\_\_\_, art. Ahl al-Kitab, dans *E.I.*<sup>2</sup> s.v.

WALZER, R., *Greek into Arabic, Essays on Islamic Philosophy*, Oriental Studies, I, Londres et Oxford, 1962.

WIET, GASTON, *Soieries persanes*, Mémoires de l'Institut d'Egypte t.52, Le Caire, 1947.

\_\_\_\_\_, Le «Traité des famines» de Maqrīzī, dans *JESHO*, V (1962), p.58.

YAHYA b. SA'ID, *Annales*.

\_\_\_\_\_, éd. ar. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUXM H. ZAYAT, dans CSCO, vol. 51, p. 91-273.

\_\_\_\_\_, éd. et tr. fr. *Histoire de Y. d'Antioche*, I. KRATCHKOVSKY et A. VASILEV, P.O XVIII p. 699-834; XXIII, p345-520.

ZAYAT, HABIB, (ar.), *Les Juifs au temps des califes abbassides*, *Machriq*, XXXVI (1938) p. 149-173 (repris dans *Hizāna* III, 1946, p. 54-78).

\_\_\_\_\_, *Martyrs chrétiens en Islam*, *Machriq* XXXVI (1938) p. 459-465 (*Hizāna*, III p. 102-108).

\_\_\_\_\_, *La Capitation des chrétiens en Islam*, *Machriq* XLI (1947), p. 145-156, (*Hizāna*, IV, 1948, p. 54-65).

\_\_\_\_\_, *Noms, prénoms et surnoms chrétiens en Islam*, *Machriq* XLII (1948) p. 1-21, (*Hizāna*, I, 1952, p. 1-21)

\_\_\_\_\_, *Signes distinctifs des chrétiens et des juifs en Islam*, *Machriq* XLIII, (1949) p. 161-292 (Tiré à part, 1950, 94 pp.)

## ٢ - الدوريات والسلالس

*Arabica*, Paris, 1954 ss.

*Axes*, Paris, 1969 ss.

**BEO** = *Bulletin d'Etudes Orientales*, Damas, 1931, ss.

**BGA** = *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*, Leiden, 1917, ss.

**BSOAS** = *Bulletin of the Royal School of Oriental Studies*, Londres, 1917, ss.

*Bulletin de la Société d'Archéologie Copte*, Le Caire, 1935, ss.

*Byzantion*, Bruxelles, 1924 ss.

*Cahiers Archéologiques*, Paris, 1945, ss.

*Correspondance d'Orient*, Bruxelles, 1962, ss.

**CSCO** = *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, (Paris) Louvain-Washington, 1903, ss.

**DHGE** = *Dictionnaire d'Histoire et Géographie Ecclésiastiques*, Paris, 1912, ss.

**DTC** = *Dictionnaire de Théologie Catholique*, Paris, 1930, ss.

**E.I.** = *Encyclopédie de l'Islam* (éd. fr.), Leiden-Paris.

**E.I.<sup>1</sup>** = 1ère éd. et supplément, 1908-1938.

**E.I.<sup>2</sup>** = 2ème éd., 1954, ss.

**ETI** = *En Terre d'Islam*, Alger-Lyon, 1925-1948.

*Etudes*, Paris, 1856, ss.

*Hesperis*, Maroc, 1921, ss.

*Iraq*, Londres, 1934, ss.

*Islam (Der --)*, Berlin-Leipzig, 1910, ss.

*Islamic Culture*, Hyderabad, 1927, ss.

*Islamic Quarterly*, Londres, 1954, ss.

*Islamica*, New York, 1924, ss.

- Islamochristiana*, Rome, 1975, ss. (Dirasāt islāmiya masīhiya).
- JA* = *Journal Asiatique*, Paris, 1822, ss.
- JAOS* = *Journal of the American Oriental Society*, Yale, 1843, ss.
- JESHO* = *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Leiden, 1958, ss.
- Journal of the Syriac Academy*, v. Mağallat.
- JRAS* = *Journal of The Royal Asiatic Society*, Londres, 1834, ss.
- Lumière et Vie*, Lyon, 1951, ss.
- MIDEO* = *Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales*, Le Caire, 1954, ss.
- MIE* = *Mémoires de l'Institut d'Egypte*, Le Caire, 1919, ss.
- Muséon* (Le --), Louvain, 1881, ss.
- MUSJ* = *Mélanges de l'Université Saint Joseph* (ex *Mélanges de la Faculté Orientale*), Beyrouth, 1906, ss.
- Muslim World* (The --), Hartford, 1911, ss.
- Nouvelle Revue du Caire*, 1975, ss.
- Nouvelle Revue Théologique*, Louvain, 1869, ss.
- OC* = *Oriens Christianus*, Rome-Leipzig, 1901, ss.
- OCA* = *Orientalia Christiana Analecta*, Rome, 1935, ss.
- OCP* = *Orientalia Christiana Periodica*, Rome, 1935, ss.
- Oriens*, Leiden, 1948, ss.
- Orientalia Suecana*, Uppsala, 1952, ss.
- OS* = *Orient Syrien* (L'--), Paris, 1956-1967.
- PIFD* = *Publications de l'Institut Français de Damas*, 1933, ss.
- PO* = *Patrologia Orientalis*, Paris, 1903, ss.
- POC* = *Proche Orient Chrétien*, Jérusalem, 1951, ss.
- Revue des Etudes Arméniennes*, Paris, 1920-1932, 1964, ss.
- REI* = *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1927, ss.
- Revue des Etudes Juives*, Paris, 1880, ss.
- Revue d'Histoire des Religions*, Paris, 1880, ss.
- Revue du Monde Musulman*, Paris, 1906-1926 (puis: *REI*).
- ROC* = *Revue de l'Orient Chrétien*, Paris, 1896-1946.
- RSO* = *Rivista degli Studi Orientali*, Rome, 1922, ss.
- Studia Islamica*, Paris, 1954, ss.
- SOC* = *Studia Orientalia [Christianæ]*, Le Caire, 1958, ss. (Id. Collectanea).
- Table Ronde* (La --), Paris, 1948, ss.
- Travaux et Mémoires*, Paris, 1965, ss.
- ZA* = *Zeitschrift für Assyriologie*, Leipzig-Berlin, 1886, ss.
- ZDMG* = *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, Leipzig, 1846, ss.



## مقدمة المترجم

ربما كان من العصي أن تجمع الواقع التاريخية كلها حول موضوع معين، والأمانة العلمية تقضي، مع ذلك، جمع أقصى ما هو متاح منها. والمؤرخ أمام هذا الحشد العظيم من الواقع لا يملك إلا أن يستقرئ بعض الأحكام، كما أنه معروض مشكلة صعبة هي: كيف يتจำกب، قدر الوسع والطاقة، الحكم المنحاز الذي يصدر تارةً عن هو المؤرخ (سواء أكان شخصياً أو محكوماً بطبعته لطائفة اجتماعية) وطوراً عن مسلمات ميتافيزيقية لا تقع تحت التجربة والبرهان. وتشاء الأقدار أن يكون أبسط هذه الأحكام أفترها بيئنة، وأكثرها تعميماً، وأبعدها عن احتواء العدد الأكبر من الواقع الجزئية بنظر الاعتبار.

لا يقبل الأب فيه بالنظرية الميتافيزيقية إلى العلاقة بين النصارى وبين دولة المسلمين في الشرق. لأنّه لا يرى لهؤلاء ولا لهذه صفات «الكل» المتجانس، أو الكيان الميتافيزيقي ذي الصفات الجوهرية التي لا مدخل للصيورة فيها. بل إن نظرته المركزة على الجزئيات تفرغ تاريخ العلاقة من مضمونه الأسطوري: موقف دولة المسلمين من النصارى ليس نابعاً من ماهيتها الخارجية عن الزمن، ولكنّه نابع من تاريخ هذه الدولة وظروف تشكّلها وملابساته، فضلاً عن الظروف الخارجية. ففي الممارسة الفعلية للسلطة مجال للتناقض والسهوا والخطأ والحسابات الشخصية، والكثير من قرارات ولاة الأمور تصدر عن مثل هذا.

لذلك يستنبط المؤلف الواقع الجزئية على هدي التغيرات التاريخية والظروف المحلية ويحرص على وضع شهادات المؤرخين المسلمين إلى جانب غيرها من شهادات

المؤرخين النصارى لتقدير ما كان يجري، فيخلص إلى أن الموقف من النصارى كان محفوظاً بآحاديث الزمان والمكان، وأن هبات «الاضطهاد»، إذا صح أن تُسمى كذلك، كانت على قلتها متفرقة لا شاملة، ناشئة عن احتكاكات فردية لا عن سياسة منظمة مقصودة.

ولئن جاز لنا أن نستخلص العبرة من امتحان الأب فيه الحكم بالموى (على علاقة النصارى بال المسلمين) أمام التاريخ، قلنا: إن هذا الحكم قار لا يعبر عن توجهات التاريخ، إنه مسخ هائل تعجز أصابعه الضخمة عن الإمساك بجزئيات التاريخ لتأملها.

والكتاب، بعد هذا، جزء من ثلاثة تتناول أحوال النصارى السريان في ظلّ الساستين فالعباسيين والمغول. وكان المؤلف الذي نزل بالموصى في العام ١٩٣٩، ولم يزل مقيماً في المشرق منذئذٍ، قد مهدَّ لهذه الثلاثية بأربعة مجلدات تستقصي كلَّ ما يُعرف عن الديارات والكنائس والمواضع النصرانية بالعراق، ومقالات عديدة عن نصارى إيران القديمة، جمعت في مجلد نُشر بلندن، وكتابات أخرى عن مؤلفات وشخصيات وأحداث مهمة في تاريخ السريان.

وقد تطلبت مُتَّى ترجمة هذا الكتاب التحقق من اقتباساته العربية، فوفقتُ عليها واحدة واحدة وضبطتها على أصوتها، ثمْ قرأتُ الترجمة على المؤلف في جلسات مطولة لا تُنسى، كان من ثمارها مزيد من التدقيق في بعض المصادر، وتصحيح بعض المعلومات على هدى الدراسات التي استجذرت منذ صدور الأصل الفرنسي سنة ١٩٨٠. ونظرًا إلى اشتغال النص على أسماء مواضع ومفردات وعبارات غير مألوفة، ألحقت بالكتاب ملحقاً ألمبياً في التعريف بها.

## المقدمة

لقد كُتبت عدّة تواريخ للكنائس السريانية في ظل العباسين، وقد وُصفت فيها حياة الكنائس الداخلية وتنظيمها وإشعاعها الروحي والفكري والرسالي بكثير من الاقتدار.<sup>(١)</sup> على أن أعمال البحاثة المشرقيّن لم تحظ بنصيب مماثل من الشهرة: فقد أثمرت أعمال المأسوف عليه رفائيل بابو إسحق البغدادي والعلامة حبيب الزيات ثماراً جّمة، ولا سيّما بفضل معرفة الأخير الواسعة بجموعات المخطوطات.<sup>(٢)</sup>

وقد نشرت<sup>(٣)</sup> أنا، خصوصاً منذ ١٩٥٩، كلّ ما وجدته سواء في المصادر المكتوبة أو في أرض المشرق عن الأبرشيّات والأماكن والأديرة والقوائم الأسقفيّة والسنكسارات، إلخ. كان لا بدّ من إحصاء تلك الأماكن كلّها والثبت منها وتحديد موقعها، كما لم يكن بدّ من إحصاء أولئك الأشخاص المذكورين في حياة الكنائس والثبت من أسمائهم ونسبتهم إلى بلدانهم. وقد تمّ هذا العمل التمهيدي استناداً إلى المصادر المسيحيّة السريانية والعربيّة بشكل أساسي.

بيد أنّ المصادر المسيحيّة السريانية الأصل لا تكفي. فقد عاش السريان مع جماعات مسيحيّة أخرى كالآرمن والأقباط والملكيّين بين ظهراي شعوب إسلامية كالفرس والترك والعرب خصوصاً. وإنّ أخبار البطاركة التي جمعها كلّ من ماري وصلبيا للمشارقة من السريان، وتواريخ ديونيسيوس التلمحري وميخائيل السرياني وابن العربي والرهاوي المجهول، إلخ، للمغاربة من السريان، تذكر ذكرًا عابراً (وفي أغلب الأحيان مشوّهاً) أسماء أصناف شتّى من الشخصيات: نصارى علمانيّين من

أطباء وكتاب، أو حُكَّام غير نصارى من وزراء وأمراء وسلاطين وخلفاء ومن شاكلهم. فمن أجل التحقق من هؤلاء، وفهم علاقتهم في ما بينهم وبالتالي، كان لا بدّ من الالتفات إلى المصادر الإسلامية، والعربية منها بخاصة.

في رأس هذه المصادر، كما لا يخفى، يأتي القرآن الكريم،<sup>(٤)</sup> إمام المسلمين في سلوكهم.

فقد حدد الوحي الذي أوحى إلى النبي محمد، ودون في المصحف، الوضع القانوني لأهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية، حتى من قبل الفتح الذي ضمّ إلى دار الإسلام جماعات من أهل الكتاب، النصارى بخاصة، ممن كانوا رعايا في الأمبراطورية الساسانية الفارسية: عرب وبط (آراميون)، والأمبراطورية البيزنطية (روم). هذا الوضع هو وضع المعاهدين.

فقد سُمح لهؤلاء الناس الذين لم يدخلوا في الدين الجديد بأن يستمرّوا في الإقامة بدار المسلمين.<sup>(٥)</sup> كانوا يتمتعون بحماية (ذمة) المسلمين وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية،<sup>(٦)</sup> على شرط أن يخضعوا لشريائع الإسلام ويؤدوا الجزية. ولذلك سموا بأهل الذمة أو بالذميين.

ومع سير الفتوحات تغيّرت شروط تطبيق هذا المبدأ بحسب «العقود» التي كانت تكتب للبلدان المفتوحة صلحًا، بيد أن النصوص القرآنية الأساسية بقيت هي نفسها.

ثمة آياتان من بين الآيات المتعلقة بالنصارى واليهود، هما الأكثر ذكرًا. الأولى هي الآية ٢٩ من سورة التوبة<sup>(٧)</sup> وتحتضم بالجزية، الفريضة الموروثة من القانون الساسي<sup>(٨)</sup> والطبيعة تماًنًا في ذلك الوقت وفي ظروف الفتاح. لذلك لم تكن فريضة الجزية المنصوص عليها في القسم الأول من الآية موضعأخذ ورد، بل لم تزل مقبولة من حيث المبدأ. وهذه هي الآية: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الدين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية».

حقًا كان مبلغ هذه الجزية عرضة لتخمينات تتراوح في الشدة<sup>(٩)</sup>، ولكن بقية

الأية كانت مداعاة لتفسيرات متساهلة أحياناً وصارمة أحياناً أخرى. أما هذه البقية فهي: «... عن يد وهم صاغرون». وقد حل بعض المشددين هذه العبارة على المعنى الحرفي وذهبوا إلى اعتبارها توجّب إذلال الذميين، فمن ذلك ما تعرّضوا له أحياناً من مضائقات يرقى مثالها الأول إلى الوثائق المتأخرة المعروفة بالشروط العمرية، التي سرّاها في حينها.

أما الآية الثانية، التي فسرت أحياناً تفسيراً مشدداً، فتقول: «يا أيها الذين آمنوا لا تَخْذُلوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم» (المائدة: ٥١). ولسوف يستشهد بهذه الآية كلّ الذين يريدون إقصاء المسيحيين عن خدمة المسلمين ولا سيّما في الوظائف الرسمية.<sup>(١٠)</sup>

على هذه القاعدة القرآنية حددت المذاهب الفقهية، في كتب الفقه، سبل السلوك النظرية التي لم تحظّ دائمًا بالتطبيق والتي تتجاوز دراستها نطاق بحثنا. وقد قام بهذا الأمر خير قيام A.S. Tritton وأنطوان فتّال والمطران إدلبي.

وليس من غرضنا أيضًا أن ندرس العلاقات بين النصارى والمسلمين في ظلّ الأمورين.<sup>(١١)</sup> لم يكن خليفة دمشق صلة بالكنيسة السريانية الشرقية إلا من خلال ولادة العراق. وقد ترك تعريب الدواوين معظم الكتاب النصارى في مراكزهم بيد أنّ أولى الإجراءات التمييزية ربما بدأت في ظلّ أواخر الأمورين. يعتقد ابن قيم الجوزية في كتابه أحكام أهل الذمة فصلاً يجمع فيه تحت باب «المنع من استعمال اليهود والنصارى (في) شيء من ولايات المسلمين وأمورهم»<sup>(١٢)</sup> أهم الوثائق السابقة على عصره (القرن ١٤) فيجعل أوائل هذه الإجراءات في خلافة عمر بن عبد العزيز (أي بعد ٧١٧)،<sup>(١٣)</sup> مع أنّ الوثائق التي تُنسب إلى هذا الخليفة، من بين رسائل «شروط» ربما كانت ترقى إلى زمن متأخر جدًا عن زمانه، كما سنرى ذلك في موضعه.<sup>(١٤)</sup> وهذا يلفت انتباها إلى نقطة منهجية أولى. على الرغم من كراهة التاريخ المعاصر لتغليب توزيع الأحداث توزيعاً زمنياً متسلسلاً فإنّ دراستنا ستلتزم دائمًا بتاريخ الواقع تارياًًاً دقيقاً.<sup>(١٥)</sup> من ذلك أنّ موقفنا نجده في القرن ١٣ ربما اختلف اختلافاً بيّناً عن موقف نجده في صدر الإسلام. ولئن اقتصرنا على موضوع الجزية فليس بوسعنا أن نستخلص مبادئ عامة من سلوك ابن فضلان

الصارم، لا سيما إذا تذكّرنا توصيات فقيه آخر معاصر للرشيد، هو أبو يوسف يعقوب، إذ يقول: «ولا يُضرب أحد من أهل الذمة في استيادائهم الجزية، ولا يُقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ولكن يُرق بهم، وينجسون حتى يؤذوا ما عليهم ولا ينحرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية». <sup>(١٦)</sup> ويقول: «قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم». <sup>(١٧)</sup>

إلى جانب العامل الزمني الذي يجب أن يظل ماثلاً في الذهن، لا بد أيضاً من تجنب عدة مغالط. من ذلك أنه ينبغي التحرّز الشديد من التعيم عند استعمال لفظيتي «المسلمون» و«النصارى» حتى في داخل حبة واحدة محدودة كخلافة «بني العباس» مثلاً.

فنحن، إذ نتكلّم عن النصارى المشرقيّين، لسنا أمام جماعة واحدة ولا أمام موقف موحد في داخل الجماعات الفرعية: المشارقة من السريان (النساطرة)، المغاربة من السريان (اليعاقبة) أو الروم الملكيون، كما أننا إذ نقف أمام الإسلام لا نجد جماعة قدّمت من قطعة واحدة. وكما يقول بحقّ محمد أركون <sup>(١٨)</sup>: «إنّ ما نسميه الإسلام السنيّ يمثل واقعاً اجتماعياً ثقافياً ودينياً فرض نفسه في وقت متاخر، وخصوصاً منذ القرن الرابع للهجرة. معنى هذا أنّ التنافس كان حتى ذلك الحين حادّاً بين أشكال اجتماعية ثقافية لم تزل تتنازع إدارة المدينة. إنّ صروف الصراعات الشيعية السنّية تعبر، في الواقع، عن توازنات وإعادة توازنات مجتمع يعاني أزمة مستديمة: أزمة نموّ حتى وفاة المؤمنون (٢١٨ هـ). ثمّ أزمة وهن عضويّ يصيب سلطة عاجزة عن حمو الإشكال الأصليّ القائم في جوهر دولة المسلمين محوا دائمًا. فإنّ هذه الدولة، التي يفترض فيها أن تكون «شيفراتية عدالية»، من حيث المبدأ، لم تستطع أبداً أن تيسّر بالفعل، وفي منظور الأمة الحاضر صوريّاً، اندماج الجماعات والطبقات والشعوب المتباينة جدّاً والتي كانت تقوم، كدولة، بأمر حكمها وتدبيرها».

من ذلك أننا عندما نقرأ المصادر الأصلية أو نقرأ دراسات كلود كاهن، <sup>(١٩)</sup> فاروق عمر، ماريوس كانار، جورج لوكونت، هنري لاوست، جورج مقدسي،

شارل بلا، دومينيك سورديل، إلخ. ، عن هذه الشخصية المهمة أو تلك المرحلة المتميزة من التاريخ، سرعان ما يتبيّن لنا أن التقلبات التي يفید منها النصارى أو يذهبون ضحاياها (حتى من قبل أن يحدّد «وضعهم» كأقلية) ما هي إلا أصوات هامشية مصدرها التيارات الكبرى وأحياناً الدوامات العنيفة التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية نفسها. وهذا ما يفسّر كون مواقف المذاهب الفقهية المختلفة من النصارى بعيدة، حتى نظرياً، عن الإجماع.

لذلك كان لزاماً علينا، ومن منظورنا الضيق، البقاء على أقرب مسافة ممكنة من النصوص لتحديد زمن وظروف هذا الحادث أو ذاك، هذا القرار أو ذاك. وإن ما يلفت النظر هو، كما سبق لتربيتون أن أشار، «أنَّ المؤرِّخين المسلمين (باستثناء القريري، إذن مصر) لم يصرفوا اهتمامهم إلا نادراً إلى التاريخ للأقليات، ومنها النصارى».<sup>(٢٠)</sup>

وهذا يصحّ، من باب أولى، على كتب الأدب التي يغلب عليها التكُلُّف إلى حد يلجهنا إلى التردد في الاعتراف منها مع خوفنا من إغفال بعض المعلومات النفسية إذا أهملناها.

إنَّ المؤرِّخ إذ يقف أمام المؤلَّفين المسلمين الذين «تشاً معظمه إشاراتهم إلى الذئَّين من بعض الاضطرابات التي تقع بين هؤلاء وبين جيرائهم المسلمين»، وينظر إلى المؤلَّفين المسيحيين الذين «اعتادوا الإطناب في ذكر مساوىَ المسلمين» معرَّض لأنَّ يوحى<sup>(٢١)</sup> بأنه إنما أراد تقديم «عرض لأعمال القمع والاضطهاد تتخلله فترات أبهى». <sup>(٢٢)</sup>

فمن أجل تحاشي هذا الخطأ و«استعادة المنظور الصحيح» لا بد من «توزيع الأحداث على إمبراطورية واسعة»<sup>(٢٣)</sup> وعلى مدة زمنية متطاولة. هذا ما حاولناه متبعين الحركة التاريخية العامة. ولا بد أيضًا من أن ننسب هذه الأحداث إلى الذهنية العامة السائدة في ذلك الزمن، وإن كان هذا لا يغيّر شيئاً في الأحداث، كأن «نتخيل، مثلاً، نوع المعاملة التي قد يلقاها في البلاد المسيحية المعاصرة أناس يدينون بغير الديانة السائدة» أو حتى في حقبة أحدث، «الظروف المفروضة على

الكاثوليكي في إنجلترا الشهالية...» هذا صحيح، ولذلك سأحمل نفسي، ما استطعت، بعد تأمل الـ «كيف» على حزر الـ «لماذا»، حزر الذهنية المحيقة بالحدث. فمن اليسير، في معالجة موضوع كالذى تتناوله، اتهام الكاتب بالانحياز، أو قل بالتعصب، ربما لا شيء إلا لأنّه يحرك أحياناً «ذكريات مؤلمة» كان من الأجدى (كما يقال) أن يطويها النسيان. لذلك أقول للقارئ إنّه ربما كان أجدر به ألا يتوعّل أكثر في قراءة هذه الدراسة إذا لم يكن مستعداً لأن يحسن الظنّ بـ.

ثمة مصدر آخر للصعوبات في عمل كهذا، ألا وهو خطة الكتاب: كيف ينظم عرض بحيث يكون عاماً ومفصلاً في الوقت نفسه، كما تمنّى كلود كاهن؟

بالنسبة إلى العصر العباسي أمّانا ستة وثلاثون بطريركياً سريانياً شرقياً لا يقابلون إلا في العدد سبعة وثلاثين خليفة لأنّ ولايات الفريقين تتراكب. وسرعان ما يتبيّن لنا صعوبة تفضيل أحد التصنّيفيْن على الآخر: التصنّيف بحسب البطاركة أو بحسب الخلفاء. والحقّ أننا قد أخذنا الاثنين في نظر الاعتبار وإن كنا أميل إلى إيلاء أهمية أكبر للبيئة المسلمة التي عاش النصارى في أكتافها. ولما كنا قد اعتمدنا الخلفاء السبعة والثلاثين رؤوْساً للأقسام فقد أظهرنا، بإخراج طباعيٍّ مناسب، تواли البطاركة الستة والثلاثين ضمن الأقسام التي يدرجون تحتها. لم يغب عن بالي أنّ الأولوية التي اختصّنا بها الخلفاء قد يوجد ما يسّوغها بالنسبة إلى أوائل دولة بني العباس، أي عندما كان الخلفاء هم الشخصيّات البارزة (وإن كان لبعض وزرائهم دور مهمٌ)، وأنّه لا يوجد حتّى ما يسّوغها في العصور المتأخرة من تلك الدولة كالقرن الشيعي في ظلّ البوهيم أو التصلّب الدينيِّ زمن السلاجقة.<sup>(٢٤)</sup> إنّ هذه التقييمات الكلاسيكيّة نفسها لا تنطبق على موضوعنا، إذ إنّه من المحال أن نعمّم فنقول مثلاً إنّ « موقف» البوهيمين<sup>(٢٥)</sup> من النصارى كان بهذا بينما كان « موقف» السلاجقة كذلك... .

إنّ الأمر ليكتسي صعوبة بالغة بالنسبة إلى الأواخر، لأنّ السلطة الحقيقية من وجهة النظر التي تعنينا، أي من حيث العلاقة بالنصارى، كانت في أغلب الأحيان بيد العامة الذين يحرّكهم القصاصون أو معلّمو المدارس (أمثال ابن فضلان)

الذين كان قرارهم يغلب على قرار أولئك الذين كانوا يمسكون اسمياً بزمام السلطة. ذلك لأن الحكام لم تكن لهم آلية رغبة في إرباك سلطتهم المتهافة بمناصرة جماعة متناقصة الأهمية، وإن لم يكن في وسعنا أن نحدد التاريخ الدقيق الذي بدأ فيه هذا التغيير يرتسّم أو يزداد حدة.

والحق أنه مع كثرة السنين تضاعف عدد الذين دخلوا الإسلام من أهل الذمة ولم يعد من هم السلطة الالتفات إلى هذه الأقليات المتناقصة. وقد توصل إلى حل توفيقي ارتضى معه الذميين التفوق في وضع مواطنين من الدرجة الثانية على ما في هذا الوضع من الذلة.<sup>(٢٦)</sup>

وإني مقرّ بعد هذا بالعجز عن إيجاد «حبكة واحدة» تنتظم هذا العمل، وإن عرضني ذلك إلى تهمة كتابة تاريخ «أخباري»، لأن «البني» التي يجب علينا تحليلها هنا هي بني ذهنية أكثر مما هي بني مادية: عندما تضيع ساقية في الرمل هل نستطيع أن نعرف متى بدأت تغور ومتى انتهت؟

ربما كان على المؤرخ هنا أن يستحيل عالماً في الاجتماع<sup>(٢٧)</sup> لكي يحاول الكشف عن العوامل الخفية، غالباً، التي تسود العلاقات المتحركة بين أهل الذمة وممثل الأمة الإسلامية في ذلك الزمن. نظراً إلى استحالة عمل ذلك في الكل (لأن كلّ تعليم، حتى في نطاق فترة زمنية قصيرة سيكون خاطئاً) سنقتصر على القيام بذلك في بعض الحالات المحددة التي غلّق فيها عناصر الحكم. أمّا في معظم الأحيان فستضطر إلى سرد الواقع، من دون محاولة تأويلها.

## الحواشي

(١) انظر في ثبت المصادر والمراجع: HAGE, KAWERAU, TISSERANT إلخ. وعن تواريخ الأدب السرياني أو العربي المسيحي انظر: GRAF, CHABOT, ORTIZ DE URBINA, BAUMSTARK، برصوم، أبونا، إلخ.

(٢) وقد سبقت هذه الدراسة محاولة SHEDD الذي لم يكدد يستند إلاً على المصادر المسيحية. وإن ملحوظاته لتمثل تجربة أولى في سبيل تصنيف الأحداث البارزة في أبواب تجمعها. وهو يضيف أيضاً رواية قصيرة للشروط العمرية (p. 235-238). وكذلك رسالة ماجستير في الجامعة

- (الأميركية بيروت ١٩٤٢) بقلم عبد العزيز علوان تحت إشراف الأستاذ قسطنطين زريق. (لم أطلع عليها).
- (٣) تحاول الدراسة الحاضرة أن تسد الفراغ الواقع بين حقبة الفرتين والساستين والتي كتبت عنها في (Jalons pour une histoire de l'Eglise en Iraq(CSCO vol. 310, Subsidia, 36, 1970) وحقبة المغول التي أعلجها في Chrétiens Syriaques sous les Mongols (CSCO vol. 362, Sub-sidia 44, 1975).
- (٤) ياسف الطيباوي، ص (٣٠)، لكون معظم المستشرقين، إن لم نقل كلهم «لا يدرسوون القرآن، وسيرة الرسول ويدايات تاريخ الإسلام على الأقل، آخذين وجهة النظر الإسلامية بعين الاعتبار الجادة». وهو يرى أن عليهم أن يتذكروا دائمًا أن «الإنسان، في الفكر الإسلامي، خاضع للتوجيه الإلهي كما نصّ عليه القرآن، ورسخته ستة الرسول وخلفائه الراشدين التي استلهمت هذا التوجيه». وما فتوحات الإسلام، ومنها علاقاته بالشعوب المغلوبة، إلا «تفيد للأمر الإلهي» (وتدرج وبالتالي في تدبر لا يتغير)، كما أن «بعثة محمد تتوجه إلى الإنسانية جماء» (وهذا التدبر يحكم الجميع إذا). لذلك فإن «خط الإدارة» المستمد من هذين المبدأين قد أقر وأبرم ولا يجوز له أن يتغير بتغير الأمة والأزمان.
- (٥) النwoي، منهاج، ج ٣، ص ص ٢٧٥ - ٢٩٢.
- (٦) يرد الطيباوي على قول بعض المستشرقين إن الرابط بين الجزية والإعفاء قد يكون «تفسيرًا متأخرًا». وهو يشير (بعد ٦٢-٢١ ARNOLD, The Preaching of Islam, p. ٢١-٦٢) إلى عدة حالات أُعفي فيها بعض النصارى العرب من الجزية لدى فتاوئهم إلى جانب المسلمين. ويقول الطيباوي إن الجزية اكتسبت منذ خلافة عمر بن الخطاب دلالة «قومية» وعسكرية بعد أن كانت لها دلالة دينية في زمن الرسول.
- (٧) يذهب BEN SHEMESH في مقدمة الجزء الثالث، ص ص ٢٠ - ٢١ إلى أن الجزية المنصوص عليها في هذه الآية لم تكن إلا «ضريبة عقربية جماعية» تعد علامة على الخضوع والتحيز وتصاحبها علامات الإذلال الخارجية. ويرى أن الفقهاء لم يقارنوها بالجزية الإيرانية والبيزنطية السابقتين على الإسلام إلا لاحقًا؟).
- (٨) DENNETT, P. 42، وقد اعتبرها الفرس من قبل علامة على الدوينية يذهب Abu Abdallah al-Hwarizmi on the Technical Terms of the Secretary's BOSWORTH في JESHO, 12 (1969), p. 131-132 إلى أن اللفظ نفسه آرامي أكثر مما هو فارسي، فهو يظهر في صورة جزيت / جزيت في الإدارة الساسانية المتأثرة جداً بالأرامية.
- (٩) أنظر مقالة CL. CAHEN Djizya في E.I<sup>2</sup>, II, p. 573-576 والتوييري، نهاية الأربع، ج ٨، ص ٢٣٧، قاسم ص ٢٨.
- (١٠) تستند كلمات الأنسري إلى القرآن والحديث وأخبار الخلفاء. لا يشك هذا المفسر المصري من القرن الرابع عشر في كون الشروط المفروضة على الذميين أمرًا «اجتمع عليها حكماء».

الشرع المطهر أعزه الله، ورؤوس أمراء المسلمين... فصار ذلك أمراً مكتوماً به لا تجوز مخالفته ولا يحل نقضه». الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة، ص. ٥.

(١١) هذا موضوع كتاب DENNETT عن العلاقات بين اعتناق الإسلام والجزية في أوائل الإسلام حيث يدرس السواد والشام والجزية (الرها) ومصر وخراسان. أنظر أيضاً الطبياوي، المرجع المذكور، JESHO, AI-DURI, Notes on Taxation in Early Islam, XVII, (1974), p. 136-144. لا بد من أن يُدرس يوماً بدقة موقف عمر بن الخطاب من النصارى. فاللتطّرون من القرون المتأخرة ينسون إليه ألواناً من الأقوال، هل هذه الأقوال صحيحة؟ منها قوله: «لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا» مذكور في مقالة A. Fetwa, Gottheil (المتوفى سنة ١١٢٦) والأيشيبي (المتوفى ١٤٤٦)، نصيف إلى ذلك الأسنوي (المتوفى ١٣٧٠) ص. ٨. إن دراسة كهذه قد تدل على أننا كلما ابتعدنا عن عصر عمر وجدنا الأقوال النسوية إليه أشدّ قسوة. وإن هذه الأقوال لتناقض، على أية حال، ما ينسبه إلى عمر ذلك الحنفي المتقدم، أبو يوسف يعقوب (المتوفى ٧٩٨) من قوله قبيل موته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله (ص) أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم» ص ١٢٥ . - حتى عمر بن عبد العزيز كان يقول «إن الذين كانوا قبلى كانوا يُكلّفون أهل الذمة فوق طاقتهم». كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ١٣٢ . - وقد ورد هذا الموضوع في مؤتمر عُقد بعمان حول «بلاد الشام في العهد الأموي» بين الرابع والعشرين والتاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٨٧.

(١٢) ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٣٨ .

(١٣) W.W. BARTHOLD, Caliph Umar II and the Conflicting Reports on his Personality , in Islamic Quarterly, XV, p.69-95.

(١٤) ينبغي مقارنة هذا بكتب الفقه وبخاصة كتاب الأحكام لابن قيم الجوزية.

(١٥) يتبّه كلود كاهن، في نقده F. LOEKKEGARD, Islamic Taxation, dans Arabica (المرجع المذكور آنفًا، ص ٣٥٣ ، إلى اللامبالاة بالموقع والتاريخ، وإلى خطر رسم صورة جامدة وتركيب صورة متوسطة (ومتناقضة) انطلاقاً من معطيات تتوالى في الحقيقة. ويرى P. RONDOT في المرجع المذكور ص ١٣٢ ، أن موقف المسلمين من النصارى لم يكن قطّ «تنفيذًا منهجاً مطروحاً لمحظط دقيق ومتاحك» بل تناوياً مزاجياً بين تدابير وذلة وتدابير قاسية. وهو يصف هذه «السياسة» بأنها متقطعة وأحياناً متناضضة.

(١٦) ص ١٢٣ .

(١٧) ص ١٢٤ - ١٢٥ . يروي المؤلف في هذا الشأن عن الرسول قوله: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه». وقد استعمل الإمام الأوزاعي هذا الحديث عينه في توبیخ

صالح بن علي حاكم لبنان الذي نكل بالقبائل المغلوبة، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مصر ١٩٣٢، ص ١٦٨.

(١٨) Miskawayh, p.161.

(١٩) في E.I<sup>2</sup>. Dhimma.

(٢٠) المرجع المذكور، ص ١٥٠.

(٢١) هذا ما يأخذ المطران أدلي على حبيب زيات، سمات النصارى واليهود في الإسلام في مقالة MARMADUKE PICKTHALL, P.O.C. II (1952), p.192-193

في مجلة Islamic Culture, IV (1930), p.474-477 (The Caliphs)

(٢٢) «نصارى لبنان، في منطقة الشرق الأدنى» عبارة في عرف دكتور في علم الاجتماع، (Informations Catholiques Internationales, N 532, p.32) «مرادفة لـ : مضطهدين خلال خمسة عشر (كذا!) قرناً» - أما R.B. BETTS في المرجع المذكور ص ٧ - ١٩ فيقدم على تسمية الفترة الممتدّة «من الفتح العربي حتى حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ - ١٣٣) : The Dark Millenium» (ألف سنة من الظلام) ...

(٢٣) مع التذكير بأنّنا لا نملك معلومات كافية عنّا كان يجري في الولايات عدة.

(٢٤) قد نجمع الخلافات في أعرق كبرى كما فعل لاوست مثلاً في Les Schismes dans l'Islam ولكن هل أدى الانتقال من عصر إلى عصر إلى تغيير الموقف من المسيحيين؟

(٢٥) كما لو كان للبوهجهن كلّهم، أو السلاجقة كلّهم موقف واحد!

(٢٦) يقول كلود كاهن في ص ٢٣٦ من Dhimma المذكور أنّا إنّا يجب التشديد على أنّ وضع الذميين كان يتحوّل تدريجياً بسبب تحوّلهم في كلّ مكان من وضع الأكثريّة إلى وضع الأقلّية، ولكن كيف وصلت الأمور إلى هنا؟ ولكن ظهر، على وجه الإجمال، تصلب ضدّ الذميين في بلاد الإسلام ابتداءً من القرون الثلاثة أو الأربع الأخيرة من العصر الوسيط، وكان للنسبة العددية الجديدة ضلع مادياً ومعنىًّا في ظهور هذا التصّلب، فكيف نفسّر هذه «النسبة الجديدة»؟ وما المقصود «بالعوامل الاجتماعية أصلًا التي أدت حيناً إلى انكفاء الجماعات غير المسلمة وأحياناً إلى اضمحلالها التام»؟

(٢٧) الفصل الأخير من كتاب بول فين (Seuil, 1971) عن Comment on écrit l'Histoire المعنى: «التاريخ، علم الاجتماع، التاريخ الكامل» يدعوني إلى كثير من القلق. ولكن ربما كنت، لما پنطوري عليه موضوع بحثي من تلاوين الأهواء، أدرى من أن أجازف باستخلاص نتائج قد تبدو للبعض منحازة ولكنها تبدو لي مفتقرة إلى الإرهاق، بل قاصرة عن احترام الآخر.

---

## ١ - السفّاح (١٣٢ - ٧٤٩ / ١٣٦ - ٧٥٤)

---

I     كان الجاثليق آبا الثاني<sup>(١)</sup> يدبر، منذ ٧٤١، الكنيسة السريانية الشرقية التي كان يطلق عليها اسم «كنيسة بلاد فارس» لما استولى أبو العباس عبدالله الملقب بالسفّاح<sup>(٢)</sup> على إيران كلّها وسار على الكوفة ثمّ انتصر في معركة الزاب سنة ٧٥٠ على آخر خلفاء بني أميّة، مروان (الحار)، الذي مضى إلى مصر حيث قضى آخر أيامه.

كان هذا التغيير في النظام موافقاً جدًا للمجاثليق وقومه.<sup>(٣)</sup> فقد كان أهل العراق<sup>(٤)</sup> والنصارى من أهل الذمة بخاصة، يذكرون أعمال التفرقة المهينة التي دبرها بعض ولاة الأمويين من أمثال الحجاج بن يوسف (٧٥ - ٦٩٤ / ٩٥ - ٧١٤) وقاريه يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ - ٧٣٨ / ١٢٦ - ٧٤٣).

منذ الفتح الإسلامي، كانت المدائن<sup>(٥)</sup>، عواصم فارس القديمة ومقرّ كرسى الجاثلقة، قد بدأت تفقد من أهميتها. حتى من قبل ولاية آبا الثاني، كانت أبواب مدينة برسير (التي كانت تضم كنيسة كونхи، كرسى مار ماري) قد نقلت إلى الكوفة، وكان البطريرك ايشع يهب الثالث قد غادر البلدة إلى كركا دبيت سلوخ،<sup>(٦)</sup> أي كركوك الحالية. وقد ترك آبا الثاني أيضًا المدائن الملكية، في السنة السادسة لولايته، عندما اصطدم بـكائد سكانها النصارى والتمرد الذي أعلنه طلائب المدرسة البطريركية هناك.<sup>(٧)</sup> وبعد أن عين عليها وكيلين انتقل أول الأمر إلى موطنهم كسرى حيث أقام في دير واسط.<sup>(٨)</sup> ومن ثم نجده في الكوفة، ثم في الحيرة، ثم في

كسكر مرة أخرى، وأخيراً عاد إلى المدائن حيث توفى. يروى أن آبا الثاني مات عن مئة وعشر سنين، في السنة الثانية لخلافة السفاح. وربما التقى الرجلان بالكوفة؟ على أية حال، إنَّ السن العالية التي بلغها البطريرك، فضلاً عن هموم السفاح، تجعلنا نستبعد انشغال الخليفة الجديد كثيراً بأمور النصارى.

كان هذا الأخير يبحث عن مركز يقيم فيه إدارته. وقد استقرَّ أولاً في الكوفة، حيث مكث ستين وتسعة أشهر، ثم ارتحل وحلَّ على مقربة من الأنبار<sup>(٩)</sup> حيث شرع في الثالث من حزيران سنة ٧٥٢، في بناء قصر ومدينة هي مدينة الهاشمية<sup>(١٠)</sup> وهناك مات، وبها كان قبره.

لقد ركَّز المؤرخون في ما بعد على أهمية بناء المنصور مدينة بغداد عاصمة نهائية للخلافة العباسية (باستثناء خمسين سنة في سامراء). والحقيقة أنَّ العباسيين كانوا قد مالوا إلى الخيار «الشرقي» منذ أن استقرَّ السفاح على الفرات الأوسط. ربما كان السبب الحقيقي الرغبة في الابتعاد عن ناحية غالب عليها طابع الأمويين المكرهين؟ ولكن هذا ربما دلَّ على خروج الخلافة في الوقت نفسه من فلك بيزنطية، الذي كانت دمشق من موقعه المتقدمة الباهرة، ودخول هذه الخلافة في فلك فارس، ومعلوم أنَّ سلالة بني العباس قد انطلقت من خراسان. وقد تعزَّز هذا التوجه الشرقي بعد ذلك بعشرة أعوام، عندما أنشأ المنصور مدينة السلام دافعاً عاصمتها نحو إيران، ناقلاً إياها من وادي الفرات إلى وادي دجلة.

### جاثليقان متنازعان...

بعد وفاة آبا الثاني، ظلَّ كرسى الجائقة شاغراً مدة ستين، بسبب الخلافات على من يخلفه. عندئذ، وفي السنة الثالثة لخلافة السفاح (في العام ٧٥٢، إذن؟) «استشهد»<sup>(؟)</sup> الطبيب النصراوي إسرائيل<sup>(١١)</sup> ولا نعرف شيئاً عن ظروف موته. ولقد شهد أول النزاع على خلافة الجاثليق الميت محاولات الاستعانت بالقوة الزمنية كسابق عصرها في النزاع على هذا المنصب أيام الساسانيين. في البداية جرت الأمور بعيداً عن الخليفة وظلت على المستوى المحلي، بالمدائن، وقام بالدور الأول عامل المدينة الذي لا نعرف عنه إلَّا أن اسمه أبان.<sup>(١٢)</sup>

II كان أحد المرشحين للجثلقة، واسمه سورين<sup>(١٣)</sup> قد نصب بالحيلة مطراً لنصبيين، ثم نقل إلى حلوان ولم يكن له من مؤيد لترشيحه إلاّ مطران مرو. لم يتورّع سورين هذا عن تجريد الكنائس من أوانيتها الطقسية وستائرها النفيسة لي Ritshieh العامل. فما كان من أبان إلاّ أن أكره، بقوّة جلاوته، بقية المطارنة على رسم صاحبه جاثليقاً. ولكن الدخيل لم يكُن في السدّة إلاّ واحداً وخمسين يوماً، لأنّ يعقوب مطران جنديسابور تَمَكَّن من إعلام السفّاح بما جرى. عزل الخليفة عامل المداين وأمر بردّ أموال الكنائس، وانتُخب يعقوب جاثليقاً شرعاً ويعُثّ سورين مطراناً إلى البصرة. ولكن هذا لم يكُفّ عن الكيد ليعود جاثليقاً، كما لم تكُفّ رعيته بالبصرة عن اعتباره كذلك.

أمّا يعقوب الذي ظلّ جاثليقاً من ٧٥٣ إلى ٧٧٣، فقد كان عجوزاً بلا حول ولا قوّة، وقبل، على ما روى الأخباريّ صليبياً، كلّ الشروط التي فرضها عليه، عند انتخابه، المطارنة وحتى رجال رعيته النافدون، في أغلب الظنّ. إنّا المرأة الأولى التي نلتقي فيها، في ظلّ العباسيين، بالعلمانيّين النصارى الذين كثيراً ما سيطروا على الجثلقة أيام الساسانيين، وصنعوا تاريخ النصارى في الخلافة العباسيّة أسوأ بالجثلقة.

في قضيّة رسامة الجاثليق يعقوب سنة ٧٥٣، سنكتفي بالإشارة إلى وجود شخص مجهول اسمه يحيى بن إبراهيم<sup>(١٤)</sup>، رافق الجاثليق إلى المداين ليستوثق، في ما يبدو، من مرور شعائر الرسامة بسلام. ولthen صحّ ظني في كون يحيى هذا نصراوياً فلا ريب أنه كان ذا منصب رسمي، ومن العسير علىّ أن أحدهد الآن ماهيّة هذا المنصب. وربما كان هو الذي أعلم الخليفة باعتصام سورين سدّة الجثلقة بعدما أقدم الأخير على فعلته.

أودّ أن أنبئ قبل اختتام فصل السفّاح إلى أنّ حركة دخول النصارى في الإسلام، التي تعزى جزئياً إلى الرغبة في التحرّر من الجزية (وهي حركة بدأت منذ صدر الإسلام)<sup>(١٥)</sup> استمرّت في ظلّ الخليفة العباسيّ الأول. يقول ساويرس بن

المقفع: (١٦) «وكتب عبد الملك إلى جميع مملكته أن كلَّ من يصير على دينه ويصلِّي كصلاته يكون بغير جزية، فمِنْ عظمِ الخراج والكلفة عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه». وما يقوله ابن المقفع عن مصر يصحّ على بقية نواحي المملكة.

## الحواشي

- (١) عن أبي الثاني، انظر ماري، ص ٦٦ - ٦٧، صليبا، ص ٦٢، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، عمود ١٥٤ - ١٥٦، إيلينا برشينايا، تاريخ، ص ٧٠.
- (٢) ثمة إشكال حول دلالة اللقب ما المقصود به، فهو الكثير العطاء أم الكثير سفك الدماء؟ انظر B. LEWIS The Regal Titles of the First Abbasid Caliphs, dans Studies, cit II, p.15-16.
- (٣) ابن العربي، وهو من المتأخرین جداً، لأنَّ معظم تاریخه قد كتب بعد سقوط العباسیین، يفضل هؤلاء على الأموریین قاتلاً إنَّ العباسیین «كانوا أفضلاً من الذين كانوا بدمشق». ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٤ - ١٥٦. ومن غير المجدی، أن نبحث على مَ يستند R.B. BETTS, (cit p10) عندما يكتب: «في منتصف القرن الثامن كان الصاری ورؤساؤهم قد أدركوا أنَّ التسامح الإسلامي الرسمي، الذي بدا جذاباً منذ حوالي قرن، لم يكن في الواقع إلا سجناً صارماً لا مناص منه إلا بالإسلام أو الفرار»، فمن نكد الحظ أنَّ مثل هذه التعمیيات السهلة شائعة جداً.
- (٤) لم يكن العراق الغربي يشتمل في ذلك العصر إلا على القسم الجنوبي من العراق الحالي، وكان شماليه يشغّل ولاية الجزيرة.
- (٥) على بعد ٣٥ كلم إلى الجنوب من بغداد.
- (٦) Chron. anon. 670/680, tr. GUIDI, p26
- Lettre d'Aba II aux membres de l'Ecole, texte syr et tr. fr. J.B. CHABOT, dans Actes (V) du XI Congrès des orientalistes, Paris, 1897 (1898), quatrième section, p. 295-335.
- (٨) لقد أبحث لنفسي الإحالة إلى فهارس مجلدات «أشور المسيحية» Assyrie Chrétienne للاستعلام عن البلدات المسيحية بالعراق، وعن بلدات إيران أحملت إلى مجموعة مقالات الصادرة في مجموعة Variorum Reprints, Londres, 1979.
- (٩) هنا استكتب أبو العلاء حسان بن سنان التنوخي، من نصارى الأنبار «على جميع أمره» وكان حسان قد أسلم قبل هذا وحسن إسلامه، «وكان يتكلّم ويقرأ ويكتب بالعربية وبالفارسية وبالسريانية». وقد عمر حتى أدرك خلافة الرشيد في العام ١٨٦/٨٠٥ وكان قد بلغ حينها ١٢٠ سنة. التنوخي، نثار، ج ٦، ص ١٠٠، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٢٥٩.

- (١٠) يذهب المقدسي، ص ١١٩ - ١٢١، إلى أن السفاح هو الذي أحدث بغداد، ثم بني فيها المنصور مدينة السلام.
- (١١) صليبيا، ص ٦٣.
- (١٢) لم يظهر اسمه بين أسماء الولاة الذين أحصاهم صالح أحمد العلي في مقاله «المدائن في المصادر العربية»، في سومر، المجلد ٢٣ (١٩٧٧)، ص ٦٣ - ٦٤.
- (١٣) ماري، ص ٦٧ - ٧٠، صليبيا، ص ٦٢ - ٦٣، ١٥٦، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦.
- (١٤) المسما «المقلد» أو الملقب به؟
- (١٥) يقدم ARNOLD في ص ٨١ - ٨٤ أمثلة على بعض هذه الحالات بين خلافتي عمر وعبد الملك، وبخاصة في خلافة عمر بن عبد العزيز.
- (١٦) كتاب سير الآباء البطاركة، P.O.، ج ٥، ص ١٨٩ - ١٩٠.

## ٢ - المنصور (١٣٦ - ٧٥٤ / ٧٧٥)

بعد تردد كان لا بد منه خلال عهد الخليفة العباسي الأول، أخذت الخلافة العباسية المتزايدة القوة اتجاهًا دائمًا، ومركزًا ثابتاً في بغداد خلال خلافة واحد من أكابر الخلفاء، ألا وهو أبو جعفر عبدالله المنصور.<sup>(١)</sup>

من المحال أن نظهر الخليفة الجديد في لوحة تبين جوانب شخصيته كلها. فالمزايا التي ينسبها إليه المسعودي، مثلاً،<sup>(٢)</sup> لم تكن ترتئنه إلا في أواخر خلافته التي دامت ثلاثة وعشرين سنة. فقد كان كما يقول المؤرخ نفسه «مُحِنَّكَ السَّنَ حازم الرأي قد عركته الدهور وحلَّتْ الأَيَام سطونه».<sup>(٣)</sup>

ولا بد أيضًا من التمييز، في تعامله مع النصارى، بين طريقته في التعامل مع نصارى الشغور الملكيين والمغاربة من السريان (اليعاقبة)، وخصوصاً إبان الحملات على العدو البيزنطي، حليفهم الطبيعي، وبين طريقته في التعامل مع أولئك المقيمين في قلب دار الإسلام ببغداد وخاصة، أي مع المشارقة من السريان (النساطرة).

زد على ذلك أن وشایات (بعض الحساد من النصارى، أو حتى المطارنة) كانت تؤدي في العديد من الأحوال، كما سنبيئه من بعد، إلى عواقب وخيمة على مصائر إخوانهم في الملة أو حتى على بطاركتهم. والأنكى من هذا أن بعض النصارى لم يكتفوا بتبادل الاتهامات بل استغلوا قربهم من السلطة للإثراء وأبدوا من مظاهر الخياء ما استعظم المسلمين احتفاله. من ذلك كانت الشكاوى إلى الخليفة وبعض ردود الفعل العنيفة أحياناً.<sup>(٤)</sup>

بعد توسيع الخلافة، أي في ١٣٦ - ٧٥٤ / ١٣٧ - ٧٥٥، كان على المنصور أن

يهم ببعض شؤون النصارى. فمن ذلك أن طبيباً نصراينياً اسمه سرجيس، كان في خدمة نصر، صاحب الجيش، توصل بوساطة سيده إلى استدرج البلاط إلى التدخل في النزاع بين الجاثيلق يعقوب الثاني<sup>(٥)</sup> ومنافسه المخلوع سورين. كان ذلك الطبيب من أنصار سورين، وقد استصدر أمراً من الخليفة بخلع يعقوب، فأبعد هذا عن منصبه. ربما نسب إلى الخليفة، من جراء ذلك، شيء من التهور، ولكنه لم يكن يتجاوز السادسة والثلاثين آنذاك! وقد تعلم الخليفة بسرعة أن شؤون النصارى في ما بينهم وفي ما يخص علاقتهم بال المسلمين معقدة جداً. وفي الخبر التالي مثال على ذلك.

### عيون الخليفة

يبدو أن إحدى أوائل المشكلات بين الخليفة والنصارى قد نشأت عن الثقة التي أولاهم إياها، في غرة عهده، ليكونوا عيوناً له تترصد من بقي حياً من آل أمية وأتباعهم.<sup>(٦)</sup>

كانت فرصة سانحة: فكلّ ما يخطر بالبال من ملاحقة وابتزاز وتنكيد من كل ضرب كان يُمارس تحت ستار هذه المهمة. فمن ذلك أنه لما أراد راهب يُدعى رُعاره، من دير مار متي القريب من الموصل، أن يستولي على نفائس ديره، اتهم إخوانه بالتسهير زاعماً: «أنّ ذهببني هشام وبني مروان كان بالدير». فما كان من السلطة إلا أن أصدرت «أمراً عاماً بالقبض على رؤساء الأديرة والكنائس وبإحصاء أموال الأديرة والكنائس والمعابد». <sup>(٧)</sup> ولو أن النصارى اكتفوا بالتأهب في ما بينهم لكان الأمر. إلا أنّهم تجروا على التسّر وراء «مهمتهم» ليظلموا المسلمين ويعرقوا أشغالهم ويتطلّعوا إلى أموالهم ويسوّوا كراماتهم. وقد جاء الردّ عندما حجَّ<sup>(٨)</sup> المنصور أي في العام ١٤٠ / ٧٧٦ - ٧٧٧.<sup>(٩)</sup>

عندئذ اشتكتى نفر من المسلمين إلى نديمه شبيب بن شيبة، <sup>(١٠)</sup> الذي أوصى شكوكاً لهم إلى الخليفة. فأمر الخليفة حاجبه الريبع بن يونس<sup>(١١)</sup> بأن يكتب إلى الولاة بعزل الذميين من مناصبهم والاستعاضة عنهم بغيرهم من المسلمين. ويروى أنّ شبيبأً لما رأى الخليفة يأمر بذلك قال له: «يا أمير المؤمنين، إنّ المسلمين لا يأتونك

وهؤلاء الكفرا في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبواهم أغروك بهم،  
ولكن تولي في اليوم الواحد عدّة، فكلما وليت رجلاً عزلت آخر». (١٢)

إنَّ هذا الخبر ليطلعنا على مبلغ التفوذ الذي كان بعض النصارى، ولا سيما  
الكتاب منهم، لدى الخليفة وحاشيته، (١٣) إذ قد كان عليه وعلى حاشيته أن  
يتحمّلوا مكائدتهم لصعوبة الاستغناء عن خدماتهم حتى ذلك الوقت.

## شُؤون اليعاقبة

ولكن الأمبراطورية العباسية لم تكن تضمُّ النساطرة وحدهم، أي المشارقة من  
السريان بل كان هناك المغاربة منهم الملقبون باليعقوبة والذين كان مقرّ بطريقهم في  
أنطاكيه. عند هؤلاء كانت خلافة البطريرك تسبّب أزمة يستعين أطراف التزاع فيها  
بالسلطة السياسية. (١٤)

في العام ٧٥٥ وبعد وفاة بطريرك أنطاكيه إيوانيس (يوحنا الخامس) أوحى  
مقاتل بن حكيم العكي والمالي الجزيزة (١٥) إلى المنصور أنَّ أحد رهبان دير قرطمين،  
واسمه إسحق الحراني، يحسن علم الصنعة. وقد أثار هذا اهتمام الخليفة الذي كان  
يعتقد باستحالة المعادن، (١٦) وكان يحتاج إلى ذهب كثير لعساكره. لذلك نصب  
المطرانة اليعاقبة إسحق الحراني بأمر من الخليفة فيما كان من الكنيسة السريانية  
الغربية إلا أن رفضت الاعتراف بشرعيته لأنَّه لم يُنتخب انتخاباً حراً. ولكن من نكـ  
الدنيا على إسحق أنَّ الخليفة لم يلبث أن اكتشف خرقـه قبل نهاية العام، فأمر به  
فختـ (١٧) وألقـت جـشه بالفرات.

وفي السنة عينـها، توصل غاصـب آخر اسمـه أثـناسيوس الصـندليـ إلى أن يـعينـ  
بطـيرـيـكاً لأنـطاـكيـة وـتوـصلـ أيـضاًـ إـلـىـ الـحـصـولـ، بـوسـاطـةـ أـصـحـابـهـ فـيـ الـبـلـاطـ، عـلـىـ عـهـدـ  
الـخـلـيـفـةـ بـتـعـيـنـهـ. وـهـذـاـ الغـاصـبـ أـيـضاًـ مـاتـ شـرـ مـيـتـةـ فـيـ نـهاـيـةـ حـيـاـةـ حـافـلـةـ  
بـالـمـكـائـدـ. (١٨) أـخـيرـاًـ وـفـيـ الـعـامـ ٧٥٨ـ اـنـتـخـبـ المـطـارـانـةـ الـيـعـاقـبـةـ، فـيـ صـورـةـ شـرـعـيـةـ، وـفـيـ  
جـمـعـهـ لـهـمـ عـقـدـهـ فـيـ مـنـجـ الـبـطـيرـيـكـ جـرجـسـ الـبـلـتـانـيـ. (١٩)

هل أرهـقـ الـبـطـيرـيـكـ رـعـاـيـاهـ بـعـطـالـبـ؟ هـذـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ مـاـ اـتـهـمـهـ بـهـ دـاـوـدـ أـسـقـفـ

دارا، الذي وشى برئيسه إلى مالك، كاتب الخليفة، مزوجاً وشايته بحجج من شأنها إثارة السلطات المسلمة: فالبطريرك لم يكتف بالتقاعس عن طلب عهد الخليفة بشيئته، بل فعل ذلك عمداً لكي يتتجنب، فيما قال «إدخال اسم النبي في صرته».

وقد قُبض على جرجس وعذب على الرغم من فجاجة الافتداء.<sup>(٢٠)</sup> ولكنه استطاع أن يرد التهم الملقحة ضده في سهولة (ألم يكن يحمل في صرته اسم النبي المكتوب على دنانير الخليفة؟).<sup>(٢١)</sup> إلا أن فطنته ألمحت الخليفة سؤالاً لم يكن في الحسبان وإن كان يعبر عن اهتماماته المالية: ألم يكن جرجس هذا يعرف علم الصنعة؟ ومن سوء الطالع أن البطريرك لم يقدر على الإجابة إلا بالنفي. ولم يدم حسن المعاملة الناجم عن اهتمام الخليفة العابر إلا قليلاً، وتوقف عندما أدرك الخليفة أنه لن يت遁ع من جرجس بشيء. وقد بقي جرجس في السجن ببغداد تسعة سنوات<sup>(٢٢)</sup> حتى تولى خليفة المنصور، أي من ٧٦٦ إلى ٧٧٥.

في هذه الأثناء أوعز المنصور إلى المطارنة بتعيين داود أسقف دارا المفترى بطريقاً على أنطاكيه. ولدى رسامته المفروضة أحاط عسكر الخليفة بالمدحنج شاهرين سيوفهم وأكرهوا رعيته على قبول القريان من يده. وكان من جراء ذلك أن استقر عدد من المطارنة وجابوا أبرشياتهم متذمرين بثياب بيض كالتي يلبسها العلمانيون لا بالمسوح السود التي للرهبان، ذلك «لأنَّ الملك أعطى الغاصب خطأً بسجن كل من لم يطعه، وضربه وإهلاكه». (٢٣) ولا يلام المسلمون على تعديات ارتكبوها ضد بعض النصارى نزواً عند طلب نصارى آخرين من أبناء ملتهم.

## النصارى وتأسيس «بغداد»

يعد تأسيس بغداد «عادة واحداً من أهم الأحداث العظام في تاريخ العالم الإسلامي»<sup>(٢٤)</sup> ومع ذلك فالمتصور لم يؤسس بغداد، بل إن ما بناه في السنة التاسعة من خلافته ٧٦٢/١٤٥، هو مدينة السلام، المدينة المدورة التي أراد أن يسكن فيها أصحابه الخراسانيين.

وقد أدى نمو العمran نمواً سريعاً حول المدينة المدورة، ومن ثم على الصفة

الشرقية لدجلة، إلى غلبة الاسم القديم،<sup>(٢٥)</sup> الذي كانت تسمى به إحدى  
البليدات الصغيرة التي احتوتها عاصمة العباسين، على العاصمة نفسها.

كان السلوقيون قد غادروا من قبل وادي الفرات إلى وادي دجلة، تاركين  
بابل ليؤسسوا سلوقية تنفيذاً لإرادة الانقطاع عن نظام الحكم القديم ومخالفته،  
لأسباب تشبه الأسباب التي دعت العباسين إلى الاستقرار في العراق. ولقد ابعد  
المصوّر أكثر عن مراكز الأمويين، ولكنه خضع أيضاً لجاذبية عاصمة الساسانيين،  
المدائن الملكية سلوقيّة، طيسفون وما إليها.

لم لا يكون المنصور قد اتخذ في بساطة هذا الموقع الرائع حيث يدانى دجلة  
الفرات ويتصل به عبر نهر الملك؟ لم يأخذنـه الفرثيـون عن السلوقيـين وزادوا  
طيسـفونـ، مدـيـتـهمـ الخـاصـةـ عـلـىـ سـلوـقـيـةـ مدـيـنـةـ السـلوـقـيـنـ ثـمـ مـرـفـاـ بـلاـشـيـادـ،ـ وـاـنـجـذـبـهاـ  
السـاسـانـيـوـنـ فـبـتـواـ إـلـىـ جـانـبـهاـ بـهـرـاسـيرـ.ـ كـانـ ثـمـةـ ماـ يـغـرـيـ بالـظـنـ أـنـ حـضـورـ الـأـكـاسـرـةـ  
قـدـ اـسـتـؤـصـلـ مـنـهـ مـنـذـ أـنـ غـادـرـهـ وـلـاـ الـأـمـوـيـنـ إـلـىـ الـكـوـفـةـ.ـ وـلـكـنـ رـبـماـ كـانـ المـدـائـنـ  
الـمـلـكـيـةـ قـدـ أـصـبـحـتـ أـكـثـرـ تـهـلـهـلـاـ بـعـدـ أـنـ اـنـتـزـعـتـ بـوـابـاتـهـ وـتـدـاعـتـ أـسـوـارـهـ وـأـحـدـثـتـ  
فـيـهـ فـيـضـانـاتـ دـجـلـةـ ثـغـرـاتـ شـتـىـ.ـ عـلـىـ آـيـةـ حـالـ،ـ لـقـدـ اـخـتـارـ الـمـنـصـورـ مـوـقـعاـ يـبعـدـ  
خـمـسـةـ وـثـلـاثـيـنـ كـيـلـوـمـتـرـاـ إـلـىـ الشـمـالـ.ـ<sup>(٢٧)</sup>

في ذلك الزمان جرى أمر يكشف عن العقليات السائدة.<sup>(٢٨)</sup> فقد اقترح أبو  
أبيـوبـ المـريـانـيـ<sup>(٢٩)</sup> الوزـيرـ،ـ الـذـيـ كـانـ فـارـسـيـاـ مـنـ خـوزـسـتـانـ لـاـ إـيـرانـيـاـ،ـ أـنـ يـنـقـضـ  
طاـقـ كـسـرـيـ لـيـسـتـعـمـلـ لـبـنـاتـهـ فـيـ الـبـنـاءـ.ـ فـحاـولـ خـالـدـ الـبـرـمـكـيـ،ـ الـذـيـ هـالـهـ الـأـمـرـ،ـ أـنـ  
يـجـدـ الـأـعـذـارـ لـيـصـرـفـ الـمـنـصـورـ عـمـاـ عـزـمـ عـلـيـهـ قـالـ:ـ «ـلـاـ تـفـعـلـ يـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ فـإـنـهـ آـيـةـ  
الـإـسـلـامـ؟ـ»ـ .ـ .ـ .ـ وـهـوـ مـصـلـىـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ طـالـبـ (عـ)ـ وـالـمـؤـونـةـ فـيـ نـقـضـهـ أـكـثـرـ مـنـ نـفـعـهـ»ـ  
فـأـجـابـهـ الـمـنـصـورـ:ـ «ـأـبـيـتـ يـاـ خـالـدـ إـلـاـ مـيـلـاـ إـلـىـ الـعـجمـيـةـ؟ـ»ـ .ـ لـذـلـكـ نـقـضـ قـسـمـ مـنـ  
الـطـاقـ،ـ وـفـاقـتـ النـفـقـةـ الـوـفـرـ الـمـرـتـجـيـ لـأـنـ كـلـ نـقـلةـ كـانـ تـسـتـغـرقـ يـوـمـيـنـ ذـهـابـاـ وـإـيـابـاـ.

عـنـدـئـلـ أـرـادـ الـمـنـصـورـ الرـجـوعـ عـمـاـ أـرـادـ فـقـالـ خـالـدـ:ـ «ـقـدـ صـرـنـاـ إـلـىـ رـأـيـكـ وـتـرـكـناـ  
هـدـمـ الإـيـوانـ»ـ إـلـاـ أـنـ خـالـدـ نـصـحـ لـهـ بـمواـصـلـةـ الـهـدـمـ حـتـىـ لـاـ يـقـالـ إـنـ الـخـلـيـفـةـ أـضـعـفـ  
هـمـةـ مـنـ نـقـضـ مـاـ بـنـاهـ غـيـرـهـ،ـ فـكـانـ أـنـ أـصـرـ وـتـوـقـفـ الـهـدـمـ.ـ<sup>(٣١)</sup>ـ حـتـىـ إـنـهـ أـمـرـ بـعـدـ

ذلك، وقبل موته بأربعة أعوام برميم قصر الساسانيين الأبيض في طيسفون وفرض غرامة مالية على كل من وجدت في حوزته لبنيات من قصر كسرى، وكأنّي به قد أحسّ أخيراً بسحر المشهد. بالنسبة إلى الكنيسة السريانية الشرقية أيضاً كان تأسيس بغداد يعني العودة إلى مركزها التقليدي في ما يسمونه بيت أرامياني أي ديار الآراميين. ذلك لأنّ الموقع الذي اختاره الخليفة لبناء عاصمته كان محفوفاً بالأديرة صغارها وكبارها، وللرهبان دور عظيم الأهمية في الأساطير المتبعة بتأسيس المدينة.<sup>(٣٢)</sup> كان ثمة دير على مقربة من الموضع الذي بُني فيه قصر الخلد. إلى الشرق، وبالقرب من قرية العتبقة كان ثمة دير آخر لمار فثيون نزل به المنصور وطرد منه بعض المسلمين الذين ملكوه بوضع اليد.<sup>(٣٣)</sup>

بديهي أنّ الخليفة لم يخطط لحي النصارى في مدينة السلام، لأنّه كان ينوي إيواء أصحابه الخراسانيين. ومع ذلك سرعان ما نشأت زيادة على قرية العتبقة وديرها (مار فثيون)، ضاحية لليعاقبة بالقرب من باب المحول (مع كنيسة مار توما) وإلى الجنوب الغربي من الكرخ، وهي للروم والنساطرة بالقرب من باب الشهاسية، الباب الشمالي للرصافة التي بُنيت سنة ١٥١/٧٦٨ لابن الخليفة الذي صار من بعد يُعرف بال الخليفة المهدي.

## طبيب عظيم

في العام ١٤٨/٧٦٥، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس بغداد «مرض المنصور» وفدت معدته<sup>(٤)</sup> ولما عجز أطباء المدينة عن شفائه ذكر له اسم أحد معلّمي مدرسة جنديسابور الشهيرة، ومدير بيارستان تلك المدينة الطبيب النسطوري جورجيس بن جبرائيل من بني بختيشوع، الذين اشتهروا في ما بعد.<sup>(٥)</sup>

عندما بلغه أمر الخليفة بالشخصوص إلى بغداد للتّقّى، أراد الطبيب الذي لم يكن معتاداً على طاعة الأوامر أن يهرب نفسه للسفر خلال أربعة أيام. إلا أنّ عامل المدينة أمهله حتى الغد ولما امتنع اعتقاله وأراد اصطحابه بالقوّة. ولكنّ جورجيس كان محبوّاً من الشعب في جنديسابور إلى حدّ أنّ خبر اعتقاله أثار الشّعب في المدينة. ومن حسن التوفيق أنّ المطران هدا الجموع وأقنع جورجيس بالمسير، وترك

إدارة البيمارستان لابنه بختيشوع. كان الابن يفضل مرافقه أبيه إلى العاصمة ولكن الأب أقنعه بالبقاء حيث هو واصطحب معه تلميذه إبراهيم. وقد توصل بختيشوع بدوره إلى إقناع والده باصطحاب تلميذ آخر، معروف بسوء فعاله هو عيسى بن شهلوفا<sup>(٣٦)</sup> الذي حظي من بعد بصيت مشئوم في بغداد. أما في ذلك الوقت فكان يقال عنه إنه «يؤذى أهل البيمارستان».

كان أول لقاء بين الطبيب ومريضه الكبير ناجحاً. فقد مدح جورجيس الخليفة بخطبة بلية بالفارسية وبالعربية<sup>(٣٧)</sup>، فاستحق بذلك رضا الخليفة وإنعامه. أما العلاج الذي بدا أنه سيطرول فقد كان يبشر بالشفاء.

غير أنَّ ظلَّاً من الإزعاج ظلَّ يشوب إقامة الطبيب، إذ لم يقدِّم له الخمر مع أول وجبة طعام جلبت له.<sup>(٣٨)</sup> ولما طالبهم بها قيل له بامتعاض: «إنَّ الشراب لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين»، فأجاب: «لا آكل طعاماً ليس معه شراب» ولما تيقن أن لا سبيل إلى نيل مراده تحمل بالصبر وارتضى الشرب من ماء دجلة، وكذلك كان شأنه في العشاء. وبدلُ أنه اقتنع في اليوم التالي بمشربِه الجديد، إذ نسمعه يقول: «ما كنت أحسب شيئاً يميزي من الشراب، فهذا ماء دجلة يميزي من الشراب».

ويسوق لنا ابن أبي أصيبيعة الأخبار برواية أخرى، تبدو لنا أشبه بطبع الطبيب. بعد أيام على وصوله لاحظ الخليفة أنَّ سحته قد تغيرت، فارتبا من الأمر وسائل وزيره الربيع: «لا تكون قد منعته مما يشربه على عادته؟» فأجابه الربيع أنَّ نعم، فأمر الخليفة بأن يجلب للطبيب من أفضل خمور قطربيل...

مع وصول جورجيس حصل النساطة على نصير عظيم التفود قادر على بلوغ أذن الخليفة الذي كان إعجابه به يزداد يوماً بعد يوم. وكان من خبر ذلك هذه القصة الطريفة عن المهدية التي أهدتها الخليفة إلى طبيبه<sup>(٤٠)</sup> في عيد الميلاد سنة ١٥١/٧٦٨: فلما بلغ المنصور أنَّ جورجيس قد غادر في عيلام زوجته التي شاخت وأقعدها الوهن عن القيام على رجليها، بعث إليه ثلاثة آلاف دينار مع ثلات جوار روميَّات حسان بصحبة سالم الخصي. ولكنَّ جورجيس رد الجواري وقال للخليفة:

«هؤلاء لا يكونون معي في بيت واحد. لأنّنا عشر النصارى لا ننزوّج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها. فحسن موقعه من الخليفة، وأمر في وقته أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه ويخدمهين». (٤١)

وقد زاد إثر ذلك موضع الطبيب في عين الخليفة وعظم محله، فهل أدى تزايد نفوذ جورجيس إلى تغيير موقف الخليفة من الجاثيليين المتنافسين؟ لقد بدا أنَّ المنصور، الذي أصفعَ في غرة خلافته إلى نصر صاحب الجيش ومال إلى سورين الدخيل وأيده ضد الجاثيليق الشرعي يعقوب، قد صار أميل إلى يعقوب حتى إنَّه حبس سورين. على أيّة حال، إن توالي دخول المتنافسين إلى السجن وخروجهما منه أمر يصعب تحديده تسلسله الزمني، لأنَّه يوافق تفاصُل نصيب حماتها العلمانيَّين من رضا الخليفة وسخطه.

وقد جرى أمر آخر في أثناء وجود جورجيس الطبيب ببغداد، هذا إذا أصاب ابن العربي عندما أرخ لبناء كنيسة صغيرة للنساطرة في تكريت سنة ١٥٠/٧٦٧.

نقرأ في تاريخه لتلك الحقبة أنَّ الأسقف صليبا زخا قد خرج من السجن الذي كان فيه مع الجاثيليق يعقوب، وبدأ بترميم كنائس أبرشيته بالطيرهان، ومعلوم أنَّ ترميم الكنائس يدلُّ دائمًا على تحسّن العلاقة بالسلطة في دار الإسلام. وفي الحالة التي بين أيدينا، عقد اتفاق ثلثيَّ بين كبير أساقفة اليعاقبة (بمبادرة بطريركه المحبوس) وقبريانوس مطران نصبيين النسطوريَّ، وصليبا زخا أسقف الطيرهان النسطوريَّ، أتيح بوجبه لصليبا أن يبني كنيسة صغيرة بتكريرت عاصمة اليعاقبة بدلاً من كنيسة القديس ضوميط التي ردَّت إلى يعاقبة نصبيين من بعدما أخذها منهم النساطرة. (٤٢) ولكنَّ جورجيس بن يختيشوع مرض وكان ذلك من سوء حظ الخليفة الذي شفي على يديه ومن سوء حظ النصارى الذين نعموا بحماته، فأذن له المنصور بالعودة إلى جنديسابور.

وَلَا مثل بين يدي الخليفة ليستأذنه بالمسير، دعاه الخليفة إلى الإسلام قائلاً: «أسلم وأنا أضمن لك الجنة». ولكنَّ الطبيب تجرأ على الرد قائلًا: «رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار». (٤٣) سُرِّى مرارًا أكبر المسلمين يستهلوون حديثهم

بدعوة كهذه. فهذا واجب عليهم<sup>(٤٤)</sup> ولم يكن المستنيرون منهم يستأذون إذا ما أخفقت محاولتهم<sup>(٤٥)</sup> لذلك حصل جورجيس الطيب على هدية وداع بلغت عشرة آلاف دينار. وقبل أن يغادر أوصى بعيسي بن شهلوفا بديلاً عنه، وكان ذلك سنة ٧٦٩/١٥٢

الطيب الملعون

كان عيسى بن شهلوفا شمساً نسطوريًا، وقد قدّر المنصور براعته في الطب. ومع ذلك فلا أحد يصف عيسى هذا في مصاف كبار الأطباء، ولم يؤثر عنه أي عمل مكتوب، لا نقلًا عن اليونانية أو السريانية ولا تاليفًا من عند نفسه.

عندما أراد الخليفة، الذي لم يزل في حاجة إلى المال،<sup>(٤٦)</sup> أن يزيد الخراج، وكل أمر النصارى إلى طبيه الجديد الأثير. فما لبث هذا أن استدعاي الجاثيلق (رئيسه الدينى!) الذي لم يجرؤ على رفض المثلول أماماه بل جاء في رهط من ستة وثلاثين أسقفاً، ربما في محاولة للتهويل على الدهاية المقترن. إلا أن عيسى نظر إليهم باستعلاء، وتكلف مد يده إليهم ليقبلوها. فما كان من شليمون أسقف حديثة الموصل الملتئب إلا أن قرعه تقرعاً شديداً ووصفه بأنه «يهودا الثاني». وقد دفع شليمون ثمن جرأته غالياً.<sup>(٤٧)</sup>

حاول الرؤساء الدينيون جاهدين أن يستعملوا ضدّ عيسى نفوذ نصراني آخر ذي مكانة هو ابن الطباخ الكسكري صاحب بيت المال، ولكن هذا لم يكن قرن دايك.

المصادر المسيحية تذكر اسم أحد هؤلاء الولاة: والي حديثة الموصل أي أbrisية شليمون، وكان اسمه إبراهيم بن يحيى. وقد أنزل إبراهيم، بموافقة عيسى بن شهلوفا، كل أنواع الإهانات بالأسقف شليمون.

ربما كان علينا أن نفترس، على ضوء هذه الظروف عينها صنوف التنكيل التي أنزلها بالنصارى كما بالمسلمين،<sup>(٥٠)</sup> موسى بن مصعب،<sup>(٥١)</sup> عامل الجزيرة، وعلى دفعتين في ما يبدو،<sup>(٥٢)</sup> في ٧٦٩ - ٧٧٠ ٧٧٤ - ٧٧٥.

آية تكون التواريخ الصحيحة فالمحنة قد وقعت في خلافة المنصور. أقدم الطاغية الذي يصفه ديونيسيوس المزعم بال المسيح الدجال<sup>(٥٣)</sup> ويسميه ميخائيل السريانى باليهودي،<sup>(٥٤)</sup> على اعتصار مدن عهاته وقرابها.<sup>(٥٥)</sup> فقد سلب الكنائس والأديرة وألزم الذميين أن يتقدّوا في أنعاقهم أقراضاً من الرصاص للدلالة على كونهم ذميين، وتلك علامات تميّزة سبّاجتها في ما بعد.

يبدو أن المنصور لم يستجب للشكوى التي رُفعت إليه ضد الطاغية، وبخاصة لدى إحدى زياراته لمدينة الموصل.<sup>(٥٦)</sup> ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن بعض النصارى قد مالوا ظالم على ظلمه. حتى إن ديونيسيوس المزعم نفسه يعترف بذلك إذ يقول:<sup>(٥٧)</sup> «فإنقسمت القرى وأثرى بعض الرهبان».

في بغداد دالت أخيراً دولة عيسى بن شهلوفا الغشوم. أما البطل الذي خلع الطاغية عن عرشه فكان قبريانوس<sup>(٥٨)</sup> مطران نصبيين. فقد كتب عيسى إلى قبريانوس كتاباً يطلب فيه منه أن ينفذ إليه من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر ويتهّده متى أخرّها عنه وقال في كتابه: «أليس تعلم أنَّ أمر الملك بيدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته». واتفق أن خرج المنصور في بعض سفراته حتى وصل إلى قريب من نصبيين. فاحتال المطران في إيصال الكتاب إلى وزير المنصور الربيع بن الفضل الذي اغتنم الفرصة للتخلص من الطبيب المتغافل. فأطّلخ الخليفة على ما في الكتاب فأمر المنصور بأنخذ جميع ما يملكه عيسى وتأديبه ونفيه وزوجته إلى الهند.<sup>(٥٩)</sup>

وقد مال المنصور إلى قبريانوس جزاء ما أسداه إليه من خدمات<sup>(٦٠)</sup> وأحسن إلى الرهبان ورؤساء البيع.

لتنظر عابرين إلى هذا الخبر الذي يورده ماري عن المنصور. وبعد أن نفى عيسى سأل الخليفة بعض النصارى: «أليس يقال إنَّ الأساقفة يسمع الله صلواتهم فلِمَ لا يسألون الله قتل عيسى؟» فأجابه: إنه بدعائهم قد نُفي ولا يعرف له خبر». سجد أمثلة أخرى منخلفاء وغيرهم من أعيان المسلمين من كانوا يؤمنون بقدرات الأساقفة الخارقة للعادات.

ظللت أصداء ما ارتكبه عيسى بن شهلوفا من أعمال الغصب والابتزاز تتردد في أثناء جثلقة حنان يشوع الثاني خليفة يعقوب الثاني. فقد مات حنان يشوع مسموماً باسم دمه له دائن أراد أن يستخلص منه قرية دوقرة<sup>(٦١)</sup> التي كان سلفه قد رهنها لبيستدين بها مالاً طلبه منه عيسى.<sup>(٦٢)</sup>

### إبراهيم الطبيب الطيب

حاول المنصور أن يقنع جورجيس بن يختيشوع بالعودة إلى بغداد بدليلاً من عيسى بعدما عُزل وُنفي. بيد أنَّ جورجيس اعتذر وانتدب تلميذاً آخر من تلامذته اسمه إبراهيم. وقد تحسنت حال النصارى<sup>(٦٣)</sup> بفضل إبراهيم هذا وبفضل قبريانوس مطران نصيئن. فقد سمح للمطارنة بالعودة إلى كراسيهم التي خلعوا عنها، كما أفرج عن السجناء منهم من أمثال الجاثليق يعقوب وشليمون الحديثي.

### المنصور يضطهد النصارى؟

هل اتخذت في ظل المنصور إجراءات تمييزية ضد النصارى، إذا ما استثنينا الحقبة السوداء التي كان هؤلاء إبانها عرضة لكلّ ألوان التنكيد يرتكبها... عيسى بن شهلوفا باسم الخليفة؟

يسرد المؤرخ البيزنطي ثيوفانوس (المتوفى نحو ٨١٨)<sup>(٦٤)</sup> قائمة بمثل هذه الإجراءات:

- سنة ٧٥٧: يحظر بناء كنائس جديدة وإنشاد الترانيم الدينية خارج جدران الكنيسة وكذلك مجادلة المسلمين.

- سنة ٧٥٨: أخضع الراهبان والعموديون للجزية التي سبق إعفاؤهم منها وختم على السكربيات إلى أن يسترّ النصارى الأواني المقدّسة من اليهود<sup>(٦٥)</sup> ويدفعوا أثمانها.

- سنة ٧٦٠: أقصيَ النصارى عن كتابة ديوان بيت المال، ولكنهم أعيدوا إلى وظائفهم للحاجة إليهم.

- سنة ٧٦٧: أمر بتنزع الصليبان عن قبب الكنائس، وبإقامة الشعائر الدينية ليلاً وتعلم الأداب النصرانية.

- سنة ٧٧٠: أمر بحلق اللحى وباعتبار قلنس طول الواحدة منها ذراع ونصف.

- سنة ٧٧٣: أمر بوسم اليهود والنصارى بالحديد الحامي، هؤلاء يربون إلى الأرضي البيزنطية.<sup>(٦٦)</sup>

إنَّ هذه القائمة لتعطينا فكرة عنَّ المُحدثت هذه الإجراءات ضدهم. ففي نهاية أحكام سنة ٧٦٧، وبعد الأمر بتعلم الأداب النصرانية يوضح كارالفسكي أنَّ المقصود بذلك هو اليونانية.<sup>(٦٧)</sup>

هذا وإنَّ كون المصادر البيزنطية (المصادر السريانية الغربية في جزء منها) تتفرق بذكر مثل هذه الإجراءات في تلك الحقبة، يدلُّ، في ما يبدو، على أنَّ هذه الإجراءات لم تمسَّ إلَّا ذلك الجزء من الخلافة الذي كان سابقاً تحت سلطة البيزنطيين. هناك كان النصارى على مذهب العدو في الدين، كما أنَّ الخوف من الطابور الخامس في تلك المناطق الحدودية كان يسُوَّغ التمييز بالوان الثياب (وحتى الكي بالحديد الحامي) اللذين فرضاً على النصارى. ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم ما دبره المنصور من إجلاء بعض النصارى عن الشגור.<sup>(٦٨)</sup> لا سبيل إلى إنكار نية الإذلال الكامنة في هذا التدبير، ولكنَّ الإنصاف يقتضي منا أن نذكر أمر مقاتل بن حكيم العكي عامل الجزيرة القاضي بأن يلبس المسلمين كلَّهم السواد.<sup>(٦٩)</sup> في هذه الحالة لم يكن للعلامات المميزة من وظيفة غير تلك التي يدلُّ عليها لفظها نفسه.

ولئن أخذَ على المنصور قسوته على النصارى في بعض الحالات أجبنا بأنه لم

يُكن بالمسلمين أرقق، وخصوصاً في أوائل خلافته.<sup>(٧٠)</sup> وهذا يكفي على آية حال لإعفائه من تهمة التعصب ضد النصارى.<sup>(٧١)</sup>

ينسب قطع رأس رجل مرتد اسمه قورش إلى عباس عامل الجزيرة<sup>(٧٢)</sup> الذي يعتقد كثيراً ديونيسيوس المزعم نفسه، والذي لم يتتجاوز ما فعله إقامة حد الإسلام على كل مرتد.

## البصرة

ربما كان بوسعنا أن ننزل البصرة، مع الحدود البيزنطية، في منزلة المناطق التي بدا فيها المسلمون أكثر عرضة للإثارة، فردوها بعنف على تجاوزات بعض النصارى. على آية حال فقد وقع في البصرة حادثان: ففي بداية العام ٧٦٧/١٥٠ اتهم طبيب نصراوي بصرى، اسمه خصيب، بالتسبيب في موت محمد، أحد بنى الخليفة السفاح، أبي ابن أخي المنصور، فسجن حتى مات. بيد أن أبي أصبيعة يرى أن خصيباً قد ظلم ويرى ساحتة مما اتهم به.<sup>(٧٣)</sup>

الحادث الثاني هو طرد كاتب نصراوي من كتاب الخليفة من أحد مساجد البصرة وذلك على الرغم من الوعيد الذي توعد به القاضي سوارا بن عبدالله<sup>(٧٤)</sup> إذ أمر برميء خارج المسجد. وقد أثني المنصور على القاضي.

هنا أيضاً لا يجوز لنا أن ندين مدينة بكمالها بناء على حادثين. ربما كان نصارى البصرة، على قول طه الحاجري،<sup>(٧٥)</sup> قد بالغوا في نشاطهم التبشيري واستعملوا وسائل ضغط نجهلها. وهذا ما يستبين من المرثاة التي رثى بها أبان بن عبد الحميد اللاحقي<sup>(٧٦)</sup> سوارا القاضي:

كم مسلم أنقد من عصبة تسجد للصلبان كفار  
يُدعى إلى الكفر فإن عافه دان بإكراه وإجبار

في نهاية خلافة المنصور كان كل شيء جاهزاً لبداية حضارة: إدارة تستمد خزانتها، الملائى الآن، إمبراطورية متaramية الأطراف، وعاصمة تكبر يوماً بعد يوم، ولم يبق إلا العثور على الرجال، على الخلفاء أو من يقوم مقامهم لإدارة الكل.

الشيء نفسه يصحّ على النصارى. فعل الرغم من الشوائب المتعلقة بشكل خصوص بالمناطق الحدودية وبالملكيّن أو بالمغاربة من السريان، فإن الكنيسة التي كانت أكثرّيتها من مشارقة السريان كانت تستند على الكتبة والأطباء ممثّلين لها أكفاء لدى السلطة. وقد استطاعت أن تقوم بدورها في غمّ هذه الحضارة كلما حظيت بيطريريك أو بطران مبّرزاً إمّا بقداسته أو بعلمه، إذ إن المسلمين يقدرون الاثنين. عندئذٍ كانت تستعيد مكانتها كديانة ثانية للدولة (غير رسمية طبعاً) تلك المكانة التي كانت تتمتع بها في ظلّ الساسانيين بالطرق نفسها: بطاركتها وجثالقتها وأساقفتها من جهة، كتبتها وأطّلّوها من جهة ثانية، علّما بأنّ أخبارها كانوا يخبرون من صفوف الكتبة والأطباء حيناً، أو يتحدرّون من أسر الكتاب والأطباء أحياناً.

## الحواشِي

- (١) كتاب عبد السلام رستم، أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥، ١٥٢ صفحة، يحتوي على تحليل تقريري لشخصية المنصور من خلال شواهد أدبية (تفتقـر في معظم الأحيان إلى الإحـالات المناسبة). عن لقبه: أنظر ١٩-٢٠ B. LEWIS, *Studies*, cit, II, p.16.
- (٢) مروج، الفقرة ٢٤١٩.
- (٣) التبيه، ص ٣٤١.
- (٤) سيكون هذا عاملأً من عوامل الاحتكاك الثابتة، عاماً يبيّنه P. RONDOT (ص ١٣٣) في كتاب جاك تاجر، (ص ١٥٩). بالنسبة إلى أقباط مصر الذين استغلّوا الثقة التي أولاهم إياهم الخلفاء ليمارسوا سياسة المعاشرة والواسطات إزاء إخوانهم في الملة، وسياسة العداء واللامبالاة حيال الأكثرية... فقد عرفوا المجد والمالي، الجاه والسلطة حتى جاءهم غضب الشعب بزوال النعمة وانحطاط الشأن. كذلك (ص ١٣٢): «كانت جماعة الأقباط تُكفر في أغلب الأحيان عن أخطاء بعض الطامعين وشططهم الذي يسُوّغ أعمال المسلمين الانتقامية».
- (٥) ماري، ص ٦٧ - ٧٠، صليبيا، ص ٦٣، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦ - ١٦٤.
- (٦) إن الفتوى المسنوية إلى محمد بن علي ابن النقاش الشافعي المصري والتي ترقى إلى سنة ٧٥٩ - ١٣٥٧ هي تكرار حرفي لفصل الذي يعالج الموضوع نفسه في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية الحنبلي الشامي المتوفى ٧٥١ / ١٣٥٠، ص ٢١٤ - ٢٢٨.
- (٧) ديونيسيوس المزعوم، ص ٩٦ - ٩٧.

- (٨) نجد في قوائم أمراء الحج الملحقة ببعض طبعات مروج الذهب للمسعودي (مثلاً طبعة محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤، ج ٤، ص ٤٠١ - ٤٠٢) أن المنصور قد حجَّ (فضلاً عن سنة ١٣٦ أي قبل مبايعته) سنة ١٤٠ و ١٤٤ و ١٤٧ و ١٥٢. وقد مات على طريق الحجَّ سنة ١٥٧. وينظر المقربي في الذهب المسبوك في ذكر من حجَّ من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيشاني، القاهرة، ١٩٥٥، أن ثلاثة من الخلفاء العباسيين وحسب قد حجُّوا وهم المنصور والمهدى والرشيد(؟).
- (٩) عرفت مطاردة الأمويين في أوائل العصر العباسى إلا أننا نجد دلائل على التعاطف مع الأمويين خلال القرن الثلاثة الأولى للهجرة. انظر فاروق عمر، الولاء، المصدر المذكور.
- (١٠) وكان يلقب «بجليس الفقراء» و«أخي المساكين» الزركلى، ج ٣، ص ٢٢٩، مع مراجع.
- (١١) لم يصبح الربع وزيراً إلا سنة ١٥٣، Vizirat, p 725. ولكن متى كان حاججاً؟ من غير المستبعد أن يكون ابن قيم الجوزية، ومن بعده ابن النقاش ص ٤٣٧، وهما من التأكيرين قد غلطا في تسمية الشخصيات، كما في العديد من الأحوال الأخرى، ونسيا الرواية إلى الربع، نديم المنصور المعروف في كتب الأدب. انظر SOURDEL, Vizi- rat, p 88n<sup>2</sup>.
- (١٢) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢١٥.
- (١٣) حتى عندما كان الخليفة يريد إقصاءهم عن مناصبهم، كما أراد أن يفعل عمر بن الخطاب (؟). كان يقوم دائمًا رجل كأبي موسى الأشعري ليقول له: «له دينه ولي كتابته» ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٤٣.
- (١٤) ابن العربي، التاريخ الكشفي، ج ١، العمود ٣١٦ - ٣٢٨.
- (١٥) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤: يتهمه ميخائيل السريانى بقتل راهب كان في الطريق إلى القدس بغية الاستيلاء على كتاب في الصنعة ظنه في حوزته. في العام ١٣٦ / ٧٥٤ خلف العكى أبا جعفر عندما صار هذا خليفة، ولقب بالمنصور، الطبرى، ج ٧، ص ٤٧٠.
- (١٦) يقول المؤرخ محمد بن علي المهدى المذكور في مروج الذهب للمسعودي الفقرة ٣٤٤٦، إنَّ المنصور كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم. وفي كتاب سير الآباء البطاركة ٣٦٤-٣٦٥ (P.O., X, P.364-365) نجد أنَّ إسحق قد ظهر لزوجة المنصور في الحلم وتنبأ لها بولود طال انتظارها له. وينذهب النص إلى أنَّ إسحق أراد أولاً خلع البطريرك القبطي مينا الأول ٧٦٦ - ٧٧٥.
- (١٧) يكتفى دينيسيوس المزعم، ترجمة CHABOT، ص ٥٨، بالقول: «الذى رفعه حطَّه وأهلكه» كذلك يقول ميخائيل السريانى: «قبل للملك: إنه يعرف الصنعة ولا يريد أن يعلمك إياها». ج ٢، ص ٥٢٥.

(١٨) هذا وقد كان قبل ذلك، وفي ظلّ مروان، قد اتّهم بطريركه يوانيس بسوء السيرة والتجارة بالرتب الكنسية وما إلى ذلك، ابن العبري، التاريخ الكثني، ج ١، العمود ٣٠٨ - ٣١٠. ييدو ديونيسيوس المزعوم وكأنه يعتبر انتخابه شرعياً. أمّا موته فيوشحه بوشاح الحياة إذ يقول: «وهو أيضًا لم يُرزق بطول العمر، إذ هلك سريعاً ومات هذه الميّة على قول أو تلك الميّة على قول آخر. أمّا نحن فلسنا نزعم لأنفسنا الحقّ في الكلام بالأمور المكتومة بل نتكلّها إلى الله الذي يظهر له كلّ شيء واضحًا جليًا»، ترجمة CHABOT، ص ٥٩.

(١٩) بائنة من نواحي الراها، وكان جورجيوس هذا راهبًا من قسرين، ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT، ص ٥٩، ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢٠) وقد كان حبس البطريرك مناسبة ليكيل ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT الشاتم لل الخليفة قائلًا، ص ٨٧: «وكان هذا الملك، متى بلغه أن رجلاً حرك يده أو رجله في طول المملكة وعرضها، لا يهدأ له بال قبل أن يهلكه سواء أكان هذا الرجل فارسياً (عباسياً)، عربياً (أموياً) أو سريانياً. وكان يُعدُّ كأعظم صديق له من دله على رجل يملك شيئاً». ويقول المؤرخ نفسه في الصفحة ١٤١: متى كان الملك ظالماً، كان كل وزرائه ظلمة. ومعلوم أن الكتاب ليس من وضع البطريرك ديونيسيوس بل ربما كان لراهب من دير زقين.

(٢١) وقد كانت هذه القضية تطرح على بعض المسلمين السؤال المعكوس: «ألا يجب إزالة آيات القرآن من على النقود، لأنّها كانت تمثّل في أيدي اليهود والنصارى ورجال جنوب ونساء حيّض»، G. WIET, Le traité des famines de Maqrizi, dans JESHO, V.I. (1962), p. 58. وانظر المقرizi، شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق Daniel EUSTACHE dans Hesperis-Tamuda X, (1969), p. 112-113 على عبد الملك بن مروان.

(٢٢) ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧ - ٥٢٩.

(٢٣) ديونيسيوس المزعوم، ص ٨٧ - ٨٨، يحاول هذا المؤلف الدفاع عن داود زاعماً أنه لم يكن له يد في المظالم التي كان رجاله يرتكبونها باسمه. إن كل هذه المحاولات للدفاع عن بطاركة غير شرعيين تحول دون القبول بالنسبة لهذا الكتاب إلى بطريرك شرعي مثل ديونيسوس.

Bagdad, Capitale du nouvel Empire abbasside, par D.SOURDEL, dans Arabica, 9. (٢٤)

Philosophie et religion en Islam في الصفحة ٤٣ من كتابه L.GARDET (1962), P.26.

إلى أن تأسيس هذه المدينة يكتل «الافتتاح على الشرق» - وانظر أيضاً Some aspects of Islam the Arab-Iranian Culture from the earliest time up to the fall of Bagdad, par S.B. SA-

MADI, Islamic Culture, XXVI, 1952, p32-49.

(٢٥) عن معنى الاسم انظر عبد العزيز الدوري في E.I<sup>2</sup>, p. 920. ويعيل باحثون آخرون إلى أنَّ

- أصل الاسم آرامي. وقد أصبحت القرية حيّا لأبي العباس الفضل، انظر: A LEVY, *A Baghdad Chronicle*, p. 6 وانظر أيضًا صالح أحد العلي، بغداد، ص ٢٧ - ٢٨.
- (٢٦) أنظر مقالتي عن خطط المدائن، مع خريطة تبيّن تحولات مجرى دجلة في مجلة سومر، ٢٣، (١٩٦٧)، ص ٣ - ٣٨.
- (٢٧) من وجهة النظر الجغرافية، تلعب بغداد دورًا مشابهًا للدور المدائن عاصمة لأواسط مجرى هذا النهر، متوسطة تقريبًا بين الشمال والجنوب ومواجهة لمفسح الجبال نحو إيران (طريق خراسان)، تماماً كما أنَّ الموصل عاصمة الشمال تلعب دورًا مشابهًا للدور مدن أشور، غرور، نينوى وخورسabad.
- (٢٨) يروي الخبر ابن الطقطقي، ص ١٢٥.
- (٢٩) راجع: SOURDEL, *Vizirat*, p.78-87.
- (٣٠) يبيّن S.S. NADVI في كتابه *The Origin of the Barmakids* ص ٢٤، أنَّ الأسرة جاءت من بلخ وظلت ببوذية الهند.
- (٣١) سنة ٧٦٣/١٤٦.
- (٣٢) يروي الطبرى، ج ٣، ص ٢٧٧ أنَّ الرهبان كانوا يعلمون أنَّ ملُكًا يلقب بأبى الدوانيق سيأتي إلى هذا الموضع ويبني مدينة. وكان هذا لقب المنصور بالذات، راجع لطائف المعارف للشاعلى تحقيق إبراهيم الأبيارى وحسن كامل الصيرفى، مصر، ١٩٦٠، ص ٤٤. وذهب ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٥٧ - ٥٦٠. إلى أنَّ اسم المؤسس مقلالص وهذا أيضًا ما كان يدعى به الخليفة في صباه. أما سعيد بن البطرير فيقول في: Annales, CSCO, 51, P.49 إنَّ اسم بغداد هو اسم راهب (؟) كانت صومعته بالموضع الذي بنى فيه المنصور مدنه. والحقيقة أنه كانت هناك بلدية بهذا الاسم على ضفة نهر الصراط. انظر أساطير مختلفة في R. LEVY, *A Baghdad Chronicle*, p. 15-17.
- (٣٣) الطبرى، ج ٣، ص ٢٧٤ - ٢٧٥، ٢٧٧، صلبيا، ٦٩ - ٧٠ - كما يبيّن في مقالى، à Rum à l'est de l'Euphrate, Le Muséon, 90, (1977), p. 372 المزاعم الواردة في كتاب La vie de Christophe والقائلة إنَّ المنصور طرد النصارى من حول المدينة.
- (٣٤) ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣ - ١٨٦.
- (٣٥) لمزيد من المصادر عنه راجع مقال دومينيك سورديل في E.I.<sup>2</sup>, I,p. 1138.
- (٣٦) تختلف كتابة الاسم باختلاف المؤلفين: نجده «ابن شهلا» عند ابن أبي أصيبيعة، وابن شهلاً عند ابن الطقطقي الذي يخصه بإشارة خاصة (ص ١٦٥).
- (٣٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١١ - عن دور جورجيوس في ترجمة كتب الطب اليونانية. انظر ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٧٩، وخصوصاً ص ١٨٣.
- (٣٨) الطبرى، III، ص ٤٢٤.

- (٣٩) نجد في الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٢٤ أن الخليفة منع الملاهي في البلاط، حتى إنه أمر بكسر طبور على رأس بعض الخدم.
- (٤٠) أنظر إيليا التصيبيفي في حوادث هذه السنة، وابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٠ - ١١.
- (٤١) ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء، ص ١٨٥.
- (٤٢) أظن أنني استطعت التعرف على هذه الكنيسة النسطورية «الصغرى» في المبى الذي وجد الآثاريون العراقيون به سنة ١٩٧١ ثلاثة قبور عليها كتابات سريانية ومنها واحدة عليها صليب. وهذا المبنى «ملاصق للسور» كما يقول ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦ - ١٥٨، في الزاوية الداخلية الشمالية الغربية من سور المدينة على مسافة ٧٠ متراً تقريباً من دجلة. وقد نقل افتراضي حول هذا الموضوع J.N. POSTGATE في مجلة Iraq للمدرسة التقنية البريطانية في العراق، ج ٣٤، (١٩٧٢)، ص ١٤٥ - ١٤٦.
- (٤٣) ابن القسطي، أخبار، ص ١١١، ابن العربي، مختصر، ص ٢١٥.
- (٤٤) آل عمران: ٦٤ : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله». فالإسلام في ذاته «ديانة رسالية»، طباوي، ص ٤٦. إن واجب النصيحة ربما وجد صدئ له في قول الإنجيل: «ألح عليهم حتى يدخلوا»، لوقا ١٤.
- (٤٥) وهذا يتافق مع خاتمة الآية وهي : «فإن تولوا فقولوا أشهدوا بآتنا مسلمون». يروي ابن قتيبة في كتاب التأويل، ص ٥٦ - ٥٧، خبراً مأثلاً مغفلًا ذكر الأسماء قال: «وببلغني أنَّ رجلاً من أصحاب الكلام قال لرجل من أهل الذمة، ألا تسلم يا فلان فقال حق يزيد الله تعالى فقال له قد أراد الله ولكن إبليس لا يدعك فقال له الذي قاتل فأنا مع أقواهم».
- (٤٦) «وكان يعطي الجزيل والخطير إذا كان إعطاؤه تبديلاً ويعني اليسيير والحقير إذا كان إعطاؤه تضييغاً»، المسعودي، مروج، فقرة ٢٤٣١.
- (٤٧) عن الإهانات التي تعرض لها انظر ١١١-١١١ Assyrie Chrétienne, I, p.108-108 والجدير بالذكر أنَّ عيسى كان مطلق الدين يقدر ما كان الخليفة منشغلًا بطاردة الزنادقة، أي جميع أعداء الإسلام. ففي العام ٧٧٢م، أعدم ابن المفعَّع وابن أبي العوجاء. LAOUST, Schismes, p.72-73.
- (٤٨) ص ٦٨، س ١٧ - ١٨.
- (٤٩) ومنهم والد معروف الكرخي ، وفيات رقم ٧٠٠، الزركلي، ج ٨، ص ١٨٥ . ثمة رواية أخرى في مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي، تحقيق صادق محمد الجميـل، في المورد، بغداد، ٩ (١٩٨١)، ص ص ٦١٧ - ٦١٨ .
- (٥٠) ديونيسيوس المزعوم، تاريخ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- (٥١) كان اسمه موسى بن كعب التميمي تبعاً للطبراني، ج ٨، ص ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٦ . وتسمية مصادر أخرى موسى بن مصعب (الشماعي). نظرًا إلى التخليط الكبير في الأسماء فإنني أميل

إلى الملاحظة التي يديها محقق كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريا الأذدي (القاهرة) ص ٢٢٤ - ٥٦٠ .  
الخاصة رقم ٣ . قارن: تاريخ ديونيسيوس المزعوم، ص ٩١ . الراهن المجهول  
٢٦٦

(٥٢) تختلف التواريخ التي يوردها كل من ديونيسيوس المزعوم وبخائيل السرياني.

(٥٣) تاريخ، ص ٩١، وبخائل له الكاتب ما يقارب المائة صفحة الأخيرة من القسم الرابع.

(٥٤) ببخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٥٥) المقصود هنا هي الجزيرة لا جزيرة ابن عمر التي لم تكون تسمى هكذا في ذلك الزمن.

(٥٦) هنا أيضاً يكيل ديونيسيوس المزعوم التهم للمنصور (ص ١٠٠): «ولكن لما كان الملك يسرّ بالتخريب أكثر مما يسرّ بالسلام طرد المشتكيين من حضرته وأنزل عقوبات صارمة بأكابرهم» .  
ص ٩٨ .

(٥٨) قبريانوس الأول، المتخب سنة ٧٤١، هو نفسه الذي كانت له مشاكل مع آبا الثاني (المتوفى سنة ٧٥١) والذي حرض طلاب المدائن ضده . وقد كان تصالح مع يعقوب الثاني وتوفي

سنة ٧٦٧ بعدما شغل كرسي المطرانية خمساً وعشرين سنة، راجع Nisibe, p.75-78 .

(٥٩) ابن القسطي، ص ١٦٥ ، ابن أبي أصيحة، ص ١٨٥ ، ماري، ص ٦٩ .

(٦٠) وقد كان المنصور، عند اعتلائه سدة الخلافة في العام ٧٥٤، استعان بخدمات قبريانوس لينقل إلى الحيرة الأموال التي جمعها من الهاشمية مدينة السفاح، ماري، ص ٧٠ .

(٦١) بالقرب من واسط، ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٤٨٤ .

(٦٢) صليباً، ص ٦٣ - ٦٤ . هذا الدائن المشؤوم هو أبو العباس الفضل بن سليمان الطوسي الذي يذكره الطبرى مراراً في الجزء الثالث من تاريخه . وقد شارك في مسيرة العباسين الطويلة من خراسان منذ سنة ١٢٩ هـ . وقد ولى سنة ١٤٦ هـ . قطاع الضفة الغربية للعاصمة، وصار صاحب ختم الخليفة سنة ١٥٨ هـ، ووالي خراسان وسجستان سنة ١٦٦ حتى ١٦٧ . وقد عاد إلى بغداد سنة ١٧٠ ، ودفع إليه مجداً ختم الخليفة، ثم مات في السنة نفسها .

(٦٣) ربما كانت تلك مناسبة لأول نكبة تقع على موسى؟ وقد أعيد هذا العامل القاسي إلى منصبه ثم خلع لدى مبادلة المهدي (بخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧) «وانكشف ما نزل بالناس من كروب» .

(٦٤) D.H.G.E., III, Chronographia, p.678-679, 687, 690 وشاهد من C.KARALEVSKII في: S.V. Antioche, vol, 598

(٦٥) حبيب الزيات، الخزانة الشرقية، المجلد ٣، ١٩٤٦ في مقالة «اليهود في الخلافة العباسية»، ص ٥٤ - ٧٨ ، يتكلّم عن «عداء اليهود للنصارى في الإسلام» .

(٦٦) التدبر الأخير ينسبه ديونيسيوس المزعوم إلى موسى بن مصعب، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

- (٦٧) يذكر ابن الأزرق، ص ٦٨٤، أن النصارى قد تعهدوا بأن لا يعلموا صبيانهم القرآن الكريم.
- (٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، طبعة ليدن، ج ١، ص ١٩٦ مذكور عند فاروق عمر، ص ٣١، ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٢، حيث يسمى هؤلاء «جرمقبلي» أي الجرامقة (السريان).
- (٦٩) ديونيسيوس المزعم، ص ٤٦. ومن هذا الباب أن بعض ملوك الساسانيين كان قد «أمر العرب حيثما يارخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة». الإبيهي، المستطرف، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ١٩٩.
- (٧٠) عن فظائع المنصور، انظر تعليق عبد الشابلي في تحقيق كتاب الفرج بعد الشدة للشنجي، ج ٣، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (٧١) يبدو مع ذلك أن بعض أيدي الكتاب قد قطعت، وينسب ابن القيم ذلك إلى المهدي، (ص ٢١٦). ومن ضحايا القطع رجل اسمه سهونا. في ما بعد ذكر سليمان بن وهب أن بعض أجداده، واسمها ماهويه الواسطي، قد حمله بالأثار حماد التركي الذي قلل المنصور «تعديل» السود، الجهشاري (طبعة الحلبي، ص ١٣٤).
- (٧٢) ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧. يلاحظ ميخائيل أن الارتداد «كان بسبب بعض الأهواء».
- (٧٣) ص ٢١٤ - ٢١٥.
- (٧٤) خلافة المهدي.
- (٧٥) كتاب الجاحظ، حياته وأثاره، ص ٣٦٠.
- (٧٦) فؤاد افرام البستاني، دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٨ - ٣٩. نلاحظ أن اللاحقي كان الشاعر المفضل لدى الجاحظ، PELLAT, Gähiz à Baghdad, p. 63 avec réf. ريناً أغان هذا على إلقاء بعض الضوء على شخصية الجاحظ المتعددة الجوانب لا سيما إذا ذكرنا أن الجاحظ نفسه كان بصرياً وأن أبان هذا كان يدعى زنديقاً؟ انظر A.E. KRYMSKI, Ābān al-Lāhiqī le Zindiq, بالروسية والفرنسية، مع نصّ عربي للصوبي، الأوراق، Moscow, 1913، وفيه فقرة عن ديانة أبان ص ١٧ - ١٨. يخصص ابن الأبار فقرة طويلة لأبان اللاحقي في كتابه أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشت، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٩٦١/١٣٨٠، ص ٧٧ - ٨٢.

---

### ٣ - المهدى (١٥٨ - ٧٧٥ / ١٦٩)

---

كان الخليفة العباسي الثالث أبو عبدالله محمد، الذي تسمى بالمهدى يختلف كثيراً عن أبيه المنصور. فقد أمر بفتح أبواب السجون<sup>(١)</sup> حال توليه الخلافة. وقد استفاد جرجس بطريق العيادة المحبوس منذ تسع سنوات من هذا العفو،<sup>(٢)</sup> ومثله يوحنا مطران نصيبين النسطوري.<sup>(٣)</sup> ولكن المهدى، احتراماً منه لأوامر أبيه، منع جرجس من التلقي بلقب بطريق.<sup>(٤)</sup>

وقد ظلّ المهدى على هذا الحلم مدة حياته. وقد قال عنه المسعودي إنّه كان «محبّاً إلى الخاصّ والعامّ لأنّه افتتح أمره بردّ المظالم وكفّ عن القتل وأمنّ الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في إعطاء الأموال».<sup>(٥)</sup> أمّا ماري فيقول إنّه «أحسن السيرة وترك خراج سنة على الناس وردّ ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه». ~~لذلك~~ بيد أنّ المهدى كانت له مساواة تقابل مزاياه. فقد فتح خزائن أبيه وعمّه وراح ينفق منها بسخاء سين العاقبة على الجيش والدوافين والطرق والبريد فحسّنها كثيراً، ثمّ تجاوز إتفاقه الحدّ حتى شمل الجواري<sup>(٦)</sup> والقيان، وكلّ أولئك الذين كان يريد مكافأتهم.<sup>(٧)</sup> كان طيباً جواداً، نبيلاً متساحماً، وكان أيضاً سهل التصديق للخوارق مثله مثل سائر أهل عصره وجعل يجمع كتب السحر.<sup>(٨)</sup>

كان منجمه الرسمي رجلاً خلقي دونياً، ويذهب ابن العبرى إلى أنّه كان مارونيّاً ويدعى ثيوفيلوس بن توما. وقد تبنّى ثيوفيلوس هذا بأنّ موت سيدّه سيكون بعيد موته هو بقليل، فكان كمال قال.<sup>(٩)</sup>

وقد دفع حب الاستطلاع المهدى إلى إقامة علاقات (بين غزوتين) مع القيصر

لأوون البيزنطي، ليطلب منه كتب علوم اليونان القديمة. وهكذا تطورت في ظلّ المهدى حركة الترجمة الكبرى التي بدأها المنصور منذ تأسيس بغداد مع البطريق<sup>(١١)</sup> الذي ربما كان من بعض أسرى الروم. وقد نقل ثيوفيلوس نفسه من اليونانية إلى السريانية أشعار هوميروس وبعض كتب أسطو. وعلوم آن السريان كانوا قد بدأوا منذ زمن بعيد بنقل كتب اليونان<sup>(١٢)</sup> إلى لغتهم، ولذلك جاء معظم الترجمات الأولى من السريانية إلى العربية.

وقد نبه ابن خلدون إلى دور النصارى في «تحضُّر» العرب<sup>(١٣)</sup> عندما كتب في مقدّمه الشهير: «حتى إذا تبحّج السلطان والدولة وأخذ (العرب) من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم... شوّفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الأساقفة والأقساة المعاهدين بعض ذكر منها... فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقيليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها».

سنعود ثانية إلى الدور المهم الذي قام به النصارى في حركة الترجمات العلمية من اليونانية إلى السريانية والعربية. ولنقلها هنا إنّه يحقّ لنصارى الشرق المعاصرین أن يفتخرّوا بهذا الإسهام الجليل في تشكيل الثقافة العربية.<sup>(١٤)</sup> ييد أنّ هذه اللوحة يتخلّلها بعض الظلال، إذ قد جاء وقت مع خلافة المتوكّل التفت فيه المسلمون إلى الجانب السلبي أو حتّى المدّام للدخول ذلك القدر الضخم من العناصر الغربية في الفكر الإسلامي. فالازمة التي ارتبطت بنشوء الفكر المعتزلي تسترّ في ما تسترّ في الترجمات التي بدأت في عصر المنصور والمهدى. ولقد أحسن المسعودي إذ ربط اعتقادات الملحدين والذاهلين عن الدين بما «انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقّيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والقهولية إلى العربية».<sup>(١٥)</sup>

المقصود هنا هو اللسان الفارسي، ولكن مجرّد إدخال الفلسفة قد حرف الفكر العربي المسلم النقى عن اتجاهه، إذ حوله من الإيمان إلى علم الكلام. والنصارى

السريان مسؤولون (بصورة غير مباشرة) عن ذلك، فضلاً عن الفرس والروم. وهم سوف يؤاخذون على ذلك من بعد.

## الصيدلاني الظريف

كان للمهدي طبيب اسمه موسى بن إسرائيل الكوفي<sup>(١٧)</sup> ولكننا نجد إلى جانبه، وفي بطانة الخيزران، رجلاً نصراوياً كان الوسيط المعترف به بين أهل ملة، والجحالة منهم بخاصة، وبين عرش الخلافة. كان هذا النسطوري المدعواً أبو قريش عيسى نسخة جديدة عن سلفه جبرائيل السنجاري الذي كان الأمر الناهي في بطانة الملكة شيرين في عصر كسرى. كان أبو قريش صيدلانياً وكانت له دكة بالقرب من بعض أبواب قصر الخلافة.

يروي لنا ابن العربي<sup>(١٨)</sup> في كثير من الطلاقة ما كان من خبر هذا الصيدلاني في بعض أيام سنة ١٤٣ / ٧٦٠. فقد جاءته جارية بقارورة فيها بول ليقول لها ممّ تشكو صاحبتها. فما كان من صاحبنا إلا أن نظر إلى التفسرة بعين الجدّ مظهراً أنه يتحّصّلها ثم أجاب بلا تردد ولا اضطراب: «صاحبة هذا الماء حبل وستلد مولوداً ذكراً يكون له شأن عظيم ويلك على الناس». يعلم الله كم كان خوف هذا المزاج عظيماً عندما قالت له الجارية إنّ التفسرة لم تكن إلا للخيزران<sup>(١٩)</sup> جارية ولـي العهد الأثيرة، وإنّه إذا صدق تنبؤه أثرى إلى ولد الولد،<sup>(٢٠)</sup> أما إذا كان كاذباً... إرتعان المسكين وأُسقط في يده، فراح يعدو من هذه الكنيسة إلى ذاك الدير ويكثر من الصوم والصلوة والزكاة حتى ذلك اليوم الموعود. ومن حسن التوفيق أنّ موسى، الذي لقب بالهادي من بعد، ولد سنة ١٤٤ / ٧٦١<sup>(٢١)</sup> فاستقبل أبو قريش عيسى في القصر بحفاوة بالغة، ثمّ رقي إلى مرتبة طبيب الأميرة الرسمية. ولما صار المهدي، والد الطفل، خليفة سنة ١٥٨ / ٧٧٥، وصارت أم ولده الخيزران صاحبة السلطة الحقيقة صار للنساطرة في شخص عيسى نصير ذو نفوذ.

## شؤون الجاثليق

كان أول دور اضطلع به «الطبيب» هو الحصول على إذن المهدي لأهل طائفته

بانتخاب جاثليق جديد<sup>(٢٢)</sup>. ولما حصل عيسى على الإذن لم يتدخل في الاختيار. فقد كان ثمة مرشحان ينافر كلاً منها فريق من رجال الكنيسة والعلمانيين. ومعلوم أن هؤلاء، ولا سيما أعيان المدائن (والآن أعيان بغداد) كانوا يلعبون دوراً رسمياً، في انتقاء المرشحين لا في عملية الانتخاب نفسها التي كانت من امتيازات الأساقفة والمطارنة.

هذه المرة كان أول من تقدم للانتخاب حنان يشوع أسقف لاشوم<sup>(٢٣)</sup> وكان شاباً عالماً بارعاً ذكياً نقياً،<sup>(٢٤)</sup> وكان من ورائه رئيس الشمامسة مارُوئي وأهل الحيرة والجرامقة، أما المرشح الثاني فكان راهباً يدعى جيورجيس من دير بيت حالاً متضلعَا من السريانية والعربية والفارسية.

لماذلما يتوصل مجتمع دير مار قيثيون ببغداد إلى انتخاب شرعي؟ يكتفي المؤرخون هنا بالقول إن القضية رُفعت إلى الم Heidi الذي استدعي المرشحين.

إن لجري امتحان الخليفة للمرشحين دلالة على ذهنية ذلك العصر. ففي مرحلة أولى دعا الخليفة الرجلين إلى الإسلام قياماً بواجب النصيحة، فرفض جيورجيس، أما حنان يشوع فتخلص متذرعاً بأنه لا يعرف العربية<sup>(٢٥)</sup> بعد هذه الرسميات بدأت اللعبة التي ستتيح اختبار علم الخبرين. سألهما الخليفة: «عصا موسى التي صنع بها العجائب من أي أصناف الخشب كانت»<sup>(٢٦)</sup>. لا يهمنا من أوحي لل الخليفة بهذا السؤال، ولا ما كانت الأجوبة: فقد كان جيورجيس أربع الاثنين فمنحه الم Heidi جائزة العلم. ولكن الخليفة أُعجب بيده طلعة حنان يشوع ووقاره فرجح كفتة. وربما كان الخليفة متزعجاً من رفض جيورجيس القاطع الدخول في الإسلام. الخلاصة أن حنان يشوع قد اختير وكلف الربيع بن يونس الوزير بتنفيذ القرار.<sup>(٢٧)</sup>

III لا نعرف إلا القليل عن جثلقة حنان يشوع الثاني، وذلك من قول صليبا المختصر: وقد «أعجب الناس تدبيرة». وبعد أربع سنوات من التنازع، توصل الدائن الغضوب أبو العباس الطوسي، الذي صادفناه في ما تقدم، إلى وضع حد لطالية الجاثليق بقرية دوقرة، فسمّم الحبر «وخرجت الدوقرة عن أملاك الكرسي».

يَتَّهِمُ الْمُؤْرِخُ الْبِيزِنْطِيُّ ثِيُوفَانُوسُ الْمَهْدِيُّ أَيْضًا بِاضطهاد النصارى. (٢٧) وَهُوَ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي الْعَامِ ٧٧٢، إِذْنَ قَبْلِ مِيَاجِعَةِ الْمَهْدِيِّ بِالْخِلَافَةِ. يَرْوِي ثِيُوفَانُوسُ أَنَّ الْأَمِيرَ قَدْ أُرْسَلَ مِنْ دَبِقَ، قَاعِدَةِ عَمَلِيَّاتِهِ ضِدِّ الْبِيزِنْطِيِّينَ، «مَاكِيْزِيَاْسَ الْمُتَعَصِّبَ»، وَأَمْرَهُ بِاستبعاد النصارى وإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْخَرُوجِ مِنْ دِينِهِمْ وَتَخْرِيبِ الْكَنَائِسِ». وَالْحَقُّ إِنَّ «مَاكِيْزِيَاْسَ» هَذَا لَيْسَ إِلَّا الْمُحْتَسِبَ (٢٨) الَّذِي أُرْسَلَ الْمَهْدِيُّ «فِي بَدَائِيْهِ» لِكَيْ «يَخْرُبَ الْكَنَائِسَ الَّتِي أُنْشِئَتَ فِي زَمَانِ الْعَرَبِ وَيَبْعَثَ عَبِيدَ النَّصَارَى». فَهُدَمَتْ كَنَائِسَ كَثِيرَةً وَهَرَبَ الْعَبِيدُ. يَقُولُ ابْنُ الْعَبْرِيِّ إِنَّ إِحْدَى الْكَنَائِسِ الَّتِي هُدَمَتْ كَانَتْ لِلْخَلْقِيْدُونِيِّينَ (الرُّومَ) بِحَلْبَ، وَهَذَا يَحْلِدُ مَوْقِعَ التَّخْرِيبِ. وَفِي حَلْبَ أَيْضًا أَكْرَهَ الْمَهْدِيُّ سَنَةَ ٧٧٨ بَنِي تَنَوْخَ مِنَ الْعَرَبِ النَّصَارَى عَلَى الإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ ٥٠٠٠ رَجُلٍ، وَيُذَكَّرُ فِي هَذِهِ الْمَنَاسِبَةِ اسْتَشَهَادُ رَجُلٍ يُدْعَى الْلَّيْلَثُ. (٢٩)

يُدْرِجُ مِيخَائِيلُ السَّرِيَانِيُّ هَذِهِ الْإِجْرَاءَتِ فِي سِيَاقِ رَدَّةِ فَعْلِ الْخَلِيفَةِ ضِدَّ الْزَّنَادِقَةِ وَعَلَى رَأْسِهِمِ الْمَانُوَيَّةِ. وَيَبْدُو أَيْضًا أَنَّ مِنْ أَسْبَابِهَا سُخْطُ الْخَلِيفَةِ إِثْرَ هَزِيْتَهُ أَمَّا لَاوَنَ الرَّابِعِ. (٣٠) لِذَلِكَ كَانَ بُوْسَعْنَا أَنْ نَشَاطِرَ رَأِيَ فَارُوقَ عَمْرَ (٣١) إِذْ يَعْتَبِرُ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَاتِ اسْتَثنَائِيَّةً وَأَنَّ «مَوْقِفَ الْمَهْدِيِّ الْعَامِ» إِنَّمَا كَانَ مَوْقِفَ التَّسَامِحِ. وَسِيَاطِحُ لَنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ ذَلِكَ أَكْثَرَ فِي عَلَاقَاتِهِ مَعَ الْجَاثِلِيقِ طَيِّبَائَوسَ.

وَلَكِنَّ يَبْقَى أَمَامَنَا خَبْرُ «شَهِيد»: فَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْأَوَّلِ مِنْ آيَارِ ٧٨٠ أُعْدَمَ فِي الرَّافِقَةِ الرَّاهِبِ السُّورِيِّ رُومَانُوسَ. فَقَدْ أَخْذَ رُومَانُوسَ فِي غَزْوَةِ سَنَةِ ٧٧١ وَظَلَّ أَسِيرًا مِنْذِئِ بَعْدَدَ حِينًا فِي مَعْسِكَرِ وَحِينًا آخَرَ فِي مَنْزِلِ لِبْعَضِ أَثْرَيَاءِ النَّصَارَى. وَقَدْ أَتَهُمْ مِنْذِ سَنَةِ ٧٧٨ بِالتَّجَسِّسِ، فَاسْتَطَاعُ أَنْ يَثْبِتَ أَنَّ ثَمَّةَ التَّبَاسَ فِي الْأَسْيَاءِ بَيْنِهِ وَبَيْنِ سَمِّيِّ لَهُ، وَلَكِنَّ دَنَا أَجْلَهُ لَمَّا تَوَصَّلَ إِلَى رَدِّ بَعْضِ أَسْرِيِ الرُّومِ إِلَى النَّصَارَىيَّةِ مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَنَقُوا الإِسْلَامَ. أَمْرَ الرَّبِيعِ بِجَلْدِهِ وَأَمْرُ الْمَهْدِيِّ بِقَتْلِهِ مِنْ بَعْدِمَا حَاوَلَ زَعْزَعَةَ إِيمَانِهِ. (٣٢)

أَمَّا الْإِجْرَاءَتِ الَّتِي يَنْسَبُهَا إِلَى خَلِافَةِ الْمَهْدِيِّ كُلَّ مِنْ ابْنِ الْقَيْمِ (٣٣) وَابْنِ النَّقَاشِ (٣٤) فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ عَدَدًا مِنْهَا يَرْقَى بِالْفَعْلِ إِلَى عَهْدِ الْمُنْصُورِ. (٣٥) فَالْلَّازِمَةُ

الأساسية في كتاب أحكام أهل الذمة هي إنَّه «في عهد هذا الخليفة أو ذلك تعاظمت أهمية أهل الذمة». . . فظلموا المسلمين. والأمر يتعلّق دائمًا بالكتاب المتعجّرين (الذين لا غنا عنهم). وقد مرّ دهر قبل أن يتوصّل الخلفاء إلى الاستغناء عنهم، على الرغم من هجاء المتدّرين. من ذلك أنَّ بعض الصالحين تمنّ كانت له عادة في حضور مجلس الخليفة ذكر للمهدي اجتماع الناس إلى بابه متظّلين من ظلم أهل الذمة ثم أنشده:

بأي وأمّي ضاعت الأذهان والأفهام  
أم ضاعت الأحلام  
مَنْ صُدِّعَنْ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ  
إِلَّا تَكُنْ أَسِيَافُهُمْ مَشْهُورَةً  
اللهُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ قِيَامٌ  
فِينَا، فَتَلَكَ سِيَوْفُهُمْ أَقْلَامُ

تجدر الإشارة هنا إلى أنه في هذه الحقبة أي ابتداءً من العام ١٦٦/٧٨٢ تقدّم إلى عهد المهدي ظلت الوزارة، في ما يبدوا، بين يدي الفيض بن أبي صالح، وهو سليل أسرة من نيسابور كانت نصرانية. كان هذا الوزير الرفيع الأدب سخياً مفضلاً، عزيز النفس كثير الكبر والتباهي، وكانت له، ولا شك علاقات بأهل ملة أبيه، ولكن المؤرّخين لا يذكرون شيئاً عن هذا الشأن.

### بين جاثليقين

كان المهدي في أوائل سنتي خلافته العشر عندما مات البطريرك حنان بشوش مسموماً بيد الطوسي.

وقد تقدّم إلى خلافة الجاثليق المغدور أربعة مرشّحين: الراهب جبورجيس الذي لم يوفق في المرة السابقة، توما أسقف كسكر مدبر السيدة الشاغرة، افريم مطران جنديسابور الأول في الرتبة بين المطارنة وهو السادس الأول شرعاً، وأخيراً مطران مغمور من بعض أبرشيات الأطراف التابعة لحدياب،<sup>(٣٦)</sup> طياثاوس أسقف بيت بغض.

هذه المرة جمع جبورجيس الراهب، بمعونة رئيس الشامسة بيرُوبي، أصوات نصارى (المداين) وأهل كسكر، وأهل نصيбин.<sup>(٣٧)</sup> وقد أعاد الطبيب على انتخاب جبورجيس ولكنّهم وجدوه ميتاً.

١٧ لن أعود إلى تفاصيل انتخاب طيّا ثاوس المعروفة جيداً، ذلك الانتخاب الذي يصعب غسله من وصمة الأنجار بالدين. فقد رشح كاتب يُدعى أبو نوح الأنباري، نجد عقبه في خدمة المتوكل من بعد، أسقف بيت بخش. وقد كان هذا الكاتب قد تربى مع طيّا ثاوس بمدرسة إبراهيم بن دشنداد الأعرج في شوش.<sup>(٣٨)</sup> ثم إنّ طيّا ثاوس اختار الترهيب أمّا أبو نوح فصار كاتباً لدى موسى<sup>(٣٩)</sup> بن مصعب عامل الموصل. ومن موقعه هناك مذ يد العون إلى طيّا ثاوس، (الذي صار أسقف بين بخش)، ليسترد خراج أبرشيته. ويبدو أنّ أبي نوح كان (في بعض الدواوين) ببغداد عند انتخاب طيّا ثاوس في أيار سنة ٧٨٠ لأنّه كان هناك لاقتراح اسم صديقه.<sup>(٤٠)</sup>

أمّا أبو قريش عيسى الذي مات مرشحه فقد انحاز إلى مؤيدٍ طيّا ثاوس، بدليل أننا نراه يلوم اغريم مطران جندسابور على معارضته، تلك المعارضة التي أدّت إلى إعادة شعائر الرسامة مرّة ثانية في كنّسية الأصيبح العبادي (المنسوب إلى الحيرة) بدار الروم.

### يوسف المروزي

ثمة حادث ربّما عُكّر علاقات طيّا ثاوس بالمهدي، ذلك هو خبر يوسف مطران مرو. فقد كان يوسف هذا خطيباً مشهوراً بالعربّية والفارسية، وكان قد أعطى صوته لطيّا ثاوس لقاء وعد كاذبة. وعندما تنّكر طيّا ثاوس لوعوده من بعد انتخابه، انضمّ يوسف إلى المتمرّدين الذين رسموا جاثليقاً منافساً في دير الطين بالقرب من حديثة دجلة فحرّمهم طيّا ثاوس من شركة المؤمنين.

هل تعلقت قضية ثانية بهذه؟ يقول ابن العبري إنّ يوسف قد قبض عليه متلبساً باللواء.<sup>(٤١)</sup> عندئذ لم ير المذنب إلاّ حلّاً واحداً لمشكلته: فأشهر إسلامه بين يدي المهدي الذي استعمله على بعض أعمال البصرة.

ولَا أراد تسويغ إسلامه أمام الخليفة أطلق الاتهام الذي أصبح (لسوء الحظ) كلاسيكيّاً:<sup>(٤٢)</sup> «النصارى يدعون ليل نهار لانتصار الروم». كان هذا الكلام

يساوي، في ظروف الحرب الدائرة آنذاك، اتهاماً بالخيانة. في البداية حمل الخليفة الأمر على محمل الجد، وهدد بالقضاء على النصارى. ومن حسن التوفيق أنَّ الطبيب عيسى لم يكن بعيداً عن مجرى الأحداث فأجاب الخليفة فوراً: «الروم يكرهوننا أكثر من اليهود».

وقف المهدى متخيلاً بين هذين القولين (وهذا مما يشرفه)، وأحبَّ أن يقف على حقيقة الأمر: ما كانت علاقات النساطرة بالروم؟ طرح السؤال على طريق شريف كان أسيراً عنده. فلم يترك جوابه مكاناً لأدنى ريب: «يكاد النساطرة أن لا يكونوا نصارى. وهم إلى العرب أقرب منهم إلينا» يعني أنَّ تحيز النساطرة وجهن في ذات المسيح يلغى آلام الإله وأمومة مريم للإله، و يجعل موقفهم أدنى إلى عقيدة المسلمين.

من بعدهما أخفق يوسف في الهجوم العام، أراد أن يوقع بطبياتاؤس الذي كان قد كذب عليه وألقى عليه الحرم. دبر يوسف مكيدة منمقة: رسالة مزيفة من الجاثليق إلى قيصر الروم تقول: «إنَّ العرب ضعاف، فاغزهم تتتصر». وقد خبئت الرسالة، مع شيء من الذهب في موضع يسهل اكتشافه لدى أيَّة مصادرة. ولكن الحيلة لم تنطل على الخليفة. لم يقع يوسف المرتد كثيراً في وظيفته بالبصرة بل هرب ولحق بالروم حيث ارتد إلى النصرانية في ما يُروى.

### طبياتاؤس والمهدى

إنَّ المؤلَّفات الكثيرة التي نُشرت عن هذا الموضوع<sup>(٤٣)</sup> لتعفينا من بسط الكلام فيه. يؤكِّد صليباً<sup>(٤٤)</sup> أنَّ الخليفة كان يستدعي الجاثليق «في أكثر الأيام ... (وكانت) له معه مباحث يطول شرحها». <sup>(٤٥)</sup>

يروي طبياتاؤس نفسه بعض ما جرى في هذه المناظرات في رسائله إلى صديقه سرجيس. ففي بداية وقائع مناظرات اليوم الثاني، كما وردت في النص السرياني<sup>(٤٦)</sup> يُسرُّ الجاثليق إلى صديقه: «بأنَّ المقابلات مع الخليفة كانت تجري باستمرار، وكانت حيناً في شؤون الدولة، وحيناً لإرواء الظمآن إلى الحكمَة الذي كان

يشتعل في صدر الخليفة. فهو ودود ويحب تعلم الحكمة متى وجدها عند غيره». ربما دلت الجملة الأخيرة على أن التواضع لم يكن من خصال طبياً، ولكنها تعبر، في آية حال، عن جميل الثناء على الخليفة.

وقد طلب المهدى من طبياًوس أيضاً أن يترجم له كتاب طوبيقاً لأرسطون السريانىة. وفي سنة ٧٨٢، أنسج الجاثليق، بمعاونة أبي نوح، ترجمة فضلها الخليفة على ترجمة أخرى من اليونانية رأساً.<sup>(٤٧)</sup> ولكن الجاثليق اعترف بعد ذلك بكثير، حوالي سنة ٧٩٩، بأنه استعان ببعض الروم لمراجعة النص الأصلى.<sup>(٤٨)</sup>

من المعروف، أخيراً، أن طبياًوس كان يهتم بالعلوم وقد صنف فيها مصنفات عدّة، منها كتاب في علم الفلك.<sup>(٤٩)</sup> وقد كان من شأن هذا أيضاً أن يقربه إلى الخليفة.

تجدر الإشارة،ختاماً، إلى أنه ليس لنا أن نركّز خلافة المهدى كلّها على علاقاته الطيبة بطيماًوس، وكان هذا كان مستشاره المسنون الكلمة النافذ الأمر. ولthen استفاد النصارى من هذه الظروف المؤاتية، فإن محور الاهتمام كان غيرهم، إنّه هاجس المهدى في حلّ سلمي لمعضلة أهمّ من المشاكل الصغيرة المتعلقة بالنصارى. وما تلك إلاّ معضلة العلوين في نزاعهم مع الهاشميّين،<sup>(٥٠)</sup> أولئك العلوين الذين تعقبهم المنصور، والذين أوشكت إحدى انتفاضاتهم أن تطيع بالخلافة. وقد كان المهدى يرى حلّ هذه المشكلة برفع سلسلة نسب الأئمة إلى جده العباس بحيث يتمكّن من جمع شمل الفتّين المتنافستين.

كذلك، فقد كان لا زدهار حياة البلاط<sup>(٥١)</sup> المؤاتية للهوايات المترفة والجدل الودي، عواقب وخيمة منها «خلق جوّ من عدم الاستقرار لما كان لنفوذ الموالي، حسّاد وزير الخليفة، من دور في الكيد لهذا الأخير مكائد لا يتوصّل دائئراً إلى التغلب عليها» ولقد شهدت العهود اللاحقة تفاقم هذا الميل وتزايد نفوذ الفرس في الدواوين وبين أهل الحكم. وقد استفاد النصارى من هذه الحال قبل أن يقعوا ضحايا ردّة الفعل عند تصلّب العقيدة في خلافة الموكّل.

كانت عناصر الماسي التالية جاهزة كلّها عندما توفي المهدى عن ثلاثة وأربعين عاماً في ٢٢ محرّم ٤١٦٩ آب ٧٨٥.

## الحواشى

- (١) تناول العفو الشيعة بخاصة وذلك في سياق سياسة التهدئة، LAOUST, *Schismes*, p.73.
- (٢) الرهاوي المجهول، ص ٦٦٦.
- (٣) إيليا النصيبي في أخبار السنة ١٥٩هـ. يبدو أنَّ هذا المطران قد حُبس بالموصل مع بعض أعيان المدينة، من قبل موسى بن مصعب.
- (٤) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٤ - ٣، ابن العبرى، ج ١، العمود ٣٢٨. يضيف ميخائيل السريانى «أنَّ بعض الوشاة (النصارى؟) اتهموه لدى العكى أمير الجزيرة بأنه قد داس برجليه أوامر الملك». وقد دافع المطران ثيودوسيوس الحرّانى عن البطريرك. نلاحظ في هذا الشأن، أنَّ جرجس لم يكن يعرف العربية فكان على المطران أن يترجم ما يقول.
- (٥) مروج، الفقراًن ٢٤٤١ و ٣٤٤٧، التنبية، ص ٣٤٣.
- (٦) ص ٧٠.
- (٧) الرهاوي المجهول، الصفحة نفسها.
- (٨) الكامل، ج ٦، ص ٨٣ - ٨٤، ابن الطقطقى، ص ١٤٣. نرى الخليفة يشاطر بعض النبط (السريان) طعامه. أنظر أيضًا في الطبرى، ج ٣، ص ٥٤٢، قصة الجارية الرومية الحسناء التي انكشف جييها الواسع عن صليب ذهبي معلق بين ثدييها.
- (٩) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١١.
- (١٠) تاريخ الزمان، ص ١١ - ١٢. إنَّ المترجم النصرانى الوحيد الذي يذكره ك. نلينو في Sun, Moon and Stars (Muhammedan) de l' Encyclopedia of Religions and Ethics, 2nd. ed., 1934, vol. 12, p.91.
- DUNLOP, D.M., The Translations of al-Bitriq and Yahya b. al-Bitriq, in JRAS, (١١) 1959, p.140-150.
- (١٢) أنظر مقالتي في: MIDEO (القاهرة)، ج ١٨، ص ٣٥٣ - ٣٥٧، Le Mystérieux. أنظر S.P. BROCK, Greek into Syriac Traducteur (١٩٧٧)، ص ٤٠٦ - ٤٢٢.
- M. ALLARD, dans Mélanges H. Fleisch, Beyrouth, 1977, II, p.730-737. (١٣)
- (١٤) طبعة دار الكتاب اللبناني، ج ١، ص ٨٩٢.
- Note sur les Chrétiens et les lettres arabes, par Youakim MOUBARAK, P. 123- (١٥)
130. De même: Influence of Syriac Grammar on Arabic, par Anis FRAYHA.
- الأبحاث، ١٤، (١٩٦١)، ص ٣٩ - ٦٠، إلخ.
- (١٦) مروج الذهب، الفقرة ٣٤٤٧.
- (١٧) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.

- (١٨) ح ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦، ابن أبي أصيحة، ص ٢١٦ - ٢١٧، ابن القسطي، ص ٢٨٣ - ٢٨٠.
- (١٩) مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ١٥ - ١٩، الزركلي، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، AB- BOT, Two Queens, p. 21-134.
- (٢٠) يقول ماري في الصفحة ٧٠، إنه تلقى عربونا قيمته ألفا درهم.
- (٢١) كان في السادسة والعشرين من عمره عندما توفي سنة ٧٨٦/١٧٠.
- (٢٢) يفرد صليبا بجعل الانتخاب في خلافة المنصور سنة ٧٧٣. أما ماري وعمرو (ملحق صليبا في Gismondi, p.129) فيجعلانها في خلافة المهدى وكذلك إيليا التصيبي الذي يجعلها في سنة ٧٧٥/١٥٩.
- (٢٣) Assyrie Chrétienne, III, p.54-60 خلافاً لما يقوله ماري (ص ٧٠) فإن هذه البلدة مميزة عن الداقوق (طاووق) الموجودة على بعد ١٢ كلم منها. لن أعطي بعد الآن مراجع عن التقسيمات الإدارية المسيحية، فبوسع طالبها أن يجدتها في مجلدات Assyrie Chrétienne
- (٢٤) ماري، ص ٧٠ - ٧١، صليبا، ص ٦٣ - ٦٤، ابن العربي، ج ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦. إيليا التصيبي، تحت السنة ١٥٩ هـ.
- (٢٥) في هذا الحديث نموذج عن المناوشات التي ازدهرت خلال هذه الخلافة والخلافة التي أعقبتها. وقد تكلم الكتبي عن هذه الأحاديث في ظل المأمون، نظامي عروضي، ص ١١١ - ١١٠.
- (٢٦) نحن إذن في مستهل خلافة المهدى، إذ قد أفل نجم الوزير بعيد ذلك. سنلتقي به ثانية في خلافة المهدى.
- (٢٧) Chronographia, I, p. 700
- (٢٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١.
- (٢٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٤٧٨ - ٤٨٠.
- (٣٠) R. CASPAR, Les Versions Arabes, p.115
- (٣١) Some Observations ومقالات أخرى للباحث نفسه.
- (٣٢) أنظر جملة من التفاصيل حول هذه الحالة وحول حياة الأسرى ببغداد في St. Romain le Néomartyr, d'après un document géorgien, par le p. PEETERS, Analecta Bollandiana, XXX, (1911), p.393-427. مع ترجمة لاتينية يعتقد الكاتب أن هذه الرواية مستقاة من أصل عربي مفقود.
- (٣٣) ص ٢١٥ - ٢١٧.
- (٣٤) ص ٤٣٨ - ٤٤١.
- (٣٥) فالمتصور هو الذي استعمل على الأهواز ودجلة وفارس عمارة بن حزنة، الطبرى، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

- (٣٦) أبشرية نسطورية تشمل شمال العراق الحالي.
- (٣٧) إذا صحت لنا قراءة «صوب» بدلاً من «صوب»؟
- (٣٨) صلبيا، ص ٦٦ - ٦٨.
- (٣٩) ماري، ص ٧١، يسميه أبا موسى.
- (٤٠) وقد ورد في خطوطه ينفرد الأب بولس سباتا بذكرها (في ملحق كتابه الفهرس ص ١١ فقرة ٩٣) أنّ أبا نوح قد صار كاتبًا لطبياثاوس. وقيل إنّ اسمه عبد المسيح.
- (٤١) سترى حالات مماثلة عند رجال الكهنوت، من ذلك قيس من الحيرة «ترك الإنجيل حيًّا للصبا»، على قول جحظة البرمكي (المتوفى سنة ٩٣٦/٣٢٤)، نشوار المحاضرة، طبعة الشالجي، ج ٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.
- (٤٢) ثمة مقارنات مع ما كان يحصل في ظلّ الفرس، تذكرها N. GARSOIAN في *Le rôle de N. GARSOIAN dans la hiérarchie chrétienne*, p. 132-135
- (٤٣) آخر ما كُتب فيه هو كتاب H.PUTMAN الذي يعرض القضية من شتى جوانبها ويقدم بيلوغرافيا وافية. أضف إلىه مقالة L. SAKO ومقالة T. CASPAR.
- (٤٤) ص ٦٤ - ٦٦.
- (٤٥) يوجز طبياثاوس في رسالته الأربعين (بيداويد، ٣٢ - ٣٣) إلى سرجيس مناظرة دارت بينه وبين فيلسوف أرسطوطاليسي حول بعض الأمور الدينية: الله، أفعاله، تحمسده، إلخ. يذهب المطران بيداويد (ص ٣٢، الخاشية رقم ٢) إلى أنّ هذا الفيلسوف ربّما كان عبدالله الأشمي الذي كتب في رسالة له إلى الكلدي: «وقد قرأت ذلك كله ودرسته وناظرت فيه مع طبياثاوس جاثليق». الأغلب أنّ عبدالله هذا كان نسطوريًا أسلم. انظر G. KINDI par G. TROUPEAU, E.I.<sup>2</sup>, IV, p.123-124
- (٤٦) في CASPAR —
- (٤٧) الرسالة، ٤٣، بيداويد، ٣٥، راجع G. BAUDOUX, La lettre du patriarche Timothé au prêtre docteur Pétion, dans *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales, volume offert à Jean Capart*, III, (1935), p.40.
- (٤٨) . Ep. 48، بيداويد ٣٧ - ٣٨.
- (٤٩) ماري، ص ٧٤.
- (٥٠) SOURDEL, Vizirat, p. 92-93
- (٥١) المراجع، نفسه، ص ١١٦.

---

## ٤ - الهاדי (١٦٩ - ٧٨٥ / ١٧٠ - ٧٨٦)

---

وعلى ذكر المكائد، فقد ذهب الخليفة الجديد ضحية إحداها بعد سنة واحدة من توليه الخلافة، ولم يكن بعد قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر. أما من دبر موته فهي والدته الحيزران التي كانت قد سرت كثيراً بولادته، والتي بدأ القلق يساورها من هذا الولد عندما أراد التخلص من سلطتها<sup>(١)</sup> وحبس هارون أخيه الأثير عندها. فهي، في ما روي، التي دبرت خنق الهادي<sup>(٢)</sup> ل تستخلف ابنها الأطوع لإرادتها هارون الرشيد.

أدّت مؤامرة الحيزران<sup>(٣)</sup> ووفاة الهادي إلى إنقاذ حياة أطّبائه النصارى أبي قريش عيسى، عبدالله الطيفوري<sup>(٤)</sup> وداود بن سرابيون<sup>(٥)</sup> الذين كان الهاادي قد حكم عليهم بالموت لأنّهم مافلحوا في شفائه.<sup>(٦)</sup> وفي اللحظة الأخيرة استدعي إلى سرير الخليفة العليل طبيب آخر كان يقيم بالقرب من نهر صرصر، اسمه عبد يشوع. كما أنّ يختيشوع بن جورجيس، قد استدعي أيضاً من جنديسابور، إلا أنّه وصل من بعد فوات الأوان.<sup>(٧)</sup>

لا نعرف الكثير عن حال النصارى في ظلّ هذا الخليفة العابر «القاسي القلب الشرس الأخلاق». <sup>(٨)</sup> فقد أخذ بسيرة أبيه في مطاردة الزنادقة ونهج العداء للعلويين.

يروي لنا ماري حدثاً عجيباً، يبرز في حياة الهاادي القصيرة، كالصخر العظيم النائِ في عرض الجبل. فقد اتفق أنه لما مرَّ الخليفة بحدثة الموصى أراد، لسبب لا نعرفه، أن يكسر تابوتاً لبعض الشهداء، معظّماً عند نصارى الناحية، ويطرحه في

دجلة. إلا أنّه تراجع عما أراد بعدما ألمت برأسه وعينيه أوجاع حادة مفاجئة. ولما شفي جدد الأمر بكسر التابوت. وتقول رواية إنّ الأوجاع تجددت، وإنّه مات هذه المرأة... يختلف سبب موت الخليفة في هذه الرواية اختلافاً بيّناً عما ينسبه المؤرخون إلى الحizirان من ضلوعها في تدبير قتل ولدها<sup>(٩)</sup> وعلى أيّة حال يبقى سلوك الخليفة عصيّاً على التفسير. إذ ربما كان قد ضاق صدره، بعد خيبة رجائه في شفاء عجائبي مناه به راهب دعيّ من رهبان الحديقة المؤمنين بقدرات التابوت، مثلما كان قد خاب ظنه في علم الأطباء الثلاثة من قبل؟

لا نعرف شيئاً عن علاقات طيباًثاوس بالهادي. ويجوز لنا أن نقدر أنها قد تبادلا بعض الأحاديث، إذ يقال عن الخليفة إنّه «كان كثير الأدب محباً له». (١٠) رد على ذلك أنّ الهادي كان في أول عهده «كثير الطاعة لأمه الحizirان مجبياً لها في ما تُسأله من الحوائج» (١١) للمقرّبين إليها ولعلّ طيباًثاوس كان منهم بفضل أبي فريش. إنّ مرض الهادي الذي جعله نفوراً من الناس وخلافته القصيرة التي خيم على أواخرها ظلّ خلافاته مع أمّه، لم يسمح للخليفة الشاب بإقامة علاقاتوثيقة مع الجاثيلق. وإن كان ماري يؤكد بلا تردد، ومن بعدما ذكر الهادي في جلة الخلفاء المعاصرين لطيباًثاوس: «أنّه لم يبق ملك إلاّ وكاتبه وجذبه إلى الإيّان وتلمذه».

## الحواشي

- (١) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٧، يبيّن أنّ الهادي قد حظر عليها الاشتغال في شؤون الخلافة سواء ما خصّ منها المسلمين أو ما خصّ الذميين.
- (٢) يذهب فاروق عمر إلى أنّ سبب الرفاة هو تسمّم عرضيّ نتج عن خطأ بعض الجواري، *Caliphate*, p. 341.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٤ - ٣٤٣.

(٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.

- (٥) هل هذا الطبيب هو الجغرافي الذي قدّم رواية جديدة لكتاب صورة الأرض للخوارزمي؟  
راجع André MIQUEL, *La géographie humaine du monde musulman*, I, 1976 p. (1973).

XXVIII.

(٦) ابن القسطي، ص ٢٨١.

- (٧) ابن أبي أصبيعة، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- (٨) مروج، الفقرة ٢٤٧٠ .
- (٩) يذهب السيوطي، ص ٢٨٠ ، إلى أنَّ المادي رَبِّا حاول من قبل تسميم أمَّه؟ وجاء في بعض روایات مقتل الخليفة أنَّ أمَّه «عملت على قتلها لَمَا وعلَكَ بِأَنْ غُمُّوا وَجْهَهُ بِسَاطٍ وَجَلَسُوا عَلَى جوانبِهِ» .
- (١٠) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٠ .
- (١١) المصدر نفسه، الفقرة ٢٤٧٦ .

---

## ٥ - الرشيد (١٧٠ - ٧٨٦ / ١٩٣ - ٨٠٩)

---

لا يجوز لنا أن نحكم حكمًا عامًّا على عهد دام ثلاثة وعشرين سنة، علمًا بأن الخليفة الجديد قد باشر أمور الخلافة وهو بعد في العشرين من العمر. فالخيزران، تلك الأمّة المسلطة التي دبرت، في ما قيل، قتل ابنها البكر موسى الهادي لتضمن العرش لابنها الأثير هارون الرشيد، قد ظلت «خلف الستار» بالمعنى الحقيقي للعبارة.<sup>(١)</sup>

بعدما أوصل الخليفة الشاب والدته إلى مثواها الأخير،<sup>(٢)</sup> بدأ يتصرف بصورة مستقلة، فعين مثلاً بعض الرجال في مناصب كان قد أجل تعينهم فيها لأنّ أمّه لم تكن راضية عنهم،<sup>(٣)</sup> ومن حسن حظ المملكة أنه كان متأثراً بالبرامكة (١٧٠ - ١٨٧ / ٧٨٦ - ٨٠٣)<sup>(٤)</sup> فقد «اختلت أموره بعد البرامكة وبيان للناس قبح تدبيره وسوء سياساته»<sup>(٥)</sup> على حد قول المسعودي الصارم.<sup>(٦)</sup>

أما عن النصارى فقد كان طيباً ثالوس الجاثلين في السدة منذ ست سنوات<sup>(٧)</sup> وقد تمنع برعاية المهدي والد الخليفة الجديد وحماية أم ولده الخيزران بمساندة أبي قريش عيسى الطبيب. وعما قليل ستراه في جملة المقربين إلى الرشيد مشمولاً بعطف السيدة زبيدة، وتمتعاً برصد آل بختيشون أطباء الباطل ورصيد غيرهم من الكتاب النصارى.

وزارة يحيى بن خالد (١٧٠ - ١٨٧ / ٧٨٦ - ٨٠٣)

منذ العام ٧٨٠، وعقب غزوة مظفرة للأراضي البيزنطية<sup>(٨)</sup> أسكن يحيى

البرمكي وأبواه خالد في حي البرامكة الأرستقراطي بالشهاشية (شمال شرق بغداد) جماعة من الروم كان سباههم وأجلائهم، وفيهم بطريقهم، عن بلدة سمالووس<sup>(٩)</sup> البيزنطية. وقد صارت دار الروم<sup>(١٠)</sup> التي أحلوها فيها، دير الروم ومقر جثلقة المشارقة من السريان بعد مئة سنة من ذلك التاريخ. وقد بقي منها إلى جانب الكنيسة البطريركية، كنيسة للملكين يقال لها كنيسة سمالو وكنيسة أخرى لليعاقبة. كان البرامكة يقيمون علاقاتوثيقة مع النصارى، ويشهد على ذلك أيضاً اسم حبيهم: الشهاشية (نسبة إلى الشهاش).

إن ما ينسبه المسعودي<sup>(١١)</sup> إلى يحيى البرمكي من أنه كان: «ذا علم ومعرفة ويبحث ونظر» وأنه كان يجمع في داره للمناظرة عدداً من مشاهير أهل النظر المسلمين ومن الفرق كلها، يصح أيضاً على الجيل الأول من البرامكة كلّه.

شجع البرامكة عمل الترجمة<sup>(١٢)</sup> الذي كان قد بدأ في خلافة المهدى. ومن المحتمل أن تكون قد أتت بدافع منهم المكتبة الشهيرـة التي عُرفـت بخزانة الحكمة<sup>(١٣)</sup> والتي صارت من بعد نواة معهد الترجمة الذي سُمي بـيت الحكمـة.

وقد استقدم يحيى إلى بغداد، لإدارة البهارستان الذي أنشأه، طيباً هندياً<sup>(١٤)</sup> عـرفـ العـربـ بالـ طـبـ الهـنـديـ منـ خـلـالـ تـرـجـاتـهـ. وفيـ العـامـ ٧٩١/١٧٥ـ اسـتـخدـمـ جـعـفـرـ البرـمـكـيـ جـبـرـائـيلـ بنـ بـخـتـيشـوـعـ الذـيـ كانـ والـدـهـ بـخـتـيشـوـعـ بنـ جـورـجيـسـ قدـ عـادـ إـلـىـ بـغـدـادـ سـنـةـ ٧٨٧/١٧١ـ، مـنـ بـعـدـمـ أـزـاحـهـ أـبـوـ قـرـيشـ عـيـسىـ، وـشـفـىـ هـارـونـ الرـشـيدـ.<sup>(١٥)</sup>

ستتكلـمـ عـمـاـ قـلـيلـ عـنـ دورـ جـبـرـائـيلـ بنـ بـخـتـيشـوـعـ لـدىـ الـخـلـيفـةـ، وـليـكـفـناـ أـنـ نـلـحـظـ هـنـاـ أـنـ جـعـفـرـ البرـمـكـيـ كانـ يـجـبـهـ جـمـعاـ.

وقد جاء لـعـلاـجـ الرـشـيدـ منـ جـنـديـسـابـورـ أـيـضاـ مـاسـويـهـ بنـ يـوحـنـاـ<sup>(١٦)</sup> الصـيدـلـانـيـ والـكـحـالـ، أـوـلـ سـاعـورـ فـيـ أـوـلـ بـهـارـسـانـ أـنـشـئـ بـيـغـدـادـ.<sup>(١٧)</sup> أـمـاـ اـبـهـ، أـبـوـ زـكـرـيـاـ يـوحـنـاـ بنـ مـاسـويـهـ فقدـ صـارـ فـيـ خـلـافـةـ الـمـأـمـونـ رـئـيـساـ لـلـمـتـرـجـمـينـ وـخـدـمـ المـتوـكـلـ أـيـضاـ، حـتـىـ وـفـاتـهـ بـسـامـراءـ، سـنـةـ ٨٥٧/٢٤٥ـ.<sup>(١٨)</sup>

وـقـعـ حـوـالـيـ سـنـةـ ٧٩٠ـ مـ. خـبـرـ مـنـ شـأنـ ذـكـرـهـ أـنـ يـكـملـ فـيـ نـظـرـنـاـ صـورـةـ بلاـطـ

الرشيد. فقد عين الخليفة عبيد الله بن المهدى عاملاً على مصر.<sup>(١٩)</sup> وقد أرسل عبيد الله إلى الرشيد جارية نصرانية، من البيها بصعيد مصر، صارت حظيته. ومن سوء التوفيق أنّ المحبوبة اعتلت، فاستدعي طبيب مصرى شهير هو بوليانوس (٨٦٧ - ٨٠١) بطريق الإسكندرية للملكية من النصارى ولم يلبث هذا الطاطي أن شخص العلة: إنه الحنين إلى الأوطان. وقد صحت الحسناً بعدما أكلت «من كعك مصر الخشن والصين» وسر الخليفة بذلك وهذا سرّه. فكان أن تسلم بوليانوس جائزة نقدية سنوية فضلاً عن منشور من الخليفة بأن تعاد إليه كنائسه التي غصبه إياها «اليعاقبة» (أي الأقباط هنا).<sup>(٢٠)</sup>

سواء أجلبت المخطوطات على يد من كان يبعث لشرائها من الأمبراطورية البيزنطية أم كانت في جملة غنائم الغزوات، فقد أغتلت مكتبات بغداد وجاءت بعمل كثير للمترجمين. وتجدر الإشارة هنا إلى تغيير نظرة الفقهاء: ففيما كان الإمام الأوزاعي المتوفى سنة ٧٧٤، في خلافة المنصور، يرى أن الكتب الإغريقية إذا ما أخذت في بعض الغزوات يجب أن تُدفن في الأرض لأنّ فيها شرّاً، نجد الشافعى المتوفى سنة ٨٢٠، في خلافة المأمون، يرى أن يُؤتى بمن يترجمها: فإذا كانت في الطبّ أو العلوم لم يستقبح بيعها، أما إذا كان فيها شرك وجب تزييقها.<sup>(٢١)</sup>

إنّ ما يعني هنا ليس النشاط الفكريّ الكثيف لذلك العصر، فهذا موضوع قد أُشبع درساً من قبل،<sup>(٢٢)</sup> بل إنّ ما يهمّنا هو دور النصارى البارز في هذا النشاط، ذلك الدور الذي يشرّفهم حقّاً. ولكن يجب أن ننبه أيضًا إلى ما كان ينطوي عليه وضع نخبة المثقفين النصارى التميّز من خطر على جماعة النصارى كلّها. إن ارتفاع نسبة تمثيل النصارى في الطبقات المهنية العليا من المجتمع (كتاب، أطباء) كان من العوامل المؤدية إلى تفاقم الوضع الهامشى لفئة الأقلية النصرانية. وذلك لأنّ البنية الاجتماعية المهنية لهذه الفئة عينها لا تماثل البنية الاجتماعية المهنية للأكثرية المسلمة التي لم تكن حتى ذلك الوقت ممثّلة بنسبة كافية في الطبقات المهنية العليا نفسها.<sup>(٢٣)</sup>

قبل أن نغادر بمحبي البرمكيّ ولديه، نذكر في جملة الشعراء الذين مذكورون أبا قابوس عمراً بن سليمان الحميري من بني شيبان الذين كانوا بالحيرة.<sup>(٢٤)</sup>

## أول تنظيم لأحوال النصارى

هل كان الفضل وأخوه جعفر ابن يحيى البرمكي أفلَّ تسامحًا من والدهما؟ ينسب غازي الواسطي<sup>(٢٥)</sup> إليهما قراراً بعزل غير المسلمين من الدواوين. فالفضل، في ما قبله، قد «خرّب»<sup>(....)</sup> معاقلهم ومعابدهم بخراسان وأمر بأن لا يمكنوا من بياض شيء مما بقي من كنائسهم لثلاً يتشبهوا بمساجد المسلمين في البلاد».

على آية حال أنَّ أول تنظيم لأحوال أهل الذمة يعود إلى القاضي<sup>(٢٦)</sup> أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأننصاري الكوفي المولد، المستشار القانوني لجعفر البرمكي. فقد خلع عليه الرشيد (الأول مرة في الإسلام) لقب قاضي القضاة وكلفه بتصنيف كتاب في القانون. وقد عُرِف كتابه الذي كُتب في صورة رسالة، هي في الحقيقة مجموعة أموال جمعها تلميذه بشر بن الوليد الكندي<sup>(٢٧)</sup> تحت عنوان كتاب الخراج، ولو أنه يعالج جملة متنوعة من المباحث الأخرى، ومنها الأصول الواجبة في معاملة النصارى.

إنَّ هذه الأصول التي تكشف عن مكانة النصارى المرموقة في مجتمع البرامكة، تعبر عن تسامح كبير. وقد ذكرتُ طرفاً منها في المقدمة، لدى الكلام عن الجزية.

لنلاحظ هنا أنَّ النصَّ يطلعنا على المقدار الذي يجب أن تدفعه كل «طبة» ويوقفنا على المهن التي كان يتهنئها اليهود والنصارى من أهل الذمة في المدن. فالصيارفة وتجار النسيج وأصحاب الضياع والتجار والأطباء كانوا يُعدون في الأغنياء وكان عليهم أن يدفعوا ٤٨ درهماً في السنة، أما التجار وأصحاب الحرفة فكانوا يُعدون أغنياء أو متوسطي الحال وكانت جزيتهم إما ٤٨ أو ٢٤ درهماً سنويًا وأما العمال اليدويون كالخياطين والأساكفة والصياغين فكان عليهم ١٢ درهماً.<sup>(٢٨)</sup> وكان هذا المبلغ يمثل حسب كلود كاهن أجر عشرة إلى خمسة عشر يوماً. ويرى هذا المؤلف: «أنَّ الرجل الخاضع للجزية لم يكن مع ذلك أسوأ حالاً من المسلم الذي كان مكْلُّفاً بالزكاة التي كان الذي معفى منها من حيث هو كذلك».<sup>(٢٩)</sup>

كان يُسمح للنصارى بالإقامة في مدن المسلمين وأسوقهم ولكن لم يكن يحق لهم أن يبيعوا الخمر فيها ولا الخنزير. ويعالج فصل كامل<sup>(٣٠)</sup> مسألة الكائس

والبيع: وخلاصة القول إنّه يجوز ترميمها ويحضر إحداث أيّ منها، كما أنّه يجب ألاً تظهر الصلبان في العلن. هذا كله ليس جديداً بل هو جزء من شروط الصالح التي أبرمت عند الفتح.

ثمة فصل يفاجئنا بما ينطوي عليه من إذلال، إنّه ذاك الذي يعالج «لباس أهل الذمة وزيهم». ولقد أُشير إلى هذا الأمر من قبل: إنّ هذه التدابير لا أساس لها في القرآن الكريم بل تصدر عن سياسة زمنية ومؤقتة.<sup>(٣١)</sup> لن نناقش صحة النتائج الأخرى، إذ إنّه من المفهوم أن يفرض على نصارى الشعور المتاخمة للعدو البيزنطي «أن يتميّزوا عن المسلمين»، وخصوصاً عن العسكر، كما أمر بذلك عمر بن الخطاب في ما قيل. بيد أنّ أبي يوسف يدهشنا عندما يوصي<sup>(٣٢)</sup> ببغداد وبين العام ١٧٠ و١٨٢/٧٩٨ و٧٨٦، وفي خلافة الرشيد ووزارة البرامكة «بأن لا يترك أحد منهم يتشبه بال المسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويوخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كلّ واحد منهم، وبأن تكون قلائصهم مضربة، وأن يتّخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعاهم مثنية، إلخ...»<sup>(٣٣)</sup>

عندما تصّلّب العقيدة عند الحنابلة من السنة وعند الشيعة تطّورت هذه الإجراءات التميّزية المذلة حتى أصبحت العاملات اليومية مع النصارى موضع تحرّج إذ عدّت مصافحتهم سبيلاً للجنابة.<sup>(٣٤)</sup> ثم صارت تطرح أسئلة أخرى عن جواز الرد على تحيّتهم.<sup>(٣٥)</sup> وهل يجوز الشراء من دكاكينهم؟ هذا عدا عن المسائل الشرعية المتعلقة بالزواج والوصاية على الأطفال والمواريث... وقد كانت المسألة الأخيرة مداعة لعدد من التسويات الشرعية وتكييف القوانيننصرانية بما يوافق الشرع الإسلامي.<sup>(٣٦)</sup>

أدت الإجراءات التميّزية والضرائب الخاصة مدّة خلافة الرشيد إلى خروج بعض النصارى من دينهم. وقد حاول بعضهم، في ما يبدو، أن يجد بعض المخارج؟ ويبين الفقيه محمد الشيباني<sup>(٣٧)</sup> (المتوفى سنة ٨٠٥) تلميذ أبي يوسف كيف يجبر المدعون على اعتهاد سلوك لا لبس فيه: «فاما اليوم ببلاد العراق فإنّ (اليهود

والنصارى) يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولكنهم يزعمون أنه رسول إلى العرب<sup>(٣٨)</sup> لا إلى بني إسرائيل. ويتمسكون بظاهر قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ» فَمَنْ يَقُرَّ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا حَتَّى يَتَبَرَّأْ مِنْ دِينِهِ مَعَ ذَلِكَ، أَوْ يَقُرَّ بِأَنَّهُ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ. حَتَّى إِذَا قَالَ الْيَهُودِيُّ أَو النَّصَارَى: أَنَا مُسْلِمٌ أَوْ أَسْلَمْتُ لَمْ يَحْكُمْ بِإِسْلَامِهِ. لَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْمُسْلِمَ هُوَ الْمُسْتَسِلِمُ لِلْحَقِّ الْمُقَادِلُ لَهُ: وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَقَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ. فَلَا يَكُونُ مَطْلُقُ هَذَا الْلَّفْظُ فِي حَقِّهِمْ دَلِيلُ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَبَرَّأْ مِنْ دِينِهِ. كَذَلِكَ لَوْ قَالَ: بِرَبِّتِي مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مَعَ ذَلِكَ: دَخَلْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَحْكُمْ بِإِسْلَامِهِ، لَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَبَرِّاً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَدَخَلَ فِي النَّصَارَىَّةِ. فَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ: وَدَخَلْتُ فِي الْإِسْلَامِ فَحِينَئِذٍ يَزُولُ هَذَا الْاحْتِمَالُ».

واضح أنَّ الهدف من الصيغة التي يجب على مَنْ يُؤْدِي الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يتلفظ بها هو قطع الطريق على أصناف التحايل كُلُّها. إنَّ أَوَّلَ مَنْ صنَّفَتْ لَهُ صيغةِ الخروجِ مِنَ النَّصَارَىَّةِ كَانَ، فِي مَا قِيلَ، عُونَ كَاتِبُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ،<sup>(٣٩)</sup> وَلَعِلَّهُ أَبُو الْفَضْلِ عُونَ بْنِ هَارُونَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي الْمُسَيَّبِ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ (١٩٦ - ٢١٨ / ٨١٤ - ٨٣٣).<sup>(٤٠)</sup> وَقَدْ حَفِظَ لَنَا النَّوْبِرِيُّ،<sup>(٤١)</sup> وَهُوَ كَاتِبُ مِنِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ لِلْهِجَرَةِ (١٤)، نَصَّ هَذِهِ الصِّيَغَةِ، وَهِيَ مُخْتَوِيَّةٌ عَلَى «الشَّهَادَتِيْنِ» الْمُعْظَمَتِيْنِ وَهُمَا شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرْسَلَهُ بِالْهَدِيَّ وَدِينُ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَنَبِيُّهُ، وَمَرِيمَ امْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا (ص) خَاتَمُ الْمُشَرِّكِينَ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَنَبِيُّهُ، وَمَرِيمَ امْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا (ص) خَاتَمُ النَّبِيِّنَ، وَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنَّ شَرِيعَتَهُ أَفْضَلُ الشَّرَائِعِ وَمُلْتَهُ أَفْضَلُ الْمَلَلِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ حَقٌّ، وَقَالَ: «أَنَا بِرَبِّتِي مِنْ كُلِّ دِينٍ يَخَالِفُ دِينَ إِسْلَامٍ». ثُمَّ تَسْجَلُ شَهَادَتَهُ عَنْهُ الْقَاضِي وَيُشَهِّدُ عَلَيْهِ شَاهِدَانِ».

ولدينا فضلاً عن هذه وثائق أخرى أصرح منها تختص بالملكيتين المصريتين الذين يعتنقون الإسلام، وفيها صيغة بدائلية لليعاقبة أو النساطرة. من هذه الوثائق قانون إيمان مسيحي مقلوب قد خلط بعض المعتقدات الساذجة، كتمثيل الثالث باعتباره مؤلفاً من الآب والأم والروح القدس. ولا يكتفي المسلم الجديد بالاعتراف

بأكل لحم الجمل والزواج من امرأتين. بل يعلن موافقته، على ذبح الشمامسة والديرانيين، وهدم الكنائس والأديرة. هذا النص الكاريكاتوري الكريه مثبت في كتاب لتعليم الترسّل<sup>(٤٢)</sup> كنموذج على «عين النصارى» الداخلين في الإسلام.

### تهمة التجسس

كانت أحوال النصارى من رعايا العباسين حرجه دائمًا حيثما تاختت أراضي الخلافة أراضي الأمبراطورية البيزنطية التي كانت تدين رسميًا بالنصرانية. لم يكن في هذا شيء مختلف عما كانت عليه الحال منذ أيام الساسانيين،<sup>(٤٣)</sup> ولقد رأينا أسلاف الرشيد يتّخذون التدابير الكفيلة بشنّ الطابور الخامس المحتمل أو صبّ سخطهم عليه إذا ما باؤوا بهزيمة ما.

هنا أيضًا تفرد المصادر البيزنطية<sup>(٤٤)</sup> والسريانية الغربية<sup>(٤٥)</sup> بتقديم المعلومات، ذلك لأنّها هي وحدها المعنية بها مباشرة. وتروي هذه المصادر أنَّ الرشيد «قد زاد الجزية في أول عهده، فهاجر كثيرون من هؤلاء وهرروا من بلدتهم وبقيت أراضيهم في يد العرب». كذلك أمر الخليفة «في السنة الثانية بأن تحرّب الكنائس والمعابد إلى الغرب من نهر سنجا» ليكمل بناء مدينة الحدث<sup>(٤٦)</sup> التي استنقذها من البيزنطيين من بعدهما استولوا عليها قبل إتمامها. لذلك استعملت حجارة كنيسة كيسوم الكبيرة وحجارة بضع عشرة كنيسة أخرى بدلاً من المقالع لإعادة بناء سور الحدث.<sup>(٤٧)</sup> لا نعرف هل جرت هذه الأمور لأنَّ الخليفة نفسه أمر بها أم كانتمبادرة قام بها عامل الناحية عبد الملك بن صالح.

يشير طيّاثاوس الجاثليق في رسالة أرفقت بنص القوانين الكنسية التي أقرّت في مجمع سنة ٧٩٠<sup>(٤٨)</sup> إلى زيارته الخليفة ست مرات، ويبدو أنه قد خصّص هذه الزيارات الست للحصول على إذن الرشيد بإعادة بناء هذه الكنائس.<sup>(٤٩)</sup>

ومن حسن طالع النصارى، ولا سيّما نصارى الثغور، أنَّ غزوات الرشيد الأولى كانت مظفرة، وبخاصة في العام ١٨١/٧٩٧ - ٧٩٨، إذ قبلت الأمبراطورة هيلانة بأن تدفع الخراج للعرب.<sup>(٥٠)</sup>

في السنة ٧٩٧ عينها<sup>(٥١)</sup> اجتاز الرشيد بالرها، «فواجهه المسلمون وشكوا النصارى مدعين أنَّ ملك الروم يزورهم كلَّ سنة سرًا ويصلُّ في كنائسهم» وطلبوه منه هدم الكنيسة الكبرى وإبطال دُقَّ التوقيس. وقد تدخلَ يحيى<sup>(٥٢)</sup> مستشار الخليفة فردَّ التهمة عنهم. فكان أنْ أمر الخليفة بضرب المسلمين وطردهم بدلاً من أن يستمع لهم.

في العام ٨٠٧ كاد قرياقوس بطريرك أنطاكية لليعاقبة أن يذهب ضحية مكيدة دبرها له أساقوته أنفسهم:<sup>(٥٣)</sup> كان الرشيد في قاعدة عملائه برج دابق<sup>(٥٤)</sup> عندما جاءه الأخبار ليسوقوا ضد قرياقوس الاتهامات المعتادة «لقد سُوِّدَ قرياقوس علينا من دون الرجوع إلى رأينا، وبهذه عهد ويرهقنا بالمكوس. إنه يحادُّ الملك والمسلمين جميعاً. وهو يبني البيع في بلاد الروم ويكاتبهم، ولا يرتضي المكوث في موضع أنت فيه، فإذا كنت بالشرق ذهب إلى المغرب». <sup>(٥٥)</sup>

بدأ الخليفة بتصديق المفترين لما استعظم قدرهم. وما إن أطلع أحد عَمَّاله، المدعو ابن مطر، على سخطه حتى سارع إلى التنكيل بالنصارى في أنطاكية والقدس إلخ. وهدم بعض الكنائس. «وغم من ذلك مالاً كثيراً».

بعد ذلك عملت أصناف النفوذ المتضاربة. كان للبطريرك محام بارع ذو علاقات مكينة يأهل السلطة، ألا وهو ثيودوسيوس أسقف سلوقيه الذي صادفه من قبل. بيد أنَّ التمردين أضافوا إلى افتراءاتهم تهمة القتل، قالوا إنَّ البطريرك قد اغتال أحد الأساقفة.

ولما بلغ قرياقوس أنَّ الخليفة قد سير الجندي ليقبضوا عليه بالرقة، قصد الخليفة بنفسه وارتمى على قدميه وصلَّى من أجله. فوقع ذلك في نفس الرشيد فوكَّل أمر محاكمته إلى إسحاعيل بن صالح الكاتب. وكان هذا يعرف البطريرك فلم يصعب عليه تبرئة الخبر. فسمح له الخليفة بالعودة إلى ديره بالرقة.

وقبل أن نختتم أخبار الحروب مع البيزنطيين، نشير إلى أنَّ الخليفة كان يصطحب في أسفاره أحياناً طيماً ثاوس جاثليق الساطرة. هل كان يفعل ذلك للاستمتاع بحديثه العلمي أم للتبرُّك به؟ أم لاستخدامه وسيطاً في تعامله مع سُكَّان

الأرض من النصارى الذين يجدهم في طريقه أو يرجو استسلامهم السريع؟ هذه الأسباب كلّها قد صادفناها من قبل عندما كان الملوك الساسانيون يصطحبون أسلاف طيّا ثاوس<sup>(٥٦)</sup> ولو بالقوّة أحياناً. ولدينا بالنسبة إلى هذا الأخير مثال محدّد: ففي السابع من حزيران ٧٩٩ (١٨٣ هـ) استجاب الجاثليق لأمر الرشيد باللحاق به إلى الأراضي البيزنطية. وقد سمع له باستعمال مطاييا البريد الملكي<sup>(٥٧)</sup> ليعجل في الوصول.

### مفصل العام ١٨٧ / ٨٠٣

كان اليوم المقدّر يقترب، ذلك اليوم الذي خلع فيه هارون الرشيد إما سأاماً أو حسداً،<sup>(٥٨)</sup> الوصاية الثانية في حياته، وصاية البرامكة. وقد جاء القرار كالكثير من قرارات الخلفاء الخطيرة بعيد عودة الخليفة من الحجّ.<sup>(٥٩)</sup> ذهب الرشيد أولاً إلى الحيرة حيث أقام بضعة أيام<sup>(٦٠)</sup> عند أحد كبار أثرياء النصارى، عون الجوهري الذي كان قصره المسكن اللائق الوحيد في المدينة.<sup>(٦١)</sup>

لتوقف قليلاً أمام عون العبادي هذا (أو العبادي)، المنسوب إلى العباد أي نصارى الحيرة من العرب) الذي كان صاحب الحيرة<sup>(٦٢)</sup> وكان جوهرياً<sup>(٦٣)</sup> من حيث حرفته. وإنّ المرء ليقدر الثراء العريض الذي تمتع به هذا الرجل إذا ما رأى النفقات البادحة التي كان ينفقها الأكابر<sup>(٦٤)</sup> ليزيّنوا حظاً ياهم وأحباءهم وحتى كلامهم.

هل كانت أرباح هذا الجوهري فاحشة؟ يبدو أنّ الأمر كان كذلك، حسب الخبر الذي يرويه ماري عن الجواهر التي أهدتها الرشيد إلى بعض سراريته فباعتها من عون الذي اشتَطَ في الثمن لما أراد الخليفة شراؤها من جديد. لذلك ذاق الجوهري الغبي طعم الحبس ولم يفرج عنه إلّا بعدما تدخل جرائيل بن بختيشوع المتطبّب وتوفيلا الرهاوي<sup>(٦٥)</sup> الفهرمان. وقد فرق عون صدقات<sup>(٦٦)</sup> جزيلة فرحاً بخروجه من الحبس.

كان لعون أيضاً مشاكل مع طيّا ثاوس الجاثليق. ذلك أنّ عوناً كان، كغيره

من النصارى الموسرين، منذ جبرائيل السنجاري أيام كسرى حتى يختيشو في ظلّ المتوكّل. قد تأثّر بعادات بيته وأتّخذ لنفسه بعض الجواري، فلامه طيّا ثاؤس على ذلك. <sup>(٦٧)</sup>

بعدما أقام الخليفة مدة بالحيرة عند عون الجوهري، <sup>(٦٨)</sup> أصعد على الفرات إلى دير كان بالقرب من الأنبار. <sup>(٦٩)</sup> هذا الدير المشهور هو دير يونان الراهب تلميذ مار أوّجين. <sup>(٧٠)</sup> من هناك انطلق مسرور الخصي بالأمر المقدّر بقتل عصر البرمكي. إنّ تفاصيل هذا الحادث الكثيف لم تزل موضع نقاش، <sup>(٧١)</sup> وليكفنا أن نشير هنا إلى أنّا نجد في عداد المقربين الذين شاركوا عصراً آخر أكلة له، الطبيب النصراني يختيشو الذي كان آتى في خدمة البرمكي. <sup>(٧٢)</sup>

### درع للنصارى <sup>(٧٣)</sup>

بعد نكبة عصر البرمكي وحبس معظم أهله، وفيهم يحيى الذي مات سنة ١٩٠/٨٠٥، فقد جبرائيل بن يختيشو، طبيب عصر الخاضن، سيده وحاميه. بيدّ أنه وجد سيداً أعظم نفوذاً واحتلّ منه مكانة لا تضاهى.

في السنة عينها، ١٩٠/٨٠٥، استدعي جبرائيل إلى البلاط <sup>(٧٤)</sup> حيث تحققت على يديه سلسلة من الشفاءات المدهشة، بدءاً بالمحظى التي نسيت أن ذراعها مسلولة عندما بسطت يدها في حركة غريزية لستر عورتها إذ خافت أن تنكشف. وقد نال جبرائيل من شفائتها ٥٠٠،٠٠٠ درهم. <sup>(٧٥)</sup>

والأشدّ أنّ جبرائيل قد حاز ثقة هارون الرشيد المطلقة. فقد نجده في الرقة <sup>(٧٦)</sup> سنة ١٩٣/٨٠٨، أول من يدخل على الخليفة كلّ صباح ويحاذثه بأحاديث حميمة. <sup>(٧٧)</sup> وقد أزال التكّلف في معاملة الرشيد، حتّى كان يستجيز لنفسه من الإدلال ما كان قميّاً بأن يودي بحياة أي شخص آخر لو أقدم على مثله. من ذلك ما وقع له على مائدة عون العبادي بالحيرة. فقد أثبت جبرائيل لل الخليفة أنّ طريقة أكله السمك من غير أن يشرب عليه من خمر طيزناباز (الموصوف كخمر قطربل) تشبه طريقة من يسعى إلى تسميم نفسه. <sup>(٧٨)</sup> فلما اقتنع الخليفة أمر بأن

يحمل إليه خمسة آلاف دينار وقال لمن له أذنان: «من يلومني على محنة هذا الرجل الذي يدبرني هذا التدبير؟».

كان من شأن أنعام الخليفة على هذا «الذمي» والبالغ الطائلة التي كان الطبيب يجمعها<sup>(٧٩)</sup> أن تثير حفيظة الكثيرين وحسدهم. ويبدو أن الرشيد كان يستمتع بإثارة الحساد. من ذلك ما أعلنه على مسمع من الحاشية كلّها عقب عودته من الحجّ: «دعوت لك (جبرائيل) والله في الموقف دعاء كثيراً»<sup>(٨٠)</sup> فقال له أحدهم بحـيـاءـ أنـ الطـبـيـبـ لـيـسـ إـلـاـ ذـقـيـاـ فـرـدـ عـلـيـهـ الـخـلـيـفـةـ: «نعم ولكن صلاح بدـنيـ وقوامـهـ بهـ وصلاحـ المـسـلـمـيـنـ يـيـ». فـصـلـاحـهـ بـصـلـاحـهـ وـبـقـائـهـ» فـسـارـعـ الجـمـيعـ إـلـىـ الموـافـقـةـ عـلـىـ قولـ الخليـفـةـ.

إلى جانب أولئك الذين كانوا يقررون بنبوغه الطبي الذي لا ياري فيه (على ما في تفسيرات الطب في ذلك العصر من مفاهيم تدعونا إلى التبسم) نجد رهطاً يحرقون الأسنان عليه، كهذا الشاعر المتيم الذي أنسد.<sup>(٨١)</sup>

ألا قل لـلـذـيـ لـيـسـ عـلـىـ الإـسـلـامـ وـالـمـلـةـ  
بـجـرـائـيلـ أـبـيـ عـيـسـىـ أـخـيـ الـأـنـذـالـ وـالـسـفـلـةـ (كـذـاـ)  
أـفـيـ طـبـكـ يـاـ جـبـرـيلـ مـاـ يـشـفـيـ ذـوـيـ الـعـلـةـ  
غـزـالـ قـدـ سـبـىـ عـقـلـ بـلـ جـرـمـ وـلـ زـلـةـ

ولكن من كان يجرؤ على الكلام عندما يعين الرشيد جبرائيل وسيطأ عاماً إذ يقول: «كلّ من كانت له إلى حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنّ أفعى كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني»<sup>(٨٢)</sup> كان في يد جبرائيل، الذي صار بمنزلة يوسف بن يعقوب من عزيز مصر، أن يعين طياثاوس الجاثيقي على تدبير شؤون رعيته.<sup>(٨٣)</sup>

فقد نرى جبرائيل ينصر طياثاوس لدى الخليفة في أحوال التنافس الشائكة على الكراسي الأسقفية،<sup>(٨٤)</sup> في الحصول على عهد الخليفة<sup>(٨٥)</sup> وفي جملة قضايا أخرى<sup>(٨٦)</sup> كان فيها جبرائيل، في ما كتب الجاثيقي، «يداً لي وشفتين ولساناً على باب ملكتنا المظفر، بل كان متي ضميرًا وقلباً يعقل». كان متي ذلك كله وكذلك كان للكنيسة الجامعة. مد الله في أجله وأجل مولانا الملك المظفر سنين مديدة».<sup>(٨٧)</sup>

أما القضية التي برز فيها «ظل» الخليفة فكانت قضية السهات المميزة التي أراد الرشيد أن يفرضها على النصارى ببغداد.

ينزل هذا القرار في منزلة نزوة من نزوات السخط الذي انتاب الخليفة إثر المزيمة التي أوقعها به نقوف قيس الروم سنة ١٩١/٨٠٦.

في رمضان ١٩١/نيسان ٨٠٧، أصدر الرشيد أوامره<sup>(٨٨)</sup> من الرقة بهدم الكنائس بالشغور، وأخذ أهل الذمة، حتى ببغداد، بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم ور��وهم.<sup>(٨٩)</sup> ولكن جبرائيل أبطل هذا التدبير، إذ حمله عاد الخليفة إلى بغداد دخل عليه جبرائيل بطليسان<sup>(٩٠)</sup> مصبوغ لابساً العيار والزنار. فلما أنكر الرشيد ذلك عليه قال لل الخليفة: «أنا أحد الذمة ولا يجوز أن أخالف زِّئْم» فرفع الرشيد الأمر عن النصارى.<sup>(٩١)</sup>

وفي خلافة الرشيد، في ما روى، أخبر بعض النساطرة ممن زاروا مصر جبرائيل أن قبر نسطور، بكوم الشقف<sup>(٩٢)</sup> قرب أخيه بالصعيد، في أزري حال فاليعاقبة، أي الأقباط هنا، يرجونه بالحجارة ويقولون إن القبر لا يطير أبداً لأن نسطور قد أحرقته نار الغضب الإلهي. حصل جبرائيل على كتاب من الخليفة، حمله هذا النسطوري إلى مصر، يأمر عامل الناحية أن يجعل رفاة نسطور في تابوت ويبعث بها إليه لكي يصار إلى دفنها بما يليق من الإجلال في كنيسة المخلقة بكوخى. ولكن راهباً نسطوريًا استدرك الأمر ليزيل العار عن أبناء ملته ويهن لهم أن الذي يسخر به العيادة ويرجحونه ليس نسطور فاذعى أن أحد الرسل القديسين ظهر له في الحلم ليلاً وقال له: «إن هذه الحكاية لا نصيب لها من الصحة وأن عظام نسطور ليست في مصر ولا يعرف أحد مكان قبره. ففكَّ جبرائيل الطيب عن نقل العظام من مصر».<sup>(٩٣)</sup>

وكان جبرائيل دور فاعل أيضاً في قضية تهديم كنائس البصرة ومرفأ الأبلة المجاور لها.<sup>(٩٤)</sup>

وأصل ذلك أن رجلاً يدعى حمدون بن علي (ويتهمه ماري ببغض النصارى)

توصيل إلى إقناع الرشيد بأنَّ النصارى «يعبدون ويسجدون لعظام الموق وهي في بيعهم» فحصل من الخليفة على أمر بهدم هذه البيع.

فما كان من سرجيس مطران البصرة إلا أن أطلع جبرائيل على ذلك، فعمل الطبيب وغيره من النصارى الذين في خدمة الخليفة على تصحيح معلوماته، فأصدر الرشيد أمراً بإعادة البناء. لنلاحظ عابرين الدعم القوي الذي لقيه طبياثاوس، في هذه الحالة، من قبل السيدة زبيدة، ولنا عودة إلى دور هذه الملكة في الرفق بالنصارى.

وعلى الرغم من تعاطف المقامات العليا لم تنته قضية البصرة ببساطة. فقد وقف حدون في وجه تنفيذ أمر الخليفة، ولم يكن من سبيل معه إلا بأمر ثان، بعيد حلم رأه الأمين (١٩٣ - ٨٠٩ / ١٩٨ - ٨١٣)، حتى أجبر هذا المعاند على السماح بإعادة بناء المعابد المهدمة.

ولكن لنعد إلى جبرائيل المطبيب. لقد كان أجفني طبعاً وأصعب قياداً من أن يكتفي بالموافقة طائعاً على قرارات جاثليقه أو أن يشاشه آراءه كلها. وهنا نحن نراه يدعم إبراهيم أسقف جي (بناحية أصبهان) في ترده على طبياثاوس.<sup>(٩٥)</sup> كما نراه يعاند الجاثليق في قضية الجواري اللوائي المخذلن لنفسه.<sup>(٩٦)</sup>

إي نعم! لقد أضجينا على بعد شاسع من بختيشون الأول الذي رد الجواري الروميات الحسان. لقد انساق جبرائيل مع تيار بيته وأخذ لنفسه الجواري، كما فعل عنون العبادي. فلما حرمه طبياثاوس رد على توبيخ الجاثليق بقبح القول، فما زاد طبياثاوس على أن قال «يا مسيح كافه».

لم يطل الأمر باللعنة حتى حلَّت بالطبيب العاصي. فلدى عودته من لدن الجاثليق «كبا به الفرس، فوقع واندقت يده اليمنى ورجله» فحملته أمَّه إلى الجاثليق بدير كليليشون. لم يقبله طبياثاوس بل فرض عليه الصوم ثلاثة أيام، أقام بعدها الحبر الصلاة ثمَّ أخذ زيتاً من القنديل ومسح الجريح وشفاه... .

قاد جبرائيل حُقاً أن يموت قتلاً قبل موت الرشيد. كان هذا الطبيب في صحبة الخليفة إبان مرض موته بسناباد، قرب طوس سنة ١٩٣ / ٨٠٩، حيث صرَّح

بفجاجة أنَّ السبب الحقيقي لمرض الخليفة هو تهالكه على ملذات المائدة والفراش. عندئذٍ جيء بطبيب آخر، هو أسقف من بلاد فارس<sup>(٩٧)</sup> فألقى على جبرائيل التبعة في تفاقم علة الرشيد، وقال للخليفة: «الذِي عَالَجَكَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْطَّبَّ... هَذَا الْمَرْضُ كُلُّهُ مِنْ خَطَاً جَبَرَائِيلَ». صَدَقَهُ الْخَلِيفَةُ<sup>(٩٨)</sup> وَأَمْرَ بِقَتْلِ جَبَرَائِيلَ،<sup>(٩٩)</sup> وَلَكِنَّ الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ الْوَزِيرِ<sup>(١٠٠)</sup> أَنْفَدَهُ بِتَأْخِيرٍ تَنْفِذِ الْإِعدَامِ. وَهَكُذَا مَاتَ الْخَلِيفَةُ وَاسْتَطَاعَ جَبَرَائِيلُ أَنْ يَتَابَعْ خَطْهُ، فَخَدَمَ الْأَمِينَ بْنَ الرَّشِيدِ بِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُؤْدِبَهُ مِنْ قَبْلِهِ.<sup>(١٠١)</sup>

### زبيدة

إِبْنَةُ الْمُصْوَرِ وَزَوْجُ الرَّشِيدِ وَأُمُّ الْأَمِينِ، لَقَدْ خَلَفَتْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذَكْرَى كَأَعْظَمِ مَا يَكُونُ لِكُبُرِيِّ سَيِّدَاتِ الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ،<sup>(١٠٢)</sup> وَقَدْ خَلَفَتْ الْحِيزْرَانِ الْمُسْتَبَدَّةِ، وَكَانَ هَذَا حِيمَدُ الْأَثْرِ فِي سِيرَةِ الرَّشِيدِ.

يُذَكَّرُ مَارِي<sup>(١٠٣)</sup> أَنَّ زَبِيدَةَ كَانَتْ «تَكْرَمَ طِيَّا ثاوُسَ كَثِيرًا وَغَيْلَ إِلَى النَّصَارَى وَتَسْتَخْدِمُهُمْ»، وَقَدْ شَارَكَتْ فِي عَمَلِ «أَعْلَامِ الشَّعَانِينِ»، وَلَكِنَّهُ لَا يُذَكَّرُ فِي أَيِّ دِيرٍ شَهَدَتْ ذَلِكَ الْعِيدَ الشَّعْبَيِّ. وَعَمِلَتْ الصَّلَبَانِ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَأَعْطَتْ طِيَّا ثاوُسَ أَوَانَّ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَبَعْضَ الْأَقْمَشَةِ الْفَاخِرَةِ... .

رَأَيْنَا سَابِقًا دورَ هَذِهِ الْمُلْكَةِ فِي مَسَاعِدِ جَبَرَائِيلِ وَسَرْجِيسِ مَطْرَانِ الْبَصَرَةِ لِلْحُصُولِ عَلَى تَوْقِيعِ الْخَلِيفَةِ بِإِعْادَةِ بَنَاءِ مَا تَهْلَمَ مِنْ كَنَائِسِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَيْدِيِّ أَصْحَابِ حَمْدُونَ بْنِ عَلَيِّ، وَقَدْ حَصَلَتْ أَيْضًا، وَبِنَفْسِهَا هَذِهِ الْمَرَّةُ، عَلَى إِذْنِ بَرْمِيمِ قَسْمِ مَتَهَلَّمٍ (مَتَى هُدَمْ؟) مِنْ دِيرٍ غَيْرِ مَعْرُوفِ الْاسْمِ. وَقَدْ سَمِعَ الرَّشِيدُ أَيْضًا بِتَوْسِعِ هَذَا الدِيرِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ طِيَّا ثاوُسَ قَدْ جَدَّدَ دِيرَ كَلِيلِيُشُوعَ ثُمَّ اتَّقَلَ إِلَيْهِ<sup>(١٠٤)</sup> فَسَمِيَّ مَنْذَئِلَ بَدِيرِ الْجَاثِلِيقِ.<sup>(١٠٥)</sup>

تَرْتَبِطُ بِاسْمِ زَبِيدَةِ، فِي عَلَاقَاتِهَا بِالنَّصَارَى، قَصَّةُ تَطْلِيقِهَا الَّذِي يَلْفَهُ الْغَمْوُضُ وَالَّذِي تَوَصَّلُ طِيَّا ثاوُسَ، فِي مَا قَيلَ، إِلَى تَجْنِيَهَا إِيَّاهُ بِحِيلَةٍ فَقَهِيَّةٍ. إِنَّ مَلْفَتَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ «الْمَزْعِجَةُ» ضَخِمٌ حَتَّى الْآنِ<sup>(١٠٦)</sup> وَقَدْ انْضَافَ إِلَيْهِ مُؤْخِرًا مَقَالَةُ

الأب ساكو ورد السيد سعيد الديوه جي عليه.<sup>(١٠٧)</sup> أواfce الأب بوقان على أن طبياً ثاوس كان قدّيراً على اقتراح حلّ ملتو هذه القضية، ولكنني أواfce السيد ديه جي إذ يستبعد مصادقة الفقهاء المسلمين على حلّ كهذا (أن تظاهر زبيدة بالنصر). حتى الخليفة الذي لم يكن فقيهاً لم يكن ليقبل هذا الحلّ.<sup>(١٠٨)</sup> فنّمة بون شاسع بين الدعاة على عرفات لصديق نصراوي وبين القبول برأه ولو كانت ظاهرية فقط. وقد ظلّ المسلمون متشدّدين في هذا الأمر، حتى إن قرشيًّا اسمه روحجي، في ما قيل، ارتدى إلى النصرانية بسبب معجزة،<sup>(١٠٩)</sup> فجُبِسَ ستين لистاب ثم حكم عليه بالقتل بأمر الرشيد في الراقصة يوم ٢٩ تشرين الأول سنة ٧٧٩.<sup>(١١٠)</sup> ثُمَّ حمل نصراوي من فارس رأسه إلى بلدته.<sup>(١١١)</sup>

لذلك قد أقبل أن طبياً ثاوس أسدى خدمة إلى زبيدة بيايجاده مخرجاً فقهياً حلّ الخليفة من يمينه المتهورة، ولكنني أشك في أنّ هذا المخرج هو كما يصفه ماري.

### أيام العروس

كانت خلافة الرشيد ك أيام العروس<sup>(١١٢)</sup> بالنسبة إلى النصارى، وذلك بفضل جبرائيل وفضل زبيدة وفضل طبياً ثاوس خاصة، ولو أنّ هذه الصورة تبدو أجمل بكثير مما كانت عليه الحال في بقية أنحاء المملكة.<sup>(١١٣)</sup> كان الحوار<sup>(١١٤)</sup> دارجاً أو بالأحرى المناظرات. «ومن جملة ما جرى (طبياً ثاوس) مع (الرشيد) ذات يوم عند انقضاض المجلس قال له: يا أبا النصارى أجبني عنّي أسألك باختصار وأي الأديان عند الله الحق؟ فقال له مسرعاً: الذي شرائعه ووصاياه تشكل أفعال الله في خلقه فأمسك عنه فلمّا انفصل من المجلس قال: الله دره لو قال النصرانية لأسأت إليه ولو قال الإسلام لطالبه بالانتقال إليه ولكنه أجاب جواباً كلّا لا دفع له...»<sup>(١١٥)</sup>

لا تخربنا الرواية ما كان عسى الرشيد أن يفعل لسيء إلى طبياً ثاوس لو قال إن النصرانية «عند الله هي الدين الحق». تدلّ الرواية، بالنسبة إلى عقل النصراوي الذي يوردها، على براعة طبياً ثاوس. وهي تدلّ أيضاً على سعة أفق الخليفة الذي اكتفى بجواب لا يخفى عليه غموضه، وإن تجاوز عنه لما ينطوي عليه من حسن تخلّص الجاثليق.<sup>(١١٦)</sup>

ال المسلمين المتشددون أنفسهم كانوا يفضلون هذه المناظرات مع النصارى على الموضوعات الملتهبة التي بدأت تُطرح بين المسلمين أنفسهم: (١١٧) هل القرآن مخلوق؟ ما علاقة النظر العقلي بالسمع؟ إلخ. كانت المناظرة مع النصارى مطمئنة على الأقل. فهؤلاء قوم على جانب من المغایرة لا يخشى معه انتقال العدوى. لذلك كان من شأن الموقف المتساهل حيالهم (١١٨) أو قل حتى الموقف الأبوي، أن يزيد الشعور بامتلاك الحقيقة. فالتسامح صفة يتتصف بها من يقدر ألا يكون متساخراً لأنه الأقوى. ومن ذلك العطايا التي ليست إلا وسيلة لتأكيد التفوق. لذا يكتب طيماثاوس إلى صديقه سرجيس أنه نزل على الخليفة ضيفاً لثلاثة أيام متالية، وأنه استقبل بشاشة وحبور وأنه أعطى ٨٤٠٠٠ زوزي، إلخ. (١١٩). إن مجرد ذكر هذه الأشياء كلها يبيّن إلى أي مدى كان الجاثيلق يشعر بمجانية موقف الخليفة. كان كل واحد من المتحاورين قادرًا على أن يطمئن نفسه. وكان كل واحد منها راضياً عن نفسه.

بم فَكَرْ طيماثاوس عندما مات الرشيد؟ لا بد أن المخاطر الأخيرة التي تعرّض لها صديقه جبرائيل قد أفلقته، كما أزعجه وجود ذلك الأسقف الفارسي ببغداد. ذلك الدساس الذي ألقى التهمة على جبرائيل... ولا ريب أن طيماثاوس لم يستحسن ما دبره الخليفة من تقسيم المملكة بين ولديه. ألم تنبئ هذه القسمة بتقابل الإخوة في المستقبل؟ لا شيء في رسائله يتبيّن لنا أن نحضر مشاعره في تلك الحقبة.

## الحواشي

(١) الجهياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .  
 (٢) مروج، الفقرة ٢٤٩٥ .

(٣) عن تسلط الحيزران على الرشيد، انظر: D. SOURDEL, *Vizirat*, p. 161

(٤) أنظر مشجر سلالة البرامكة في كتاب *Vizirat* ص، ٧٤٤ ، ومعلومات أخرى عن البرامكة في الكتاب نفسه ص ١٢٧ - ١٨١ ، وأيضاً مقالة سورديل في E.I.<sup>2</sup>

(٥) التنبية، ص ٣٤٦ .

(٦) ليس فاروق عمر في E.I.<sup>2</sup> III, p.239-241 (هارون الرشيد) بأوفر ثناء على الرشيد. فعل

الرغم من «الصورة البراقة التي نجدها عن العصر الذهبي» في ألف ليلة وليلة يرى هذا الكاتب في خلافة الرشيد «نقطة بداية التفكك السياسي للأمبراطورية الإسلامية».

(٧) لا يكتنأ الاعتقاد على تسلسل أخبار طهياً تاؤس لأن رسائله ليست مؤرخة، انظر بيداويد، ص ٦٩ - ٧٠.

(٨) انظر مقتطفات من المؤرخين عن غزوات العباسين الأوائل في E.W. BROOKS, *Byzantines and Arabs*.

(٩) انظر مقالتي: Rüm à l'est de l'Euphrate, le Muséon, 90, (1977), p.374-376.

(١٠) المقصود هنا هم الروم البيزنطيون وليس النصارى بعامة كما ظن LE STRANGE في كتابه بغداد ص ٢٠٧. ليس من الصحيح أن يقال إن لفظي «روميين» أو «روم» كانوا يستعملان بهذا المعنى في عربية القرون الوسطى. انظر حبيب الزيات في مجلة الشرق، ٣٥، (١٩٣٧) ص ٣٣٩ - ٣٥٢.

(١١) مروج، الفقرة ٢٥٦٥.

(١٢) من بين المترجمين النصارى المعروفين في خلافة الرشيد، ذكر فثيون مترجم كتب الطب، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٤، ٢٨٠.

(١٣) كوركيس عزّاد، خزانة الكتب القديمة في العراق، بغداد، ١٩٤٨، ص ١١٢ - ١٠٥، O. PINTO, *The Libraries*, p. 223.

(١٤) الفهرست، ص ٣٤٥. يُدعى هذا الطبيب ابن الدهان عند العرب، INAYATULLAH, p. 3.

(١٥) بدعة من يحيى، مختصر، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ٢٢٦ ، ٧٢ ، ٧١ et ٧١، BOUVAT, p. 50, 51 et 71, 72 يروي ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٧، كيف امتحن لدى وصوله بحضور أبي قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداد بن سرايبون وسرجيوس تلميذ والده. وقد توصل إلى تقرير أنَّ التفسرة التي عرضت عليه قد أخذت من بول بغل لا من بول بعض الجواري كما قيل له، ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٦ - ١٨٧ . وقد توفي جرائيل حوالي سنة ١٩٠ / ٨٠٦ ، أو ربما بعد وفاة الرشيد، على قول الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠ ، ص ٨٩ ، رقم ٤٥٣٣ . يذهب الصفدي إلى أنَّ الاسم سرياني وأنَّ معناه «خادم المسيح»؟).

(١٦) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٦ ، ٢٤٦ R. LEVY, *A Baghdad Chronicle*, p. 67. INAYATULLAH, p.2 (١٧)

(١٨) راجع الزركلي، ج ٩ ، ص ٢٧٩ PUTMAN, p. 103, n.2 يضاف إلى ذلك تبئُّه المنحوس في شأن تلميذه حنين بن إسحق، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٣ . ويشير ابن الأثير في الكامل، ج ٦ ، ص ٥٩ ، إلى أنه توقع موت عبد الرحمن بن أنم قاضي إفريقيا (انظر الزركلي، ج ٤ ، ص ٧٨) سنة ١٦٢ / ٧٧٨ - ٧٧٩).

مكان آخر (الكامل، ج ٦، ص ١٢) تاريخاً آخر (١٥٦هـ) لموت القاضي، ثم كيف كان «يجى» بن ماسويه بالقيروان في ذلك التاريخ؟ وكم كان له من العمر؟ (١٩) عامل أرمنية سنة ١٧٢/٧٨٨، الطبرى، ج ٣، ص ٦٠٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١١٨.

(٢٠) ابن أبي أصيحة، ص ٥٤٠ حيث يجب تصحیح تعليق المحقق على معنی الكلمة «يعاقبة». يبدو أن «كتاب سیر الآباء البطاركة» P.O., X, p.384 يلمح إليه إذ يقول إن بوليتانوس كان طيباً ماهراً وكانت ملوك الإسلام ترعايه لأجل صناعته».

Informations fournies par les ouvrages de droit sur la conduite de la guerre, M. Canard, dans *Quelques à côté*, p.117-119. (٢١)

M. MEYERHOF, Kh, GEORR, DE LACY O'LEARY, R. WALZER, etc. (٢٢) من ذلك راجع J. CARBONNIER, dans CERDIC, p.133

(٢٣) (٢٤) شيخو، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨ ، دائرة، ج ٥، ص ٤٨ - ٥٠ .

(٢٥) ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢٦) منذ ١٦٦هـ، في خلافة المادى، الطبرى، ج ٣، ص ٥١٧ .

Préface de FAGNAN, p.X; voir maintenant BEN SHEMESH (٢٧)

(٢٨) ص ١٢٢ - ١٢٣، هذه الطبقات الثلاث هي تلك المقبولة في المذهبين الحنفي والحنبلی، النويري، ج ٨، ص ٢٣٧ . أمما عند النووي الشافعی المذهب، منهاج الطالبین، ج ٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ فالحد الأدنى هو دينار، أمما متوسطي التعمّة فيدفعون دينارين وأمما الأثرياء فاريحة. ويترك المذهب المالكي تقدير الجزية إلى الإمام.

CL. CAHEN, *L'Islam, des origines au début de l'empire Ottoman* p. 82-83 (٢٩) أيضاً: ولا تقتضى النصوص التي تشهد أن جماعة النصارى، أي الأيسر حالاً، كانت تُلزم فعلاً بدفع جزية الأفقر حالاً.

(٣٠) ص ١٣٨ - ١٤٩ .

(٣١) محمد حيد الله، في مقدمة تحقيق كتاب الأحكام لابن القیم، ج ١، ص ٧٤ - ٩٥، قاسم، ص ٢٧ ، إلخ.

(٣٢) ص ١٢٧ .

(٣٣) يرى دي خوبه، في الصفحة ١٤٩ من كتابه *Mémoire sur la conquête de la Syrie* أن عمر بن العزيز قد أصدر فعلاً أوامر مشابهة لتلك التي يوصي أبو يوسف هارون الرشيد بالإبقاء عليها (؟) ولكنه يضيف «ويبعد أن الخليفة لم يصرخ إليه».

(٣٤) يورد G. Wiet في كتابه *Le traité des famines de Maqrizi* ، ص ٥٣ الحاشية رقم ٣، الحالات إلى تنزيل النصارى واليهود منزلة الرجال الجنب أو النساء الحبيض. في خلافة

المهدي سأله رجل سفيان الثوري: «أصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم»، وفيات الأعيان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٣٥) وقد ورد مع ذلك الجوانب بنعم على هذا السؤال في صحيحي مسلم والبخاري.

(٣٦) وقد درست وجهة النظر الحقوقية المسيحية في كتاب W. SELB et H. KAUFHOLD.

(٣٧) في شرح كتاب السيد الكبير، إملاء محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مصر، ١٩٥٧، ج ١، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣٨) يواخذ الطيباوي بعض المستشرقين «من أمثال موير، لامس وكياتاني» على موقف عائل، ص ١.

(٣٩) القلقشندي، ج ١٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٤٠) نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٤٥.

(٤١) شهاب الدين أحد بن عبد الوهاب التويري (٦٧٧ - ١٢٧٨/٧٢٣ - ١٣٢٣)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٩، ص ١٤٥.

(٤٢) كتاب التعريف بالصطلاح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمري (المتوفى سنة ١٣٤٩/٧٤٩) طبعة القاهرة ١٣١٢ / ١٨٩٤، ص ١٥٢ حتى ١٥٤. يقدم H. DE CASTRIES

في كتابه: *L'Islam, impressions et études*, Paris, 1896 ، الملحق ٣، تصنّف CASTRIES بين أخرى للنصارى بحسب ابن سلمون قاضي قرطبة (٣٢٢ - ٣٢٣). وهو يشفع النص بصيغة لجحد الإسلام فرضتها الكنيسة البيزنطية على المرتدين عن الإسلام إلى النصرانية (ص ٣٢٣ - ٣٢٤). وينتهي الكتاب إلى «نسيج الخرافات الذي نظري عليه صيغ اللعنات التي تكال للنبي العربي وللله». وثمة شعائر جحود بيزنطية أخرى في *Patrologia Graeca*, *Revue de l'histoire des religions*, 53 (1906), vol. 140, p. 124-146

A.T. KHOURY, *Les théologiens byzantins et l'Islam* (Louvin- Paris 1969) p.145-163

J. NASRALLAH, R.E.I., XLVI, (1978), p.148 مع مراجع. وأيضاً p.187-194

N. GARSOIAN, *Rôle de la hiérarchie chrétienne*, p. 135 et n.69. (٤٣)

THEOPHANE ad. an. 6278 (787 A.D.), p.46, cité par DHGE s.v., Antioche, col 599.

(٤٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ١.

(٤٦) بين ملطية وسميساط ومرعش، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٤٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣.

(٤٨) رسالة إلى أفريم مطران جندسابور، E.P.I.، يداويد ٣٩.

(٤٩) لا من باب الاهتمام بحادثة البصرة التي ستتكلّم عنها لاحقاً.

(٥٠) أنظر المراجع في PUTMAN ص ١٣٦، الحاشية رقم ٣.

- (٥١) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٤، الرهاري المجهول، ج ٢، ص ١.
- (٥٢) ربما كان البرمكي بحى بن خالد الذي لم يكن قد لقب بعد بلقب الوزير، Vizirat, p. 136.
- (٥٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٩ - ٢١، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٣٩ - ٣٤٠.
- (٥٤) في هذه الفترة لا يذكر الطبرى لهذا الموقع إلاً مرئتين في العام ١٨٨ و ١٨٩ (ج ٣، ص ٧٠١، ٧٠٧) كما أنه لا يذكر فيها وجود القاسم ابن الرشيد.
- (٥٥) سيطر مقرّ بطريق أنطاكية المرید من المشاكل (الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ٢١)، لأنّ بعض رعيته مقيم في الأراضي البيزنطية والبعض الآخر في دار الإسلام. وحسب تقلب العصور، أي حسب حالة العلاقات بين الملكتين نجد تواریخ المغاربة من السريان تقصر على أبناء الشطر الغربي، حيث تُكتب، أو تتحصّر في أخبار الشطر الشرقي، أي في مفريانة تكريت.
- GARSOIAN, le rôle de la hiérarchie chrétienne, p. 119- 138. (٥٦)
- Ep. 48 بيداوید، ص ٣٧ - ٧٧ : ٧٧
- (٥٧) ثمة دراسات لأسباب نكبة هذه الأسرة العظيمة النفوذ منها دراسة وافية في كتاب D. SOURDEL, Vizirat, p. 156-161 كتابه Les Schismes dans l'Islam p.82 فهو يظنّ أنّ البرامكة إنما أرادوا قلب الخلافة السنّية ليحملوا الزنادقة إلى السلطة ويستعملوهم في إقامة خلافة الشيعة.
- (٥٩) حجّ الرشيد ثان مرات، المسعودي، التنبیه، ص ٣٤٦. يقول ابن الطقطقى إنّ الرشيد كان «يحجّ سنة ويغزو سنة»، ص ١٥٥.
- (٦٠) الطبرى، ج ٣، ص ٦٧٨.
- (٦١) الجاحظ كتاب الأمصار وعجائب البلدان، مذكور عند شارل بللا في المشرق، ٦٠ (١٩٦٦)، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
- (٦٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٥١١.
- (٦٣) لا نجد أي ذكر لكونه خازناً أو صاحب بيت المال.
- (٦٤) فقد ابْتَاع الرشيد يوماً ياقوتة ثمّها ٣٠٠، ٠٠٠ دينار، ابن الطقطقى، ص ٢٠٩.
- (٦٥) يجب أن لا يخلط بين هذا وبين سميّة ثيوفيلوس بن توما الفلكي الذي مات قبل عشرين يوماً من وفاة المهدي، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٢، ماري، ص ٧٤ - ٧٥.
- (٦٦) وقد أفاد طبياً ثاوس من هياته. فقد حصل منه على ٣٠٠ «زوّزي» (دينار؟) لشراء أرض. كما حصل على مبلغ ماثل من متربع آخر هو جرائيل الطيب 22 Ep. بيداوید، ص ٤٦ بتاريخ ٧٩٩/٨٠٤(؟).
- (٦٧) الوحيد الذي حفظ ذكر هذا الخبر هو الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ - ٢٨.
- (٦٨) يذكر ابن أبي أصيبيعة، ص ١٩٦، أنّ جرائيل قد لام الخليفة على قلة الرزء للطعام ونصح

له بغير الهواء واقتصر عليه الذهاب إلى الخيرة فتمنع الرشيد قائلاً: «قد نزلنا الخيرة مراراً فأجحينا بعون العبادي في نزولنا بلدك».

(٦٩) الطبرى، ج ٣، ص ٦٧٥، الكامل، ج ٦، ص ١٧٧. مروج، الفقرة ٢٥٩٦، ٢٦٠٢.

(٧٠) Assylie Chrétienne, III, p. 237-239 يمكن الاطلاع من كتاب الديارات للشاباشي على إقامات الرشيد في الأديرة، كدير زكا بالرقعة على الفرات حيث قرض الشعر وحيث ترك ماردة أم المعتصم (ص ٢٢٠ - ٢٢٧)، أو دير عانا الذي مات بقربه أم الفضل (ص ٢٢٩) وهي في الطريق إلى الحجج مع الخليفة إلخ. تذكر وفيات الأعيان، (طبعة بيروت، ج ١، ص ٤٥٦) أن الخليفة كان ينزل كثيراً بدير العذاري قرب بغداد ليشرب.

Vizirat, p. 152-154 (٧١)

(٧٢) ابن الطقطقى، ص ١٧٠. مع أن جبرائيل قد حذر يحيى من أن الخليفة يأخذ عليه استبداده بالأمر، ١٧٠. من بين شعراء البرامكة ظلّ أبو قابوس النصراني، الذي صادفاه من قبل، وفقاً لذكره حتى أنه تمحس على مدح جعفر، من بعد نكتة، في حضرة الرشيد، على أن الخليفة لم يعاقبه. انظر شيخو، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨.

(٧٣) طبياثوس، ٢١، بيداويد ص ٨٢، مؤرخة بستة ٧٩٩ / ٨٠٤ (؟).

(٧٤) ابن العبرى، تاريخ الزمان، انظر مراجع أخرى في PUTMAN, p. 98 no. 5

(٧٥) ابن أبي أصيحة، ص ١٨٨

(٧٦) من الصعب الموقفة على رأى، ١٥١ A. ABEL, les marchés de Bagdad, p. 151 إقامة الرشيد بالرقعة، «في أهل بلاده إلى «أنفه» من بغداد، لا سيما إذا نظرنا إلى ما ينسبه إليه الطبرى، ج ٣، ص ٧٠٦، من ثناء على العاصمة. لقد كانت اضطرابات الشام من أسباب هذا التنقل في البداية، وفي ما بعد، ربما كان وجود محبوته الرومية بقصر هرقلة على بعد ١٠ كلم إلى الشرق من الرقة، قد أسهم في إبقاء الخليفة بعيداً عن بغداد. ولكننا قد ندفع بالفارقة بعيداً إذا ما شدّدنا على أن الخليفة الذي يرتبط اسمه عادة باسم بغداد هو الذي أقام فيها فعلياً أقلّ من غيره. مع ذلك، فلا شك في أن الرشيد كان قد بدأ في عمارة قصر ومدينة مسورة بالقططل، قرب سامراء، «ليتنزه بها إذا ضجر من المقام ببغداد». الطبرى، ج ٣، ١١٨٠.

(٧٧) الطبرى، ج ٣، ص ٧٣٥ - ٧٣٧.

(٧٨) المسعودى، مروج، الفقرة ٢٥١١، ابن أبي أصيحة، ص ١٩١ - وقد حفظ أبو نواس في بعض أشعاره نصيحة أخيه

«... أبي عيسى وجبريل له عقل  
فقلت الرابع يعجبني فقال كثيرون قتل  
فقلت فقدر لي فقال قوله فصل  
ووجدت طبائع الإنسا ن أريعة هي الأصل

- إبن أبي أصيبيعة، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٧٩) يعده ابن أبي أصيبيعة على مدى صفحات تفاصيل ثروة جبرائيل بن بختيشوع وخزاناته وأمواله في جنديسابور وسوس والبصرة والسودان. وكل ما جمعه خلال ٢٣ سنة قضاها في خدمة الرشيد وأكابر المملكة. وعن زيادة رزقه انظر الشوخى، الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٢١٩ - ٢٢٦ .
- (٨٠) المصدر نفسه، ص ١٩٢ .
- (٨١) المصدر نفسه، ص ٢٠١ ، بحسب كتاب المجرد في الأغاني.
- (٨٢) إبن أبي أصيبيعة، ص ١٨٨ .
- (٨٣) لا أتكلّم هنا عن مكانة جبرائيل العلمية. فمن المعروف أنه كان يستعين على ترجماته بصديقه المطران عود يشوع بن بحريز، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٨٢ .
- (٨٤) في نصبين مثلاً، p 81 Nisibe . وقد حاول الأطباء المتحدرون من المدينة التصدّي لتفوز جبرائيل.
- (٨٥) PUTMAN, p. 100 et no. 4
- (٨٦) كما توسط طبياثاوس لدى جبرائيل ليحول دون استقدام أحد الأطباء من جنديسابور إلى بغداد. فكان أن جيء بجاسوسيه الصيدلاني، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٥ .
- (٨٧) Ep. 54 ، بيداويد، ص ٤٠ ، ٧٨ - ٧٧ ، مؤرخة سنة ٧٩٩/٨٠٤ (?).
- (٨٨) الطبرى، ج ٣ ، ٧١٣ ، الكامل، ج ٦ ، ص ٢٠٦ .
- (٨٩) يجعل ابن القيم هذه الإجراءات «لما قلد [هارون الرشيد] الفضل بن يحيى أعمال خرسان» ص ٢١٧ . والحقيقة أن تعين الفضل بن يحيى يقع سنة ١٧٧/٧٩٣ (Vizirat, p 145-147) . ولم تكن ظروف ذلك التاريخ مؤاتية، في ما يبدو، لقرار كهذا. وليس هذه أول مرة يغير فيها ابن القيم تاريخ الأحداث.
- (٩٠) رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١ ، ص ٧٣ .
- (٩١) ماري، ص ٧٣ .
- (٩٢) Coptes et Syriaques, contrats et échanges, dans S.O.C. Collectanea, no. 15 (1972- 1973), p.317-318.
- (٩٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨ .
- (٩٤) ماري، ص ٧٣ - ٧٥ .
- (٩٥) Ep.3 ، بيداويد، ص ٢٠ ، ٨٢ مؤرخة سنة ٧٨١/٧٨٠ (?). كذلك شق يوحنا بن بختيشوع عصا الطاعة على مطران جنديسابور، فكتب طبياثاوس إلى والده ليضع حدًا لرعونته. Ep. 45 ، بيداويد، ص ٣٦ مؤرخة سنة ٧٩٨/٧٩٥ (?).
- (٩٦) ماري، ص ٧٤ .

(٩٧) ابن أبي أصبيعة، ص ١٨٩ . هل هو نفس «الجاثليق» (كذا) الذي أتى به من «شيراز» سابقاً قبل ٨٠٣ ليعالج طرفاً من البصر في صدر الفضل بن يحيى البرمكي على ما يرويه لنا نظامي عروضي في المقالات الأربع، الحكاية الحادية عشرة عن الأطباء.

(٩٨) يصدق السيوطني، ص ٢٩٦ ، الرواية القائلة بغلط جرائيل في العلاجة. ويدرك بعض المؤرخين، ومنهم السيوطني، ص ٢٩٠ ، قول الرشيد: «ولكل واحد من ولدي على رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل بن بختشون رقيب الأمين».

(٩٩) يبدو أنَّ مثل هذا القرار كان على شيء من الشيوع حتى صار أحد موضوعات القصص الشعبية، ELISSEEFF, 1001 nuits, p. 120

(١٠٠) وزير منذ ١٨٧ / ٨٠٣ ، انظر ANWAR G. CHEJNE, Al-Fadl b. Rabi', a politician of the early abbasid period, in Islamic Culture, 36, (1962), p. 167-181, 237-244.

(١٠١) الطبرى، ج ٣ ، ص ٧٣١ ، الكامل، ج ٦ ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) كحالة، أعلام النساء، ج ٢ ، ص ١٧ - ٣٠ ، مصطفى جواد، سيدات ال بلاط ، ص ٤٥ - ٥١ ABBOT, Two Queens, p.137-264

(١٠٣) ص ٧٣ ، ٧٥ .

(١٠٤) من قطعة أم جعفر حيث كان يقيم من قبل.

(١٠٥) أنظر مقالة عبد العزيز الدوري عنه في; M.ALLARD, Chrétiens à Bagdad, p. 378-379

E.I<sup>2</sup>, II, p. 203 كوركيس عواد، الشاشقى، ط ٢ ، ص ٣٤٧ - ٣٥٠ .

(١٠٦) PUTMAN, p. 139-140 ، تتحاشى آيات الكلام عنها. أما في ألف ليلة وليلة فإنَّ القاضي أبو يوسف هو الذي ييرئ ساحة زبيدة من ريبة الرشيد الجائرة ELISSEEFF, p. 163 et 196 no. 65.

(١٠٧) أنظر لائحة المصادر والمراجع تحت هذين الاسمين.

(١٠٨) لقد أجمع الفقهاء على ضرورة زواجهما من غيره قبل أن يحمل الخليفة من بين الطلاق.

(١٠٩) رؤيا حل في القربان، ميخائيل السريانى، ج ٣ ، ص ١٨ - ١٩ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٦ .

(١١٠) كان اسمه النصراني أنطونيوس، حبيب الزيارات، شهداء النصرانية في الإسلام، مجلة الشرق، ج ٣٦ (١٩٣٨) ، ص ٤٥٩ - ٤٦٥ . يروي سنكسار الملكانيين أنه استشهد في ٢٥ كانون الأول ويحتفل بعيده في ٢٤ . J.M. SAUGET, Premières recherches sur l'origine et les caractéristiques des synaxaires melkites (XI-XVII<sup>e</sup> siècle). Subsidia Hagiographica, no. 45, Bollandistes, Bruxelles 1969. Passion arabe, (I. DICK), dans le Muséon, LXXIV (1961), p.109-133.

(١١١) أين؟ يكتس SAMUEL M.ZWEMER كتاباً كاملاً لدراسة The Law of Apostasy in Islam, London, 1924 . أنظر الفصل الثاني منه، ص ٣٣ - ٥٤ ، «الشريعة» الفصل

- الرابع، ص ٧٧ - ١٠٢ «Centuries of Intolerance and Persecution» حيث لا يذكر المؤلف أي مثال من الفترة التي تعنينا. ثمة مقال يستحق المención في Apostasy and its Consequences Under Islam and Christianity. عناوينه: ٤٩٢-٤٨٥، ١٩١٦، p.485-492
- (١١٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٤٩.
- (١١٣) لا أتكلّم هنا عن العلاقات المزعومة بين الرشيد وشارمان. فكما يقول فاروق عمر في E.I.<sup>2</sup>: «لم نجد حتى اليوم شيئاً في المصادر العربية يسّرّع هذا الادعاء. ويبدو أنّ لا أساس له من الصحة». وثمة تفاصيل جديدة في مقالة فاروق عمر، الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، في مجلة الاستشراق، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٢٥ - ١٢٦.
- (١١٤) فلا مجال لقيام حوار حقيقي إذا لم يكن الطرفان المتحاوران في وضع من المساواة يعترف به كلاهما، وهذا عمّا لا يمكن أن يقوم بين خليفة وبين بعض أهل الذمة.
- (١١٥) ص ٦٥.
- (١١٦) يتبّه دومينيك سورديل في مقالته Kātib في E.I.<sup>2</sup>, IV, p.786 إلى «أن الناس في ذلك العصر كانوا يتذوّقون كثيراً الكتابات... التي تثير الدّهشة أو الإعجاب».
- (١١٧) أنظر قول أبي إسحاق الفنزاري الكوفي (السوف ٦ / ١٨٥ - ٢ / ٨٠١) في كتاب الشر والإبلة، لابن بطّة العكّري، تحقيق هنري لاوست، دمشق، ١٩٥٨، ص ٢١: «لأنّ أحضرت إلي النصارى في بيتهما أحبّ إليّ من الجلوس في حلقة يتخاصم فيها الناس في دينهم». وأيضاً قول الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ / ١٨٣): «أكل طعام اليهودي والنصراني ولا أكل طعام صاحب بدعة». ص ٣٩.
- (١١٨) في هذه النقطة على الأقلّ نجد الحكايات الشعبية تعبّر تماماً عن عقلية ذلك العصر بلا حظ ELISSEEFF, 1001 nuits, p49».
- (١١٩) Ep.8، بيداويد، ص ٧٧.

---

## ٦ - الأمين (١٩٣ - ٨٠٩ / ١٩٨ - ٨١٣)

---

إغتلي أبو موسى محمد، الذي تسمى بالأمين،<sup>(١)</sup> بن هارون الرشيد، عرش الخلافة سنة ١٩٣ / ٨٠٩. وقد عاش طيئاً واؤس إلى ما بعد خلافته القصيرة التي مرتّتها الحرب مع أخيه المأمون.

والحق أنَّ الأمين لم يتح له الوقت الكثير ليهتم بالنصارى باستثناء القرار الذي أحياناً به أمر الرشيد بإجبار حمدون بن علي على القبول بإعادة بناء كنائس البصرة.<sup>(٢)</sup> نجد في بطانته الأشخاص أنفسهم الذين صادفناهم في خلافة أبيه. فمنهم عون الجوهري الذي استضاف الأمين ثلاثة أشهر بالحيرة «لطيب هوانها» وأنفق من ماله الخاص على الحاشية كلّها،<sup>(٣)</sup> ومنهم جبرائيل بن بختشوع الذي كان مؤذب الأمين والذي أصبح كاتم سرِّه الخاص.

وكان الأمين مثل أبيه «لا يأكل ولا يشرب إلا ياذن [جبرائيل]». <sup>(٤)</sup> بيد أنَّ الأحداث المأساوية التي شهدتها حرب الأخرين<sup>(٥)</sup> والتي لم تشهد بغداد حرّياً مثلها في الضرواة من قبل، قد خلقت آثاراً في سُكَان المدينة وبخاصة في جبرائيل الذي انتبهت العامة داره.

وقد نهب العلويون أيضاً مزارعه بالبصرة والأهواز.<sup>(٦)</sup> يشير ابن أبي أصيبيعة إلى الفرق في سلوك جبرائيل حيال هذين الحادثين. في الحادث الأول نرى «هلع جبرائيل»، الدال على شدة تعلقه بهاته. في الحادث الثاني سروره، لأنَّ هذا النهب يكاد يمنحه شهادة الولاء لل الخليفة، وقد كان ذلك لصلحة الطبيب، إذ من المعروف أنَّ الأمين كان «سفاكاً للدماء يركب هواه». <sup>(٧)</sup>

إلا أن جبرائيل كان في قرارة نفسه قد حكم على عقل الخليفة. وقد اتفق أن الأمين سكر يوماً فاكره أبا عصمة صاحب حرسه وجبرائيل المتطبّ على تبادل ثيابها. فمن ذلك الوقت تبناً جبرائيل بزوال عز هذا الملك «لتغييره ما بنفسه [من نعمة]». <sup>(٨)</sup>

في العام ١٩٧/٨١٢ وقعت إحدى المعارك بين الأمين والمأمون عند باب الشهاسية<sup>(٩)</sup> بالقرب من حي النصارى بشمال شرق بغداد. وقد انترعّت لأجل ذلك بعض أعمدة الكنائس ليُعمل منها قذائف ترمي بالمجانين، إذ «لم يكن ببغداد حجارة». <sup>(١٠)</sup>

في العام ١٩٨/٨١٣ قُتل الأمين. ويبدو أن المصادر النصرانية لا تأسف عليه. وإلى قول المسعودي إن الأمين كان «قيبيح السيرة ضعيف الرأي» <sup>(١١)</sup> يزيد الراهن المجهول<sup>(١٢)</sup> قوله: «وقد بدَّد الكنوز التي كنَّزها كلَّ من كان قبله من الملوك الأول، ولكن في الباطل، لأنَّه كان ماجِنًا وميالًا إلى الفحش». <sup>(١٣)</sup>

ربما كان هذا كلَّ ما يمكن أن يقال عن النصارى في عهد الأمين الكثيب لولا أنَّ ثمة اسماً يذكره الطبرى<sup>(١٤)</sup> ذكرًا عابرًا ويستدعي متابعة الالتفات: إنه مغَّ من الكوفة يُدعى أحمد بن إسحق بن برصوصا. ولthen حقَّ لنا التردد في اسم أبيه، إسحق، الذي ربما كان نصريًا أو مسلِّمًا فلا ريب في أنَّ جدَّ أحمد هذا كان نصريًا يعقوبيًا. ما زلنا نجهل ظروف إسلام الأسرة، أو إسلام رجالها على الأقل. ولنكتفنا الإشارة إلى أنَّ أمثال هذه الحالة كانت تحدث، ثمَّ صارت تتكرر أكثر فأكثر بسبب الضغوط الاجتماعية بخاصة. كان تأكل الجماعات المسيحية بفعل الإسلام قد بدأ منذ زمن. <sup>(١٥)</sup>

ملحوظة أخرى: كان ثمة بعض النصارى في الأحزاب كلُّها يعملون في خدمة السلطات النافذة الأمر في أقاليمهم. <sup>(١٦)</sup> فإذا غلبَ حزبهم شاطروا مصير أسيادهم، وفي أغلب الأحيان كان ينصح لهم باعتناق الإسلام، فكان ذلك أيضًا من عوامل تخلي البعض منهم عن ديناته.

## الحواشى

- (١) الصندي، ج ٥، نص ١٣٥ - ١٣٩، رقم ٢١٤٩.
- (٢) ماري، ص ٧٣.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٩، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨.
- (٥) S.B. SAMADI, The Strugle between the two Brothers, Al-Amin and Al Mamūn, in *Islamic Culture*, XXXII (1958), p 99-120.
- (٦) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٩٤ - ١٩٥.
- (٧) التبيه والإشراف، ص ٣٤٩.
- (٨) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٩٧.
- (٩) الطبرى، ج ٣، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.
- (١٠) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٠، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢١.
- (١١) التبيه والإشراف، ص ٣٤٩.
- (١٢) ج ٢، ص ٥.
- (١٣) يكفى F. GABRIELI في مقالته ٤٥٠-٤٤٩ E.I<sup>2</sup>, p.449 بالقول إنّه كان «طائشاً». يكرر ابن الطقطقى، ص ١٧١، قول ابن الأثير «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته نستحضره فنذكره».
- (١٤) ج ٣، ص ٩٥٤ - ٩٥٦. يقول الجاحظ في الصفحة ٤٩ من كتاب الناج، إنّ أمّه «كانت نبطة لكتناء» وقد قسمت بالسّكين بساطاً نفيساً أهداه الرشيد إلى ابنتها.
- (١٥) يقدّر آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة ط ٤، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٨٤، أنّه كان ينحدر ما بينأربعين وخمسين ألف نصراً في بداية القرن الثالث للهجرة.
- (١٦) نذكر عابرين رجلاً اسمه ميكائيل (ملكانى؟) كان في فرقة الخوارزمية التي ضمّت ٧٠٠ رجل ورافقت علياً بن عيسى عندما قدم من الري لمحاربة المأمون سنة ٨١٠/١٩٥ - ٨١١، الطبرى، ج ٣، ص ٨٠٠.

---

## ٧ - المؤمن (١٩٨ - ٨١٣ / ٢١٨)

---

لا شاهد لدينا على علاقات الخليفة الجديد طيّاً تاوس،<sup>(١)</sup> مع أنّ ماري يذكر أنّ هذا البخالق (الذي ربما كان آثئاً يناظر الخامسة والستين من عمره) قد أدرك خلافة المؤمن. ولنذكر، على الرغم من استحالة تأريخ الأحداث بدقة ويقين، إشارة ماري إلى أنّ طيّاً تاوس مات عن جملة دامت ٤٣ عاماً، سنة دخول المؤمن إلى بغداد، بعد ستّ سنوات من توليه الخلافة، أي في صفر ٤٠٤ / آب ٨١٩.

كانت السنوات التي فصلت بين موت الأمين (أيلول ٨١٣) وبين دخول المؤمن، سنوات اضطراب سواء في العاصمة أو في الأقاليم، وبخاصة الشام وفلسطين القريبتين من تحوم بيزنطية، حيث عان النصارى من تدهور الحالة العامة.<sup>(٢)</sup> ففي الرها أغري «العرب» النصر بين شب العقيلي<sup>(٣)</sup> وعمراء<sup>(٤)</sup> الخارجين بالقدوم لتهديم الكنائس. فقام النصارى ثم جعوا مبلغ ٥٠٠٠ زوزي وتوصلوا بوساطة يحيى بن سعيد<sup>(٥)</sup> إلى صرف المعتدين عَمَّا عزموا عليه.<sup>(٦)</sup> وفي حرّان أمر إبراهيم القرشي بتهديم الكنائس الحديثة، ولكنه أمر في الغد من ذلك اليوم بإعادة بنائها<sup>(٧)</sup> من بعدما رأى في المنام حلمًا هائلاً.

كان الصراع الذي دام أربع عشرة سنة (١٩٦ - ٨١١ / ٢١٠ - ٨٢٥) ضد نصر وعمرو الخارجين، حافلاً بالتعديات. فقد نهب الخارجان ديرًا لا يسميه ميخائيل السرياني. ثم جاء بعض النصارى التمرّدين على بطريرك أنطاكية فأجهزوا على الدير. «فكان أول دير يُحرق (سنة ٨١٢) في مملكة العرب». <sup>(٨)</sup> وانتشر قطاع الطرق في الغرب كله (الشام) . . .

على أنَّ هذا كله لم يمنع نصراً «الملعون»، الذي كان يقتل الفرس (أي العباسين) مثلما يقتل النصارى من أن يتخد لنفسه «كتاباً نصرانياً فهيفاً». (٩) ولما قبض الأمير عبدالله بن طاهر على نصر وبعثه إلى المأمون ببغداد امتدحه ميخائيل (نفلاً عن ديونيسيوس؟) قائلاً: (١٠) «كان نصر، على طغيانه، يحب النصارى ويقتل كاهل مَنْ يخرج من دينه منهم باللوان المكوس». وكان يقول: متى دفعتم لي الجزية فأنت وما تختارون من الدين. فترك كثيرون لذلك المساجد وعادوا إلى الكنائس».

عند اليعاقبة، كان البطريرك قرياقوس (٧٩٣ - ٨١٧) قد جاء إلى الشرق لتعيين رئيس أساقفة (١١) لتكريت، مركز الإقليم الشرقي من كنيسته السريانية الغربية. ولما كان التنافس لم يزل قائماً بين هؤلاء «الشرقين» وبين البطريرك، ظنَّ قرياقوس أنه قد وقع على الرجل «القادر على مقاومة أعمال هؤلاء القوم ودرئها». كان هذا كتاباً اسمه باسيليوس، أصله من بلد (١٢) «وكان يشتغل في القضاء وفي جباية المكوس». (١٣)

وكان باسيليوس هذا «مصاباً بداء الكبراء» وكان «بلا روية... تيأساً». وكانت فاتحة أمره أن دخل في نزاع (وهذا تقليدي) مع أهل الموصل ورهبان دير مار متى، فأغرى الأمير بحبس مَنْ يشاء وتغريم مَنْ يشاء، ثم إنَّه ما اكتفى «بالتعالي على النصارى» بل ربما تعدى ذلك إلى ظلم مسلمي تكريت. ولم يقتصر على تدبير الكنائس بل تدخل في الإدارة العامة التي لم تكن من شأنه، فكان يخالط الأمراء ويجبي الضرائب حتى إنَّه تسلَّق إلى فرض الجزية على المسلمين! ولما رأى هؤلاء تكبره قاموا عليه وأسعوا إلى النصارى بسببه، فقتلوا من حبيتهم، الخازير في الشوارع وهاجروا الكنائس.

عندئِذ انحدر باسيليوس إلى بغداد ليشتكي على المسلمين. فما كان من هؤلاء إلا أن سبقوه فوصلوا قبله وحرّروا دعوى لم تخل من المأخذ التي صارت تقليدية: الصلبان، النواقيس، الخمر فضلاً عن الخازير التي «تدخل إلى المساجد». واتهم المطران وآخر من أعيان رعيته، يُدعى عبدون، «بشتمن الرسول». أما الرد فكان منشوراً بإبطال شرائع النصارى وأمراً بالقبض على الرجلين المتهمين، ففرَّ باسيليوس وقبض على عبدون، فأُغري أول الأمر بالخلع والشرف والمنصب إذا ما اعتنق

الإسلام فلما تمنّع أُرحب بالوعيد ثم عذب. وبعد سبعة أشهر من الحبس والتعذيب حُدّ بالسيف ثم صلب، وقد وقعت بعض المعجزات فوق قبره في ما روی. أمّا باسيليوس «الذي كان يتوجّد العرب بالطرد من بيوتهم»، فلم يتمكّن أبداً من العودة إلى تكريت. وقد مات سنة ٨٢٩ مختبئاً في دير عين قنا (قصر سرج) بالقرب من مسقط رأسه بَلَد. فهذه الحالة قد تدخل إذن في فئة «الاستفزاز وردة الفعل».

٧ آخرت الاضطرابات التي سادت أوائل خلافة المؤمنون انتخاب خلف طبياًثاوس<sup>(١٤)</sup> عند المشارقة من السريان.<sup>(١٥)</sup> كان هذا الخلف إيشوع بر نون وكان إيشوع هذا من الزملاء القدامى لطبياًثاوس وأبى نوح الأنباري الكاتب في مدرسة ابراهام بر داشنداد بشوش.<sup>(١٦)</sup> وقد كان إيشوع بر نون قضى بضعة أشهر ببغداد حوالي سنة ٧٩٠، مؤذياً لابن الطيب جرجس المسمى ماسويه.<sup>(١٧)</sup>

انتخب الجاثليق الجديد في بداية تموز ٨٢٣. وقد تواافق الآباء المسيّمون على اسم إيشوع بر نون بأمر من أربعة رجالات: طبيان هما جبرائيل بن بختيشوع وصهره ميخائيل، وكاتبين هما يعقوب ووهب. لا نعرف شيئاً عن الاثنين الآخرين وربما كانوا أبويا الكاتبين دليل بن يعقوب وسليان بن وهب اللذين اشتهرَا في الجيل التالي؟

وقد أنبط تدبیر أموال الجاثلقة، إبان خلوّ السيدة برجل يُدعى عبدا هو ابن عون الجوهرى العبادي الذي نعرفه والذي كانت داره باسبانيا، إحدى الضواحي بمدائن طيسفون.

كان جبرائيل بن بختيشوع لا يزال هناك سنة ٨٢٣ منذ أن بدأ في خدمة جعفر البرمكي سنة ٧٩١/١٧٥. والحق أن الفتنة الانتقالية التي أعقبت مقتل الأمين، سنة ٨١٣، لم تكن سهلة على جبرائيل الذي رفض التقرب إلى المؤمنون. وقد سخط عليه الخليفة الجديد، وقبض عليه وصادر أمواله كلها.<sup>(١٨)</sup> ولكن في العام ٨١٧/٢٠٢ اعتُلَ الحسن بن سهل،<sup>(١٩)</sup> الذي صار وزيراً من بعد، وكان المؤمنون قد أوكلوا إليه أمر القبض على جبرائيل. فما كان من الحسن إلا أن أطلق جبرائيل ليعالجه ثم شفع له بعفو الخليفة (فسفاه الطيب ولكن إلى حين).

لما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤/٨١٩<sup>(٢٠)</sup> «أمر بأن يجلس جبرائيل في منزله ولا يخدم، ووجه من أحضر ميخائيل المتّبب، وهو صهر جبرائيل، وجعله مكانه وأكرمه إكراماً وافراً كياداً لجبرائيل».

وفي أثناء فترة السخط هذه انتخب إيشوع بر نون. وقد توصل جبرائيل وصهره إلى التفاهم على اسمه. في العام ٢١٠/٨٢٥ - ٢١٣/٨٢٦ ألم بالمأمون داء أعجز ميخائيل عن شفائه، فاستدعي يوحنا بن ماسويه. إلا أن ميخائيل نجح في إزاحته، إلى أن جاء جيء بجبرائيل الشيخ الذي استطاع أن يشفى الخليفة، فوصله هذا بهدايا جليلة نقداً وعيناً وأمر بأن يرد إليه كل ما صودر منه من الأموال والضياع.

ظلّ جبرائيل ينعم مدة ثلاث سنوات أخرى بالعز الذي عرفه من قبل، أيام الرشيد، حتى إنّ هذا الطبيب كان، على قول ابن أبي أصيبيعة «عند المأمون مثل أبيه» وكان «كلّ من تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله إلاّ بعد أن يلقى جبرائيل ويذكرمه». <sup>(٢١)</sup> من ذلك أنّ صالحًا بن الرشيد، عامل البصرة قد حُجب عن الدخول على الخليفة، على ما بذله من مال في محاولة ذلك، واضطرّ إلى العودة بخفى حين، لا شيء إلاّ لأنّه استكثر طلب جبرائيل خس مئة ساجة لعمارة داره القريبة من الميدان بالبصرة وعرض حمل مئتي ساجة إليه فحسب. <sup>(٢٢)</sup>

ولما انطلق المأمون سنة ٢١٣/٨٢٨ ليغزو الأراضي البيزنطية، أراد أن يصطحب طبيبه الهرم. ولكن الخليفة لما رأى ما عليه من الضعف، اكتفى باصطحاب ابنته بختيشوع. وقد مات جبرائيل إبان هذه الغزوة، أي في غياب الخليفة، فدُفن في دير مار سرجيس بالمدائن «فمضى في تجميل موته ما لم يمض لأمثاله».

خبا نجم ميخائيل المتّبب، صهر جبرائيل، ولكن بختيشوع<sup>(٢٣)</sup> بن جبرائيل قام مقام أبيه، وبقى للنصارى نصير قريب من العرش.

في هذه الأثناء، كان إيشوع بر نون قد أنهى جثافة دامت أربع سنوات، احتفظ المؤرّخون منها بذكرى بغضه المرضي<sup>(٢٤)</sup> لسلفه طبياثاوس. حتى إنّ الأطباء قد اضطروا أحياناً إلى تسليك الأمور بينه وبين الأساقفة الذين كانوا يريدون خلعه.

هذاً إيشوع بر نون، ورأى رؤيا مبنية بموافقة المنيّة، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في دير الجاثلقي الذي كان طبياً ثاووس قد عمره.

VI خلف إيشوع بر نون جيورجيس بن الصبّاح<sup>(٢٥)</sup> الذي كانت سنه تناهز المئة عندما سيم جاثليقاً يوم الأحد في ١٦ حزيران ١٧٨٢٧ ربيع الأول ٢١٢. كان جيورجيس هذا قبل عشرين عاماً رئيس رهبان دير بيت عابي وكان قد جأ إلى جبرائيل مستعيناً به على استرجاع إحدى ضياع الدير التي اغتصبها جار له. وقد أعجب رئيس الأطباء باستقامة هذا الديراني وسعى لدى طبياً ثاووس ليرسمه مطراناً بلنديسابور. والآن عمل جبرائيل وميخائيل على تقديميه إلى كرسى الجاثلقة بالرغم من علو سنه. لا يذكر المؤرخون شيئاً مخصوصاً عن علاقات هذا الخبر بالسلطات أو بال الخليفة أو بالوزراء. وإنما يعني هذا أنّ البطريرك لم يكن يقوم دائماً بالدور الأهم في «العلاقات العامة» لجهازته. فقد اكتفى جيورجيس بصنع آيات ومعجزات مشهورة كشفاء الأمراض الصعبة وإخراج بعض الشياطين. ومن المحتمل أن يكون أهل البلاط، والنساء منهم خاصة، قد استعنوا به ولكن ليس لدينا أي ذكر لذلك.

وقد توفي جيورجيس الثاني بعد حوالي أربع سنوات من الجاثلقة، في غرة المحرم من سنة ٢١٦ / آذار ٨٣١.

VII كان خلفه سير يشوع<sup>(٢٦)</sup>، الجاثلقي الثالث في خلافة المأمون، قد لفت انتباه الخليفة بالاستقبال الذي هيأ له «ولاصحابه وجماعة النصارى الذين كانوا معه لما حصل بدمشق» التي كان سير يشوع مطراناً على رعيتها، سنة ٢١٥ / ٨٣٠.<sup>(٢٧)</sup> وقد ظلت ذكرى تلك الحفاوة ماثلة في الأذهان، حتى إذا شعرَ كرسى الجاثلقة بموت جيورجس الثاني، انتخب سير يشوع.<sup>(٢٨)</sup> لم يحفظ المؤرخون عن جاثلقة إلا تجديده (بإذن الخليفة) دير مار فثيون بحري العتيقة في جنوب غرب بغداد.

لم يكن للجاثلقة الشيوخ الذين خلفوا طبياً ثاووس، والذين لم تدم جاثلقة كلّ منهم أكثر من أربع سنوات، إلا علاقات مجاملة، في ما يبدو، بعرش الخلافة، بينما تتبع دينوسيوس التلمحري بطريرك المغاربة من السريان في ذلك الزمان برضاء المأمون، ولو إلى حين.

يجدرنا أحد الباحثين المسلمين المعاصرين<sup>(٢٩)</sup> من استعمال آثار ديونيسيوس التلمحري إلاًّ بكثير من الحيطة،<sup>(٣٠)</sup> ولا سيما في تعاملنا مع «أحكامه المتهورة» التي ساقته إليها «عداوه للنظام الجديد».

قد سبقت منا الإشارة إلى أن المؤلفين السريان الغربيين كانوا من شدة معاملة السلطات الإسلامية لجماعتهم أغلب شعورى مما كان المشارقة من سريان الداخل، وذلك لقرب الأوائل من الحدود البيزنطية. فهذا ماري السريانى الشرقي يكتب عن المأمون أنه كان «يميل إلى النصارى»<sup>(٣١)</sup> بينما يقول ميخائيل السريانى، السريانى الغرى<sup>(٣٢)</sup> (المتأثر بديونيسيوس؟) إن المأمون «كان يلعنه الجميع لما أنزل بالناس من صنوف البلاء». ومع ذلك، يجدر بنا ألا نبالغ في التبسيط، إذ إن سريانياً غربياً آخر، هو الراوى المجهول<sup>(٣٣)</sup> يذكر أن «الملك المأمون كان عادلاً في حكماته، محبًا للسلام رحيمًا». ويضرب على ذلك مثلاً: في العام ٨٢٤ جاءت الموسى وفيرة وانفرجت الشدة عن الناس: «فأنمت السبل، وخيم السلام على الناس بفضل طيبة الملك المأمون وحلمه. وقد أمر عماله بأن يعدلوا في تدبير الرعية وينصفوا، وأن يردوها على من ظلم من الناس أو نهبت أرضه وماله. وقد أمرهم المأمون بأن يغزوا على النصارى من إضافة العسكر وأن لا يظلمونهم من العرب أو الفرس»<sup>(٣٤)</sup> أحد. وقد طاب للنصارى العيش في ذلك الزمان، وكانوا يصلون الله بلا انقطاع سائلينه أن يحفظ عليهم حياة المأمون».

ها نحن قد ابتعدنا كثيراً عن اللوحة القاتمة التي يرسمها ديونيسيوس المزعم<sup>(٣٥)</sup> إذ يكتب: «وقد أخذنا على أنفسنا أن نقول كل شيء وأن ننقل إلى من يأتي بعدها ذكرى... الأباء التي كان ينحو بها أسلافهم لكىما يحتاطوا لأنفسهم فلا يظلموا».<sup>(٣٦)</sup> يلاحظ فاروق عمر، بحق، أن هذا «الحيف» لم يكن نازلاً بالنصارى وحدهم، ولكن فرح الراوى المجهول بوفرة الغلال في هذا العام أو ذاك، فهذا يعني أن العام السابق كان عام قحط، وكان هذا العسر يصيب الشعب كله لا النصارى من دون غيرهم.

زد على ذلك أن العمال منهم من كان حسن السيرة ومنهم من كان جائراً. وقد امتحن ديونيسيوس عبدالله بن طاهر<sup>(٣٧)</sup> عامل المأمون ورببه الذي كان (على قول المعتصم) أحد أكابر رجالات المملكة الأربعة العظام. وقد أعاد عبدالله ديونيسيوس على التخلص من منافس دخيل اسمه أبي رام.<sup>(٣٩)</sup> كما قصد ديونيسيوس عبدالله بصر، سنة ٨٢٦ - ٨٢٧، لما كان عاملاً عليها ليتوسط له لدى أخيه محمد الذي راح نائبه يقطنان بهدم كنائس الراها ويكره سكان المدينة على تحرير عبيدهم ليدخلوا الإسلام. ولا بد من الإشارة، مع ميخائيل السرياني<sup>(٤٠)</sup> إلى أن المحرض على هذه التدابير كاتب خلقيدوني (ملكانى) اسمه وليد.

وقد كان على ديونيسيوس البطريرك أن يتدخل لدى الخليفة نفسه في قضية شكوى يعاقبة بغداد على أسففهم لعاذر بن شبنا.<sup>(٤١)</sup> ذلك أن الخليفة، لسياسة طبعه،<sup>(٤٢)</sup> أعطى اليهود المنقسمين إذنًا يجيز للجماعة الدينية أن تختار رئيسها الدينى ولو لم يتجاوز عدد أفرادها العشرة، وأجاز لهذا المختار الحصول على اعتراف الخليفة به.<sup>(٤٣)</sup> وقد وافق هذا الأمر لعاذر الأسقف ولكنه لم يوافق ديونيسيوس البطريرك الذي قال: «عندما يكثر الرؤساء فيما نضعف ويظهر علينا المسلمين».<sup>(٤٤)</sup>

لم يشا الخليفة «الذي كان حصيفاً» أن يظلم البطريرك الذي « جاء ليسّم عليه بهدايا من أقاصي الأرض»، بل أذن لديونيسيوس «أن يلحق به حيث كان يتزّه بالستان ليعرض قضيته». وقد ناظره ديونيسيوس، في ما روي، «مناظرة النّد... كمن يخاصم صاحبه في قسمة بعض الغائم» حتى «تعجب أساقتنا وعسکره مما أظهرته، بقوّة الربّ، من الجرأة مثلما تعجبوا من صبر الملك الحليم». فوعد الخليفة بفحص القضية.

بعد عشرة أيام ذكره ديونيسيوس بوعده عن طريق لعاذر المارديني الكاتب العقوبي «الذي يقف بين يدي الملك».<sup>(٤٥)</sup> وبعد مشاوره الفقهاء في هذه القضية<sup>(٤٦)</sup> أذن المأمون لديونيسيوس بالدخول فيها كان من البطريرك إلا أن ألقى على الخليفة خطبة في البطاركة وسلطاتهم، حتى نبهه الخليفة قائلاً: «اسمع يا بطريرك. وانظر كم نصبر عليك» وقد أسفر الحوار عن الموافقة على عزل لعاذر عن

الأسقفية، بيد أنَّ الخليفة لم يأذن للبطريرك «بطرده من الكنيسة ولا بحرمانه من الصلاة».

جاءت قضية أخرى تتصادف إلى الأولى: أمير الموصل قد ظلم اليعاقبة و«نقض» كنيستهم. لفت الخليفة نظر البطريرك قائلًا: «لا يليق بنا أن ننظر في أمركم». ذلك لأنَّ أمثال هذه الشكاوى كانت من اختصاص ديوان المظالم. مع ذلك، فإنَّ المؤمن لما كان «يقدّر شجاعة البطريرك» أمر بأن ينظر هل «أسلم أهل الموصل بلد़هم صلحًا للعرب»، كما يقول البطريرك [وهل] الذي فتحها كتب لهم عهداً بأن لا تقض كنيستهم وأن لا تنسخ شرائهما». فجيء الخليفة بالعهد المطلوب<sup>(٤٧)</sup> فأمر المؤمن بأن يكتب بذلك إلى عامل الموصل، وكان ذلك سنة

.٨٢٩

إذا صدقت رواية ديونيسيوس للأحداث فإنَّا لنعجب حقًا بصير المؤمن. إلا أنه لم يطالك نفسه عن التألف من الصراعات الدائرة في قلب جماعة المغاربة من السريان عندما قال: «لقد والله أسامتموني وأزعجموني يا عشر النصارى! ولا سيما أنت يا عشر اليعاقبة، مع أنَّا نحمل ما يتظلم به بعضكم من بعض»، وقد نقل ديونيسيوس قوله بأمانة.<sup>(٤٨)</sup>

وفي السنة التالية، أي ٨٣٠، حل ديونيسيوس المدايا إلى الخليفة ولحق به بدمشق (حيث رأينا المؤمن من قبل ينزل ضيفًا على سريشوع مطران المشارقة من السريان). رأى الخليفة الفائدة السياسية التي قد يجنيها إذا ما اصطحب ديونيسيوس البطريرك إلى مصر حيث كان النصارى من الأقباط البشمرية قد خرجوا على الطاعة. كانت وساطة بطريركهم، يوسف الإسكندرى قد أخفقت من قبل، ولم يقيِّض لوساطة ديونيسيوس نجاح أفضل.<sup>(٤٩)</sup>

زيادة على هذا الإخفاق تجرأً البطريرك على إلقاء تبعة التمرد على إبراهيم، أخي المؤمن بسبب جباهه الضرائب. هذه المرة غضب الخليفة من جراءة البطريرك وظلَّ كالساخط عليه حتى نهاية خلافته. وقد سارت أحوال ديونيسيوس من سُوء إلى أسوأ عندما أصبح إبراهيم نفسه الخليفة سنة ٨٣٣ وتلقب بالمعتصم. فكان على البطريرك أن يختبئ حتى يصار إلى تهديه الخليفة الجديد.

لم يكن ثمة ما يرضي المأمون عن نصارى مصر. وعند رجوعه إلى بغداد<sup>(٥٠)</sup> ساءه أيضاً أن النصارى «اتفق لهم مجاهرة في بغداد بالبغى والفساد على معلمه على بن حزرة الكسائي،<sup>(٥١)</sup> فلما قرأ عليه المأمون ووصل إلى قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولَائِكَ بَعْضٌ، وَمَنْ يَتَوَهَّمْ مِنْكُمْ إِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ قال الكسائي: يا أمير المؤمنين، أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به؟»<sup>(٥٢)</sup>

وقد جمع المأمون، في ما يروى، كلَّ من كان في خدمته من الذميين «وصرف وسجن ألفين وثمان مئة» وبقي جماعة من الكتاب اليهود في ديواني الجيش والخارج فأمر المأمون بصرفهم أيضاً.<sup>(٥٣)</sup> ربما وجدنا في هذا التصرُّف مسوغاً لقول المسعودي عن المأمون: «وربما حرك منه الغضب فعجل بالعقوبة».<sup>(٥٤)</sup>

ربما أعاد الإطار التاريخي على تفسير سخط المأمون. نحن الآن في العام ٨٣٠: عُمِّكَن الأفшиين من إخضاع الخارجين بمصر،<sup>(٥٥)</sup> واشتعلت الحرب مع الروم ثانية، ولعلنا ندرج في هذا السياق أيضاً حرباً طريفاً يورده هلال الصابي<sup>(٥٦)</sup> عن كاتب خائن لئيم يُدعى أبو الفضل فرج بن زياد الرخاجي. فقد كان من كيده لزميه المفضيل عليه أبي الحسن مخلد بن أبيان أن جعل في رأس الشاشيات الأنفة التي اصططعها له صلباناً من خوص النخل، وذلك لإثبات التهمة عليه بالتفاق، إذ أخفى عن الخليفة أنه من «عبد الصليب». ومن حسن التوفيق أن المفترى عليه اكتشف المكيدة وأبدل الشاشيات وأفحى المفترى العقوبة لما اتهمه بين يدي الخليفة. ولم ينقل لنا المصدر ما كان من شأن المأمون أن يفعل لو قامت البيبة على التهمة. بيد أن مناخ التوتر الذي ساد أواخر الخلافة، كالذى ساد أوائلها، يحجب الألا ينسينا السنوات التي مرَّت بينها والتي كانت من ألمع سُقُن العصر العباسي ومن أشدّها حراجة بالنسبة إلى خيارات علم الكلام داخل الإسلام.

هل كانت ثمة أراجيف تهم الإسلام بالانتشار بقرة السيف؟ فمن أجل الرد عليها، في ما يبدو، ومن أجل إظهار تفوق الإسلام دعا الخليفة إلى بغداد كلَّ من

كان بدار الإسلام من رؤساء الملل ليناظروا علماء المسلمين. ولعل هذه الدعوة تفسّر قدوم<sup>(٥٨)</sup> يزدان بخت، رئيس المانوية، من الري إلى بغداد، وإذا أفحمه علماء المسلمين دعاء الخليفة إلى الإسلام، فلما ترق في الرفض لم يشاً المأمون إجباره، بل بعث معه من يحرسه من سوء معاملة العامة.<sup>(٥٩)</sup>

## تيارات علمية وكلامية

في خلافة المأمون عرفت حركة الترجمة إلى العربية ذروتها.<sup>(٦٠)</sup> كانت للخليفة عدّة اتصالات بقياصرة الروم ليطلب منهم، في ما يطلب، أن يأذنوا لبعثة عربية بالسفر إلى بلاد الروم لجمع المخطوطات في علوم الطبيعة والهندسة والطب، أو أن يبعثوا إلى بغداد عالماً بالرياضيات يونانيّاً مشهوراً اسمه لاوون. فالمأمون هو مؤسس معهد الترجمة العظيم الذي يُعرف ببيت الحكمة والذي أنيطت إدارته بسهل بن هارون. كان معظم المترجمين، في البداية، من النصارى الملكانيّن واليعاقبة والنساطرة خصوصاً. وبفضل هؤلاء انتقلت علوم اليونان إلى العرب ثمّ عادت بوسائلهم إلى أوروبا.

وقد بقيت بعض أسماء الذين ترجموا للمأمون. فمن النصارى الحاجاج بن مطر وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي<sup>(٦١)</sup> في ترجمة كتب الطب، ويحيى بن البطريق الذي «كان في جملة» الحسن بن سهل.<sup>(٦٢)</sup>.

ومن بين الأطباء رأينا في بداية خلافة المأمون جبرائيل بن بختشوع وصهبه ميخائيل، بعد ذلك نجد جبرائيل بن بختشوع<sup>(٦٣)</sup> إلى جانب الخليفة، حتى في الحملات على بلاد الروم. وقد اقترب اسمه باسم المأمون في العديد من الأقوال المأثورة<sup>(٦٤)</sup> التي تنسبها كتب إلى هذا الخليفة وهذا الطبيب، وتنسبها كتب أخرى إلى غيرهما. ويظهر، فضلاً عن بختشوع، ابن ماسويه الذي صادفناه من قبل<sup>(٦٥)</sup> وكذلك سلمويه.<sup>(٦٦)</sup>

كان كحال الخليفة رجلاً ناصريّاً اسمه جبرائيل<sup>(٦٧)</sup> وكان أول من يدخل عليه كلّ يوم، وكذلك كان أحد مشاهير الكتاب في ذلك العصر، عليّ بن هيثم

الذى كان يلقب بجونقا، والذى كان المأمون يتحفظ إذا تكلم أمامه لأنّه «تعرّق في الإعراب».<sup>(٦٨)</sup> وجوئنا هذا هو الذي تجراً يوماً أن مجلس في «مجلس العرب» في دكة الشهاسية، حتى ذكره الكتاب الذين هجر صفوفهم (لا المسلمين) بالأصول، فاضطر إلى العودة والجلوس مع النبط.<sup>(٦٩)</sup> وهذا يذكرنا بأنّه منها بلغ شأن النصارى من النفوذ في قصور الخلفاء، فقد كان ثمة دائمًا «عتبة للتسامح» كانوا يشعرون بوجوب الوقوف عندها. كان عليهم، كما كان يقال آنئذ، ألا «يتعدوا طورهم».<sup>(٧٠)</sup>

نجد مثلاً آخر على ذلك في خلافة المأمون أيضًا،<sup>(٧١)</sup> إنه النصراني المصري بكلام البيبورى: «كان بكلام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد (لون العباسين) وتقلد بالسيف والمنطقة (بدلًا من زنار الذميين!) وركب برذونا (فالفرس كان محظوراً على النصارى) وبين يديه أصحابه، فإذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته، وكان مسلماً، يصلّى بالناس وينطبع باسم الخليفة ويخرج إليه». وإننا لنرى في هذه الفقرة الصغيرة مزيجاً مدروساً من تحطى بعض الأصول واحترام بعضها الآخر مما لم يكن من احترامه بدّ. كان على كلّ واحد أن يعرف، في الوقت المناسب، إلى أين يستطيع أن يذهب من دون أن يستفز الآخرين.

على أية حال كان اهتمام الرأي العام في عصر المأمون يدور حول مسائل تختص بالجماعة الإسلامية نفسها.<sup>(٧٢)</sup> ففي حزيران ٨٢٧ انحاز الخليفة إلى المعتزلة وأعلن عن عقيدته بأن القرآن «إِنَّ كَانَ مُنْزَلًا فَهُوَ مُخْلوقٌ وَأَنَّ الْحُرْيَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا تَلْغِيْهَا عَقِيْدَةُ الْقَدْرِ».<sup>(٧٣)</sup> ومن ثمّ كانت المحنّة<sup>(٧٤)</sup> التي امتحن بها علماء الإسلام وأدت إلى الحكم بالموت على من لم يقل منهم بخلق القرآن. إلّا أنّ وفاة الخليفة حالت دون تنفيذ الأحكام. كان انحياز الخليفة إلى الاعتزال من نتائج دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامي، وذلك بسبب حركة الترجمة التي كان النصارى مسؤولين إلى حدّ بعيد عّنها من آثار محمودة أو مذمومة. لذلك شملتهم ردّة فعل أهل السنة والجماعة في جملة ضحاياها.<sup>(٧٥)</sup>

## الحواشی

- (١) لم يذكر اسم الخليفة في رسائل الجاثيلق، Index dans PUTMAN p.154-157.
- THEOPHANE, ad. an. 6305, p.499, cité dans DHGE, s.v. Antioche, col. 589 sq. (٢)
- حيث يتکلم عن «اضطهاد عام بالشام».
- (٣) الطبری، ج ٣، ص ٨٤٥، ٩٧٥، ١٠٤٣ - ١٠٦٧ - ١٠٧٤ .
- (٤) السلمی؟ المذکور مع نصر في العام ١٩٦/٨١١ في المصدر السابق ص ٨٤٥ .
- (٥) ميخائيل السريانی، ج ٣، ص ٢٢ ، ابن العبری، تاریخ الزمان، ص ٢٠ .
- (٦) ميخائيل السريانی، ج ٣، ص ٤٧ - ٤٨ ، ابن العبری، تاریخ الزمان، ص ٢٢ .
- (٧) ميخائيل السريانی، ج ٣، ص ٢٣ .
- (٨) المصدر نفسه، ص ٢٣ - ٢٤ ، ٣٧ ، ٥٢ - ٥٣ ، إلخ .
- (٩) المصدر نفسه، ص ٣٦ . هل كان هذا يحیی بن سعید الذي رأیناه من قبل؟
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦١ .
- (١١) لم يكن يلقب بالمریان بعد .
- (١٢) بُلَيْدَة إلى الغرب من الموصل على طريق نصيبين، تستمی اليوم أسكى موصل .
- (١٣) ميخائيل السريانی، ج ٣، ص ٢٨ - ٢٩ ، ٤٨ - ٤٩ ، ٦٠ ، إلخ . أنظر المراجع في DHGE, VI, col 1144-1145, s.v. Basile (no. 128) par ARN VAN LANTSCHOOT
- (١٤) يقول صلیبا، ص ٦٦ ، إن السيدة ظلت شاغرة مدة سنة وخمسة أشهر، والواقع أن إیشوع بر نون لم یُنتخب إلا في العام ٢٠٨/٨٢٣ ، أي بعد ذلك بأربع سنوات .
- (١٥) وقد حضر المأمون، في تاريخ غير محدد، عيد الشعانين بدیر الأعلى بالموصل، الشابشی، الديارات، ط ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .
- (١٦) ماری، ص ٧٥ - ٧٦ ، صلیبا، ص ٦٦ - ٦٨ ، ابن العبری، ج ٢ ، العمودین ١٨٢ - ١٨٤ ، إلیانا النصیبینی، الحاشیة العربیة ص ٧١ .
- (١٧) ماسویہ بن یوحنا(?) ، ابن أبي أصیبعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٦ .
- (١٨) ابن العبری، تاریخ الزمان، ص ١٨ ، ابن أبي أصیبعة، ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ١٩٨ ، إلخ .
- Vizirat, p. 215-218 (١٩)
- M.ZAHNISER, Insights from the 'Uthmaniyya of al-Jahiz into the religious policy of (٢٠)
- al-Ma'mun, in Muslim World, 69, (1979) pp.8-17.
- (٢١) ابن أبي أصیبعة، ص ١٩٠ .
- (٢٢) ابن أبي أصیبعة، ص ١٩٥ .
- (٢٣) ابن أبي أصیبعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩ . یصف نظامی عروضی، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، بختیشور

بالطبيب البارع، المخلص والرفيق» ويروي أنه فيما كان يعالج رجلاً من أقارب الخليفة استعصى داؤه، اعتمد على «سعد أمير المؤمنين» ليجرّب دواء خطراً لشفاء الداء العضال.  
(٢٤) ولو أنّ لبيون مكانة في الأدب السرياني، ولا سيّاً في تفسير الكتاب المقدس، انظر-  
NEST G. CLARKE, *The Selected Questions of Iso' bar Nun on the Pentateuch*, *Stu-*  
*dia post-biblica*, V, Brill 1962; *The Rules of Iso'b. Nun*, in A. VÖÖBUS, *Syriac and*  
*Arabic Documents*, ETSE, 11, Stockholm, 1960, p. 189-204.

السريانيَّة.

- (٢٥) صليباً، ص ٦٨ - ٦٩، ماري، ص ٧٦، ابن البري، ج ٢، العمود ١٨٨، إيليا التنصيبني، الحاشية العربية ص ٧١ - ٧٢، ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق الرابع، ص ٥٢٤ - ٥٢٥، ولدِي GISMONDI قراءة «الصياغ»<sup>(٥)</sup>.  
(٢٦) ماري، ص ٧٥ - ٥٦، صليباً، ص ٦٩ - ٧٠، ابن البري، ج ٢، العمود ١٩٠، إيليا التنصيبني، الحاشية العربية، ص ٧٢ .  
(٢٧) الكامل، ج ٦، ص ٤١٨ .  
(٢٨) لم يكن يُعدُّ «عالماً» بل كان يُعدُّ «من غير فهم» مع أنه كان «حافظاً للأخبار البيعية» عن ظهر قلب.

FARUK OMAR, *A General Sketch*, op. cit. (٢٩)

- (٣٠) ينبغي لنا مع ذلك أن نحلل فقرات القسم الرابع من تاريخ ديونيسيوس المزعوم وتلك التي ينسبها ميخائيل السرياني إلى ديونيسيوس الأصيل. يبدو لي الأول أكثر تبسيطًا للأمور وأكثر تظاهراً بالتفوّق مستشهاداً على مدى الصفحات بنبوءات قد تفسّر (وقد لا تفسّر) الأحداث التي يوردها. ويقى السؤال مطروحاً: كيف كان ديونيسيوس الأصيل مؤرّخاً؟  
(٣١) ص ٧٤ .  
(٣٢) ج ٣، ص ٧٥ .  
(٣٣) ص ١٠ - ١١ ، ١٧ .

- (٣٤) يدلّ لفظ «العرب» على أهل الشام والأمويين سابقاً، بينما يدلّ لفظ «الفرس» على العباسين المرتبطين بخراسان.  
(٣٥) ص ١١٦ .

- (٣٦) إنه كلام على شيء من الغموض، ولكنه ربما أوحى بوجوب معرفة كيف يكسب رضا السلطة وكيف يجتنب «الاستفزاز»، أي بعبارة أخرى عدم تحطّي «عبنة التسامح»؟  
(٣٧) كان هذا الرجل كريماً الأصل: فالكلّ يعرف الوصيّة الرفيعة القيمة الأدبية والأخلاقية التي وضاه بها أبوه طاهر عندما تقىد عبدالله أمر الرقة ومصر وما إليها. ولما أطاع المأمون على هذه الوصيّة أمر بنسخها وإرسالها إلى عمال الولايات جميعاً. أنظر نصّها في مصادر شتّى كالطبرى وابن خلدون، إلخ. وفي ابن الأزرق، ص ٦٨٨ - ٦٩٨ . والرسالة لا تتطرق

مباشرة إلى شؤون النصارى، ييد أنَّ ابن الأزرق يوردها في فصل معاملة أهل الذمة، ص ٦٩٨ - ٦٨٤.

(٣٨) الزركلي، ج ٤، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ و ٥٤، par E. MARIN

(٣٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٥٧ - ٥٨ عن أمر المأمون: «وتصر [البطريك] الحق في ما يصلح من الأمور ولا يتتجاوز حد الإنصاف». ابن العبري، ج ١، العمود ٣٥٦ - ٣٥٨. وكان عبد الله يحب دينيسيوس حباً جماً نلمسه في قول البطريك: «وقد لامني على ركوب البحر إليه وأنا في هذه السن من الكبر وعلى هذا الشرف في الرتبة... قال: من حملك على القدوم إلى مصر؟ أما كان بوسعك أن تكتب لي لتعلمني بما تحب؟».

(٤٠) ج ٣، ص ٦٠ - ٦٤، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٦٠.

(٤١) ابن العبري، ج ١، العمود ٣٦٦ - ٣٧٢.

(٤٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٥٣.

(٤٣) أنظر المراجع في كتاب PUTMAN ص ١٤٤ - ١٤٥، آدم مت، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٩٠.

(٤٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٥ - ٧٠.

(٤٥) نجده ثانية مع المأمون بدمشق سنة ٨٣٠، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٧٦.

(٤٦) يذكر ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٧ (نقلأً عن دينيسيوس) اسم قاضي القضاة يحيى بن أكثم. أما الطبرى، ج ٣، ص ١٤١٠ فيشير إلى أنَّ يحيى لم يتقلد هذا اللقب إلا في خلافة المتوكل سنة ٢٣٧.

(٤٧) ولا يدل هذا أبداً على صحة هذا العهد، فقد كانت عدّة عهود مزيفة من هذا النوع قد التداول، كذلك الكتاب الذي يغنى بهود خبير من الجزية، الصفدي، الواقى، ج ١، ص ٤٤ - ٤٥، ابن الأبار، اعتاب، ص ٢٠٦.

(٤٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٥ - ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٦، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٦٦.

(٤٩) أنظر مقالتي: Coptes et Syriaques, p. 321-322 avec réf.

(٥٠) ابن القيم، ص ٢١٨.

(٥١) عن هذا الرجل (ت ١٨٩ / ٨٠٥) انظر F. KRENKWO, Tarikh Baghdad,

(٥٢) ابن القيم، ص ٢١٨ - ٢١٩. انظر أيضاً غازي الواسطي، ص ٣٩٦.

(٥٣) ابن القيم، ص ٢١٩.

(٥٤) التنبية، ص ٣٥١.

(٥٥) ربما جاز لنا أن نربط بسورة الغضب هذه «حالات الإسلام» التي لم يقتنع المأمون أنها كانت جدية حقاً، هذا إذا صدق الكلام الذي ينسبه إليه الكذبي المزعوم في مخاطبة أهل حاشيته. فقد قال الخليفة، في ما روی: «والله إنِّي لأعلم أنَّ فلاناً وفلاناً حقَّ عدد جملة من خواص

أصحابه ليظهرون الإسلام وهم أبرياء منه ويرأونني ، وأعلم أنّ باطنهم ليخالف ما يظهرونه وذلك أنهم قوم دخلوا في الإسلام لا رغبة في ديننا هذه بل أرادوا القرب مثـا والتعزـز بسلطان دولتنا لا بصيرة لهم ولا رغبة في ما دخلوا فيه... وإنّي لأعلم أنّ فلاناً وفلاناً حتى عدّ جماعة من أصحابه كانوا نصارى فأسلموا كرهاً فيها هم مسلمين ولا نصارى». رسالة الهاشمي إلى الكندي ورسالة الهاشمي إلى الكندي، تحقيق ANTON TIEN لندن، ١٨٨٠، ص ٦٦.

(٥٦) غازي الواسطي، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ وما يليها، يقدم تفاصيل كثيرة عن موقف المأمون من القبط. ويستشهد بشاعر يقول:

لعن النصارى واليهود فكأنهم خرجو أطبياء وكثاباً لئن والبيتان سقيا الوزن والمعنى، ولا يصحان إلا إذا قرئا كما يلي:	بلغوا بنا من دهرنا الأمالا تناهبوا الأرواح والأموالا بلغوا بنا من دهرنا الأمالا فتنهبوا الأرواح والأموالا (المترجم)
---	--

(٥٧) رسوم دار الخلافة، ص ٤٣ - ٤٤.

(٥٨) حسب خطوطه لأهد بن يحيى بن المرتضى (القرن الرابع عشر)، المثنة والأمل في شرح كتاب الملل والتخل. (انظر: G. MONNOT, dans MIDEO, XI, p.40-41) مذكور في ARNOLD, p.86

(٥٩) النديم، فهرست، ج ١، ص ٣٣٨.

(٦٠) أنظر الآن سليم طه، التاريخ وكيار المؤرخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ - ٣٣٩.

(٦١) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٨٠.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢. يذهب دنلوب، ص ١٤٢، إلى أنّ يحيى قد أسلم، مستندًا في قوله إلى أنّ يحيى كان مولى للمأمون.

(٦٣) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩.

(٦٤) أنظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٠٩، ج ٢، ص ١٠٣، ج ٤، ص ٩٤ ... .

(٦٥) وهو أيضًا، على كونه شماساً، امْحَد عَدَّة جوار، فجر على نفسه تائب الجاثليق وملامة أخي زوجته الراهب الطبيب دانيال بن الطيفوري، ابن أبي أصبيعة، ص ٢٤٨ - ٢٤٩. ويدرك أن إحداهن كانت رومية وتدعى قراطيس.

(٦٦) ستصادفه من جديد في خلافة المعتصم.

(٦٧) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٦٨) ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٥٣ - ٤٥٩.

D. SOURDEL, la deuxième partie du livre des Vizirs, p. 286; M. AWWAD, Lost (٦٩)

استناداً إلى كتاب الإرشاد *Fragments of kitab al-Wuzara'*, Beyrouth 1964, p. 51-52.

لياقوت، ج ٥، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٧٠) أنظر قول خالد بن صفوان في كتاب الأحكام لابن القيم، ص ٢١٨ :

فقاتل بسيفك من تعلّى طوره واجعل فتوح سيفك الأقباطا

(٧١) سعيد بن بطريق (المسمى أفيشيوس)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، في

C.S.C.O. تحقيق لويس شيخو، ب. كارادوفو، حبيب الزيارات، ص ٥١, ١٩٠٩

. وهو الذي جدد عمارة قبة كنيسة القيامة بالقدس، المصدر نفسه، ص ٥٥

(٧٢) D. SOURDEL, *la politique religieuse du Calife al-Ma'mun* مع إشارة خاصة إلى وصيته،

الطبرى، ج ٣، ص ١١٣٥ - ١١٣٨ .

LAOUST, *Schismes*, p. 107-109; PUTMAN, p. 143 (٧٣)

(٧٤) أنظر مقالة A.J. WENSINCK في E.I.!, III, p. 549-551

(٧٥) يشير الرهاوى المجهول (ص ٢٠) إلى حدوث اضطرابات لدى موت المؤمن بنواحي دارا

ونصبيين وأمد وماردين ورأس العين. وقد قُتل فيها بعض النصارى كما أن فرقة من الجيش

الذى أرسله الخليفة الجديد قضت على التمردين بدارا.

---

## ٨ - المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ / ٨٣٣ - ٨٤٢)

---

بعد خلافة المأمون الحافلة بالأحداث الفكرية والدينية، سادت خلافة المعتصم<sup>(١)</sup> أجواء مختلفة كلَّ الاختلاف. كان من شأن السلم الذي فاز به الخليفة الجديد بعد انتصاره على العلوية والزطّ، وبعد المدننة التي عقدها مع توفيق ملك الروم أن يسهل استمرار الحركة الفكرية، ولكن ذلك لم يكن يعني الخليفة كثيراً. فمن وجهة النظر الدينية، استمرَّت الخلافة على مذهب الاعتزال، ولكن يبدو أنَّ المحنة قد خفتَ حدتها لأنَّ المعتصم لم يكن يولي المسائل الدينية مثل ما كان يوليها سلفه من الاهتمام، فضلاً عن قلة بضاعته منها.

كانت أعظم إنجازات هذا العهد نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء<sup>(٢)</sup>، وسوف نرى من بعد بم كان ذلك يهم النصارى. من الوجهة السياسية كان هذا التدبير يعني تفضيل العنصر التركي<sup>(٣)</sup> على العنصر العربي وقد عجل هذا، في المدى البعيد، على انحطاط دولة بني العباس.

إسناداً إلى نص من الفهرست،<sup>(٤)</sup> ذهب بعض المؤلفين<sup>(٥)</sup> إلى أنَّ الفضل بن مروان، وزير المعتصم من سنة ٢١٨ / ٨٣٣ إلى سنة ٢٢١ / ٨٣٦، كان نصراً<sup>(٦)</sup>. على أني أقترح أن يقرأ نص النديم مع وضع بعض الفواصل كما يلي: «الفضل، بن مروان، بن ماسرجيس<sup>(٧)</sup> النصراوي»، مع تعليق النعت الأخير باسم الجد. إذا صحَّت فرضيتي فربما كان مروان، والد الوزير هو الذي أسلم، وربما كان الفضل نفسه قد تلقى في صغره تعليقاً نصراً<sup>(٨)</sup>؟ أولياً؟ هذا ولا نعلم شيئاً عن علاقاته بالنصارى من حيث هو وزير.

أما رؤساء الكنيسة، فقد رأينا الشخصيات ذات النفوذ في أواخر العهد السابق: كان ديونيسيوس التلمحري كالمخطوط عليه في نظر الخليفة. في العام ٨٣٤ قصد بغداد يلتمس الدخول على الخليفة الجديد<sup>(٩)</sup> للتسليم عليه، بيد أن المؤرخ الذي يورد الخبر يسكت عن النتيجة السلبية لهذه المحاولة. ولا يعود هذا المؤرخ إلى ذلك إلاً بعد بعض صفحات<sup>(١٠)</sup> حيث يدع البطريرك يمحكي عن «لقائه الأول» بالمعتصم بسامراء سنة ٨٣٦، وينسب إليه قوله: «لقد استقبلني بسلام». عند المشارقة من السريان نجد سبب الشوّع وقد مات في السنة الثانية لخلافة المعتصم، أي سنة ٨٣٥.

VIII كان انتخاب إبراهيم الثاني أسقف حديثة الموصل، خلفاً للجاثليق، تدبيراً ذيّره أعيان العلمانيين. فقد اختاره الطيب الراهب سلمويه بن بنان،<sup>(١١)</sup> تلميذ الكندي،<sup>(١٢)</sup> وأخوه إبراهيم صاحب ختم الخليفة وبيت المال، ومعه أهل الخبرة وكسكر، بينما مال بختشوع الطيب وأهل الأهواز إلى أبي مطران جنديسابور. وقد اختار آباء الكنيسة أبيا. وكان الجاثليق المنتخب في طريقه إلى المدائن للسيامة إذ نبه سلمويه الخليفة قائلاً<sup>(١٣)</sup>: «لم يصونوا شرف وقوفي بحضرتك ولا حرمة خدمتي لك منذ شبابي حتى كبرى».

فكتب المعتصم إلى الطاهري صاحب بغداد يأمره أن يحول دون سيامة أبي فقيئ هذا بالأغلال) وأن يفرض إبراهيم «بأمر الملك»، فتم ما أراد. إنقسمت الرعية مدة سنوات ثم مات أبيا و«ثبتت جثلقة إبراهيم».

«كان إبراهيم طاهراً عفيفاً إلاً أنه كان عاجزاً عن تدبير الكنيسة»،<sup>(١٤)</sup> وخلّ أصحابه وأقاربه ينهبون أموال الرعية<sup>(١٥)</sup>. وقد ظلّ إبراهيم على كرسى مار ماري حوالي ثلاث عشرة سنة، حتى عهد المتوكّل، حيث سُنلقاءه من جديد.

رأينا للتو توسط سلمويه المتطلب لتزكية إبراهيم الجاثليق، ويجب أن يعده سلمويه هذا في عداد الأطباء الذين كان لهم أعظم سلطان على الخلفاء، والذين كانوا في موقع يمكّنهم من إعانة أبناء ملتهم من النصارى. فقد كان الأمير، الذي اختاره منذ ٢١٨/٨٣٣، يسميه «أبي»، وكان يقرّبه إليه أكثر من مسرور الخادم.

وكان الخليفة يعلن على الملأ أن طبيبه كان أهم في نظره من قاضي القضاة، «لأنه يعني بشخصي، وشخصي أكرم عندي من جاهي ومن ملكتي». ولما مات سلمويه بن بنان سنة ٢٢٦/٨٤١، شعر الخليفة الذي فُجع به بالضياع، ولم يطل به الوقت حتى وافته المنية بعد سنة.

لم يظهر النصارى إلا قليلاً في عهد المعتصم، باستثناء سلمويه المتطرف وزملائه يوسف بن صليباً وسليمان بن داود بن بابان ويوسف القصیر البصري ويولس بن حنون الذين ربما اختلعوا إلى مجلس الأمير التركي أبي دلف. وقد صادف المعتصم رهباً وابتاع منهم سنة ٢٢١/٨٣٧ ديراً مع ضياعه في الموقع الذي بني فيه قصره بسامراء. <sup>(١٦)</sup>

في هذه الأثناء هدمت بعض الكنائس (السريانية الغربية في ما يبدو) صباح عيد الفصح من العام ٨٣٥، بحجّة أنها قد أحذثت. ومن سوء التوفيق أن ابن العربي الذي يورد الخبر، <sup>(١٧)</sup> لا يذكر أين كانت هذه الكنائس ولا الظروف المحيطة بالحادث.

وفي العام ٢٢٣/٨٣٨، سعى أحد أبناء المعتصم، المكتنّي بأبي داود والذي يعوده ميخائيل السرياني «عدو النصارى» <sup>(١٨)</sup> باصدار «أمر من أبيه يحظر على النصارى أن يظهروا الصليبان خارج الكنائس، وأن يقرعوا النواقيس، وأن يجهروا بالصوت في الصلاة أو في الجنازير بالسبيل، وأن يظهروا الخمر بأية مدينة أو على الطرق. فصار الناس متذمّرّين طعمة للعجم الذين كانوا يتشدّدون أو يترفقون في تنفيذ هذا الأمر حسبما يشاؤون أو بقدر ما يأخذون».

تعبر هذه الفقرة عن أهمّ أسباب الاحتكاك بين النصارى وال المسلمين وأقدمها: إنّها الأمور التي لا يستطيع أولي الأمر «التسامح فيها» إلا إذا تلقّهم أحد بهدية... وظهور بقية النصّ التالية المعتادة: هجر النصرانية إلى الإسلام، وعند هدوء الحال محاولات الارتداد إلى النصرانية. من ذلك أنّ رجلاً من المسلمين راح يطارد المرتدين عن الإسلام ببلدة سروج، فقبض «على نفر منهم فتحمّلوا التعذيب شجاعنة». <sup>(١٩)</sup> ييد أنّ امرأة من قرية بشمان قاومت وأقنعت (كيف؟) قاضي الرقة

«فطلب هذا الرجل وقبض عليه وضربه وألقاه في السجن... فكان بذلك خلاص»  
النصارى.

يلاحظ ديونيسيوس معزّياً نفسه أنه «بینا كانت الشؤون العامة، أي شؤون الملك على غير ما يرام، فإن كنيستنا كانت (في الداخل) تنعم بالاستقرار، لأن المؤمنين وسائر الناس كانوا مثقلين بهموم الخراج ومكوس العمال، في خضم تحارب الملوك وتصارعهم». ولا تخلو المصيبة من نفع، فعل الأقل «لم تكن ثمة اضطرابات أو خلافات بين رؤساء الكنيسة»، و«كان المؤمنون ينعمون بالاستقرار». وفي السنة ذاتها، لما حاصر الخليفة أقرة وعمورية، اصطحب آيوب بطريرك أنطاكية للملكانية. فدعا آيوب المحاصرين، بيايعاز من الخليفة، إلى التسليم ودفع الجزية لتحققن دماءهم، فاستقبلوه بالشتائم ورشق الحجارة. فأخذت المديتان عنوة وأعمل فيها السيف والنار، وسيق الناجون سبايا. (٢٠)

وفي العام ٨٣٨/٢٢٣ أيضاً، وبينما كان الخليفة بعمورية دير العباس بن المأمون وعُجَيْف بن عنبسة مكيدة لقتل المعتصم غيلة. إلا أن طبيباً من النساطرة، لا نعرف اسمه، أذر الخليفة. (٢١) ولك أن تخذل ما بعد ذلك.

### «معجزة جديدة»

ثم فصل أقل مأساوية، أنه وصول جرحة، ابن ملك النوبة إلى بغداد. ولكن المعتصم لما قيل له إن هذا الشاب الذي لم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين كان دعياً، أزله في بعض قصور الخلافة ببغداد وأنظره من شباط إلى آب سنة ٨٣٦، لكي يتحرّى عن نسبة. فلما ثبتت منه استقبله بما يليق بمثله.

فرح نصارى بغداد بهذه «المعجزة الجديدة» فرحاً عظيماً، ولا سيما العاقبة منهم، أهل ملة الأمير الصيف. والمعجزة أن الأمير كان يظهر كل ما كان النصارى يخفونه عادة: ففي قمة تاجه صليب ذهب وعلى رأس مظلته صليب آخر، كان يمسك صوب لساناً بإحدى يديه ويمسك بالأخرى صليباً. وقد سار عن يمينه وعن يساره فتيان نوبيون يحملون الصليب بأيديهم وتقدمه أسقف يركب فرساً (وهذا ما كان يحظر على النصارى) وفي يده صليب... وكانت هذه الصلبان كلها من ذهب! (٢٢)

والأكثر من ذلك أنه لما عرف الأمير بما طعن به على نسبه أحد رعاياه أمر بالذنب،<sup>(٢٣)</sup> الذي كان أسلم، فقيد من دون أن يعقب ذلك أية ردة فعل. وهذا مما لم يكن لنصراني من بغداد أن يعقله قطّ.

أما ديونيسيوس البطريرك، فقد كان عليه ليلقى الأمير أن يتضرر حتى يفرغ الخليفة من استقباله، وأن ينتقل، بصحبة الأساقفة والأعيان، وفيهم سليمان<sup>(٢٤)</sup> الطبيب، من بغداد إلى سامراء، تلك «المدينة الجديدة المبنية بين نهرين» (كذا). وقد وجد ديونيسيوس الشاب «أرشوذكسيوس مخلصاً» وقدم له القربان بيده. وقد تمت فرحة البطريرك لما تلقى (أخيراً) من الخليفة عهد تنصيبه.

ويظهر أيضاً نصارى آخرون، سنة ٨٣٩/٢٢٤، إبان ثورة المازيار آخر الأمراء الفارين بطبرستان.<sup>(٢٥)</sup> وقد اشتراك علي بن ربيئ<sup>(٢٦)</sup> اليهودي الكاتب وإبراهيم بن مهران<sup>(٢٧)</sup> صاحب الشرطة في المفاوضات مع الخليفة الذي أسلم بين يديه علي بن ربيئ في ظروف نجهاها.<sup>(٢٨)</sup>

ونسبتين أيضاً أحد كتاب المعتصم، إلا وهو يحيى الجرماني، أبي السرياني<sup>(٢٩)</sup> ولكن ليس بوسعنا أن نعرف الدور الذي قام به في علاقات جماعته بالسلطة.

هذه المعلومات المتفrقة كلّها لا تكفي لتكوين فكرة عن حال النصارى (وغيرهم من المواطنين) في عهد المعتصم. إنّ ما نسبه ميخائيل السرياني (نقاً عن ديونيسيوس) إلى المعتصم من أنه «كان يفرض موكساً على كلّ شيء، وحتى على الموت»<sup>(٣٠)</sup> ربما استحق أن يصنف في جملة «الأحكام المتهورة» لو أن الرهاوي المجهول، الذي يتميّز بالحيداد عادة،<sup>(٣١)</sup> لم يكن هو أيضاً يقوس على هذا الخليفة: «كان أشدّ جشعًا من أسلافه... وكان يستعمل على الناس كلّ من زايد على غيره وضمن له شيئاً، وفي خلافته نزل بالناس حيف كثير على أيدي قضاة ظلمة وعمايل جشعين».<sup>(٣٢)</sup>

وقد كانت هذه الحال مناسبة لكي يختتم ديونيسيوس تاريخه بنغمة متشائمة: «لقد تكاثرت المصائب التي جرّها طمع العمال على الناس في هذا العهد، وفاقت كلّ ما عرف منها في ما خلا من عهود ملك العرب: فكلّ واحد من العمال يأخذ

لنفسه ما كان يضيقه إلى المكوس، وكان يضيق ويزيد قدر ما ي يريد. وقد عينوا كتاباً مخصوصين لكل فئة ونصبوا لهم بحيث كانوا يأكلون أموال المساكين ويفترسونهم بكل وجه»<sup>(٣٣)</sup> وهو يضرب على ذلك أمثلة من الرقة ودمشق وقورس. وقد كانت هذه الحالة تكرر كلما كان عامل الناحية بمنأى عن سلطة مركزية على قدر كاف من القوة، ومن سوء التوفيق أن يتزايد تكرار هذه الحالة مع تقلص سلطة الخلافة وتناقضها.

## الحواشي

- (١) الصفدي، ج ٥، ص ١٣٩ - ١٤١، رقم ٢١٥٠.
- (٢) العميد، سامراء، ص ٥١ - ٥٨، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨٨، يشكّك في اختيار الموضع «الذي لم يكن على شيء من النزاهة ولا يمتاز بحسن الموقع ولا فيه من آلاء الله أثر» وهو يرى أن الخليفة «تخيّره من أجل الصيد».
- (٣) AHMAD, the Role of the Turks, cit. الأتراك في المجتمع العباسي حتى نهاية عهد المأمون، ثم (ص ١٢٢ - ١٢٣) المعتصم والترك، (ص ١٣٣ - ١٥٠) الترك في بغداد وسامراء. عن هذه المدينة «التي بنيت للترك»، انظر بخاصة ص ١٣٨ - ١٤٢.
- (٤) ج ١، ص ١٢٧، والحواشي III ٢، ص ٥٤.
- (٥) مثلاً، هدية العارفين، ج ١، ص ٨١٨.
- (٦) يرى سورديل في كتابه Vizirat، ص ٢٤٧، الحاشية رقم ٢، أن الفضل نفسه قد أسلم.
- (٧) أصلح هنا، كما فعل الزركلي أيضاً، ج ٥، ص ٣٥٨، فأجعل النقطة من تحت بدلاً من وضعها من فوق (فتقرأ ما سرحت) كما فعل صاحب الفهرست، ولا نستطيع أن نستنتج شيئاً عن انتهاء الملي من اسم بلدته الأم: سلى (أو: سُلُّى أو سيل) بناحية نهر بوق (وهو قنطرة بجنوب بغداد، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٨). والاسم ماسرجيس مختصر من مار سرجيس.
- (٨) ولد سنة ١٥٧ هـ، أي في نهاية عهد المنصور.
- (٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨٥.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٩٠.
- (١١) ابن أبي أصبيعة، ص ١٧٨، ٢٣٤ - ٢٤٠.
- (١٢) الفهرست، ص ٢٦١.

- (١٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٩٤، الذي يسمى هذا الطبيب سليمان (٩).
- (١٤) ابن العربي، العمود ١٩٠، ماري، ص ٧٧ - ٧٨، صلبيا، ص ٧٠ - ٧١، إيليا التصيبيفي، الحاشية العربية ص ٧٢، ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق ٦ يقول: «نصب بأمر الخليفة».
- (١٥) نشير إلى أن أحد تلاميذه، المسماى خنون، فرّ بصدقه المال واعتنق الإسلام.
- (١٦) وهذا يذكّرنا بالتصور عندما ابتدأ مدينة السلام. المسعدي، مروج، الفقرة ٢٨٠٤، النتبية، ص ٣٥٧، الطبرى، ج ٣، ص ١١٧٩، العميد، ص ٣٢، ٢٦، ٢٩، ٣٣، ٣٣٧. يذكر ابن أبي أصيبيعة دير بن الصقر الذي صار حى إيتاخ (الإيتاخية) في خلافة المعتصم والواشق، ثم عرف بالمحمدية في خلافة المتوكل. ونجد لديه أيضًا إشارة إلى كنيسة بالقادسية، أي بالقسم الجنوبي من سامراء، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.
- (١٧) تاريخ الزمان، ص ٢٩. الكنائس مار أحودمه ومار جرجس.
- (١٨) ج ٣، ص ٩٦ - ٩٧، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٨٤.
- (١٩) ربما كانت هذه هي المناسبة التي أحرق فيها غنائم المرتنة (المذكور في الطبرى، ج ٣، ص ٣٠٢) في العام ٢٢٥ / ٢٣٩ - ٨٤٠. وفي رسالة موجهة إلى الجاحظ كتب الفتح بن خاقان: «وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنائم ولو لا أي أزيد في خيالتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها»، ياقوت، إرشاد، ج ٦، ص ٧٢. ويلخص الجاحظ هذه الرسالة في كتاب الحيوان (٩/١). أما نصّها فتجده في مختارات من رسائل الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ومنها نسخة في الخزانة التيمورية، على ما ذكر طه الحاجري في كتابه الجاحظ حياته وآثاره، ص ٣٦٢، الحاشية ٢.
- (٢٠) سعيد ابن بطريق، ص ٢٠، في C.S.C.O., ٥١.
- (٢١) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٤٠١، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٣٣، الطبرى، ج ٣، ص ١٢٥٦ وما يليها.
- (٢٢) ميخائيل السرياني، نقلًا عن دينيسيوس، ج ٣، ص ٩٠، ٩٤، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٧٤. يلمح ابن أبي أصيبيعة إلى ذلك، ص ٢٥٠.
- (٢٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٩٣، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٨٤.
- (٢٤) ابن بابان أو ابن بانان؟
- (٢٥) أنظر مقالة ف. مينورسكي عن المازيار في ٤٩٨ - ٤٩٩ p.498 E.I.², III. عن النواحي الكلامية أنظر ٩٧-٩٨ LAOUST, Schismes, p.96-97.
- (٢٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٩٣، ١٢٩٣.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٧٦، ١٢٨٨ - ١٢٨٩، ١٢٩٣. في العام ٨٦٥ / ٢٥١ استقرَّ بغداد حيث لم ينبع الترك منزله، المصدر نفسه، ص ١٥٤٠.

(٢٨) يذكر الفهرست، ص ٣١٦، كتابه «في الأداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب». أنظر أيضًا ابن أبي أصياغة، ص ٤١٤. وينذكره أيضًا ابن عبد ربّه في العقد الفريد (طبعة القاهرة، ١٩٥٢) ج ٤، ص ١٧٢ - ١٧٣. ويسميه هذان المؤلفان الآخرين «الكتاب الصرافي».

(٢٩) الطبرى، ج ٣، ص ١١٨٢.

(٣٠) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٠٤.

(٣١) ص ٢٥، وفي الصفحتين ٢٦ - ٢٧ أمثلة على تصريحات العمال. ربما كان الخليفة نفسه لا يقرُّ هذه الأساليب، إذ يخبرنا عنه ابن الأزرق (ص ٤٥٠) خبرًا يدلُّ على رأفته: ففي بعض الأيام الماطرة أخرج من الطين، بالقرب من سامراء، حماراً لرجل مسكون وأعاد الحمل الذي كان على ظهر الدابة غير مبال بتوسيع ملابسه. وقد شكر الرجل (الذي نال مع ذلك ٤٠٠٠ درهم) باللسان «النبيطى» الشاب الطيب الذي لم يفصح عن نفسه. (تصحيح الطبعة التونسية التي تحمل «قبطى» في موضع نبطى). فالعجز المسكين، وهو نصرانى في أغلب الظن، كان يتكلَّم السريانية لا القبطية.

(٣٢) ج ٢، ص ٢٥.

(٣٣) سنة ٨٤٣، مذكور في ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٠٤، وأيضًا ص ١١٠: «الفظائع والويلات النازلة بأبناء الكنيسة... ولم تزل الشرور تتکاثر علينا!». مات ديونيسيوس في آب سنة ٨٤٥.

---

## ٩ - الواثق (٢٢٧ - ٨٤٢ / ٢٣٢ - ٨٤٧)

---

كان ارتقاء أبي جعفر هارون الواثق بالله سلطة الخلافة مبعث آمال لدى رعيته من مسلمين ونصارى: «لَا خَلْفَ أَبَاهُ فَرَحَ النَّاسُ وَابْتَشِرُوا بِأَنَّهُ رَبِّا خَفَّ عنْهُمْ أَبْعَادَ الْمَكْوُسِ الْمَرْهَقَةِ الَّتِي رَتَّبَا أَبُوهُ عَلَيْهِمْ». إِلَّا أَنَّهُ تَهَالَّكَ عَلَى الشَّرْبِ وَالْغَنَاءِ وَالْمَلَازِ وَالْمَجْوَنِ وَتَرَكَ الْخِلَافَةَ بَيْنَ أَيْدِيِّ رِجَالٍ ثَلَاثَةً.<sup>(١)</sup> لِذَلِكَ لَمْ يَرَ النَّاسُ الْفَرْجَ نَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ شَدَائِدَ أَثْقَلَتْ كَوَاهِلَهُمْ، بَلْ أَلْقَى عَلَى أَعْنَاقِ النَّاسِ عَبَءَ نَيْرٍ لَا يُطَاقُ مِنَ الْضَّرَائِبِ الْبَاهِظَةِ، تَجْبِي مِنْهُمْ بِلَا حَلْمٍ وَلَا رَأْفَةً. وَقَدْ رَاحَ الْعَمَالُ الَّذِينَ أَقَامُوهُمْ هَارُونَ هَذَا، الْمَلْقُوبُ بِالْوَاثِقِ، عَلَى تَدْبِيرِ شَوَّؤُنَ الْمُكْلَكَةِ يَعْتَسِفُونَ بِالشَّعُوبِ الْخَاضِعَةِ لِحُكْمِهِ أَيْمَانًا عَسْفًا، مَدَّةَ عَهْدِهِ. أَمَّا هُوَ فَلَمْ يَكُنْ يَبْلِي قَطُّ بِمَا يَجْرِي، إِذَا كَانَ مُشْتَغِلًا عَنْ ذَلِكَ بِالْشَّرْبِ وَالْلَّهُوِّ وَالْمَجْوَنِ لِيَلِهِ وَنَهَارِهِ.<sup>(٢)</sup>

بَيْنَمَا كَانَ الْكِتَابُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى يُجْبِسُونَ وَتَصَادِرُ أَمْوَالُهُمْ لِتَغْذِيَةِ الْخَزِينَةِ،<sup>(٣)</sup> كَانَتْ تَعْقِدُ فِي الْقَصْرِ مَنَاظِرَاتٍ فِي عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَمَا وَرَاءِ الطَّبِيعَةِ يُشَارِكُ فِيهَا ابْنُ بَخْتِيشَوْعَ، يُوحَّنَا بْنُ مَاسُوِّيَّهِ<sup>(٤)</sup> وَمِيخَائِيلُ ابْنِهِ،<sup>(٥)</sup> حِنْينُ بْنُ إِسْحَاقِ وَسَلْمَوِيَّهِ.<sup>(٦)</sup> وَفِي بَابِ الْعِقِيدَةِ اسْتَؤْنَفَتْ الْمَحْنَةُ ضَدَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ لَمْ يَقْبِلُوا الْاعْتَزَالَ.<sup>(٧)</sup> فَقَدْ كَانَ الْخَلِيفَةُ «يَذْهَبُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَارِهِ مَذَاهِبُ الْمَأْمُونِ»، شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَحْنَةِ النَّاسِ فِي الدِّينِ فَأَفْسَدَ قُلُوبَهُمْ وَأَوْجَدَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّعْنِ عَلَيْهِ.<sup>(٨)</sup>

حَتَّىٰ عِنْدَمَا كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِافتِنَاءِ الْأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبِيزَنْطَيْنِ، كَانُوا يَسْأَلُونَ: «كَلَامُ اللَّهِ مَخْلوقٌ أَمْ لَا؟» فَإِنْ قَالُوا: «مَخْلوقٌ» افْتَدُوا وَإِنْ قَالُوا: «غَيْرُ مَخْلوقٌ» تَرَكُوا بَيْنَ أَيْدِيِّ الْبِيزَنْطَيْنِ.<sup>(٩)</sup>

أدت هذه السياسة إلى ثورات شعبية<sup>(١٠)</sup> محلية قام بها المسلمين، ولا سيما انتفاضة أحمد بن نصر الخزاعي، الذي قبض عليه وعذب.<sup>(١١)</sup> وكان ذلك سنة ٨٤٦ - ٢٣١.

وفي السنة نفسها، أي في ٦ آذار سنة ٨٤٥، يذكر أنَّ اثنين وأربعين «شهيداً» من بين الثلاثين ألف أسير الذين أخذوا من عمورية في العام ٨٣٨، قتلوا بسامراء «على الفرات» (كذا).<sup>(١٢)</sup>

أُفصي بخيانة المتطرف إلى جنديسابور بعدما سخط عليه الخليفة، ثم استدعي في مرض موت الآخرين، إلا أنه وصل بعد فوات الأوان.

وقد قُبض على بعض النصارى وبخاصة الكتاب الذين كان الوزير بن الزيات يلاحقهم بدعاته، فالتحق النصارى والمسلمون معاً في الحبس وفيهم سليمان بن وهب وأحمد المدب وأحمد بن إسرائيل. وكان النصارى أول من سمع في النام صوتاً ينبيء بموت الخليفة. وقد تحقق النبوة، وأطلق الكتاب،<sup>(١٣)</sup> ثم أسلم سليمان بن وهب بعد مدة.<sup>(١٤)</sup>

مات الواثق سنة ٢٣٢ / ٨٤٧، عن عمر يناهز الثلاثين عاماً.<sup>(١٥)</sup> وقد خصبه ابن العربي بترجمة ختامية لا أثر فيها للمدح<sup>(١٦)</sup> قال: «كان خلفاء العرب إلى هذا الحين لا يهتمُّهم إلا إحراز النصر والظفر لكتبهم بعد ذلك استسلموا للخلافة وانهملوكوا في السكر».<sup>(١٧)</sup>

وقد أثرت عن الواثق قصيدة ألمته إياها تصاوير قصر المختار بسامراء، وهي تصاوير تمثل «بيعة فيها الرهبان، وأحسنها صورة شهار البيعة»<sup>(١٨)</sup> ونرى هنا أنَّ الموضوعات النصرانية لم ترِّي حباب الخمر فحسب.

## الحواشي

(١) الاثنين الأولان هما، من غير شك، ابن الزيات الوزير، وقاضي القضاة ابن أبي دؤاد، الصفدي، ج ٧، ص ٢٨١ - ٢٨٥، رقم ٣٢٦٤. ربما كان الثالث إسحق بن إبراهيم، صاحب شرطة بغداد؟ p.254-268.

- (٢) خائيل السرياني، ج ٣، ص ١١٣، الراوي المجهول، ج ٢، ص ٢٥ - ٢٨.
- (٣) أنظر تحت السنة ٢٢٩/٨٤٣ - ٨٤٤، الطبرى، ج ٣، ص ١٣٣١، الكامل، ج ٧، ص ١٠ وما بعد.
- (٤) ابن أبي أصيوعة، ص ٢٤٦ - ٢٥٥.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٨٣ - ١٨٤.
- (٦) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٥٧. الصفدي، ج ١٥، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، رقم ٤٣١، ابن أبي أصيوعة، ص ٢٣٤ - ٢٤٠.
- (٧) LAOUST, *Schismes*, p. 110-111.

(٨) المسعودي، التبيه، ص ٣٦١. نحو هذا التاريخ (سنة ٢٣١/٨٤٥؟) مات واحد من كبار فقهاء العزلة هو إبراهيم بن سيار النظام (الصفدي)، ج ٦، ص ١٤ - ١٩ (رقم ٢٤٤٤) على أهل السنة والجماعة، وأحد التوابع الذين لا يولد مثلهم إلا في الألف سنة كما قال عنه الجاحظ (مذكور في الزوكلى)، ج ١، ص ٣٦. أما ابن قتيبة (كتاب التأويل، ص ١٥) فيعده على العكس من ذلك «شاطرًا من الشطار يغدو على سكر ويروح على سكر ويبيت على جرائرها ويدخل في الأدنس ويرتكب الفواحش والشائنات». الرجل يهمنا هنا لأنه لم يتردد في وضع كتاب في «فضيل الشيش على التوحيد».<sup>1</sup> BROCKELMANN, GAL, S1, p 339 هذه الحالة، على تطمينها لذات دلالة على ذلك العصر. أنظر أيضًا القصيدة المحسنة بالكلمات «النصرانية» وأسماء القديسين التي ألهما حب مدرك بن محمد (أو بن علي) الشيباني (النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد) لعمرو بن يوحنا أحد نزلاء دار الروم، التونخى، نشوار المحاضرة، ج ٤، ص ٢٦٥ - ٢٧٥، مع بعض المراجع. ثمة مراجع أخرى في كتاب كوركيس عواد: كتاب الديارات للشافعى، الطبعة الثانية، ص ٢٠٤ الحاشية ١ و ٣. وقد كاد أبو نواس يصرخ بالارتداد إلى النصرانية ليستهوي غلامًا نصريًا. BEN-CHEICH, dans BEO, XVIII (1963-64), p.72.

(٩) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٣٦ - ٣٧ يعرض هذه الأمور معكوسة. ثمة عرض صحيح لها في 111 LAOUST, *Schismes* p. ٣٠٣ مع إحالة إلى ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣٠٧.

(١٠) يرى كلود كاهن أنه «في الأمسكار الكبرى، حيث كان الحكم العباسي والتسيّع الاستقراطي المعتدل يبدوان وكأنهما مرتبطان، انتظمت صفوف المعارضة الشعبية تدريجياً في صورة المذهب الخنبلي، أي التمسك بظاهر السمع في وجه الحالات العقائدية- La changeante portée sociale, p21

(١١) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٠، يصفه «شهيد السنة». ابن كثير، البداية، ج ١، ص ٣٠٣ - ٣٠٨.

- (١٢) الترجمة الفرنسية لخبر ADEL-THEODORE KHOURY, *Les EVODIOS théologiens Byzantins et l'Islam*, (Louvain- Paris 1969), p.163-179.
- (١٣) D. SOURDEL, *La deuxième partie du livre des vizirs*, p. 294-295; *Vizirat* p.262-268.
- (١٤) أنظر الشابنجي، الخاشية رقم ٢ ص ٦٥ ، نشوار المعاشرة، ج ٨ . وكان سليمان يعرف اللسان «النبيطي» ص ٦٦ .
- (١٥) من بين الشعراء الذين مذكورون في كتاب أبي تمام، المتوفى بالموصل سنة ٢٢٨/٨٤٢ - ٨٤٣ والذى يصنفه لويس شيبخو في عداد «شعراء النصرانية بعد الإسلام»، ص ٢٥٦ - ٢٦٠ .  
والصحيح أنه ولد نصرانياً، وكان أبوه تداوس خارجاً بدمشق. ولما أسلم أبو تمام سمى أبيه أوساً ولفق نسباً يرتفع إلىبني طيء، انظر ABDUL HAQ, Abu Tammam, his Life and Poetry, in *Islamic Culture*, XXVI, II (April 1952), p. 16.
- Historical Poems in the Diwan of Abu Tammam, Ibid, XIV (1940), p.17-29.
- (١٦) تاريخ الزمان، ص ٣٦ - ٣٧ . ونمة نص مماثل عن المقذر، المصدر نفسه ص ٥٥ .
- (١٧) يروي ابن العربي عن الواقع أنه كان يتباهي شراء مغنية بعنة ألف دينار وتقليل مالكها ولاد مصر، فضلاً عن المال. وقد منعه أصحاب خزانته لما لم يجدوا المال الكافي. ثم آل الأمر إلى شراء الجارية بعشرة آلاف دينار.
- (١٨) أبو الفرج الأصفهاني، أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٧٢ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

---

## ١٠ - المَتَوَكِّلُ (٢٣٢ - ٨٤٧ / ٢٤٧ - ٨٦١)

---

قلب أبو الفضل جعفر المَتَوَكِّل على الله سياسة أسلافه الدينية رأساً على عقب، فهجر الاعتزال ورفع المحنة.

إنَّ ما سُمِّيَ بِرَدَّ أَهْلِ السَّنَةِ قد حصل على مراحل: في العام ٨٤٨، وضفت الخطوط العريضة لسياسة تعليمية مناهضة للبدع: <sup>(١)</sup> في العام ٨٥٠، أمر بتهذيم مشهد الحسين بكربلاء، <sup>(٢)</sup> في العام ٨٥٢ عين قاضي قضاة من أهل السنة والجماعة وفي العام نفسه أعيد جسد أحمد بن نصر الخزاعي المشوه إلى أقاربه، أخيراً كتب إلى عمَّال النواحي باتباع القرآن والسنة فحسب <sup>(٣)</sup> ويحبس كلَّ من جلس لدرس الكلام أو تدريسه. ويذهب المَسْعُودِيُّ الذي رأَهُ أَنَّ المَتَوَكِّلَ «أمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث» إلى حد اعتبار خلافته «أحسن أيام وأنصরها، من استقامة الملك وشمل الناس بالأمن والعدل». <sup>(٤)</sup> ولكنَّ هذا الوصف لا يخلو من مسحة خيالية، فالمسعودي يجد نفسه مضطراً إلى تقييد حاسته إذ يكتب: «وضفت له الدنيا فنان منها أعظم الحظ على إثارة المُرْزَل والمُضاحك والأمور التي تشين الملوك» ولشن تساهل المؤرخون المحدثون وقالوا «حياته الخاصة لا تعنينا» فليس بوعهم إلَّا أن يلاحظوا أنه كان «فُطُّا مسْرُفاً متقلب المزاج». <sup>(٥)</sup> ومن أكثر ما يلفت انتباها لدى قراءة الطبرى قوله تكراراً: «وغضب على... وغضب على...». <sup>(٦)</sup>

غالباً ما كان ندماً وحاشيته ضحايا نزواته. وإنَّ هذه السمة من سمات طبعه لتفسر، فضلاً عن تسنته الصارم (مبديئاً)، موقفه من النصارى. فموقفه هذا لا يصدر عن سياسة مدروسة وثابتة بقدر ما يصدر عن قرارات ودوادة أو لدوادة حسب

مزاج اللحظة الحاضرة أو تأثره بفلان أو فلان. من ذلك أن تقلباته في شأن ولاية عهده، وفضيله أحد أبنائه تارة وفضيله غيره تارة أخرى،<sup>(٧)</sup> جرّت العدواة في ما بينهم وأدت في النهاية إلى قتله.

من المحال أن يجد المرء حبكة متواصلة الخيوط في خضم الأحداث التي عرفها عهد دام أكثر من خمس عشرة سنة كانت الاعتقالات والمصادرات من أهم معالمها. فقد «أهلk العلماء والكتاب في زمانه، على قول صليبا،<sup>(٨)</sup> وحطّ مراتبهم وعادى العلم وأهله فاتّضعت العلوم في أيامه، وقتل كثيراً من الكتاب واستصفى أمواههم وهدم منازلهم»، حتى صارت المصادر في هذا العهد سبيلاً مألفاً للحصول على المال كلما اشتكي بيت المال من القلة.<sup>(٩)</sup>

ومن النصارى الذين ابتلوا بالمصادرة (وقد كان رهط من المسلمين عرضة لها أيضاً) نجد سليمان بن إبراهيم الجنيد<sup>(١٠)</sup> الكاتب، أخي أيوب كاتب مسحور الخادم. فقد قبض على سليمان سنة ٢٣٣ / ٨٤٧، وضرب حتى أقرّ بسبعين ألف دينار، فسيق إلى بغداد ليخرج المبلغ من داره ثم أعيد إلى سامراء وحبس. في السنة عينها، غصب الخليفة على نفر من موالي والد الوزير، وفيهم الهيثم بن خالد.<sup>(١١)</sup> وفي العام ٢٣٥ / ٨٤٩، جاء دور أصحاب إيتاخ القائد التركي<sup>(١٢)</sup> في الحبس، وذلك من بعدما أُعدم سيدهم، ومن بينهم قدامة بن زيد «النصراني البغدادي» كاتب ضياعه.<sup>(١٣)</sup> ويجب أن نتبّه هنا، مرّة أخرى، إلى أنّ نصارى ذلك الزمان لم يعلّوا قدامة هذا شهيداً. ففي العام ٨٥٠ كتب المفسّر إشوع داد المروزي، أسقف الحديثة، تفسيره لآية من الإنجيل تتّبّع بالاضطهادات، فلم يجد حتى أيامه أنّ النبوة قد صحت إلّا في اضطهاد قديم اجتبلته على النصارى فعال بدعة متطرفة.<sup>(١٤)</sup>

### إجراءات تمييزية

ومع ذلك فقد أمر المفوّل بتنفيذ إجراءات تمييزية تستهدف الذميين بالذات من بين اليهود ونصارى، وذلك في شوال ٢٣٥ / ١٨ نيسان - ٦ آيار ٨٥٠. إلّا أنّ المؤرّخين الذين يصفون هذه الإجراءات بإسهاب أو بإيجاز،<sup>(١٥)</sup> لا يوضّحون

الظروف التي دعت الخليفة إلى هذا الأمر. النص نفسه لا يرشدنا إلى شيء، ولذلك نجدنا مضطرين إلى الاستعانة بابن القيم، الذي يعد متأخراً والذى ليس لديه إلا تفسير دائم واحد: لقد تكاثر الذميون في الدواوين وزادوا على الحد، حتى أزاحوا المسلمين وحلوا محلهم في خدمة شجاع، والدة الخليفة، وفي بطانة أهله وأقاربه. ويسمى ابن القيم منهم سلمة<sup>(١٦)</sup> بن سعيد الذي كان «المتوكل» يائس به ويخاضره<sup>(١٧)</sup> والذي افترى على قوم من المسلمين، فيما قيل ليهلكهم.

أما ما احتاج به بين يدي الخليفة، على قول ابن القييم، فهو أنه يجب على المسلمين ألا يتخدوا من المشركين أولياء لهم، بل يجب عليهم، على الصدر من ذلك، أن يعاملوهم معاملة الأعداء وألا يستعينوا بهم في تدبير أمورهم لأن «الله جعل في المؤمنين... ما أغني عن الاستعانة بالشركين».

كان تكبير الكتاب النصاري، في ما يبدو، هو الذي دفع المسلمين مرة أخرى إلى الثورة عليهم. أما الذين كانوا يشتكون فهم كتاب آخر من المسلمين كانوا يشعرون أن النصارى يطمعون في إياحتهم من أملاكهم، وهم أيضاً ناس من الشعب مظلومون كذلك الرجل الذي كان يلعن الخليفة في الطواف بالکعبة، والذي تجرأ على أن يقول له عن الكتاب النصاري: «خفتهم ولم تحف الله»، و«كان الموكّل قد جعل في موكيه من يأخذ المظلومين ويحضرهم بين يديه على خلوة».

ولئن لم تكن الدواوين قادرة آنذاك على الاستغناء عن خدمات النصارى جمِيعهم، في مستقبل قريب، فقد كان المسلمون يحملون بذلك منذ ما قبل ذلك بكثير، وقد كان من شأن إباء أهل السنة والجماعة الذي استجاشته مناورة الخليفة لأهل الكلام، أن يعزّز الحرصن على إدارة المسلمين أمورهم بأنفسهم والتخلص من الظلمة المكر و herein.

يرى كاتب معاصر<sup>(١٨)</sup> في انصياع الخليفة لضغط المسلمين والتخاذله هذه الإجراءات التمييزية ضد النصارى «نتيجة [سياسة] التخلص السياسي». فهو يكتب (ما ترجمته): «كان [العباسيون] مستعدّين لأن يستعينوا بأية جهة ليزيدوا شعبيّتهم. كان المُتوكّل يحتاج إلى مساندة الشعب وعلماء أهلاً السنة. ولذلك كان

عليه أن يبعد الاعتبار إلى بعض التدابير التمييزية ضد الذميين مما عفا عليه الزمن، وهي تدابير سنتها أسلافه من الخلفاء حسبما كان يملئه نوع من الانتهازية لا أصل له في القرآن الكريم ولا في مبادئ الإسلام الأخلاقية».

أيًّا كان نصيب أواخر هذه الجملة من الصحة، هل يصح القول إنَّ المتوكل لم يكن يفعل سوى نبش بعض التنظيمات السابقة التي طواها النسيان؟

### «الشروط العمرية»

هنا يجب أن يعاد طرح مسألة ما سمي «بالشروط العمرية» ودرسها ثانية. نحن نعلم أنَّ النقد التاريخي الذي أبطل نسبة القيود المفروضة على النصارى إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب<sup>(١٩)</sup> ليس بها إلى عمر بن عبد العزيز، قد خطأ الأن خطوة ثانية وصار يُعد «الشروط» وثيقة مزيفة ترقى إلى القرن الرابع للهجرة. وقد لا نجد لها للمرة الأولى، وفي صيغة أقلَّ تفصيلاً، إلاً لدى ابن حزم الأندلسي<sup>(٢٠)</sup>. أليس من الممكن أن يكون النص قد خرج من بعض أروقة عصر المتوكل، إن لم نقل بإيعازٍ منه؟ سترى عن قليل كيف اهتمَ الخليفة (نفسه أو الفتح بن خاقان؟) بكتاب الجاحظ على النصارى... .

لما كانت هذه «الشروط العمرية» مهمة، ولم تصر إصالتها موضع شك إلاً حديثاً (وكذلك، وبطريقة معكوسة، إصالحة العهود التي من بها الخلفاء الراشدون، أو حتى النبي نفسه، على النصارى)، ولما كان هذا النص أصلاً لكلَّ الإجراءات اللاحقة ضد النصارى فلتتحققه عن كثب.

صنفت<sup>(٢١)</sup> الشروط<sup>(٢٢)</sup> على اختلاف الروايات، فتثنين، في كلٍّ فئة ستة شروط. الستة الأولى تعدُّ مستحقة لموافقتها روح الشريعة الإسلامية، وتهدف إلى حماية الإسلام ويؤدي انتهاكمها إلى نقض عهد الحمامة المعقود للنصارى. (٢٣) هذه الشروط «المعطلة» هي: الطعن على القرآن أو النبي، فتنية المسلم عن دينه أو التعرُّض له في شخصه أو في ماله، إصابة امرأة مسلمة على سبيل النكاح أو الزنى، (٢٤) معاونة أعداء الإسلام.

الشروط الستة الأخرى «مستحبة» ولئن لم تنسب إلى عمر بن الخطاب فلأنها معترف بها وبصدورها عن الفقهاء، كما أن خرقها لا يبطل العهد.

وهي (٢٥) مع بعض الفروق في التفاصيل:

- الشروط المتعلقة بتغيير أزيائهم بلبس الغيار وشد الزنار. (٢٦)
- حظر دق النواقس (٢٧) أو الجهر بالترانيل.
- عدم تجاوز مباني المسلمين في العلو. (٢٨)
- إخفاء الخمر والخنزير و... الصليبان عن الأنظار.
- التستر في الجنائز وعدم الجهر بالندب والنياحة.
- حظر ركوب الخيل، وبياح لهم ركوب الحمير والبغال فحسب (٢٩) ويجب أن تكون الركاب من خشب وأن تُتَّخذ البرادع بدلاً من السروج.

وفي وسعنا أن نضيف إلى الشروط المتعلقة بالعلامات المميزة عن المسلمين، حظر التسمي بأسماء المسلمين أو التكفي بكتابهم أو التلقيب بألقابهم (٣٠).

ولكن أياً يكن الأمر بالنسبة إلى أصل «الشروط العمرية»، فلا شك في أنها كانت شديدة الوطأة على النصارى، ودفعت بالعديد منهم إلى اعتناق الإسلام. ربما كان علينا، من وجهة نظر المؤرخ الحديث، أن نسبها إلى نفسية ذلك العصر، وأن نقارنها مثلاً بالقيود التي فرضها أمراء أوروبا النصرانية على اليهود في القرون الوسطى، بما فيها قيود الباباوات عليهم في «الغيتو» بروما، قبل أن نقدم على إدانتها.

## IX الجاثليق تاذاسيس (٨٥٣ - ٨٥٨)

ولكن، لنعد إلى حبكة التاريخ. في التاسع من تشرين الثاني سنة ٨٥٠ مات الجاثليق إبراهيم الثاني عن جثلقة دامت ثلاثة عشر عاماً، أثر عنه فيها أنه كان «عاقلاً قليل العلم متواضعاً»، وكان مع ذلك «كثير الرحمة» للمستضعفين. وفي أيامه عانى النصارى شدائداً عظيمة، على قول ابن العربي، فقد أدت إجراءات

المتوكل إلى تهديم خمس كنائس بالبصرة أيضاً. كما أنَّ بعض المقابر قد «سوَّت بالأرض لكي لا تعلو قبور النصارى على قبور المسلمين».

لم يكن انتخاب خلف لإبراهيم أمراً يسيراً. فهذه المرة أيضاً، قام العلمانيون النصارى بدور حاسم. أُجريت دورتان أوليتان بتدبير من أطباء الخليفة: بختيشوع صاحب الحظرة الكبرى، يوحنا بن ماسويه، الذي صادفناه من قبل، وطبيب ثالث هو ابن الطيفوري. كان هذا الثالث، واسمه إسرائيل بن ذكريَا، طبيب الفتح بن خاقان.<sup>(٣١)</sup> وكان سليل أطباء من كسرى،<sup>(٣٢)</sup> صادفنا منهم رئيسهم عبد الله بن الطيفوري<sup>(٣٣)</sup> أيام الهادي.

ولكن لما مات الاثنان اللذان زكاهما الأطباء، الواحد تلو الآخر قبل السيامة، قدم الكتاب مرشحهم في الدورة الثالثة. هنا تدخل إبراهيم بن نوح الأنباري وعثمان بن سعيد. لا نعرف عن عثمان هذا إلا أنه كان صاحب بيت المال<sup>(٣٤)</sup> على ما يقوله عنه ماري. أما إبراهيم حفيد أبي نوح رفيق طهياثاوس وصديقه، فالمعروف أنه كان كاتب إبراهيم بن المهدى.<sup>(٣٥)</sup> وقد مات مرشحهما أيضاً.

في الدورة الرابعة توافق الأعيان على القبول بما يراه إبراهيم بن نوح. إلا أنَّ رأيه لم يعجب بختيشوع الذي كان له مرشح آخر. فتنافس الكاتب والطبيب في السعي لدى الخليفة ليرجح كلٌ منها كفة صاحبه: فغلب بختيشوع وانتخب صاحبه تاذسيس،<sup>(٣٦)</sup> مطران جندىسابور، مدينة آل بختيشوع. وقد وافق الخليفة على انتخابه «وسِرَ النصارى بانعطاف المُتوَكِّل» (كذا!).

ما كاد تاذسيس يسام جاثليقاً في السنة الخامسة لخلافة المُتوَكِّل حتى انبرى معارضوه، إبراهيم بن نوح وأصحابه، يشهرون به لدى الخليفة ويتهمنون بختيشوع بالغش في صفتة. ولم يزل المفترون يفتون في الكيد حتى توصلوا إلى حبس الجاثليق بعد شهر من سيامته (سنة ٨٥٣) ولم يكتفوا بذلك حتى جروا سخط الخليفة على بختيشوع.

## وداعاً يا بختيشوع

قبل أن نشهد أفال نجم من أكابر النصارى الذين نعموا بحظوظ الخلفاء،

لائق نظرة أخيرة على سليل هذه الأسرة الشهيرة، على بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس بن بختيشوع العيلامي، الذي تذكّرنا أسماء آبائه بعهود الأئمّة الباذحة. وقد غُمر بختيشوع نفسه، منذ عودته إلى خدمة المُتوَكّل، بالخلع التي خلّ بها عليه الخليفة، وبالجاه وكثرة الأموال والضياع والعيوب والإماء حتى صار «يعادله».<sup>(٣٧)</sup> كان يجالس الخليفة على سدّة الملك. وقد كان قريباً منه في بعض الأيام «وكان عليه دراعة دياج رومي وقد انفق ذيلها قليلاً فجعل المُتوَكّل يجادل بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ إلى حدّ النفاق. ودار بينهما كلام اقتضى أن سأّل المُتوَكّل بختيشوع: «ما إذا تعلم أنّ المشوش يحتاج إلى الشدّ والقيادة؟» لم يتردد بختيشوع في الجواب: «إذا بلغ فتق دراعة طبيبه إلى حدّ النفاق شدّدناه». فضحك المُتوَكّل لما في رد طبيبه من سرعة البدية، وأمر بأن يحمل إليه ثوب أجل قدراً».<sup>(٣٨)</sup>

ولما كان بختيشوع في ذروة الجاه كان يتقلّل من داره إلى قصر الخلافة بعرية من خشب الأبنوس وكان في خدمته ما يقارب الألف شخص.

كان ينغمّس في المجون من مغرب الشمس حتّى منتصف الليل، على زعم ابن العربي، الذي يقسّو على النساطرة عادة لكونه من اليعاقبة. وكان، في ما قيل، يعُدّ نفسه فرق قوانين الكنيسة، واتّخذ لنفسه امرأتين ولدت له إحداهما جبرائيل والأخرى يوحنا الذي صار مطران الموصل في ما بعد.

ولكن طيبينا كان ينهض عند منتصف الليل فيصلي ومن حوله الخصيان السود. وبعد الصلاة كان يجلس على سريره ويقرأ الإنجيل حتّى الفجر. وكان ينفق كلّ ليلة خمس مئة دينار، في ما روي، ثمن شموع وزيت وطيب. وفي الصباح كان يركب دابّته أو يرتقي عربته ويدّهب إلى خدمة المُتوَكّل.

هل كانت نكبته عقوبة من الله على سوء مسلكه، كما يظنّ ابن العربي؟ أم على مكره في قضيّة اختيار الجاثليق كما يرى ماري؟ أم أنه لم يقتصر على الكيد للموالي و«الأحرار» بل تعدّى ذلك إلى المؤامرة على الأمراء و«السادة الأقمار» كما جاء في رجز لأعرابي يذكره الطبرى؟ على أيّة حال «غضب» الخليفة مرّة أخرى، وعلى بختيشوع هذه المرة. ربّما كانت المناسبة وليمة أولها الطبيب لل الخليفة وأشارت غيرته

الجلالتها؟ فقد كان يختيشوع «أمر طبّاخيه بأن يعملا خسنة آلاف جونة، في كل جونة باب خبز سميد، دست رفاق وزن الجميع عشرون رطلاً، وحمل مشوى وجدي بارد، وفائقة وججاجتان مصدرتان، وفرخان ومصوّصان، وثلاثة ألوان، وجام حلواء». <sup>(٣٩)</sup> هذا عدا عن العطور والرياحين وشيء كثير من الثلوج المجلوب لتبريد المشروبات، لأنّ الوقت كان صائفاً.

أخذ منه كلّ شيء بجريرة سخط الخليفة. <sup>(٤٠)</sup> حتى الخشب والفحם والخمر التي كانت بداره اشتراها رجل من الأعيان اسمه حسين بن مقلد بستة آلاف دينار، ثمّ باعها باثني عشر ألفاً، كما عاد بيع ضياعه التي صودرت بعشرة ملايين درهم <sup>(٤١)</sup> على بيت المال.

ولما افتقر بختيشوع هام على وجهه بالبلاد، حتى مات سنة ٢٥٦ / ٨٧٠ <sup>(٤٢)</sup> منفيًا بالبحرين، وخلف ولدين وثلاث بنات.

### إضطهاد جديد (٢٣٩ / ٨٥٣)

وقد أمر المتوكل، في فورة غضبه على طبيبه، بحبس تاذاسيين الجاثليق، وإياعادة تطبيق أحكام العام ٢٣٥ / ٨٥٠ <sup>(٤٣)</sup> كما أمر بتهديم دير يزدفنه بسامراء <sup>(٤٤)</sup> وأقطعه محمداً بن جميل صاحب الشرطة لبني به دوراً للسكن. ناشت عظام إبراهيم الثاني الجاثليق (ت ٨٥٠) وطرحت في النهر الذي صار يرثى عليه مدة شيء كالسراح، في ما يروى. وطرد القساوسة والشمامسة من سامراء لكي لا يقوموا على دفن النصارى أو يصلّوا بهم، ولا يعلّنا اسم الجاثليق في سفر الأحياء. وقد هدمت أيضًا بضعة كنائس وأديرة، منها دير مار قرياقوس الذي كان يُختفى فيه بعيد الشعانيين، وكذلك هيكل مار يونان الأنباري (ربما بسامراء؟ أو ربما كان من بناء آل الأنباري؟)

وطبقت التدابير التمييزية ثانية: مخالفه زى الشياط ولا سيما الزنار وحظر ركوب الفرس. وحرّم على النصارى أن يخرجوا إلى الأسواق يوم الجمعة، كما حرّم على أولادهم أن يدرسوا في كتاتيب المسلمين. <sup>(٤٥)</sup> وروعى أن لا تكون لدورهم

نواخذ على مسجد للمسلمين وفرض عليهم أن يسمّروا على أبوابهم صورة شيطان من خشب، إلخ.<sup>(٤٦)</sup> وعلى هذا يعلق ماري بقوله: «وتفتحت على النصارى المحن من كل وجه تأديباً من الله وتقنّ الحساد منهم بتغيير النية في بختيشوع».<sup>(٤٧)</sup>

ولعل فترة الاضطهاد هذه شهدت خروج أكبر عدد من النصارى من دينهم ودخولهم في الإسلام. إلى تلك الفترة يعود إسلام نفر من الكتاب النساطرة الذين ترقى بعضهم إلى رتبة الوزارة ومنهم عيسى بن فروخان شاه، أحمد بن إسرائيل الأنباري، وأخرين من بني مخلد الدورقائي.<sup>(٤٨)</sup>

### المجوم النفسي

لم يكن يكفي الموكّل أن يتملّق العلماء بالحطّ من موضع النصارى، بل كان لا بد له، لإنجاح<sup>(٤٩)</sup> الحملة المؤيدة لأهل السنة والجماعة، من أن يحارب ميل العامة إلى النصارى وتعاطفها معهم. فقد «صارت النصارى أحب إلى العامّ من المجروس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود وأقرب مودة وأقل غائلة وأصغر كفراً وأهون عذاباً». وكانت العامّة تعاني من شعور بالنقص إزاء النصارى، فهي تنسب إلى البيزنطيين العلوم والعبقرية كلّها التي وجدتها العلماء والحكماء في ما نقل من كتب اليونان، والعامة تستعظام مناصب النصارى، وتقرّ بثرائهم العريض. يصدر هذا التحليل الوجيه، على ما فيه من تهكم، عن كاتب جامع وناشر لامع هو الجاحظ الذي يُعدّه شارل بلا الموجّه الخفيّ لسياسة الموكّل،<sup>(٥٠)</sup> أو على الأقلّ مستشاره غير الرسمي «المكلّف بإعلان القرارات الحكومية ونشرها، وتعيم الأفكار الدينية المستحسنة في فترة مخصوصة، والدفاع عن آل العباس والإسلام والعرب».<sup>(٥١)</sup>

وفي وسعنا أن نلاحظ أنّ الجاحظ لم يخدم الدعاية الرسمية إلاً متى لم يكن فيها مذهب في الاعتزال عرضة للنقد.<sup>(٥٢)</sup> وربما حقّ لنا أن نذهب إلى أبعد من هذا لتساءل: ألم يحتل الجاحظ على حماته الذين كانوا يبدونه بالمال لقاء الدعوة لهم؟ هل كان هذا العقل المستثير المولع بالفنون، الأميل إلى التكبير منه إلى التعصّب «من أكذب الأمة» كما اتهمه ابن قتيبة<sup>(٥٣)</sup>؟ فمن علائمه «ازدواجيته» أنّ هذا الكاتب

الواسع الأفق تحول فجأة إلى داعية للمذهب الشافعي ليخطب وَ المتوكل الذي كان أول من اعتمدته.<sup>(٥٤)</sup> وربما كان قد تعمّد المبالغة في التعبير في رسالة «الرَّدُّ على النصارى». فقد أخذ عليه ابن قتيبة أنه «يعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فإذا صار إلى الرَّدِّ عليهم تحوّز في الحجّة كأنَّه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعف من المسلمين».<sup>(٥٥)</sup>

وهكذا يتبيّن لنا أنَّ أعمال الجاحظ تحتاج إلى إعادة قراءة من هذه الزاوية، وكذلك التمييز بين ما هو أصيل منها في نسبته إلى أبي عثمان وبين ما هو منحول. وهنا لا بد من ملازمة جانب الحقيقة القصوى في استنتاج التائج والالتفات إلى تنبيه شارل بلالا:<sup>(٥٦)</sup> «إنَّ الميل إلى اعتبار الجاحظ أعباناً مقتدرًا على الدفاع عن القضية وضدّها بالبراعة والحمىّة نفسها يقود نقاد الأدب ومؤرّخيه إلى سوء تقديره، وإلى القبول ببعض العناوين المناقضة من دون فحص ولا تمحيق». فمن ذلك أنَّه تنسب إلى الجاحظ رسالة في ذم أخلاق الكتاب وأخرى في مدح الكتاب. والحق أنَّ شارل بلال قد بيّن، في هذه الحالة المخصوصة، أنَّ النص الأول ليس إلَّا «تلفزييًّا» وتوليفًا متَّحِرًّا عن الجاحظ. أمَّا الثاني فيعتقد أنَّه مفقود.

تبعد رسالة الرَّدُّ على النصارى وكأنَّها تهدف إلى تغيير صورتهم في أذهان العامة، مع أنها، بعد التأمل، أقرب إلى أن تكون هجومًا مضادًّا منها إلى أن تكون تفنيداً. فهي تميّز عن سائر الكتب السجالية التي وضعها المسلمون في أنها لا تستهدف النصرانية وعقائدها، بل تستهدف النصارى أنفسهم بطريقة أصيلة، وذلك في سعيها إلى إسقاط الهالة الأسطورية<sup>(٥٧)</sup> التي تحيط بهم، وإبطال المفعول المحلى لهؤلاء النصارى، من فلاسفة وأطباء وكتاب وفلكلين، ممَّن أوصلوا كتب البدع الخطرة إلى الأغنياء والظرفاء والمجان الدين لولا ذلك «لما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلَّى الله عليه وسلم».<sup>(٥٨)</sup> ولكن كان بوسع المرء أن يشتم في هذه الجملة نفحَة من لهجة المنافقين، فإنَّها مع ذلك تعبر بوضوح عن مشاعر ردة الفعل السنّية عند المُتوَكِّل، تلك الردة التي تشتد على الجانب السليّ للترجمات، أي على ما جلبته من عناصر غريبة عزّرت تيارات الشعوبية والزنادقة.

لم يكتف الجاحظ بالرَّدُّ على النصارى في مساندته جهود الخليفة. فهو في كتاب

البخلاء<sup>(٥٩)</sup>) يهاجم الأطباء النصارى بالسخرية، متهمًّا على الطبيب المسلم المغلوب على أمره أسد بن جانى الذى لا يجد القبول من الناس، لأنَّه مسلم، لأنَّ اسمه أسد لا صليباً أو جبرائيل أو بيرا، ولأنَّه يكتفى بأبى الحارث لا بأبى عيسى أو بأبى إبراهيم، ولأنَّ لهجته عربية لا كلهجة أهل جندىسابور.

أما الكتاب فإن الجاحظ (أو بالأحرى، أحد المصنفين المتأخرين، قبل ٨٦٩، حتماً) لا يميز فيهم بين المسلمين والنصارى (فكُلَّ الذين يذكُرُهم تقريرًا مسلمون)، وهو ينْدِم إجمالاً أصحاب مهنة يعدها غير لائقة: «إنَّ [الخطُّ] لو كان حظًا ما حُرِّمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». إنَّها مهنة كريهة لقومٍ تتبع أذلاء. وقد كان أول من ارتدى عن الإسلام، كاتب رسول الله «فاحكم [الكاتب] أحكام الأرقاء، وحمله من الخدمة حملَ الأغبياء... ثمَّ هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف والسنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف» والكتاب يوحون للناس بالهبة وفيهم كل النقائص بقطع النظر عن الأخلاق الديمية التي تعيب الكثير منهم. ويشير الكاتب بخاصة إلى الأثرة وقلة التضامن في ما بينهم: «[فهم لأشكالهم] مذلون، ولأهل [صناعتهم] قالون» وهذا مما نصادفه كثيراً جداً في صفوف الكتاب النصارى.

لم يكتفى المتوكِّل بتکليف الجاحظ كتابة الرد على النصارى، بل أراد مصنفًا سجاليًا أرصن وأبقى، فالتفت إلى يهودي أسلم منذ عهد المعتصم هو علي بن سهل الطبرى<sup>(٦٠)</sup> كاتب المازيار. ففي كتاب «الدين والدولة» يذكر علي بن سهل النصارى بالحال التي صاروا إليها لدى قبولهم بأن يكونوا من أهل «الذمة». وقد كتب أيضًا كتاباً في الرد على النصارى لم يحفظ إلا بعضه.

وحولى الحقبة عينها، أي في ٨٥١ وإبان خلو كرسى الجائزة جاءت إلى بغداد، على ما قبل،<sup>(٦٢)</sup> بعثة بيزنطية للمناظرة في الأمور الدينية. وكانت المسائل التي تناولتها المناظرة عدم التزام النصارى بتعاليم الإنجيل (كغفران الإساءة، والزهد في أغراض الدنيا، إلخ)<sup>(٦٣)</sup> وقد كان موضوع رفع الصوت عالياً في الصلاة من الموضوعات التي كانت تناقش في تلك الحقبة.<sup>(٦٤)</sup>

إذا تفكّرنا في مَنْ توَسَّطَ لإيصال رسالة الماحظ في الرد على النصارى<sup>(٦٥)</sup> إلى الخليفة المتوكّل، جاز لنا أن نتساءل عَمَّا كان دور الفتح بن خاقان<sup>(٦٦)</sup> وبني خاقان جملة في ما اصطلاح على تسميته «برد الفعل السُّني». هل اقتصر تأثير الترك ونفوذهم لدى الخلفاء، ولا سيّما منذ عهد المعتصم على نقل سلاحهم؟ ألم يكن لهم تأثير فكريّ أيضًا<sup>(٦٧)</sup>؟ أليس يجوز أن يكون انتصار المذهب السُّني (مذهبهم السُّني) انتصارًا لهم؟ ثُمَّ أليس يجوز لنا أن نرى فيه ردًّا تركيًّا على الشعوبية التي غلب عليها التفود الإيراني؟ من حقّنا أن نحلم في ما كان سيصيّر إليه (أو يبقى عليه) إسلام عربيّ نقى غير متأثّر بهذه المؤثّرات. في الحال التي بين أيدينا، لم يدرس بعد دور بني خاقان دراسة وافية من هذه الوجهة لتتمكن من الجواب عن هذا السؤال.<sup>(٦٨)</sup>

صحيح أنَّ المعتصم قد كان ترك بغداد، سنة ٨٣٥ - ٨٣٦، لأسباب سياسية، أهمّها التنافس بين العسكر التركي المجلوب عَمَّا وراء النهر وبين بورجوازية بغداد العربية المدعومة من قيل جند خراسان. بيد أنه لم يكن للعقيدة أن تخرب سالمَة من البوقة التي تكون فيها مزيجها. وكما أعقبت أزمة بغداد الضيقة المترعرجة (والشاعرية) شوارع سامراء<sup>(٦٩)</sup> العلاقة الباردة الجافة والمختلطة بدقة هندسية، كذلك كان إسلام عصر المتوكّل يؤذن بالإصلاح الذي سيأتي بعد قرنين من الزمان على يد السلاجقة (الأتراك أيضًا).

إنَّ الإسلام العربي الذي تخلّص من تأثير البيزنطيين عندما غادر دمشق، قد لاقى اليونان ثانيةً في ترجمات بيت الحكم، وقد صار يتراوح، أسوةً بالخلافة، ومنذ بروز تحديات الفلسفة بين الكتلتين الإيرانية والتركية.

## عودة تاذسيس

ظلَّ تاذسيس الجاثليق محبوسًا<sup>(٧٠)</sup> ثلاث سنوات ونصف ببغداد أولًا، ثم سامراء. وقد أحضر يومًا بين يدي الخليفة لأنَّ التهمة اشتدت عليه وربما صار يستحقّ القتل. وهاكم القصة: كان بسامراء طبيب نسطوري اسمه سرجيس. واتفق أن دبَّ بينه وبين أطباء آخرين من جماعته نزاع، فغادرهم وانضمَّ إلى أتباع أريوس.<sup>(٧١)</sup> وكما جرت العادة مع أمثاله من المارقين، قذف أهل ملةه القدية واتهم

الجاثليق بـ كتابة قيسر الروم، والدعاء له، واطلاعه على شؤون مملكة العرب إلخ. فأمر المـ توكل بـ تأسيس فأحضر بين يديه، فاستجوبه. ولما أنكر الجـاثـليـقـ التـهمـ أرادـهـ الخليـفةـ أنـ يـقـسـمـ عـلـىـ قولـ الحـقـ، «فـأـبـيـ [الـحـبـرـ]ـ خـوـفـاـ لـثـلـاـ يـخـالـفـ كـتـابـ الشـرـيعـةـ»ـ التيـ تـمـنـعـ مـنـ الـقـسـمـ. رـيـماـ أـعـجـبـ الـخـلـيـفـةـ بـيـاءـ الرـجـلـ فـلـمـ يـلـفـتـ إـلـىـ الـاتـهـامـ بـعـدـ ذلكـ وـأـمـرـ بـالـجـاثـليـقـ فـأـعـيدـ إـلـىـ الـجـبـسـ.

في أثناء هذه السنوات المظلمة اضطـرـ النـصـارـىـ أنـ يـصـبـرـواـ عـلـىـ قـهـرـ الإـجـرـاءـاتـ التـميـزـيةـ وـمـضـضـهاـ وـعـلـىـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ أحـيـانـاـ. فـفيـ الـعـامـ ٢٤١ـ /ـ ٨٥٥ـ ظـاهـرـ نـصـارـىـ حـمـصـ غـرـداـ حـلـيـاـ فـاسـتـحـقـواـ بـذـلـكـ مـعـالـمـةـ مـتـمـيـزـةـ جـدـاـ لـدـىـ قـمـعـ التـمرـدـ: هـدـمـتـ بـعـضـ الـكـنـائـسـ. (٧٢)

وفي العام ٢٤٢ـ /ـ شـبـاطـ ٨٥٧ـ، اـرـتـدـ إـلـىـ النـصـرـانـيـةـ عـطـارـ بـيـغـدـادـ فـأـقـيمـ عـلـيـهـ جـدـ  
الـشـرـعـ عـلـىـ الـمـرـتـدـ، ثـمـ أـحـرـقـ جـسـدـهـ أـمـامـ بـابـ الـعـامـةـ بـقـصـرـ الـخـلـافـةـ. (٧٣)

### الفرج بعد الشدة

في العام ٢٤٣ـ /ـ أـيـلـولـ ٨٥٧ـ مـاتـ يـوـحـنـاـ بـنـ مـاسـوـيـهـ (٧٤)ـ الطـبـيبـ الـجـدـيدـ الـأـثـيرـ  
عـنـ الـمـتـوـكـلـ، فـأـمـرـ الـخـلـيـفـةـ بـأـنـ تـقـامـ لـأـنـقـذـةـ، فـذـكـرـ (ـوـهـلـ كـانـ قدـ نـسـيـ؟ـ)ـ أـنـ  
كـلـ قـساـوسـ الـنـصـارـىـ قـدـ طـرـدـواـ مـنـ سـامـرـاءـ. عـنـدـئـ انـقـلـبـ الـخـلـيـفـةـ التـقـلـبـ عـلـىـ  
الـفـورـ: يـفـرـجـ عـنـ الـجـاثـليـقـ، يـؤـذـنـ لـلـقـسـوسـ وـالـشـاهـمـسـ بـدـخـولـ الـمـدـيـنـةـ وـحـتـىـ الـبقاءـ  
فـيـهـاـ، وـوـ.ـ.ـ زـالـتـ الشـدـةـ.

بعد الجنـازـةـ الفـاقـحةـ التـمـسـ كـتـابـ الـخـلـيـفـةـ وـأـطـبـاؤـهـ (ـفـقـدـ كـانـ بـعـضـهـمـ لـاـ يـزالـ  
بـالـقـصـرـ)ـ الإـذـنـ بـعـودـةـ الـجـاثـليـقـ إـلـىـ كـرـسـيـهـ بـيـغـدـادـ. فـأـمـرـ المـتـوـكـلـ أمـيرـ بـيـغـدـادـ بـإـرـسـالـ  
الـحـرسـ لـمـواـكـبـةـ الـحـبـرـ، «ـفـأـدـخـلـ بـغـدـادـ أـحـسـنـ دـخـولـ بـالـإـكـرـامـ الـعـظـيمـ»ـ.

وـقـدـ جـرـىـ أـمـرـ آخرـ عـرـّزـ مشـاعـرـ المـتـوـكـلـ الطـيـةـ (ـالـجـدـيـدـةـ)ـ نـحـوـ الـنـصـارـىـ. فـلـيـاـ  
قـدـمـ إـلـىـ دـمـشـقـ سـنـةـ ٢٤٣ـ /ـ آـذـارـ ٨٥٨ـ (٧٦)ـ طـرـحتـ فـيـ طـرـيقـهـ الـرـيـاحـينـ وـعـقـدـتـ  
الـقـبـابـ «ـفـلـيـاـ اـجـتـازـ المـتـوـكـلـ تـحـتـهـ اـسـتـحـسـنـهـ»ـ وـسـأـلـ الـفـتـحـ بـنـ خـاقـانـ عـنـ اـسـمـ منـظـمـ  
الـحـفـلـ، فـقـيلـ لـهـ إـنـهـ سـرجـيـسـ، مـطـرـانـ نـصـيـبـنـ لـلـمـشـارـقـ مـنـ السـرـيـانـ الـذـيـ اـتـقـقـ أـنـ

كان بالمدينة. أمر له الخليفة على الفور عشرة آلاف درهم واستفسر عن طريقة أفضل لمكافأته: أليس من الممكن عزل تاذسيس وتعيين سرجيس جائلاً؟ فيَّنَ الفتاح بن خاقان لل الخليفة أن ذلك لا يكون عند النصارى،<sup>(٧٧)</sup> فاقتنع وفي نفسه من ذلك شيء، وطلب إطلاعه على موت تاذسيس متى مات.

في انتظار ذلك تحسّن حال النصارى، وصار الأكابر يقصدون نصيبين لزيارة المطران الذي يحبه الخليفة. ولم يدع تاذسيس سرجيس ينتظر الجلقة طويلاً، فمات سنة ٦٢٤٤ / ٦ شرين الثاني ٨٥٨ عن جملة دامت خمس سنوات وثلاثة أشهر، قضى منها ثلاثة سنوات ونصف في السجن.

نحو هذا التاريخ، جاء دور العيادة في الانقسام. فقد اختلف باسيليوس الثاني مطران تكريت مع بطريركه يوحنا الخامس. وحسب أفضل التقاليد المتّبعة (أو أرذها) تبادل الحبران التهم وحمل النزاع إلى الخليفة، فحكم صالح البطريرك وأحلّ ملكي صادق<sup>(٧٨)</sup> محل باسيليوس.

## X سرجيس الأول

تأخر انتخاب سرجيس انتخاباً قانونياً بالرغم من أمر الخليفة بتعيينه. وقد أثار بعض الأخبار الجدال القديم: هل يجوز لمطران نصيبين أن يصير جائلاً؟ ألم يحظر ذلك لأن صوماً مطران نصيبين كان السبب في قتل باي الجاثليق، وأن يوحنا الداسني، مطران نصيبين كان قد خلع الجاثليق حنان بشوع... . مهما يكن من أمر الأساس القانوني لهذا الفتيو<sup>(٧٩)</sup> فقد جاء أمر الخليفة المتكرر يجبر الآباء على تجاوز الحظر وجرت سيامة سرجيس سنة ٢٤٦ / ٢١ تموز ٨٦٠.

كان المتكّل قد بدأ، منذ بضعة أشهر، ببناء قصره الجعفري في الموضع المسمى بالماحوزة، وبناء المتكّلة (سامرائه الجديدة) إلى الشمال من المدينة الأصلية.<sup>(٨٠)</sup> وكانتا ليبعد عن بغداد أكثر.

في هذا الوقت بُرِزَ من بين النصارى ذاك الذي ائتمنه الخليفة على نفقات بناء القصر الجديد: دُؤيل بن يعقوب كاتب الأمير التركي بُغا الصغير، الملقب بالشراي.<sup>(٨١)</sup> لنلاحظ عابرين وجود سرجويه<sup>(٨٢)</sup> الطبيب في بطانة الأمير التركي.

في هذه الفترة، نجد جواب حنين بن إسحق (٨١٠ - ٨٧٣) على يحيى بن المنجم المسلم.<sup>(٨٣)</sup> فقد كان ابن المنجم قد أفرغ جهده في تقديم النصח لحنين ليدخل الإسلام. وعلى إثر عدّة لقاءات، ولا سيّما عند أبي الحسن البرمكي، كتب ابن المنجم كتاب البرهان<sup>(٨٤)</sup> الذي كان يعده هو نفسه بيناً وقائماً (في ما كان يعتقد) على معلوّة العقل الذي كان النصارى أنفسهم قد دخلوه إلى عالم الإسلام، لما نقلوا إليه كتب أرسطو.<sup>(٨٥)</sup> أمّا قسطاً بن لوقا الملكاني الذي تلقى نسخة من الكتاب أيضاً، فيشيّ على هذه المبادرة قائلاً: «إنك قد رُمْتَ سبيلاً والتمسّط طريقاً لم يرُمها أحد قبلك منْ تكلّم في الفنّ الذي تكلّمت فيه. فقد كان مع أمير المؤمنين (رضي) قوم من أهل الكلام والعلم بالنطق جماعة... وما بلغنا أنَّ أحداً منهم رام أن يبيّن الحجّة في دينه ببرهان هندسي...». على أنَّ قسطاً يجد العيب الصوري في هذا البرهان ويبيّنه في صبر وأناة. أمّا حنين فإن جوابه القصير ينمّ عن ضيق صدره بإصرار<sup>(٨٦)</sup> صديقه المسلم على محاولة إقناعه بحقيقة الإسلام. وهو لا يتزدّد (وهذا ما لا يقع إلّا نادراً في علم المنطق التقليدي) في إنكار المقدمة الكبرى:<sup>(٨٧)</sup> «أنا لم أقرّ لك قطّ أنَّ الكتاب الذي جاء به صاحبك حقّ». وقد استقوى حنين بصداقته وبمكانته الاجتماعية، فنجّرّاً على سرد قائمة من ستة أسباب ربما قادت، من وجهة نظره، إلى ما يسميه «قبول الباطل»: «أولها أن يضطرّ القائل مخاطبه إلى أن يقبل منه ما يقوله من غير إرادته ولا اختياره. والثاني أن يكون الإنسان في ضيق وشدة فينتقل منها إذا لم يقدر على احتفاظها إلى ما يرجو منه السهولة والسرعة. والثالث أن يؤثّر العزّ على الذلّ والشرف على الضعف والقوة على الضعف. والرابع أن يكون صاحب الكلام خبيثاً، محتالاً في القول فيمّا به ويطغى من يدعوه إليه. والخامس أن يكون بين قوم كثيري الجهل فيستعين بجهلهم وقلة آدابهم، على ذلك. والسادس أن يكون بين المدعو وبين غيره نسب طبيعي. فلا يحبُّ قطع ذلك النسب في ما بينهما». <sup>(٨٨)</sup>

يأمكنا أن نعجب بالحرية التي يتمتع بها حنين إزاء محاوره والتنويه في الوقت نفسه «بتسامح» ابن المنجم، مع أنَّ الطبيب النصراوي يتحاشى «تطويلاً وتهجيناً

يغضب منها». ولكتنا نشعر، مع ذلك، بسأم عقل متفوق يرى النصرانية تتهافت من حوله للأسباب المذكورة كلها. لذلك رجأ رأيناه يختتم رسالته إلى ابن النجم بقوله: «وما أشك، مع نبك وفضلك أنه تبَّن لك (بما قد ذكرته واختصرت فيه) وجه الأمر وجليته. ويرشدك الإقناع وينهاك عن التعب والفحص وتعرف قصد من ينصح صديقه بعقل ومعرفة والله يرشد إلى الصلاح». لم يكن حنين يرجو دعوة محاروه ابن النجم إلى اعتناق النصرانية وإن كان يحاول على الأقل أن يقنعه بصرف النظر عن الإلحاد في دعوته إلى الإسلام.

ولكن الطبيب النصراني كان يعاني بعض المشاكل داخل طائفته. فمن غير أن يعرف تاريخ الحادثة بالضبط، يذكر المؤرخون قصة الخلاف بين حنين وبين بختيشوع أو إسرائيل الطيفوري.<sup>(٨٩)</sup> فقد أبدى حنين مشاعر عداء للإيقونات ربما تحصلت لديه إبان إقامته في بلاد الروم،<sup>(٩٠)</sup> فشكاه بختيشوع أو الطيفوري إلى الخليفة (وإذا سمي في المصادر فهو المتركل) الذي ترك أمر البيت في عقوبته إلى الجاثليق. وقد قيل أحياناً إنَّ هذا الجاثليق هو تاذسيس وقيل إنَّ تاريخ الحادثة هو سنة ٢٤٠، ٨٥٤، والحق أنَّ تاذسيس كان بالسجن في هذا التاريخ.

وإنني لأميل إلى رواية صليبيا وابن العربي اللذين يجعلان القضية في جملة سرجيس (٨٦٠ - ٨٧٢). ولئن كان لا بد للقصة من أن تجري في عهد المتوكل، فالالأغلب أن تكون في السنة الأخيرة من خلافته، وأن يكون المتهم (بكسر الماء) إسرائيل الطيفوري.

أما ما ينسبه ابن العربي إلى حنين من أنه «قطع زناره» فليس لهذا إلاَّ معنى واحداً: إنه قد أسلم.<sup>(٩١)</sup> ولكن الملاحظ أنَّ المؤرخين الآخرين، حتى المسلمين منهم، لا يذكرون هذا الأمر. فقد مات حنين على النصرانية سنة ٢٦٠، ٨٧٣.

### النصارى واغتيال المتوكل

عندما «انتقم الله من [المتوكل] وأرسل عليه بعض جنده الواصلين إليه فقتله في فراشه وخَلَصَ المؤمنين من شره»<sup>(٩٢)</sup> لم يكن للنصارى إلاَّ دور ثانوي في القضية.

في أول الأمر اشتتمت امرأة تركية رائحة المؤامرة وأرادت إبلاغ المتقى. ووقع الكتاب الموجه إلى الفتح بن خاقان بين يدي كاتبه أبي نوح عيسى بن إبراهيم بن نوح بن أبي نوح الأنباري،<sup>(٩٣)</sup> فأطلع أبو نوح سيده الذي وافقه على أن البلاغ ليس جدياً وقرر ألا يطلع المتقى عليه. الواقع أنَّ الفتح قد قتل مع الخليفة.<sup>(٩٤)</sup>

في أواخر أيام الخليفة نرى من حوله طببيه النصاريين ابن الأبرش<sup>(٩٥)</sup> وإسرايل بن ذكرييا الطيفوري.<sup>(٩٦)</sup> كان احترامهما التام للمتقى بعيداً جداً عن منادمات رجل مثل بختيشون: كانوا يوافقان مثلاً على الطبق الذي يروق الخليفة.

قتل المتقى غيلة بيدي ابنه المتصر وغيره من المتأمرين في ١١ كانون الأول من العام ٨٦١،<sup>(٩٧)</sup> وكانت مدة خلافته حوالي خمس عشرة سنة.

## الحواشى

Cl. CAHEN, *La changente portée sociale*, p. 18-19 (١)

(٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٠.

LAOUST, *Schismes*, p. 111-112 (٣)

(٤) مروج، الفقرة ٢٨٧٤ و ٣٤٥٦، التنبىء، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

E.I.<sup>(٤)</sup>, III, col. 839-840 par K.V ZETTERSTEEN (٥)

(٦) يلاحظ كتاب الناج المنسوب إلى الجاحظ ومعاصر المتقى (ص ٩٥): «ومن أخلاق الملك سرعة الغضب وليس من أخلاقه سرعة الرضى» (ص ٧٣) و«ليس في الأرض نفس تصر على مضمض الحقد، ومطاولة الأيام صبر الملوك». من ذلك كانت هذه النصيحة (ص ٦٠) ومن أخلاق الملك السعيد أن لا يعاقب وهو غضبان، لأنَّ هذه حال لا يسلم معها من العذى والتجاوز لحد العقوبة». ولكن هل كان المتقى يتعرَّف نفسه في هذه الصورة، هذا إذا عرف بها؟

(٧) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٨، يوضح أنَّ المتقى ساق ولاده العهد إلى المعز بدلًا من المتصر، حُبًا بقيمة، أم ولده.

(٨) ص ٧١.

S. BOUSTANY, *Ibn al-Rūmī*, P. 43-44 (٩)

(١٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٣٧٨، الكامل، ج ٧، ص ٣٩.

(١١) الطبرى، الموضع نفسه.

(١٢) Vizirat, p. 272-273

(١٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٦ .

(١٤) Les Borboriens, Cf. The Commentaries of ̄Ishodād of Merw, ed. M.D. GIBSON(Cambridge 1911-1913) I, p. 270

(١٥) النصوص المفصلة، الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٤ (مختصر في الكامل)، ج ٦، ص ٥٢ ، ابن القيم، ص ٢١٩ - ٢٢٤ ، ماري، ص ٧٩ ، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٣٧ ، صلبيا، ص ٧١ ، الذهبي، دول الإسلام، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦) وأصله من الأنبار، وتجدد قصّة ارتقائه إلى هذه الرتبة في كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى، ج ٣، ص ١٠٠ - ١٠٤ . ولما كان كاتبًا لدى شجاع أم التوكل قدم للخليفة إفطاراً بقيمة ٣٠٠٠ دينار. الحكاية ٣٤ في كتاب الذخائر والتحف لابن الزبير، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩ . وقد أذن له المتوكّل بركوب الحمار في القصر مثلاً.

(١٧) نجده في القصر قبل الخليفة (الطبرى، ج ٣، ص ١٤٦٣) ثم سنة ٨٦٢/٢٤٨ عند موت المستنصر (المصدر نفسه، ص ١٤٩٤ حيث يسمى سعيد بن سلامة). وكان كاتب أم المستعين في العام ٨٦٣/٢٤٩ (المصدر نفسه، ص ١٥١٢) وقد حفظت داره من النهب ستة (المصدر نفسه، ص ٨٦٥/٢٥١) . انظر أيضًا ٤ (١٥٤) .

M. MIAH, The Reign of al-Mutawakkil, Ph. D. thesis S.A.O.S. London, 1962, in F. (١٨)  
OMAR, A General Sketch, p. 35.

(١٩) يجب أن يحيّد التاريخ الذي بدأته منه هذه النسبة. وما يلفت النظر أنَّ ابن القيم الذي يورد صيغة مفصّلة لهذه «الشروط» (ص ٦٥٧ - ٨٧٣) يقول «شهرة هذه الشروط تغنى عن إسنادها» (ص ٦٦٣) . ولا يخفى محقق الكتاب، الشيخ صبحي الصالح، دهشته من اكتفاء فقيه كبير كابن القيم بهذه الملاحظة في شأن على هذا القدر من الأهمية من الوجهتين التاريخية والفقهيّة. على أنَّ بعض الروايات المختلفة تورد إسناداً خلافاً، فيما ذكر ابن عساكر (- CAE - TANI, Annali dell'Islam, III, p. 959, no. 1) يقوّمان دليلاً ضدّ نسبتها إلى عمر بن الخطّاب «ولو أنَّ هذه الوثيقة، على قول دي خوري (Mémoire sur la conquête de la Syrie, p. 149) تحفظ الخلف كثيراً في أن يحدّفوا منها أو يضيّفوا إليها أو يغيّروا فيها كلمة». وهذا ما يسميه دي خوري البرهان «الصوري».

(٢٠) هذا بحسب CAETANI ص ٩٥٧ ، الذي يعطي مراجع أخرى ولا سيّما بالروسية N.P. MIEDNIKOFF, I, p.538-613 DE GOEJE, Mémoire, p. 143-149 وأيضاً MUIR, The Caliphate p. 149-150 الذي يكتب: «صحيح أنّهم قد ختم عليهم، منذ البداية، بالذلة حسب ما تأمر به الآية ٢٩ من سورة التوبة، ولكن أسوأ

«الشروط» المشتدة لم تفرض إلاً في فترة متأخرة جدًا، فلما عمل بها تدرجياً صارت بحكم العادة شرعة البلاد».

(٢١) مثلاً عند النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢٢) أنظر A.S. TRITTON, *The Caliphs; A. FATTAL, Statut légal*

(٢٣) قاسم، ص ٢٧.

(٢٤) وقد ضبط عدد من النصارى، وفيهم رهبان وحتى أساقفة، بالجرائم المشهود مع بعض النساء المسلمات، فما استطاعوا النجاة من حد الرزق إلاً باعتناق الإسلام، مثل ذلك فيلوكتينوس أسقف آذربيجان للمغاربة من السريان، سنة ٩٦٢، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٤٨. هذا وقد عمَّ ابن فضلان النصارى بالتهمة.

(٢٥) ومن المصادر التي نجدها فيها (فضلاً عن التي ذكرت من قبل): القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٥، ج ١٣، ص ٣٦٢ - ٣٦٤، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٧، ١٣٨، ابن الأخوة، معالم القربي، ص ٤١ - ٤٢، ابن الأزرق، بدائع، ص ٦٨٤ - ٦٨٨، حيث يقال إن ثمة رواية «مبسطة» في كتاب من عبد الرحمن بن غنم إلى عمر مع زيادات الأخير. نلاحظ عابرين من النصارى واليهود من الدعوة إلى دينهم، وإظهار معتقدهم «في عَزِيزِ الْمَسِيحِ»، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٦٥. هذا الحظر الأخير يصدر عن الآية ٣٠ من سورة التوبة و«قالت اليهود عَزِيزِ ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله». (٢٦) يضيف السيوطى، ص ٣٤٧، «الغل». اعتناق الإسلام يكون بأن «يقطع النصراني زناره». «إذا دخل (الذئب) حماماً فيه مسلمون. جعل في عنقه خاتم حديد أو رصاص ونحوه» التزوى، منهاج الطالبين، ص ١٤٠.

(٢٧) النبوى، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، قدم له وراجعه الشيخ حسن غيم منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٥٥٤ رقم ١٦٩٢ - ٩٣، يعزى أصل هذا الحظر إلى الحديث.

(٢٨) وفي هذا المجال، منع إحداث كنائس، أو تهديم ما أحدث منها. من حيث المبدأ يجب تهديم الكنائس المشيدة في المدن التي أسسها المسلمون (كالقاهرة وبغداد مثلاً) وذلك بإجماع فقهاء المذاهب الأربعة. هذا على الأقل ما يقول به الشيخ الدمشقي سنة ١٧٣٩ (راجع MOSHE PERLMANN, *Shaykh Damanhuri on the Churches of Cairo*, U. of California Publ. Near East Studies 19, 1975) والحق أنَّ هذا المبدأ لم يطبق بدقة أبداً. وهذا يشير مرة أخرى إلى الفرق بين القانون والمارسة. وفقهاء المشرق، في ما أعلم، أقلَّ عنفًا من ابن عبدون الأندلسى (ت ٤٣٩ / ١١٠٠) الذي يحظر على النساء المسلمات الدخُول من الكنائس لأنَّ القساوسة «فسقة زنا لوطنة» ولكل واحد منهم عشيقتان أو أكثر من نساء النصارى. إبن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحاسب، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص ٤٨.

(٢٩) يرتبط هذا الحظر بالمشاركة في الجهاد لا بكون بعض دواب الركوب أثبل من بعض. ففي باب دواب الركوب، يقول الفقشندي (ج ٢، ص ١٣ - ٣٣) إنَّ البغل «ختار لركوب الرؤساء من العلماء والوزراء، والحكام إلخ....» وإنَّ ركوب الحمار لا يعيب، فقد كان يركبه الرشيد (الأغاني ج ٥، ص ٢١٩) وأنَّ النبي نفسه كان يركب الحمير والبغال. ويعزو الجاحظ هذا التمييز بين المطاييا إلى «جهل العامة»، كتاب الناج ص ١٤٥ - ١٤٦. وقد كان رؤساء اليهود والنصارى يركبون حميرًا مصرية فارهة «ومنها النفيس الغالي الثمن...». وهي تنتهي في الأثنان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل». ويرى De Goeje, *Mémoire*, p. 149 أنَّ البند المتعلق بالمطاييا قد أضيف إلى «الشروط» في زمن المتوكل، ولدى مراجعتها ثانية سنة ٢٣٩، تحديدًا. انظر تعليق عبود الشاجي على الحمير في تحقيقه كتاب الفرج بعد الشدة للتنويхи، ج ٣، ص ١٠٧ - ١١٦.

(٣٠) يذكر حبيب الزيات في الأسماء والكتنى، ص ١، ابن تيمية الذي ينسب، في رسالته في مسألة الكنائس، هذا البند إلى عمر بن الخطاب. وبين الزيات أنَّ هذا البند وإن وجد فإنه لم يطبق أبدًا، وينظر نفراً من النصارى سموا بأحمد ومحمود. وانظر أيضًا SAID BOUS-TANY, dans *Ibn al Rūmī*, I, Beyrouth, 1967, p.100, no.5.

(٣١) الفهرست، ص ١٤٤.

(٣٢) ينسبون إلى طيفور الذي كان مولى للخيزران والمادي والرشيد.

(٣٣) عن إسرائيل انظر ابن أبي أصبيعة، ص ٢٢٥، الطبرى، ج ٣، ص ١٤٥٥، ١٤٩٦، ١٤٩٦، ٢٢٤ - ٢٢٥. الكامل، ج ٧، ص ١١٤، إلخ. عن أبيه ذكريًا: ابن أبي أصبيعة، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣٤) يجب ألا يخلط بينه وبين سميه الذي عرف في القرن التالي، Vizirat, p. 742-743.

(٣٥) الجمسياري، كتاب الوزراء، ص ٣١٢، السطر الثاني.

(٣٦) ماري، ص ٧٨ - ٨٠، صلبيا، ص ٧١ - ٧٢، ابن العبرى، ج ٢، العمود ١٩٤ - ١٩٢، ١٩٢ - ١٩٤. إيلينا النصيبيي، الحاشية العربية، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٧) ابن العبرى، تاريخ الرمان، ص ٣٩، ابن أبي أصبيعة، ص ٢٠٢: «ومباراة الخلافة في الزي واللباس».

(٣٨) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٠٢. ثمة مثال آخر على ألفته بال الخليفة في قصة الهدية التي أهدتها إليه في عيد التوروز: «ملعقة كبيرة محرقة من ياقوت أحمر» في «دوامة من عود هندي لم يُرَ قطُّ» مثله، كالأبنوس سواداً، وعليه حيلة ذهب محرق، أعطته إياها دنانير جارية يحيى البرمكى لما صحب والده جرائيل الذى جاء يفصدها، نشور المحاضرة، ج ٨، ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٣٩) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٠٥.

(٤٠) يروى الصفدي، ج ١٠، ص ٨٧ - ٨٩ رقم ٤٥٣٢، أنَّ القاضي أحمد بن أبي دؤاد والوزير ابن الزيات هما اللذان دبراً نكتة.

(٤١) الهمداني، تكملاً، ص ٦٢.

- (٤٢) الصقلي، سنة ٢٦٠/٨٧٣ - ٨٧٤.
- (٤٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٤١٩، الكامل، ج ٦، ص ٧١.
- (٤٤) تصحيح الصفحة ٧٩ من ماري.
- (٤٥) يستند SOMOGYI, P. 73 إلى المتنظم لابن الجوزي ليشير إلى أنَّ أهل الذمة ألزموا بتعليم أولادهم وتأديبهم بالعربية أو بالسريانية (في العام ٢٤٠/٨٥٤) وذلك لكي لا يقدروا على الحاجة في الإسلام.
- (٤٦) القلقشتنىي، ج ١، ص ١١٥. يقدم غولديزير في كتابه، Zur Literatur, P. 674-675 أمثلة مماثلة على حظر بناء كنائس جديدة.
- (٤٧) بينما تربط المصادر النصرانية (يضاف إليها هنا: سعيد ابن بطريق، ص ٦٣ Annales, CSCO, 51) الأضطهاد بنكبة بختيشوع، يؤجل الطبرى، ج ٣، ص ١٤٣٧ والكامل، ج ٧، ص ٨٥، هذه النكبة إلى سنة ٢٤٤/٨٥٨ (؟) ولا يفسر حبس الجاثلين لمدة طويلة إلا بسقوط بختيشوع، لأنَّه كان صنيعة الطيب.
- (٤٨) بعد العام ٢٩١ كان عليّ بن عيسى، رئيس MASSIGNON, Scribes Nestoriens, p. 251 بني خلد، يحمر خجلاً من نسبة النصرانى، ابن العربى، ج ١، العمود ٢٤٠.
- (٤٩) جبر، ج ٢٥.
- (٥٠) E.I.<sup>2</sup>, II, Djahiz, p.396
- (٥١) PELLAT, Ĝahiz à Bagdad, p. 54
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ٥٧.
- (٥٣) تأويل، ص ٤١ - ٤٢.
- (٥٤) FINKEL, a Risala, p. 321. للمقارنة بتصریحات الجاحظ (وسكتاته) في كتاب الأخبار وكيف تصحّ، تحقيق شارل بللا في: Journal Asiatique, CCLV (1967), p. 102 «فصحَّ أنَّ دين الناس بالتقليد لا بالنظر، وليس التقليد إلى الحقَّ باسرع منه إلى الباطل».
- (٥٥) تأويل، ص ٤١، مذكور أيضاً في الجاحظ للجاحظى، ص ٣٦٣ - ٣٦٥.
- (٥٦) PELLAT, Une charge, p. 29-30
- (٥٧) ANTOINE TOHMÉ, Intérêt pour l'histoire sociale de la réfutation des Chrétiens رسالة ماجستير، بيروت ١٩٧٧ ، والطريقة المتبعة في هذه الدراسة حدَّدها المأسوف عليه الأب ميشال ألا في Histoire de la pensée arabe et sociologie, (analyse de la «Lettre sur les secrétaires»)، dans Etudes Philosophiques offertes au Dr. I. Madkour, Le Caire, G.C. ANWATI, Polémique, apologie et dialo-gue Islamo-chrétien, dans Euntes docete (U. Pontif. Urbaniana) 22 (1969) p. 396-399 . وانظر مختارات من هذه الرسالة في كتاب الترك المذكور آنفاً، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.
- (٥٨) الرد، ثلات رسائل للجاحظ، ص ٢٠.

(٥٩) تحقيق طه الحاجري، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٠٢. نلاحظ أنَّ الجاحظ لم يكن حسن الأطلاع على شؤون النصارى (أو سُنَّة الطوبية؟) لما كتب: «وفي حكمهم أنَّ من أعنان المسلمين على الروم يقتل وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يقتلوه»، كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٨، وربما كان مِيَالاً إلى ازدراء «النبيط»، لأنَّه على كونه قبح الوجه كان يجد أنَّ للنبيط (كما للمغاربة) سمعة أشبه بسمعة القرود (PELLAT, *Milieu basrien*, p.22) مستشهدًا بكتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٤. حيث يقول الجاحظ: «وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجه شبه القرد».

(٦٠) فهو يشير في فردوس الحكمة ed. M.Z. SIDDIQI, *Gibb Memorial*, 1982, p.1 إلى أنه سليل أسرة مروزية من الكتاب. وقد كان أبوه مال إلى الطب واستحق لقب «رَبِّن»، أي معلم. وفي كتاب الدين والدولة، ص ١٨٩، يذكر أنَّ عمَّه أبا زَكَارِيَّا بن نعيمان المعروف في نواحي العراق وخراسان، قد ألف كتاباً في الرد على أهل الأديان، انظر ابن القاطبي، *تاريخ الحكماء*، ص ١٨٧.

(٦١) المراجع في فردوس الحكمة G. LE-*Istamochristiana*, I, p 144 (no. 11, 10), III, p. 256 أنتظر أيضًا COMTE, les citations de l'Ancien et du Nouveau Testament dans l'oeuvre d'Ibn QU-tayba, dans *Arabica*, V (1958), p.34-46. يشير كاتب الدين والدولة، ص ١٩٧، إلى أنَّ لاعتقاد الإسلام مزايا مادية، فضلاً عن اعتقاد الدين الحق، يقول: «ومن لم يُجِبْ إلى ذلك وأعطى الجزية عن يد صاغراً، حقن بها دمه ووجبت له الذمة والطاعة، وكان في ذلك رياضة للكفرة لطيفة، وتذليل لنحوتهم وخلياتهم وداعية لأهل الأنفة والحميَّة منهم إلى الانتقال عن لئم الذل والذمة إلى شرف العزّ والحرية فإنَّ أبا ذلك أيضًا كانت الحرب من ورائهم». ليس للنصارى «عز» ولا «حرمة»، فهم في حال «الذل» وقد قال حنين بن إسحق الشيء نفسه تقريرًا في ما بعد.

(٦٢) أمَّا اشتراك فوتويوس وكيريلوس الذي صار من بعد قدسيًا هو وأخوه ميشيديوس فهو أمر مشكوك فيه.

(٦٣) أنتظر J. RUPP, *Dialogue islamo-chrétien près de Bagdad au temps de St. Cyrille*, dans *I'Osservatore Romano*, éd, hebdomadaire, 19 Septembre, 1978, p.11 برجوب الفصل السادس من حياة قسطنطين (كيريلوس) المنسوبة إلى أقليميتوس الأخربيدي. وانظر ترجمتها بتصرُّف إلى العربية في مجلة بين النهرتين، ج ٦، ٢٤ (١٩٧٨)، ص ٤١٢ - ٤١٥. وقد عثر J.M. GAUDEUL, *Islamochristiana*, 10 (1984), p. 100-157. على هذا الانتقاد في رسالة عمر بن عبد العزيز المزعومة إلى لاورون الثالث. ولعلها كانت من وضع رجل مسلم من حصن حوالي سنة ٨٨٥ — ٩٠٠. أمَّا الكرّاس «Pamphlet anonyme» الذي ترجمه ونشره دومينيك سورديل في: R.E.I., 34 (1966), p 1-33 فقد يكون جزءاً من هذه الرسالة.

(٦٤) أنتظر GAUDEUL, GAUDEUL، ص ٥١، الحاشية ١٠٤. وقد كان العاقبة، ومنهم ديونيسيوس

برصلبيي، يوجهون هذا الانتقاد إلى الملكانين، راجع مقالتي : Rum à l'est de l'Euphrate,

p.411.

(٦٥) يشير أبو حيان الترجيدي، إلى توسط الفتح بن خاقان في إيصالها إلى الخليفة، ياقوت، إرشاد الأريب، ج ٦، ص ٦٩.

(٦٦) E.I.<sup>2</sup>, II, p. 857, par O.PINTO . أنظر كتابي، ص ١٨٥ - ٢٩٨ : الجاحظ والترك وفيه (١٩٩ - ٢٢١) : الجاحظ والفتح، عن الفتح نفسه انظر ص ٢٨٨ - ٢٩٨ بخاصة. في المراجع نفسه ص ١٥١ - ١٧٠ : عصر التغوز التركي في دولة بني العباس (حتى المهدي). قد تكون بعض تفاصيل الفصل عن أمهات الخلفاء التركيات، ص ١٧١ - ١٨٠، موضع نقاش، إلا أن المؤلف لم يتساءل عن تأثير الترك في العقيدة. وربما لم يميز أيضاً ما في الثناء على الترك من مبالغة إذا خرج من فم متملق كالجاحظ في هذه الحال. أليس يجوز لنا أن نقول ما قاله Ch.PELLAT (Les nations civilisées, R67) عن رسالته في تفضيل السودان على اليopian، أنها «ليست أكثر من غريرين يليق به».

(٦٧) يلتقي محمد أركون مع تساؤلاتي عندما يكتب في «مسكويه»، ص ١٦٣ ، الحاشية ٥ : «لا نقدر على استبعاد علاقة تربط دخول الترك إلى المسرح وبداية التقليد».

(٦٨) لم يتتسائل JULIUS GERMANUS أيضاً في كتابه *The Role of the Turks in Islam* ، عن التأثير الديني الممكن لأنزراك سامراء.

(٦٩) كما أن مدينة السلام صارت بغداد، كذلك هنا غالب أحد أسماء الموقع القديم على المدينة، وهو اسم غير عربي ولو اجتهد البعض في تأويله وذهب إلى أنّ أصله سرّ من رأي.

(٧٠) مع أخيه توما مطران باجرمي، ونونا رئيس شمامسة نصبين للمغاربة من السريان. وقد دون A. VAN ROEY, dans Bibliothèque du Muséon, vol. 21, Louvain, 1948

(٧١) إنها المرأة الوحيدة التي يذكر فيها أتباع أريوس ببغداد. والاسم مدون بوضوح عند ماري وعبد ابن العربي.

(٧٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٢٢ - ١٤٢٤ . هل ترك في تلك الحقبة نصارى بغداد دينهم جماعات ودخلوا الإسلام؟ ففي «المأثورات التي يغلب عليها الطابع الأسطوري» (H. LAOUST, dans E.I.<sup>2</sup>, p. 281 مقالة عن أحمد بن حنبل) والتي تحيط برواية موت الإمام أحمد ابن حنبل في ربيع الأول ٢٤١ / تموز ٨٥٥ ، يذكر ابن خلkan (ج ١، ص ٦٥) أنه في يوم وفاته أسلم عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس. وفي بعض المخطوطات: ستون ألفاً.

(٧٣) الطبرى، ص ١٤٣٤ ، وفي نسخة عطارد (؟).

(٧٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٦ - ٢٥٥ .

(٧٥) ثمة مبالغة في التبسيط في القول (مثل الأ بشي بي، المستطرف، ج ١، ص ٢٤٨ ، إن المتكلّم «أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلم وأبعدهم...»).

(٧٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٣٥ .  
(٧٧) وهذا يؤكد أيضاً أن تأسيس كان قد خرج من السجن، وإنما كان من السهل على الخليفة أن يعزله.

(٧٨) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٢٤ ، ابن العربى، ج ٢، العمود ١٩٥ .  
(٧٩) أنظر كتابي : Nisibe, p. 84

(٨٠) Assyrie Chrétienne, p. 115 مع مصادر.  
(٨١) E.I<sup>2</sup>, I, p. 1327, par D. SOURDEL عن دليل: الطبرى، ج ٣، ص ١١٨٣ - ١١٨٤ ، Vizirat Abbasside, p. 256, 304, 322 ١٦٥٩ ، ١٥٤١ ، ١٥٣٦ ، ١٥١٣ ، ١٤٣٨ no. 4

(٨٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٣٦ . في العام ٨٥٢/٢٣٨ كان بغا قد أرسل إلى أهل أرمينيا أبا العباس الوارثي النصراني، الكامل، ج ٧، ص ٦٧ .

(٨٣) ربما كان المحاور علياً بن يحيى المنجم. أنظر الملف Islamochristiana, I, No 12.12,p.138; no. 11.17,p.145; no.12. 20, p.160; no. 12.18, p.159; no. 12.19p. 159-160; II, no. 11.17, p.191.

(٨٤) هل يجب أن نذكر باستحالة قيام حوار حقيقي طالما أن كلاً من المتحاورين يريد أن يبرهن (ابن المنجم يسمى كتابه: البرهان) أن الآخر مخطئ وأنه هو على الحق (ويتكرر ورود هذه الكلمة في كتابته). وقد عَرَفَ حنين بن إسحق عن نقاد صبره إذ لم يتردد في استعمال كلمة باطل مراراً. أمّا قسطا فإنه يلتزم إرادياً بإبقاء المناظرة على مستوى النطق، ولكنه مع ذلك يرسل هذه الكلمات: «مع معرفتك باختيال الكلام في الأديان ونقله على».

(٨٥) PAUL NWYIA Actualité du concept de religion chez Hunayn Ibn Ishaq, dans Arabica, XXI (1974) p.313-317, et Un dialogue Islamo-Chrétien au IX siècle, dans Axes, IX,5, (1977), p.7-22 Une correspondance isla-mochrétienne, dans Patrologia Orientalis t.40 (1981), pp 521-723 لروا فبعوث من أرمينيا إلى أبي عيسى أحمد بن المنجم وربما كان متأخراً (٩٠٨ - ٩٢٠) عن الرد السابق.

(٨٦) أنظر في نص ابن المنجم تكرر عبارة «النصيحة».  
(٨٧) عن «النظام المعرفي الإسلامي» انظر كتاب محمد أركون Pour un remembrement de la conscience islamique

(٨٨) قارن: ابن كير في: مصابح الظلمة في إيضاح الخدمة، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ٢٧٥ .  
(٨٩) ملف يوسف حيي، حنين بن إسحق مهرجان افرام - حنين، بغداد، ١٩٧٤ ، ص ٣١٧ - ٣١٩

(٩٠) Sur le culte des saintes images dans l'Eglise syriaque orientale, V.E.K. DELLY, dans

(٩١) زينات، سهات، ص ٤٥ - ٤٧.

(٩٢) صليبا، ص ٧١.

(٩٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٦٢. كان هذا الكاتب قد أسلم في خلافة المتوكل نفسه. وقد كان إسلامه أسطر خط يوحنا بن ماسوبيه المطتب الذي صاح بجماعة من الرهبان كانوا يبابه: «أخرجوا يا أولاد الزنا من داري واذهبوا أسلموا، فقد أسلم المسيح الساعة على يد المتكّل». ابن أبي أصيبيعة ص ٢٥٠. وفي هذا السياق يروى عن الطبيب نفسه خبر وقع له مع نفس كان معهوداً وكان يقول إنه قد جرب الأدوية المعروفة كلها. فلما عيل صبر ابن ماسوبيه صاح به: إن أردت أن تبراً فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة. ابن القفطي، ص ٢٥٣.

(٩٤) وقد ذُعِن قتلتها أن الفتح قتل الخلية وأئمّهم لذلك قتلوه، ابن الطقطقي، ص ١٩٢.

(٩٥) وقد عالج إبراهيم بن أبيوب الأبرش إساعيل ولد المعتر، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤١، وقد عرف أبيوب الأبرش مترجمًا للمواد الطبية من اليونانية إلى السريانية والعربية، المصدر نفسه، ص ٢٤١ ، ٢٨٠ .

(٩٦) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٥٥. وسوف نلتقي به لاحقاً لدى موت المتصر، الصدقى ج ٩، ص ١١ - ١٢ ، رقم ٣٩٢٩.

(٩٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٤٠. عن مغزى الاغتيال في السياسة الدينية لتلك الحقبة، انظر. Dominique Sourdel, La politique des successeurs d'al-Mutawakkil, p. 5-9.

## ١١ - المستنصر (٢٤٧ - ٨٦١ / ٨٦٢)

كان أبو جعفر محمد المستنصر بالله في الخامسة والعشرين من العمر لما خلف أباه. كان سرجيس الجاثليق في السلة منذ تموز ٨٦٠، وكان قد انتقل إلى سامراء «لتقرب الأمور عليه». (١) وقد استفاد من تساهل الخليفة فأعاد بناء هيكل دير مار يونان الذي هدم في زمن سلفه.

كان الخليفة الجديد «ذا شهامة ومعرفة» (٢) ولكنّه لم يُتح له الوقت لمتابعة سياساته في الانفتاح على العلوين. (٣) فقد مات عن خلافة دامت ستة أشهر. وقد أتّهم طبيه النصراوي، إسرائيل الطيفوري بأنه كان سبب وفاته العاجلة، إما لأنّه استعمل في فصده مسبّعاً مسّوماً (٤) أو لأنّه قد قطر في أذنيه قطرات أدت إلى انفاسه رأسه. (٥)

### الحواشي

(١) لا نعرف هل هو رسمه (أم رسم جاثليق آخر) أو رسم أسقف معاصر لمدينة سامراء (٨٣٦ - ٨٨٩) الذي نجده على جرار الخمر، انظر E. HERZFELD, Die Ausgraben von Samarra, Dritter Band, Die Malereien von Samarra, pl. LX-LXV, notamment (en couleur) pl. LXI; D.S. Rice Deacon or drink? dans *Arabica*, V (1958), p. 15-33, pl I-II; et J. DAUVILLIER, l'ambon ou bema dans les textes de l'Eglise Chaldéenne et de l'Eglise Syrienne au moyen-Âge, *Cahiers archéologiques*, VI (1952), p. 19, fig 3.

(٢) المسعودي، التبيه، ص ٣٦٢ - ٣٦٣، كانت أمّه أم ولد رومية تُدعى حبشيّة.

(٣) SOURDEL, *Politique Religieuse*, p. 9

(٤) مروج الذهب، الفقرة ٢٩٩٠.

(٥) الكامل، ج ٧، ص ١١٤.

---

## ١٢ - المستعين (٢٤٨ - ٨٦٢ / ٢٥١)

---

كانت لأبي العباس أحمد المستعين بالله، ابن محمد أخي الم توكل، سياسة دينية أعنف تحديداً،<sup>(١)</sup> ولعله اضطر إلى التقرب من الشيعة لما فرّ من سامراء إلى بغداد أمام منافسه المعزن، سنة ٢٥١ / شباط ٨٦٥.

كان على النصارى، كغيرهم من رعايا الخلفاء في تلك الحقبة، أن يختاروا أحد المتنافسين وأن يدفعوا ثمن غلطهم في الاختيار. نجد في ذلك الزمن، سنة ٢٤٩ / ٨٦٣، سلمة بن سعيد الذي صار كاتب مخالق الصقلية، أم المستعين<sup>(٢)</sup> التي كانت تصنع ما تشاء بابتها «ولم يكن يمنعها من شيء تريده». وعلى الرغم من هذه الشبهة، فإن دار سلمة ودار إبراهيم بن مهران «العسكري»، النصراني أيضاً، حماهما ح رأسها والمصارعون وغيرهم من الجيران<sup>(٣)</sup> فسلمتا من هب الترك الذين نهبو دار دليل لما غادر الخليفة سامراء.

كان أبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتب الفتح بن خاقان المغدور قد انتقل إلى خدمة موسى، ابن بغا الكبير، الذي «كان في ذلك الوقت الخليفة الحقيقي»، وكان كاتبه بثابة وزير، وكانت إليه الأعمال كلها»، وكان موسى فضلاً عن هذا «يطيع خصيه الأثير في كل شيء». فمن ذلك أنه لما اختلف صاعد بن مخلد مع أبي نوح على قضية مالية، جاء عبدون أخو صاعد إلى الشخصي ووعده بالكثير إذا عزل أبي نوح وجعل صاعد مكانه، فتم له ما أراد. في ما بعد تصالح صاعد وأبو نوح وزوج الثاني ابنته من الأول. وكان هذا الزواج أول ما وضع صاعداً على طريق الوزارة<sup>(٤)</sup>. وكانت القصة قد بدأت سنة ٢٥١ / ٨٦٥.

إنَّ سيرة دُليل بن يعقوب في تلك الحقبة خَرِيَّة بالاهتمام أيضًا. فنحن نجده سنة ٢٤٩/٨٦٣ كاتب ضياع المستعين.<sup>(٥)</sup> وفي العام ٢٥١/٨٦٥، أراد باغر<sup>(٦)</sup> التركي أحد نواب الأمير بغا الكبير (وأحد الذين فتكوا بالمتوكَل أيضًا)، أراد أن ينال بالسوء رجلاً مسلماً من أصدقائه دُليل، اسمه أحمد بن مارمة. فما كان من دُليل إلا أن حامى عن صديقه فأراد باغر أن يقتل دُليلًا أيضًا، لكنه لم يفعل لأنَّ الأمير بغا هدأه قائلاً: «... أمرى وأمر الخلافة في يديه، فتنتظر حتى أصيَّر مكانه إنساناً وشأنك به».

وعلى الرُّغم من مصالحتها عاد باغر، على سكر، إلى توعد دُليل بالقتل. عندئذٍ تدخل الخليفة نفسه لتهذئة ذلك الجلف.<sup>(٧)</sup> وهذا يبيّن لنا كيف أنَّ الكتاب النصارى متى كانوا أوفياء ونزيهاء، كانوا أهلاً لأن يمحضهم أسيادهم الود، ومحفوظاً إلى حمايتهم. ونجد آخر ذكر للدليل سنة ٢٥٢/٨٦٦. ويبدو أنه لم يزل حتى ذلك التاريخ في خدمة بغا الشرابي.<sup>(٨)</sup> وقد قبض على هذا (وهو من قتلة المتوكَل أيضًا) وحبس، وحُكم عليه المعذَّر بالقتل سنة ٢٥٤/٨٦٨.<sup>(٩)</sup>

توصل بعض النصارى إلى مراكز مهمة في خلافة المستعين أيضًا. نذكر منهم بشر بن هارون، كاتب محمد بن عبد الله الطاهري الذي كان آنئذ على خراسان وطبرستان والري وسائر المشرق، ومنهم أخوه بشر، جبر بن هارون الذي ناب عن العامل إبان حملته على طبرستان لمحاربة الحسن بن زيد العلوى<sup>(١٠)</sup> سنة ٢٥٠/٨٦٤. وكان هذين الأخوين أخَّ ثالث، اسمه إبراهيم، وكان كاتباً أيضًا.<sup>(١١)</sup> وقد تحسنت حال الأخوة الثلاثة في الخلافة التالية (بعدما ثبَّت دورهم في الجانب الشرقي من بغداد سنة ٢٤٩/٨٦٣)<sup>(١٢)</sup> وذلك بفضل محمد بن عبد الله الذي دبر مع أبي أحد الموقق خلع المستعين<sup>(١٣)</sup> لتراثية المعذَّر، أخي نفسه.

خلَص الأتراك ابن المعذَّر، وغادر المستعين سامراء «وأدبرت الأمور عنه»<sup>(١٤)</sup> وانحازت بغداد إليه بينما بقيت سامراء بيد المعذَّر<sup>(١٥)</sup> الذي أمر سعيداً الحاجب بقتل ابن عمِّه المخلوع بحضور فضلان<sup>(١٦)</sup> الطيب النصراوي، سنة ٢٥٢ / تشرين الأول ٨٦٦. وقد جيء برأسه إلى المعذَّر فلم ينظر إليه حتى فرغ من لعب الشطرنج. وكان المستعين في الخامسة والثلاثين من عمره.

## الحواشي

- FORSTNER, MAR- SOURDEL, Politique Religieuse, p. 10-12 (١)
- TIN, MAINZ, 1966
- (٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١٢ .
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤٠ .
- (٤) نشوار المحاضرة، ج ٨، رقم ٣٤، ص ٧٨ - ٨٢، وللتشرى أيضاً، الفرج (تحقيق الشالبى) ج ٣، ص ٢٣ - ٢٧. الصفدى، الواقى، ج ١٦، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .
- (٥) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١٣ .
- (٦) الصفدى، ج ١٠ ، ص ٧١ - ٧٣ - ٧٣ ، رقم ٤٥٠٩ .
- (٧) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٣٦ .
- (٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥٩ . - ويدرك الصفدى عزل ذليل بدون الإشارة إلى تاريخ محمد، ج ١٠ ، ص ٧٢ .
- (٩) D. SOURDEL, dans E.I<sup>2</sup>, I, p 1327 . - الصفدى، ج ١٠ ، ص ١٧٣ - ١٧٥ ، الفقرة ٤٦٥٧ .
- (١٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٢٤ - ١٥٢٥ ، الكامل، ج ٧، ص ١٣٠ - ١٣١ .
- (١١) كان قهرمان محمد بن عبدالله بن ضاهر. ويظهر في كتاب الديارات، ط ٢، للشابشى، ص ١٢٣ ، في قضية اختلاس ثياب نفيسة.
- (١٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١١ .
- (١٣) مروج، الفقرة ٣٠٦٠ .
- (١٤) التنبيه، ص ٣٦٤ .
- (١٥) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٤٢ .
- (١٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٦٧١ .

---

## ١٣ - المعتز (٢٥١ - ٨٦٦ / ٨٦٩ - ٢٥٥)

---

إستمرت أزمة الخلافة في عهد أبي عبدالله محمد المعتز بالله<sup>(١)</sup> ابن عم سلفه المستعين. كان سرجيس لا يزال جاثيلقاً (منذ ٨٦٠)، ولكنَّه لا يفعل ما يذكر به. من وجهة السياسة الدينية شهدت خلافة المعتز إعادة الاعتبار إلى سياسة أبيه المتوكل، من بعد التغيير الذي طرأ في العهدين السابقين. إنَّ اسم ارتقاء الخليفة الجديد عرش الخلافة بتغييرات في إدارات الدواوين وفي الجيش وفي القضاء.<sup>(٢)</sup> أمَّا في الرتب الأدنى من هذه وهي التي نجد فيها النصارى بخاصة فلم يكن الانحياز إلى صفتِ المعتز موضع تساؤل. يذكر هنا من بين كتاب بغداد يعقوب بن إسحق وإبراهيم بن نوح.<sup>(٣)</sup> وفي العام نفسه ٨٦٦/٢٥١، تقلَّد ابن الآخرين، أبو نوح عيسى الختم والتوريق.<sup>(٤)</sup>

بيد أنَّ سيرته انتهت كسيرة مولاه أحمد بن إسرائيل نهاية مأساوية. إذ إنها تجسراً، بعد سكرة في ما يبدو، فدخلت على المعتز ليعذلاه على إسرافه في النفقات: لم يبقَ بيت المال شيء، لا شيء لأرزاق الحرس التركي!

ذلك أنَّ الخليفة الجديد كان «يؤثر اللذات ويعدم الرأي»،<sup>(٥)</sup> وكان خاصعاً لأمَّة قبيحة<sup>(٦)</sup> الرومية، أمَّ ولد المتوكل، التي كانت ترفض مساعدة ابنها على دفع أرزاق الجندي التمرَّدين مع أنها كانت غنية جداً.

قبض على ثانٍ السكاري المطالبين، وُضُرِّبوا ليستخلص منها المال. ومن بعدما دفعوا المال عذباً أيضاً ليقرُّوا بجرائم ما ارتكبها، ولا سيما أبو نوح الذي أنادخوا عليه قائلين: «وأنت مع هذا مقيم على دينك النصرانية»، ثم نقل الاثنين إلى

باب العامة، الموضع المعتمد للإعدام. هناك جُلد خمس مئة جلدة، ثم حمله منبطحين على بغلين من بغال السقائين. فمات أبو نوح من يومه وكذلك مولاه أحمد بن إسرائيل.<sup>(٧)</sup>

رأينا سابقاً أننا نجد في أطباء هذه الحقبة إبراهيم بن أيوب الأبرش الذي عالج إسماويل ابن المعتر. وقد خلع المعتر في العام ٢٥٥ / تموز ٨٦٩. وحبس في حجرة حتى مات جوغاً، وكان عمره ٢٤ سنة.

## الحواشي

- (١) عن هذا الخليفة انظر: FORSTNER, MARTIN, AL-Mu'tazz billah, Gemersheim, 1976  
كان أبو عشر الفلكي قد تنبأ له بأنه سيصير خليفة بعد حرب أهلية. وقد كافأه المعتر بهدايا كثيرة وعيّنه رئيس منجمي الخلافة، نشوار، ج ٨، ص ٥٧.
- (٢) SOURDEL, Politique Religieuse, pp. 12-13.
- (٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٦١٥.
- (٤) المصدر نفسه، ص ١٦٤٠، يشير سورديل (Vizirat p.297) إلى أن التتوخي يذكر أنه كاتب الضياع.
- (٥) الشبيه والاشراف، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.
- (٦) من باب التسمية بالضد، ذلك لأنها كانت أحسن نساء عصرها، التعالى، لطائف، ص ٤٦. عن قبيحة، أنظر: ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص ١٢٥ - ١٢٧.
- (٧) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٠٦، ١٧٢٠ - ١٧٢٢. - ثمة تفاصيل أخرى في Vizirat, p 317 no. 4، التتوخي، الفرج، ج ١، ص ٢١١ الحاشية رقم ٢٤.

---

## ١٤ - المهدي (٢٥٥ - ٨٦٩ / ٢٥٦ - ٨٧٠)

---

«عادت الخلافة إلى بني الواقق» مع أبي إسحق محمد المهدي<sup>(١)</sup> بالله. ولكن بدلاً من ردة الفعل المتساهمة التي كانت متوقعة، «تميز الخليفة الجديد بأصوليته وحرصه على مباشرة أمور القضاء بنفسه لما صار يتولى قضاء المظالم».<sup>(٢)</sup> ويُطرب المسعودي في الثناء عليه: «كاد أن يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية هذباً وفضلاً ودينًا، فصادف أقواماً لا يجوز عندهم أخلاق الدين ولا يريدون إلا أمر الدنيا، فسفكوا دمه وتشتت أمورهم بعده».<sup>(٣)</sup>

بدينه أن يكون أول ما فعله رجل كهذا لدى وصوله إلى السلطة هو تحريم الشراب والنبي عن القيان.<sup>(٤)</sup> كان التدبير الأول يمس النصارى مباشرة. ربما كانت الأديرة، حيث تسرب «بنت الدير»، مصدراً لإهانة للشعراء<sup>(٥)</sup> (مع أنَّ كتب الديارات لم تزدهر إلا بعد حوالي قرن من ذلك الزمن) إلا أنها كانت، في نظر المسلم الورع، من موارد التهلكة.

لقد كان المهارون الديميون، «المرقطو الثياب المختومو الأعناق»، عرضة لانتقادات الجاحظ<sup>(٦)</sup> سواء سموا «أذين أو شالوما، أو مازيار، أو ازادنقارا، أو ميشا». ولذلك فقد درج الخلفاء المصلحون على إغلاق الحانات<sup>(٧)</sup> وطرد المغنين والقيان وكسر آلات الملادي. وقد «بذل المهدي كل ما في وسعه من جهد لانتشار الخلافة من انحطاطها».<sup>(٨)</sup>

وذهبت به الحمية إلى حدَ الأمر بأن تمحى الصور التي كانت تزيّن قاعات

القصور بسامراء<sup>(١٠)</sup> خاصةً. إلا أنّ زهده وتقشّفه ومسووحه وتهجّده وما كان يبذله من نصائح سرعان ما أتعبت الناس.

وقد اضطرّ إلى القضاء على عدد من الخارجين أو المنافسين ولكنّه أخفق أمام الأخير منهم: الأمير التركي موسى، ابن بغا الكبير، الذي دخل سامراء في ١٢ من المحرّم سنة ٢٥٦ (٣٠ كانون الأول ٨٦٨). قبل وصول موسى بن بغا<sup>(١١)</sup> كان بختي Shaw في صحبة صالح بن وصيف الأمير التركي الذي اضطرّ إلى الاختباء، ولا نعلم كيف تخلّص بختي Shaw.

لما رفض الخليفة أن يخلع نفسه، من بعدما قبض عليه، أمر به فقتل، وروى بعضهم أنّه قد عصرت خصيّاته. ولم تبلغ مدة خلافته سنة.<sup>(١٢)</sup>

لا نعرف شيئاً عن النصارى في خلافة المهدي العابرة، ما خلا وجود بعض الأطّباء وبعض «النكبات» التي ربما نزلت بالخمارين. في فوضى سامراء نجد أمراً الترك يرثون الخلفاء والوزراء ويضعونهم، ولا يكاد المرء يجد الوقت للكلام عن الصغار حتى يرى الكبار يختفون من المسرح.

## الحواشي

(١) الصندي، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٦، رقم ٢١٥٨.

(٢) SOURDEL, *Politique Religieuse*, p. 13.

(٣) التبيه، ص ٣٦٦ - ٣٦٧، ثمة مناقشة لشخصية هذا الخليفة الحقيقة بقلم BARTHOLD في *Islamic Quarterly*, London, XV (1971) p. 69-95

(٤) مروج، الفقرة ٣١١١، يضيف ابن الطقطقي، ص ١٩٩ أنه: «منع أصحابه من الظلم والتعدي».

(٥) عن فن الخمرات انظر: E.I.<sup>2</sup>, p 1030-1041 بقلم J.E. BENCHEIKH ومع ذلك تجد الإشارة هنا إلى أن الأديرة كانت مهلاً للملاهي الشعبية البريئة يرتادها الجميع ولا سيّا أيام الأعياد (هذا إذا غضبنا النظر عن دورها كمراكز روحية وفكريّة). انظر J.M. FIEY أعياد الأديرة، أعياد شعبية في مجلة التراث الشعبي، بغداد، (١٩٦٩) ٢، ص ١٢١ - ١٣٠ . G. TROUPEAU, *Les couvents chrétiens dans la littérature arabe, Nouvelle revue du Caire*, I, (1975), p 265-279.

- (٦) البيان، (ط. القاهرة. ١٩٦٠)، ج ١، ص ٩٤.
- (٧) يمكن التعليق على حب الخمرة من حيث هو عائق في سبيل اعتناق الإسلام، مع اعتبار الأخطل غودجاً.
- (٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٢ - ٤٣.
- (٩) K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.<sup>1</sup>, III, p 750-751. كان وزير أبو أيوب سليمان بن وهب بن سعيد يتحدر من أسرة نصرانية ويصفه ابن الطقطقي ص ٢٠٠، بأنه «أحد عقلاء العالم». أنظر مصادر عنه في: SOURDEL, Vizirat, p. 300 no. 5.
- (١٠) مروج، الفقرة ٣١٣٠.
- (١١) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٩٠.
- (١٢) يحاول الأب لويس شيخو في كتابه شعراً النصرانية ص ٢٦٣ - ٢٦٦ أن يرصد سيرة أبي موسى عيسى بن فروخان شاه القنائى فيجعل منه وزيراً للمعترض. والحق أنه كان حدثاً عهد بالإسلام، ولم يكن، كنصراني، يشغل في أول أمره إلاً وظيفة قائمٍ على الضياع في خلافة المتكفل، سنة ٢٤٣، pp. 734-736 Vizirat مع مصادر.

---

## ١٥ - المعتمد (٢٥٦ - ٨٧٠ / ٢٧٩ - ٨٩٢)

---

أخيراً، نقع على خليفة حكم، اسمياً<sup>(١)</sup> على الأقل، أكثر من بضعة أشهر، فقد رأى سرجيس الجاثليق خلال اثني عشر عاماً ستة خلفاء يصعدون ويهبطون. ولما كان سرجيس قد توفي نهار الأحد ٢١ أيلول ٨٧٢، فمن المرجح أن يكون قد التقى المعتمد الذي استخلف سنة ٢٥٦ / حزيران ٨٧٠، مع أنَّ التاريخ لم يحفظ ذكر هذا اللقاء.

قبل أن نغادر سرجيس الجاثليق لذكره، وإن كنا لا نملك تأريخاً للحادث، مكيدة جديدة دبرنها سميء، الطبيب الأريوسي الذي كان قد سبب المتاعب لتأذيسين بين العامين ٨٥٣ و٨٥٦. ففي أيام سرجيس، أي بعد ٨٦٠، استولى الطبيب المارق على إحدى كنائس رعيته، ببغداد في ما يبدو. لم يرض خليفة ذلك الزمن (أحد الستة الذين تقلدوا الخلافة أيام الجاثليق) أن يبت في القضية من غير مناظرة تحرى في حضرته بين الطبيب والجاثليق. خاف النساطرة على قول ابن العربي،<sup>(٢)</sup> لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ رئيسهم قليل العلم والفصاحة. ولكنه غلب خصمه، خلافاً لما كان يتوقع، فحكم الخليفة على الطبيب بأنَّ يدخل الإسلام. ولما تردد هذا، ولما كان الخليفة يحبه أمелеه حتى يتفكر في الأمر. وبعد فترة حزم الطبيب أمره: فكان أن «قطع نصراني آخر زياره».

كان أبو العباس أحد المعتمد على الله ابن التوكل، وكان ربما اتبع سياسة أبيه لولا أنَّ أخيه الموفق، الذي كان من قبل قد ساند المعترز،<sup>(٣)</sup> أبعده عن مباشرة شؤون الحكم بنفسه. وينبغي ألا يفوتنا أيضاً أنَّ بغداد كانت بين العامين ٨٧٣

و٩٢٩ تحت حكم الحرس البريتوري البيزنطي الأصل.<sup>(٤)</sup> أما الوزراء فكانوا يعينون ويعزلون عدّة مرات.<sup>(٥)</sup> في العام ٨٧٣/٢٦٠، أي في أثناء خلوّ كرسيّ الجائقة، مات الطبيب الكبير حنين بن إسحق الذي صادفناه في عهد المتوكل.<sup>(٦)</sup>

XI تأخر انتخاب أنوش،<sup>(٧)</sup> مطران الموصل، جاثليقاً حوالى خمس سنوات. كان كلّ من المرشّحين قد استعان بأصدقاء له من أصحاب النفوذ. وكان أحدّهم، واسمه إسرائيل مطران كسكي، قد انتخب عملياً، إلا أنَّ أمير بغداد أمره بالتخلي، ولما تلّكاً في ذلك، هجم عليه أحد أنصار أنوش المتعصّين وشله من على البيم وعصر خصيّته، فمات إسرائيل بعد أربعين يوماً.<sup>(٨)</sup>

واستمرّت النزاعات العنيفة بين الأسر المنافسة. فقد أوشك مرشح آخر سامه يوحنا بن نرسى أن يتّخب (وقد انتُخب في ما بعد)، بيد أنَّ أنوش المستند إلى الأطّباء الملكيّين لم يرغب عن طموحه في بلوغ السُّلْطَة. وقد بلغها، وسيم جاثليقاً سنة ١٣/٢٦٣ كانون الثاني ٨٧٧.

منْ كان أولئك «الأطّباء الملكيّون»؟ نعرف منهم واحداً على الأقلّ، كان في خدمة الموقّن، إله يوحنا بن بختي Shawy الذي كان مترجمًا أيضًا. ويروى أنَّ الوصي العظيم النفوذ كان يثق فيه ثقة عظيمة «ويسميه مفرج كَرَبَّى». وكان ابنه بختي Shawy بن يوحنا طبيباً<sup>(٩)</sup> أيضًا، وسنصادفه لاحقاً.

## سنة تحوُّل

إتّسمت السنة التي أعقبت انتخاب أنوش، أي ٨٧٨/٢٦٥، «بانعطاف في السياسة الداخلية لدولة الخلافة»: ففيها ظهر بعض الموظفين الشيعة. في السنة عينها اختفى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن وهو بعد حدث، في ظروف غامضة، في سرداب بسامراء، على ما قيل. «وقد مال كثيرون إلى أن يروا في هذا الاختفاء أصابع شرطة الخلافة».<sup>(١٠)</sup>

كانت تلك السنة مهمّة من وجهة نظر النصارى أيضًا. فقد أدى دخول كثيرين من النصارى الإسلام حدثاً، إلى وصول عدد منهم (وبصورة غير متوقعة)

إلى السلطة، مثل ذلك الكتاب المتحدرون من دور قتّي.<sup>(١٢)</sup> ولكن نفراً من أفراد أسرهم ظلّوا على النصرانية، كالنساء منهم بخاصة. كان من شأن هذا أن يحدث، في ظروف أخرى، قطيعة جذرية، ولكن المسلمين الجدد في هذه الحالة لم يتّنّكروا لأصولهم بل إنّ أقاربهم الذي ظلّوا على النصرانية قد تمكّنوا بواسطتهم من تحسين حاليهم بعض الشيء. وهذا ما سمّاه لويس ماسينيون، في شيء من المبالغة، «السياسة الإسلامية - المسيحية» للكتاب الذين كانوا نساطرة سابقاً.. «في بلاط بغداد». ولعلّ المثل الساطع على هؤلاء الأخوة غير الأعداء هو مثل الوزير (المسلم) صاعد بن مخلد<sup>(١٤)</sup> وأخيه (النصراني) عبدون.

وقد اتفق في هذه السنة بالذات، ٨٧٨/٢٦٥، أنّ «حبيباً (?) الراهب الذي من بيت الحكمة بيغداد»<sup>(١٥)</sup> (أي أنه مترجم رسمي؟) وجد ببرمنا (؟) على ما روي، «نسخة عهد وسجّل» بالعربية «على جلد ثور» ادعى أنّ فيه نصّ المعاهدة الشهيرة المعقودة سنة ٦٣١/١٠ بين النبي محمد وبين نصارى نجران (باليمن) من بنى الحارث<sup>(١٦)</sup> الذين زعم بنو مخلد الارتباء إليهم. ثمة صيغة إسلامية لهذه المعاهدة<sup>(١٧)</sup> أقدم عهداً (وريما كانت أصلية)، وأقصر نصّاً، بيد أنّ نصّ «حبيب الراهب» كان أصرّح ويورد سلسلة من الإجراءات السياسية المحددة التي لم تكن لترد فيها إلاّ بعد قرون طويلة من التعايش: «لا تعزل الدولة الإسلامية الأساقفة ولا تهدم الكنائس بل تسمح بإعادة عمارتها، تكون الجزية ٤ دراهم على الرأس و٢١ على التجار ويُضاف إليها الخراج، في حال الحرب يعفى النصارى من القتال والتتجسس على العدو، ومن تجهيز الجيش (ولا يطلب منهم إلاّ إيواء الجنود ثلاثة أيام وثلاث ليال)، تخفّف القوانين المشدّدة، لا تخطف نساء النصارى ولا يكرهن على الإسلام».

إننا لننشر أنّ هذا النص يردّ على «الشروط العمرية» (المزيفة)، إذ يجد في الوقت المناسب (أو يختبر) عهداً أقدم (يُناظرها في التزييف) ويناقضها تماماً. كانت الأحوال السياسية، في عهد الوزراء من بنو مخلد (النصراني سابقاً) مؤاتية لتطبيق بنود «العهد» وتحقيق شيء من الانفراج (المؤقت) في أوضاع النصارى.

ولعلّ هذا الوضع الجديد هو الذي كان بحال ماري لما كتب هذه الجملة

الأخيرة في ترجمة أنوش: «وحسن رأي المعتمد<sup>(١٨)</sup> في النصارى». ومع ذلك يبدو أنَّ النص يربط تغيير الموقف هذا بهزيمة صاحب الزنج<sup>(١٩)</sup> وموته (٨٨٣/٢٧٠) من بعد ما دُوَّخَ البلاد، ولا سيَّا سواد البصرة منذ العام ٢٥٥.٨٦٨.<sup>(٢٠)</sup>

مات أنوش الجاثليق سنة ٢٣/٢٧٠ أيار ٨٨٤. ولم يبقَ كرسٍيَّ الجاثليق شاغرًا إلا خمسة أشهر ونصف. أراد أعيان النصارى (عبدون بن مخلد، وسلمة بن سعيد<sup>(٢١)</sup>) المقينان بسامراء) منذ البداية انتخاب يوحنا الترسى،<sup>(٢٢)</sup> أسقف الأنبار، من دون التفكير بفرضه على الرعية. ومن أجل صيانة قاعدة الانتخاب وإرضاء لعبدون في الوقت نفسه اختار نفر من الآباء راهبًا من أقارب عبدون مرشحًا ثانِيًّا، علىًّا بأنَّ الثالث كان مطران الموصل.

XII وقعت القرعة على يوحنا. وأضطرَّ الناس إلى إجراه على القبول بالمنصب، ثمَّ سيم جاثليقاً سنة ١٤/٢٧١ كانون الأول ٨٨٤. وقد اشتهر إثر آية حدثت إبان صلاة سياتمه إذ شفيت على الفور فخذل كسرت في الزحام. وبذلك صار له حظٌ من احترام الناس. ولكن بعد بضعة أشهر من الانتخاب،<sup>(٢٣)</sup> أي سنة ٨٨٥، استولى «شُطَّار بغداد» على دير كيليليشوع، الواقع على نهر عيسى (إلى الجنوب من الجانب الغربي من بغداد) ومقرَّ الجاثليقة منذ أيام طبياثاوس. نهبو الأوانى المقدسة وكلَّ ما وقعت عليه أيديهم من التفاصيل، خلعوا الأبواب ونقضوا بعض الجدران ونقبوا السقوف لبيعوا الخشب وموادَّ البناء. عجلَ محمد بن طاهر بإرسال الحسين بن إسماعيل صاحب الشرطة الذي قاتل النهَّاب ومنعهم من تدمير بقيَّة الدير. وسمح للنصارى بإعادة بناء ما تهدم<sup>(٢٤)</sup> بفضل نفوذ عبدون بن مخلد. في السنة التالية، ٨٨٦/٢٧٢، اجتمعَت العامة وهدمت ما كان أعيد بناؤه.<sup>(٢٥)</sup> ويورد المؤرخون لأعمال الشغب هذه أسباباً شتَّى. فإيليا التصيبيني النسطوري ينسب ذلك إلى فورة غضب الشعب على تكبير النصارى الذين لم يحترموا بنود التمايز والذين «كانوا يركبون الخيل»، ومعلوم أنَّ هذا كان حكراً على المسلمين. أمَّا ابن العربي فieri أنَّ السبب المباشر كان بخل الجاثليق. فقد كانت العادة جرت ببذل شيء من المال لشيخ عربيٍّ هو إمام المسجد المجاور «لقليل» الجاثليق. فلما منع الجاثليق ذلك المال، دبر الشيخ وأصحابه مكيدة للجاثليق: رمى بعض المندسین حجارة على

جنازة رجل مسلم، فادعى بأنّ الحجارة جاءت من جهة كليليشوع، فكان أن عادت العامة بعد الدفن إلى الدير... .

من المحتمل أن يكون السببان قد تكاماً، أي أنْ يكون خيلاً النصارى الآثرياء قد أذكى نار السخط وأن يكون حادث الجنازة النقطة التي طفح بها الإناء (كانت الجنائز من أكثر ثقاط الاحتكاك حرارة لأنها كانت من الجانبين ذريعة لاحتلال الشارع).

عمل يوحنا الجاثليق، يعاونه عبدون، على إعادة بناء دير كليليشوع<sup>(٢٦)</sup> ولكنه لم يعد إلى الإقامة فيه قبل نهاية خلافة المعتمد، بل فضل الاستقرار بواسط، بعيداً عن عرش الخلافة، ومكث هناك خمس سنوات. ولما عاد إلى بغداد في أواخر جملقته، أقام بدار الروم، بالكنيسة التي بناها الأصبع العبادي<sup>(٢٧)</sup>. تركت الجملقة إذن جانب دجلة الغربي، أي الكرخ، لتنقل إلى الجانب الشرقي، وتستقر إلى حين في الشهاسية شمالي بغداد. يستغل عبدون كونه أخاً للوزير «فتعدى طوره» وصار يحكم في المسلمين كما نبيّن من شعر<sup>(٢٨)</sup> يستهدفه، في ما يليه:

ويمكِّم عبدون في المسلمين      ومن مثله تؤخذ الجالية  
فهذى الخليفة قد ودعت      وظلت على عرشه خاوية  
فخلَّ الزمان لأوغاده      إلى لعنة الله والهاوية

وقد تجاسر الشاعر نفسه على هجاء صاعد<sup>(٢٩)</sup> الوزير، بقوله:

سَجَدْنَا لِلقرود رجاء دنيا      حَوْتَهَا دوننا أيدي الْفُرُود

هل كان سلوك عبدون سبب سقوط أخيه صاعد، كما أشار إليه لويس ماسينيون؟ على أيّة حال يجوز لنا أن نذهب مذهب سورديل<sup>(٣٠)</sup> في ما استنتاجه من نص الشابشي<sup>(٣١)</sup> إذ قال: «لدينا قناعة بأنّ الموقّف كان يبحث عن ذرائع للتخلص من كتابه». قبض على الأخوين صاعد وعبدون ابني مخلد سنة ٢٧٢ / أواخر ٨٨٥. أمّا صاعد المسلم فقد مات سنة ٢٧٦ / ٨٨٩ من كثرة ما قاسي من عذاب. وأمّا عبدون النصراوي فقد ترّهّب من بعدما أفرج عنه وأقام بدير قني حتى العام ٩٢٢/٣١٠.

وقد لقي يوحنا بن نرسى نفسه بعض المتابع في أواخر جثلقة. يروى ابن العبرى أنَّ الوزير إسحاعيل بن بليل<sup>(٣٢)</sup> استولى على بعض ضياع الجثلقة. فلم يتردد يوحنا في الذهاب لمقابلة ابن بليل. لا نعرف هل استرجع الضياع أم لا، ولكن المحادثة انتهت بشهادة الجاثليق بإيمانه المسيحي.<sup>(٣٣)</sup>

مات الموقَّف سنة ٢٧٨ / ٩١ حزيران، ومات الخليفة المعتمد في السنة التالية / تشرين الأول ٩٢، عن حوالى خمسين سنة، وربما مات مسموماً باسم دَسَّ له خلفه؟

لم يكن له شأن يذكر في سياسة عصره، إذ كان ينفق أيامه في الملذات والملاهي والغناء، وهذا ما يتيح للمسعودي<sup>(٣٤)</sup> فرصة الاستطراد في الكلام عن الغناء والخمور... أما سعيد بن البطريق<sup>(٣٥)</sup> فيقدم خلاصة عن عهده، لا أثر فيها للثناء، إذ يكتب: «واتصلت الحروب والفتنة وزاد فساد البلدان والأمصار وكثير المتغلبون في جميع الدنيا. وكانت أيام خلافته كلها دائمة الفتنة متصلة الحرب».<sup>(٣٦)</sup>

لم يتأخر أجل الجاثليق يوحنا عن أجل الخليفة كثيراً فهما في الفاتح من رمضان ٢٧٩ / ميلاد ٨٩٢. وقد انتهت جثلقة بمعجزة كما بدأت بمعجزة:<sup>(٣٧)</sup> عندما اجتازوا بنعشه في بعض الطرق (هذه المرأة أيضاً سبَّت الجنائز تفاقم السخط!) «بصق عليه رجل مسلم هوى فسقط من وقته» ثم برأ من بعد ما طرحوه ملقى على التابوت.

## الحواشى

(١) «كان المعتمد مستضعفاً»، ابن الطقطقى، ص ٢٠٢. - الصفدي، ج ٦، ص ٢٩٢ - ٢٩٣، رقم ٢٧٨٩.

(٢) ج ٢، العمود ١٩٨ - ٢٠٢.

SOURDEL, *Politique religieuse*, p. 13-15; Vizirat, p. 305-328. (٣)

L. MASSIGNON, *Le mirage byzantin dans le miroir bagdadien d'il y a mille ans*, reproduit dans *Opera Minora*, p 136; Rum à l'est de l'Euphrate, p.p. 403-420. (٤)

(٥) ابن الطقطقى، ص ٢٠٣.

- (٦) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٣، E.I.<sup>2</sup>, II, s.v. p. 598-599, par G. STROHMAIER.
- (٧) ماري، ص ٨١ - ٨٢، صليبا، ص ٧٣ - ٧٤، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٠٦ - ٢٠٨، إيليا النصيبي، الحاشية العربية، ص ٧٣ تحت العام ٢٧٠ وتحت الهجرة.
- (٨) يبدو أن طريقة القتل هذه كانت دارجة في تلك الحقبة، انظر حالة عائلة في العام ٨٥٩/٢٤٥ في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٨٩.
- (٩) ابن أبي أصيبيع، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.
- SOURDEL, *Politique religieuse*, p. 14. (١١)
- Vizirat, passim. (١٢)
- Opera minora*, I (1963), p. 250-257. (١٣)
- (١٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢١ تحت دير عبدون، يقول إنَّه أسلم على يد المؤقِّن. عن دوره انظر: Vizirat, p. 318-322 . كان المسلمين الأقدم عهداً بالإسلام يرتبون قليلاً من حية هؤلاء المتجلدين في الإسلام. فمن ذلك التعليق اللاذع المنسوب إلى الناقد محمد بن القاسم أبي العيناء (ت ٢٨٣/٨٩٢) الذي لما أبصطر إلى الانتظار حتى يفرغ الوزير D.S. MARGOLIOUTH, *Wit and Humour, in Arabic Authors*, p. 525.

- (١٥) التاريخ السعْدي (P.O., XIII, p. 601 et Sq.) المصادر في مقال ماسينيون riens, p. 253, no. 1.
- (١٦) شيخو، المشرق، ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٠٩ - ٦١٨، ٦٧٤ - ٦٨٢.
- (١٧) المصادر في مقال Scribes Nestoriens, p. 253, no. 2 Massignon, TIBAWI, p. 34, 42-43.
- (١٨) يصحح النص الذي يورد «المعتمد».
- (١٩) الذي يسميه ماري (ص ٨١ و ٨٢) «العلوي البصري». ويظهر هذا اللقب بخاصة في كتاب العيون والخدائق في أخبار الحقائق، (ج ٤، القسم الأول، ص ١٤، طبعة عمر السعدي)، دمشق، ١٩٧٢.
- (٢٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٤٢ - ٢١٨٤.
- (٢١) صادفناه منذ ٢٤٨/٨٦٢. وقد تقلَّد، فيها تقلَّد من مناصب على ما قبل، الكتابة لأم المستعين. ويتقدَّه ابن القيم، أحكام، ص ٢٢٠.
- (٢٢) ماري، ص ٨٢ - ٨٣، صليبا، ص ٧٤ - ٨٠، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢١٠ - ٢١٤، إيليا النصيبي، تحت الأعوام ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٩ والhashia العربية ص ٧٤.
- (٢٣) «سبعة» عند ابن العبري، ولكن في العام ٢٧١ (؟).
- (٢٤) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٠٧ - ٢١٠٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢٥) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٠٨، إيليا النصيبي تحت العام ٢٧٢ للهجرة، تبعاً لـ محمد بن يحيى.

(٢٦) يذهب صليباً إلى أن الدير قد هدم ثلاث مرات؟

(٢٧) عن تاريخ هذه الكنيسة انظر مقالتي: Rum à l'Est de L'Euphrate, p. 377-385

(٢٨) ينسبه المسعودي (مروج، الفقرة ٣٤٠٨) إلى علي بن سَام ويجعله في خلافة المقتدر (٩٠٨) - (٩٣٢). وقد كان ابن سَام (ت ٩١٤/٣٠٢) هذا يرى أن الحظوة التي تعم بها النصارى في وزارة بي الفرات شرط من أشرطة الساعة يؤذن بقرب قيامها. وينسب فوات الوفيات (طبعه بيروت، ج ٣، ص ٩٢) إليه هذين البيتين:

إذا حَكَمَ النَّصَارَى فِي الْفُرُوجِ وَسَاهُوا بِالْبَغْالِ وَبِالسَّرُوجِ  
فَقُلْ لِلأَعْوَرِ الدَّجَالِ هَذَا أَوْاسِكَ إِنْ عَزَّمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ

(٢٩) مروج، الفقرة ٣٤١٤.

(٣٠) Vizirat, p. 322.

(٣١) الطبعة الثانية (١٩٦٦)، ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

(٣٢) وزير الخليفة (٢٦٥ - ٢٧٨ - ٨٧٨ - ٨٩١) ثم كاتب المؤقّن أيضاً بعد صاعد بن خلدة (٨٨٥/٢٧٢) Vizirat, p. 315-326. - ونجد في نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٣١٩، آنَّ أعزابياً عائفاً قال لإسماعيل بن بلبل: «قتلت والله المزئ» لما رأى غلاماً لإسماعيل يقتل زبوراً «مزئراً». وفي قول الأعرابي إشارة إلى أصل صاعد في التصرانية.

(٣٣) في البداية حاول أن يتخلص متذرعاً بأنه لم يكن بارغاً في المناظرة، فرد عليه الوزير: «ولم يجعلوك أسفقاً إذن؟» فأجابه يوحنا في تواضع: «لست أهلاً لذلك ولكنكم لم يسمعوا لي». كان آخر ما قاله صحيحًا، ولكن هل كان جاهلاً إلى الحد الذي كان يدعوه؟ يقول صليباً عنه إنه كان «رجالاً مشهوراً بالعلم» (هذا إذا لم يكن كلام صليباً روسيّاً).

(٣٤) مروج، الفقرة ٣٢١٣ وما يليها.

(٣٥) التاريخ المجمع، (Annales CSCO, 51) ص ٦٨.

(٣٦) في خلافته مات (بعيدها عن بغداد) اثنان من أكبر المحدثين، البخاري (ت ٢٥٦ / ٨٧٠) ومسلم (ت ٢٦١ / ٨٧٥)، وقد حدد «صحيحاهما» معلم الحديث والسنة بشكل نهائي.

(٣٧) ثمة معجزة طويلة، توسطت بين الاثنين (يروها صليباً، ص ٧٨ - ٧٧) وهي ظهور البهائيين لتأجر ليحميه من السُّراق الخ. ويجري قسم من القصة في مصر بين يدي ابن طولون (وكاته أبي يعقوب إسحاق بن نصیر) وتنتهي في ديار الروم بتنصر اللصوص الذين أسلّهم التاجر، واسمته أبو نصر بن الصلت.

---

## ١٦ - المعتصد (٢٧٩ - ٨٩٢ / ٢٨٩ - ٩٠٢)

---

خلف أباء الموقف في الوصاية من سنة ٢٧٨/٨٩١ ثم بُويع له بالخلافة سنة ٢٧٩/٨٩٢. كان المعتصد رجل دولة حقيقياً، ورجل إدارة ممتازاً،<sup>(١)</sup> كان قوياً ذكياً، وكان من أبرز خلفاء بني العباس.

يلاحظ دومينيك سورديل<sup>(٢)</sup> أن إجماع المؤرخين على كيل الثناء على المعتصد يعزى في أغلب الأحيان إلى أسباب متباعدة جداً، إذ إنَّ ما سعى إليه قبل كل شيء كان تهدئة الخواطر بالنسبة إلى القضايا السياسية الدينية «التي أثارها، منذ البداية، وصول العباسيين إلى السلطة، والتي هدفت إلى حلها التدابير التي دبرها المأمون فالمتوكل» علىَّا بأنَّ تلك القضايا لم تكن قد فقدت شيئاً من حدتها في ذلك العصر. وقد عکف المعتصد «إجمالاً» على تحسين الحال العامة لا على إزالة الإسامات الفردية فحسب». وتنقل إلينا المصادر النصرانية الشعور نفسه بالنسبة إلى علاقة إدارته بالنصارى: «وظهر من نعم الله على النصارى بحسن رأي المعتصد فيهم ما شكروه وحمدوه عليه».<sup>(٣)</sup>

وقد حسد بعض المسلمين عبد الله بن سليمان<sup>(٤)</sup> كاتب المعتصد على الثقة التي أولاها إياها مولاها واستجرؤوا على التلميح بأنَّ الخليفة «ميسيل إلى النصارى». فلما أطلع المعتصد على الأمر قال: «ما وليت نصرانياً سوى عمر ابن يوسف للأنبار، والجهابذة يهود ومجوس واعتهدت عليهم لثقتهم لا ميلاً إليهم لكن لثقتي بهم». وأضاف مخاطباً كاتبه عبد الله بن سليمان: «إذا وجدت نصرانياً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأنَّ اليهود يتوقعون عودة الملك إليهم وأمن من المسلم لأنَّه

بموافقته لك في الدين يروم الاحتيال على متزلكن وموضعك وآمن من المجروس لأنَّ الملكة كانت فيهم». باختصار، كان النصارى خدمة مثالىن لأنَّهم لم يلوا السلطة في البلاد ولن يتولوها من بعد. وهذا ما غلط فيه المعتصد بالضبط، ظنَّ أنَّ النصارى لا يصيرون إلى هذه السلطة التي لم يلوها قطُّ. ولكن موقفهم من الصليبيين ومن المغول في ما يلي من الأيام سيكشف عن هذه الصبوة.

XIII في خلافة المعتصد، وبعد خلو السدة حوالي سبعة أشهر قُلل الجائفة يوانيس<sup>(٥)</sup> مطران الموصل، الذي سيم جاثيليقاً في ٢٥ ربيع الآخر ١٥٢٨٠ تموز ٨٩٣. وقد دعم ترشيحه الحسين بن عمرو<sup>(٦)</sup> الذي صار من بعد كاتب عليٍّ، ولي عهد المعتصد، ثم كاتبه لما بُويع بالخلافة باسم المكتفي.<sup>(٧)</sup> وسوف نلقاه من بعد. كان الحسين بن عمرو، كغيره من الكتاب من قبله ومن بعده، عرضة لهجاء الشعراء، وقد حفظ ابن الأثير<sup>(٨)</sup> فيه هذه الأبيات (للحسين بن الضحاك الخليع) التي ترقى إلى العام ٢٨٦/١٩٩:

حسين بن عمرو عدو القرآن  
يصنع في العرب ما يصنع  
يقوم لحياته المسلمين  
صفوفاً لفرِيد إذا يطلع  
فإن قيل قد أقبل الجاثيليق  
تحفَّى له ومشى يظلع

هل توقف عند البيت الأول؟ كان الشاعر يعتبر هذا النصارى (وكذلك النصارى؟) عدواً للقرآن.

ثُمَّ نصير آخر من أنصار الجاثيليق أقام له استقبالاً بكنيسة الأصبع بدار الروم، ثمَّ استقبالاً ثانياً بدير كليليشوع بالجانب الغربي من دجلة، إنه فroxhan شاه.

ومن أعمال يوانيس، يذكر أنه وسع محل الإقامة الذي اختاره، في كنيسة الأصبع، بشراء دار الروم التي كانت قد نقلت إليها جالية سهالو، وبasher، بذلك، العملية التي حُولت الكل إلى دير الروم، مقرَّ الجائفة السريانية الشرقية. وقد ساعده عمر بن يوسف، الذي صادفناه من قبل، (بالمال أو بالفود؟) على تملك عبارة «الروم».

مع أنَّ صليباً يصف يوانيس بأنَّه «تَامُ الفضل جامعاً لِلْفَضَالِيَّلِ» فإنَّه يضيف أنَّ الجائيليق «كان شديد الحب للهال». ويوافق ابن العربي على أنَّه كان طهاعاً، ويزيد أنَّه كان نهماً أيضاً. ويذهب ماري (الذى كان نسبياً مثله) إلى أبعد من هذا ليقول: «وكان يأكل كثيراً ويشرب مفرطاً، حتى إنَّ البعض كانوا يحملونه على الشرب ليروا ما يصنع إذا ما سكر».

أصيب يوانيس بسكتة عُمُرَ بعدها سنة، ثم مات في غرة شعبان ٢٨٦ / ٩ أيلول ٨٩٩.

## نصارى قرب العرش

نجد في بطانة الخليفة المعتصم، كما في بطانة من قبله، أطباء نصارى. وكان أشهر هؤلاء غالباً<sup>(٩)</sup> الذي طب الموقف من قبل. كان في خدمة غالباً المتتبّب سبعون غلاماً، كلهم نصارى، بلا شك، لأنَّه كان يحظر على النصارى الخداج الغلمان من المسلمين.

وقد اتهم أحد هؤلاء الغلمان بشتم النبي<sup>(١٠)</sup>. إلا أنَّ مركز الطبيب كان من القوة بحيث لم يتجرأ أحد من المسؤولين المسلمين على إقامة الحد على المتهם. فأحال المدعون من باب إلى باب حتى اجتمعوا على القاسم بن عبد الله<sup>(١١)</sup> ثم على المعتصم. ويذهب ابن العربي إلى أنَّ الخليفة قال: «العرب كذبة» ويعث بعض العسكر ليخلصوا الغلام. أما ابن الأثير فيروي أنَّ الخليفة بعث المدعين إلى القاضي البارع أبي عمر<sup>(١٢)</sup> الذي «دخل باباً وأغلقه ولم يكن بعد ذلك للخادم ذكر ولا للعامة ذكر اجتماع في أمره».

ولما مات غالباً المتتبّب بأمد سنة ٢٨٧ / ٩٠٠، كان الخليفة بها مع مؤسس فشرا فاه بحضور دفنه.

كان ابن الميت، أبو عثمان سعيد،<sup>(١٣)</sup> طبيباً أيضاً وعاش ببغداد حتى جمادى الآخرة سنة ٣٠٧ / أواخر تشرين الثاني ٩١٩.

ويشير عريب بن سعد القرطبي، صاحب صلة تاريخ الطبرى<sup>(١٤)</sup> إلى نفوذ

النصارى في هذه الحقبة أيضًا: للترقي في المجتمع كان لا بدًّ للمرء، في ما قال، من أن يذكر بعلاقاته بالنصارى قائلًا: «إِنَّ أَهْلِي مِنْكُمْ وَأَجْدَادِي مِنْ كَبَارِكُمْ» ويروى الكاتب خبرًا وقع بحدَّ الحسين بن القاسم الوزير مفاده: «أَنَّ صَلِيلًا وَقَعَ مِنْ يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَيْهِ<sup>(١٥)</sup> جَدُّهُ، فِي أَيَّامِ الْمُعْتَضِدِ فَلَمَّا رَأَاهُ النَّاسُ قَالَ: هَذَا شَيْءٌ تَتَبَرَّكُ بِهِ عَجَائِزُنَا فَتَجْعَلُهُ فِي ثِيَابِنَا مِنْ حِثَّ لَا نَعْلَمُ». تَؤَكِّدُ هَذِهِ الإِشَارةُ الْأُخْرَى أَنَّ نِسَاءَ هَذِهِ الْأُسْرَةِ لَمْ يَكُنْ قَدْ دَخَلْنَ الْإِسْلَامَ بَعْدَهُ. وَقَدْ رَأَيْنَا سَابِقًا أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ لَهُنَّ بِمَهَارَسَةِ شِعَائِرِ دِينِهِنَّ بِحَرَيْهَةِ .

يجدر بنا أن نلتفت مع ذلك إلى وضع الكتاب النصارى الخرج، في هذه الخلافة كما في التي قبلها، إذا مال الدهر على أسيادهم المنقسمين على بعضهم. لما كسر المعتضد حدان بن حدون في المحرم من العام ٢٨٢ / أو اخر آذار ٨٩٥، هرب حدان مع كاتبه النصراوي ذكريًا بن يحيى. عبر الاثنان دجلة معاً واحتبا في بعض الأديرة (كان وضع الأديرة حرجًا أيضًا) ثم هربا ثانية في مركب حتى قضى عليهما معاً.<sup>(١٦)</sup>

ويبين الخبر التالي أن النصارى في عهد المعتضد تسللوا حتى إلى صفوف الأشباح: فقد كان في جملة الأشباح التي كانت تتراءى لل الخليفة راهب أبيض اللحية.<sup>(١٧)</sup>

#### XIV يوحنا بن الأعرج

كان المعتضد لا يزال على عرش الخلافة لما مات الجاثليق يوانيس، في شعبان ٢٨٦ / الأحد ٩ أيلول ٨٩٩. ظلّ كرسى الجاثلقة حالياً مدة سنة إثر مكيدة لا تكاد تصدق ولا كانت لتعينا مباشرة هنا لو لا أن الجاثليق المنتخب قانونياً يوحنا بن عيسى (أو بن مرتا)<sup>(١٨)</sup> لم يلقَ معارضه عنيفة من قبل مطران الموصل يوحنا بن بختишوع المتطبّب، ولو لا أن الفريقين لم يمحشا كلّ أعوانهما في الدواوين من بين نصارى و المسلمين.

أهم الشخصيات هم الخليفة المعتضد وبدر الأمير النافذ الأمر الذي ولـي النظر

في المظالم<sup>(١٩)</sup> في ذلك الوقت. أمّا عبيد الله بن سليمان فكان لا يزال في الوزارة (٢٧٩ - ٢٨٨ / تشرين الأول ٨٩٢ - نيسان ٩٠١)، والواقع أنَّ ابنه القاسم كان ينوب عنه في غالب الأحيان (قبل أن يخلفه) «وكان يُكلِّف عادة بعرض الطلبات على الخليفة والعمل كاتبًا في خدمة بدر»<sup>(٢٠)</sup>.

أجرى بدر التحقيق في إنصاف تام. أمّا أعيان النصارى الذين استجوا بهم فلم يُسمّوا كلُّهم. ومع ذلك نجد أسماء: - كاتبه، مالك بن الوليد<sup>(٢١)</sup>. -

- آخرين طيبين من بنى أسلم، كانوا يسكنان بالزعفرانية على بعد ١٨ كلم إلى الجنوب من بغداد وفي منتصف الطريق إلى المدائن.

- داود بن سلم، غير معروف، إلا أن يكون أحد الاثنين السابقين أو أن يكون الطبيب داود بن ديلم<sup>(٢٢)</sup> الذي يذكره ابن العربي.

بعد المشاورات الفردية، عقد بدر جلسة عامة ضمّت الجاثليق المنتخب ومنافسه والأساقفة والكتاب والأطباء. وقد كان من شأن غموض القانون الكشبي السرياني الشرقي في ما يتعلّق بانتخاب الجاثليق، ولا سيما افتقاره إلى تحديد واضح لدور العلمانيين، أن دفع بعض الأطباء إلى تدخل حاسم: «إلينا نحن البغداديين يعود انتخاب منْ نريد وما الأساقفة إلا أدوات يتم بهم الأمر».

يبدو أنَّ الأخبار توصلوا إلى إقناع الأمير بأنَّ دورهم لم يكن يقتصر على التنفيذ. ثم تبيّن أيضًا أنَّ يوحنا بن بختيشوع قد حبس زميله مطران جنديسابور، الذي كان يعتبر السايم الأول شرعيًا، ليمنعه من الانتخاب. على أية حال كانت نتيجة الانتخاب مؤكدة قانونيًّا: فاز يوحنا بن عيسى.

ولما طالت المناقشة إلى ما بعد صلاة المغرب قُدِّم طعام الإفطار للمجتمعين (لأنَّ ذلك كان في صوم رمضان) واستمرّت المناقشة. وقد أصرَّ بدر على السؤال: لا يجوز القبول بيوحنا بن بختيشوع؟ ثم تسأله القاسم بن عبيد الله عن المزايا المطلوبة في المرشح ليصير جاثليقًا. فأجابه ابن بختيشوع: العلم أولًا. وقد أتاح هذا الجواب الفرصة لمالك وداود ليقولا له: « فهو أعلم منك...». أخيرًا اقترب الجمع

من الأسباب الحقيقة المانعة من اختيار ابن بختي Shaw, فقال أحد الأساقفة: «لا يصلح لنا جاثليق يلعب بالكلاب والقرود» (وفي ذلك تعريض بسيرة مطران الموصل الدينيوية). ولكن كان ثمة أمر آخر. ولما حشر الأساقفة في آخر معاقلهم أقرّوا بالمانع القانوني: كان ابن بختي Shaw ابن سفاح مولوداً من سرية لأبيه ولذلك لم يكن أهلاً للمناصب الكنسية. عندها ردّ عليهم القاسم: «فِلَمْ جعلتموه على الموصل مطراناً؟» فوجدوا لذلك مخرجاً وقالوا: «اختاره أهل الموصل وهم لا يعلمون ولا علموا ذلك تندموا». تظاهر المحققون بالقناعة وعدل بدر ابن بختي Shaw على جراءته.

ولما كان من غد ذلك اليوم وافق الخليفة على حكم الأمير، وصار من الممكن سيامة يوحنا برأبجر. حرّد ابن بختي Shaw مدة عند أصحابه الأطباء بالزغرافية. إلا أنه حضر السيامة في ١٣ رمضان ٢٨٧ / الخميس ١١ أيلول ٩٠٠.<sup>(٢٣)</sup>

إن العهد الذي قطعه الجاثليق الجديد على نفسه أمام الرعية يخنق بسياسة الأمور الداخلية للكنيسة وربما خرج عن نطاق موضوعنا، لو لا أنه يفضح آفة ذلك الزمن: الرشوة والفساد العام، وفي الكنيسة الاتّجار بالدين.

مات المعتصد سنة ٩٠٢/٢٨٩ ومُدّ في أجل يوحنا بن الأعرج ثلاث سنوات أخرى.

## الحواشي

(١) ابن الطقطقي، ص ٢٠٧ .

(٢) *Politique religieuse*, p. 15-21

(٣) ماري، ص ٨٤ .

(٤) نجد فيما بعد، ص ٩٣، أنه حرّر قرار الخليفة في شأن ميراث الدينين. هل هو ابن الطبرى الذي ختم حياته كمؤذب للمعتصد، على ما يرويه التوخي؟ الفرج (طبعة الشابلي)، ج ٣، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٥) ماري، ص ٨٣ - ٨٥، صليباً، ص ٨٠ - ٨١. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢١٨ - ٢٢٢، إيليا الصبيّي، تحت العام ٢٨٦، ٢٨٦ والحادية العربية ص ٧٤ .

- (٦) ماري، الحسن بن عمر، SOURDEL, *Vizirat abbaside*: الحسين بن عمرو، ص ٣٣١ .
- الخاشية رقم ٦، ص ٣٥٣ - ٣٥٤، ٧٣٧ .
- (٧) الطبرى، ج ٣، ٢١٤١، ٢١٨٨، ٢٢٠٧، ٢٢٢٤، ٢٢٣٠ .
- (٨) الكامل، ج ٧، ص ٤٩٥ .
- (٩) ابن أبي أصييعة، ص ٣١١ - ٣١٢ .
- (١٠) الكامل، ج ٧، ص ٤٨٤ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٧ .
- (١١) إذا كان الحادث قد وقع سنة ٢٨٤/٨٩٧، فإن القاسم لم يكن قد صار بعد وزيراً، Vizi-  
rat, p.373
- (١٢) محمد بن يوسف بن يعقوب الحمادي. انظر: MASSIGNON, *Passion*<sup>2</sup>, p. 482-485
- (١٣) أنظر مراجع عنه في الأعلام للزركي، ج ٣، ص ١٥٢ . يضاف إليها ابن أبي أصييعة، ص ٣١٢ .
- (١٤) ص ١٤٢ .
- (١٥) وزر من ٢٧٩ إلى ٢٨٨ ، انظر أيضاً: BOWEN p. 302
- (١٦) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٤٥ .
- (١٧) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٣١٩، في العام ٢٨٣/٨٩٦ .
- (١٨) ماري، ص ٨٥ - ٨٩، صلبيا، ص ٨١ - ٨٤ . ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٢٢ - ٢٣٠ . إيليا التصيبي، تحت العام ٢٨٧، ٢٩٢ والخاشية العربية ص ٧٤ .
- (١٩) Vizirat, p. 341
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٣٢ .
- (٢١) راجع Vizirat, p. 395, 437 no. 4, 440 . كان في خدمة عبدالله، نائباً عن أبيه، الخاقاني (٩١٢ - ٩١٣) وفي القصر سنة ٩٢٤ ويفرز البريد لأحمد الخصيبي ٩٢٥ - ٩٢٧ .
- (٢٢) الصيفي، ج ١٣، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠، (ت ٣٢٩ هـ)، وديلم، المصدر نفسه ج ١٤، ص ٣٤، الفقرة ٢٩ .
- (٢٣) يصحح نص صلبيا العربي ص ٨٣ س ٤، حيث يجب أن يكون اسم الخليفة المعتمد بدلاً من المعتمد. وقد صححت أناأساء عدّة حسب المصادر الإسلامية منها القاسم بدلاً من قسم، مالك بدلاً من ملك، الخ.

---

## ١٧ - المكتفي (٢٨٩ - ٩٠٢ / ٢٩٥ - ٩٠٨)

---

كان أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد مقيناً بالرقة مع كاتبه الحسين بن عمرو النصراني لما وصله الخبر بوفاة أبيه ببغداد.<sup>(١)</sup>

سار الخليفة الجديد في سياساته الدينية «مقتفياً فعال أبيه»<sup>(٢)</sup> حتى في شؤون النصارى. وقد ورث عن أبيه أيضاً القاسم بن عبد الله الوزير الذي غلب عليه كلّياً.<sup>(٣)</sup> وكان المكتفي على وجه الإجمال سمحاً: فقد «أمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس».

ويبدو أنَّ النصارى استمرُّوا في القيام بوظائفهم في مختلف الدواعين.<sup>(٤)</sup> وقد ساق ذلك الأمير الشاعر ابن المعتز (ت ٢٩٦ / ٩٠٨) إلى القول، وقد سئم من صدود الوزراء والكتاب عنه، بعد ما كاتبهم في حواجه نظماً ونثراً:

أَفَمَا تَرَى بِلَدًا أَقْمَتُ بِهِ أَعْلَى مَسَاكِنِ أَهْلِهِ خُصُّ  
وَوَلَائِهِ تَبَطَّ زَنَادِقَةَ مَلَائِي الْبُطُونِ، وَأَهْلُهُ خُصُّ<sup>(٥)</sup>

أما الذي كثُر الحديث عنه من بين الكتاب النصارى فهو الحسين بن عمرو كاتب الخليفة ونديه.<sup>(٦)</sup> كان قهرمان المكتفي، وقتها كان ولِيَ العهد، بالريَّ سنة ٢٨١ / ٨٩٤. ثم قُلِّده المعتضد سنة ٢٨٦ / ٨٩٩ النظر في أعمال آمد. وقد لازم المكتفي منقد توليه الخلافة سنة ٢٨٩ / ٩٠٢.

كان كاتب ضياع الولد والحرير والنفقات، وكاتب ابن الخليفة، حتى كاد أن يصير وزيراً فعلياً، تحت ستار كاتبه المسلم إبراهيم بن حдан الشيرازي، لما سعى

القاسم بن عبیدالله لدی الخليفة فی نکبته، سنه ٩٠٣/٢٩٠، علی اختلاف الروایة فی ما آل إلیه أمره. إذ تذهب رواية الطبری المخففة إلی أنه حُبس ثم نُفي ، أما رواية التنوخي فتذهب إلی أنه نُفي إلی الأهواز ثم أعدم.

بين حرب وحرب (ضد القرامطة، الروم، الطولونیین الذين دالت دولتهم . . .) كانت الحياة تحری ببغداد ناعمة متوفة. وقد سجل ابن العبری الملکوب الذي لعبه بعضهم سنة ٩٠٢ علی ابن الخليفة، جعفر، الذي كان مولعاً بالتنجيم. فقد طلب إلیه فأل «مولود»، ولد في ذلك اليوم، وبعدهما تبخر الأمیر في النبؤ بمستقبله قيل له إنّ «المولود» لم يكن إلا . . هریر.

إستمر الأطباء النقلة في أعمالهم. وكان من أشهرهم في تلك الحقبة يوسف القس الملکب بالساهر، وقد فسر البعض قلة نومه بورم في دماغه. <sup>(٧)</sup>

على أنّ شخصیات الدرجة الأولى اختفت قبل موت الجاثليق يوحنا بن الأعرج . بعد نکبة الحسين بن عمرو الكاتب، فقد الطبيب أبو يعقوب إسحق بن حنين العظيم، في تشرين الثاني ٩٠٤، نصیره القاسم بن عبیدالله الوزیر الذي كان «يفشي إلیه أسراره» ويکاته نظمًا. <sup>(٨)</sup>

وقبل سنة من وفاة الوزیر عقدت في دیوانه مناظرة فی: «أی الأطباء كان الأقدم والقدم؟» جمعت أبا العباس بن فراس (?) وأبا العباس عبد الله بن شمعون الذي «كان متضلعًا من علوم الأقدمين». وقد كانت مناسبة ليكتب إسحق بن حنين كتابه في تاريخ الأطباء، <sup>(٩)</sup> المستلهم من بحثي النحوی، ويكتب أيضًا لعبد الله بن شمعون «مقالة في الأشياء التي تفيد الصحة والحفظ وتعن النسيان». <sup>(١٠)</sup>

مات يوحنا بن الأبجر الجاثليق في ٨ رجب ٢٩٢ / ١٦ أيار ٩٠٥. وكان قد ظلّ وفياً للعهد الذي أخذه على نفسه ولم يمس، عمره كله ديناراً ولا درهماً، بل كان يفرق واردات القلية على ذوي الفاقة والمحاجين.

لم يعد على المسرح أحد من كبار منظمي المعارك الانتخابية، ولا يبدو أنّ الحکام كانوا يبالون باختيار خلف له. أما الذي انتخب بعد خلو السدة لفترة عشرة أشهر فكان

كان إبراهيم على الصدّ من سلفه، إذ لم ينتخب إلاًّ بعدهما فرق رشى سخية في الأساقفة المنتخبين (من مال صرّة صارت إليه بصورة غير متوقعة) وإثر تدخل عبد الله بن شمعون الكاتب الذي رأيَناه من قبل نصيراً لإسحق بن حنين.

إنْ جثلقة إبراهيم الطويلة (٣٢ سنة) التي بدأت في خلافة المكتفي قد طوت خلافتي المقتدر والقاهر لتنتهي في حزيران ٩٣٧، تحت خلافة الراضي. وكما يقول ماري «تقلبت على أيامه الدول»، وسوف نرى في ما يلي كيف كان ذلك.

### النصير المُبَعد

في خلافة المكتفي، على ما قيل، تخلّص إبراهيم من وصاية عبد الله بن شمعون الكاتب الذي كان رجُح انتخابه.

وكان هذا الكاتب قد اشترط عليه شروطاً ثلاثة ليمنحه التأييد:

- أن لا يعيد الجاثيُّ تادوروس، مطران باجرمي المعزول إلى كرسيه.
- أن يرفع مجلس عبد الله بن شمعون إذا حضر.
- أن يشاوره في ما يعقده ويحمله.

ظلّ الشرطان الأخيران حبراً على ورق، أمّا الشرط الأول فقد خرق بشكل فاضح: ذلك أنه بعدهما أقصى إبراهيم المطران فترة إلى دير الأنبار، أعاده إلى كرسى باجرمي (داقوق - كركوك).

بدأ الكاتب بالإعراب عن سخطه بأن كفَّ عن تناول القربان من يد الجاثيُّ مع استمراره في حضور الصلوات بالكنيسة. ولما لامه الجاثيُّ قال إنَّ ذلك يستحيل عليه ما ذكر اسم إبراهيم في سفر الأحياء.

بعد مدة، ذهب إلى أبعد من هذا وانتقل إلى مذهب الملكانية، ووصلهم جهراً بالهبات الكثيرة وأسدى إليهم خدمات شتى.

ويجب أن ننتظر حتى العام ٩٢٠ لنسمع شيئاً جديداً عن عبدالله بن شمعون الكاتب، وذلك لما نسبت داره<sup>(١٢)</sup> ببغداد إلى شعب العامة في خلافة المقتدر.

### قضية تادوروس

إنتهت قضية تادوروس، المطران الذي أعاده إبراهيم عسفاً إلى كرسى باجرمي، نهاية تعسة. ربما لم يُرد الجاثليق الطيب القلب أن يصدق ما كان رُميَ به المطران من تهم ولكنَّه اضطرَّ إلى تصديق ذلك لما ذهب إلى داره واستقبلته عشيقه المطران ولم تكتم عنه علاقتها بتادوروس. حاول المذنب الاستغاثة بالحسن بن وهب، أخي الوزير القاسم بن عبيد الله، ليتمكن من الإدانة. ولما أعلن حرماته في كنائس بغداد وكنائس رعيته «قطع زناه».

لم يكن في وسع السلطات المدنية إلا أن تعلن رضاها رسمياً عن إسلام المطران. إلا أن علياً بن عيسى<sup>(١٣)</sup> أمر بالحطّ من الرزق الذي يُجرى على المسلم المتجدد، قال: «هذا كان في الكفر زاهداً(؟) وفي دين الإسلام يجب أن يكون أعظم زهادة». فلما عصى أهل شهرزور كتب تادوروس رقعة تضمن فتحها، ولما وقف على الرقعة علي بن الحسين(؟)، أحضره وقرره أنها رقعته، فلما أقرَ قال له: «يا ملعون، ما أردت قبحك الله بالإسلام التدين به، لكن كيما تخرج ما في نفسك على المسلمين، وإنما فأنت من قواد الجيوش وأهل الحرب»، ومنع مما كان يُجرى عليه من الرزق. فعاش من التطهُّب بباب النبي ومن صدقات إبراهيم الجاثليق، ثم مات في بعض السُّبل.<sup>(١٤)</sup>

### الحواشي

(١) الطبرى، ج ٣، ص ٢٢٠٧.

(٢) المسعودى، التنبيه، ص ٣٧١.

(٣) المسعودى، مروج، الفقرة ٣٣٥٨.

(٤) ولم يُثُلْ هذا دون استمرار النصارى في دخول الإسلام على عهده، ومنهم مثال البلاغة قدامة بن جعفر، الفهرست، ص ١٣٠.

- (٥) ديوانه، بيروت، د.ت.، ص ٢٨٥ ، مذكور في المضاربة الإسلامية في القرن الرابع لأدم متز، ج ١، ص ١٦٢ .
- (٦) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٤٠ ، ٢١٨٨ ، ٢٢٠٧ ، ٢٢٢٤ ، ٢٢٣١ ، Vizirat, p. 331 no. 6. BOWEN, Ali b. 'Isa, p. 59 ٣٥٣-٣٥٤
- (٧) ابن أبي أصيبيع، ص ٢٧٨ ، ابن القفطى، ص ٢٥٦ .
- (٨) انظر المصادر في شعراء النصرانية بعد الإسلام، لشيخو، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ ، توفي سنة ٢٩٨ - .
- (٩) تجد النص مع ترجمته الانكليزية بقلم فرانز روزنثال في: Oriens, VII (1954), p. 55-80
- (١٠) ابن أبي أصيبيع، ص ٢٧٥ .
- (١١) ماري، ص ٨٩ - ٩٤ ، صلبيا، ص ٨٣ - ٨٤ ، ابن العبرى، ج ٢ ، العمود ٢٢٩ - ٢٤٥ إيليا التصيبينى، تحت العام ٣١٠ للهجرة والخاتمة العربية ص ٧٤ - ٧٥ . - اقتبس في هذا الفصل بعض المعطيات من سيرة إبراهيم الثالث في: O.C.P. XLIV (1978) p. 420- 441
- (١٢) تاريخ الزمان، ص ٥٣ .
- (١٣) لمن كان وقتل وزيراً فهذا يعني أن القضية تمادت حتى عهد المقترن بين ٣٠٤ و ٩١٣ / ٣٠١ - ٩١٧ .
- (١٤) التفاصيل في سيرة إبراهيم الثالث.

---

## ١٨ - المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠ - ٩٣٢)

---

كان أبو الفضل جعفر المقتدر بالله<sup>(١)</sup> بن المعتصم في الثالثة عشرة من عمره لما أخذت له البيعة بالخلافة. وقد تقاسمت السلطة النساء، كما هو متوقع، ولا سيما أمّه شَغَب<sup>(٢)</sup> الرومية، والقهرمانات أم موسى<sup>(٣)</sup> أو ثمل الدُّلْفِيَّة، والخصيان الذين صار بعضهم قادة عسكراً، كمؤنس، وغيرهم من الشخصيات، وبخاصة الوزراء، الذي نرى منهم خمسة عشر وزيراً يتعاقبون في عهده.<sup>(٤)</sup> من وجهة النظر الدينية، كانت حياته الشخصية «دنياوية جداً». ويرى ماسينيون أنّ «نفسية المقتدر بقيت نفسية ولدٍ أريبٍ ناضج قبل أوانه، صاحب نزوات نهم، لا صبر له على العمل ولا صبر له عن اللذائف، واضح الاهتمام برسوم دار الخلافة وأداب المعاشرة، قادر على البت في أمور الدولة إذا كان صاحياً، متضجّر متقلب المزاج، لا هم له ولا همة عظيمة...».

إنَّ أول ما يطالعنا من الشؤون المتعلقة بالنصارى في خلافة المقتدر، هو شأن علميٌّ: في حوالي هذه الفترة قدم إلى بغداد من مرو يوحنا بن حيلان الفيلسوف النسطوري المعروف بأنه كان معلم الفارابي.<sup>(٥)</sup>

مع ذلك شهدت بداية هذا العهد هبة رسمية ضد النصارى في العام ٩٠٨/٢٩٥ على قول ابن القيم،<sup>(٦)</sup> أو في العام ٩٠٩/٢٩٦ على قول عريب القرطبي<sup>(٧)</sup> وابن تغري بردي<sup>(٨)</sup> وابن كثير،<sup>(٩)</sup> إلخ. فقد نصَّ أمر من الخليفة بإبعاد النصارى واليهود عن كتابة الدواوين وحصرهم في الصيرفة والطبّ وفرض عليهم لبس الغيار وغيره من العلامات المميزة في زي الشباب وقد أعدم أبو ياسر النصراني كاتب مؤنس<sup>(١٠)</sup> الخادم، في ما قيل.

ما كانت دواعي هذا الأمر؟ يقول لنا عريب: «وكان النصارى في آخر أيام العباس بن الحسن قد علا أمرهم وغلب عليهم الكتاب منهم، فرُفع في أمرهم إلى المقتدر، فعهد إليهم بنحو ما كان عهد به المتوكّل من رفضهم واطراحهم وإسقاطهم عن الخدمة، ثم لم يدم ذلك فيهم».

والحق أنَّ ابن الفرات الوزير الجديد نفسه، كان له أربعة نداماء من النصارى<sup>(١١)</sup> هم: أبو بشير عبدالله بن الفروخان<sup>(١٢)</sup>، أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري، أبو منصور عبدالله بن جبير وأبو عمرو سعيد بن الفروخان، هذا عدا عن النصارى الذين كانوا في خدمته.

بدينه أن يشاطر هؤلاء الموالي مولاهم في السراء والضراء. من ذلك ما يرويه التنوخي<sup>(١٣)</sup> من نكبة أبي منصور عبدالله بن جبير لدى عزل ابن الفرات عن وزارته الأولى سنة ٢٩٩ / توز ٩١٢. فمن بعدهما حبس أبي منصور طلب منه مال. وإذا أبي جيء بحلاق وكلف بأن ينتف بالمناقش ربع شعر رأسه. ولما لم يتنازل أمر الحلاق بتتف الرابع الثاني. ولكن الكاتب توصل إلى رشو الحلاق حتى يكتفي بحلق هذا القسم من رأسه. فُسُكِّبَ القير على الجرح ولكن القير لم يكن مفرط الحرارة (هل دفع رشاً أخرى؟). عنثدي أقر بدفع سبعين ألف دينار. ثم عابجه الحلاق بالزيت، إلا أنَّ القسم المتوف بقي «إلى الآن»، على قول التنوخي.

لنعد إلى العام ٩٠٨ - ٩٠٩، والأمر القاضي بمنع استخدام النصارى في الدواوين. ما كانت نتائجه؟ ربما عاد إلى هذه المناسبة إسلام أبي زكريا سعيد السوسي، المسمى بخلف. «وكان نصراً في حداثته، على قول التنوخي، (١٤) ولكنه أسلم وحسن إسلامه». وهو يذكر في العام ٩٢٠ / ٣٠٨ كرجل مسموع الكلمة عند السلطان، ويذكر أنه جمع ثروة عظيمة ولم يفقد شيئاً من مزاياه، ويؤثر عنه أنه كان تقىً.

ومع ذلك نستمر في رؤية الكتاب النصارى. في جنادي الآخرة / ٢٩٦ منتصف شباط ٩٠٩ خلعت خلعة على ابن دليل الذي كان آنذاك كاتب محمد بن أبي الساج. (١٥)

ويضع ابن العربي هنا،<sup>(١٦)</sup> في العام ٢٩٩ - ٩١٢، خبراً عن المقتدر الذي فرق ألف دينار ذهباً على جواريه المغنيات. وإذا طالب الترك بأرزاقهم فلم يجدوها انهالوا على الكتاب والأغنياء بالتعذيب ليستخلصوا منهم الأموال. ولما كان ابن العربي قد ارتكب هنها مفارقة تاريخية بالنسبة إلى هذه السنوات،<sup>(١٧)</sup> سنكتفي بالنظر إلى الحادث من دون الالتفات إلى تاريخه. لئن كان الحادث قد وقع بعد عشر سنوات من الفقرة السابقة التي تصف البيعة للمقتدر بالخلافة، فلا بد أن يكون الخليفة في الثالثة والعشرين من عمره وبذلك تكون في العام ٣٠٥ / ٩١٧ (؟) وعلى أيّة حال ليس ثمة من ذكر لكون الكتاب الذين عذبوه من النصارى تحديداً.

### لا محل إلا لخبر واحد ببغداد

إن نفوذ الجاثليق إبراهيم في قصر المقتدر يقاس بالقرار الذي استحصل عليه سنة ٣٠١ / ٩١٣، ضد بطريرك الروم الملكانيين الياس الأول الذي قدم إلى بغداد لسيامة أسقف لإيرينوبوليس (مدينة السلام).<sup>(١٨)</sup> وما المكائد التي سبقت ظفر الجاثليق إلا المكائد المعروفة بين ملتين متحاربتين: اتهامات متبادلة بالتجسس، ملاحظات الوزير علي بن عيسى الضجرة: «أنتم النصارى كلّكم سواء في الحق الذي تضمرونه لنا، ولا تخجّونا إلا مراءة»، أو ردود الكاتب النصراوي اصطفن بن يعقوب (صاحب بيت مال الخاصة عند مؤنس الخادم) الذي قال للوزير: «أنت لا تفرق بيننا عندما تشتهي سفك دمائنا». رشا (من جهة النساطرة فحسب) وصلت حتى الثلاثين ألف دينار، وربما رعاية السيدة والدة المقتدر بفضل أقارب غالب المتطلب، وفيهم المرضعات... لعبت هذه العناصر المتضاربة كلها حتى غلب إبراهيم: فرض الوزير غرامة على الياس وأخذ توقيعه بأنه لا يحق له أبداً التلقب بلقب الجاثليق ببغداد ولا بتسمية مطران مقيم بها. وقد شكلَ عهد المقتدر لإبراهيم اعتراضاً بتفضيل جاثليق النساطرة على غيره من الرؤساء الدينيين النصارى من يعاقبة وملكانية. وسوف ننظر من بعد في هل نستطيع اعتبار هذا العهد «اعترافاً» حقيقياً بشرعية الكنيسة النسطورية، وفي ما كان يعنيه هذا العهد بالنسبة إلى موقف السلطة الإسلامية في ذلك الزمن.

... تعاقب الوزراء يقولون ويخلعون بمكائد الحريم والحرس البريتوري الرومي: وفي وزارة الحاقداني<sup>(١٩)</sup> (٢٩٩ - ٩١٢/٣٠١) نصادف مرّة ثانية الكاتب النصراني مالك بن الوليد، في عداد الذين يعوّل عليهم في المهام عبدالله أخو الوزير<sup>(٢٠)</sup> ونائبه.

لنأتكلم هنا عن العزائين النفسي والجسدي (من حيث الإفراج عن المساجين) اللذين جاءت بهما للملوكانية بخاصة سفارات الروم إلى المقتدر، وذلك لأنني استفضلت في الكلام عنها في مقالتي Rum à l'est de l'Euphrate. إن البذخ الذي استقبلت به سفارة العام ٩١٧ غودج لصفة تلك الأعياد.<sup>(٢١)</sup>

مع ذلك، فقد تولّى الوزارة رجل يتحدر من آباء نصارى هو علي بن عيسى الجراح الذي تقلّد الوزارة من ٩١٣ حتى ٩١٧، ثم من ٩٢٧ حتى ٩٢٨. وينذهب ابن العربي إلى أنّ هذا الوزير كان يضمّر حقداً حقيقياً على الجاثليق إبراهيم. وأنه عمل كلّ ما استطاع عمله ليجرّده من امتيازاته.<sup>(٢٢)</sup>

ربما كان الجاثليق قد أساء التصرف مع الوزير إذ سأله الوزير: «من هم النصارى الذين يتناولون القربان بالملعقة؟» أجاب إبراهيم «قد تعلم أحهم غير النساطرة»، ملمحًا بذلك إلى نسببني الجراح<sup>(٢٣)</sup> في النصارى. يقال إنّ هذا الجواب الذي اعتبره الوزير جارحًا كان في أصل العداوة بين الوزير والجاثليق. وقد صار النصارى يكرهون الجاثليق لأنّ الوزير كان يكرههم بسببه» على قول ابن العربي.

ويروي ابن القسطي<sup>(٢٤)</sup> في هذا الشأن قصة ذات مغزى. لما كان الطاعون بالسوداد، وكان الأطباء لا يكفون للقيام بالعمل، طلب سنان بن ثابت بعض التعليمات من الوزير: هل يجب أن يعالج الذمّيون والدواب فضلاً عن المسلمين. فأجاب الوزير: «الناس قبل البهائم والمسلمون قبل أهل الذمة». ومع ذلك يجوز لنا أن نخمن أن الأطباء النصارى قد استفادوا من رعاية السيدة أمّ المقتدر التي أنشأت أربعة بيمارستانات في بغداد.<sup>(٢٥)</sup>

في خضم الصراعات على التفوّذ في تلك الحقبة كان النصارى ينعمون تارة

بالمال والجاه وتارة يحرمون من كل شيء أو حتى يُقتلون تبعاً لمصير مولاهם. فمن ذلك أنّ نديماً نصرايَا آخر من ندماء ابن الفرات، هو أبو الحسن سعيد بن إبراهيم التستري (وربما غيره من الندماء أيضاً) قُبض للمرة الأولى مع مولاه سنة ٩١٨/٣٠٦. وعاد إلى السلطة سنة ٩٢١/٣١١. ثم قُبض على التستري مرة ثانية مع ابن الفرات سنة ٩٢٢/٣١٢، وأعدم الوزير. ولا نعلم هل لقي كاتبه المصير نفسه. (٢٦)

في العام ٩٢٠/٣٠٨، إذا صَحَ تاريخ ابن العبري (؟) وقع شغب ببغداد (بسبب ارتفاع الأسعار فيها يبدأ) فخلعت أبواب السجون وأطلق اللصوص وال مجرمون، فاعتدوا على النصارى (وبحدهم؟) ونبت بعض دور الكتاب، ومنها دار عبدالله بن شمعون. فواقعهم صاحب بغداد، فقطعت أيدي المجرمين. (٢٧)

لذكر في هذا التاريخ ٩٢٢/٣٠٩، مأساة الحالج. من بين المصادر النصرانية يذكر ابن العبري في تاريخ الزمان (٢٨) أنه: «أُلقي القبض على زاهد عربي في بغداد يُقال له الحالج أدعى أنه إله متجسد وصار يتظاهر بأنه يتحرج المعجزات. فأمر الخليفة بجلده ألف جلدة ثم قطعوا يديه ورجليه وأحرقوا جسنه ورفعوا رأسه على رمح وطافوا به ببغداد وفارس». (٢٩)

في العام ٩٢٣/٣١١ هدمت كنائس للمكانين بفلسطين (الرملي، عسقلون، قيسارية) وكذلك في تئيس بمصر من دون أن يؤتى على ذكر السبب. (٣٠) ولما اشتكى النصارى إلى المقتدر، أمر الخليفة بإعادة عمارة ما هدم. ثم هدمت هذه الكنائس في الشغب الثانية، فأعيد بناؤها مرة أخرى.

ولا يصدر هذا كله عن سياسة للسلطة محددة، إنما نجد أنفسنا أمام تقلبات أمزجة العمال المحليين (وهذا يدلّ على ضعف السلطة المركزية) أو فورات العامة يبيّجها خطيب، أحدَ كلامَ ما المأثور، استثارته قلة تبصر النصارى حيناً أو عجرفة كتائب أحياناً.

كانت الحال العامة في المملكة مؤاتية مثل أعمال العنف هذه. فقد أطلق المسلمون والنصارى على العام ٩٢٤/٣١٢ اسم «سنة الها لاك» (٣١) بسبب فظاظة

المحسن ابن الوزير ابن الفرات وقصوة تدابيره. وكان الوزير نفسه<sup>(٣١)</sup> في السنة الأخيرة من وزارته التي انتهت بإعدامه.

## الكتاب في كل مكان

على أن هذا لم يحُل دون احتفاظ الكتاب النصارى بوظائفهم. يذكر عريب<sup>(٣٢)</sup> أيضاً أربعة نصارى في العام ٩٢٥/٣١٣: بنان (٩)، مالك بن الوليد، الذي كان آثئاً بديوان الدار وابن القنائي الذي كان وأخوه بديوان الخاصة وبيت المال. ويظهر الثاني، أي مالك، أيضاً في السنة التالية مشرفاً على فرز بريد أحمد الخصيبي.<sup>(٣٣)</sup>

ونلمح أيضاً في العام ٩٢٨/٣١٦ كاتباً نصراينياً هو إبراهيم بن أيوب<sup>(٣٤)</sup> الذي كانت إليه الجبهة وأرزاقي المصافية<sup>(٣٥)</sup> في وزارة محمد بن علي بن مقلة. وقد كان تولى النظر في أحوال بيت المال يوماً بيوم في وزارة علي بن عيسى الثانية للمقتدر.

ونجد في هذه الفترة (قبل ٩٣٣/٣٢١) وفي خدمة مؤنس القائد دانيال ابن العباس الكاتب، صهر غالب المتطلب الذي رأيناها إلى جانب المعتصم. أما صهره الآخر سعدون فهو كاتب يانيس، وهو أمير من أصل رومي كان صهراً لبدر.

وقد أعطت هذه العائلة داية للمقتدر ابن شعب «حسب القاعدة التي وضعتها السيدة شجاع في خلافة الم وكل»، وكان اسم الداية نظم وتوفيت ٢٩٨ - ٩١٠<sup>(٣٦)</sup>. ٩١١

لا نعجب، متى رأينا كثافة حضور النصارى في محيط الأمير، من قول القائل آثئ<sup>(٣٧)</sup> أن من أراد الوزارة فعليه برضاء إبراهيم<sup>(٣٨)</sup> كاتب الأمير ورضا اصطيفن بن يعقوب كاتب مؤنس القائد.<sup>(٣٩)</sup> وكما جرى العرف نجد النصارى في كل مكان وبالتالي مع جميع الفرقاء والأحزاب، حسبما تملّيه صدف الوظيفة. من ذلك أنَّ أبي صالح مفلح رئيس الخصيان السود، وعدو مؤنس القائد، كان له كاتب نصرايني خصي أيضاً.<sup>(٤٠)</sup>

أمّا موقف الجاثليق إبراهيم من هؤلاء الكتاب النافذين، فلدينا خبر يدلّ على أنّه كان يتعالى عليهم. يروى أنّ علون كاتب يونس (أو مؤنس) لما عاد من دمشق قصد مقرّ الجاثليق، فمنعه الخبر من الدخول يومه كله. وقد تكفل اثنان من أصدقاء الكاتب النصارى، هما أبو عمر والد متى، وأبو الفرج إسرائيل بن عيسى كاتب الياقطاني<sup>(٤١)</sup> بياصال قول الجاثليق: «تخرج إلى بلاد مصر والشام وتبتاع لبيع الملكانية أملاكاً بخمسة عشر ألف دينار ولبيع النسطور بعشرة آلاف دينار والله لا وصلت إلى إلاّ بعد أن تحمل عشرة آلاف دينار ليكون لي الفضل على الملكانية». وقد سوي الأمر بخمسة آلاف دينار<sup>(٤٢)</sup> وأدخل المذنب إلى حضرة الجاثليق الترق.

### إبراهيم يتّجر بالدين؟

إن رين الدنانير حول كرسيّ الجاثليقة يؤكّد ظنّاً بأنّه كان على المرء أن يكون قديساً مثل يوحنا بن عيسى لكي يفلت من حمى المال التي سيطرت على تلك الحقبة. الكلّ كان للبيع أو للشراء.

لم تزل الأمور، حتى الكنيسة منها، تسير بشكل أفضل عندما يسمع (بضم الياء) أصحاب التفوّذ «صلوات رئاناً راجحة يفهمونها جيداً» كما كان يقول ايشوع يهوب الثالث. نشير على سبيل المقارنة إلى أنّ الوزير الخاقاني، معاصر إبراهيم عيّن سبعة عمال في المركز نفسه وعزّ لهم عنه في مدة عشرين يوماً.<sup>(٤٣)</sup>

وقد رأينا أنّ إبراهيم نفسه قد انتُخب بعدما سخا في توزيع المال، وكان لا بدّ له من أن يملاً خزائنه. وما أخذ عليه من باب المتاجرة بالمراتب الدينية أنه عيّن ثلاثة مطارنة على نصيبين بعد أن أخذ مالاً من كلّ منهم. ولكننا نذكر إنصافاً له أنه لم يعزل الاثنين بل وفّاهما الأجل.

ومع ذلك يبدو من الصعب علينا أن نبرئ ساحة إبراهيم من تهمة الجشع. إذ يروى أنّ رجلاً يدعى الاسكافي<sup>(٤٤)</sup> قد فاجأ الجاثليق وهو يعدّ مقداراً كبيراً من الزوري (الدرّاهم هنا؟) والدنانير فصاح به: «زي شمعون و فعل سيمون لا أعرفك جاثليقاً». وبعد أن كفّر كلّ منها الآخر، انجرّ عن ذلك خصم لم يكن في مصلحة

الجاثيّق أن يطول. فطلب من أصدقائه الكتاب أن يحاولوا ثني الاسكافي، ولكنّهم لم يفلحوا.

أما المقتدر فقد ززع عرشه مرات. عزل في بداية عهده إبان فتنة ابن المعز، ثم خلع أيضًا إبان الشغب ببغداد سنة ٣١٧ / ٩٢٩، ونهب العسكرية قصره، فأعاده مؤنس، ولكن المقتدر انقلب عليه وعاده سنة ٣٢٠ / ٩٣٢، ثم قتل الخليفة على رأس عسكره لما خرج لواقعه مؤنس في ٣١ تشرين الأول، بالقرب من باب الشهاسية، حيث الجثليقة بشمال شرق بغداد.

## الحواشي

- (١) MASSIGNON, Hallag<sup>2</sup>, I, p. 441-446
- (٢) مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ٩٥ - ٩١، MASSIGNON, Hallag<sup>2</sup>, I, p. 446-453
- (٣) وكانت إحدى نسائها النقان نصرانية اسمها فرج، وحملت مرة ختم الخليفة إلى أحد الوزراء، كتاب الوزراء، ص ٢٩٣، وحاشية الشابلي على الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٣٧٠.
- (٤) المعمودي، التبيه، ص ٣٧٦ - ٣٨٧، E.I<sup>1</sup>, III, p. 768-769, par K.V. ZETTERSTEEN (Xs.A.D.). Vizirat, p. 387, 469 ينتهي تاريخ الطبرى سنة ٣٠٢ للهجرة ويكمله عريب.
- (٥) انظر يوسف حبي، في مقالته «يوحننا بن حيلان معّم الفارابي في المتنق»، مجلة بين النهرين E.I<sup>2</sup>, II, p. 797, par Walzer, avec refé-rences.
- (٦) ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
- (٧) ص ٣٠ - ٣٣، انظر: مراجع أخرى في: BOWEN, p.101
- (٨) الجوم، ج ٣، ص ١٦٥.
- (٩) البداية، ج ١١، ص ١٠٨، لا شيء عند الطبرى ولا عند ابن الأثير.
- (١٠) ابن القيم، أحكام، ص ٢٢٤. القلقشندي، ج ١٣، ص ٣٦٨: «ابن ياسر».
- (١١) Vizirat, p. 513. - يبدو نصّ كتاب الوزراء هلال الصابى (ط. بيروت ١٩٠٤، ص ٩٥ وط. الحلبي بالقاهرة ص ١٠٩) مضطرباً عندما يذكر أن ابن الفرات اضطر إلى الدفاع عن

نفسه، أمام علي بن عيسى، الذي اتهمه بتعيين غير المسلمين في بعض المناصب. وفي هذه الرواية أنه رد عليه بأن الناصر للدين الله (المتأخر عنه كثيراً) كان قد جعل إسرائيلي النصراني على الجند (؟) ويذهب BOWEN، ص ١٧٠، إلى أن السوابق المئوية بها تقع في عصري الموقف والمتضد.

- (١٢) هل هو من بني ذلك الرجل من الأعيان الذي استقبل يوانيس في كنيسة الأصبع سنة ٩٨٩٣
- (١٣) نشوار، ج ٨، ص ٩٣ - ٩٤، مع مراجع في الكتاب نفسه ج ٣، ص ٢٥ الحاشية رقم ٣.
- (١٤) نشوار، ج ٨، ص ١٠٨، وانظر المراجع في الحاشية رقم ١.
- (١٥) عريب، ص ٣١. بدبيهي أن يجد ابن ذليل متسعًا من الوقت ليدخل الإسلام؟
- (١٦) تاريخ الزمان، ص ٥١.
- (١٧) فهو يجعل موت المكتفي في العام ٢٨٩ بينما هذا هو تاريخ موت سلفه المعتصد. - بالنسبة إلى المقدّر، (ص ٥٥)، يكرر ابن العربي جملته عن تغيير حياة العرب، تلك الجملة التي ذكرها سابقاً لدى الكلام عن الوائق ص ٣٦ - ٣٧.
- (١٨) انظر التفاصيل عن هذه القضية في Rum à l'est de l'Euphrate, p. 387-389 وفي سيرة إبراهيم الثالث.
- (١٩) يذكر حبيب الزيات في المزاجة، ج ١، ص ٣، كاتبًا نصراوياً آخر للوزير نفسه، هو علي بن عيسى الدنداني.
- (٢٠) Vizirat, p. 395.
- (٢١) يذكر ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٢ - ٥١، أن السفريين انتظروا شهرين بتكريت. ولا يذكر شيئاً عن العلاقات التي قامت، بلا شك، بينهم وبين النصارى.
- (٢٢) لما بعثه الوزير عبدالله بن خاقان إلى مصر سنة ٩٢٤/٣١٢ - ٩٢٥، أراد علي أن يفرض الجزية على الرهبان والضعفاء والمساكين والأديرة والأساقفة... فبعثوا بعثة إلى بغداد حيث ثبتت امتيازاتهم، سعيد بن البطريق، تاريخ، ص ٧٤٨.
- (٢٣) انظر مشجر نسبه في: Vizirat, p. 748.
- (٢٤) ابن القسطي، ص ١٣٢ - ١٣٣، آدم متز، ج ١، ص ٩٢.
- (٢٥) آدم متز، ج ٢، ص ٢٠٧. في الترجمة العربية سوق يحيى، والأغلب أن المقصود يحيى بن خالد البرمكي.
- (٢٦) عن شعر سعيد التستري أنظر شعراء النصرانية لشيخور، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ مع مراجع، يضاف إليها الصفي ج ١٥، ص ١٩٥ - ١٩٧، الرقم ٢٧١.
- (٢٧) تاريخ الزمان، ص ٥٢ - ٥٣. يجعل ابن العربي من عبدالله طيباً (؟)، وغير ممتنع أن يجمع الفتيان. فصاحب الرسالة العذراء التي يذكرها عبدالله البغدادي، ص ١٢٠، يجعل الطب في جلة المعارف المطلوبة من الكاتب الجيد.
- (٢٨) ص ٥٣.

- (٢٩) سعيد بن البطريق، ص ٨٢، *Annales*.
- (٣٠) Vizirat, p. 421, 425 ؛ يسرد هلال الصابي، ص ٢٢٣ - ٢٢٧ الغرامات التي فرضها المحسن بن الفرات.
- (٣١) وقد أقيمت في وزارة وزير آخر من بني الفرات، هو أبو الفتح الفضل بن جعفر المعروف بابن خنزابه، (في العام ٩٣٢/٣٢٠ أو ٩٣٨/٣٢٦) المناظرة الفلسفية الشهيرة بين أبي سعيد السيرافي وبين أبي بشر متى بن يونس المنطقي الدور قنائي. وقد كان الأخير يزعم أن منطق أرسسطو لا بد منه لتمييز الصواب من الخطأ. ونصلّ هذه المناظرة مثبتة في مقابسات التوحيدية (تحقيق حسن السنديوي، القاهرة، ١٩٢٩) ص ٦٨ - ٨٧، ١٦٩ - ١٧٢، الامتعة والمؤانسة ج ١، ص ١٠٨ - ١٢٨، وكذلك إرشاد الأريب لياقوت، ج ٣، ٦، ٣، ص ١٠٥ - ١٢٥.
- (٣٢) صلة تاريخ الطبرى، ص ١٢٥.
- (٣٣) Vizirat, p. 440.
- (٣٤) صلة، ص ١٣٥.
- (٣٥) Vizirat, p. 443, 449, 543, no. 5 المصافية هم «الرجال الملازمون لدار الخلافة»، عرب، ص ١١٨.
- (٣٦) Massignon, *Hallag*,<sup>2</sup> I. p. 447.
- (٣٧) يشير ابن الأثير في الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦، إلى أن ضحايا فيضان تكريت سنة ٩٣١/٣١٩، من مسلمين ونصارى قد دفنا معاً.
- (٣٨) يروى الصابي، الوزراء (ط. الحلبي، ١٩٥٨)، ص ١٥٨، أن هؤلاء الكتب كانوا قد أثروا ثراءً عظيمًا: مليون دينار لاصطفن ودان وبال، بينما لم يكن الأول يتقاضى إلا عشرة دنانير راتبًا له لما كان نائباً لدان بال في خدمة مؤنس ثم ٤ ديناراً في وزارة ابن الفرات الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦). من هذا نفهم لماذا كانوا يشرون الحسد.
- (٤٠) صلة، ص ١١٢.
- (٤١) نجد رجلاً اسمه محمد بن علي اليقطيني (ت ٩٧٧/٣٦٧) *Hallag*,<sup>2</sup> I, p. 138, n. 2.
- (٤٢) لا يبدو أن الجاثلين غرمٌ غرامة كما كان يحق له ولرأس الحالوت (على قول الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ - ٢٨) على رعيتهم، وإن لم يكن لها الحق في حبس أفراد الرعية أو ضررهم في دار الإسلام.
- (٤٣) Vizirat, p. 397.
- (٤٤) ربما كان هذا الاسكافي هو إبراهيم بن عون الذي يذكره أبو البركات (مصابح الظلمة، ص ٣٠١) وينسب إليه كتاب حال الشكوك. ونقرأ في تاريخ ابن العربي الذي يسميه ابن أوان (٩)؛ «الكرسي كرسي شمعون والفعل فعل سيمون». والمقصود بشمعون القديس بطرس وبسيمون، سيمون الساحر.

## ١٩ - القاهر (٣٢٠ - ٩٣٢ / ٣٢٢ - ٩٣٤)

كان أبو منصور محمد القاهر بالله، أخو سلفيه المكتفي والمقدار، موضع نقد شديد من المسعودي: «شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج.. غير مفکر في عواقب أمره».<sup>(١)</sup>

كانت خلافته<sup>(٢)</sup> التي دامت سنة وستة أشهر، أقصر من أن تسع الوقت الكافي للكلام عن الأقلية النصرانية. وربما خفنا عليهم من بعض القرارات المشتبهة التقليدية (كمنع الخمر، وطرد المغترين والقيان) التي قررها الخليفة لولا أن حياته الخاصة لم تكذب قراراته فقد كان يحب الخمرة، وكان يسكر معظم وقته ويطرب للغناء ويتحمّل من بين القيان تلك التي يميل إليها.<sup>(٣)</sup>

نجد إلى جانب الخليفة الجديد رئيس أطباء بغداد الشهان مئة والستين سنان بن ثابت الصابيء الذي حمله الخليفة على الإسلام.<sup>(٤)</sup> إلا أن القاهر لم يضغط، فيما يبدو، على طبيه النصراني الأثير عيسى بن يوسف المعروف بابن العطارة، وكان «يركن إليه ويفضي إليه بأسراره»<sup>(٥)</sup> نأمل ألا يكون هذا الطبيب النصراني هو الذي أهمن أنواع الفطائع ولا سيما ما أنزل منها بشغب أم المقدار، التي كانت مع ذلك قد أحسنت معاملة القاهر لما كان محبوساً.<sup>(٦)</sup> وقد نفي ابن العطارة، المولود سنة ٨٨٤ - ٢٧١، إلى الموصل فيما بعد وصودرت أمواله. ثم استُدعي إلى بغداد ليستشار في اختيار الوزير سنة ٣٢٠ - ٩٣٢ / ٣٢١ - ٩٣٣، ثم مات ببغداد سنة ٩٦٨ / ٣٥٨ - ٩٦٩، وكان قد عمي قبل ذلك بعامين.

ثمة نصراني آخر هو إسحق بن علي القنائي الذي كان كاتب الضياع وبيت

المال في وزارة الخاقاني للمقتدر سنة ٣١٢ - ٩٢٤ / ٣١٣ - ٩٢٥ . وقد اعتبر إسحق هذا خطراً من قبل أحد الخصيبي الذي لم يقبل بالوزارة سنة ٣٢١ / تشرين ٩٣٣ ، إلا إذا قبض على إسحق وبضعة أشخاص آخرين . ومن أجل استدراجه إلى القصر ، أبلغه القاهر أنه يريد تقليله مهام الوزارة على أن يخلع لقب الوزير على رجل مسلم . إن كون الخليفة قد انطلت على إسحق يثبت أن فكرة تولية نصارى مهام الوزارة في تلك الحقبة كان أمراً غير مستبعد . ولا نعرف ما حلّ بإسحق بعدما قُبض عليه .<sup>(٧)</sup>

ومثلاً جرت العادة من قبل نجد النصارى خارج قصر الخلافة أيضاً : من ذلك أن بشرًا النصارى كاتب أبي سليمان داود الحمداني هو الذي حمل سنة ٩٣٢ / ٣٢٠ كتاباً من مولاه بشأن مؤنس .<sup>(٨)</sup> ومعلوم أن الخليفة توصل إلى القبض على القائد وإعدامه .

بيد أنَّ فظائع ذلك العهد لم تقف عند هذا الحدّ، إذ سقط الخليفة نفسه فريسة بعضها . نجد عند ابن العربي رواية ، ربما استندت إلى كتاب تاريخ ثابت بن سنان بن ثابت المفقود (والذي يعطي الأحداث من سنة ٩٠٢ / ٢٩٠ إلى ٩٧٣ / ٣٦٣) ،<sup>(٩)</sup> تصف كيف تدبَّر الأشراف أمر تحديد حرس القصر . لما كان هؤلاء المرتزقة كلهم يصدِّقون المنجمين ، رشا الأشراف المنجمين ليلقوا في روع الجند أنَّ الخليفة يتهيأ للقضاء عليهم .<sup>(١٠)</sup> وهكذا تمكَّن رجال الوزير ابن مقلة من دخول القصر ، فاصطَرَ الخليفة المخمور إلى الاستسلام . ولما رفض أن يخلع نفسه أمر الراضي ، ابن أخيه وخليفه ، بأنْ تُسمَّل عيناه . وتذهب بعض روایات هذه المأساة إلى أنَّ بختيشوع بن يحيى طبيب الراضي هو الذي دعا برجل ليقوم بهذه المهمة .<sup>(١١)</sup>

حبس الخليفة الأعمى ولم يفرج عنه إلا بعد إحدى عشرة سنة ، فكان يستعطي الناس على باب المسجد الجامع حتى وفاته سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ .

## الحواشي

- (١) التبيه، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .  
E.I.<sup>2</sup>, IV, p. 442, par SOURDEL (٢)
- (٣) ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٦٩ الفقرة ٤٧٣ . السيوطي، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ . كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٣ ، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٠٤ .
- (٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٤ - ٥٦ .
- (٥) ابن أبي أصيحة، ص ٣٢٠ ، ابن القفعي، ص ١٦٦ ، الكامل، ج ٨، ص ٦٠٢ ، Vizirat, p. 474-475 et 477 . كانت أخبار بختيشون بن يحيى قد عادت إلى الصدارة: فقد التجأ إليه رجل اسمه أبي القرافر كان يدعى آن اللاهوت قد حلَّ فيه، وقد قتل على ما رواه الهمданى في التكملة، ص ٨٦ .
- (٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٥ .  
Vizirat, p. 437 no. 4, 478, 700, 741 (٧)
- (٨) صلة، ص ١٦٩ .
- (٩) تاريخ الزمان، ص ٦٧ .
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٥٥ .
- (١١) مسكونية، ج ١، ص ٢٩٢ ، مذكور في تحقيق ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٧٧ حيث نجد رواية أخرى .

---

## ٢٠ - الراضي (٣٢٢ - ٩٣٤ / ٣٢٩ - ٩٤٠)

---

إن خلافة أبي العباس أحمد الراضي بالله بن المقذر معروفة جيداً بفضل كتاب محمد بن يحيى الصولي<sup>(١)</sup> الذي كان مؤدبه ثم صار نديمه من بعد.

رأينا من قبل أن الجاثليق إبراهيم اضطرّ سنة ٩١٣، في خلافة المقذر، إلى إثبات لقب حبر بغداد الأوحد لنفسه. وها هو يضطرّ بعد عشرين عاماً إلى الدفاع عن «حقوقه». إنها قضية تركة أبي بشر عبدالله بن فرجويه.<sup>(٢)</sup>

كان هذا الرجل النسطوري، من رجال ابن الفرات الثقات،<sup>(٣)</sup> قد أوصى بدفع سبعة آلاف دينار من تركته إلى الجاثليق لينفقها في وجوه الإحسان. وإذا تنكرت أرملة الرجل للوصية رد الجاثليق بتحريم إقامة المراسم الدينية للفقيد. خاف رجال الكنيسة ولم يجرؤ أيٌ منهم على مخالفة أمر الجاثليق والتعرض لغضبه باستثناء شهاس اسمه موسى وجد نفسه متنازعاً بين ولائين (نظرًا إلى انتهاءه إلى بيت الفقيد) ثم رضي أخيراً بالصلوة على الميت. ولكن ساء ما فعل، إذ أن الجاثليق الغضوب أبلغه سخطه وتركه هزة يهزّ بها طلاب الأسکول. أمام هذا المهيحان المجنون جأت أرملة ابن فرجويه إلى أم الوزير (والطبيب؟) أبي الحسن بن المقلد.<sup>(٤)</sup> لم يأبه الجاثليق لهذه الحماية العالية بل جمع، من ثقته بنفسه، رهبان بغداد وطلابها وقاوستها وجاء بهم حتى قعدوا على باب الوزير. فما لبث أن انضمَّ إلى جعهم كلَّ من كان هناك من كتاب النساء وأطبائهم حتى عملوا مظاهره صاحبة. أخيراً وصل ذاك الذي كان يقدر على إيصال الجاثليق إلى الوزير، إنه الكاتب النافذ القول ابن سنجلا الذي سنتقى به بعد حين. فادخل الجاثليق إذن إلى خطّة المظالم التي كان الخليفة قد فوض أمرها آئذٍ إلى الوزير.<sup>(٥)</sup>

واستجيب في الحال لشکوى إبراهيم وطُرِدت الأرملة من ملادها، «وسلّمت إلى الجاثليق ليستوفي منها الدين».

### ابن سنجلا

من كان إذن هذا الرجل القادر على الدخول كما دخل على الوزير، بين العامين ٩٣٤ - ٩٣٦<sup>(٦)</sup> واقناعه باستقبال الجاثليق فوراً؟ إن «أخبار الراضي والمتنقي» تعرّفنا به<sup>(٧)</sup> جيداً وتطلعنا على أي سند كان يستند إبراهيم، في أواخر جثلقة على الأقلّ.

كان أبو الحسن سعيد بن عمرو (أو عمرون) بن سنجلا (أو سنكلا) كاتب الراضي قبل أن يبايع بالخلافة. وفي العام ٩٣٥ عُيّن كاتباً خاصاً بابني الخليفة، ثم قُلد زمام ديوان التفقات. وقد كان بارعاً في «التحاذ الأصدقاء من مال الظلم» (لوقا: ١٦ : ٩) مختصاً نفسه بأنواع المكاسب والمزایا ولا سيّما المالية منها، ومتشفقاً في الوقت نفسه في تحفييف ما يصدر عليه الآخرون من أمثال ابن عبدوس أو أحمد بن علي. وكان يحتاط بذلك لنفسه ويكتفّ لها الشفاعة عند انقلاب الأحوال، مثلما حصل لما أعيد أحمد بن علي إلى الوزارة سنة ٩٤١.

ولما كان الراضي لا يفعل إلا ما يريده ابن سنجلا<sup>(٨)</sup> استطاع هذا الكاتب أن يسدي خدمات جلّى إلى النصارى وإلى الجاثليق إبراهيم. وقد شغل صهر ابن سنجلا (زوج اخته) أبو القاسم علي بن يعقوب مناصب مهمة أيضاً.

بالإضافة إلى قضية حقوق الجاثليق حوالي سنة ٩٣٣، نجد ابن سنجلا، في ٧ كانون الأول سنة ٩٣٧، وإبان خلوّ كرسى الجثلقة بموت إبراهيم، يلتمس من الخليفة أمراً بعقوبة رجل مسلم (يدعى الحواجي) تحامل على نصرانيّ «مشهود له بالفضل» هو أبو عمرو بن شريح حال الكاتب، ثم يستصدر هذا الأمر على الرغم من شغب العامة بالطرق. لقد كان ابن سنجلا، على قول M. CANARD، زعيم الطائفة النسطورية الحقيقية في أثناء فترة خلوّ الكرسيّ هذه.

## أحكام المواريث

لم تزل الدولة (أي موظفوها) تحاول أن تقتضي حقوق الورثة من النصارى (وهي حقوق لم ينص عليها الشّرع القرآني) ولا سيما مواريث الكتاب المخطوط عليهم، ذلك لأنّ أموالهم كانت مطمعاً لأصحاب السلطان.<sup>(٩)</sup> وقد كان النصارى أنفسهم يتلاعبون بالفروق بين قانونهم العرقي في هذه المسألة وبين أحكام الشّرع الإسلامي، إذا ما كان الأخير لصالحهم. ومن أجل تحاشي هذا الاغراء عمل يوحنا بن الأعرج سلف إبراهيم على التشريع لهذه المسألة، مقرّباً أحكام القانون الكنسي من أحكام الشّرع الإسلامي.<sup>(١٠)</sup> ومع ذلك كان خطر الموظفين الطّباعين يظل قائماً. وفيهم من نصّ غامض لاري<sup>(١١)</sup> أنه كان للجاثيلق نصيب معلوم من تركات النصارى، وأنّ هذا الحق قد سُلِّب منه في تاريخ غير محدد، وأنّ إبراهيم الجاثيلق قد وقف متظلاً بباب وزير غير مسمّى وأظهر توقيع المعتصد بيده عبد الله بن سليمان<sup>(١٢)</sup> «بأنّ ذلك لأهل الذمة» فأخرج له الوزير (غير المسمّى) توقيعاً يقرّه على ما كان له.<sup>(١٣)</sup>

هل وقعت في خلافة الرّاضي حلة هجاء للذميين من الكتاب؟ يذهب ابن القييم<sup>(١٤)</sup> إلى أن الشّكاوى منهم كانت كثيرة، ويورد أبياتاً لسعود بن الحسين الشّريف منها:

ما هكذا فَعَلَتْ بُنُو الْعَبَاسِ  
قَلَدَتْ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ عَدُوَّهُمْ<sup>(١٥)</sup>  
لَا تَذَكَّرَنَّ احْصَاءُهُمْ مَا وَفَرَوا  
ظُلْمًا، وَتَسْنِي تُحَصِّي الْأَنفَاسِ  
لَا تَعْتَذِرَنَّ صَرْفُهُمْ بَتَعْذِيرِ الْأَكْيَاسِ  
مُمْتَصَرُّفِينَ الْحُكْمِ الْأَكْيَاسِ

يبدو أنّ البيت الأخير يعبّر عن رأي الخليفة في الكتاب الذميين، ولا شيء يدلّ على أنّ طردهم من خدمته. بل إنه لما صرف ابن فضلان اليهودي بابن مالك<sup>(١٦)</sup> النصراني نظم الشّاعر نفسه أبياتاً متوعدة أخرى:

خَفِ اللَّهُ وَانْظُرْ فِي صَحِيفَتِكَ الَّتِي  
حَوَّتْ كُلَّ مَا قَدَّمْتَهُ مِنْ فَعَالِكَا  
وَقَدْ خَطَّ فِيهَا الْكَاتِبُونَ فَأَكْتَرُوا

ومع هذا ظلت العلاقات الطّيبة بين ذوي الأدب والكياسة من نصارى

ومسلمين مستمرة، فمن ذلك ما يذكره المسعودي عن مناظرات جرت بينه وبين أبي زكريا دنحا اليعقوبي المذهب، «المفلسف الجليل الناظر»<sup>(١٧)</sup> لما قابله ببغداد وبتكلمت في الكنيسة المعروفة بالحضراء قبل العام ٣١٣/٩٢٥.

أما من ناحية العلاقات الرسمية فقد جاء أسقف عسقلون الملكاني إلى بغداد في أواخر خلافة الراضي (٩٤٠/٣٢٨) يلتزم الإذن بإعادة عمارة كنيسة السيدة العذراء التي خربها المسلمين واليهود وأحرقوها، فما حصل على شيء.<sup>(١٨)</sup>

إن المرء ليتساءل إلى مَ يُعْزِّى إخفاق هذا الأسقف؟ أكان ذلك لأنه من الملكانية<sup>(١٩)</sup> بينما كان معظم الكتاب، الذين تُمَرُّ الشكاوى تحت أيديهم، من النساطرة؟ أم كان ذلك لأن المسؤولين كانوا منشغلين بأمور أخرى أهم؟ على أيّة حال كان النصارى يعملون في مختلف وظائف الدولة وهم يظهرون في بعض الأحداث، المؤرخة أو غير المؤرخة، من خلافة الراضي:

- في السنة الأولى من عهده، في رمضان ٣٢٣/أب ٩٣٥، نرى الكاتب الملكاني اصطفن الذي كان يعمل في خدمة مؤنس يصير بطريقاً لأنطاكية باسم ثاؤودوسيوس.<sup>(٢٠)</sup>

- في السنة عينها مات اصطفن الآخر، صاحب بيت مال الخاصة.<sup>(٢١)</sup>

- من جهة الأطباء، واجه بختيشوع بعض المتابعين. فقد أعطى هارون أخي الخليفة شربة قوية مات فيها هارون في ١٥ ربيع الأول ٣٢٤/١١ شباط ٩٣٦. وكان الخليفة يحب أخاه هذا على الرغم من ميله إلى المكاييد، فحزن عليه حزناً عظيماً. ولكنه أب أن يتقمم لأخيه من الطبيب قائلاً: «وإن كان المشؤوم ما تعمد ذلك، ولكنه أعمى القلب قصير العلم بلid الفكر ممزوق في أيامه محظوظ»<sup>(٢٢)</sup>. واكتفى الخليفة إذن بنفيه إلى الأنبار، ثم اضطر إلى إعادة نزولاً عند طلب السيدة أمّه.<sup>(٢٣)</sup> ومات بختيشوع سنة ٣٢٩/أيلول ٩٤١.<sup>(٢٤)</sup>

وقد عرف طبيان آخران في ذلك العهد ماتا كلاهما في سنة موت الخليفة:  
- داود بن ديلم، مات ببغداد في الخامس من المحرم ٣٢٩/١٠ تشرين الأول  
(٢٥). ٩٤٠

- وأبو بشر متى بن يونان الدور قنائي الطبيب والمتجم والمنطقى الذى مات ببغداد في ١١ رمضان ٣٢٨ / ٢٠ حزيران ٩٤٠ (٢٦)

لما دخل أبو عبدالله أحمد بن علي الكوفي، (٢٧) كاتب الأمير بجحكم (٢٨) التركى، إلى بغداد في أواخر عهد الراضى، قبض على موظفى ابن شيرزاد كلهم وصادرهم. إلا أن ابن سنجلا وصهره أبا القاسم علي بن يعقوب (٢٩) عملا على إطلاق أبي الحسن طازاد بن عيسى (٣٠) أحد الكتاب النساطرة وتکفلا بدفع ما صودر عليه.

### نهاية مُلك

اشتد المرض على الراضى في أواخر العام ٩٤٠، وعالجه سنان فلم يفلح في شفائه، ولما كان الخصي التركى زيرك، نديه الأثير ومدبّر القصر، قد مات في تشرين الثاني، انتقل الراضى إلى داره، (٣١) وأمر بأن تُطرح في دجلة، (٣٢) كأضحية تکفير أخيرة، ٤٠٠ دنٍ من الخمر المطبوخ المعتق من عهد المعتضى. (٣٣) ثم ما لبث أن مات هو في كانون الأول، عن اثنين وثلاثين سنة، ولم تکد خلافته تدور سبع سنوات.

وهاك تأبىنه بقلم ابن الطقطقى: (٣٤) «كان شاعراً فصيحاً لبياً، ختم الخلفاء في أشياء منها: أنه آخر خليفة دون له شعر، وأخر خليفة انفرد بتدبیر الملك وأخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وأخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء (٣٥) وأخر خليفة كانت مراتبه وجوائره وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين».

وتحقيق المؤرخ الذي يتغى تحاشى النظر إلى الأمور من زاوية ضيقـة (زاوية مصير الجماعة المسيحية فحسب) إلا ينسى أنّ الحضارة الإسلامية كانت تمر في تلك الحقبة بهزّات عنيفة. ففي العام ٩٣٥ / ٣٢٣، وفي خضم حال من الارتباك السياسي الشديد، ثارت بغداد اضطرابات خطيرة. عدا الخنابلة على الدكاين ونهبوا، وتدخلوا في المعاملات التجارية لفرض احترام الشريعة، هجموا على

الخمارين (النصارى، والمجوس) وعلى القيان وكسروا آلات الملاهي وانتهكوا، من حميتهم، حرمات المنازل وبلغوا صاحب الشرطة عن كل رجل يجدونه في السبيل مع امرأة من غير مخارمه. فخرج توقيع الراضي بنبيهم عما هم عليه وتوعدهم بالضرب والقتل وحرق المنازل. <sup>(٣٦)</sup>

كانت الأوضاع ناضجة لقيام ديكاتورية عسكرية: إنَّ دخول ابن رائق الذي تلقَّب بلقب جديد هو أمير الأمراء. وفي ذلك يحيى يحيى <sup>(٣٧)</sup> بقوله: «ونظر فيها كان الوزراء ينظرون فيه وبطل مذ ذلك الوقت أمر الوزراء فلم يكن للوزير نظر في شيء من الأشياء ولا كان له غير اسم الوزارة وكذلك سائر من تقلُّد الإمارة خلافاً بين العباس بعد ابن رائق وإلى هذه الغاية». <sup>(٣٨)</sup> ويضيف ابن كثير <sup>(٣٩)</sup> أن الخليفة لم يبقَ له سلطان على شيء وأنَّ ابن رائق نَزَّله منزلاً للأجير. وبهذا بدأت مع ابن رائق واحدة من أعتى الفترات في تاريخ الخلافة العباسية لم يبقَ فيها من الخلافة إلا اسمها.

ولكن الخليفة حظي بعد قليل «بحِيَة» آخرين، إذ أنَّ سلالة البوهرين الشيعة كانت قد بدأت تذر قرها بإيران، حوالي ٩٣٤/٣٢٢. ولن يطول بها الوقت حتى تسيطر على بغداد وتشهد معها الخلافة فترة جديدة من الازدهار في ظل النفوذ الشيعي.

## خلافة إبراهيم

في هذه الظروف كان لا بدَّ من اختيار خلف لإبراهيم الثالث أبرازا، الذي مات في شعبان ٩٣٧ / حزيران ٣٢٥.

جرى الانتخاب بصورة قانونية، ولا ذكر لتدخل السلطة المدنية ولا لتطفل العلمانيين من النصارى. فاختير إيليا أسقف الأنبار لعلمه وفضائله. فحرر المجمع وثيقة الانتخاب (شلموث) وحصل ابن سنجلا، الذي كان كاتباً بديوان الزمام، على إذن الخليفة بتهيئة سيامة الجاثليق بالمداين. عندئذٍ وقع أمر غير مألف: ذهب الجاثليق المنتخب إيليا لزيارة ابن سنجلا زياره شكر بروتوكولية وخاطبه بكلام غير

متوقع فائلاً: «بعد جلوسي على كرسي الفطرة يكون لي من مقدرة الحال والعقد أن أجيئ لك أن تضيف إلى فلانة زوجتك، جارية نرجو من الله أن يرزقك منها ولدًا» فأنكر الكاتب هذا الكلام، وانزع الشلموث من يدي إيليا، ومزقه مغضباً صائحاً: «كأنك تتقرّب إلى بحل شريعة المسيح» ولم يعد يطيق ذكر الجاثليق أو ذكر انتخابه. وإذا تردد الآباء فيما يعملون، حكى لهم ابن سنجلا خبر معجزة وقعت لرجل كان في مثل حالته، بفضل صلوات راهب تقيٍ. فقرر رأيهم على انتخاب جديد، إلا أنَّ ابن سنجلا صار يشمئز من الأساقفة. عندئذٍ أنقذ الوضع ابن سنان الطبيب الصابيء الأصل، الذي أخبرهم أنه قد صادف هو أيضاً راهباً قدسياً في دير آبا يوسف بيلد بالقرب من الموصل. فقبل ابن سنجلا بالفكرة وأجبر الأساقفة على القبول بها. فاستدعي الراهب<sup>(٤٠)</sup> ولكنَّه تمنَّ مع أنه كان قد أتبَع بذلك في رؤيا رآها. فأنْفَذ كتاب من بغداد إلى ناصر الدولة الحمداني يأمره أن يحيي بالراهب طوعاً أو كرهًا. فلم يستجب الراهب حتى ساقوه مكرهاً إلى أن وصل إلى حديثة الموصل فرأى علامات جديدة أقنعته بأنَّ الرب قد اختاره. عندئذٍ قبل عمانوئيل<sup>(٤١)</sup>.

وعندما وصل إلى بغداد أدخل على الراضي «حسب العادة». فاستفسر منه الخليفة عن بضعة أمور من ديانة النصارى ولا سيما عن محنة الأعداء.<sup>(٤٢)</sup> ولما استحسن الراضي أجيوبة عمانوئيل أذن بتعيينه ووصله بهدايا وأنفذه في موكب مشرف إلى مقرَّ الجاثليقة بدار الروم.

XVI      جرت رسامة عمانوئيل نهار الجمعة في ٢٢ شباط ١٦٩٣٨ ربیع الآخر ٣٢٦، بعد أن ظلَّ الكرسي شاغراً أكثر من ثمانية أشهر. ولا نسمع بعد ذلك عن الجاثليق شيئاً في أواخر أيام الراضي. رأينا أنَّ الكتاب النصارى كانوا ينالون حظهم مما يلُّم بمواليهم من صروف الدهر. لذلك رأى ابن سنجلا أنَّه من الأوفق أن يختبئ عند صهره علي بن يعقوب<sup>(٤٣)</sup> لدى موت الراضي.

## الحواشي

- (١) انظر تقويم ماسينيون للصولي في: Hallag,<sup>2</sup> II, p. 130-133
- (٢) لقد صحّح ماسينيون في المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩١، الاسم الذي جعله جيسموندي محقق ماري، أبو فرجونا أو ابن فرجونا، انظر أيضاً: Vizirat, p. 407, 509, 510.
- (٣) «وكان الغالب على الدواوين والأعمال في وزارة ابن الفرات هذه، أبو بشر عبدالله بن فرجويه»، كتاب العيون والحدائق، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩٨٤.
- (٤) ربما وجب أن نقرأ هنا ابن مقلة؟ راجع مقالة سورديل عنه في ٩١١ et ٩١٠ E.I.<sup>2</sup> III, p. 910 et 911 Vizirat, p. 483-490 يقترح وزر ابن مقلة للراضي من ٢٧ أيار ٩٣٤ إلى ١١ نيسان ٩٣٦ ، أن يقرأ الاسم سليمان بن الحسين بن خلدون؟ - على أيّة ماسينيون في ٤٩١ Hallag<sup>2</sup>, I, p. 491 ، أن يُقرأ ابن مقلة؟ - على أيّة حال هناك ابن خلدون ظلّ على التصريحة وهو أبو الحسن (عبدون) ولكنّه لم يتقدّم الوزارة قطّ MASSIGNON, Scribes Nestoriens, dans Opera minora I, p. 252.
- (٥) Vizirat, II, p. 640-649
- (٦) وقد كان له دور في قضية أسقف الروم الملكانيين سنة ٩١٣.
- (٧) انظر اسم سعيد بن عمرو في فهرست أخبار الراضي ص ٢٩٣ . ويختصر سيرته BUSSE في الصفحة ٢٤٨ الحاشية رقم ٥ ، وفي الصفحة ٤٦٣ . DONOHUE, p. 343 .
- (٨) كان يدخل على الخليفة ويخرج مكلّفاً بمهام سرية، انظر مثلاً كتاب العيون، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ولابن سنجلا كتاب يذكره البيروني في الآثار الباقية، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (٩) لما مات عبد الله بن بختيشوع، كاتب الأموال في خلافة المقىدر، صودرت ثروته، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢١٤ .
- (١٠) ماري، ص ٨٨ . - عن موقف القانون السرياني الشرقي من المسألة، انظر: W. SELB et H. KAUFHOLD
- (١١) ماري، ص ٩٣ .
- (١٢) وزير من ٨٩٢ - ٩٠١ .
- (١٣) يذهب لويس ماسينيون، في Opera Minora ، ج ١ ص ٢٥٤ ، إلى أنّ حقّ النصارى في الميراث قد أبطل في خلافة المعتمد (٨٦٩ - ٨٩٢) ثم أعيد في خلافة المعتصم (٨٩٢ - ٩٠٢) ثم أُبطل في وزارة ابن الفرات الأولى (٩٠٩ / ٢٩٦) ثم أعيد في صورة جزئية في وزارة ابن الفرات الثانية. وإن المرء ليسترب من صحة هذه المعلومات التي لا تذكرة مصادره.
- (١٤) ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- (١٥) يجب أن يدرس موضوع «أعداء الإسلام». ربما كانت اللوحة الجدارية (البيزنطية) بقصدير

عمرة المصورة في b E.I.<sup>2</sup>, I, Pl. X بعد الصفحة ٦٤٠ من أوائل الشواهد على هذا الموضوع. وقد درست في مقالة رشيد بوروبه Les représentations figurées dans l'art des Umayyades en Syrie في مجلة التاريخ، الجزائر، عدد ٦ تموز ١٩٧٨، ص ٣١ والشكل ٩. ونجد فيها قيسر ورذرفيق، آخر ملوك القوط، وكسرى والنحاشي يمدون أيديهم علامة على أدائهم الطاعة. وهذا هو موضوع «ملوك الأرض» الذي كان يوجد في الفن الإيراني الساساني.

(١٦) أبو ابن مالك بن الوليد الذي صادفناه للمرة الأخيرة سنة ٣١٣ - ٩٢٥ / ٣١٤ - ٩٢٧.

(١٧) التنبية، ص ١٥٥.

(١٨) بمحى بن سعيد، P.O. XVIII, p. 711

(١٩) ربما كان المسلمين أيضًا ينتظرون على الروم لأجل ما فعلوه من حل المسلمين على النصرانية بعد صلح ملطية سنة ٩٣٤ / ٣٢٢، في بداية خلافة الراضي. فقد كان على المسلمين الراغبين في أن تسلم لهم أموالهم أن ينحازوا إلى خيمة نصب عليها الصليب، الكامل، ج ٨، ص ٢٩٦. أنظر أمثلة أخرى في مقالتي Rûm, p. 406-407 et notes

(٢٠) سعيد بن البطريق، ص ٨٧، Annales (CSCO. 51).

(٢١) الصولي، أوراق، ص ٧١، يسميه ما اصطفا.

(٢٢) الصولي، أخبار الراضي، ص ٧٥ - ٧٦، أما ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٥٧، فيظّن أن الطبيب تعمد قتل هارون.

(٢٣) الهمداني، تحملة، ص ٩٣.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٣٧٨، الصافي، ج ١٠، ص ٨٩، الرقم ٤٥٣٤.

(٢٥) ابن أبي أصبيعة، ص ٣١٥ - ٣١٦، الصافي، ج ١٣، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠.

(٢٦) ابن أبي أصبيعة، ص ٣١٧.

(٢٧) تعليق M. CANARD عليه في ترجمة الصولي، ج ١، ص ١٥٣ الحاشية رقم ٥.

(٢٨) E.I.<sup>2</sup>, I, p. 890-891, par M. CANARD

(٢٩) كاتب سابق لذكي الحاجب وكذلك كاتب محمد بن اينال التيجان، ووكيل بحكم في مفاوضاته مع البريديين، M. CANARD في ترجمة الصولي، ج ١، ص ٢٣٠ الحاشية رقم ٣.

DONOHUE, p.261 (٣٠)

(٣١) كانت هذه الدار بباب الشهاسية، وكانت لريق مولى إبراهيم ابن المهدى. وقد اشتراها اصطفن ثم ابتعها ابن سنجلا من ورثة اصطفن. ثم سكناها أخيرًا زيرك القهري الخادم.

الصولي، أوراق، ج ١ ص ١٤٦، كتاب العيون (مجهول المؤلف) ص ٣٤١.

(٣٢) الصولي، أوراق، ج ١، ص ١٤٦، تاريخ الزمان، ص ٥٦.

(٣٣) كتاب العيون، ص ٣٤١ - ولم يكن الراضي بشرب غير المطبوخ.

(٣٤) في كتاب الفخرى، ص ٢٢٦، انظر أيضًا: E.I.<sup>١</sup>, III, p. 1168-1169 s.v par K.V.

ZETTERSTEEN

(٣٥) يقول المسعودي في التنبيه، ص ٣٩٧ - ٣٨٨: «وكان جواداً محباً للأدب حسن الشعر»، وفي المروج، الفقرة ٣٤٦٨: «أديباً شاعراً».

(٣٦) الكامل، ج ٨، ص ٣٠٧ - ٣٠٩. - يلاحظ هنري لاوست في مقدمة كتابه عن ابن بطة ص XXXIX أن كتاب البداية ج ٩، ص ١٨١ - ١٨٢، أكثر تحفظاً في رواية الأحداث بينما لا يشير إليها كتاب دول الإسلام بأدنى ذكر.

(٣٧) P.O. XVIII, p. 711-712

(٣٨) كتب بمحى حوالي سنة ١٠١٣.

(٣٩) بداية، ج ١١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٤٠) تذكر المصادر هنا للمرة الأولى رجلاً من أعيان النصارى هو أبو عيسى المنذر بن النعيم العبادي الذي أدرك لوقا، مطران الموصل، على جسر دجلة هارباً متذمراً في زيه غير زيه ليتحاشى رسامة الجاثليق الجديد.

(٤١) ماري، ص ٩٤ - ٩٨، صلبيا، ص ٨٤ - ٩١، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٤٦ - ٢٤٨، إيليا التصيبي، تحت العام ٣٢٦، ٣٤٩ والخاتمة العربية ص ٧٥.

(٤٢) انظر جوابه في المخطوط: B.N. ar. 190, catalogue TROUPEAU, I, p. 161

(٤٣) تحارب الأمم، ج ١، ص ٤١٧ -

---

## ٢١ - المتنقي (٣٢٩ - ٩٤٠ / ٣٣٣ - ٩٤٤)

---

لم يبايع لأبي إسحق إبراهيم المتنقي بالله،<sup>(١)</sup> أخي الراضي، إلاًّ بعد خمسة أيام من وفاة سلفه، وذلك لكتلة ما هان على الناس أمر وجود الخليفة أو عدم وجوده. ويصف المسعودي ذلك فيجيد إذ يقول: <sup>(٢)</sup> «لَمْ نُرَسِّخْ لِوَصْفِ أَخْلَاقِ الْمَتَنَقِيِّ وَالْمُسْكَفِيِّ وَالْمُطَبِّعِ وَمَذَاهِبِهِمْ إِذْ كَانُوا كَالْمُولَى عَلَيْهِمْ لَا أَمْرَ يَنْفَذُ لَهُمْ». ذلك أن أمراء الترك والديلم وغيرهم كانوا يتعاقبون في بسط صولتهم على بغداد، وأضحت الولايات كأن كل واحدة منها مستقلة بذاتها «فصار الخلفاء مقهورين خائفين قد قعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة». ومن سوء الطالع أن بغداد شهدت، سنة تولي المتنقي، مجاعة ووباء وفيضاناً.<sup>(٤)</sup>

من الناحية السياسية، نجد سعيداً بن عمرو بن سنجلا يظهر بعد وفاة بحكم (٣٢٩ - ٩٤١)، فيصادره أحمد بن علي الكوفي على خمسين ألف دينار دفعها ابن سنجلا من دون أن يضرب أو يهان، وذلك لأنَّه كان قد ترقَّ في معاملة أَحَد لِمَا كان في مثل حاله من قبل. وقد ظهر أيضاً علي بن يعقوب صهره من مكمنته فصودر على ٧٠٠٠ دينار.<sup>(٥)</sup>

أما من الناحية الدينية، فنجد وفاة بحكم تطلق تحركاً حنبلياً. فقد نزل الحنابلة إلى السُّبُل يصيرون «طهرت السنة»، وحاولوا تهدم مسجد للشيعة والتعدّي على الضَّرَائِبِ إلَّا أنْهُمْ هدأوا من بعدهما أُلْقِيَ القبض على بعضهم وُضُرب بعضهم الآخر بالعصي.<sup>(٦)</sup>

في خضم الصراع بين فريقي الجيش من الديلم والترك تنقلت بغداد في تلك

الأيام من يد هؤلاء إلى يد أولئك وبالعكس، ثم وزير أبو إسحق محمد بن إبراهيم الاسكافي المعروف بالقراريطي وتقلد أمارة الأمراء كورتكين الديلمي، المكتفى بأبي الفوارس، في أول تموز ٩٤١<sup>(٧)</sup>. أما ابن سنجلا الذي كان قد دفع إلى القراريطي مبلغ ٥٠٠٠ دينار، فقد ظنَّ أنه أمن غائلته بذلك فذهب لزيارتة بصحبة سلفه. فلما حصل بذلك قبض عليهما وأمر بهما فضُرِباً، ثم اضطُرَّا إلى أن يدفعا<sup>(٨)</sup> مالاً لكي يفرج عنهما.<sup>(٩)</sup>

لا أحسبنا نجانب الصواب إذا قدَّرنا أن أدنى الكتاب النصاري مرتبة في تلك الفترة قد تأثرَ بเคลبات السياسة، مثلما كان الشعب يعاني من انعدام الأمن الناتج عن تحركات الفرق العسكرية على اختلافها... ويذكر هنا أيضًا رجل انتهازي<sup>(١٠)</sup> ببغداد «فتح على الناس أبواب المصائب على مصاريعها»، فثار به فتیان الحي (المسلمون) وقتلوه. وقد كاد الدليل أن يضعوا النار في الحي لو لم يتوصَّل الأمير كورتكين إلى منعهم من ذلك «فشهد له أهل الستر والرشاد برجاحة العقل وسداد الرأي».

في ٢١ أيلول ٩٤١ عُيِّنَ محمد بن رائق أميرًا للأمراء للمرة الثانية من بعدما فتك بالدليل.

### عمانوئيل وابن رائق

إن موهبة الجاثيقي في الرؤى قد أثاحت له إقامة علاقات مع أمير الأمراء. لم يلتقي الرجالان من قبل في ولاية ابن رائق الأولى (٣٢٤ - ٩٣٦ / ٣٢٦ - ٩٣٨)،<sup>(١١)</sup> لأنَّ عمانوئيل لم يكن قد نصب جاثليقاً بعد. لكن قبل عودة الأمير إلى السلطة، أي قبل ٣٢٩ / أيلول ٩٤١، وقع للكاتب النصاري أبي سعيد بن يشفور الداقوقى المولد (والنسطوري، إذن) خبر عجيب، يرويه ماري ويذكر إسناده.<sup>(١٢)</sup>

كان للكاتب النصاري صديق مسلم هو ابن آدم التاجر، الذي يحدد ماري بدقةً موضع داره. وقد أسرَ التاجر يوماً إلى صاحبه بأن يذهب في حيطة إلى تلك الدار، للقاء رجل تبيَّن أنه ابن رائق. بادر الأمير إلى الكلام فقال: «أَلسْت

نصراني؟» فلماً أجابه الكاتب بالإيجاب قال له ابن رائق: «صف لي الجاثليق» ويبدو أن الصفة كانت مقتنة لأنَّ الأمير قال للكاتب هذه الجملة الغامضة: «اذهب وتحصَّه بسلامي وقل له أنا على العهد». وانتهى الحديث عند هذا الحدّ وافترق الثلاثة تحت جنح الليل.

ولماً أدى الكاتب الرسالة إلى الحبُّ، حاول أن يستفهم منه عن حقيقة الأمر. ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين مع عمانوئيل لأنَّه كان «شرس الأخلاق». ومع ذلك فقد رضي الجاثليق بأن يروي القصة في آخر الأمر.

كان ابن سنجلا الكاتب قد نفي إليه أن ابن رائق الأمير قد سمع به قول الوشاة وأنَّه يسعى في هلاكه وهلاك جماعة من النصارى معه. فقصد الكاتب الجاثليق يتلمس منه العون. وقد أعاذه الجاثليق بأن ظهر هو والمسيح وشخص ثالث غير مسمَّى، في الحلم لابن رائق. فقال الشخص الثالث للأمير: «المسيح يقول لك: لم تعتقد القبيح بأبي الحسن بن سنجلا وأهل ملته، فأعدل عن هذا ليفرج عنك». ثم طمأن الجاثليق (في المنام أيضاً) ابن رائق إلى أنه سيفلح فيما يعزم عليه من أمور إذا وعد باحترام النصارى.

فلماً استعاد ابن رائق لقب أمير الأمراء واحتفظ به حتى اغتياله سنة ٣٣٠ / ٩٤٢، «وفي بالعهد وعامل النصارى بالجميل وتأكد ما بينه وبين الجاثليق». بعد أحداث أخرى كثيرة وقعت وبلايا عميمة حلَّت بغداد، اشتدَّ خطر البريديين على العاصمة، فاستهپن ابن رائق العامة ضدَّهم، حتى إنَّه فتح أبواب السجون وأخرج منها اللصوص وقطع الطريق لدرايتهم بمعالجة السلاح. إلا أنَّ هؤلاء انقلبوا على التجار والأثرياء... وانتهت الواقعة بفرار ابن رائق والخليفة في ٢٣ جمادى الأولى / ٣٣٠ / ٩٤٢.

حكم أبو الحسن البريدي بغداد لأنَّه مدة أربعة أشهر فحسب. وافتتح الخراج والجزية في آذار ٩٤٢/٣٣٠ في وقت يكون الدفع أصعب ما يكون. وقد كانت التحرّيات لهذا الغرض فرصة سانحة للنهب. (١٣)

لم يطل الوقت حتى قُتل ابن رائق ورجع الخليفة إلى بغداد في حماية أبي محمد

الحسن ناصر الدولة<sup>(١٤)</sup> الحمداني الشيعي صاحب الموصل. وقد كان له هو أيضًا وزير نصرافي (نسطوري) اسمه دنحا، كان يثق به و يوليه المهام، من ذلك أنه هو الذي جاء لولاه بالجيش والمال ليأخذ حلب سنة ٩٤٤/٣٣٣<sup>(١٥)</sup>

نلاحظ عابرين أنه لما اشتدت الماجاعة ببغداد سنة ٩٤٢/٣٣١ وانهد جسر السفن الوحيد على دجلة تحت وطأة الفيضان، اجتاح الروم قيليقية واستأنسوا من المسلمين خلقاً كثيراً وكتبوا إلى الخليفة أنهم لا يطلقون الأساري إلا إذا دفع إليهم منديلاً بكنيسة بالرها، عليه صورة وجه المسيح، وكانت الرها في أيدي المسلمين<sup>(١٦)</sup>. فاستحضر علي بن عيسى والفقهاء والقضاة واستشериوا، فأشار علي بن عيسى على الخليفة بتخليص المسلمين من الأسر، فسلم المنديل ونقل إلى القسطنطينية<sup>(١٧)</sup> سنة ٩٤٤.

إلا أن ملك الحمدانيين لبغداد لم يلبث أن ثقلت وطأته على الناس حتى «تمنَّ الناس بني البرidi وغيرهم مع ما ناهم من الفرج والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم. وشكى مع ذلك أن أمر الرفض قد أعلن في بغداد».<sup>(١٨)</sup>

ولما خاف الخليفة نفسه أن يُقْبَضَ، رأى أن يغادر بغداد مرّة ثانية ويحلّ بالموصل في كتف بني حدان وحمائهم. ويصف المسعودي، الذي شهد الحادث، بلبلة الناس وارتكابهم لدى رؤية الخليفة يرحل.<sup>(١٩)</sup> «وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت... من خروج أبي إسحاق المتنبي لله عنهم وما كان قبل هذا الوقت من البريديين وابن رائق وتوزون التركيين وما دفعوا إليه من الوحشة بخروج أبي محمد الحسن... الملقب بناصر الدولة»... الخ.

في النصارى نجد طازاذ عمتل ابن شيرزاد ببغداد يعنى من مهماته<sup>(٢٠)</sup> ويلحظ الصولي<sup>(٢١)</sup>: «أن الجوالى لسنة اثنين [وثلاثين وثلاثين] قد فتحت في شهر ربى الأول (٢ تشرين الثاني / أول كانون الأول ٩٤٣) فلحق أهل الذمة خطب عظيم وظلم قبيح».<sup>(٢٢)</sup>

فضلاً عن هذا نجد لعبة الترقيات والنكتات تُظهر الكتاب النصارى على مسرح الأحداث ثم تغمرهم وتفعل مثل ذلك بنظرائهم المسلمين. ففي الفاتح من

شوال ٣٣٢ / ٨ حزيران ٩٤٣، قُبض أبو علي سعيد بن داود المسيحي، طبيب توزون الشخصي وأخوه أبو عمرو فهد وابن خالته، وضرروا ضرراً مبرحاً ليقرروا بالله. وفي المحرم ٣٣٣ / ٢٤ آب - ٢٢ أيلول ٩٤٤ عادوا إلى مناصبهم وكأن شيئاً لم يكن.<sup>(٢٣)</sup>

وفي أواخر أيلول وأوائل تشرين الأول من السنة عينها يظهر الجاثليق عمانوئيل في صورة غير مشرفة في نص الصولي:<sup>(٢٤)</sup> «ووجه الأمير بقوم من أصحابه، فأمرهم أن يكبسو أهل الريف من النبادين<sup>(٢٥)</sup> والقوادين، وتعطيل ما يجري من أمر النبادين بدار الروم بالجانب الشرقي، ونسب ذلك إلى الجاثليق، وأنه له عليهم قائماً، وأنه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم [كذا!] وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاذ وابن سنجلاء، وعطف بعد ذلك على النبادين والقوادين، فحبس منها عاقب، وسكن أمر البلاء قليلاً».

انتهت خلافة المتنبي بصورة مأساوية. فقد ألقى عليه القبض الأمير توزون التركي. وبعد أخذ البيعة لأبي القاسم عبدالله بن المكتفي، أكره توزون المتنبي على خلع نفسه، ثم أمر به فسملت عليناه، «فصاح، فأمر أصحاب الدبابب فضرروا بها، فصاح فلم يسمع صياغه». <sup>(٢٦)</sup> كانت سن الخليفة المخلوع ٣٦ سنة، ولم يمت إلا سنة ٣٥٧ / ٩٦٨، أي بعد ٢٤ سنة.

## الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ٣٤١ - ٣٤٢، الرقم ٢٤١١.

(٢) التنبية، ص ٤٠٠.

(٣) يقول ابن الطقطقي، ص ٢٢٩، أنه «لم يكن له من السيرة ما يؤثر».

(٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٧، E. ASHTOR, dans Un mouvement migratoire au Moyen Age, migration de l'Irak vers les pays méditerranéens, Annales 27 (1972), p. 185-214 (reproduit dans the Medieval Near East, Variorum Reprints, 1978).

هجرات التجار على مدى هذا العهد (ص ١٨٦)، وكذلك هجرة كتاب كبار إلى مصر، من

- أمثال أبي يعقوب إسحق بن نصیر البغدادي (ت ٩١٠) الذي رأس دیوان الإنشاء لأحمد بن طولون (ص ١٩٠، إحالة إلى إرشاد الأریب لیاقوت، ج ٦، ص ٢٣٧ - ٢٣٨).  
 (٥) الصویلی، ج ٢، ص ١٩٨.  
 (٦) المصدر نفسه، ص ١٩٨.  
 (٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٤. ویسمیه ابن مسکویہ کورنکیج، تجارب، ج ٢، ص ١٩.  
 (٨) الصویلی، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٥: ١٣٠٠٠ دینار، وینذکر ابن مسکویہ، ج ٢، ص ١٩: ١٥٠٠٠ دینار!  
 (٩) المداني، تکملة، ص ١٢٤، ابن مسکویہ، ج ٢، ص ٢٥.  
 (١٠) الصویلی، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٦.  
 (١١) E.I.<sup>2</sup>, II, p. 926-927, par D. SOURDEL . وقد اختباً أول أمره عند بعض النصارى ببغداد من بني حسان، كتاب العيون، ص ٣١٦.  
 (١٢) أبو علي الحسن بن سليمان بن الجمال.  
 (١٣) BOWEN, p. 374  
 (١٤) الصویلی، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٢٩، الذہبی، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٩، ابن كثير، ج ١١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.  
 (١٥) نشوار، ج ٣، ص ٢٤ - ٢٥. كان معسکر انطلاق سيف الدولة بدیر الأعلی بالموصل.  
 (١٦) تاريخ الزمان لابن العربي، ص ٥٧. يحيى، ص ٧٣٠ - ٧٣٢، P.O. XVIII يقول يحيى بن جریر في كتاب المرشد إنه رأى المنديل بكنيسة القدس صوفيا سنة ٤٥٠/١٠٥٨ - ١٠٥٩، ولكنه ينطويء إذ يقول إنَّ المنديل ظلَّ بالرُّها حتى العام ٤٢٩/١٠٢٩، كتاب المرشد، الفصل ٣٥، في سمیر خليل في Islamochristiana, 2 (1976), p. 217.  
 (١٧) BOWEN p. 380-382 . – خلافاً لرأي IAN WILSON في كتابه The Turin Shroud (London, 1978) أعتقد أنني قد بیست في La revue d'histoire ecclésiastique (Louvain, 1987) don, 1978) أنه يجب التمييز بين المنديل وبين كفن تورينو.  
 (١٨) الصویلی، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.  
 (١٩) مروج، الفقرة ٢٦٦٢.  
 (٢٠) الصویلی، ج ١، ص ٢٤٥.  
 (٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥١.  
 (٢٢) في السنة ذاتها فرض لص اسمه حمدي، بالتوافق مع ابن شيرزاد فيما قبل، إثابة على أهل بغداد يفتدون أنفسهم منه بها. ثم ظفر به اسکرج الدیلمی صاحب الشرطة وقتلها، السیوطی، ص ٣٩٦، ابن الأثیر، الكامل، ج ٨، ص ٤١٦.  
 (٢٣) الصویلی، ج ١، ص ٢٧٧.  
 (٢٤) الصویلی، ج ١، ص ٢٨٠.

(٢٥) عن أحكام الشيع في شأن الخمر انظر مقالة A.J. WENSINCK E.I.,<sup>2</sup> IV, p. 1027-1029.

(٢٦) الصولي، ج ١، ص ٢٨٢.

(٢٧) مجىء، ص ٧٣٧، P.O. XVIII

---

## ٢٢ - المستكفي (٣٣٣ - ٩٤٤ / ٣٣٤ - ٩٤٦)

---

كان أبو القاسم عبدالله المستكفي بالله، ابن المكتفي وابن عم المُتّقي في «سائر أوقاته فازعاً وجلاً» كما وصفه بعض خدمه النصارى.<sup>(١)</sup> وليس لنا أن ننكر عليه هذا لأن ذكرى سلفه (المخلوع والمسمول) كانت مائلاً أمام ناظريه.

بعدما مات توزون في المحرّم من العام ٩٣٤ / آب - أيلول ٩٤٥ وللأتراك الأمر لكاتبه ابن شيزاد،<sup>(٢)</sup> وفي إثره لا نزال نجد كاتبه طازاد<sup>(٣)</sup> النصراوي.

### معزّ الدولة

بيد أنَّ السلطة سرعان ما انتقلت من أيدي الترك (السنّة) إلى أيدي البوهين<sup>(٤)</sup> (الشيعة). كانت أخبارهم قد بدأت تتوارد منذ مذكرة من الزمن، وكانتوا يقتربون من العاصمة، في كانون الأول ٩٤٥ دخل أحمد بن بويه «الديلمي الأقطع»،<sup>(٥)</sup> إلى بغداد، بعد أن كان قد بسط سيطرته على البصرة وواسط والأهواز، فخلع عليه المستكفي لقب معزّ الدولة. وهكذا «ضاعت دولته» بني العباس، كما لاحظ البويري،<sup>(٦)</sup> منذ أن أفرطوا في خلع الألقاب المنسوبة إلى الدولة على أعوازهم.

بعد شهر أو أكثر من الشهر بقليل، على دخول معزّ الدولة بغداد، خلع الأمير الخليفة وسمّل عينيه (في كانون الثاني ٩٤٦). وكان المستكفي قد ساد (إذا جاز القول) سنة وأربعة أشهر.<sup>(٧)</sup> لم تكن هناك مناسبة للكلام عن النصارى خلال هذا العهد القصير الذي ابتليت فيه بغداد بالمجاعة المستمرة.

كان وصول البوهرين إلى بغداد، بالنسبة إلى المسلمين، فاتحة عصر جديد من عصور الخلافة: عصر السيادة الشيعية. كانت ردّة فعل المتكّل السنّي على الخلافة المعزّلية قد تورّطت في الرّمال الخاسفة لأزمة الخلافة التي استمرّت منذ العام ٨٦١/٢٤٧.

لم تكن الحقبة البوهية أصعب من سابقاتها بالنسبة إلى النصارى. فقد وقعت بعض فورات العنف والقرارات التميّزية، بيد أن الكتب والأطباء النصارى كانوا دائمًا في الواقع المناسب على مقربة من أصحاب الصولة. وقد كان نفوذهم بارزًا أحياناً ومغموراً في أغلب الأحيان. ولئن ذابوا واختفوا من بعض المناطق فذلك بسبب التأكيل، بسبب التّعب، بسبب السأم من كونهم «مختلفين» لا بسبب الاصطدامات العنيفة.

## الحواشي

- (١) أبو إسحق إبراهيم بن الوكيل، أنظر مروج الذهب، الفقرة ٣٥٥٣. كان أبوه إسحق الوكيل متصرّفًا في خزانة الشراب والكسوة بدار الخلافة، مروج، الفقرة ٣٥٤٣.
- (٢) يحيى، ص ٧٤١ - ٧٤٢ (P.O. XVIII)
- (٣) تحارب الأمم، ج ٢، ص ٨٧. ويقتفي الأب DONOHUE أثره حتى العامين ٩٤٧/٣٣٦ - ٩٤٨/٣٤١ و ٩٥٣ - ٩٥٢/٣٤١.
- (٤) انظر مراجع ببليوغرافية عن البوهرين تحت اسم: فاروق عمر.
- (٥) يحيى، ص ٧٤٢.
- (٦) الآثار الباقيّة، ص ١٣٢.
- (٧) مروج، الفقرة ٣٥٣٥.

---

## ٢٣ - المطیع (٣٣٤ - ٩٤٦ / ٣٦٣ - ٩٧٤)

---

هل أراد معز الدولة إلغاء الخلافة نهائياً، على ما اتهمه به ابن كثير<sup>(١)</sup> المهم أنه نصب خيال خليفة في شخص أبي القاسم الفضل الذي تلقب بالمطیع لله والذي ربما كان أليق به أن يتلقّب بالمطیع للبوهين.<sup>(٢)</sup>

وقد أدرك المسعودي ذلك إذ ختم مروجحه بهذه الجملة المعبرة عن الاشمئاز: «وغلب على الأمر ابن بوه الديلمي والمطیع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر».<sup>(٣)</sup>

وهذا لا يعني أنَّ السلام ساد من أول ما دخل ابن بوه إلى بغداد. فقد كان على معز الدولة محاربة ناصر الدولة صاحب الموصل<sup>(٤)</sup> في السنة الأولى لخلافة المطیع أي سنة ٩٤٥/٣٣٤. كان كل واحد منها يملك على أحد شطري بغداد: البوهبي على الجانب الغربي والحمداني على الجانب الشرقي. ولما هرب هذا من حملة المعز عليه هرب كثير من سكان ذلك الجانب معه فهات عشرة آلاف على الطرق، ودخل الديلم ووضعوا السيف فيمن بقي ونهبوا الدور واستباحوا النساء.<sup>(٥)</sup> ومن الصعب أن نعرف هل هرب النصارى أيضاً أم لا. فالمعروف أنهم كانت لهم كنائس ومحال في الجانب الغربي وفي الجانب الشرقي، وبخاصة في أحياء الشهاسية إلى الشمال حيث كان مقرَّ الجثالة وأحياء سوق الثلاثاء إلى الجنوب.

ونقرأ أنَّ المجاعة أصابت بغداد في العام ٩٤٥/٣٣٤ أيضاً.<sup>(٦)</sup> وليس في الأمر ما يستغرب نظراً إلى الظروف. ويذكر ابن العبري أنَّ بعض المنججين قد كان تبنّاً بها. وينبغي لنا الانتظار حتى العام ٩٥٠/٣٣٩ لنجد المؤرخ نفسه يذكر<sup>(٧)</sup> «حدوث رخص وافر» وهو قليلاً ما يفعل هذا.

بعد عامين من ذلك التاريخ شبّ حريق في الأحياء الجنوبيّة الشرقيّة من بغداد، بسوق الثلاثاء حيث كان يسكن بعض النصارى، كما تقدّم، فهات به خلق كثير.<sup>(٨)</sup> وفي العام التالي اندرًا الجراد على نواحي بغداد والموصل فغلت الأسعار.<sup>(٩)</sup>

ولا يدهشنا أن تقل الأخبار عن النصارى في أثناء تلك السنين الطوال العجاف، فعندما يستغل المرء بسده الرمق، لا يفّكر في كتابة التاريخ.

ها بعض الأمارات على تحسّن الأحوال: الجاثليق عمانوئيل يظهر ويهتم بإعادة البناء. نحن الآن في العام ٩٥٣/٣٤٣ - ٩٥٤، ولا بدّ من ترميم كنيسة دار الروم بالشّماليّة إلى الشمال الشرقيّ من العاصمة وكنيسة الدير الذي بحالة العتيقة، ترميماً مهماً.<sup>(١٠)</sup> أمّا الأولى فقد طالب بذلك أبناء الرعية، وأمّا الثانية فأبّ الجاثليق، وأمّا الحصول على الإذن الرسمي فهو سطة الطبيب أبي علي سعيد بن داود المسيحي.

وأتفق أن اشتري رجل من أعيان النصارى، هو أبو عيسى المنذر بن النعمان العبادي الذي صادفناه من قبل، أبواباً للهيكل ثمنها مئة دينار. وكانت الأبواب جاهزة في سوق النجارين تنتظر من ينقلها لما أمر الجاثليق فجأة بأن تحمل على الفور. في اليوم التالي فهم المقربون من الجاثليق استعجاله الأمر، لما اتصل بهم الخبر بأن سوق النجارين بباب الطّاق احترق كله ليلاً. لم يكن عمانوئيل قد فقد موهبة الرؤيا الصادقة بعد خيبة العام ٩٤٤.

وقد التزم بنفقات الترميم (للكنيستين؟) أبو علي بن غسان النصراوي كاتب ركن الدولة بن بويع.

## الشيرازيون ببغداد

يدلّ الاسم الأخير المذكور على أنَّ النصارى انخرطوا في خدمة الأسياد الجدد، وقد كان البعض منهم مع أولئك الأسياد منذ أن كانوا في الأعمال الإيرانية من الخلافة حيث بدأ البوهيمون بالتّوسيع. إذ نجد في خدمة عباد الدولة على، وهو من أوائل بني بويع، الذي حكم فارس من شيراز (من قيل الخليفة الراضي مبدئياً) من ٣٢٣ إلى ٩٣٥ - ٩٣٧، وزيره النصراوي الرّازي أبا سعد إسماعيل بن

موسى. (١١) وقد صحب هؤلاء النصارى موالיהם إلى بغداد حيث صار في طائفة النصارى هناك جماعة ضاغطة جديدة، هي جماعة الشيرازيين، (١٢) إلى جانب جماعات أهل المدائن وأهل الحيرة وأهل كسکر، أصحاب التفوذ التقليدي.

منذ العام ٩٤٨/٣٣٧ يظهر أيضًا في خدمة البوهيمين واحد من معارفنا القدامي، إنه ابن سنجلا الذي عمل آثئِنًا كاتبًا على الضياع بسوان بغداد، للأمير روزبهان بن ونداد خورشيد الديلمي، أحد قواد معز الدولة. (١٣)

ولما خالف هذا القائد على معز الدولة سنة ٩٥٦، قلق الأمير البوهي: هل يطيعه جنده من الديلم في محاربة رجل من جنسهم؟ هل يقدر الترك وحدهم على كسره؟ ثم ألن يغتنم الحمداني، صاحب الموصل، الفرصة لينقض عليه من الشهال؟ لذلك أوعز معز الدولة إلى خازنه النصراوي أبي علي الحسن بن إبراهيم الشيرازي (١٤) بأن يعُذُّ الزوارق ليجيَّل ولده وحرمه وأمواله إلى البصرة. قبل أن يرسلهم بعث الخازن أبي الحسن عليًّا بن عون المسيحي ليستشير الجاثليق المعروف بصدق رؤاه: عم ستنجلي المعركة بين المعز وبين روزبهان؟ فأجاب عمانوئيل: «بأنَّ الخبر يأتيه في مستهل الشهر بما يسر وبالظفر». (١٥)

وهذا يفسّر لنا لم تُمْتَّع الجاثليق ببعض المكانة لدى البوهيمين. وقد قلق الخازن يوماً (بتاريخ غير محدّد) على صحة مولاه (وعلى مستقبله هو أيضًا)، وكان الأمير يعاني من حصى في المثانة فأرسل الخازن ابن أخيه إلى عمانوئيل يسأله: هل حياة الأمير في خطر؟ فأجابه الخبر: «قل له ليس يتَّدَّى بموت معز الدولة وكان ذلك رمزاً على أن يموت قبله».

## عدد النصارى

لم نتكلّم حتى الآن عن عدد النصارى. إن تقدير هذا العدد يفترض القدرة على تكوين فكرة، على شيء من الوضوح، عن تطور عدد السكان في مدينة معينة (بغداد مثلاً) أو ناحية معينة، ومقارنة هذا العدد بالمبالغ المجموعية من جزية الرؤوس.

ولئن جرّبت دراسات كهذه على بعض المدن<sup>(١٦)</sup> فأئمّا ستصطدم، إذا ما طبّقت على بغداد، بتناقض شهادات المؤرخين. نقرأ عند التتوخي،<sup>(١٧)</sup> مثلاً، أنَّ سكان المدينة في الفترة التي وصلنا إليها، أي سنة ٩٥٦/٣٤٥ في خلافة المطيع، صاروا إلى عشر ما كانوا عليه في خلافة المقتدر ٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠. ٩٣٢. فكيف يجوز له A. ABEL أن يكتب<sup>(١٨)</sup> أنَّ سكان بغداد كانوا يزيدون على مليون نسمة في أيام المقدسي<sup>(١٩)</sup> ٩٥٦/٣٥٥، أي في خلافة خلف المطيع؟ هل كان عدد سُكّانها عشرة ملايين نسمة إذن قبل خسین سنة؟

أما الجزية في بداية القرن الثالث / التاسع، فقد كان ارتفاعها من بغداد ١٣٠٠٠ درهم وفي بداية القرن الرابع / العاشر، ١٦٠٠٠ دينار.<sup>(٢٠)</sup> ويرى متز<sup>(٢١)</sup> أنَّ هذين الرقمين يدلان على أنه كان في بغداد نحو من خمسة عشر ألفاً من أهل الذمة يدفعون الجزية، ويجب أن نسقط منهم ألف يهودي. ونستطيع أن نقول بشيء من اليقين إنَّه كان في بغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصارى<sup>\*</sup>. لا بدَّ من إعادة درس هذه الأرقام، ولكن هل تفي الوثائق بمثل هذه الدراسة؟ يذهب ياسين العمري في كتاب الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، وهو مؤلف موصلٍ من القرن الثامن عشر، إلى أنه كان في بغداد في زمن الغزو المغولي ٥٦ كنيسة وأن ٤٣٠٠ رجل كانوا يدفعون الجزية فيها. ويعلّق الأب بطرس حداد الذي يورد النصَّ في مقالة بمجلة بين النهرين<sup>(٢٢)</sup> قائلاً: «ونحن نرى أنَّ في قوله عن عدد الكنائس مبالغة كبيرة». ويبدو أنَّ ثمة مبالغة أيضاً في عدد النصارى، إذ لو حسبنا متوسط الأسرة خمسة أشخاص لوجب أن يكون عدد النصارى أكثر من مئتي ألف؟

لقد حفلت أواخر جملة عمانوئيل الطويلة بجملة بلايا: وباء في العام ٩٥٧/٣٤٦<sup>(٢٣)</sup> حروب بين أحياء بغداد وحرائق متبدلة سنة ٩٥٩/٣٤٨، وفي السنة عينها جفاف وجراد.<sup>(٢٤)</sup>

مات الباحث في صفر ٣٤٩ / نيسان ٩٦٠ عن جملة دامت أكثر من ٢٢ سنة. «كان شيئاً بهياً قديساً ولم يكن له إلا عيب واحد، وهو محبة المال وشدة الشح عليه». وقد ترك سبعة آلاف مثقال ذهباً وست مئة ألف درهم. «وكان قد أعدَّ لنفسه تابوتاً من خشب الجوز على مثال الذوات بغير مسمار ولا حديد». وكان

من آخر كراماته أو (علائم طمعه؟) أن يده الميّة قبضت على «العكاز» عندما وضع على جثته. وقد أوشك أبو عيسى أن ينشر الخبر إلا أنّ شاباً الكاتب منعه: كان لا بدّ من إكمال مراسم الدفن التي شهدت تنازعًا على شرف قراءة فصل من رسائل القديسين بين أهل المدائن وأهل الحيرة... .

بالنسبة إلى الجماعة في الموصل سنة ٩٦١/٣٥٠، يطلعنا ابن العبري<sup>(٢٥)</sup> على إحدى نتائج هذه الكوارث المستوطنة: هجرة السكان، ولا سيّا النصارى منهم، بحيث تحولوا تدريجيًّا إلى أقلية بدار الإسلام. في تلك السنة ذهب اليعاقبة حتى ساحل البحر المتوسط. وهكذا بنيت بطرابلس الشام كنيسة باسم «الشهيد المجيد مار بنهان» الذي لا يزال موضع استشهاده معظماً بالقرب من الموصل. أمّا الكنيسة التي بطرابلس فنجهل حتى موقعها.

وفي هذه السنة ذاتها، ومع استمرار الغلاء واتصال الفتنة في شطري بغداد،<sup>(٢٦)</sup> مات أبو إسحق بن ثوابة النصراوي كاتب الخليفة ومعزّ الدولة. وقد أنيط الانتهاء من بعده بيابراهيم بن هلال الصابيء المعروف. ويشير H. BUSSE، في هذا الشأن، إلى أنّ خدمات الخليفة وأمير الأمراء كانت توكل آثئًّا إلى نفس الكتاب. وفي هذه الحالة المخصوصة كان لبني ثوابة عدد من الرجال، بعضهم نصارى وبعضهم مسلمون في دواوين الخليفة منذ أيام المعتصم.<sup>(٢٧)</sup>

وفي العام ٩٦١/٣٥٠ - ٩٦٢، وصل أبو الحسن سعيد بن عمرو بن سنجلاء إلى قمة مراتبه. فصار كاتب الخليفة الخاص، ويذهب H. BUSSE إلى حدّ اعتباره بمناثبة وزير.<sup>(٢٨)</sup>

## خلف عمانوئيل

كانت الاستعدادات جارية لانتخاب خلف لعمانوئيل. وكانت القضية في يد العلمانيين: اتفق أول الأمر كلُّ من أبي عمر بن عديّ كاتب سبكتكين الحاجب<sup>(٢٩)</sup> وأبي علي الخازن على انتخاب مطران جنديسابور، وكان الآباء المسيمون على تية الموافقة لما غير أبو علي رأيه

XVII

واختار إسرائيل أسقف كسكي، العجوز الذي طوى تسعين حوالاً رفض الآباء وأبو عمر بن عدي هذا الحلّ. وما تظاهر أبو علي بفرضه من قبل الخليفة ومعز الدولة لاذ بعض الأساقفة بالفرار لكي لا ينتخبوا إسرائيل.<sup>(٣٠)</sup>

لماذا تمسك الخازن بهذا المرشح؟ ذلك لأنّ إسرائيل أيضًا كان «يُخبر بالغيب»... ففي العام ٩٤٧/٣٣٦، لما خرج الخليفة وأمير الأمراء لمحاربة أبي الحسين البريدي<sup>(٣١)</sup> بالبصرة، توقيعاً بواسط (كسكي) حيث كان إسرائيل أسقفاً. ففتح إسرائيل للخليفة (لا للأمير!) باب المذبح، حيث لا يجوز الدخول إلا للقس الصائم.<sup>(٣٢)</sup> فسألَه أبو علي الخازن الذي كان في صحبة الخليفة: «هل يظفران؟»، فتبّأ الأسقف بأنّهما يطردان البريدي من البصرة.

والآن بعد أربع عشرة سنة من تلك النبوءة أراد الخازن مكافأة صاحب الرؤى. أما أبو الحسن بن سنجلا فلم يشترك في عملية الانتخاب لأنه رأى ما جرى في غيرها من قبل، بل إنّه لما رأى جيورجيس مطران الموصل الشاب يطعم في الكرسيّ، قال له ببساطة: «الدور الآخر».

دبرَ الخازن كلّ شيء الرسامة والراكب لنقل الجاثليق الجديد إلى بغداد، الخ. وكان ذلك يوم الخميس ١١ ربيع الآخر ٣٥٠/١٩٦١ أيار. وقد بقي إسرائيل في السدّة مئة وعشرة أيام، ومات يوم الثلاثاء الثالث من شعبان / ١٧ أيلول. ثم تبعه الخازن إلى القبر بعد ستة أيام: فرأى الناس في موته عقاباً من الله. عندئذٍ خرج الأساقفة الهاريون من مخابئهم، فقد صار في وسعهم اجراء انتخابات جديدة من دون الخازن.

## انتخاب عبد ايشوع الأول

XVIII كان انتخاب عبد ايشوع<sup>(٣٣)</sup> من أكثر الانتخابات تعقيداً (وقد رأينا شيئاً من غرائب ذلك) في سلسلة خلفاء مار ماري على كرسيّ المداين. كان عبد ايشوع ابن بعض اللاجئين من كرخ جُدّان بالموصل، وقد تعلم المنطق على ابن نصيحة الذي أخذ عن موسى بن كيفا. كان عبد ايشوع أسقفاً على مَعْلَثَا وبانوهدرنا

إلى الشمال من الموصل لما اتفق «الآباء المؤمنون» على اسمه. كان أهل بغداد قد بدأوا باستئجار المراكب لينحدروا بها إلى المدائن ويحضرها رسامة الجاثليق بكنيسة كوخى، وكان هارون بن حنون كاتب سبكتكين الحاجب قد اشتري كلّ ما يلزم للرسامة وإذا بالجميع يُصدّمون باعتراض المطبع<sup>(٣٤)</sup> من قيل معز الدولة. ذلك لأنّ طبيباً قسّاً من دار الروم، اسمه فثيون، كان قد اشتري المنصب<sup>(٣٥)</sup> في تلك الأثناء. فقد دفع هذا القس «الذى كان حسن الحال» مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم ليكسب الأصدقاء، ومنهم اسکورج الديليسي.

حاول «المرشح» أن يضع يده على الكنائس إلّا أنّ الأساقفة تهاربوا منه: عاد مطران الموصل إلى بلده مع «العرب» (الحمدانيين) واختبأ الآخرون. وسارع الوزير المهليبي<sup>(٣٦)</sup> إلى وضع القلية تحت الحراسة.

بعد بعض محاولات حلّ الأزمة دعا الوزير بأعيان النصارى وقال لهم بلا مواربة: إذا أردتم غير فثيون فاعطوني عوض ما بذله فثيون، وبعث الأمير معز الدولة أبا مخلد عبدالله بن يحيى، نائب ركن الدولة، إلى القلية ليفتشها. كان أبو مخلد هذا نصرايّاً من قبل وكان يترقّف في معاملة أبناء ملته الأولى. فاتّفق معهم على أن «يضبط» هناك مبلغًا زهيداً (١٢٠٠٠ درهم) ويوقف التفتيش. ولما قدم المبلغ إلى معز الدولة تلّطف في إظهاره وكأنّه «من صدقات النصارى على الضعفاء والأيتام». فتحرّج الأمير من قبض المال وأمر برفع الحراسة عن مقرّ الجاثليقة، ومنعهم من التعرّض لرجال الكنيسة بها.

كانت تسعة عشر شهراً قد انقضت في تدبّر القضية لما دعا الوزير بأعيان مجده من أجل مصالحة تبع الانتخاب. عندها وقعت مشادة بين المهليبي وابن سنجلا، حامية إلى حدّ أن قلب الكاتب العجوز لم يحتملها، فهات، وكان ذلك سنة ٩٦٣.

أخيراً تُوصل إلى حلّ وسط: يدفع النصارى مئة ألف درهم، وثلاثين ألفاً للوزير. ومن أجل جمع المبلغ، بيعت الأواني النفيسة التي بالكنائس، وأكمل المبلغ من تركة عمانوئيل، وبذلك جاءت أموال العجوز البخيل في محلّها.

أعيدت عندئذٍ الانتخابات. نلاحظ عابرين اعتراف بعضهم على أحد المرشحين: لأنّ أخيه كان قد أسلم. أخذ بالاعتراض وسحب اسم المرشح. وذكر المعجمي المعروف أبو الحسن بن البهلوان اسم أسقف معلناً الذي نسيه القوم. فخرج هذا الاسم بالذات ثلث مرات عندما أقيمت القرعة<sup>(٣٧)</sup> على الأسماء.

وكما جرى مع عمانوئيل اضطرّ الآباء إلى مطاردة الجاثليق المنتخب الذي لم يكن حاضراً. ولما كانت أبرشيته تلحق بالموصى كتب معزّ الدولة إلى ناصر الدولة الحمداني، وكتب المهلبي إلى دنحا الوزير النصراوي عند الحمداني، وكتب رؤساء النصارى إلى مطران الموصل بإرسال المنتخب في أقرب وقت. وطلب الكاتب النصراوي أبو العلاء صاعد<sup>(٣٨)</sup> إلى ابن بهلو أن ينشئ الرسائل.

سار البريد وأسرع، وقطع ما يقارب ٤٠٠ كلم في أربعة أيام. وكان لا بدًّ من إكراه عبد ايشوع على الركوب إلى بغداد، لأنه كان قد استقال لتوه، حتى من أعيان الأسقفيّة. ولما حصل ببغداد نزل هو وصحابه الموصليون في ضيافة أعيان البلد. ومن هؤلاء الأعيان يذكر ابن زهمان،<sup>(٣٩)</sup> الذي كانت داره بحي العتيقة بضاحية بغداد الغربية. ثم انتقل الجاثليق المنتخب إلى منزل طازاذ بالجانب الشرقي من بغداد، ومنه إلى منزل أبي العلاء صاعد. ومن هناك هرب الجاثليق المرغم فأدركوه، وكانت رسالته في ٢٤ ربيع الأول سنة ٩٦٣/٣٥٢ نيسان.

كان سيء التدبّر إلى الغاية، فترك أموال الكنيسة نهياً لتلاميذه و أصحابه حتى ثارت عليه رعيته. فهرب عندئذٍ من دار الروم إلى دير مار قيثون بالجانب الآخر من دجلة، فلما لحق به المتمردون اعتذروا منه وغفروا له ما فعل من أجل تقواه.

ما كانت حال النصارى خلال سني جثلنته الثلاث والعشرين؟

الخبر الأول الذي نصادفه سنة ٩٦٣/٣٥٢ حادث عابر يلفت انتباها إلى الأدوار المتّنوعة التي رجّاها قام بها النصارى لدى الأمراء... جرى الحادث بحلب عند الحمدانيين: فقد طعن هبة الله ابن ناصر الدولة بحربته كاتباً نصراوياً يدعى أبو الحسين بن دنحا،<sup>(٤٠)</sup> الذي «كان خصيضاً بسيف الدولة». وكان الكاتب «يتعرّض» لأحد غلمان هبة الله، «فغار لذلك».<sup>(٤١)</sup>

صادفنا من قبل ماراً أبا العلاء صاعداً بن ثابت الكاتب النصراوي، لدى انتخاب الجحالفقة. فبعدما كان رجل المهلي الثقة، وحتى نائبه، وحبس ثم أطلق عدّة مرات، نراه في العام ٣٥٣/٩٦٤ يرافق معزّ الدولة في رحلته الثالثة إلى الموصل. وقد صار أبو العلاء أيضاً وزيراً بلا لقب وذلك في تموز/ آب ٩٧٧، لما تخرج من الحبس بعد سقوط ابن بقية.<sup>(٤٢)</sup>

كان الجُوَّ العام ببغداد آنئِلْ جُوَّ توتُّر بين السنة وبين الشيعة يدعمهم الأمير. وفي العاشر من المحرم سنة ٣٥٣ـ/٢٩ كانون الثاني ١٩٦٤، وقعت فتنة بين الفريقين سقط من جراءها البرجواز، ونهبت الدور.<sup>(٤٣)</sup>

ونشير أيضاً، قبل غياب معز الدولة إلى طبيب نصراني من أطبائه، اسمه دانيال، ضربه الأمير فهات منها.<sup>(٤٤)</sup> في الوقت ذاته اتّخذ المطيع أطباء من صابئة حران وكان له طبيب نصراني معروف هو إسحق بن شليطا، الذي سبق مولاه إلى القبر.<sup>(٤٥)</sup>

في العام ٣٥٦ / نيسان ٩٦٧، مات أخيراً أول من دخل بغداد من البوهين، أمير الأمراء معز الدولة.<sup>(٤٦)</sup> ويخصه ماري بتعليق موجز بليلع: «كان يحب النصارى»، ويدرك الخبر التالي دليلاً على هذه المحبة: لما أراد الأمير، في العام ٩٦١ / ٣٥٠<sup>(٤٧)</sup>، بناء قصره المطل على دجلة بالدور، إلى الغرب من الشياسيّة، احتاج إلى تهديم بعض مصلّيات المسلمين بتلك المحلّة، إلا أنّه لم يتعرّض لكنيسة مار اصطفانوس التي كانت تعرف أيضاً ببيعة الدور. ويجب أن نشير إلى أنّ شيخ مار اصطفانوس قد تراءى للأمير وتوعّده، ولا أحد يزح مع الأشباح. ولكن تذكّرنا مواهب الجاثليقيين عمانوئيل وإسرائيل في التنبؤ، فهمّنا لم كان معز الدولة يحب» النصارى.<sup>(٤٨)</sup>

على أية حال يجب أن توضع قضية النصارى في الإطار العام لذلك العهد. فكما يكتب هنري لاوست: (٤٩) «لقد انفجرت بيغداد، منذ أيام معز الدولة، فتن خطيرة الشأن كان من جرائها تصادم السنة والشيعة تصادماً دموياً أحياها كثيرة من بعد، وذلك لدى إقامة شعائر عاشوراء في العاشر من المحرم، ويوم غدير خم في الثامن من ذي الحجة... يوم ولى النبي محمد الإمام علياً خلفاً شرعياً له».

خلف معَزَّ الدولة ابنه عُزُّ الدولة بختيار، الذي يطنب ابن الأثير في ذكر سوء سيرته<sup>(٥٠)</sup> يبدو أنَّ طبيبه فنُون<sup>(٥١)</sup> كان نصرانياً وقيل إنَّه كان يشتغل في السفارة بين الأمير والخليفة، ولا يُعرف له دور سياسي آخر.

في العام ٩٦٨/٣٥٧ وُجدت في حوزة أحد صيارة بغداد ٣٥٠٠٠ زوزي و١٢٠٠ دن خمر<sup>(٥٢)</sup>، لأبي العلاء سليمان بن وهب النصراوي فصودر الصيرفي على ١٤٠٠٠ زوزي وترك شأنه... .

ويطلعنا خبر آخر على حال أهل الذمة المعرضين لشَّتَّى ألوان الضرائب غير الشرعية حينما كانوا بلا سند ولا ظهير من أبناء ملتهم من ذوي المناصب: وجدت جتنان لاثنين من الأعراب على مقربة من دير بظاهر الموصل. فاغتنم أبو تغلب، ابن ناصر الدولة الفرصة ليفرض على النصارى ١٢٠٠٠ زوزي.<sup>(٥٣)</sup> وقد قدم، في أثناء المحاكمة التي آلت إلى هذه العقوبة، كل من رئيس الدير ماري بن طوبا (الذي صار جاثليقاً من بعد) ورجل يدعى ابن سلامة (الكاتب؟) نفسيهما رهيبتين وصبرا على «ضرب السياط والقيد والأغلال».<sup>(٥٤)</sup>

ولكن يجب أن نذكر أيضاً أنَّ الذميين كانوا يتحلون «حقوقاً» لم يكن إلا المسلمين (ولا سيما أصحاب التفوذ منهم) يجرون على عمارتها من دون مخاطرة جسيمة، ومن ذلك الهجاء، فقد ذكر أنَّ كاتباً بغدادياً من اليعاقبة يدعى بشر بن هارون بن جملأ أنشد التتوخي<sup>(٥٥)</sup> في شعبان ٣٥٩ / حزيران - تموز ٩٧٠ أبياتاً يهجو فيها وزرين تعاقباً في تلك الفترة<sup>(٥٦)</sup> (هما الشيرازي ثم أبو الفرج):

مضى من كان يعطيانا قليلاً      ووافي من يشحُّ على القليل  
وأحسبُ أن سيملكنا مكلاً      متى أطَّرَّدَ القياس على الدليل<sup>(٥٧)</sup>

وقد كان على الذميين أن يدفعوا ثمن هذه السفاهة لما عاد أبو الفضل العباس الشيرازي<sup>(٥٨)</sup> إلى الوزارة في ٢٦ أيار ٩٧١، ففرض مكوساً على النصارى، ولا سيما على الجاثليق الذي اضطرَّ إلى أن يدفع مئتي ألف درهم في المرة الأولى ثم مئة ألف في المرة الثانية.<sup>(٥٩)</sup> ويؤكِّد هذا الخبر ابن مسكونيه<sup>(٦٠)</sup> الذي يقول إنَّ أبو الفضل

وزير البوهيمين تفتن في ضرب الصرائب على الناس فبدأ بأهل الذمة سنة ٩٧١/٣٦١ ، «ثم ترقى إلى أهل الله.. وكثير الدُّعاء عليه في المساجد الجامعية وفي الكنائس والبيع...».

وكان من أعظم مخاوف النصارى ببغداد ورود الخبر إليها عن توغل فيصر الروم ، يوحنا بن الشمشيق، في بلاد الشام . وقد أدى دخوله نصيبين ، في المحرم من العام ٣٦٢ / شرين الأول ، ٩٧٢ ، إلى فتنة عظيمة ببغداد ، فاحتلت العامة قصر السلطان عز الدين بختيار ، ثم انتهى هياجها إلى تقاتل السنة والشيعة بالعاصمة . أمّا النصارى فلم يعرض لهم أحد بشكل خاص لأنّه «من لطف الله (وهذا قول ماري) أن الروم نهوا الأعيار والبيع» بنصيبين مثلما نهوا المساجد وعاملوا نصارى المدينة معاملة الأعداء لا لأنهم عرب (فهم آراميون سريان) بل لأنهم من أصحاب البدع (هراطقة) ، نساطرة ويعاقبة ، في نظر « أصحاب السنة القوية» (الأرثوذكس) الروم . وقد فاوض الأمير الحمداني أبو تغلب (فضل الله الغضنifer ، الملقب بعدة الدولة) بن ناصر الدولة الروم على الانسحاب من الشام .<sup>(٦٠)</sup>

وقد ثُبّت في غيابه دار السلطان ولذلك نفهم لم سخط السلطان على نائبه الذي يمثله بالمدينة . ولذلك نرى عز الدين يرد في عنف بعد بضعة أشهر ، عندما انفجرت الفتنة في الجانب الغربي من دجلة وقتل أحد معاوني صاحب الشرطة . فقد وضع الوزير الشيرازي النار بالشطر الغربي من المدينة ، «من النحاسين إلى السماكين»<sup>(٦١)</sup> (رمضان ٣٦٢ / تموز ٩٧٣) فهلك خلق كثير ، وهرب الناس إلى الجانب الشرقي من دجلة .<sup>(٦٢)</sup> ويدلُّ أمّا أحياء النصارى بالشطر الغربي ، كاليعاقبة بباب المحول (إلى الجنوب الغربي) والنساطرة بحي العتيقة (إلى الجنوب الشرقي) ، لم تتصل بها النيران .

كان من شأن هذه الاضطرابات كلّها أن تؤدي إلى احتلال مالية المملكة ، فراح عز الدين يبحث عن المال . ولما لم يجد في حوزة الخليفة أيضًا ما يكفي من المال<sup>(٦٣)</sup> فرضت فرائض باهظة على الكتاب والأسراف والصيارة ، الخ . ، وعلى النصارى واليهود من حيث هم كذلك ، هذا إذا لم يدخلوا في أيّة من الفئات المذكورة .<sup>(٦٤)</sup> لا نملك تاريحاً لهذا التدبير إلّا أنّ عليه بصمات أبي الفضل الشيرازي

الوزير، ويأتي ذكره في تاريخ يحيى قبيل ذكر تعيين أبي طاهر محمد بن بقية وزيراً، خلفاً للشيرازي،<sup>(٦٥)</sup> في ذي الحجة ٣٦٢ / أيلول ٩٧٣. وقد خلع على الوزير في هذه المناسبة لقب الناصح، ثم لقب فيما بعد، سنة ٩٧٥/٣٦٤، بنصر الدولة.<sup>(٦٦)</sup>

كان العام ٩٧٤/٣٦٣ عام شؤم على الخليفة المطیع الذي نسنه بعض الشيء.<sup>(٦٧)</sup> فقد اندلعت الحرب ببغداد مرّة أخرى بين الشيعة المدعومين بحمية عزّ الدولة<sup>(٦٨)</sup> وبين السُّنة المستندين إلى التّرك، أصحاب سبكتكين الحاجب. ولما غالب هؤلاء نهبا حي الكرخ الغربي وأحرقوه مرّة أخرى،<sup>(٦٩)</sup> ثم أكرهوا الخليفة المرمي الضعيف على التنازل وتولية ابنه الذي تلقّب بالطائع (في ١٣ ذي القعدة ٥/٣٦٣ آب ٩٧٤). ولم يلبث الخليفة المخلوع أن مات بدير العاقول.

## الحواشي

- (١) البداية، ج ١١، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، أو الاستعاضة عن العباسين بالزيديين. Miskawayh, p. 172
- (٢) ابتداءً من هنا يُرجع إلى دراستي BUSSE و DONOHUE العامتين، وإلى المراجع عند فاروق عمر.
- (٣) مروج، الفقرة ٣٥٧٢، وقد نبه محمد أركون إلى ما تنطوي عليه هذه الألقاب من «التباس فظيع» في MISKAWAYH, p. 172.
- (٤) يحيى، ص ٧٦٤، تاريخ الزمان، ص ٥٨.
- (٥) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٥٣.
- (٦) الكامل، ج ٨، ص ٤٦٥، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٩. فتن من العام ٣٣٨ إلى ٣٨٧، الحاشية رقم XCI في كتاب LAOUST عن ابن بطة.
- (٧) تاريخ الزمان، ص ٥٩.
- (٨) الكامل، ج ٨، ص ٤٩٩.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٥٠٥.
- (١٠) وهذا ضروري في شمال العراق الحالي كلّ مئة سنة. أمّا في الجنوب وبغداد حيث لا حجارة وحيث الأرض أقرب إلى المشاشة فالأجر أقلّ مقاومة والمباني أقصر عمراً.
- (١١) مسكونيه، ج ١، ص ٢٩٩، كتاب العيون، ص ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٨، المتنظم، ج ٦، ص ٣٦٥، الخ.

(١٢) لم يكن الذين قدموا على بغداد من شيراز نساطرة فحسب، فقد كان فيهم قوم من الملكانية منهم نظيف بن بن الطبيب والمت禄 واللاهوتي الذي عمل في البيهارستان العضدي، راجع J. NASRALLAH, *Nazif*, op. cit.

(١٣) الكامل، ج ٨، ص ٤٨٩ - ٤٩٠. تجارت، ج ٢، ص ١١٤، BUSSE, p. 35, 143, 334, 340, 373

(١٤) يذكر ماري في سيرة أنوش (٨٧٧ - ٨٨٤) مجمعًا عُقِدَ «في أيامه». إن هذه الإشارة إلى بعض العلمانيين لا إلى الجائيلي تستحق الالتفات. وقد مات هذا الخازن، بعد حياة ملأى بالأحداث (الخاشية رقم ١، من تحقيق الشالجي)، الفرج بعد الشلة، ج ١، ص ٩٦)، في الحبس بعد أن لدعنه حية سنة ٩٦١/٣٥٠. ويروى أن المهنئ الوزير، الذي أراد أن يتصادر أمواله، وجد في تركته أكثر من مئتي ألف دينار. وقد عُرف ابن أخيه عبدوس أيضًا (الشُّنُوخِيُّ، المصدر نفسه).

(١٥) يكرر ماري الخبر مررتين ص ٩٦ و٩٨. عن وظيفة الخازن أنظر: C.E. BOSWORTH par C.E. BOSWORTH

(١٦) استنادًا إلى عدد الخزانتين مثلًا.

(١٧) نشور، ج ١، ص ١١٨.

(١٨) Les marchés de Bagdad, p. 149

(١٩) المقدسى، ص ١٢٠: «يُنشى (هذا المؤرخ) أن تعود بغداد كسامراء مع كثرة الفساد والجهل والفسق ووجور السلطان».

(٢٠) يرى E. ASHTOR في Essai sur les prix et les salaires de l'empire califien, R.S.O, XXXVI, p. 19-69 أن الدرهم (العملة الفضية) قد فقد من قيمته بالقياس إلى الدينار (العملة الذهبية). إذ بينما كان يساوي ١٠/١ أو ١٢/١ في منتصف القرن الثامن للميلاد لم يعد يساوي أكثر من ٢٥/١ من الدينار في منتصف القرن التاسع للميلاد.

(٢١) ص ٨٤، ويستشهد بابن خردابه، ص ١٢٠، وقادة بن جعفر، ص ٢٥١. ويقول الأخير إن جزءًا أهل الذمة بلغت مئتي ألف درهم سنة ٢٠٤/٨١٩. لم يجد حبيب الزيات في «الجزية»، ص ٦٣ - ٦٤، إحصائيات، والأمثلة التي يوردها تتعلق باماكن بعيدة عن مجال دراستنا.

(٢٢) ٣١، ٨، ٨، ٣١ (١٩٨٠)، ص ٢١١.

(٢٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٠.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٧ - ٥٢٨، في هذه الحقبة يكتب المقدسى (B.G.A. III, p. 119-120) في الشأن على بغداد: «بغداد مصر الإسلام، وبها مدينة السلام ولهم الخصائص والظرفية والقرائح واللطافة هواء رقيق وعلم دقيق، كل جيد بها وكل حسن فيها، وكل حاذق منها وكل ظرف لها» ثم يضيف في شيء من الكاتبة، «وكل قلب إليها وكل حرب عليها».

- (٢٥) تاريخ الزمان، ص ٦١.
- (٢٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٣٣.
- (٢٧) دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٦.
- (٢٨) BUSSE, p. 302 et no. 3, ٣٩٦ - ٣٩٣. BUSSE, p. 248, no. 5 et p. 463 avec réf.
- (٢٩) إشارات مختلفة في الكامل، ج ٨، ابتداءً من ٣٣٧، ٩٤٨/٣٣٧، ص ٤٧٩. نرى مثلاً في الصفحة ٥١٤ أن معزَّ الدولة «كان يتنَّ به».
- (٣٠) ماري، ص ٩٨ - ٩٩، صلبيا، ص ٩١ - ٩٣. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٤٨ - ٢٥٠.
- (٣١) إيليا التصيبيني، تحت العام ٣٥٠، والخاشية العربية ص ٧٥.
- (٣٢) يستعمل ماري هنا اسم «البيزيدي» بدلاً من البريدي، أسوة بغيره من المؤرخين العرب. ولما سُئل إسرائيل عن هذا الامتياز، قال: «هذا مالك الأرض والإيمان».
- (٣٣) ماري، ص ٩٤ - ١٠٤. صلبيا، ص ٩٣ - ٩٤. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٥٠ - ٢٥٦.
- (٣٤) إيليا التصيبيني، تحت العام ٣٥٢ و ٣٧٦ والخاشية العربية ص ٧٥ - ٧٦ (حيث سقطت ٧٠ من التاريخ ١٢٧٤).
- (٣٥) هل هو نفس فتيون بن أبيوب اللاهوتي والمترجم المذكور في الفهرست ص ١٨٠؟ أنظر GRAF, GCAL, II, p. 120-121 et BUSSE, p. 442, no. 5
- (٣٦) أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون، راجع BUSSE, p. 238, no. 3، حبيب الزيارات رقص القضاة والوزراء والأمراء وطلوهم في مجالسهم وخلواتهم، الخزانة الشرقية، ج ١، ص ٦٥ - ٧٣ مستل من مجلة المشرق، ج ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٥٠٣ - ٥١١. يحکم محمد أركون في كتابه عن مسکویه، ص ٦٢ - ٦٥، حکیماً قاسیاً على هذا الوزیر الذي أحسن إلى مسکویه ويتحدث عن «وجه النهاری» و«وجه اللیلی» لمؤلف المترفين. إلا أن التأویل يروی في نشوار، ج ١، ص ٦٩ - ٧١ (و ج ٧، ص ١٢٢) والخاشية رقم ١) خبراً عن «مشهد سخاء أليق ما يكون ببعض البرامكة» إذ غمر بانعامه أبناء أبي الحسين عبد العزيز بن إبراهيم (ابن حاجب النعمن) بعدما وقع هذا من الشرفة فمات في رمضان ٣٥١ / تشرين الأول ٩٦٢.

Vie de Rabban Yusif Busnaya, R.O.C., III (1898), p. 84-85 (٣٧)

(٣٨) ابن ثابت، وقد صار وزیراً بلا لقب في العام ٩٧٧/٣٦٦ DONOHUE, p. 349, BUSSE, p. 239, no. 8

(٣٩) نجد في العام ٩٩٨/٣٨٩، أي بعد خمس وعشرين سنة، رجلاً يدعى زهان بن هندي،

أخذ غيلة وقتل مع أبنائه الثلاثة على يد محمد بن عناز، هلال، ذيل تجارب الأمم، ج ٤، ص ٣٣٨.

(٤٠) ابن وزير ناصر الدولة؟

(٤١) الكامل، ج ٨، ص ٥٤٧ - ٥٤٨، CANARD, Hamdanides, I, p. 637-638. – كان الولع بالغليان بادياً في أغلب الأحيان بالقصور، فمن ذلك أن الشاعري يورد من بين ما يورد من قوائم، في لطائف المعارف، قائمة بأشهر من اشتهر من اللواطين والمبوبين، ص ٩٨ - ٩٩.

(٤٢) M.S. KHAN سيرته العملية (وإن لم يطلق عليه لقب الوزير) منذ أن كان جهيناً بالبصرة سنة ٩٣٦/٣٢٥ حتى ربطه الصدقة الحميمة بالمهلبي. وهو أحد شهود العيان الذين يستند إليهم مسكونيه المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩٧ - ٢٩٨. التُّونخي، الفرج، ج ٤، ص ٣٠٩ - ٣١٥، والخاشية رقم ١.

(٤٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٥٨. في السنة التالية، ١٥٤ / أيلول ٩٦٥ هجم قطاع الطرق على المتنبي بالقرب من دير قى وقتلوه، الكامل ج ٨، ص ٥٥٨ Assyrie chrétienne, III, p. ١٩٢. وقد نظم كاتب (ستلتقي به من بعد) يدعى أبو نصر ثابت بن هارون الرقّي، قصيدة في رثاء أبي الطيب، شيخو، شراء، ص ٢٦٠ - ٢٦٢، استناداً إلى كتاب البخارزي، مدحه القصر وعصرة أهل العصر، ج ٢، الشاعر الرابع. وتتجدد النص في أطروحة مطبوعة على الآلة الكاتبة لحمد التونجي (جامعة القديس يوسف، بيروت)، ج ١، ص ٧٥ - ٧٧.

(٤٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٢٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٤٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥، BUSSE, p. 38-39

(٤٧) السيوطي، ص ٤١٩.

(٤٨) في حالات ابتزاز الأموال، حتى التي كانت ترتكب باسمه، لا يذكر أنه نال حصته منها وقد رأيناها يتحرّج من مسّ أموال «الضعفاء والأيتام».

(٤٩) الماوردي، ص ٤٤.

(٥٠) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٥١) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٢١، ولعله اسمه فثيون (؟).

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٦٧، سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ - ٩٧١.

(٥٣) ماري، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٥٤) نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٩٣ - ٩٤.

(٥٥) في ذلك العهد لم تكن الوزارة تدور على الوزراء طويلاً ولم يكن المنصب مما يحسد عليه المرء. ويروي التُّونخي (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢) خبر القرد الذي كان بشارع الخلد

بغداد، والذي يومئذ موافقاً كلما عرض عليه القراد ممارسة مهنة من المهن، حتى إذا صار إلى مهنة الوزارة، رفض وهرب صائحاً من ذعره.

(٥٦) وقد هجا قاضياً بقوله:

قضى شعري على القاضي بحكم  
أجحاب إليه مصفوغاً مذلاً  
ولو لم يستجب لنتفث منه  
سيبالا إن وجدت له سبالا  
ونتفث سبالا شيء حمال  
لأن الخلق شيء حمال

(٥٧) BUSSE, p. 238 (no. 4 et 6).

(٥٨) ماري، ص ١٠٢، س ١٥، اقترح قراءة «دفعة» بدلاً من «رفعة».

(٥٩) تجارب الأمم، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٦٠) مصادر في ٩٠ CANARD, Hamdanides, p. 841; Nisibe, p. ٣٥٧. أخذ الروم منهم جثمان مار يعقوب النصيبي وكان الناس يعتقدون في ذلك الوقت أنهم كلما حازوا ذخائر مقدسة كان منها بهم أقرب إلى الصراط المستقيم.

(٦١) السيوطي، ص ٤٠٢.

(٦٢) يحيى، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ (P.O. XXIII).

(٦٣) وقد أرجف بأن الخليفة نفسه قد صدر على أربع مئة ألف درهم، طلبها منه عز الدولة، فاحتاج إلى بيع ثيابه وبعض أثناض داره، الكامل، ج ٨، ص ٦٢٠.

(٦٤) يحيى، ص ٣٥٧ (P.O. XXIII).

(٦٥) BUSSE, p. 238, 239, 250.

(٦٦) يحيى، المصدر المذكور، ص ٣٦٧. وهو يسمى الناصح تارة وتارة أخرى المناصح ويظهر في المصادرنصرانية، في العام ١٠١٢ - ١٠١٣، ١٠١٣ - ١٠١٤، رجل آخر يلقب باللقب نفسه.

(٦٧) تبيّن رسالة من الطائع إلى عضد الدولة مؤرخة في العام ٩٧٧/٣٦٦ (رسوم دار الخلقة هلال، ص ١١٣ - ١٢١) أن الخليفة المطيع تنازل لعز الدولة تماماً عن مهمات الدولة من بعدهما كبر وعجز. ويوضّح الذهي في دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٣، أن الخليفة كان قد بطل نصفه بالفالج منذ العام ٩٧٠/٣٦٠ - ٩٧١.

(٦٨) البداية، ج ١١، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٦٩) يحيى، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

---

## ٢٤ - الطائع (٣٦٣ - ٩٧٤ / ٣٨١ - ٩٩١)

---

لم يكن لأبي الفضل عبد الكرييم الطائع الله «من السلطان ما يكفي لكي يرتبط اسمه بهمة ذات خطر وشأن». <sup>(١)</sup> ولم يكن له شيء، طوال خلافة دامت ثمان عشرة سنة، إلا دور صوري، كالخطبة باسمه في المساجد، بينما ظل زمام السلطة في يد البوهين. بيد أن سيادة هؤلاء وحلفائهم الشيعة المحليون والدليل قد اهتزت، في أوائل خلافته على الأقل، على أيدي سنة بغداد <sup>(٢)</sup> والترك أصحاب سبكتكين الحاجب، الذي أخذ قصر الخلافة وغير الخليفة. فلما جاء بالطائع، خلع عليه الخليفة الجديد لقب ناصر الدولة عرفاناً بفضله، وجعله أميراً للأمراء.

ولما مات سبكتكين بدير العاقول أيضاً بعيد موت المطبع، حل محله قائد من الترك اسمه أفتكتين الشرابي. إلا أن هذا سرعان ما اضطر إلى مواجهة بوهبي آخر هو عضد الدولة فناخسرو، الذي كان حتى الآن يحكم فارس وكرمان والذي دخل بغداد في ٣٠ كانون الثاني ٩٧٥ لا تدخل وقائع القتال بين عز الدولة بختيار وعضد الدولة البوهين في إطار الدراسة الحاضرة، ويكفي أن نذكر أن الأول أسلم، خلال النزاع، وزير ابن بقية بعد أن سمل عينيه. فُطّرَّ الوزير بين أرجل الفيلة ثم صُلب على ضفّة دجلة، ولم يأسف عليه أحد ببغداد. فلما تم الظفر لعاصد الدولة دخل بغداد مجذداً <sup>(٣)</sup> فخلع عليه الخليفة لقب تاج الملكة. ولم ينته صراع الأشقاء حقاً إلاً في شوال ٣٦٧ / أيار ٩٧٨، لما قُتل بختيار في موقعة أخيرة بالقرب من قصر الجص بسامراء، عن ستة وثلاثين عاماً. وكانت مدة حكمه، على تقليباته، أكثر من أحد عشر عاماً، في ما ذكره ابن الأثير.

وبهذا ترامت مملكة عضد الدولة البوهيمي من فارس إلى العراق فالموصل فديار بكر.<sup>(٤)</sup>

ماذا حل بالنصارى إبان معارك الترك والإيرانيين، ثم تقاتل البوهيمين في ما بينهم؟ من الصعب معرفة ذلك، لأنّه لا وقت للحديث عن عامة الناس أو حتى عن الموظفين عندما يتقاتل الأمراء.

ومع ذلك نجد أن الخليفة الطائع عهد، سنة ٣٦٦ / كانون الثاني ٩٧٧، إلى فخر الدولة بن ركن الدولة البوهيمي بجباية الضرائب ومنها جزية الجواли<sup>(٥)</sup> المحرّم من العام ٣٦٧.

أمّا في الأعمال التي تلي ما يعرف بالعراق اليوم، وفي نواحي العيادة، فتلحظ سيرة حياة راهب تقىي، هو ربن يوسف بوسنابا<sup>(٦)</sup> أنه «لما قدم الملك (فناخسرو) إلى هذه البلاد في آخر سنة ٣٦٧ للعرب (أي ٩٧٨) اندرأت العواصف وال المصائب على الناس». وقد كان الناسك التقىي يتنبأً منذ أربع سنوات «وكان ينوح ويصرخ قائلاً: المجد لله! ماذا سيحل بالناس والأديرة والقرى والمدن؟» لم تقع الكارثة إلاّ بعد موت صاحب الرؤى، في ٢٩ تموز ٩٧٩: عندئذٍ كانت السلطة المركزية قد ضعفت حتى انعدمت «فاستولى الأكراد الكرتوية والتعلالية على هذه النواحي واحتاجوا الأديرة والأعيار والقرى».

على درب هذه السنين يبرز قبر كان في كنيسة القديس توما بقطيعة الدقيق بغداد، للفيلسوف اليعقوبي المعروف يحيى بن عدي.<sup>(٧)</sup> إن صفاء البيتين اللذين جعلهما على شاهد قبره بتاريخ ١٣ آب ٩٧٤، يوحي لنا بأ زمنة أقل اضطراباً، يقول:<sup>(٨)</sup>

رُبَّ ميتٍ قد صار بالعلم حِيَا  
وَمُبْقَى قد مات جهلاً وعِيَا  
فَاقْتَنُوا الْعِلْمَ كَيْ تَنالُوا خَلْدًا  
لَا تَعْدُوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهَلِ شَيْئًا

## عضد الدولة

قدم رهط عديد من النصارى بقدوم عضد الدولة إلى بغداد. وأوّلهم أبو

منصور نصر بن هارون<sup>(٩)</sup> الذي تلقّب بالوزير في ما قيل. وربما لم يكن له إلا لقب وزارة التنفيذ<sup>(١٠)</sup> مع إبقاء اللقب الفخرى الأرفع لرجل مسلم يذكر معه، إلا أنه من المؤكّد أنّ آبا منصور كان موضع ثقة عضد الدولة،<sup>(١١)</sup> الذي جعله نائبه بشيراز، لما رجع إلى بغداد بنفسه للمرة الثانية. وقد حصل «الوزير» من مولاه، سنة ٣٦٨/٩٧٨، على الإذن بإعادة عمارة ما تهدم من البيع.<sup>(١٢)</sup>

في هذه الظروف شعر كرسى مطرانىي فارس للمشارقة من السريان.<sup>(١٣)</sup> فاختار نصر بن هارون للمنصب ماري بن طوبا، الذي صار جاثليقاً من بعد وكان حيثثى رئيس دير مار ميخائيل بالموصل، ورسمه الجاثليق عبد ايشوع ببغداد. وفي هذه المناسبة أولم الشيرازيون ببغداد وليمة لنصارى المدينة تكريماً لطراهم الجديد، وأخرج كاتب نسطوري يدعى أبو علي ابن مكيخا من خزانة عضد الدولة، وبإذنه، «خلعة بيرون ومغفراً وثياب صوف مصرية».<sup>(١٤)</sup>

ومن بين النصارى الذين كانوا في خدمة عضد الدولة نصادف أيضاً الطبيب الشاعر آبا الحسن (أو الحسين) بن غسان البصري<sup>(١٥)</sup> الذي غرق نفسه في كرداب كلواذى «لأسباب اجتماعية من صفر اليد وسوء الحال... وعشق حرق قلبه على غلام الأمدي الحلاوى بباب الطاق».<sup>(١٦)</sup>

ولا ننسى أنّ كثيراً من الأطباء النصارى كانوا يعملون، في زمن عضد الدولة أو من بعده، في البيمارستان الذي بناه ببغداد سنة ٣٧٠/٩٨٠ وسمّاه بالعصبي<sup>(١٧)</sup> ولكنّ لما نفتقر إلى تاريخ دقيق لهؤلاء الأطباء نجد أنفسنا مضطرين إلى سرد أسمائهم، مع الإشارة إلى أنّ تمثيل النصارى في هذه المهنة لم ينزل جيداً:

- أبو الحسين بن كشكرايا، نسطوري من كسرى انتقل من خدمة سيف الدولة الحمداني إلى خدمة عضد الدولة البوهي. كان من تلامذة سنان بن ثابت،<sup>(١٩)</sup> وله كتب في الطب وأخ راهب. «وكان كثير الكلام»... .

- أبو يعقوب الأهوازي، فارسي، صنّف في الطب.<sup>(٢١)</sup>

- إبراهيم بن بكس، مؤلّف ومتّرجم، كُفَّ بصره في أواخر عمره.<sup>(٢٢)</sup>

- عليّ بن إبراهيم بن بكس (ابن الذي قبله) طبيب ومتجم. (٢٣)
- عليّ بن عباس الذي صنف كتاب «الملكي». (٢٤)
- وفي خراسان، أبو سهل عيسى المسيحيّ بن يحيى الجرجاني، الطبيب الممتاز، صاحب التصانيف الكثيرة. (٢٥)
- وجبرائيل (بن عبدالله) بن بختشون (٢٦) تلمذ على هرمزد وابن يوسف الواسطي وألف كتباً جمّة، وألحقه عضد الدولة أيضاً بالبيهارستان الذي أنشأه ببغداد.

نشير، في شأن هذا الطبيب، إلى عادة درجت كثيراً في تلك الأيام: كان الأمراء الذين يودون مجاملة غيرهم من الأمراء يتبدلون أطباءهم المقدّمين. فمن ذلك أنّ جبرائيل لهذا بعثه عضد الدولة إلى وزير الريّ الصاحب بن عباد، ثم إلى أمير الديلم خسروشاه وإلى العزيز بالله، الخليفة الفاطميّ بمصر (إذن قبل سنة ٩٩٦). وبعدما بلغ الثمانين من عمره وقام بعده رحلات أخرى، طلبه مهدّ الدولة سعيد بن مروان أمير الدولة الدستكية ببابفارقين، فمات هناك بعد ستين (١٠٠٢/٣٩٣). (٢٧) ولا حاجة بنا إلى القول إنّ هؤلاء الأمراء كلّهم لم يدخلوا عليه بالمال ولا بالتكريم.

ستلتقي بأطباء نصارى آخرين حتى نهاية دراستنا على الأقلّ. (٢٨) كان تركّز النصارى بكثافة في ميدان الطبّ من عواملبقاء جماعاتهم، بالرغم من شتّى الضغوط الاجتماعية الدينية التي تعرضت لها هذه الجماعات. وإنّ المتأنّل ليجد نصارى البلاد الإسلامية في العصور الحديثة يلتّمدون في المهن الحرة الاستقلال الذي ما زالوا قادرين على التمتع به. ولذلك تراهم يجتهدون في استغلال الحال التي يجدون أنفسهم فيها منذ أن فقدوا كلّ مساهمة حقيقة، مباشرة أو غير مباشرة، في ممارسة صناعة القرار في المجتمع. (٢٩)

ونجد في الحقبة التي بلغناها من إمارة عضد الدولة، قبساً من جوّ الانفتاح الفكريّ الذي عرفته بغداد في عهود البعض من أوائل خلفاء بنى العباس. (٣٠) كان الأمير نفسه لا يفارق كتاب الأغاني (٣١) إذا سافر. وكانت النخبة المترفة تعرف كيف

تخصّص وقّتاً جلسات المنازرة العلميّة فضلاً عنها تنفقه في ليالي الخلاعة والمجون. <sup>(٣٢)</sup>

كان روّاد هذه «المجالس» كمجلس ابن العارض بن سعدان وزير صمّاصم الدولة من ٩٨٣ إلى ٩٨٥، يتناظرون، على ما رواه أبو حيّان التوسيدي<sup>(٣٣)</sup> في فضل الفلاسفة. ونجد في هؤلاء عدداً من النصارى: أبو الحسن بن سوار، المعروف بابن الخطّار، يحيى بن عديّ، عيسى بن زرعة، نظيف بن مين، إلخ. <sup>(٣٤)</sup> في العام ٩٨٣/٣٧٢ مات عضد الدولة، أكبر «ملك ملوك» في البوهيميين. <sup>(٣٥)</sup> لم يستبق مسكيوه<sup>(٣٦)</sup> إلاّ اسمه واسم ابن العميد، اسمين بارزين من بين الأمراء والوزراء الذين توالوا إلى زمامه، حتى إنّ سياسته المتشيّعة، لم تكن موضوع نقاش المؤرّخين. <sup>(٣٧)</sup> وربما كانت أيامه آخر عهد النصارى بالمشاركة في السلطة عن كثب. فالسنوات التي أعقبته شهدت انحطاط دور البوهيميين السياسي<sup>(٣٨)</sup> وتزايد الأضطرابات.

عندما مات عبد يشوع الأول عن جثلقة طويلة (أكثر من ٢٣ عاماً) كان أولاد عضد الدولة يتنازعون الملك. فقد قاتل البكر منهم، وهو شرف الدولة (أبو الفوارس، شيردل، زين الملك، الخ.). أخاه صمّاصم الدولة وقبض بشيراز على «الوزير» النصريّ أبي منصور نصر بن هارون<sup>(٣٩)</sup> الذي، لما لم يعلم بموت سيده عضد الدولة، حاول منع شرف الدولة من دخول شيراز.

عندئذ وقعت في شيراز أحداث كثيرة «أدّت إلى قتل نصر بن هارون بعد نهب الدليل دور جميع النصارى وقبض الأوقاف. فتجدد المطران (ماري بن طوبا) في ارجاع المأخوذ من البيع والوقف واستأنذ عبد يشوع (الجاثليق) في العودة إلى بلده (الموصل)» على قول ماري. <sup>(٤٠)</sup>

وتروي الرسالة التي بعثها المطران إلى الجاثليق أحداث شيراز المأساوية وتصف قلق النصارى وارتباكيهم بعد فقدان حاميهم نصر بن هارون وكيف «قتل الضعيفُ القويُّ والصبيُّ الرجل». ولما لم يقبل الجاثليق طلب الاستقالة، قرر المطران الذي كان، في ما يبدو، على صلة طيبة بشرف الدولة، الذهاب بنفسه إلى بغداد ليدافع

عن قضيته، فالتحق بطلائع الجيش السائر لمحاربة صمصام الدولة.

مرّ بأرجن وصولاً إلى خوزستان (الأهواز). هناك كان المطران ديلم أيضًا في الغاية من القلق: فقد ثبّت كنيسته بجنديسابور. مكث ماري بن طوبا مدة في المدينة يعاون المطران الذي توصل إلى استرداد قسم مما انتهب، لأنّ المدينة كانت قد انحازت إلى شرف الدولة قبل وصوله إليها.

عندئذ استأذن المطران في ركوب السفينة إلى البصرة (التي كانت قد دخلت في طاعة شرف الدولة) وذلك حتى يصعد منها إلى بغداد عندما تقع العاصمة في قبضة الأمير، واصطحب ماري سرًا ديلم مطران جنديسابور وحجمه عن أنظار «المستخرج». كان مطران شيراز بالبصرة لما كتب الجواسيس، من بغداد، إلى شرف الدولة بيموت مار عبد يشوع<sup>(٤١)</sup> الحاثليق. ولم يكن أحد قد علم بالنبأ لأنّ الاتصالات كانت مقطوعة.

### «لم لا يجلس المطران الذي معنا؟»

فدعى الأمير شرف الدولة بندبيه النصارى، أبي الفرج المسيحي وعبد الله أخي طازاد، وسألهما: «لم لا يجلس المطران الذي معنا جاثليقا؟» فقبل الرجلان النصاريان الأرض

XIX وكتباً (باسم من؟) عهد الجثافة ماري بن طوبا.<sup>(٤٢)</sup> فأصعد الحاثليق إلى بغداد «مع الخزائن في الماء».

بعد معركة قتل فيها خمسة آلاف من الديلم انتصر شرف الدولة على صمصام الدولة ودخل بغداد، وعقد الصلح بين الأخوين، احتفظ صمصام الدولة ببغداد وصار يجلس عن يمين عرش الخليفة، «ثم أقبل الشعراء وجعلوا يمدحون صمصام الدولة بقصائد़هم ويفضّلُونه على الأقطاب». أما شرف الدولة فكان يخطب له أولاً في المساجد وصَلَّى اسمه على النقود.<sup>(٤٣)</sup> ولكن سرعان ما أزاح شرف الدولة أخيه الأصغر وسمّل عينيه.<sup>(٤٤)</sup>

يبقى انتخاب الحاثليق، ذلك الانتخاب الذي تخرج وقائمه الكنسية البحث

عن إطار بحثنا. إننقل ماري من دير مار فيتون حيث كان قد نزل، إلى دار الروم حيث كان أربعة وعشرونأسقفاً ومطراناً يعقدون جمعهم.

والواقع أن الآباء جعلوا قرارهم إلى شرف الدولة فأشعراهم برضاه الذي جاء موافقاً لرغبة الأكثرين منهم، رغبة خلفها فيهم «ضرب العصي» على قول ابن العربي. كلف أبو بكر البارزيار بأخذ خطوط المجتمعين والموافقين ورسم ماري بن طوبا جائلاً في ٨ ذي الحجة ٣٧٦ / ١٠ نيسان ٩٨٧.

لندرك بأصل ماري الجاثليق قبل متابعة مراحل جثليته: كان ماري كاتباً لفاطمة الكريديّة بنت أحد، زوجة ناصر الدولة الحمداني وأم أبي تغلب. «وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فاتفقت مع ابنها أبي تغلب، وقبضوا على ناصر الدولة» وحبسوه.<sup>(٤٥)</sup> ويدو أنّ ماري لما رأى ضعفة هذا العالم وأحزانه ترهب.

### ماري بن طوبا الجاثليق

بعد الرسامة والزيارات التقليدية للأديرة والكنائس، استُقبل الجاثليق المنتخب في حضرة الخليفة الطائع. وفي هذه المناسبة يذكر ابن العربي<sup>(٤٦)</sup> أنّه «لم يبق للخلفاء في تلك الأونة سوى الاسم والمناداة بخلافتهم». وأصبحت جميع الأوامر والجند والخزائن بقبضة الأعاجم».

كتب له منشور لتبنيت جثليته. وسنطلع في ما بعد على نصوص «عهود» من شأنها أن تعينا على تحديد مكانة الجاثليقة النسطوريين في دولة بني العباس. ولا يمكننا القول هل ثمة فرق بين المنصور والعهد اللذين كانا يكتبان للجاثليقة.<sup>(٤٧)</sup> وبعد صفة أخلاق الجاثليق الجديد (حيث نلحظ حبه للهـل والأثـاث)، ينتقل ماري إلى قوله، غير مؤرخ، لسوء الحـظ، كالكثير من الإشارات الصغيرة في تاريخه: «وفي أيامه...».

«وفي أيامه»، إذن، لحقت بالبيعة جملة مصائب والحق أنّ هذه المصائب قد وقعت في النصف الثاني من جثليقة ماري بن طوبا في خلافة القادر، وسرارها في حينه.

في السنة التي أعقبت رسمة ماري بن طوبا، ٩٨٨/٣٧٧، كتب النديم كتاب الفهرست. وهو يذكر فيه<sup>(٤٨)</sup> أبا الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المنطقي النصراوي<sup>(٤٩)</sup> المعروف بابن الخمار، «وكان في نهاية الذكاء والفطنة والاضطلاع بعلوم أصحابه»، وصنف التصانيف التي ترجم بعضها من السريانية إلى العربية. وكان النديم قد التقاه<sup>(٥٠)</sup> عند أبي القاسم بن عيسى بن علي وزيربني الجراح.<sup>(٥١)</sup>

وكان من عاصر النديم أبو الحسين إسحق بن يحيى بن سريح النصراوي «وله من الكتب كتاب الخراج، كتاب تحويل سفي المواليد، كتاب جمل التاريخ»، الخ.<sup>(٥٢)</sup>

ومات قبل أشهر قليلة من تصنيف الفهرست الطبيب الكاتب الفيلسوف النصراوي، أبو الحسن علي بن نصر بن علي (أو بن بشر) الملقب بابن الطبيب. كان جده علي طبيباً أيضاً وقد شفى أبا عبدالله الزنجي بأن جعل في فيه اهليجة من ذهب.<sup>(٥٣)</sup>

وكان شرف الدولة راعياً للعلماء، ففي العام ٩٨٨/٣٧٨ جمع «الفلاسفة» الذين ببلاد العرب وبني مرصدًا فيه آلات كتلك التي كانت في مرصد المأمون. وكان رئيسه أبو سهل يحيى بن رستم الطوريانى.<sup>(٥٤)</sup>

ولكن مما يؤسف له أن الأحوال التي كانت سيئة منذ وفاة عضد الدولة، قد ساءت أكثر بعد موت شرف الدولة سنة ٩٨٩/٣٧٩، فقد استولى أخوه بهاء الدولة على الحكم.

بهاء الدولة ٣٧٩ - ٩٨٩/٤٠٣ - ١٠١٢ - ١٠١٣

لم يُطل الوقت بالحكم الجديد حتى بدأ آثاره على الناس. فمنذ العام ٩٩٠/٣٨٠، اضطرّ الأثرياء من سكان تكريت (اليعاقبة) إلى الزواج<sup>(٥٥)</sup> هل كان ذلك بسبب الضرائب التي فرضها عهـل ظلمة، على قول ميخائيل السرياني، أم كان بسبب تغييرات ملكية الأراضي التي وقعت في تلك الحقبة؟<sup>(٥٦)</sup> لا نعلم. إن ما يشير إليه المؤرخون، على أيّة حال، هو ثراء هؤلاء المهاجرين، ذلك الثراء العريض الذي

أثار لهم بناء الكنائس وتجميل المياكل في أماكن إقامتهم الجديدة. ومثال ذلك ما فعله أولاد أبي عمران الذين نزلوا ملطية<sup>(٥٧)</sup> والذين توصلوا إلى أن يصيروا صيارة قيسار الروم. وقد أخذ الترك أخاهم الأكبر أبو سليم القادم من الديرا. فافتدى نفسه وصحبه كلهم من الأسر، وعددهم خمسة عشر ألفاً، ودفع خمسة دنانير عن كلّ رأس.

إلاً أنَّ ما يلفت انتباها هو اختلاف رؤية هذه الأحداث من قبل مؤرّخين من مغاربة السريان هما ميخائيل السرياني وابن العربي. يقول الأول، وكان يكتب في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد: «وقد سُقنا طرقاً مما يذكر عنهم من الأشياء الكثيرة لكنها يمجّد الله الذي أنعم عليهم كلَّ من يقرأ هذه السطور»، بينما يذكر ذلك ابن العربي، الذي كتب بعد أقلَّ من مئة عام، «ليُعرَف مبلغ ما كان عليه شعبنا من رغد العيش» وذلك ليلقى مزيداً من الضوء على حال النصارى في عصره: «وما آل إليه أمرهم من شظف العيش».

كان ابن العربي، الذي لا ينظر هنا إلاً إلى الازدهار المادي للنصارى، يعُدُّ زمن الوبئين الأوائل زمن البقرات السحان، ويمكنا أن نقول الشيء نفسه عن الحرية الروحية الازدهار الثقافى.

ونجد الحنين إلى الماضي الذهبيّ (نهاية القرن العاشر) بعد صفحات قلائل في تاريخ الزمان لابن العربي،<sup>(٥٨)</sup> أي عندما يتناول الوزراء النصارى بمصر،<sup>(٥٩)</sup> حوالي العام ٩٩٦/٣٨٦، فيكتب: «وكان المسيحيون يومئذ متولين شؤون الوزارة في الدولة العربية المصرية دون أن يضطّرهم أحد إلى جحود دينهم بخلاف ما يجري في عصرنا (القرن ١٣ ميلادي) إذ أن العرب لا ينطّون الوزارة إلاً بأنْ ينضمّ إلى الإسلام».

جاء مع بھاء الدولة أشخاص تصوّرهم التواریخ النصرانیّة بطريقه قاسية. ومنهم رجل يدعى الكوكبی،<sup>(٦٠)</sup> كان مُؤدّباً لبھاء الدولة، وقد تولّ هذا الرجل أمر الجزية وكان حريصاً على أن يستوفی من النصارى ما هو مستحق عليهم. وقد اتفق أن نشب خلاف بينه وبين الجاثليق فحبسه، ثم بَثَ شرطه في البلاد فتفرق

المكْلَفُونَ، فَأَخْذَ الْأَسَاقِفَةَ وَالْمَطَارِنَةِ . . . «وَعَادَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ» عَلَى قَوْلِ مَارِيِّ، أَيِّ  
أُنْهِمْ ابْتَهَلُوا إِلَى اللَّهِ لِيَخْلُصُوهُمْ مِنْهُ. وَقَدْ حَاوَلَ التَّرْكُ أَيْضًا الْقَضَاءَ عَلَى الْكَوْكَبِيِّ،  
وَكَانُوا سَاحِطِينَ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ بَهَاءَ الدُّولَةَ حَمَاهُ مِنْهُمْ. وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ اضْطَرَّ إِلَى التَّخْلِيِّ  
عَنِ الرَّجُلِ لِمَا تَفَاقَمَ الْأَحْوَالُ. فَسَقَى الْكَوْكَبِيَّ السَّمَّ فَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ، ثُمَّ حَاوَلُوا  
خَنْقَهُ فَلَمْ يَمْتَحِنْهُ حَتَّى ضَرَبُتْ هَامَتَهُ بِالسَّيفِ. «وَكُفِيَ النَّصَارَى شَرَّهُ بِتَفْضُلِ اللَّهِ  
وَحَوْلِ مَارِيِّ السَّلِيمِ».

وَقَدْ أُلْقِيَ الْقِبْضُ أَيْضًا عَلَى ابْنِ الْبَقَالِ، وَكَانَ مِنَ الْمُعَصِّبِينَ لِلْكَوْكَبِيِّ وَمِنْ  
أَضْطَهَدُوهُ رَهْبَانِ دِيرِ قَنَّ، فُقْتَلَ وَطُرِحَتْ جَثَتِهِ فِي دَجْلَةِ. وَقَدْ نَسَبَ النَّصَارَى  
خَلَاصَهُمْ إِلَى تَدْخُلِ مَارِيِّ مَارِيِّ شَخْصِيًّا لِيَحْمِيَ بَيْتَهُ، وَذَلِكَ إِثْرَ حَلْمٍ رَآهُ أَبُو يَشِّرِّ  
مَارِيِّ بْنِ جَابِرٍ، كَاتِبِ الْحَسْنِ بْنِ نَصْرٍ صَاحِبِ الْبَرِيدِ. وَالْأَغْلُبُ أَنَّ مَارِيِّ قدْ  
اسْتَعَانَ بِعَضِ الْوَسْطَاءِ عَلَى الْأَرْضِ.

وَلَكِنَّ كَانَ عَلَى الْجَاثِيلِيقِ أَنْ يَوَاجِهَ مِنَ النَّوَائِبِ<sup>(٦١)</sup> مَا اضْطَرَّهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ  
كَرَامَاتِهِ<sup>(٦٢)</sup> إِلَى أَنْ يَتَرَكَ مَقْرَبَ الْجَلْلَقَةِ، مَرَّتِينَ خَلَالَ أَرْبِيعَةِ عَامٍ، وَيَتَقَلَّ إِلَى دِيرِ  
الْأَنْبَارِ الْبَعِيدِ عَنْ بَغْدَادِ، لِيَدْبُرُ شَؤُونَ الرَّعْيَةِ مِنْ هَنَاكَ.

إِنَّ الْوَثَائِقَ الْجَزِئِيَّةَ الَّتِي وَصَلَّتْنَا تَبَعُّدَ لَنَا مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَلْمَعَ آثارَ هَزَائِمِ الْحَرْبِ  
مَعَ الْبِيزَنْطِينِيِّينَ فِي حَيَاةِ النَّصَارَى الْمُقِيمِينَ حَتَّى فِي النَّوَاحِي الْهَامِشِيَّةِ الْقَصِيَّةِ. مِنْ  
ذَلِكَ أَنْ مَرْوَ، بِخَرَاسَانَ، قَدْ شَهَدَتْ أَعْمَالَ شَغْبٍ ضَدَّ النَّصَارَى لَا اتَّصَلَ  
بِالْمُسْلِمِينَ هَنَاكَ نَبَأُ دُخُولِ الرُّومَ أَرْضَ الإِسْلَامِ. فَأَخْرَجَ تَابُوتَ مَارِيَلِيَا الْمَطْرَانَ  
الْسُّطُورِيِّ، مِنْ ضَرِيْحِهِ وَحَاوَلَتِ الْعَامَّةِ إِحْرَاقَهُ أَوْ كَسْرَهُ فِيهَا أَفْلَحُوا، وَأُعِيدَ التَّابُوتُ  
إِلَى مَكَانِهِ، وَظَلَّ أَحَدُ أَعْمَدَةِ الْكَنِيسَةِ مَدَّةً يَقْطَرُ مَادَّةً زَكِيَّةً الرَّائِحةَ.

قَلَّا مِنْ قَبْلِ إِنْ تَارِيخُ هَذِهِ السَّنَوَاتِ عَسِيرٌ عَلَى التَّحْدِيدِ. فَفِي الْعَامِ /٣٨١/ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ ٩١٩، أَكْرَهَ بَهَاءُ الدُّولَةِ الْخَلِيفَةِ الطَّائِعَ عَلَى أَنْ يَخْلُمَ نَفْسَهُ، وَأَحْلَّ  
مَكَانَهُ الْقَادِرُ، وَذَلِكَ أَمَّا لِأَنَّهُ «مَدَّ عَيْنِهِ إِلَى مَالِ جَمِيعِهِ» الْخَلِيفَةُ<sup>(٦٣)</sup> وَأَمَّا لِأَنَّهُ وَجَدَ،  
بَعْدَ مَشَارِفَةِ الدِّيْلِمِ، أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ شَانَخَ.<sup>(٦٤)</sup> وَالْأَرجُحُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي  
مَرَرْنَا بِهَا فِي الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ قَدْ وَقَعَتْ فِي خَلَافَةِ الْقَادِرِ. وَلَكِنَّ مَا يَهِمُّ هَنَا لَيْسَ  
هُوَ الْخَلِيفَةُ بَلِ الْأَمِيرُ الْبُرْبِيِّ الْمُتَمَلِّكُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ بَهَاءُ الدُّولَةِ.

## الحواشي

K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.<sup>1</sup>, IV, p. 651, S.V. (١)

(٢) ابن العري، تاريخ الزمان، ص ٦٣.

(٣) وكان من نتائج ذلك حبس إبراهيم بن هلال الصابيء الكاتب مدة أربع سنوات وبضعة أشهر لأنه كتب سنة ٩٧٧/٣٦٦ رسالة الطائع في تفضيل عز الدولة بختار على عضد الدولة، هلال، رسوم، ص ١٢١.

(٤) يحيى، ص ٣٦٢ - ٤٠٨ (P.O., XXIII) : الكامل، ج ٨، ص ٦٦٩ - ٦٩١. وللمع في سيرة رَبِّنْ يوسف بوسنايا (R.O.C., III, 1898) بعض الكتاب النصارى كأبي زكريا «الكاتب الكبير المشهور في عصره» الذي مات قبل رَبِّنْ يوسف وأخيه عبد المسيح الكاتب أيضاً الذي شفى القديس يده اليابسة (١١٧ - ١١٨)، كما نلمع كاتباً نصراوياً آخر في مدينة بلد بالقرب من الموصل، لا نعرف اسمه (ص ٣١١).

(٥) القلقشلندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٨. والكلمة توأزي أهل الذمة. كان لغخر الدولة (أخي عضد الدولة) كاتب (نصراني؟) اسمه أبو عمرو، التوحيدى، مثالب، ص ١٤٢. وكان لأخيه الآخر، أبي المنصور مؤيد الدولة، نديم نصارى هو أبو الطيب، الذي يستجوشه أبو حيان التوحيدى (ص ٧٨ - ٨٠) عن الصاحب بن عباد الوزير، وينذكر المؤلف نفسه الكاتب النصارى أبي عبيد، ويتحدا (ص ٩٣) مزاياه الأدبية.

(٦) ٨٣. p. في معركة سامراء في ٢٤ أيار ٩٧٨، كان أحد آخره المؤلف يوحنا بن كلدون «بن يديه ملك الموصل» أبي تغلب الحمدانى الذي خرج مهزوماً. وقد رأى الرَّبِّنْ يوسف رؤيا سمحت له أن يطمئن يوحنا على مصير أخيه الذي جُرح وترك على أنه ميت، المصدر نفسه، ص ٩٠ - ٨٩.

(٧) راجع : GERHARD ENDRESS, *The Works of Yahya ibn 'Adi*, WIESBADEN, 1977  
وسمير خليل في مجلة المرأة، ٦٥ (١٩٧٩)، ص ٤٠٣ - ٤١٩.

(٨) حسب الرواية التي ينقلها ابن أبي أصبيعة عن تلميذه المفضل أبي علي بن إسحق بن زرعة، وتجدد البيتين في شعراء النصرانية لشيشخو، ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٩) يحيى، ص ٤٠٩ (P.O. XXIII) BUSSE, p. 239, no 10; DONOHUE, p. 350;

(١٠) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٠٨.

(١١) والجلدير بالإشارة هنا أن الأمير كان يرتاد من الأشخاص الذين تقوى داللهم عليهم. وكانت هذه حال إحدى سراريته معه فطرحها في دجلة ليغرقها، ابن الطقطقى، ص ٣٤.

(١٢) روضة الصفا، ص IV (المجلد الأول من طبعة طهران غير المرقمة، ١٢٧٢ هـ). مذكور في R. LEVY, *Baghdad Chronicle*, p. 163

(١٣) يجعل ٣٥٠ DONOHUE, p. 350 الحادث حوالي سنة ٩٨٠/٣٥٠ - ٩٨١

- (١٤) ماري، ص ١٠٥ . - يقسّو التوحيدى كثيّراً على الخازن عندما يذكر صفتة في الامتناع ج ١، ص ٤٤ - ٤٥ «وَأَمَا ابْنُ مَكِبِخَا، فَرَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ أَرَعَنْ خَسِيسٍ، مَا جَاءَ يَوْمًا بِخَيْرٍ قَطُّ لَا في رَأْيٍ وَلَا في عَمَلٍ وَلَا في تَوْسُطٍ، وَأَصْحَابُهُ يَلْقَبُونَهُ بِقَفَّا وَهُوَ مِنْهُمْ بَيْنَ الْلَّذَائِذِ هُمْ أَنْ يَتَحَسَّى دُنْ الشَّرَابِ فِي نَفْسِهِ أَوْ نَفْسِيْنِ ثُمَّ يَسْقُطُ كَالْجَدْعِ الْيَابِسِ لَا لِسَانٍ وَلَا إِنْسَانٍ».
- (١٥) ابن القسطلي، ص ٢٦٣ ، شيخو، شعراء، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ يعتبر أنه نفس أبو علي بن غسان كاتب ركن الدولة الذي صادفناه في تاريخ ماري لسنة ٩٥٣/٣٤٣ في مسألة إعادة عمارة الكنائس.
- (١٦) محمد بن أحمد أبو المظير الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز، هيدلبرج، ١٩٠٢ ، ص ٨٣
- (١٧) INAYATULLAH, p.7
- (١٨) بني هذا البيمارستان المشهور محل قصر الخلد الذي بناه الرشيد سنة ٧٨٦/١٧٠ ، والذي كان على دجلة، إلى الشرق من المدينة المدورة. ويروي المقدسي (ص ١١٩ - ١٢١) أنه كان على مقربة من الجسر، الوحيد آنذاك . - وقد أحصى أحمد عيسى في *Histoire des bimaris*, tans, p. 90-93 ، تسعة عشر طبيباً كانوا يعملون في هذا البيمارستان.
- (١٩) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .
- (٢٠) المتوفى في ٧ تموز ٩٤٣ ، الصوصي، ص ٨١ ، BUSSE, p. 518
- (٢١) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٢٢ .
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ . وقد كان لأبي إسحق إبراهيم بن بكس مناظرة فلسفية مع أبي ذكريا يحيى بن عدي يوردها ابن الحمار السنديوي، في الحاشية ١٦٠ على طبعته للمقابسات . - مات سنة ١٠٠٣/٣٩٣ .
- (٢٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٦٩ .
- (٢٤) دائرة المعارف، ج ٤ ، ص ٣٧٢ .
- (٢٥) عبد الرقيب يوسف، مستشفيات وأطباء في عهد الدولة الدوستكية، في مجلة بين النهرين، ٢١ (١٩٧٨) ص ٩ - ١١ .
- (٢٦) يجعل دومينيك سورديل موته في ٨ رمضان ٨/٣٩٦ /١٠٠٦ حزيران '١٠٠٦' ، E.I.<sup>2</sup>, Bukhtishu'
- (٢٧) ثمة جدول عام للطب في العصر العباسي في الفصول ٣ إلى ٥ (ص ٥٨ - ٣٠١) في CY-RIL ELGOOD, A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate
- (٢٨) جدعاً عن الطب في العصر العباسي بقلم سهيل قاشا، المسرة، ٦٠ (١٩٧٤) ص ٧٥٤ - ٧٦٣ ، ٨١٨ - ٨٢٣ ، الخ.
- (٢٩) يميز GELLARD (٨٢) أنواعاً عدّة من المشاركة يستبعد منها الماهمشين: المشاركة السلبية وهي الامتثال بالنهاذج السائدة، والمشاركة النشطة. ولئن أفضى النصارى عن الأولى في

المجتمع الإسلامي، فقد ظلوا طويلاً مدینین لكتفاءاتهم التي مهدت لهم سبل ممارسة الثانية، في المهن الحرة على الأقل.

(٣٠) يعقد محمد أركون مقارنة بين ما اعتمدته عضد الدولة من «وجهة نظر الحكم المتساحة الواسعة الأفق المتغلبة على الخيار الديني الضيق الأفق» وبين الخيار المتشدد الذي اعتمدته المؤمنون من قبل.

M. Kabir, p. 31 (٣١)

(٣٢) يصف محمد أركون MISKAWAYH,p. 63 ليلة من ليالي الوزير الهلبي استناداً إلى التوخي (الثعالبي)، يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ (١٧٥) وبين (ص ١٧٥) استناداً إلى التوحيد أن فساد الأخلاق كان قد تفّى حتى أصحاب العامة (التجار) والخاصة: العسكر والكتاب، والتاء وحتى أهل الخير والعلم (الامتعة والمؤانسة ج ٣، ص ٦٢ - ٦٣).

(٣٣) في الامتعة والمؤانسة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٣٢، BUSSE, p. 510. أركون MISKAWAYH ص ٣٩. وفي مجلس آخر عن الأخلاق، عند الوزير عينه، نجد من حول عيسى بن ثيف الرومي، المعروف بأبي التسمع «غير هؤلاء من مشايخ النصارى» التبخرتين بالفلسفة، المقابلات، ص ١٣٩ - ١٤١. التوخي، تشور، ج ٣، ص ١٧٢، يذكر في جلة معاصريه الكاتب النصراوي إبراهيم بن عيسى بن نصر السوسي، أي أنه جاء مع الأسياد الجدد؟

(٣٤) يصف التوحيد في الامتعة والمؤانسة، ج ١، ص ٣٣ - ٣٤، ابن زرعه وابن الحمار بقوله: «أما ابن زرعة فهو حسن الترجمة، صحيح النقل كثير الرجوع إلى الكتب. محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولو لا توزع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجمجم، وشذته إلى المحن ل كانت قريحته تستجيب له وغائمه تدرّ عليه، ولكنه مبدّد مندّد، وحبُّ الدنيا يعمي ويصمّ. وأما ابن الحمار ففصيح، سبط الكلام مديد النفس، طويل العنان مرضيُّ النقل، كثير التدقّق، لكنه يخلط الدرة بالبيرة وفسد السمين بالعنت، ويرفع الجديد بالرث، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف، ويزيد في الرقم والرسوم فما يجيده من الفضل يرتفعه بالنقص، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف، وما يصفيه بالصواب يكتره بالاعجاب. ومع هذا يُصرع في كل شهر مرة أو مرتين».

(٣٥) انظر مدحه في الكامل، ج ٩، ص ٢٢ - ١٨. يلاحظ السيوطي، ص ٤٢٨، أن الخليفة لم يكن يوماً أضعف مما كان في عهده.

(٣٦) يذكره محمد أركون في الصفحة ١٧٣.

(٣٧) البداية، ج ١١، ص ٢٩٥ - ٢٩٩ . ٣٠١ -

(٣٨) النهي، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٨.

(٣٩) يحيى، ج ٢٣، ص ٤١٠، DONOHUE, P. 350; BUSSE, p. 239, no. 10 يرى محمد

- التونجي (في أطروحته، ج ١، ص ١٨٩، الحاشية رقم ٤) أنَّ هذا هو نفس أبو نصر بن هارون «الكاتب النصرياني» المذكور في دمية القصر، ج ٣، الشاعر رقم ٩٢٨ (٤٠) ماري، ص ١٠٥.
- (٤١) لعلَّ اسم الجاثليق سقط سهُوا من آخر الصفحة ١٠٥ من طبعة ماري العربية.
- (٤٢) ماري، ص ١٠٤ - ١١٠، صليبا، ص ٩٤ - ٩٥، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٥٦، ٢٦٢. إيليا النصيبي، تحت العام ٣٩١ والhashia العربية، ص ٧٦.
- (٤٣) يحيى، ص ٤١٠ - ٤١١، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٦٩ - ٧٠.
- (٤٤) يحيى، ص ٤٣١ - ٤٣٢.
- (٤٥) الكامل، ج ٨، ص ٥٩٣، CANARD, Hamdanides, I, p. 537-538 كانت فاطمة هذه أم جليلة ذات المصير المأساوي.
- (٤٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠.
- (٤٧) يقول ابن فضل الله العمري (القرن الرابع عشر) في كتاب التعريف إنَّ «العهد» كان يكتبه الخلفاء للملوك (ص ٨٤)، و«النشور» يعني إقطاعات الأمراء وأصحاب الجند (ص ٨١). أما الآخرون، وفيهم البطاركة الملوك، وفيهم العلويون (ص ١٤٤ - ١٤٥) واليعقوبيون (ص ١٤٦) فكانوا يتسلّمون «وصبة»، ولكن رأينا كانت دلالات الألفاظ قد تغيرت على مرِّ العهد.
- (٤٨) ص ٢٦٥ و ٢٤٥.
- (٤٩) إذا جاز لنا أن نقرأ الاسم الأخير «بنهام» كما نجده في مقابسات التوحيدى، ص ٦٠، فقد يكون الرجل من مغاربة السريان، وربما من أسرة برخورو التي أعطت كنيستها بطريركًا. هل أسلم ابن الخطار؟ ١٦٩ Islamochritiana, I, 1975, p. ٢١٣ ؛ تعليق السنديوي، ص ١٥٠، من تحقيقه المقابسات. مع مصادر في: BEO, XVIII (1963-1964) p. ١٦٥, note ١ et ٢ الصفدي، الوفي، ج ١٢، ص ٤٢ - ٤١، رقم ٣٥.
- (٥٠) وكان قد صادف بدار الروم أيضًا راهبًا من نجران (العراق) مرسلاً إلى الصين، فهرست، ص ٣٤٩. - وهل يكفي هنا لأن يرى فيه Le Strange, Baghdad, p. ٢١٣ دليلاً يظهر أنَّ النصارى كانوا يعيشون مع المسلمين على مستوى واحد من التساوي في ظلِّ الخلافة العباسية؟
- (٥١) BUSSE, p. 462.
- (٥٢) الفهرست، ص ١٣٦، إرشاد، ج ٢، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٣٩؛ الصفدي، ج ٨، ص ٤٣٨.
- (٥٣) التُّشنجي، الفرج، ج ١، ص ١٦١، ١٦٣، ج ٣، ص ٩٨، ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٣٢. الفهرست، ص ١٣١.
- (٥٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠. أنظر: في SULAYMAN NADVI, Muslim observatories, Islamic Culture, XX (1946), p. 267-281.

- (٩٨٨/٣٧٨)، يكتب المقدسي في أحسن التقاسيم، ص ١٧٣ : «اعلم أنَّ بغداد كانت جليلة في القديم وقد تداعت الآن إلى الخراب واختلت وذهب بهاوها ولم تستطعها ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللتعارف».
- (٥٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠ .
- (٥٦) يتكلم مسكونيه كثيراً عن الآثار المدمرة التي خلفها اقطاع رؤساء الجند قطائع من الأرض يجرون خراجها لأنفسهم انظر ARKOUN, Miskawayh, p. 347
- G. DAGRON, Minorités ethniques et religieuses de l'Orient byzantin à la fin du (٥٧)  
Xème et au XIème siècle: l'immigration syrienne (Jacobite): dans Travaux et mémoires, 6 (1976), p. 177-216, ici p. 197  
١١٣٠ و ١١٠١ بين العامين استقرَّ تاجر تكريبي بمصر. إنه جد عبدالله المكين ابن العميد، الصندي، ج ١٧، ص ٦٦٦ - ٦٦٧ ، الرقم ٥٦٤ .
- (٥٨) ص ٧٣ .
- (٥٩) عيسى بن نسطوروس وأبو العلاء فهد بن إبراهيم. يروي ابن الأثير في الكامل، ج ٩، ص ١١٧ ، أبياتاً في هجاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي (ت ٩٩٦/٣٨٦) :
- تنصر فالتنصر دين حق  
عليه زماننا هذا يدل  
وُقل بثلاثة عزوا وجلوا  
وعطل ما سواهم فهو عطل  
فيعقوب الوزير أبو وهذا العزيز ابن، وروح القدس فضل  
إلا أنَّ الزركلي يقول، ج ٩، ص ٢٦٧ ، إنَّ هذا الوزير كان يهودياً وأسلم سنة ٩٩٦/٣٥٦
- (٦٠) ربما كان من أقرباء نقيب العلوين الذي يذكره BUSSE, p. 295 قبل بضع سنوات.
- (٦١) يلمح ماري وابن العربي إليها من دون تعين.
- (٦٢) فقد شفى أبو الحسن بن مالك بوساطة غسل طقسي. وأدان راهبًا سارقاً فشلت يده ل ساعته . . .
- (٦٣) يحيى، ص ٤٣٦ ، (P.O. XXIII) .
- (٦٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧١ .

---

## ٢٥ - القادر (٣٨١ - ٤٢٢ / ٩٩١ - ١٠٣١)

---

استمر تفكّك المملكة على مدى خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله الطويلة. فقد راح الأمراء المحليون في كل مكان، المروانيون بديار بكر، العقiliون بالموصل، المرداسيون بحلب، الخ، يؤثثون أسرًا حاكمة جديدة فيّض لها أن تبقى حتى وصول السلجوقة. من جهة ثانية، انهارت بعض الإمارات الأخرى ومنها إمارة الحمدانيين بالموصى والسامانيين في الشغري الشمالي الشرقي المواجه للأتراب.

ظل القادر الخليفة الأصولي، على عرش الخلافة حتى الشهرين ثم مات من الكبار. ولكنه «لم يُقدم على الاستقلال برأيه إلاّ مرة واحدة»<sup>(١)</sup> وذلك لـما أصرّ على أن يظل قاضي القضاة ببغداد سنّياً. ولنا عودة إلى هذا الشأن عندما نقف على أوائل علامات الصحوة السنّية ضد تشيع البوهيمين.

حتى هذا الوقت كان بهاء الدولة لا يزال يحكم قبضته على الخلافة. وليس من المستغرب أن نشهد قيام دار العلم،<sup>(٢)</sup> سنة ٩٩٣/٣٨٣، بالقرب في الجانب الغربي من بغداد، وهي مدرسة لدعّاة الشيعة، وقد بناها الوزير ساپور بن أردشير<sup>(٣)</sup> وجّهزها بكتبة.<sup>(٤)</sup>

في العام ٩٩٥/٣٨٥، على قول ابن تغرى بردى،<sup>(٥)</sup> أو في العام ١٠٠٩/٤٠٠ على قول ابن العربي<sup>(٦)</sup> مات الكاتب اليقوري الهجاء أبو نصر بشر بن هارون بن جملاء صاحب الأبيات المعروفة في هجاء ساپور بن أردشير، والمهمّي وإبراهيم الصابي وأبي رفاعة بن كامل أحد نواب قاضي بغداد على السواد. وقد رأينا من قبل إحدى قطعه المؤرخة بسنة ٩٧٠/٣٥٩.

نلحظ في هذه الحقبة تزايد مشاعر العداء للنصارى في صفوف سكان بغداد. لا شك أنّ لكل حادثة أسبابها المباشرة القرية، ولكن قابلية الاشتعال كانت قد ازدادت أيضاً.

الخبر الأول مذكور في المصادر كلها،<sup>(7)</sup> ومؤرخ بدقة في سنة ٣٨٧ / آذار - نيسان ٩٩٧. كان كاتبان نصاريان من بني باطا<sup>(8)</sup> يتحمّل بلدة داقوق التي كانت آئيٌ قصبة شهرزور - باجرمي. وكانتا يظلمان الناس، من نصارى و المسلمين، «أكثُر من الروم لو احتلوا البلد». واتفق أن اجتاز بالبلدة «جبرائيل بن محمد في عسکره يريد غزو الروم» فاجتمع إليه جماعة من أهل البلد واشتراكوا ودعوه لأن يملك عليهم. فقبض القائد على الظالمين وأمر بهما فقتلا. وملك البلد وأخذ (أو أخذ) لقب دُبُس الدولة.

يبدو أنّ ماري يعزو تهديم بعض الكنائس خلال هذه السنوات إلى سخط مسلمي بغداد واستنكارهم لما أنزله هذان الكاتبان الظالمان من حيف بال المسلمين في بلدة الداقوق. أما ابن العربي فيربط هذه الأحداث غير المؤرخة بخبر السمات المميزة التي فرضها «رجلان مجرمان من العرب (?). فقد قُبض، فيما روي، على منجم نصري وضرب وأهين لأنه لم يكن يلبس الغيار. فاشتكى المنجم إلى سيده (المسلم) الذي أمر «بالرجلين» فطرحا في السجن. ألهب النباء عامة بغداد فاندرأوا على كنيستين للنساطرة هما: كنيسة السيدة في سوق الثلاثاء ودير مار سبريشوع الجاثليق (أي دير كليليشوع)، فنهبواهما. وقد كادوا أن يفعلوا الشيء نفسه بدير الروم، مقرّ الجاثليق، وبغيره من الكنائس لولا أن هدأهم مار ماري الجاثليق بشيء من المال بذلك لهم. ولم يعد النصارى يجرؤون بعد هذه الفورة، على الظهور نهاراً ببغداد.<sup>(9)</sup>

وفي زمن ماري بن طوبا نسمع عن الداقوق أيضاً. فقد رمى أحد المغرضين رأس خنزير في بعض المساجد، فاتهم النصارى بذلك كما هو متوقع. ولكن بدلاً من تحريض العامة رُفعت هذه المرة ظلامنة رسمية إلى بغداد. وكان من حسن حظ النصارى أن عامل الداقوق أدين بالخروج على الطّاعة فقبض عليه وُطُرِح في السجن حتى مات جوعاً هناك، وُسُي أمر النصارى.

نصل الآن إلى العام ٩٩٩/٣٨٩. يذكر إيليا النصيبي<sup>(١٠)</sup> في هذا التاريخ قتل أبي سعيد الكاتب من غير ذكر ظروف القتل ولا مكانه. يُضاف إلى هذا أنَّ التسلسل التاريخي لهذه السنوات يكتنفه الغموض بحيث يستعصي علينا ربط هذا الحادث، في صورة يقينية، بهذه الفورة أو تلك من الفورات التي رأيناها أعلى.

ثمة خبر آخر، غير مؤرخ أيضًا، وهو رفض الشمامسة المتحدررين من المدائن (والنازلين ببغداد) رئيسهم أبا الفرج بن يعقوب. إنَّ هذا الخبر لم يكن ليستحق منا التوقف عنده لو لم تستعن أسرة الرئيس المرفوض بنقيب الهاشميين،<sup>(١١)</sup> وهذا أمر له دلالته. كان اللجوء إلى السلطة الزمنية، حلَّ المشكلات التي لا تعفي إلا المراجع الكنسية، من أهم أسباب ضعف طوائف النصارى على مر العصور. وفي الحالة التي بين أيدينا، انحاز الجاثليق إلى صفت رئيس الشمامسة أي أنه وافق التقىب.<sup>(١٢)</sup>

في العام ٩٩٩/٣٨٩، كاد ماري بن طوبا الجاثليق أن يقع في مصاعب جديدة. فقد أحضر إلى دار الخلافة «بعد الشعانيين»، وعُذِلَ على عدَّة « أبواب كبيرة (كذا) منها: علوَّ أصوات النصارى في الصلوات، وجلوس أصحاب الطوف والملح والملاحين والطُّرَافين على أبواب البيع» الخ... ومن حسن التوفيق أنَّ الجاثليق استطاع التبرُّء من التَّهْمَم كلها. ولما كان الوقت ليلاً عندما أطلقوه رافقه حملة المشاعل من قبَّل «ال الخليفة». وقد اصطَفَ النصارى على جانبي الطريق، وانفرج الكلب الذي نزل بهم لما سمعوا نبأ القبض على رئيسهم.

من كان وراء هذا الكيد؟ الأشبه أن يكون الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، الذي كان الكل يتشَكَّى منه، والذي أُبعِد إلى الوزارة، مع ذلك، خمس مرات من قبَّل السلطان. ويروي ماري أنَّ هذا الوزير فرض على الناس العشر في البيع والشراء، حتى صارت بغداد منه في غليان. ولما كان عيد الشعانيين (الذي كان عيدها شعيبًا عظيمًا للكل) لم يحرُّر الموكب التقليدي على الخروج من الكنيسة البطريركية. فقد «اجتمع الناس تحت دار الخليفة المسلمين بالقرآن وألزموا النصارى إحضار الإنجيل وأخرج الإنجيل على صدر القس والنصارى خلفه يَسْبِحُون وحصلوا في جامع الرصافة والشارع الأعظم إلى تحت التاج المسلمين يَذْبُبون عنهم... وأحرقت دار الجانب الغربي لأنها كانت معدن البلايا والمصادرات».<sup>(١٣)</sup>

ويبدو أن هذه الأحداث تواافق وزارة سابور الرابعة، سنة ٩٩٦/٣٨٦ - ٩٩٧<sup>(١٤)</sup> والتي لم تدم إلا شهرين اضطرّ في آخرها الوزير إلى المرب.

كان المناخ يميل إلى الفتن، بسبب سابور أيضًا، عندما توقي الجاثيلق. وقد ثار الترك مرة أخرى. وفي يوم وفاة ماري، هرب الوزير من الترك الذين عبروا جميعهم (بتدبير العناية الإلهية، على حد قول ماري المؤرخ) إلى الجانب الغربي في طلبه. وقد قاوم أهل الكرخ (ومعظمهم من الشيعة) الأتراك، ولذلك خفت السنة من شرقى بغداد لتجدة الترك.<sup>(١٥)</sup> وفي هذه الأثناء أقيمت الصلوات القانونية بعد جنازة الجاثيلق، ولكنها اختصرت نظرًا إلى الظروف. ثم اتفق أعيان السنة والشيعة على تهدئة الناس، وكان ذلك في المحرم من العام ٣٩١ / آخر كانون الأول سنة ١٠٠٠.

مات في جثلقة ماري (٩٨٧ - ١٠٠٠) الطبيب والكاتب المشهور أبو سهل عيسى المسيحي المتحدر من أسرة خراسانية الأصل، وقد صادفاه في خدمة عضد الدولة<sup>(١٦)</sup> من قبل.

شهد العام ٣٩٠ / ١٠٠٠، الذي سبق موت الجاثيلق، بداية تكون حركة تحرر السنة الذين أحبطوا منذ أكثر من خمسين عاماً،<sup>(١٧)</sup> أي منذ وصول البوهيمين سنة ٩٤٥. على أن هذه الحركة لم تفلح بمفردها، بل احتاجت لذلك إلى نجدة السلاجقة، الذين تولوا السلطة سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥. ولكن الانتفاضة السنة الأولى التي تُرجمت إلى إنجاز عملي كانت رفض الخليفة (ولم يعد هذا الأمر مألوفاً) تعين قاضي قضاه شيعياً بدلاً من القاضي السنّي. وفي الوقت نفسه وضع الفقهاء من أمثال الماوردي<sup>(١٨)</sup> وأبن الفراء<sup>(١٩)</sup> أقاليمهم في خدمة الخلافة السنة<sup>(٢٠)</sup> عندما أُلف كل منها كتاباً في الأحكام السلطانية.

### يوانيس بن عيسى

XX بدا الجاثيلق الجديد يوانيس، من أول أمره، صناعة من صنائع السلطة. ويتحدد ماري عن تنافس ما نسميه «مجموعات الضغط» البغدادية والشيرازية وعن

خيارات تملّيه الرغبة في رفض مرشح الآخرين أكثر مما تملّيه الرغبة في تأييد مرشح آخر. لم يعد أحد يتكلّم عن انتخابات: فالقصر هو صاحب القرار. وإنَّ ابن العبرى ليقولها بفجاجة: ذهب يوانيس إلى شيراز قاصداً بهاء الدولة<sup>(٢١)</sup> الذي أمر بتوصيه جائلاً. أمّا رؤساء الطائفتين ببغداد<sup>(٢٢)</sup> (لا كلام حتّى عن أساقفة) فقد وجدوا القرار مِرْأَةً، ولكنهم ما استطاعوا إلَّا الانحناء أمامه. هرب بعض الآباء ولكن رسامة يوانيس جرت في ٥ ذي الحجّة/٢٦ تشرين الأول سنة ١٩٠١. وإذ وصل مطران الموصل (إرادياً؟) بعد الرسامة فقد حكم عليه بالبقاء على باب القليلة لابساً المسروق جالساً في الرّماد. ولَا رضي الجائليق باستقباله، أخضعه لمزيد من الإذلال وغُرِّمه مئة دينار. . . وقد كانت جثلته ملأى بأعمال من هذا القبيل.

كان من البدائي أن يُستقبل الجائليق المنتخب بما يستحق من تكريم في قصر الخلافة وأن يكتب له العهد المألف.

ولكن الرياح لم تعد مؤاتية للنصارى. فقد تحمس السُّنة لدى سماحتهم الأنبياء عن أوائل فتوح السلطان محمود بن سبكتكين في الهند، تلك الفتوح التي اعتُبرت انتصارات للسُّنة. وفي انتظار التمكّن من البوهين حمّة الشيعة، كانت العامة تتقدّم فرصة للإيقاع بالمستفيدين من النظام، من بين نصارى ويهود.

إلى هذا السبب العام انضاف الدوافع الشخصية كذلك التي كانت تحرك رجالاً من الخانبلة كان يشتهر الاستيلاء على أرضٍ بالقرب من كنيسة مار توما للبيعانية بقطيعة الدقيق، من دون أن يتوصّل إلى ذلك، بسبب الحمّة القوية التي كان يسيطرها عليها نصراواني اسمه باسيليوس بَزَّازا ابن طاهر.

ولما كان هدف الهجوم محدّداً بوضوح، سُنحت الفرصة المستطرة سنة ١٩٠٢/٣٩٢، عندما زنا كاتب نصراواني يدعى أبو منصور الدرّاجي بامرأة خباز عربي، ثم وُجدَ الخباز مقتولاً بعد ذلك بمدة يسيرة. ما هُمْ أن يكون الكاتب نسطوريّاً؟ لقد أغتنمَ الجندي الحادثة ليتّهم يعقوبة الحيّ بما جرى، وكان ذلك كافياً لأن ينقضَّ العامّة على كنيسة مار توما. انتزعت الزخارف وأعمدة الخشب التفيسة. وبينما النّهاب مشتعلون بالتهب إذ اتّصلت النار من مكّنسة مشتعلة كان يهُول بها

بعضهم على النهاب فالتهب المبنى كله وتهافت سقفه فوقع عليهم، فهلك في الحادث خمسون شخصاً من بين رجال وامرأة ولد، منهم بعض النصارى القلائل. وكان من أمر بعض فرسان البدو (من بني معدان) الذين اجتذبهم التهب أن هربوا من الحريق فداست سنابكهم ثلات نساء عربيات أيضاً. وفي الوقت نفسه نهبت كنائس أخرى: منها كنيسة للنساطرة بالقرب من الدور (كنيسة مار أصيفانوس) وكنيسة أهل كسر النسطورية ودير الرواهب اليعقوبيات. وقد صان تدخل السلطة الحازم بقية أماكن العبادة.

ولكن أغرب ما في الأمر أن قد وجد في كنيسة اليعاقبة المحروقة إنجيل سالم من النار إلا جلدته. أمام هذه «المعجزة» اتخاذ كل فريق موقفاً حسب معتقده. بالنسبة إلى اليعاقبة، أصحاب الكنيسة (وابن العربي، الذي يروي الخبر، منهم) كانت المعجزة برهاناً قاطعاً على أن عقيدتهم وحدها هي الحق. أما النساطرة فانقسموا: فقسم رُزعز إيمانهم ولم يبعدوا كثيراً عن الاعتراف بأن عقيدة اليعاقبة هي الأصحّ، وقسم قال: «نعم. ولكن النار ما مستَت كنائسنا» وأما علماء المسلمين فكان تفسيرهم للناس أنَّ ما حدث لم يحدث لأنَّ النصارى على الدين الحقّ، بل بفضل العهد الذي كتبه الرسول بألا يتعرّض أحد للنصارى بشر. على أيّة حال يختتم المؤرخ قائلاً: «ولكن العرب حاولوا، كالنساطرة، وضع السراح تحت المكيال». (٢٤)

وقد استفتي، من جراء الحادث، ثلاثة فقهاء مسلمين في جواز هدم الكنائس. وأما الثلاثة العلماء فهم: أبو أحمد عبد الرحيم بن علي المرزبان الأصفهاني (ت ٣٩٦ - ١٠٠٥)،<sup>(٢٥)</sup> وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٤٠٣ / ١٠١٢) من أعيان الحنفية،<sup>(٢٦)</sup> والبيضاوي (؟). وقد أفتى الثلاثة بتحريم هدم الكنائس.

من المهم أن نعرف هل صدرت الفتوى قبل وصول الأمر من قصر الخلافة باستئثار ما حدث وتحريم التعرض لأهل الذمة. وإنَّ المرء ليطمع أيضاً في معرفة من استحصل على هذا الأمر، عدا عن البواعيث والمسوح ورماد الجاثيلق والنصارى.

في مقابل هذا التسامح الإسلامي نتبين في تلك السنوات شخصاً، «كاتباً»، اسمه أبو الحسن بن إسحق، (٢٨) يرجح أنه نصراوي وأنه كان ذا نفوذ، إذ أنه ما اكتفى بانتزاع الغرامات من التجار حتى أساء معاملة جاثليقه. ثم بلغ بعد ذلك من الظلم والعنف في سلوكه بغداد، ما استحق به أن يُنفذ الوزير فخر الملك من الرُّطْ من يغتاله على طريق كرمان.

## مناوشتات بين النساطرة واليعاقبة

بعد عامين من حادثة الكنائس، في العام ١٠٠٤/٣٩٤، جاء رئيس أساقفة اليعاقبة بتكريت، (٢٩) أغناطيوس برققي، إلى بغداد ليعيد عبارة الكنيسة المحترفة. وقد لقي استقبالاً حسناً من قبل الجميع مسلمين ونساطرة، وحملت إليه هدايا كثيرة وذلك «لأجل المعجزة [الإنجيل الذي سلم من النار] وعقيدة الخبر وعلمه»، ولأجل عمه توما بزارا ابن بطرس برققي الكاتب «بين يدي الملك»، (٣٠) على حد قول ميخائيل السرياني الذي ينظر إلى الأمور نظرة واقعية. إلا أن جاثليق النساطرة يوانيس انزعج من ذلك، ولا سيما إذ رأى الكتاب النساطرة أنفسهم يذهبون لزيارة برققي ويصلونه بالهدايا، فمنعهم الجاثليق من ذلك، «وقد ظهر في يوانيس كبر وعجب.. وتجوز بأخذ الرشى» على حد قول ماري المؤرخ السطوري.

بدأت لعبة شدّ الحبال إذن، بين الطائفتين السريانيتين النساطرة واليعاقبة. أرسل اليعاقبة الأعيان منهم لمقابلة وزير الخليفة القادر، أبي الحسن علي بن عبد العزيز، ابن حاجب النعمان. (٣١) فذهب هؤلاء إلى حدّ مطالبة الوزير بمنشور يأمر الجاثليق باستقبال «المفريان».

كانت «عراضة» الجاثليق (بتوصیط الكتاب النساطرة) کلاسیکیة: «المفريان» نائب بطريقك ينزل في بلاد الروم، أعداء العرب، وهو لا يصلّي إلا من أجل نصرة الروم وذلة العرب، الخ... . كان الخليفة قد اعتاد هذه المعزوفة فلم يلتفت إليها أكثر مما فعل أسلافه. ثم أحيل الخلاف إلى الفقهاء فانقسمت آراءهم. ولا عجب في ذلك لأننا نعلم أنّ مذاهب الفقه السنة كانت تختلف في شأن معاملة أهل الذمة. كانت الوثيقة القانونية الوحيدة، المنظمة لعلاقات الطوائف النصرانية فيما

بينها، هي العهد الذي كتبه المقترن سنة ٩١٣ للجاثليق إبراهيم الثالث، عندما أراد الملكانيون إقامة أسقفية لهم ببغداد. كان الجواب واضحًا: لا يجوز إلاً لجاثليق النساطرة بالإقامة الدائمة في بغداد. فأفهם «المفريان»، إذن، أنَّ له الحق في التردد إلى العاصمة كلَّما استلزمت ذلك مسؤولياته الكنسية، ولكن لا يجوز له الإقامة الدائمة فيها. وقد أوضح أيضًا في المنشور نفسه أنَّه لا يجوز للمفريان «إظهار شعائر رياضة الكهنوت» خارج كنائسه.<sup>(٣٢)</sup>

ووُقعت بين يوانيس وبين اليعاقبة مناوشة أخرى في تاريخ غير محدَّد. فقد حاول الجاثليق أن يضع يده على كنيستهم بالكرخ (مار توما؟) ولكنه لم يفلح، ونجهل بقية التفاصيل.

ويذكر أنَّ طائفة يوانيس نفسها صارت تتأمَّر أكثر فأكثر من قسوته ومن «انهاك تلاميذه في القبائح وارتكاب المحظورات» حتى أنَّ الرعية اتهمته «بصبيِّي كان يقيم معه في القلية». وباختصار، ثارت به الطائفة فاضطرَّ إلى الهرب من دار الروم إلى الجانب الغربي من دجلة. ولم يمكنه أن يعود إلى مقره إلاً من بعدهما قطع على نفسه عهودًا للرعية بالرجوع عنها كانوا ينقمون عليه. ولكن ذلك لم يمنع بعض هؤلاء من ترك الطائفة النسطورية والانضمام إلى غيرها من الطوائف النصرانية؛ ويذكر هنا الطبيب علي بن عيسى<sup>(٣٣)</sup> تلميذ ابن الطيب «أشهر كحالِي العرب» وصاحب الرسالة في طب العيون. اشْمَأَر هذا الطبيب من تصريحات جاثليقه فانضمَ إلى الملكانية وظلَّ ينتقد يوانيس في رقاع كان يعيشها مع صبيان الملكانية ليطرحوها في كنائس النساطرة. ويُقال إنَّ الجاثليق بكى من ذلك أمام الناس.

مررنا الآن باسم أبي الفرج عبدالله بن الطيب الطيب، الفيلسوف، اللاهوتي، المفسِّر، الخ،<sup>(٣٤)</sup> الذي نجده من بعد كتابًا للجاثليق يوحنا بن نازوك. ويذكر ابن العربي في هذه الفترة أبا علي حسن بن سهل صاحب بعض التعليقات على كتب كنسية ومنطقية.<sup>(٣٥)</sup> وفي الفترة ذاتها كان يعيش أبو علي عيسى بن زرعة<sup>(٣٦)</sup> تلميذ يحيى بن عدي وخليفته. وكان أبو علي مترجمًا وفيلسوفًا وجديلاً<sup>(٣٧)</sup> ومات سنة ٣٩٨/١٠٠٧.

هذه الأسماء كلَّها تذكَّرنا بأنَّ الجدال الإسلامي النصراني كان مستمراً كسابق

عهده في القرون التي مضت. (٣٨) وربما تمكّن المرء من أن يلمس فيه شيئاً من التصلب في الموقف، كما يتبيّن بوضوح من الموقف الشعبيّ، ولكن هذا الموضوع يخرج عن إطار بحثنا. وقد سبق لنا أن قلنا إنَّ تراخي الدعاوة الشيعيَّة في ظل البوهين والصحوة الستيَّة مع الآمال التي ولدتها الانصارات التركية في الشرق تفسُّر تنامي ذلك التصلب والعدوانيَّة. ويجب أن نأخذ في الحسبان أيضاً تزايد الاحباطات الناتجة عن التكبات المزمنة: الغلاء، المجاعات، الخ. (٣٩) على آئُّة حال لم يكن المأخذ على النصارى وحدهم، إذ أنَّ الفتن بين السنة والشيعة قد تكرّرت، ببغداد مثلاً، سنة ٣٩٨ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨. (٤٠)

ويبيّن لنا الخبر التالي عن التناحر على السلطة بين أمراء المسلمين نفوذ الكتاب النصارى وهشاشة وضعهم في الوقت نفسه: في العام ٤٠٢ / ١٠١١، وفي أمارة فخر الدولة كان الوزير أبو غالب الحسن بن منصور الملقب بذي السعادتين على خلاف معبني خفاجة. فأشار كاتب نصريٍّ من دقوقا (نسطوري إذن) على سيده سلطان بن الحسين بن ثمال الخفاجي بالقبض على ذي السعادتين فُتُمَيَّ الخبر إلى الوزير، فأفسد تدبیر الخفاجي وبقى عليه وعلى كاتبه النصريٍّ. (٤١)

في الثامن من كانون الثاني ١٠١٢ / ٤٠٢ جادى الآخرة مات يوانيس الجاثليق عن جملة دامت عشر سنوات ونيف. لا تذكر المصادر أنه قد أسف عليه أحد. ويكتب ابن العربي أنَّ «الكثيرين شمتوا بمותו». فمِّا كان يُؤخذ عليه تعجرفه وتسرُّعه في إلقاء الحرث على من خالفوه في الرأي (وأنَّ كان يغفر عنهم بعيد ذلك بقليل ويخلُّهم من الحرث)، وكان أكثر شيء يؤخذ عليه الفضائح التي ارتكبها تلاميذه. ويكتفي المؤرخ النسطوري ماري بالقول وبعد موته «اعتقل سابور تلميذه»، أمَّا ابن العربي اليعقوبي فيضع النقاط على الحروف: كان سابور هذا يرتكب الفواحش في العلن وكان الجاثليق يغضُّ الطرف عنه بينما عَزَّل أسقفين للسبب نفسه. ولأجل هذا كان يوانيس «عمقوتاً من الجميع»...

ومع ذلك تنسُب إليه معجزات في العقوبة هي مما ينسِيه العامة إلى الأساقفة عادةً، فيبعد مشاجرة معه رفض سبعة أشخاص مصالحته: فكسرت ساق أحدهم وفلج آخر، «فقيل هذا بدعائه».

وبعد حوالي عام من وفاة يوانيس مات بهاء الدولة<sup>(٤٢)</sup> في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٢٢/٤٠٣ كانون الأول ١٠١٢. وقد ملك ٢٤ سنة مع أنه مات في الثانية والأربعين من عمره. وقد خلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع.

## يوحنا بن نازوك

XXI جرى انتخاب خلف<sup>(٤٣)</sup> ليوانيس الجاثليق قبل حوالي شهر. وهذه المرة لم يكن تدخل العلمانيين ظاهراً. فقد أجريت جولة أولى ثم ألغيت بعد مراجعة أبي علي الدورقي<sup>(؟)</sup> لأن البعض ارتقى من حصول تزوير. ولكن لما سحب من الكأس اسم أبي عيسى يوحنا بن إبراهيم بن نازوك، على يد أسقف هرم أعشى، رضي الجميع بذلك. فذهب الجاثليق المنتخب إلى القصر وأخذ عهد<sup>(٤٤)</sup> تولية يسمح بسيامته، ثم سيم جاثليقاً يوم الأربعاء في الثاني من جمادى الأولى ١٩/٤٠٣ تشرين الثاني ١٠١٢.

## جنازة أخرى

كان سبب واحدة من كبرى المشكلات في جملة ابن نازوك، جنازة. ويصعب تأريخ الحدث: فهو في العام ١٠١٢/٤٠٣ على قول جورج مقدسي<sup>(٤٥)</sup> أو في العام ١٠١٣/٤٠٤ على قول حبيب الزيارات<sup>(٤٦)</sup>، أو في العام ١٠١٧/٤٠٨ على قول تاريخ الزمان لابن العربي<sup>(٤٧)</sup>.

أما الشخصية الرئيسية في المأساة فهي الفقيدة، وهي بنت أبي نوح الأهوazi من أعيان النساطرة، زوجة أبي نصر بن إسرائيل كاتب الناصح<sup>(٤٨)</sup>، أبي الهيجاء الجرجاني. وقد سارت الجنازة نهاراً من بيت المأتم الكائن بالرصافة على الأرجمع، (في الجنوب الغربي من حي الشماسية بالجانب الشرقي من دجلة) متوجهة صوب دار الروم. وقد أحاط بموكب الجنازة غليان الناصح من الترك، وضمت فيما ضمت جوقة صاحبة تُقرع فيها الطبول وتُنفتح الزمور، ويرتل فيها (إن لم نقل يزعق فيها) رهبان يرمحون بالشموع والصلبان، وكلها أشياء قبح في أعين المسلمين ويكرهونها. ولما مرّ الموكب بالقرب من مشهد أبي حنيفة لم يتهملك صاحب دكان هناك نفسه،

في بعض على النعش. ثم انضمَّت إليه العامة، فرموا الموكب بالحجارة والشتائم، وتعرَّضوا بالأذى لغلمان الناصح. فهرب النصارى بالميَّة إلى كنيسة دار الرؤوم، فللحقت بهم العامة إلى الكنيسة والقلية وأعمل السُّلْب والثَّبَّ فيهما وفي المنازل المجاورة.

أمَّا الأرمل فقد تَمَكَّن من إدراك داره عدوًا ثم لحق بقصر حاميه، فتبَعَه جمِّ العامة ونشَب قتال بينهم وبين الحرَّاس. وأرجف بأنَّ بعض النصارى قتل رجالًا مسلَّحًا، فحملت جثَّةَ المُسْلِمِ وطَيَّفَ بها في أحياء بغداد. وأغلقَت الأسواق والمساجد ولم تُقْمِ صلاة الجمعة ورفعت العادة المصاحف على رؤوس القنا وحملت «شهيدها» إلى دار الخلافة مطالبة بالقصاص. وفي هذه الأثناء ثُبِّتَ كنائس عَدَّة.

ومن أجل تهَدِّئِ الخواطر طلب الخليفة تسليمِ الأرمل المُسْكِنَ الذي صار معتديًّا رغَمًا منه. فحبسه ليضعه في مأْمَنٍ من الأذى ثم أطلقه من بعدهما هدأت الفتنة. وقد عرض عليه أن يسلم قياماً بواجب النصيحة، فرفض.

وكان من أسباب عودة الهدوء أنَّ الخليفة أعلَنَ إعادة تطبيق «الشروط العُمرية»: لبس الغيار وحضر ركوب الخيل وصرف الخدم والإماء من منازل النصارى... فاستدعي الجاثيَّق إلى القصر وتعهَّدَ، نيابة عن رعيته، باحترام الأوامر، وقرئت التعليمات في هذا الشأن من على «البيم» بالكنائس.

## فخر الملك

كان فخر الملك،<sup>(٤٩)</sup> أبو غالب محمد بن علي بن خَلَف، وزير سلطان الدولة، مَنْ عملوا على إعادة فرض «الشروط العُمرية». ويذهب ماري إلى أنَّ ميول الوزير لمعاداة الذمة كانت أشدَّ، نظرًا إلى تحذيره من أسرة جهابذة اليهود، وإلى أنه تربَّى، قبل اعتناقِ الإسلام، بواسطَة بلدة الحجاج ومدينة النبط.<sup>(٥٠)</sup>

وقد اجتاز فخر الملك هذا بدير ماري بدور قُرْنَي سنة ٤٠٢/١٠١٢. واتفق أن كان الناس صيام في رمضان فقدم له أفطار فاخر. «وأغراء الشيطان

بعض الناس المتألهين النصارى وحسدهم لحسن وجوههم وبشرتهم فتعصّب في المطالبة بلبس الغيار».

وكان ابن جابر، من أقارب<sup>(٥١)</sup> فخر الملك، قد عُيِّنَ عاملًا على ناحية النهروانات، التي يقع الدير في نطاقها. فقصد هذا العامل «الأسكول والأسقف وأدّعى عليه مالًا جزيلاً وديعة لفخر الملك، فصادر الناس وكبس الاسكول». قاسى النصارى أيامًا عسيرة. وتعرّض الرهبان والقساوسة للترجم والإهانات وشئَّ أعمال الكيد، ومبينَت الجنائز من الخروج نهاراً، ونهبَ أهل سوق الثلاثاء، «وأسلمَ من لا دين له» على قول ماري.

### الصحوة السنّية

كانت الحال العامة، فضلاً عن هذا، مضطربة أيضًا. وكانت السنوات ما بين ٤٠٦ و٤٠٨ / ١٠١٥ و١٠١٧، سنوات عودة السنة إلى السيطرة على بغداد. بدأ السنة بأن منعوا الشيعة من احياء ذكرى عاشوراء،<sup>(٥٢)</sup> وشنوا بحرائق أشعلاها ببغداد وكربلاء وسامراء.<sup>(٥٣)</sup> وبلغ التحرُّك المساوى للشيعة ذروته سنة ٤٠٨ / ١٠١٧. يطلق المؤرخون السنة على هذا العام اسم عام الفتنة، وهذا يقابل تقدُّمَ محمود بن سبكتكين الذي فتح خوارزم<sup>(٥٤)</sup> في ذلك العام.

كان من الطبيعي أن يولد الغليان العام تيارات هامشية تذهب ضحيتها الأقلّيات. وفي هذه المياه العكرة، كانت تسبح شئَّ أنواع الحيتان التي كانت تجد في النصارى فرائس سهلة المنال.

لم تكن السلطات الرسمية تقبل بهذه التعديات أو تُقرُّها. من ذلك أنه لما شبَّ حريق خلف مسجد الرصافة وأرجف بأنَّ النصارى وراء الحادث تدخل الخليفة القادر وأمر بتكميل البناء وحال بذلك دون سحق النصارى نهائياً.

وقد ساءت الأحوال أكثر في مصر والشام: هناك لم تهدم الكنائس فحسب، بل فرض على النصارى أن يجعلوا في أعناقهم صلباً من خشب زنة الواحد منها خمسة أرطال، وعلى اليهود أن يجعلوا في أعناقهم رأس عجل «عظيم المقدار» هناك أيضًا ترك الكثيرون أديانهم وأسلموا.

كان من الطبيعي أن تطرح هذه النكبات (كما طرحت سرعة الفتح العربي من قبل) أسئلة على نصارى ذلك العصر، ولا سيما على المنافحين عن العقيدة الذين رأوا في تلك النوائب عقوبة إلهية. لذلك يقول ماري: «وكان أصل ذلك تجور الناس في أدائهم وفتح سيرة الكهنة في المذبح والبيع والبيوت المقدسة». وقد يكتن أن يضيف: وحتى في مقر الجاثلقة الذي كان ثُبَّة لأقارب الجاثلقي. فمن ذلك أن أسقف مصر لما جاء إلى الجاثلقي ليشكُّوا إليه تخريب حوالي أربعين ألف كنيسة ودير بالغرب وأن لم يبق إلا عدد ضئيل من المؤمنين، أحالة الجاثلقي إلى مطرانية فارس، ولكن من بعد ما أخذ منه رشوة.

وقد حصل الانفراج سنة ٤٠٧ / كانون الثاني ١٠١٧<sup>٥٥</sup> عندما قبض على فخر الملك وأعدم بشيراز بعد وزارة دامت أكثر من خمس سنوات. وينذهب ماري إلى حد القول إن «الوحوش والطير أكلت جثته» أمّا ابن الأثير، الذي يثنى على الوزير، فيعترف بأنه جمع بالنهب ألف ألف دينار.

وقد خلفه أبو محمد الحسن بن الفضل بن سهلان الذي لُقب بعميد أصحاب الجيوش<sup>٥٦</sup> والذي «استقبله الجاثلقي وخدمه وسرّ به وأنكر التبسط على أهل الذمة والغيار».

### برقيق ثانية

وفي أثناء سنوات الاضطراب هذه عاد إلى بغداد، قبل العام ٣٩٨/١٠٠٧<sup>٥٧</sup> أغناطيوس مرقص برقيق «مفريان» تكريت لليعاقبة وصاحب المكائد. وقد ثارت به رعيته لما رأته يستولي على أموال كنائس تكريت وبغداد وما والاهم من القرى، ويتنزع كلّ ما فيها من نفائس. «واستعان عليه» أحد أعيان اليعاقبة (وهو ابن زرعة الفيلسوف) بالناصص، فمضى برقيق إلى دار السعيد (؟) وأسلم على يديه، «وأكل اللحم» (وهذا ما لم يكن يفعله الأساقفة الذين كانوا رهباناً). ثم مثل بين يدي الخليفة «وقطع زناره» علامه على خروجه من حال الذمة، وتكتُّن بأبي مسلم «وأخذ عدّة نساء» على قول إيليا التصيبياني. ولا شك في أنه تعرض لأبناء ملته السابقة من اليعاقبة «وادعى عليهم كل دعوى».

وكما كانت الحال غالباً مع أمثاله من مسلمي المصلحة، لم يطل به الوقت حتى انكشف وجده الحقيقي «وافتضح عند المسلمين والنصارى».

وقد وقعت ليوحنا الجاثليق يوماً مفاجأة مزعجة لما التقى برقبي هذا في دار أبي الحسن بن عبد العزيز، ابن حاجب النعمن. (٥٨) فبدا «لأبي مسلم» الجديد أن من واجبه أن يدعو الجاثليق إلى الإسلام قياماً بواجب النصيحة. فأنكر الحاضرون من فقهاء ومتكلمين فعلته المضرة كما أنكرها سيد الدار الذي شيع الجاثليق الضيف بما يليق من تكريم.

ويروي ميخائيل السرياني أيضاً (٥٩) أن الخليفة استقبل برقيبي كما يستقبل أي مسلم آخر، من غير أن يبدي له نفس الاعتبار الذي كان يبديه له لما كان مطراناً. ويضيف ميخائيل السرياني أن «النصارى رفعوا رأسهم» (٦٠) وينذهب هذا المؤرخ إلى أن المطران السابق عاش فقيراً يستعطي الناس. وقيل إنه تاب من بعد ذلك، وقد بقى منه أشعار في هذا المعنى. (٦١) أما يوحنا بن نازوك فقد توفي في ٢٨ ربيع الأول ٤١١ / ٢١ تموز ١٠٢٠ عن جثلقة دامت حوالي ثمان سنوات وشهدت واحدة من أقسى النكبات التي مررت بها حتى الآن. وقد نُهِّيَّنا في حينه إلى ما انجرَّ عنها من ترك رهط غير قليل من النصارى دينهم ودخولهم الإسلام.

نسوق فيما يلي هذا الحادث العابر، الذي وقع خارج بغداد في العام ٤١٥ / ١٠٢٤ أو في ٤١٦ / ١٠٢٥، لدلالة على ذهنية ذلك العصر. (٦٢) ذلك أنَّ الترك لما سخطوا على صاحب حلب وثاروا به، لم يكتفوا بلعن الظاهر الخليفة الفاطمي والذِّعاء لقيصر الروم، بل رفعوا الصُّليبَان على أسوار المدينة وأمرُوا بالتوافيس فدُفِّقت. يبيّن لنا هذا إلى أي مدى صارت رموز النصرانية مثل شعار يتعارفه كلُّ أولئك الخارجين، لا على الإسلام، بل على شطط بعض مثيليه الرسميين. وسوف تناح لنا فرص أخرى للوقوف على هذه العادلة المفرطة في التبسيط؛ نصارى = أعداء الإسلام.

ايشعى يهوب بن حزقيال

انتُخب ايشعى يهوب بن حزقيال، (٦٣) أسقف القصر والنهر وانات،

XXII

خلفاً ليوحنا بن نازوك بعد سبعة أشهر من وفاة الجاثليق. إنَّ اسم أبرشية ايشوع يهب يذكُرنا بمحاجة الجثليقة السابقة. والأرجح أن يكون هو قد هرب إبان اضطهاد فخر الملك وابن جابر للنصارى، وأن يكون قاسى المصادر.

ولما اقترب الانتخاب فرق ايشوع يهب رشاوى (بلغت خمسة آلاف دينار، على قول ابن العبرى) على أصحاب التفوذ، وخصوصاً أبي غالب الحسن بن منصور، ذي السعادتين.<sup>(٦٤)</sup> وقيل إنَّ ذا السعادتين أمر باغراق كلَّ من لا يؤيده. وهكذا إذن «انتخب» ايشوع يهب، إلا أنَّ عدداً من الأساقفة فضلوا الهرب ولم يقرؤا اسمه في سفر الأحياء.<sup>(٦٥)</sup> وقد اتسمت جثليقه التي لم تدم أكثر من أربع سنوات ونصف «بما يقع ذكره ولا يحسن شرحه» على قول ماري، والأغلب أنه كان يشير إلى المنافسات الداخلية في الكنيسة.

أما بالنسبة إلى الأمور الخارجية، فيبدو أنَّ الحال ظلَّت متوتة لأنَّ ايشوع يهب لما مات في ١٣ ربِيع الأول سنة ٤١٦/١٤٠٢٥ أيار، احتاج إلى إخراج جنازته ليلاً. وفي تلك السنة بالذات «ظهر أمر العيارين ببغداد، وعظم شرُّهم»، حتى إنَّم أحرقوا الكريخ،<sup>(٦٦)</sup> أي الجانب الغربى من العاصمة.

ظلَّ كرسى الجثليقة شاغراً مدة ثلاثة سنوات، من ١٤٠٢٥ إلى ١٤٠٢٨، بسبب الخلافات والفتنة المتصلة بالبلاد. «في تلك الأيام» نهبت قلية دار الروم،<sup>(٦٧)</sup> ولا يستبعد الواقع على ذكر الفتنة وأعمال النهب في هذه السنوات. والخبر الذي ينفرد بذلك صليباً يقع في فترة أعمال الشعب والنَّهَب العامة التي وقعت ببغداد سنة ٤١٧/١٠٢٦،<sup>(٦٨)</sup> عندما وقعت الفتنة بين الترك وبين العامة في أحياء بغداد ودورها.

وقد انصلح الحال قليلاً لدى دخول جلال الدولة<sup>(٦٩)</sup> أبي طاهر، ابن بهاء الدولة<sup>(٧٠)</sup> إلى بغداد في ٣ رمضان ٤١٨/٧ تشرين الأول ١٠٢٧.

عندئِل استطاع الآباء المسيحيون أن يجتمعوا. وللمرة الأولى منذ مدة طويلة جرى الانتخاب، فيما يبدو، حسب القراءات القانونية: «وكانت لهم اجتماعات كثيرة مع المؤمنين» بلا ضغوط مفرطة من هذه الجماعة أو تلك وإن كان الجاثليق الذي

انتخب من موالي بني الجمل الذين صادفناهم من قبل. وقع الاتفاق إذن على قائمة من ثلاثة أسماء، وأقيمت صلوات بالباعوث ثلاثة أيام، ثم أُلقيت القرعة على ما جرى به العرف، فخرج اسم إيليا، أسقف الطيرهان من الكأس.

## إيليا الأول

XXIII كان الجاثليق الجديد، الذي سيم في ١٦ حزيران (١٠٢٨)<sup>(٧١)</sup> معروفاً بعلمه مشهوراً بفضله وسداده، باجماع جميع المصادر.<sup>(٧٢)</sup> وقد اتسمت جثليقه بالمديدة بالتصانيف التي صنفها،<sup>(٧٣)</sup> وإصلاحه الطقوس، وبالمجمع الذي عقده وأقرّ فيه بعض القوانين الكنسية. كان إيليا الأول موضع ثقة الجميع وعمل من أجل المصالحة.

ولكن بغداد ظلت فريسة الفتن والاضطرابات في العام ٤٢٠ / ١٠٢٩<sup>(٧٤)</sup> على الرغم من وجود جلال الدولة بها. فاللصوص ما عادوا يستترون بل صاروا يفرضون الاتاوات على الناس علانية. وفي هذه السنة مات أبو سهل سعيد بن عبد العزيز النيلي، الطبيب الأديب الشاعر، المختلف في أصل نسبه: إلى أسرة تتجذر بالنيل<sup>(٧٥)</sup> أم إلى مدينة النيل بالعراق،<sup>(٧٦)</sup> والثاني هو الأرجح.

في السنة التالية، ٤٢١ / ١٠٣٠، ظلّ اللصوص يعيشون، حتى إنّ الأكراد «كانوا يسرقون دواب الأتراك، فنقل الأتراك خيلهم إلى دورهم، ونقل جلال الدولة دوابه إلى بيت في دار المملكة».<sup>(٧٧)</sup> وفي العام ٤٢٢ / ١٠٣٠، مات الخليفة عن ٨٧ سنة. وتشير هذه السنّ العالية إلى أن حظوظ الخلفاء في الحياة كانت تناسب تناسباً عكسيّاً مع سلطتهم الفعلية. هل أعاد القادر جنة الخلافة، «وجدد ناموسها» على ما ذكر ابن الأثير؟<sup>(٧٨)</sup> يبدو ابن العربي أقرب إلى الواقع عندما يكتب أن الخليفة كان «متازاً بعفافه وفضله خلافاً لأسلافه». كان القادر، باختصار، مثال الخليفة الرسمي الذي في وسعه أن يمارس شيئاً من النفوذ، بشرط ألا يحس أحد بذلك فيستاء.

## الحواشي

- (١) E.I.<sup>2</sup>, VI, p. 394-395, par E.I.<sup>1</sup>, II, p. 647, K.V. ZETTERSTEEN, Kadir ، أنظر الآن D. SOURDEL ، الصفدي، ج ٦، ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، رقم ٢٧١٧ . عن سياسة الدينية، أنظر: H. LAOUST, Al-Mawardi, p. 52, 63, 75
- (٢) البداية، ج ١١، ص ٣١٢ ، كتاب دول الإسلام، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ . الكامل، ج ٩، ص ١٠١ .
- (٣) وقد عُدّت دار العلم أول جامعة كبرى في الإسلام وقد بنيت النظامية أيضًا ببغداد سنة ٤٥٩/٤٥٧.
- (٤) يعتبر هنري لاوست في كتابه عن الماوردي، ص ٤٥ ، الحاشية رقم ٤ ، أن فهرست التدريم ربما كان فهرست هذه المكتبة.
- (٥) مذكور في شعراء، شيخو، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ و ٣٩١ - ٣٩٢ . وينتظر الأب شيخو بين هذا الشاعر وبين سميء المعاصر للمتوكل.
- (٦) تاريخ الزمان، ص ٧٧ ، ثمة مصادر عنه في طبعة الشابلي للرسالة البغدادية للتوحيدى، ص ٤٥ .
- (٧) ماري، ص ١٠٧ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٤ . الكامل، ج ٩ ، ص ١٣٦ .
- (٨) استنادًا إلى ماري الذي يؤرخ الخبر «في السنة الرابعة» ولكنه ينسى أن يقول من جملة من.
- (٩) ماري، وابن العربي، العمود ٢٥٨ - ٢٦٢ . - ينسب ماري إعادة فرض السَّهَات الممِّرة إلى «السنة الثانية» من جملة ماري، أي ٣٧٧/٩٨٨ . لم يتوصل المحقق إلى قراءة أسماء أصحاب هذا التدبير أو ألقابهم . ويقود اقتراحه قراءة «الأتابكة» إلى مفارقة تاريخية . هل هم «الختابلة»؟ تحت لعام ٣٨٩ هـ.
- (١٠) لا سبيل إلى معرفة اسم هذا النقيب بالرغم من القوائم التي يثبتها BUSSE لأن الحادث غير مؤرخ.
- (١١) عن وزارات سابور، أنظر BUSSE, p.240-241
- (١٢) الكامل، ج ٩ ، ص ١٢٨ .
- (١٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨ .
- (١٤) صلبياً الموضع المذكور، ولا شك أن ابن العربي قد غلط في الصفحة ٦٩ من تاريخ الزمان إذ كتب تحت العام ٣٧٧/٩٨٢: «ومات في سن الأربعين» لأنه يمكن بعد ذلك قائلًا: «وخلقه صمصم الدولة أخوه». ليس الطيب إذن هو الذي مات عن أربعين سنة... بل هو عضد الدولة الذي لم يكن له من العمر ٥٠ عاماً لما مات. يجب أن يصحح معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله، ج ٨ ، ص ٣٥ ، في هذا الصدد أيضًا.
- (١٥) عن تطور السنة في خلافة القادر، أنظر: A. LAOUST, Mawardi, p. 53-54 et p. 77-92

(١٧) أنظر قوانين الوزارة وسياسة الملك للهاردي، تحقيق د. رضوان السيد، بيروت، ١٩٧٩ ، ص ٥ - ١١٤ .

A New Look at the Ahkam al-Sultaniya, par DONALD P. LITTLE, dans *The Muslim World*, LXIV (1974), p. 1-15, et E.I.<sup>2</sup>, III, p. 788-790 s.v. Ibn al-Farra, par H. LAOUST.

LAOUST, Mawardi, p. 13. (١٨)

(٢٠) وقد أثر عن هذا الأمير أنه كان بخيلاً طماعاً، البداية، ج ١١، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ . حتى ابن العربي لا يذكر ما قدمه له يوانيس لما قصده.

(٢١) يذكر منهن ابن الجمال، أبي الكاتب أبو نصر بشر بن هارون بن جلا الذي مات سنة ٤٠٩ / ١٠٠٩ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٧ .

(٢٢) يقول ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق السادس، ص ٥٢٤ - ٥٢٥ رقم ٤٠ : إنه انتخب من قبل أهل بغداد (؟).

(٢٣) ثمة وثائق كثيرة عن هذه الحادثة، ماري، ص ١١١ - ١١٢ . صليبا، ص ٩٦ . ابن العربي، العمود ٢٦٢ . تاريخ الزمان، ص ٧٥ . البداية، ج ١١، ص ٣٣٠ . الوزراء، ص ٤٤٣ . تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨ . المتنظم، ج ٧، ص ٢١٩ ، الخ.

BUSSE, p. 532 (٢٤)

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥٢٦ والخاصة رقم ٥ و ٦ . - G.MAKDISSI, Ibn Akil, p. 166, 168

(٢٦) الذي ربّا وجدنا ولده سنة ٤٦١ / ١٠٦٩ . الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٣٦٥ ، ج ١، ص ٢٧٩ رقم ١٨١ .

(٢٧) الذي أرسله الوزير أبو نصر سابور من قبل مع أبي القاسم بن ثما الديلمي للقبض على علوى فرّ منها فما تمكّنا منه. هلال الصابي في ذيل تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨ ، وقد كان ظهر اسم ابن إسحق في تاريخ ماري لدى تعيين الجنائليين.

(٢٨) يستعمل ابن العربي هنا لقب «مفريان» الذي لم يتلّق به هذا الخبر إلا لاحقاً .

Mيخائيل السرياني، ص ١٣٤ (٢٩)

(٣٠) كان لا يزال حيتني في وزارته الثالثة التي بدأها في كانون الأول ٩٩٨ ، ٢٤٨-٢٤٩ مع مصادر، الصفدي، ج ٣، ص ٢٥٩ ، الرقم ١٢٨٧ .

(٣١) وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتى زمن صليبا في أوائل القرن الرابع عشر.

(٣٢) E.I.<sup>2</sup>, I, p. 399, s.v. par E. MITTWOCH Jesus . وقد كان معروفاً لدى الالatin باسم Haly, M. MEYERHOF, in *The legacy of Islam*, 1ère ed. Oxford V. Press, 1931, p.

332, BUSSE, p. 478, no. 2.

(٣٣) مصادر عنه في Islamochristiana, 2, (1976) p. 203-208, par Samir KHALIL ، ابن أبي أصبيعة، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

- (٣٤) إن محقق Chronique Ecclésiastique ياهونه بابي سهل المسيحي، الذي رأيته من قبل (مع ذكر الجملة نفسها: «ومات عن أربعين عاماً...؟»).
- (٣٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٦.
- (٣٦) Islamochristiana, 1, (1975), p. 168.
- (٣٧) يذكر أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠/١٠١٠) في الصدقة والصدقين، بعض أقوال المسيح التي أطلعته عليها الكاتب النصراني ابن الحمل: MAX BERGÉ, dans B.E.O. (Damas) XVI, (1958-1960), p. 45-49.
- (٣٨) أنظر قائمة عنها في BUSSE, p. 386-392 ؛ الكامل، ج ٩، ص ٢٠٤.
- (٣٩) الكامل، ج ٩، ص ٢٠٨. وفي هذه السنة أمر الحكم بأمر الله، صاحب مصر بهدم كنيسة القيامة بالقدس.
- (٤٠) الكامل، ج ٩، ص ٢٣٥.
- (٤١) الكامل، ج ٩، ص ٢٤١.
- (٤٢) ماري، ص ١١٣ - ١١٦. صليبا، ص ٩٦ - ٩٧. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٤ - ٢٨٦.
- (٤٣) إيليا النصيبي، تحت العام ٤٠٣ هـ. وحاشيته العربية، ص ٧٦ - ٧٧. ينتهي تاريخ إيليا النصيبي في العام ١٣٣٠ يونانية وهو تاريخ كتابته، أي قبل وفاة الجاثليق.
- (٤٤) يستعمل ماري هنا، للمرة الأولى، كلمة «عهد» بدلاً من مشور التي استعملها سابقاً.
- (٤٥) Ibn Akil , p. 155-156 ، مستشهاداً بالمتظم، ج ٧، ص ٢٦٢ ، البداية، ج ١١ ، ص ٣٤٨.
- (٤٦) السمات المميزة، ص ٢٤ ، مستشهاداً ببرأة الزمان.
- (٤٧) لقب لقب به عدة رجالات، منهم صاحب شرطة بغداد سنة ١٠٣٠، ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٩.
- (٤٨) الكامل، ج ٩، ص ٢٦٠ - ٢٦٣ ، البداية، ج ١٢ ، ص ٥ - ٦ . BUSSE, p. 242-243 no. 28 وقيل إنه كان يتشيع.
- (٤٩) إن رصف ماري النعتين الواحد تلو الآخر يدعو إلى التعجب، ذلك لأن الحاج لا أنشأها حظر على «النبط»، أي السريان (واليهود/الأرمنيين) أن يبيتوا بها ليلاً. كان عليهم المكوث في كسرى، أي المدينة القديمة على الجانب الآخر من دجلة. ويبدو أن الحظر كان قد تراخي مع مر الأيام.
- (٥٠) ويحتوي نصّ ماري المطبوع. ص ١١٦ ، س ١٦ ، على الجملة المعرضة التالية: «وكان الوزير ابن قبيه» (كذا).
- (٥١) البداية، ج ١٢ ، ص ٢ .
- (٥٢) المصدر نفسه، ص ٤ .

- (٥٣) المصدر نفسه، ص ٨. - عن سياسة أنظر 214 LAOUST, Ibn Battuta, note
- (٥٤) في العام ١٠١٨/٤٠٩ على قول ماري، في العام ١٠١٦/٤٠٧ على قول BUSSE
- (٥٥) BUSSE, p. 243, no. 29
- (٥٦) إيليا النصيبي، تحت العام ٤٠٧ هـ، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٣٤.
- (٥٧) BUSSE, p. 249, no. 13
- (٥٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٣٤.
- (٥٩) تلحظ العبارة الدارجة على أفلام المؤرخين النصارى الذين يشيرون دائمًا إلى دُولَةِ الذَّلَّ والفرج أو حتى الرفاه.
- (٦٠) المؤلوث المشور، ط ٢، ص ٤٥٣ - ٤٥٤، رقم ١٨٩.
- (٦١) يحيى، ص ٢٤٧. زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق سامي الدهان المعهد الفرنسي بدمشق، ج ١ (١٩٥١)، ص ٢٨٨ - ٢٢٩. حبيب الزبيات، الصليب في الإسلام، ص ٤٩.
- (٦٢) ماري، ص ١١٧ - ١١٨. صليباً، ص ٩٧. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٦.
- (٦٣) وزير سلطان الدولة منذ العام ٤٠٩/١٠١٩. الكامل، ج ٩، ص ٣١٠. BUSSE, p. 243, no. 31.
- (٦٤) وقد وصلتنا رسالة احتجاج إيليا بر شينايا، مطران نصيبيين، في هذه المناسبة، Oriens Christianus, II, III (1913), p. 59-81, 236-262.
- (٦٥) الكامل، ج ٩، ص ٣٤٩.
- (٦٦) يجعل صليباً الخبر في العام ٤٢٣/١٠٣٢، وهذا يعني وقوع الحادث بعد الانتخاب.
- (٦٧) الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣.
- (٦٨) الذي يسميه صليباً جلال الدين.
- (٦٩) BUSSE, table B. et réf. p. 580.
- (٧٠) الكامل، ج ٩، ص ٣٦١.
- (٧١) لا ذكر لعهد الخليفة ولكن الاستغناء عنه كان ممتنعاً.
- (٧٢) ماري، ص ١١٨ - ١١٩. صليباً، ص ٩٧ - ٩٩. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٦ - ٢٨٨.
- (٧٣) ويشكك بعض الدارسين في صحة نسبتها إليه.
- (٧٤) الكامل، ج ٩، ص ٣٩٣.
- (٧٥) الزركلي، ج ٣، ص ١٥٠، مع مصادر.
- (٧٦) شعراً النصرانية لشيوخه ص ٣٤١ - ٣٤٢. - تقع النيل في متصف الطريق بين الحلة والنعيمية إلى الجنوب من بغداد، وكانت أسقفية نسطورية، أثر النصرانية، Assyrie Chrétienne، ج ٣، ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

- (٧٧) الكامل، ج ٩، ص ٤١٠ .
- (٧٨) المصدر نفسه، ص ٤١٤ - ٤١٥ .
- (٧٩) تاريخ الزمان، ص ٨٤ .

## ٢٦ - القائم (٤٢٢ - ١٠٣١ / ٤٦٧ - ١٠٧٥)

ورث أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله عن سلفه وأبيه القادر عاصمة في حال الفوضى الفصوى فضلاً عن بيت المال الفارغ، والعائدات التي تذهب جميعها إلى خزائن الأماء الفرس. وقد احتاج إلى بيع بعض الأئاث والقصور والحدائق ليتمكن من تقديم حلوان ارتقائه العرش إلى المرتقة الترك.<sup>(١)</sup>

أما ما كان يفترض أنها عاصمتها فقد شهدت، سنة توليه بالذات، صراعات مسلحة بين السنة والشيعة: فأحرقت أسواق الكرخ مرة أخرى، ووقعت معارك بالطرق وبخاصة في سوق الثلاثاء، حيث كان يقيم بعض الصارى. وزاد الطين بلة أن العيارين زادوا وكثروا في المدينة وفرضوا الإتاوات على الناس.<sup>(٢)</sup>

للحظ مع ذلك أنه إذا كانت حال النصارى، كحال غيرهم من السكان، قلقة مهددة في بغداد، فإن حال الأمن في غيرها من المدن كانت تتبع قوة الأسر المحليّة المتغلبة. ولم تكن الحال العامة شديدةسوء، في المدن على الأقل لأننا نشهد في العام ١٠٣١ بعض يعاقبة الرُّها يغادرون المدينة مع غيرهم من «العرب»، لما ملكها الروم، وذلك لأنهم على قول ميخائيل السرياني، «كانوا قد اعتادوا على العرب في اللغة والكتابة»<sup>(٣)</sup> وانتشروا في البلدات التي وجدوا فيها أبناء ملتهم، حتى وصلوا إلى تكريت بخاصة (وهذا عكس ما كان قد حصل في العام ٩٩٠/٣٨٠ عندما نزح أثرياء النصارى من تكريت وهجروها إلى ملطية).

شهد العام ١٠٣٧ / ٤٢٩ إعادة العمل «بالشروط العمرية». عُقد مجلس رسمي بحضور رئيس أهل الذمة الجاثليق إيليا الأول ورئيس الحالوت اليهودي،

وتعهد هذان باحترام الاجراءات التمييزية وعدم مساواة أنفسهم بال المسلمين،<sup>(٤)</sup> والامتناع عن إعلاء دورهم على دور غيرهم المسلمين،<sup>(٥)</sup> الخ. وقد ظلت القاعدة الأخيرة معمولاً بها ضمئياً حتى أيامنا هذه،<sup>(٦)</sup> وذلك فيها يتعلق مثلاً بباب التواقيس بالقياس إلى الماذن.

لم يعد للتاريخ وقت للكلام عن النصارى في السنوات التي أعقبت ذلك، بل نجد فيها تناوب الكوارث الطبيعية وروایات النهب والسطو والسرقات، والغلاء على الجميع:

- في العام ٤٢٣ - ١٠٣٢ : غلاء ووباء وجدرى مات منه بالموصل أربعة آلاف صبي وأصيب به الخليفة نفسه وسلم.<sup>(٧)</sup> واشتتدت المجاعة ببغداد والبادية حتى إن البدو أكلوا أولادهم.<sup>(٨)</sup>.

- في العام ٤٢٤ - ١٠٣٣ : «ثار العيارون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهراً».<sup>(٩)</sup>

- في العام ٤٢٥ - ١٠٣٤ : «كثر الموت بالخوانيق في كثير من بلاد العراق والشام والموصل وغيرها».<sup>(١٠)</sup>

- في العام ٤٢٦ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ : عم النهب البلاد كلها وكان من أبرز أبطاله الأكراد، «حتى إن بعض الجندي خرجوا إلى قرية يحيى فلقائهم أكراد فأخذوا دوابهم ولم يقدر الخليفة ولا جلال الدولة على ردهم.<sup>(١١)</sup> ومع ذلك كان الباسيرى قد استخلف على حماية الجانب الغربى ببغداد في السنة السابقة<sup>(١٢)</sup>... والوزراء يتغذون<sup>(١٣)</sup>....

- في العام ٤٢٧ - ١٠٣٧ : احتاج جلال الدولة نفسه إلى الهرب متخفياً من الجنديين الأتراك المتمردين، فنبت داره.<sup>(١٤)</sup>

إن مسرد المصائب هذا ليعطينا فكرة عن تفكك المملكة في السنوات الأخيرة من دولة البوهيميين. إلى حوالي هذه الفترة يعزى المؤرخون، على اختلافهم، ما يسمونه «ابتداء أمر السلجوقة». فيجعل ابن العبرى<sup>(١٥)</sup> ذلك في العام ١٠٣٦، أما

ابن الأثير<sup>(١٦)</sup> فيجعله في العام ٤٣٢/١٠٤٠ - ١٠٤١. وإنما يتعلّق هذا التاريخ ببداية فتوحهم. ولكن، كان لا بدًّ من الانتظار حتى العام ٤٤٧/١٠٥٥ ، أي خمس عشرة سنة طوالاً ليدخلوا بغداد ويسطروا الأمن والسلام فيها. حتى ذلك الحين استمرَّ مسلسل الفتنة ببغداد وما والاها من البلاد.

في هذه الأثناء لا يذكر النصارى إلَّا في تواريХ ظهر وفيات بعض أهل الفضل منهم من أمثال:

- الفيلسوف والكحال النسطوري، أبو الحسين البصري، تلميذ ابن الطِّبِّ الذي مات في أيلول ١٠٣٨<sup>(١٧)</sup> أي قبل وفاته معلمه.

- الفلكي الرياضي أبو الحسين بن سبريشو المتوفى سنة ٤٣٤/١٠٤٢ - ١٠٤٣<sup>(١٨)</sup>.

- الفيلسوف الأرسطوطاليسي، «نظير، ابن سينا»، واللاهوتي القانوني ومفسّر الكتاب المقدس أبو الفرج عبدالله بن الطِّبِّ الذي مات سنة ٤٣٤/١٠٤٣<sup>(١٩)</sup>. يشير ابن العربي إلى أنه «تطرف إلى ذم جثالقة النساطرة بسبب تغاضيهم عن العلوم البيعية وغيرها». ويضيف ابن العربي: «غير أنه فيما أظن لم يكن متضلعًا من السريانية إذ عثرتُ في بعض شروحه على أغلاط»<sup>(٢٠)</sup> منها سوء قراءته لكلمات من سفر أليوب.

في المحرّم من العام ٤٣٤/١٠٤٢ اغتصب جلال الدولة بن بهاء الدولة، ملك العراق، ما تحصلَّ من مال الجوالى (الجزية) ومنعه من الخليفة القائم. فعظم الأمر على الخليفة وهدَّ بمعادرة بغداد في جماعة الهاشميين والقضاء. ثم اصطلحَا على أن يترك البوهيمي نواب الخليفة يحصلون الجزية في السنة الآتية، ٤٣٥/١٠٤٣<sup>(٢١)</sup>.

في السنة عينها أسدى الروم (عن غير قصد) خدمة جديدة إلى نصارى الخليفة العباسية، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل لما نهبو أهل نصيبين السريان والمسلمين. ففي هذه السنة ثارت في القسطنطينية فتنة ألقى أهل البلد ببعتها على «الغرباء» وأشاروا بإبعادهم. فصدر الأمر «فندى أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ

ثلاثين سنة، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كُحْل، فخرج منها أكثر من مئة ألف إنسان ولم يبق بها أكثر من اثني عشر نفساً، ضمنهم الروم». كان لهذا الخبر الذي عرفه المؤرخون المسلمين<sup>(٢٢)</sup> أثر طيب في العلاقات بين المسلمين والسريان، وصار هؤلاء منذئذٍ متميّزين عن الروم الذين طردوهم من بينهم. ومنذئذٍ صار الاتهام الذي يطلقه بعض السريان ضدّ بعضهم، بالتعاون مع العدو التقليديّ، يلقى قدرًا أقل من الاكتراث له لدى السلطات المسلمة.

وفي هذه السنة عينها مات السلطان جلال الدولة البوهي في السادس من شعبان ٤٣٥ / ٢٥ أيلول ١٠٤٤<sup>(٢٣)</sup>. وكان رجلاً شيعياً تقىً، «وزار مرأة مشهد علي والحسين، عليهما السلام، وكان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى مشهد كل منها، نحو فرسخ، يفعل ذلك تدريجاً». وقد خلفه على العراق حي الدين أبو كاليجار<sup>(٢٤)</sup> الذي كان يملك فارس وكرمان.

ولتوكييد تضامن النساطرة مع المسلمين، نرى الجاثليق ينحي إلى قصر الخليفة في العام ١٠٤٥، كتاباً بلغه من مطران سمرقند ينذره بغزارة وصلوا إلى كاشغر يقودهم سبعة ملوك مع كل منهم سبعين ألف فارس. وقد وصف المطران الغزاة بأنهم «رحماء عادلون». لا تذكر المصادر ما كانت ردّة فعل القصر، ويبدو أنهم لم يكونوا يشعرون بأن الخطط وشيك، لأنهم راحوا يتناظرون في العبارة الأخيرة من الكتاب: «وخيالهم تأكل اللحم». ويقدّم ابن العبري الذي يورد الخبر تفسيراً «علمياً» لذلك.<sup>(٢٥)</sup>

من ١٠٤٤ إلى ١٠٤٨، كان أمير الأمراء أبو كاليجار يدافع توسيع السلاجقة بالحرب أو بالتحالفات التي يعقدها. وكانت المجاعة والوباء والغلاء تشّكل لحمة الحياة وسدّها ببغداد والموصل،<sup>(٢٦)</sup> وهذا ما جعل المؤرخين في شغل شاغل عن النصارى وأخبارهم.

وفي هذه الحقبة، في ١٨ تموز ١٠٤٦ تحديداً، مات مطران نصبيين، إيليا برشينيايا، صاحب التصانيف المشهورة.<sup>(٢٧)</sup> أمّا علاقاته بال المسلمين، فإن مناظراته بنصبيين مع الوزير أبي القاسم المغربي،<sup>(٢٨)</sup> سنة ١٠٢٦، تظهر جوًّا الاحترام المتبادل

الذى كان يسود بين النخبة المثقفة النصرانية والنخبة المثقفة المسلمة، وإن كان ثمة «ثقافتان تتواجهان».<sup>(٢٩)</sup> وقد استجرأ المطران في كثير من الحذر والدبلوماسية، على أن يقول للوزير إيليا «ألكُم من العلوم مثل ما لل المسلمين؟» أجا به: «نعم وزيادة وافرة». قال الوزير: «وما الدليل عليه؟» قال إيليا: «إن عند المسلمين علوماً كثيرة منقوله من السوريان وليس عند السوريان علم منقول من عند العرب».

بموت أبي كاليجار، الذي كان في طريقه لمناظعة السلاجقة على أرض كرمان، بدأ في جمادى الأولى ٤٤٠ / شرين الأول ١٠٤٨، حكم آخر أمير أمراء بوهيمى، هو الملك الرحيم، يكر أبو كاليجار.

في السنة عينها غادر بغداد في رمضان ٤٤٠ / آذار ١٠٤٩، الطيب، المنطقي، صاحب التصانيف الكثيرة<sup>(٣٠)</sup> (الراهب؟) أبو الحسن المختار، المعروف بابن بطلان.<sup>(٣١)</sup> وكان قد درس على علماء النصارى بالكرخ<sup>(٣٢)</sup> وبخاصة على ابن الطيب الذي كان يعده أحسن تلاميذه. إن رواية رحلته التي أرسلها إلى هلال الصابى<sup>(٣٣)</sup> تعطي تقريراً ملفتاً للانتباه عن المدن التي اجتاز بها: الرحبة، حلب، أنطاكية، اللاذقية، الخ. وكان شاعراً أيضاً<sup>(٣٤)</sup> ونظم كتاباً بعنوان دعوة القسوس. يفترض مع الأسف أنه مفقود، ولو وصلنا وكان على شاكلة كتابه دعوة الأطباء لكان فيه هجاء للقسوس وأخلاقهم وكان من شأنه أن يطلعنا على معلومات مفيدة.<sup>(٣٥)</sup>

إن شكوكه الخمسة التي وجهها إلى إيليا النصيبي تكشف عن «عقل متحرّر ونقدّي جداً» إلا أن لا يتعدى ذلك «اللهو العقلي المجرد».<sup>(٣٦)</sup> وقد مات ابن بطلان في دير بأنطاكية سنة ٤٤٤ / ١٠٥٢، ويُقال إن السرج التي أشعلت على قبره كانت تنطفئ دائمًا... .

نجد في أصدقاء ابن بطلان واحداً من أواخر آل بختيشون هو أبو سعيد عبيد الله<sup>(٣٧)</sup> الذي يبدو أنه صحب أبا جبرائيل بن عبد الله لما قدم إلى مifarاقين سنة ٣٩٠ / ١٠٥٨. وكان طبيباً هو أيضاً، وله تصانيف عديدة، وقد توفي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨. ويبدو أنه لا بد من الفرق بينه وبين الكاتب «الكبير» أبو سعيد

الحارث بن بختي Shawq الخازن، الذي عُهدَ إليه بعمارة بيمارستان مِيافارقين ومسجدها في العام ٤١٤/٢٣٠.

وبعد أيام قلائل من مغادرة ابن بطلان بغداد مات الجاثليق، إيليا الأول في ذي القعدة ٤٤٠ أيار ١٠٤٩، وكان قد فُلجَ وأُقْعِدَ في آخريات حياته. وكانت مدة جثلته ٢١ سنة، وكان آلقائم خليفة منذ ٣١١٠٣١ وظلَ كذلك حتى ١٠٧٥.

### يوحنا بن الطرغال

XXIV انتُخب الجاثليق الجديد بعد خلو الكرسي مدة سبعة أشهر، ولا علم لنا بتفاصيل المفاوضات التي سبقت الانتخاب. كان يوحنا كاتباً ببغدادياً على ناحية النهروانات وكانت «له معرفة تامة بصناعة الكتابة». وكان قد ترَّهَبَ وُعِنَّ أسفاقاً منذ واحد وعشرين عاماً على ناحية القصر والنهروانات. وبُطَّهرَ انتخابه رغبة الكنيسة، متى خلَّت وما تختار، بأن يدبرها أهل الاختصاص، أي أناس يعرفون موالج الآلة الإدارية ومخارجها، وبخاصة ما يتعلق بالضرائب والرسوم، ويتمتعون برصيد من العلاقات الطبيعية بأهل الدواوين التي نشأوا فيها.

تمكَّن يوحنا بن الطرغال<sup>(٣٨)</sup> من القيام بقسم من الزيارات الرسمية بعد سيامته في رجب ٤٤١/١٧ كانون الأول ١٠٤٩، ولكنه اضطُرَ إلى الانتظار ستة أشهر ليتمكَّن من الجلوس على الكرسي في دير مار فثيون، إلى الجنوب الشرقي من الجانب الغربي ببغداد. ذلك لأن التاريخ يخبرنا بوقوع المزيد من الفتنة بين السنة والشيعة في ذلك العام.<sup>(٣٩)</sup>

استمرَ صعود السلاجمة الذي كان من شأنه تشجيع السنة، وتواترت الفتنة بين السنة والشيعة ببغداد، وكان من ضحاياها بعض النصارى أحياناً. في المحرم من العام ٤٤٦ / نيسان - أيار ١٠٥٤، ثار المرتزقة الترك لأنهم لم يقبضوا أرزاقهم وراحوا ينهبون المدينة بأسراها. وقد هجمت جماعة منهم، مع من انضمَ إليهم من الأكراد والبدو، على حارة دار الروم حيث نهبوا وأحرقوا قلية الجاثليق وكنيستها<sup>(٤٠)</sup> فضلاً عن دار أبي الحسن سعيد بن عبد الله<sup>(٤١)</sup> وزير البساسيري التركي. ويجدر بنا

أن نبئه هنا إلى أنَّ الاقتصاد على قراءة تاريخ ماري ربما ساقنا إلى الاعتقاد بأن الفتنة كانت موجَّهة ضدَ النصارى على التخصيص لأنهم الوحيدون المذكورون من الضحايا. بينما تبيَّن إعادة وضع الأحداث في سياقها أنها أمام حال عامة. وقد تكفل أبو الحسن بإعادة عمارة القلية على نفقته الخاصة وبإشراف فهرمانه أبي الفضل بن بهانش وغيره من أعيان الحيِّ.<sup>(٤٢)</sup>

في رمضان ٤٤٧ / كانون الأول ١٠٥٥، أي بعد سنة ونصف، تعرَّضت الأبنية، التي رمَّت بنفقات عظيمة، إلى هجوم جديد لدى وصول العسكر الخراساني (ويسُمِّيهُم ابن العربي الغُز)<sup>(٤٣)</sup> الذي رافق دخول طغرل بك، أول السلاجقة إلى بغداد. وبينما ضرب الأمير السلجوقي مضارب عسكره بالقرب من حيِّ النصارى بباب الشهاسية، ثار الترك والديلم الموالون للبوهين على البسييري ونبوا قصره. كانت الأحياء الشرقية السنية في حالة غليان.<sup>(٤٤)</sup> وقد نهبت القلية وكروبي الجائيليق مرة أخرى، فهرب يوحنا بن الطرغال إلى دير مار ماري بدور قنَّ ثم اضطرَّ إلى مفارقه لما صودر الأسكول.

ثَمَّةُ خبر هامشيٌّ عن الصراع مع البسييري، وقع لما كان هذا الأمير مختبئاً بواسط في ربيع الآخر / تموز ١٠٥٥ ، وذلك لما أرسل نصريان من بغداد، يدعى أبو سعد، بالسفينة شحنة من ٦٠٠ جرة خمراً، فاعتراض المركب وخُجز وكُبرت الجرار.<sup>(٤٥)</sup> قد أدى الحادث إلى «تمدد الوحشة» بين البسييري وبين أبي القاسم علي بن الحسن بن مسلمة الملقب برئيس الرؤساء. وقد قبضه البسييري وعدَّبه في العام ٤٥٠ / شباط ١٠٥٩.<sup>(٤٦)</sup>

في ٢٥ كانون الأول ١٠٥٥ ، دخل طغرل بك بغداد بيفيلته. ولئن كان هذا التاريخ يُعدُّ بداية لحكم السلاجقة فهذا لا يعني أنَّ سيادتهم قد استقرَّت مذاك بلا معارضة. صحيح أنه قد اعترف بالأمير التركي «سلطاناً» سنة ٤٤٩ / ١٠٥٨ ، وأنَّ الخليفة (الذي كان بين يديه كتابع لا حول له ولا قوة)<sup>(٤٧)</sup> قد خلع عليه لقب «ملك المشرق والمغرب». ولكن البسييري، الأمير التركي الآخر، استعاد السيطرة على بغداد سنة ٤٥٠ / كانون الأول ١٠٥٨ ، وأجلَّ الخليفة إلى قريش بن بدران أمير

بني عقيل بالموصل، وفي الأول من كانون الثاني ١٠٥٩، خُطبَ بغداد للمنتصر، الخليفة الفاطمي بعمر. ولم يتمكّن القائم من الرجوع إلى العاصمة إلا سنة ١٠٦٠ - ١٠٥٩، ولكن كاداه في أيدي السلاجقة.<sup>(٤٨)</sup>

لم يتمكّن السلاجقة من بسط سيادتهم من غير آلام عظيمة عانت منها المدن والقرى ومن باب أولى الأديرة النائية. ففي دير كامول مثلاً، بالقرب من جزيرة ابن عمر، قتل الغز<sup>٤٩</sup> ١٢٠ راهباً من أصل أربع مئة كانوا بالدير. وفي سنجار خُرب قصر أمير البلد وأحرق الجامع وذبح أربعة آلاف من أهلها، الخ. وقد شهد تل أغفر ثم الموصل حروبياً بين عرب البساسيري (المصريين) وترك السلاجقة (الغز). وفي العام ١٠٥٨ / ٤٥٠، خُربَت الموصل<sup>(٥٠)</sup>... كل هذا لم يمنع ابن العبرى من أن يكتب «أن السلطان كان رجلاً عادلاً»، وهو أمر تجلّ خصوصاً في تحفيف الضرائب.

في جملة يوحنا بن الطرغال حاول المحتسب، مرة أخرى، «وبأمر من الخليفة» القائم أن ينفذ «الشروط العمورية» سنة ١٠٥٦ / ٤٤٨ (أي بعد سنة من دخول السلاجقة)، ففرض السمات المميزة: الزئار، العائمة المصوغة، الخ.

ولكن لما كان للخاتون، زوجة طغل بك، كاتب يهودي، هو أبو علي بن فضلان، فقد حالت دون تنفيذ هذه الاجراءات.<sup>(٥١)</sup>

في هذا الصدد، يقدم جورج مقدسي<sup>(٥٢)</sup> صائباً لطبيعة العلاقات بين أصحاب السلطة أنفسهم (من خلفاء وسلاطين ووزراء، الخ) الذين يحتاجون إلى مهارات الذميين، ولا يتخدرون، وبالتالي، اجراءات ضدهم إلاّ متى اضطرّهم إلى ذلك ضغط الرأي العام، أو ضغط العلماء (من فقهاء، ومحتسبين وقضاء...) الذين يقودون الشعب ويوجهون الرأي العام.<sup>(٥٣)</sup> وبينما يميل المسؤولون إلى حماية الذميين لحاجتهم إليهم، يجد العلماء أنفسهم أحرازاً في إبداء النقد، لأنهم لا يخسرون شيئاً إذا حاولوا تأكيد سلطتهم بالضغط على الحكم. كان الموقف من طرف ثالث [أهل الذمة هنا] تحت ستار المبادئ الشرعية، اختباراً ممتازاً ليروا إلى أي مدى يستطيعون الذهاب في ممارسة الضغط.

إنَّ ما كان يجمي الذميين إجمالاً ممَا كان المتعصِّبون يطالعون بفرضه عليهم هو دائمًا المكانة التي كان ينعم بها بعضهم لدى الحُكَّام وحاجة هؤلاء إليهم. وقد رأينا الدور الذي قام به الكتاب والأطباء ولا يسعنا أن نهمل الدور الذي قام به أيضًا المنجمون الذين يعدهُم نظامي عروضي<sup>(٥٣)</sup> «من ركائز العرش الأربع»، ومن خواص الملك ولا غنى للملك عنهم». أمّا المنجمون فبهم «نظام الأمور» في رأيه.

لم يشتهر إلَّا عدد قليل، نسبياً، من المنجمين النصارى.<sup>(٥٤)</sup> ونجد منهم واحداً في هذا التاريخ يورد عنه هلال بن إبراهيم الصابي (ت ٤٤٨ / ١٠٥٦) أخباراً كثيرة، أمّا أبو بشر يحيى بن سهل السديد، المترجم اليعقوبي التكريتي الذي كان «كثير الرحلة إلى بغداد والمجتمع برؤوسها ومقدمي أهل الدولة».<sup>(٥٥)</sup> ولا يمكننا التقليل من دوره في حياة أبناء ملته.

إلى جانب الكتاب والأطباء والمنجمين، كان ثمة فريق رابع يشارك في تدبير الأمور: إنهم الشعراء الذين كانوا يخلدون أسماء المدودجين. فلا بدّ للملك من شاعر جيد يخلد ذكره ويروي مآثره في دواوين الشعر والكتب الأخرى.<sup>(٥٦)</sup> ويورد نظامي عروضي لواحة بشعراً كلَّ أسرة حاكمة ولا سيما البوهيميين والسلاجقة.<sup>(٥٧)</sup> ويبدو أنَّ لا ذكر لأحد من النصارى في هذه اللواحة.

ولكن لا بدّ للمؤرّخ من سبر المصادر الأدبية البحث وإن جاء هذا السبر بخيّبات الأمل في معظم الأحيان.<sup>(٥٨)</sup> من ذلك أنَّ بعض القصائد تحتوي على إشارات إلى عصرها، كالحروب بين الروم والعرب في شعر المتنبي<sup>(٥٩)</sup> وأبي تمام<sup>(٦٠)</sup> والبحيري<sup>(٦١)</sup> وأبي فراس.<sup>(٦٢)</sup> وإن دراسات M. CANARD حول الأهمية التاريخية لهذه القصائد الجديرة بأن يقتدى بها في دراسة شعراً آخرين. وربما لم يصلنا اسم بعض الأمراء إلَّا عن طريق قصيدة مدح نظمها فيه أحد الشعراء.<sup>(٦٣)</sup>

لم يبق لنا من أسماء شعراً النصارى في تلك الحقبة إلَّا اسم شاعر واحد، فيما يبدو، هو عون الراهب،<sup>(٦٤)</sup> المذكور قبل العام ٤٥٣ / ١٠٦١.

أخيراً تمكّن الجاثليق يوحنا بن الطرغال من العودة إلى بغداد والإقامة بدار الروم من بعدها جددت عمارتها. إلَّا أنه اعتُلَّ بعد ستين من عودته ومات يوم

الأحد السادس من صيف ٤٤٩ / ١٠٥٧. عندئذٍ بدأت فترة من خلو الكرسي طويلة. وفي تلك الفترة، أي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨، جرت محاولة جديدة لفرض القيود على الذميين. هذه المرة، كان السبب (أو التزيعة) معروفاً: وهو أنهم كانوا يشتبّون في سلوكهم العلني بشكل يشير حقيقة المسلمين المشتدين. ذلك لأنّ جماعة من هؤلاء، هم الهاشميون المعروفون «باصحاب عبد الصمد»<sup>(٦٥)</sup> وقد صادفناهم من قبل، انتدباً مثلاً لهم هو ابن السكّرة ليذكّر ابن مسلم، وزير الخليفة القائم، بالتزاماته «الشرعية» في هذا الشأن. فما كان من الوزير، الذي ساعده الطلب، إلّا أن نصح لرئيسِ ديوانه أبي علي بن فضلان اليهودي، الذي عرفناه، وابن الموصلي النصراوي (الذي ستكلّم عنه من بعد طریلاً بأن لا يحضرًا إلى الديوان، وأن يلزم ما داريهما، وبأن يعلمَا من والاهما من النصارى واليهود، من تجارة وصيارة وصناعة بالإضراب عن العمل، إلّا أن الخليفة تدخلَ بعد مدة وأمر وزيره باستدعاء الذميين إلى العمل،<sup>(٦٦)</sup> ولم تستيقن القيود، كما لاحظ جورج مقدسي، نظرًا إلى قلة اهتمام الخليفة والسلطان وأعوانهما بها.

أسلم بعض النصارى في خلافة القائم أيضًا. وقد عبر أبو العلاء المرّي (ت ٤٤٩ / ١٠٥٧) معاصر القائم، عن ارتياه من أسباب إسلام هؤلاء.<sup>(٦٧)</sup> وهناك ما يقول فيه:<sup>(٦٨)</sup>

قد أسلم الرجلُ النصارآن مرتغبًا  
وليس ذلك من حبّ لإسلامٍ  
إإنما رام عزّاً في معيشته  
أو خاف ضربة ماضي الحدّ قلامٍ  
للنااظرين بأسوارٍ وغلامٍ<sup>(٦٩)</sup>  
أو شاء تزوّيج مثل الظبي، معلمةً

لتلحظ إشارة الشاعر إلى الخوف من السيف، فضلًا عن إشارته إلى المزايا الاجتماعية (المكانة وتزوج مسلمة حسناء). ربما كانت الأضطهادات الدامية قليلة، إلّا أنّ الشاعر لا يستبعد ذلك الاحتمال.

سبريشوع زنبور

تأخر انتخاب خلف ليوحنا بن الطرغال (ت. صيف ١٠٥٧) بسبب XXV

صعود السلاجقة، أسياد الوقت الجدد. كان أبو العلاء أوجين أسقف النعيمانية ناطر كرسى الجائفة قد اختفى بعد ثلاث سنوات من النطارة، وذلك لدى دخول عسكر الخراسانية بغداد مع طغرل بك، ثم وجد بعد ذلك عارياً جريحاً. ثم كان هرب الخليفة إلى عانة والخطبة للفاطميين ببغداد. ولما استطاع ماري أسقف نفر والنيل، المجيء إلى القلية، كان أبناء الرعية قد شرعوا في تجديد عمارة الكنيسة، أما مقر البالطيق فكان قد أفرغ ما كان فيه من آثار وخلافه.

توصّل العلمانيون من أصحاب التفوذ آنذاك (سُنْرَى عن قليل من هم) إلى الحصول، من غير انتخاب، على توقيع الخليفة بتعيين سبريشوع زنبور،<sup>(٧٠)</sup> مطران جنديسابور، جاثليقاً.

ولما عاد الخليفة القائم إلى بغداد، كان البالطيق المعين في صحبته وأعيان النصارى. وقد امتنع الآباء المسيّمون عن الاعتراف بشرعية هذا البالطيق الذي لم يتّخِب بحسب أصول القانون الكنسي، فأمرّهم السلطان بالامتثال. فامثلوا إذن، وتسلّموا من الوزير أبي الفضل منصور بن أحمد بن دارست<sup>(٧١)</sup> الإذن ب المباشرة، فسيم البالطيق في ٣ آب سنة ١٠٦١.

إن فصول تعيين سبريشوع، البالطيق المفروض، بين سنتي ١٠٥٨ و ١٠٦١، لتبيّح لنا التبصر في الرصيد الذي لم يزل للعلمانيين النصارى لدى أصحاب السلطة في ذلك الوقت. كان أبرز هؤلاء النصارى يتحدرُون من أسر أصفهانية الأصل: وأوّلهم الطيب رجاء، وثانيهم أبو سعيد، الذي كان في رتبة عميد<sup>(٧٢)</sup> والذي كانت داره على نهر المعلى، وثالثهم أبو علي منصور بن عيسى بن مار سرجيس، الذي نجده يقوم بالواسطات للجالطيق أو يصحبه في زيارة الأكابر... من غير أن نستطيع مع الأسف) أن نذكر المزيد عنهم.

لا يعرف الكثير عن جائفة سبريشوع التي دامت عشر سنوات وبضعة أشهر (١٠٦١ - ١٠٧٢). «... وعمّرت القلاية في أيامه بالرّحل والآلة وقامت هيبة الجائفة بينها (؟) على المطارنة والأساقفة والشعب».

وقد اختلف البالطيق يوماً مع رعيته بسبب رئيس الشمامسة، ثم لما تمكّن،

بعد ستين من الاستغناء عن خدماته استعراض عنه بكتابين، كاتب للرسائل السريانية وكاتب للعربية. إلا أنَّ صاحب المتنظم<sup>(٧٣)</sup> يذكر، في العام ١٠٦٧/٤٥٩، وبمناسبة بناء قبة جديدة على قبر أبي حنيفة ببغداد، أن «ساجة وأبوابه غصب من بعض بيع سامراء». وإنَّ هذا لِمَا يلفت الانتباه، لأنَّه من الإشارات المباشرة القليلة إلى وجود عدَّة كنائس بسامراء (حسب العبارة المستعملة هنا). وليس في هذا الأمر ما يدهش لأنَّنا قد نبهنا لدى الكلام عن عصر المتوكَل إلى وجود قساوسة وشماسة بالمدينة فضلاً عن إقامة الجاثليق فيها فترة من الزمن، ولا نعلم باسم أي القديسين كانت هذه الكنائس، كما لا نعلم هل كان بالمدينة طوائف أخرى غير النساطرة أم لا.

### العلاقات بين الطوائف النصرانية

وقدت في ربيع الآخر ٤٦١ / شباط ١٠٦٩، بين جاثليق النساطرة وبين يعقوبة بغداد خصومة كان لها ما بعدها في المدينة، على ما يظهر، بدليل أنَّ رجلاً مسلماً اسمه أبو علي ابن البنا (ت ١٠٧٨/٤٧١ - ١٠٧٩) يأتي على ذكرها في «يومياته».<sup>(٧٤)</sup>

أما سبب الخصومة فهو أنَّ طبيباً نسطوريَاً، يدعى أبو غالب، زوج ابنته من ابن رجل من اليعقوبة يدعى أبو طاهر البلدي، (من بلد إلى الغرب من الموصل) وذلك خلافاً لتقاليد اليعقوبة في علاقتهم بالنساطرة.

إن الخطوة التي اتبَعها كلُّ من الفريقين في هذه القضية بالذات جديرة بالاهتمام. لِمَا استُدعي القس<sup>(٧٥)</sup> هبة توما المسؤول عن الطائفة اليعقوبية ليحاسب أمام الجاثليق عن هذه المخالفه قال: «نحن رئيسان لشعبين وبيعتين» أي أنَّ كل واحد منا سيد على جماعته. ثمَّ لَمَّا أقرَّ بأنه ربما بدرت منه مخالفة أضاف أنه «إذا كان متعدياً في ذلك، وأنخذ ما ليس له بحق فالذي حلَّه على ذلك جهله وسوء طباعه، لأنَّه كان رجلاً فظاً تكريتياً وأصغى [لرجل] قورلي المذهب» أي ملكاني في أرجح الظن. إلا أنَّ سبريشوع لم يرضَّ عن الحجَّة بل أراد اعتذاراً رسمياً علينا. ومن أجل التوصل إلى ما أراد دعا أبناء رعيته إلى الإضراب العام: فلم يذهب الكتاب

إلى الدواوين ولا الأطباء إلى البيمارستانات ولا التجار إلى المتاجر، الخ، وذلك ليستدرج السلطات الإسلامية إلى التدخل.

أما الطبيب أبو غالب النسطوري والد الفتاة، فقد حرمه الجاثليق وأحلَّ سلطان المسلمين مصادرة أمواله.

انهكَت الدواوين المختصة، فاستخرجت المناشير التي كتبها المقتدر لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣، والقادر ليوانيس سنة ١٠٠٣ - ١٠٠٤، وأخرج توقيع مماثل لها إلى سريشوع «يضمِّن دخول زعيم العيادة والملكانية في طاعته والاتِّهار له».

أما المحَرَّض على المخالفَة، الرجل الملکاني «الجاهل الهرطيق المتعدي طوره» فقد أمر بالثلوث بين يديِّ الجاثليق، مصحوبًا بزوجته ورفاقه العيادة، لتقديم الاعتذار. وجرى الاعتذار العلني في بعض أيام الصوم الكبير: اجتمع زعماء النساطرة جميعاً ومعهم «المشايخ المؤمنون» في مقرِّ الجملقة ومثل الجنَاة في حضرة الخبر، فألقى عليهم سريشوع عَظَةً أعاد فيها الأمور إلى نصابها.

أما هبة القسِّ العيقوبي المُسْكِن الذي عقد القران، فقد أمضى الليل تحت الحراسة في بيت ماري بدار الروم من بعدهما جاؤوا له بشمعة وطعم، فلم يأكل بل قال بتواضع: «لا طريق إلىأخذ الغذاء دون أن يقع الرضا عنِّي». وفي الغد من ذلك اليوم أدخل إلى حضرة الجاثليق واعتذر فقبل منه العذر وأذن له بالغادرة.

ولما خرج من قلية الجاثليق قاصداً كنيسته التي كانت، كما هو معلوم، على مقربة من ذلك الموضع قبض عليه رجال الأمير ايتکين السليماني.<sup>(٧٦)</sup> فتفضل الجاثليق سريشوع وقصد دار هذا الأمير وحصل منه على أمر بالإفراج عن القسِّ المذلول.<sup>(٧٧)</sup>

ويلوح أنَّ ماري المؤرَّخ يجد علاقة سببية بين انزعاج الجاثليق من هذه القضية وبين الفالح الذي ألمَ به بُعيد ذلك. والحقيقة أنَّ الخبر قد تعرَّض لصدمة أخرى مؤرَّخة بدقة في ١٠ رجب ٤٦١ / ٥ أيار ١٠٦٩، نجد خبراً في يوميات ابن البتا.<sup>(٧٨)</sup> ذلك أنه بينما كان يمتاز بموضع يعرف بالتوثة هوجم، من دون أن يذكر مهاجموه، وألقى عن بغلته وأوشك أن يُقتل. إلا أنَّ الحاجب أندَّل الأمْر «بالكتف

عنه»، وهذا يوحي بأنه كان محتجزاً في موضع ما قبل أن يُقتل. وقد ثبتت بعض دور النصارى في عملية السطو هذه.

ظل سبب شواع زبور مدة شهرين يعاني من الفالج النصفي ثم ظل شهرين آخرين «باطلاً» إلا أنه يحس ولا يمكنه الكلام إلى أن توفي في رجب ٤٦٤ / ١٧ نيسان ١٠٧٢، ثم انقضى عامان وسبعة أشهر قبل سيامة خلفه.

### عبد ايشوع بن العارض

XXVI      كان أبو الفضل عبد ايشوع بن العارض الموصلي،<sup>(٧٨)</sup> مطران نصبيين، غالباً لما انتخبه أربعة أساقفة والتمسوا من الخليفة الإذن بسيامته. تأثر الجواب عن هذا الالتماس كما أنّ الجاثيلق المنتخب لم يتمكّن من الحضور لأنّه كان عيافارقين وكانت المدينة تحت حصار الأتراك.

وفي الفترة التي انقضت بين الانتخاب والرسامة، زادت دجلة زيادة عظيمة في شباط ١٠٧٤، فانخرقت إحدى حافتي نهر القرج بباب الشهاسية فوق دار الروم. وانضافت إلى ذلك أمطار جارفة حتى « جاء الماء إلى المنازل من فوق » وصعد، على ما ترويه الأخبار، من أبواب الدور والآبار والبلاليع. فهلك حلق كثير وانهارت دور كثيرة. « ومن عجيب ما يحكي أنّ الناس، في العام الماضي، كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والحمور» التي تلكلأت السلطات في قطع أسبابها على الرغم من شكوى الصالحين الذين لازموا الدُّعاء إلى الله بكشف البلاء فأجاههم بإغراف الحثارات.<sup>(٧٩)</sup>

وقد أكثر النساطرة من الاتهامات والشهر في طلب شفاعة السيدة مريم العذراء، شفيعة كيسنthem. أمّا الخليفة الذي رأى الماء يصعد تحت سريره، والذي اضطرّ إلى مغادرة مخدعه على ظهر بعض الخدم فقد قام « يتضرّع ويصلّي، وعليه البردة وبيده القضيب ». وأمّا قلبة الجاثيلق فلم تستحق، فيما يبدو، العقوبة الساوية لأنّ الماء توقف على بُعد متى ذراع منها.<sup>(٨٠)</sup> جمع البلاء الأسد والثور كأخوين في الجزرات الناجية، على قول ابن العربي. ويجوز لنا الظنّ أنّ طوائف بغداد المتخاصمة والمتحاربة عادة قد تهادنت لمدافعة البلاء.

أما الجاثيلق المنتخب فقد «خرج الإذن الشريف بيدِيَّ محمد بن علي المكني أبا الفضل إلى العزيز أبي نصر محمد بن جُهير الملقب بفخر الدولة»، بأن يتوجهَ إلى المدائن للرسامة. وفي الوقت نفسه، أمر العلاء بن الحسن بن موصلايا بإنشاء عهد الجاثيلق، ففعل في ٢٨ ربيع الأول ٤٦٧ تـشرين الثاني ١٠٧٤. وسوف تنفّحـص عن قليل مضمون أمثلـ هذا العهد.

بعد الرسامة، وفي كانون الثاني ١٠٧٥، فيها ييدو، أصعد عبديشوع إلى بغداد في موكب شرف يقوده سعد الله جوهر، ابن والي بغداد.

وبعد ثلاثة أشهر من رسامة الجاثيلق، على قول ماري، أي في شعبان ٤٦٧ نيسان ١٠٧٥<sup>(٨١)</sup> توفي الخليفة القائم عن ٧٥ سنة. وقد اختصر ابن العربي تأييـنه بجملة واحدة إذ قال إنه «كان أصفر اللون بسبب إكثاره من أكل البالـيون». (٨٢)

### عهد الجاثيلق

كان زعماء ملة النصارى يدعون أنَّه لم يزل في أيديهم عهود ذمة<sup>(٨٣)</sup> منذ أوائل الإسلام. وقد رأينا سابقاً أنَّ العهد<sup>(٨٤)</sup> الذي كتب لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣ يحدد علاقة تراتبية جديدة فيما ييدو، بين طوائف النصارى: ففي نصْه أنَّ جاثيلق النساطرة مقدُّم على غيره من الملوكانية واليعاقبة في دار الإسلام.

لا أود العودة إلى ما أثـير للجاثيلق من حقوق على طائفته. فكل مرّة تقتطف نصوص من هذه العهود ويـشهد بها نجد أنَّ المقتطـفات «اللائقة» هي التي يُلـفت إليها الانتـباه<sup>(٨٥)</sup> عادة. ولكن هل تعـبر هذه الجمل المتـزعـة من سياقها (والتي يستعملـها النصارىـ المحدثـون ليـشعـرواـ بالأمانـ في عـلاقـتهمـ بالـمـسـلمـينـ، ويـذـكـرـواـ هؤـلـاءـ بـلـطفـ أـجـادـهـ) عن معـنىـ الوـثـيقـةـ كـلـهاـ بدـقةـ؟

لـنـفحـصـ النـموـذـجـ الـذـيـ وـضـعـهـ القـلـقـشـنـدـيـ بـيـنـ يـدـيـ كـتـابـ المستـقبلـ. (٨٦) إـنـهـ النـصـ عـيـنـهـ الـذـيـ كـتـبـ لـعـبـدـيـشـوعـ بـنـ العـارـضـ الـكـاتـبـ الـنـصـارـاـيـ العـلـاءـ بـنـ مـوـصـلاـيـاـ بـأـمـرـ مـنـ الـخـلـيـفـةـ الـقـائـمـ فـيـ ٢٨ـ رـبـيعـ الـأـوـلـ ٤ـ٦ـ٧ـ تـشـرينـ الثـانـيـ ١ـ٠ـ٧ـ٤ـ.

يـهـدـ لـلنـصـ بـلـاثـ فـقـراتـ مـنـ النـثـرـ المسـجـعـ تـبـداـ كـلـ مـنـهاـ بـالـحمدـلـةـ. يـحمدـ اللهـ

أولاً لذاته ثم يحمد على الإسلام الذي «اختاره دينًا وارتضاه، وعلى إرساله رسوله محمدًا بالحق» وأخيراً على الخليفة الذي استخلصه أميراً للمؤمنين وأعزه بالإمامنة على العالمين.

ويلاحظ في تضاعيف النص أيضًا تحمل الجاثليق المسؤولية عن مراعاة أهل ملته «الشروط المعتادة» والرسوم الشرعية عملاً بما سنته «الأئمة الماضيون والخلفاء الراشدون.. مع [أمثاله] من البشارة الذين سبقوا... . وإذا لم يشا هؤلاء القائم بهذه المهام فأمماهم خيار آخر: إنه اعتناق الإسلام.

بعد ذلك يذكر الجاثليق بوجوب تسديد الجزية مرة كل سنة. إنه إذن شرعة تكافء الواجبات فيها الحقوق وتتوف عليها. إنه وثيقة تسامح، إلى أن تكون تبيّناً لوضع التبعية هي أقرب منها إلى الاعتراف الرسمي.<sup>(٨٧)</sup> ومع تزايد الميل إلى التشدد في المجتمع الإسلامي، تزايد بروز هذه السمة. فمن ذلك أن القلقشندى يوضح، قبل إيراد هذا النموذج، المرامي التي كان يرمي إليها النص في أوائل القرن الخامس عشر وبخاصة الفقرات التمهيدية منه: «ثم يُقال أما بعد فالحمد لله ويُؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات أن قصد المبالغة في قهر أهل الذمة بدخولهم تحت ذمة الإسلام وانقيادهم إليه».

بقية النص معروفة وتقسم إلى ثلاثة رؤوس: اختصاص أمير المؤمنين رعياته، ومنهم أهل ذمته، بالعناية والحياطة، ثم كيف أنهى إلى الخليفة طلب الإذن بترتيب فلان جاثليقاً، وأخيراً تأتي النصائح بالمواظبة على الطاعة وتجنب التقصير.

### في «المؤلفين الذميين»

على هامش نهاية حكم القائم، نشير إلى خبر قاتمٍ يرد من أطراف الملكة سنة ١٠٧٥ . ففي الجواب على رسالة اخترسطرديلو بطريرك الاسكندرية، يردّد يوحنا بن شوشان بطريرك العيّاقبة أصداe شكوى مكتبه قائلاً: «أصابنا الغم الكبير من كثرة ضيق التجارب. وكل ذلك من كثرة خططيانا، تسلط العدو علينا وصار يحاربنا بأقوى المحاربة. وقولكم على ما أصاب رعيتكم الأبوية كذلك رعيتنا

المسيحية. طردونا وإياكم عن المسakens الأرضية. فنقول عرايا خلقنا في البرية كذلك نخرج منها كالكلمة النبوية والبشرة الإنجيلية الرسولية، لأن ماذا هو ربنا بهذا العالم نحن متعلمون بالحقيقة... من الآن ليس همّنا على الغنيات بل على غنى الكنائس المضيئات. فآه لو خرجنا كما عربنا فكان يحيط علومكم الأبورية أن ضرباتنا كلها سوية. والمؤمنون في كل النواحي انتهوا وقتلوا وأسروا كل هذا من كثرة ذنبينا».<sup>(٨٨)</sup>

هل يجب اتهام البطريرك وغيره من «المؤلفين الذميين» بالليل عادة «إلى التعبير على نحو لا يخلو من المبالغة عن آلام وأمال بني ملتهم؟» هل يجب لذلك اتهامهم «بالانحياز؟»<sup>(٨٩)</sup> من الجلي، كما يلاحظ فاروق عمر،<sup>(٩٠)</sup> أن هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن ينظروا إلى تاريخ دولة الإسلام إلا من وجهة مبادلة لتلك التي كان ينظر منها المؤلفون المسلمين». ولكن هل يجب لذلك أن نحطّ، بصورة آلية، من قيمة شهاداتهم، علمًا بأن ذلك التاريخ كان حياتهم؟

على أية حال لا أستطيع أن أقبل من J.B. Segal حكمه القطعي إذ يقول: «لا يمكننا الاعتماد على رواية هؤلاء المؤرخين (السريان) لأحداث عصرهم الحال في الحقبة الإسلامية. فقد كانوا يعيشون الحياة المنعزلة التي تعيشها طائفة أقلية يحجبها عن قصور الملوك والأمراء شعور بالدونية السياسية، حياة جهور مشاهدين ممثلة وغير مهمّ بمجرى الأحداث (بل خائب الرجاء منها)...»<sup>(٩١)</sup> إن كل ما سقناه عن الكتاب والأطباء النصارى في قصور الكبار، وعن لقاءات أحبار النصارى «الملوك والأمراء» يدحض هذا الزعم.<sup>(٩٢)</sup>

## الحواشي

(١) تاريخ الزمان، ص ٨٤.

(٢) الكامل، ج ٩، ص ٤١٨ - ٤٢١. - يعتبر هنري لاوست في مقالته Les agitations religieuses

الفترة الممتدة من بداية خلافة القادر ٩٩١/٣٨١ حتى موت ملكشاه

(٣) ٤٨٥ / ١٠٩٢) «فترة انتقالية سواء على الصعيد الديني أو السياسي». انظر للكاتب تاريخنا

محتصراً للفتن في كتابه عن ابن بطة العكبري، الحاشية ٢١٣.

- (٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٨٠.
- (٤) ابن الجوزي، المتنظم، ج ٨، ص ٩٦ - ٩٧.
- (٥) الماوردي، تحقيق ENGER، ص ٤٢٨. - يلفت متز النظر، ج ١، ص ١٠٤، إلى أن البابا اينوسنت الثالث وقف في العام ١٢٥٥ موقفاً مشابهاً في شأن محفل لليهود بمدينة سانس كان يعلو على كنيسة مجاورة.
- (٦) عن استمرار القوانين المتعلقة ببناء الكنائس في عهد العثمانيين وفي القانون الإداري المصري، انظر Le lien (Le Caire) XVII (1952) et XVIII (1953) par Joseph CASSIS.
- (٧) الكامل، ج ٩، ص ٤٢٦.
- (٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٨٥.
- (٩) الكامل، ج ٩، ص ٤٣٢.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٤٣٩. - في هذه السنة عينها قدم البطريرك السرياني، ديونيسيوس، هارباً من بلاد «المراطقة» أي الملوك البيزنطيين ليسكن «بلاد المسلمين» في آمد (ديار بك) أولاً ثم في دير مار حنانيا بماردين، الرهاوي المجهول، ص ٢١٦.
- (١١) الكامل، ج ٩، ص ٤٤٠.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٧.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٣.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.
- (١٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٨٦.
- (١٦) الكامل، ج ٩، ص ٤٧٣.
- (١٧) Islamochristiana, 2, (1976), p. 202-203. Edition de M. HAYEK, Ammar al-Basri, Apologie et controverses, Coll. Recherches, Beyrouth, 1978.
- (١٨) ابن الجوزي، ج ٨، ص ١٦.
- (١٩) Islamochristiana, 2, (1976), p. 203-208.
- (٢٠) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٤.
- (٢١) الكامل، ج ٩، ص ٥١١.
- (٢٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٥.
- (٢٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٦.
- (٢٤) E.I.<sup>2</sup>, I, p. 135-136, par H. BOWEN, s.v.
- (٢٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٥ - ٩٦.
- (٢٦) الكامل، ج ٩، ص ٥٤١ - ٥٤٢. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٦.
- (٢٧) Islamochristiana, 3 (1977), p. 257-284 ، يسميه صليباً، ص ٩٩: «القديس».
- (٢٨) عن الناحية الlahorite انظر دراسة المطران عمانوئيل كريم دلي في فهرس المراجع.

(٢٩) سمير خليل في *Mélanges de l'Université Saint Joseph (Beyrouth) XLIX* (1975-1976), *Mélanges offerts au P. Henri Fleisch*, vol II, p. 617-650، مجلّة المشرق، ج ٢٠، (١٩٢٢)، ص ٣٦٦.

(٣٠) أظر نصائحه لعرفة شراء العبيد في «رسالته في شراء الرقيق وتقليل العبيد»، تحقيق عبد السلام هارون في *نواذر المخطوطات*، ج ٤، القاهرة، ١٩٥٤. - يذكر أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) في كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى، برنسون، ١٩٣٠) ص ١٨٣ - ١٨٥، بعضاً من «عجائب» بحلب.

(٣١) *GCAL*, II, p. 191-194 ، ابن القسطي، ص ١٩٢ - ٢٠٨ ، ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٢٥ - ٣٢٨.

(٣٢) ونجد رجلاً رومياً، هو ابن اصطفانوس، يأتي إلى العراق ليدرس الأدب والفلسفة، شيخو، شعراء، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٣٣) ابن القسطي، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، ويدرك سعيد بن شهاس هذه الرحلة، شيخو، شعراء، ص ٢٧٨.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٦ - ٢٧٧ و ٣٩٢.

J. SCHACHT, dans *E.I.<sup>2</sup>*, II, p. 371, s.v. (٣٥)

(٣٦) سمير خليل في *Islamochristiana*, 3, (1977), no. 15, p. 276-277

(٣٧) عبد الرقيب يوسف، المرجع المذكور، ص ١١ - ١٤ . وللكاتب نفسه: عبد الله بن يختشوع وكتابه «منافع الحيوان» مجلة مجمع اللغة السريانية، ج ٣ (١٩٧٧) ص ٣٣١ - ٣٤٩.

(٣٨) ماري، ص ١١٩ - ١٢١ ، صليباً، ص ٩٩ - ١٠٠ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣٠٠.

(٣٩) الكامل، ج ٩، ص ٥٦١.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٩٧ - ٥٩٨.

(٤١) الذي نراه، في ماري، يناصر رئيس شامسة من المدaiين ضدَّ نصارى آخرين من العابدين.

(٤٢) وقد أسلم في رمضان ٤٤٦ / ١٠٥٤ هرئاً من التعذيب بأمر الوزير ابن المسلم. ولكنه عذُّب مع ذلك في الشهر التالي بأمر من الكنديي ووزير طغل بك، مرآة الزمان، الورقة ١٤ ب - ١٧ ب. المتظم، ج ٨، ص ١٧٣ ، مذكور في p.95 G. MAKDISI, *Ibn'Aqil*

(٤٣) تاريخ الزمان، ص ٩٩.

(٤٤) ماري، في الموضع المذكور، الكامل، ج ٩، ص ٦٠٧ - ٦٠٨.

(٤٥) الكامل، الموضع نفسه. - وقد قاد العملية الشرف أبو علي بن سكرة، أحد أقرباء الخليفة وأحد أشهر أنصار الحنابلة ببغداد. وقد آزره على ذلك أتباع الداعية السفياني المعروف عبد الصمد المتوفى سنة ٣٩٧؛ Henri LAOUST, *Mawardi*, p. 88.

(٤٦) الكامل، ج ٩، ص ٦٤٤، كان نائب وزير الخليفة منذ سنة ٤٣٧. المصدر نفسه، ص .٥٣٠

CAHEN, *Baghdad au temps de ses derniers califes*, p. 293. (٤٧)

E.I.<sup>١</sup>, II, p. 683, par K.V. ZETTERSTEEN, s.v. al-Ka'īm (٤٨)

(٤٩) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٠٣.

(٥٠) المتظم، ج ٨، ص ١٧١. البداية، ج ١٢، ص ٦٩. يؤكّد نظام الملك، ص ٣٧١، أنه لم يكن في عهود العمال التي كتبها طغل بك وخلفه ألب أرسلان، أي حتى ٤٦٣/١٠٧٢ - ٤٣٢/٩٩٨. أسماء نصاري، ولا في عهود ملوك غزنة محمود ومسعود، أي للفترة ٣٨٨ - ٣٨٣. ١٠٤٠.

Ibn 'Aqil, p. 154-157 (٥١)

(٥٢) يلحظ P. RONDOT، ص ١٣٣ «أن الرأي العام الذي غالباً ما يُظنّ أنه معذوب في بلاد الإسلام، كان يميل، أحياناً، ما يريد على السلطة التي كان جشعها أو أثانيتها ينسجها تماماً مع استخدام النصاري». (٥٣) المصدر المذكور، ص ٣٣.

(٥٤) لا تستطيع التاريخ للكاتب التصرياني علي بن علي الذي يعرض البيروني على نظرياته الفلكية (الآثار، ص ٢٦٩)، أي قبل العام ١٠٠٠ - عن الفلكيين النصارى، انظر Bulletin d'astronomie arabe chrétien (Louvain) V. 1-3 (1981), p. 39, 182-186

(٥٥) ابن القنطي، ص ٢٣٩، وقد قتله علي بن منيع قرواش العقيلي أمير الموصل، أي قبل ستة .١٠٥٢

(٥٦) نظامي عروضي، ص ٣٥

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٥٨) أنظر أطروحة نشأت الخطيب: Etude historique de l'époque abbaside à travers le Kitab al-Aghani, Paris — Sorbonne, 1975.

(٥٩) في: Byzance et les Arabes, II, Bruxelles, 1950, p. 304-348

(٦٠) ABDUL-HAQ, Abu Tammar, p. 26-41, et Historical Poems, cit

(٦١) Byzance et les Arabes, I, 1935, Appendice I, p. 397-408.

(٦٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٧٠.

(٦٣) أنظر مثال ذلك في نظامي عروضي، ص ٨٩. - وإن الوهم ليذهب إلى حكاية الغراب والشعلب عندما نقرأ الصيغ المتكلفة التي كانت تستعمل في مدح أمراء أجلاف لا يفهون نصف ما يقال لهم، في أغلبظن. فمن ذلك أن أميراً تركياً من أمراء الموصل اسمه زين الدين أجاب، حوالي العام ١١٥٠، شويعراً امتدحه، فقال: «إني لم أفهم ما قلت ولتكن عرفت أنك تطلب شيئاً ثم أمر له بصلة»، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨٠. يقارن

G. WIET في كتابه *Soières Persanes* ، ص ٢٠٢ ، دور الشعراء المذاхين بدور الصحافة اليوم.

(٦٤) شيخو، شعراء، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، ٣٩٣ .

(٦٥) المنظم، ج ٨، ص ٢٧٢ .

(٦٦) المنظم، ج ٨، ص ١٩٠ .

(٦٧) وهو يتكلّم عن مشاهداته في ناحية معّرة النعيم بالشام (بين حلب وحمان) في ظلّ بني مرداس حُكَّامِ الوقت، ويشرح لي أنَّ ليس في تعليم حكمه تعلُّماً. ولا بدَّ لنا من أن نتذكّر أنَّ أعمى المرّة كان يزدرى فنّاق أهل ملْهَأً أيضًا . - عن النصرانية والنصارى في أعمال المُعْرِي، أظرف الجندي، ص ١٩٧ ، ١٤١٠ - ١٤١٦ ، ١٤٢١ . - عن لقاء المُعْرِي راهبًا بدير الفاروس بالقرب من اللاذقية، انظر *Bibliographie critique* بقلم مصطفى سالم في B.E.O. XXII (1969), p. 133-204, et XXIII (1970), p. 197-279, no. 53, 88, 489 والرقم ١٥٩ ، عن موقف المُعْرِي من الأديان كلّها. ونجد على العكس من ذلك رجلاً مسلماً يتنصر من أجل فتاة رومية بصفتها في وجهه، القليوبى، كتاب حكايات وغرائب تحقيق LEES، كلكتا، ١٨٥٦ ، الحكاية رقم ٢٠٥ ، ص ٢٠٥ .

(٦٨) اللزوميات، دار صادر، بيروت، ١٩٦١ ، ج ٢، ص ٤٥٧ .

(٦٩) وإننا لنذكر أسباب اعتناق الإسلام التي عذّها حنين بن إسحق، ولكن الشاعر هنا مسلم كعبى بن ربيط الطبرى الذي أسلم وألح، هو أيضًا، إلى أسباب مماثلة.

(٧٠) ماري، ص ١٢١ - ١٢٦ . صلبيا، ص ١٠٠ - ١٠١ . ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣٠٢ .

(٧١) يصحّح الاسم في ماري، بتحقيق جيسموندي، الذي يضع كارست. كان دارست قد وزرَ من سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ حتى وفاته سنة ٤٦٨ / ١٠٧٥ - ١٠٧٦ ، الكامل، ج ١٠ ، ص ١٤ ، ١٠١ E.I.<sup>2</sup>, Supplément p. 384 C.E. BOSWORTH . كذلك يجب أن يقرأ القيبي بدلاً من القاني في ماري ص ١٢٣ ، س. ٣ وذلك حسب الكامل، ج ١٠ ، ص ٢٧ ، ٢٥ .

(٧٢) راجع CAHEN, E.I.<sup>2</sup>, I, P. 446 «نظام الحكم في العصر السلوجوقي»، مجلة سومر، (بغداد) ٢٠ (١٩٦٤) ، ص ٢٠٩ - ٢٢٦ .

(٧٣) ج ٨، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . ويتقدّم ابن عقيل بناة القبة لا على ظلمهم فحسب بل على تقافهم وريائهم: «لها عند هؤلاء من الدين خبر»، على قوله.

(٧٤) جورج المقدسى، ابن البتا، ج ١٩ ، ص ٤٣ .

(٧٥) لم يكن قد صار أسقفًا بعد. ويسمّيه ماري زعيماً. والأغلب أن يسمّى رئيساً لو كان من أعيان العلويتين.

(٧٦) عامل بغداد من قبل ألب أرسلان وينت الخليفة من ٤٥٦ / ١٠٦٤ إلى ربيع الأول سنة ٤٦٤ / آخر ١٠٧١ . الكامل، ج ١٠ ، ص ٣٥ ، ٧٠ ، إلخ. يصحّح الاسم في ماري ص ١٢٦ س ٩ بتحقيق جيسموندي الذي يضع السليمانى. وكذلك فقد كانت وظيفة هذا الأمير تسمى الشحنة لا الشحفة.

(٧٧) ص ٢٨٩.

- (٧٨) ماري، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، صليبا، ص ١٠١ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣٠٢ - ٣١٠ .
- (٧٩) الكامل، ج ١٠ ، ص ٩١ .
- (٨٠) ماري، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، صليبا، ص ١٠١ . ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١٤ .
- الكامل، ج ١٠ ، ص ٩٠ - ٩١ ؛ أحد سوسة، فيضات بغداد، ج ١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
- عن نهر الفرج، المصدر نفسه، ص ٢٩٩ ، الحاشية رقم ٢ .
- (٨١) الكامل، ج ١٠ ، ص ٩٥ .
- (٨٢) تاريخ الزمان، ص ١١٤ - ١١٥ ، وبين فيها أحكام النجوم لليلة موته .
- (٨٣) مراجعة نقدية بقلم الأب لويس شيخو في مجلة المشرق، ١٢ (١٩٠٩)، ص ٦١٨ - ٦١٩ .  
A.S. TRITTON, *The Caliphs*, cit; A. FATTAL, *Le statut légal*, cit.; AS- ٦٨٢ - ٦٧٤  
SEMANI, *Bibliotheca Orientalis*, III, II, p. 95.
- (٨٤) إلى متى يرقى أول عهد من هذا القبيل؟ أنظر مقالتي Rüm à l'Est de l'Euphrate ص ٣٨٩ - ٣٩٠ مع مصادر .
- (٨٥) الأب شيخو مثلاً في شعراء، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، يستشهد «بابن ماري» (كذا). مقتطفات من عهد عبد يشوع الثالث في Baghdad Observer, July 19th, 1972 .
- (٨٦) صبح الأعشى، ج ١٠ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٩ ، الذي يتبع تصحيف تحقيق جيسموندي لكتاب ماري ص ١٣٣ - ١٣٧ . وانظر تصحيحات نيوفيتوس أولبي : P.O.C. I (1951) p. 206-208 .
- (٨٧) يروي ابن عبد الحكم (أبو محمد عبدالله) في كتاب فتوح مصر وأخبارها، المذكور في كتاب جاك تاجر، ص ٥٠ ، رد المقوس (البطريرك قورش؟) على مواطنه المصريين «نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم» .
- (٨٨) رسالة البطريرك أثبا يوحنا بن شوشان، النص العربي والترجمة الفرنسية، لأنطوان خاطر في Bulletin de la société d'archéologie Copte, XXII, (1974-75), p. 46.
- (٨٩) يلاحظ أن النص المذكور هنا هو نص رسالة غير معنة للنشر .
- (٩٠) The Abbassid Caliphate, p. 48-49
- (٩١) Syriac Chronicles, p. 251
- (٩٢) ومن بين المآخذ التي يأخذها فاروق عمر على « المؤلفين الذهنيين » ما يسميه « بمعرض الأحداث »، ولكن هل هذا الغموض مقتصر عليهم؟ كم من الروايات المتباينة للواقعة نفسها نجد اليوم بصرف النظر عن ديانة المؤرخين؟ وأنا بعد هذا أوقف فاروق عمر كل الموقفة على « تحرير الأسماء » وأرى أن ذلك التحرير يعزى إلى قواعد الإملاء السريانية أو المتحدرة من أصل سرياني. وبمجرد بنا أن نتوقف أمام خاتمة هذه الفقرة للمؤلف نفسه إذ يقول «إن رواياتهم تستحق الاعتبار إنما من حيث هي مكملة لغيرها أو من حيث تتيح لنا معلومات جديدة عن بلداتهم بخاصة أو عن طوائفهم».

---

## ٢٧ - المقتدي (٤٦٧ - ١٠٧٥ / ٤٨٧ - ١٠٩٤)

---

لم يحكم عبدالله المقتدي بأمر الله<sup>(١)</sup>، حفيد القائم، حكمًا فعلياً أكثر من أسلافه. فالسيّد الحقيقي المطاع كان السلطان السلاجوقى التركى ملکشاه (ت ٤٨٥ / تشرين الثاني ١٠٩٢)، الذى اتّخذ لقب «مولى العرب والعجم»،<sup>(٢)</sup> ثمّ بركيارق ابنه.

إلى جانب الخليفة نجد الطبيب النصراوى أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين<sup>(٣)</sup> الذى خدم في البيمارستان العضدى وصنف كتاباً في الطب. وقد طبّخ الخليفة التالي المستظهر بالله، ومات سنة ٤٩٥ / ١١٠١.

ويذكر أطباء نصارى مشاهير آخرون في الفترة نفسها في بقاع أخرى، منهم الأخوان التكريتيان اليعقوبيان أبنا جرير المذكوران سنة ٤٧٢ / ١٠٧٩: الفضل طبيب ناصر الدولة ببيفارقين<sup>(٤)</sup> وأبو نصر يحيى، الذي كتب رسالة في فائدة رياضة البدن<sup>(٥)</sup> إلى محمد بن محمد بن جهير.

تبدو أحداث هذه الخلافة في صورة مفككة لا تمكن من رؤية موالج الأمور ومخارجها بوضوح كافٍ. فمن ذلك أنّ أهل سوق المدرسة اشتبكوا سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ مع أهل سوق الثلاثاء، «بسبب الاعتقاد (؟) فنهب بعضهم.. بعضاً، وكان مؤيد الملك بن نظام الملك ببغداد بالدار التي عند المدرسة، فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرها ومعهما الجندي فضربوا الناس، فقتل بينهم جماعة وانفصلوا». <sup>(٦)</sup> الأرجح أنّ الفتنة قد وقعت بين أصحاب مذهبين من أهل السنة، وإنما ذكرناها لأنّا نعلم أنّه كان في الحيّ الثاني قوم من النصارى.

عن العام ٤٧٧ / ١٠٨٤ - ١٠٨٥ ، يكتب ماري من غير تفسير: «بني مسجد بعمر واسط» أي دير مار سبريسوع.<sup>(٧)</sup> لنذكر أيضاً وباء الطاعون سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ بالمحول إلى الجنوب الغربي من بغداد، أي بالقرب من حي اليعاقبة<sup>(٨)</sup> وبذلك نصل إلى سيل من الأحداث التي تنسى بفترة سنة ٤٨٤ / ١٠٩١ الكبرى التي أخرجت رهطاً من النصارى عن دينهم.

صيّب جورج مقدسي<sup>(٩)</sup> إذ يقول: «إن المطالبة بتطبيق القيود [على أهل الذمة] لم تزل تكرر طيلة القرن الخامس / الحادى عشر، ذلك لأنها لم تطبق إلا لتهدة العامة التي أحفظها اختيار الأثرياء من الذميين، والحربيات والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها علناً، بسبب أهميتهم السياسية والاجتماعية. وهذا يفسر سلوك العامة من المسلمين الذين لما وجدوا أنفسهم بلا نصير يستظهرون به لدى الحكام، أخذوا على عاتقهم مهمة الانتصاف فأحرقوا الكنائس ونبوا المنازل وأشعلوا الفتنة الدامية أحياناً».

في ربيع الأول ٤٧٨ / ١٠٨٥ تصاعدت أوائل الشكاوى على اليهود بسبب ما كانوا يتجرؤون عليه في العلن.<sup>(١٠)</sup> وقد هدمت بعض منازل اليهود بأمر المقidi في أواخر تلك السنة بحجّة أنها كانت أعلى من منازل المسلمين المجاورة لها، وكان على اليهود أن يتّعهدوا بعدم تلاوة التوراة إلا في منازلهم من غير جهر بالتلاوة، وأن يتعمّموا بعائم من اللون المفروض عليهم. وفي العام ٤٨٠ / ١٠٨٧ امتدّ تطبيق هذه الإجراءات ليشمل شرق بغداد وجنوبها.<sup>(١١)</sup> ويمكن أن نلمح في هذه الإجراءات أثر الشيخ أبي بكر أحمد بن عليّ بن بدران الحلوي. فبعد أن ساء هذا الشيخ ما ترقى إليه أهل الذمة من مناصب رفيعة لدى السلاطين، صنف قبيل ذلك العام كتاباً في القواعد التي يجب إلزام أهل الذمة بها سماه «الفصول الجامعة في ما يجب على أهل الذمة من أحكام أهل الله». وقد أهدى الكتاب إلى المقidi فأمر لصاحبه بجائزة سنوية. إلا أنّ هذا ردّها قاتلاً ما معناه إنّ المدينة التي أطلبتها لنفسي وللمسلمين هي أن تحكم أهل الذمة حسب أحكام هذا الكتاب. ويشهد أحد تلامذة ابن بدران (وهو فقيه مجهول الاسم من طنجة أقام ببغداد من سنة ٤٨٨ / ١٠٩٥ إلى سنة ٤٩٤ / ١١٠١ ، على الأقل) بأنه رأى هذه الأصول تراعى في العاصمة.<sup>(١٢)</sup>

ويحدُر بنا أن نشير هنا إلى أنَّ الخليفة المقتدي لم يكن يستهدف اليهود فحسب، ومن ثمَّ النصارى، بل كان ينتهج سياسة عامة يطغى عليها الميل الديني والأصولي. فقد أمر محتسبو الحال بأن يقتدوا بسيرة أصحاب عبد الصمد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكسرت جرار الخمر وألات الملاهي وهدمت المأخارب وأبراج الحمام التي كان أصحابها يطلّعون منها على حُرم الناس، وحضرت ألعاب القمار، «ومُنِعَ الناس أن يدخل أحد الحمام إلَّا بائز...» ومنع الملائكون أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين...». كان من السهل على وزير ماهر أن يوجّه هذه الحملة الأصولية<sup>(١٣)</sup> كلّها ضد غير المسلمين من يهود ونصارى. وقد كان هؤلاء متهمين منذ مدة طويلة، كما رأينا، بإفساد أخلاق المؤمنين في حُماراتهم بمحلة دار الروم مثلاً، وفي أديرتهم أيضًا.

### نهاية طائفة نصرانية

كان من شأن الحمية التي ولدَها لدى المسلمين فرض الضرائب المميزة على النصارى القضاء على طائفة نصرانية بتكريت شمالي بغداد.

كانت تكريت منذ سنة ٦٢٩، أي قبل الفتح الإسلامي، مركزاً لأحد الأقاليم الشرقية التابعة لبطريقيَّة أنطاكية (أي الكنيسة السريانَّة المغربية اليعقوبيَّة)، وهي ناحية كانت تقع في أراضي الكنيسة السريانَّة المشرقية النسطورية. وفي الفترة التي وصلنا إليها كان مطران هذا الإقليم، باسيليوس الرابع، قد بدأ يتلقّب بلقب مفريان.

من وجهة النظر الكنيسية كانت أبرشية المفريان قد توسيَّت سنة ١٠٧٥ بعدما ضمَّت إليها عدَّة رعيات سريانَّة مغربية كانت من قبل تابعة للبطريقيَّة مباشرة، ومنها نصبيين، قُلْث ودارا. وهذا يفسِّر لنا حاسة أهل تكريت لما عاد مفريانيهم الذي تعظَّم شأنه على هذا النحو إلى مدِيتهم. ولكن هذا الاستقبال الاستعراضي أزعج بعض المسلمين الذين راحوا يرمون الموكب بالحجارة، فالتجأ المفريان وصحبه إلى كنيسة مار أخودمَّ.

وبعدما أقام فترة بيغداد بدأ المفريان يبيع قطعاً من آلات الكنائس، ويختال باللبسة النفيسة الفائقة ويولم الولائم الفاخرة ويدعو إليها أعيان المسلمين فكان من شأن ذلك أن كرهته رعيته.

من الصعب أن نؤرخ لفتنة تكريت بدقة استناداً إلى المصادر المختلفة،<sup>(١٤)</sup> لأن تواريخ السنوات المتاحة، للهجرة أو للإسكندر لا تلائم. ففي العام ١٠٨٩ على ما يبدو ثُبّتت الكنيسة الكبرى، المعروفة بالكنيسة الخضراء، و«ما فيها من آلات بيعية فائقة وأموال ودور وحوانيت، ولم تجد ولايم المفريان نفعاً» على قول ابن العربي. وقد أخذت كنيسة أخرى قريبة من القلعة، هي كنيسة القديسين سرجيس وباخوس، من النصارى وأعطيت للمسلمين بدلاً عن المسجد الجامع الذي هدمه قيقباذ بن هزارسب الديلمي الذي كان سيد المدينة في ذلك الوقت.

بعد ذلك (في العام ١١٠٦/٥٠٠) أخذت الكنيسة الخضراء نفسها وأعطيت للعرب». هل كان ذلك بسبب «اتصال الفتنة بين العرب والنصارى» على قول ميخائيل السرياني؟<sup>(١٥)</sup> على أيّة حال، أرسل السلطان الكبير غياث الدين محمد بن ملكشاه عسكره إلى المدينة وبعد سبعة أشهر من الحصار، وقعت في تشرين الأول، في يد صدقة بن دبيس ملك الحلة العربي الملقب بسيف الدولة.

ويبدو أنَّ الأضطهاد كان عنيقاً، إذ إنَّ معظم العيادة وفيهم المفريان، غادروا تكريت وتفرقوا في المدن والقرى المجاورة. وذهب الخبر نفسه إلى الموصل ونزل بها.

تنتشر أمامنا هنا على مدى سبعة عشر عاماً سلسلة من الأحداث الخطيرة الشأن التي أدت إلى القضاء شبه التام على طائفة نصرانية عريقة في القدم وناظمة بالعربيَّة أيضاً. إلا أنَّ بغداد عرفت فترة من المدود قبل المأساة المتطرفة، وذلك لما استؤنفت في العام ١٠٨٢/٤٨٢، الفتنة الدامية<sup>(١٦)</sup> داخل الإسلام، إذ عاد السنة والشيعة إلى التقاتل. ييد أنَّ نظرة العامة إلى النصرانية باعتبارها «عدوة الإسلام» قد ظهرت مرة أخرى من خلال الصلبان التي رفعها العوام على القنا وذلِك مثلما فعل الترك العصاة من قبل. ولم تهدأ الفتنة حتى تدخل بنو مزيد من عرب الحلة الذين استجاشهم الخليفة.<sup>(١٧)</sup>

في الثاني من كانون الثاني ١٠٩٠، ووسط هذه الأحداث مات عبديشوع بن العارض الذي لا نعلم عنه إلا القليل.<sup>(١٨)</sup> من ذلك أنّ ماري الذي أثبت في تاريخه نصّ عهد الجاثليق الذي كتب له، قد نسي خبر موته وتقويم جثنته. أما صليبا الذي كتب أقلّ من صفحة عن هذا الخبر (مقابل عشر صفحات ونصف عند ماري) فلا ينسى أن يقول عنه إنّه كان «شيخاً ظاهراً عالياً خيراً صالح التدبر». وقد تكلّم ماري في ما بعد عن جهله «بقوانين البيعة»<sup>(١٩)</sup> ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا. دامت جثّة ابن العارض ١٦ عاماً ودام حلوّ كرسى الجاثلة مدة ستين ونصف.<sup>(٢٠)</sup>

### كتاب سياسة نامه

أما في ما يخصّ السلاجقة الكبار فقد نصب ملكشاه سلطاناً خلفاً لأب أرسلان سنة ١٠٧٢. ولما لم تكن سنّ الأمير إلا ١٨ سنة، سيطر عليه نظام الملك،<sup>(٢١)</sup> الوزير الشهير، الذي كان أول من تلقّب بلقب أتابك. وقد كتب هذا الوصي بالفارسية «ملوّاه (?) سلطان العالم» كتاباً في سياسة الملك سمه «سياسة نامه» (أي كتاب السياسة)، وسمّاه مترجمه إلى العربية «سير الملوك».<sup>(٢٢)</sup> وقد وضع جلّ الكتاب في العام ٤٨٤/١٠٩١، وصنفت الفصول الأحد عشر الأخيرة في العام الذي تلاه بحيث يحتوي الكتاب على خمسين فصلاً.

بالنسبة إلى استخدام النصارى، يعبر الوزير عن النظرة التقليدية للإسلام والتي تقوم على الآية القرآنية المعروفة (الآية ٥١ من سورة المائدة)، ويستشهد على ذلك بما كان من عمر بن الخطاب في خبر أبي موسى الأشعري<sup>(٢٣)</sup> وكاتبه، وفي خبر سعد بن أبي وقاص مع اليهودي.<sup>(٢٤)</sup>

هذا من الوجهة النظرية. أما من الوجهة العملية، فيؤكّد الكاتب<sup>(٢٥)</sup> «أنهم في كل العهود والأيام كانوا يعهدون بالأعمال إلى من كان على مذهبهم» أي إلى المسلمين. ثم ينتهز الفرصة ليشّي على كتاب خراسان (المسلمين) الشرفاء. ويؤكّد أنه لم يجد اسمًا لنصريّ أو ليهودي أو لمجوسي، إلّغ «أما اليوم فقد ارتفع هذا التمييز، إذا توّلّ أعمال الترك ورئاستهم يهودي فإنّ الترك يسيغون ذلك... والآن

قد بلغ الحال مبلغ أنَّ الباب والديوان مليئان بهم . . . وهم ساعون إلى أن لا يدعوا خراسانياً واحداً يمر بالباب».

أما ما لا يقوله الوزير فهو كيف اتفق أن تم هذا التسلل الكثيف حتى الإشباع والتفرد مع وجوده هو في السلطة واستبداده بالأمر منذ نهاية ما يعتبره العصر الذهبي عصر طغرل بك وألب أرسلان «السلطان الشهيد». ثمة مجلة صغيرة،<sup>(٢٦)</sup> مفادها أنَّ الوضع في قصر ملكشاه ليس كالوضع في العراق، يُفهم منها أنَّ ما يشكو منه الوزير هي الأحوال السائدة في دواوين الخلافة حيث كان النصارى كثراً، على خلاف ما هي الحال في الدواوين السلطانية، أي التابعة له. ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك في دواوين الخلافة أيضاً.

### خلوّ كرسي الجثة وصروف الدهر

لم يطل الوقت حتى عثر الخليفة على الوزير ذي الحمية الدينية<sup>(٢٧)</sup> في شخص أبي شجاع ظهير الدين الروذراوري<sup>(٢٨)</sup> الذي بدأ اضطهاد النصارى بأن استحصل في ١٤ صفر ٤٨٤ / ٧ نيسان ١٠٩١<sup>(٢٩)</sup> على توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بالسميات المميزة. متى لم يعد يجوز لليهود والنصارى أن يخروا إلى شوارع بغداد من دون لبس الغيار وعقد الزنار وتقلد درهم رصاصي في أعناقهم ضربت عليه كلمة ذمي. وكان على النساء أن يتقلدن هذا الدرهم في الحفّات، وأن يلبسن، عند المشي في المدينة، أحذية ملوّنة بلونين واحد أحمر وواحد أسود، وأن يجعلن في أرجلهن الخلاخيلاً.

نذكر أنَّ أم الخليفة أرجوان/ قرة العين كانت أرمنية، وأتها لم تفعل شيئاً، أو لم تقدر على عمل شيء لمنع تنفيذ هذه الإجراءات التمييزية.

وقد أسهם هذا القرار في خسارة أبي شجاع وزارته في الشهر التالي (ربيع الأول / ٢٣ نيسان - ٢٢ أيار ١٠٩١). «كان سبب عزله أنَّ إنساناً يهودياً ببغداد يقال له أبو سعد بن سمحا<sup>(٣٠)</sup> كان وكيل السلطان ونظام الملك» اتفق مع كوهرائيل (وهو أمير يلقب بسعد الدولة) على الشكاكية من أبي شجاع، واستغلَّ

حادثة اعتداء تعرض لها ليوقع بالوزير. وقد عُزل هذا من وزارته ولكن أمر الخليفة بمخالفة أهل الذمة ظلّ ساري المفعول مدة أربعة عشر عاماً.

## إسلام النصارى

كان من نتائج أمر الخليفة هذا أن «هرب النصارى كلّ مهرب» فأسلم بعض من كان منهم في منصب رفيع. وكان من أشهر من أسلم كاتبان من بني المصلايا. (٣١) وقد صادفنا سابقاً واحداً من رجال هذه الأسرة بين العامين ١٠٥٧ و ١٠٦١، هو أبو الحير سعيد بن منصور بن المصلايا، الذي كان له ضلع في اختيار الجاثليق سبريشوع الثالث، وكان من جملة أعيان النصارى الذين قصدوا الوزير ابن دارست مستاذنين في رسامة الجاثليق. أما الكاتب الثاني، الذي صار من بعد أعظم شهرة، فهو أبو سعد العلاء بن الحسن بن المصلايا (٣٢) الذي أنشأ العهد الذي كتبه القائم لعبدشوع الجاثليق في ٢٨ ربّع الأول ٤٦٧ / ٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤.

إمتدّت السيرة العملية لهذا الكاتب المثالى، الأديب الشاعر الفاضل، على مدى خمس وستين سنة، وهي معروفة جيداً. (٣٣) فقد بدأ العمل في خلافة القائم سنة ٤٣٢ / ١٠٤١ - ١٠٤٠. وأسلم على يدي الخليفة المستظر سنه ١٠٩١ آنفأ من لبس الغيار. كان في هذا الوقت كاتب الإشاء في ديوان الخليفة. وقد أجزلت مكافأته على إسلامه إذ استُتبِّعَ على الوزارة بعد عزل أبي شجاع في السنة عينها، ثمّ خلع عليه لقب أمين الدولة. (٣٤)

وقد خضعت بقية حياته لصروف الحال السياسية المتقلبة لذلك الزمن. فاضطُرَّ إلى الامتناع عن الحضور إلى القصر لفترة احتياطاً سنة ١١٠١، وذلك لما ارتات الوزير الأعزُّ أبو المحاسن الدهستانيَّ بأنه يُمْيلُ الخليفة إلى السلطان محمد ضد السلطان بركيارق. ولم يعد إلى منصبه إلاّ بعد أن أُعدم الوزير. وفي أواسط رجب ٤٩٦ / أواخر نيسان ١١٠٣ استُتبِّعَ أمين الدولة مرة ثانية على الوزارة لما قبض على سيد الملك أبي المعالي (المفضّل بن عبد الرزاق الأصفهاني) وزير الخليفة. مات ابن المصلايا ببغداد سنة ١١٠٣ - ٤٩٧ / ١١٠٤ من بعدهما كُفَّ بصره، فأورث أمواله

لأعمال البر والإحسان الإسلامية لأن أسرته التي ظلت على النصرانية لم يكن لها الحق في أن ترثه. (٣٥)

وقد خلفه على رأس ديوان الإنشاء ابن أخيه، أبو نصر هبة الله، (٣٦) بن الحسن بن علي النصراني صاحب الخبر. أسلم أبو نصر، الملقب بناج الرؤساء، سنة ١٠٩١ هو وخاله أمين الدولة في الوقت نفسه. وكان هو قد صار صاحب الخبر عندما أنشأ في صفر ٤٨٥ / ١٢ آذار - ١٠ نيسان ١٠٩٢ العهد الذي كتبه المقتدي للجاثليق مكّيحا. بعد ذلك أي في العام ١١٠١ - ١١٠٢، لم يكتفي مثل حاله بلالمة داره لما اتّصل به صراع التنافس بين السلاطين. فقد هرب أبو نصر الذي كان أخوّف من حاله أو أكثر عرضة لارتياح بركيارق والتّجأ إلى الأمير العربي سيف الدولة صدقة بن مزيّد، سيد الحلّة. ولما زال الخطر وعاد أمين الدولة إلى منصبه، عاد أبو نصر إلى عمله أيضاً. لذلك لا نعجب إذا رأينا الخليفة يبعث أبي نصر ليستجيش سيف الدولة، لما احتاج إلى معونته.

خلف أبو نصر حاله، الذي مات سنة ١١٠٣ - ١١٠٤، في رئاسة ديوان الإنشاء إذاً، ولُقب بلقب نظام الحضرتين. (٣٧) ولم يمارس مهامـات هذا المنصب إلاّ حوالي العام لأنّه ما لبث أن توفي هو أيضاً عن سبعين عاماً في ١١ جمادى الأولى ٤٩٨ / ١٦ آب ١١٠٥، بعد مرض دام خمسة أيام، ولم يكن له ورثة شرعيون للسبب الذي ذكرناه من قبل. وقد دُفن في مقبرة باب أبرز. (٣٨)

وثمة رجل رابع من هذه الأسرة يُؤتّى على ذكره في التّاريخ، إنّ أبو الحسين بن الموصلايا كاتب ديوان الزمام الذي توفي في ذي القعدة ٤٨٧ / تشرين الثاني - كانون الأول سنة ١٠٩٤. (٣٩) ولا نعلم هل كان قد أسلم هو أيضاً أم لا، لأنّ النصارى في ذلك الوقت كانوا يتسمّون بالحسين ويكتّنون به.

ويبدو أنّ الاضطهاد الذي بدأ سنة ١٠٩١ ودام أربعة عشر عاماً قد أدى إلى إسلام الكثيرين من النصارى غير من ذكرنا، ولم يحفظ التاريخ إلاّ أسماء المشاهير منهم. ويعكّرنا أن نضيف إلى أولئك الذين سقنا ذكرهم آنفاً، الأخرين أبي غالب وأبي طاهر عبيد الله ابني هبة الله الأصبهني. (٤٠) أمّا الأول، وقد أسلم قبل يوم من

إسلام الموصليا، فقد لُقب في ما بعد بتأج الرؤساء وتقلّب في مناصب عدّة في ديوان الزمام. وكان حُسّاب العراق يكتبون الحساب على طريقته. وأمّا الثاني، وهو أبو طاهر، أخو الأول، فقد عمل في خدمة عفيف القائمي، وكان يلُقب أيضًا بالرئيس.<sup>(٤١)</sup>

إلى جانب رغبة المسلمين الجدد في التخلص من الإذلال (الذي كان هدفه المعلن حمل الذميين على الإسلام)، يجب أن تعزى بعض حالات اعتناق الإسلام إلى مواعظ المسلمين أنفسهم ونصائحهم، مثل ذلك ابن جزلة المتّبّ الذي أسلم في العام ٤٦٦/شباط ١٠٧٤، ومات سنة ٤٩٣/١٠٩٩ - ١١٠٠.<sup>(٤٢)</sup>

كان أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة<sup>(٤٣)</sup> قد درس الطب على «نصارى الكرخ»، ومنهم أبي الحسن سعيد بن هبة الله.<sup>(٤٤)</sup> وأراد أن يدرس المنطق أيضًا ولما لم يجد من يعلمه من النصارى قصد الشيخ أبا علي الوليد المغربي المعزلي. ولم يزل هذا يحسن له دخول الإسلام ويبين له أن الأئمّة الأقونوميّ على زعم الساطرة غير معقول<sup>(٤٥)</sup>. وقد أسلم ابن جزلة بين يدي قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني، ثم عمل كاتبًا وكان يطبّب الناس مجانًا. ولما كان بمرض موته أوصى بكتبه لشهاد الإمام أبي حنيفة. وقد صنّف في الطب تصانيف اشتهرت في زمانه، وكتب رسالة إلى إيليا القس، يبيّن فيها مسوّغات إسلامه، وهي رسالة يمكن أن تخلّ مع غيرها من المصنّفات السجالية في باب الرّد على النصارى، لو لا أنها تعدّ مفقودة.<sup>(٤٦)</sup>

ولكن بعض النصارى أسلم طمعًا في المال وكان هذا مما دعا أصحاب أبي جعفر بن أبي موسى الشّريف الحنفي إلى القول: «هذا إسلام الرشا لا إسلام القناعة». ذلك أنّ الذين كانوا ينضمون عمليات الإسلام «الإعلامية» هذه، ويتبعونها بعرضة تحبوب شوارع المدينة، هم الأشاعرة، خصوم الحنابلة. وقد تميّز منهم (الأشاعرة) أبو نصر القشيري الخطيب بالمدرسة النظامية، الذي كان يُسلّم على يديه يهودي أو نصراوي بعد كل خطبة من صلاة الجمعة.<sup>(٤٧)</sup>

هل أسلم من أهل الذمة أحد بسبب كرامات بعض المسلمين؟ لم يرگز الإسلام على معجزات الرسول خلافًا لتركيز النصارى على معجزات المسيح. ولا

أذكر أنني وقعت على وقائع تاريخية بهذا المعنى إلاً ظهور النبي العربي في بعض الأحلام. (٤٨) على أن ألف ليلة وليلة (٤٩) تروي قصة معجزة إسلامية أدت إلى إسلام ديراني ورها به الأربعين. وليس ثمة ما يخوّلنا القطع هل أن الخبر أساساً تاريخياً أم لا. (٥٠)

## مَكِيَخَا

XXVII بعد اضطراب الأحوال إبان خلو كرسي الجائقة، وبعدما هدأت موجة الخروج من النصرانية، تحكم السريان الساطرة أخيراً من انتخاب جاثيقيا لهم واستصدار إذن السلطات بتوليه، وجرى ذلك في ظل استمرار التدابير التمييزية خلال وزارة عميد الدولة أبي منصور بن جهير (٥١) الذي وزر لل الخليفة المقتدي بأمر الله منذ العام ١٠٩١.

عند هذا التاريخ يظهر لأول مرة رجل سنسمع عنه كثيراً من بعد، إنه ابن الواسطي. إن اسمه يدل على أن أسرته تتحدر من واسط، (٥٢) إلا أنها كانت تنزل ببغداد في حي العتيقة، إذ إننا سنرى لاحقاً أن أبواه قد دفن في كنيسة ذلك الحي التي كانت تسمى، في بعض المصادر، «كنيسة». (٥٣)

كان أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطي، القس الراهب، طبيب السلطان ألب أرسلان ملكشاه السلاجوقى، (٥٤) قد حل محل الكتاب من بني الموصلايا على رأس أعيان المشارقة من السريان. فهو الذي ساند بقوّة ترشيح مكيخا مطران الموصل وحزة (من أعمال أربيل) لكرسي الجائقة، بغضبه في ذلك رجل يعرف بأبي الفرج بن التلميذ، وهو الذي حصل على الشلموث الحاوي إجماع الناخبين وخطوطهم، وربما أيضاً على المشور الخليفي الذي أنشأه أبو نصر بن الموصلايا في صفر ٤٨٥، أي بين ١٣ آذار و ١٠ نيسان ١٠٩٢. (٥٥)

ومن دواعي الأسف أنه كان يصعب على حماة البطاركة الجدد (سواء أكانوا من العلمانيين أو من القسوس) أن يلزموا حدوthem من بعد فوز مرشحهم. فغالباً ما كان يحدث أن تنزع الشخصية صاحبة الفوز إلى التحكم في من يدين لها بالخلوس

على الكرسي، وإن لم يقطع لها قبل الانتخاب أي وعد صريح بمشاورتها عند توليّ الأمر (كما فعل طيّا ثاوس وإبراهيم الثالث وغيرهم). وغالباً ما كان يحدث العكس أيضاً، إذ كان الجاثليق المنتخب يميل إلى التملص من هذه الوصاية التي كانت تصبح أقلّ فائدة كلّما ازدادت سلطةً. من ذلك أنَّ الصراع بين مكيخا وابن الواسطي قد بدأ بسبب خلاف على التدابير الواجب ترتيبها لإصلاح القليلة، إذ لم يرَ ابن الواسطي على دعوة الجاثليق للتفاوض في تبادل المواقف من هذا الشأن. ثم عقب ذلك وحشة بين الرجلين، لم يلتقيا من بعدها أبداً.

إنَّ تاريخ مختلف وقائع النزاع بينهما عصيٌّ على التحقيق نظراً إلى أنَّ ماري المؤرخ لا يبيّن ترابط الواقع والأحداث ولا تواريخها الدقيقة.

يبقى أنَّ الأحداث الخارجية هي التي تبيّن معالم سيرة مكيخا. فبعد سنتين من انتخابه جاثليقاً أي في العام ٤٨٧ / شباط ١٠٩٤، مات الخليفة المقتدي فجأة عن ٣٨ سنة، وخلافة دامت حوالي عشرين سنة، إذ كان على مائته يتغذى دجاجة مشوية. غشي عليه وتراءى له أنَّ أشخاصاً دخلوا عليه من غير استئذان، ثمَّ ما لبث أنْ فارق. (٥٦) وقد أرجف بأنَّ بركيارق، ابن ملكشاه وخليفه، قد سُمِّ الخليفة لأنَّه كان قد مال إلى الموافقة على تقليد أخيه محمود لقب السلطنة.

## الحواشي

(١) E.I.<sup>١</sup>, III, p.768, par K.V.. KETTERSTEEN, s.v.

(٢) نقش مؤرخ بسنة ٤٧٥ بدمشق، Répertoire, VII, no. 2735

(٣) ابن أبي أصيوعة، ص ٣٤٣. ثمة مصادر أخرى في الزركلي، ج ٣، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤) ابن أبي أصيوعة، ص ٣٢٨ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، Islamochristiana, 2, (1976), p.217-221

(٦) الكامل، ج ١٠ ، ص ١٠٧ .

(٧) ماري، ص ١٣٢ .

(٨) يذكر ذلك ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١٩ .

Ibn'Aqil, p.158-161 (٩)

(١٠) المنظم، ج ١١، ص ١٤.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(١٢) أنظر *Consultations juridiques des faqihs du Maghrib, dans Archives Marocaines*, XII (ص).

(١٣) وقد انتزعت المقطفات المتعلقة بأهل الذمة (ص ٢٣١ - ٢٤٤) من «كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيا والأندلس

والمغرب». (١٤) مجلداً الذي صنفه أحمد الونتريسي حوالي العام ٨٧٤ هـ / ١٤٥٩ م.

(١٥) المنظم، ج ٩، ص ١٧. البداية، ج ١٢، ص ١٢٧، ١٤٦. الكامل، ج ١٠، ص

٢٣١. ونذكر هنا أيضاً بعض التدابير لمنع تلوث مياه دجلة بباه الهمامات، كما شهدت

خلافة المقidi نهضة عمرانية ببغداد.

(١٦) المذكورة في مقالتي Tagrit في *Orient Syrien*, 8, (1963), p.291-342 التي نُشرت في Chré-

Variorum Reprints, London, 1979, X. tientés syriaques en Iran et Iraq

(١٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢١٤ - ٢١٥.

(١٨) التي لم تتوقف تماماً: فقد اصطدمت الأكثريّة الحنبليّة (حزب بغداد والخليفة) بالشافعية

الأشعريّة (حزب نظام الملك وزير السلطان وأهل نيسابور) ثلاث مرات: مدة خمسة أشهر

في العام ٤٦٩/١٠٧٧، في العام ٤٧٠/١٠٧٨ وفي العام ٤٧٥/١٠٨٣، انظر تفصيل ذلك

Simha SABARI, Mouvements populaires à Bagdad, à l'époque abbasside IXème-

XIème siècles, Adrien Maisonneuve, Paris, 1981.

(١٩) أنظر مصادر عنها في الصليب في الإسلام لحبيب الزيات، ص ٥٠ وأي لتردد في أن أرى

في ذلك «ظواهر مهمّة مؤيدة للنصاري»، الكامل، ج ١٠، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢٠) إنّ أخبار جملته الطويلة في تاريخ ماري ملأى بالتفاصيل الثمينة للتاريخ المدنى، ولكنها لا تطلعنا على أحوال النصارى في تلك الفترة.

(٢١) ص ١٤٢.

(٢٢) يذهب ابن العربي في تاريخه الكنسى، ج ٢، العمود ٣١٠ - ٣٠٩، إلى أنَّ الكرسي ظلَّ

شاغراً مدة عشرين عاماً، ولا يذكر خلافات الجائليين.

(٢٣) E.I.<sup>١</sup>, III, p.997-1000, par Harold BOWEN

(٢٤) أنظر فهرس المصادر والمراجع تحت نظام الملك.

(٢٥) سير الملوك، ص ٣٧٦. في هذه الرواية يصرف أبو موسى كاتبه.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢٨) ص ٣٧١.

(٢٩) وتسطين مرارة لهجته في انتقاده ملكشاه على فتح سمرقند وكأنها من مدن الروم والمرشكين،

الكامن، ج ١٠، ص ١٨٧. كانت الإشارة إلى الروم روسيا: فقبل بضعة أعوام وبنَ

العميد بعض الترك على قتلهم رجالاً بباب الدير ببغداد قائلاً: «لو أنَّ الروم ملوكوا المسلمين ما فعلوا ما فعلتم، إذا رأوهم في مساجدهم وصلواتهم»، ابن البناء، ص ٢٢، الفقرة ٨٣.  
(٢٨) انظر مقالة عنه في: E.I<sup>1</sup>. K.V. ZETTERSTEEN. Ibn MAKDISSI. Aqil, pp 160-161 - وانظر مدحه في البداية، ج ١٢ ص ١٥٠ - ١٥١، الصقلي، ج ٣، ص ٣ - ٤، رقم ٣٥٣.

(٢٩) إنَّ هذا التاريخ الذي يذكره ابن الجوزي في المتنظم، ج ٩، ص ٥٥ (ومذكور في ص ٧٩ من مقال «السيّات» لحبيب الزبيات) يبدو أصحَّ من ١٠٩٥/٤٨٨ الذي يورده ابن خلّكان في الوقائع، رقم ٧٠٢، وذلك لأنَّ هذه الإجراءات قد دامت ١٤ عاماً وانتهت سنة ١١٠٥ على قول ماري، ص ١٤٣). يلاحظ أنَّ ابن القمي لا يأتي على ذكر أمر المقدّر. ولكن يذكر أنَّ آخر من نفَّذه كان ابن فضلان في العام ١٢٢٩ للميلاد.

(٣٠) الكامل، ج ١٠، ص ١٨٦. انظر مصادر أخرى في: G.MAKDISSI, Ibn Aqil, p.138. 139.

(٣١) «من أسماء النصارى» على قول ابن خلّكان، المصدر المذكور. إنَّي إذ أكتب «موصلايا» التزم بالكتابية المعتمدة في الطبعات كلَّها. أمَّا قراءة «موصلايا» (بإضافة النسبة السريانية إلى اسم عربي) فتجعل معنى الاسم «الموصلي». ولكن أمَّا كان الأولى في هذه الحال أن يقال آثرانيا، باعتبار أنَّ آثرور هو اسم الموصلي بالسريانية (استناداً إلى Lexicon de Bar Bahlul [Xème s.] RUBENS DUVAL, I, col. 322 المرجي)، ترجمة BUDGE، ج ٢، ص ٣٨٨، قوله «مدينة الآثروري».

(٣٢) صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٩٤، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١، نجد اسمه: «أبو سعيد... بن وهب...» البانحرزي، مدينة القصر (أطروحة التونجي) ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٣٣، يسميه: «أبا سعد الحسن بن العلاء (البغدادي) الموصلي، مع إحالته إلى أنساب الأشراف، ص ٥٤٥.

(٣٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٥٠، ٣٦٢، ٣٧٧ - ٣٧٨، ٥٣٤ - ٥٣٥. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤. ابن خلّكان، المصدر المذكور، يجعل إسلامهما في العام ١٠٩٥/٤٨٨ (؟). مصادر أخرى في الزركلي، ج ٥، ص ٤٥. شيخو، شعراء، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ و ٣٩٣. ويذكر القلقشندي (ج ٥، ص ٤٧٣ - ٥٠١، ج ٦، ص ٤٠٤، ج ٤١٥، ج ٨، ص ١٣٥، ج ١٠، ص ٣١، ٢٣٤، ٢٩٤، ج ١٣، ص ٢٧٣) عدداً من آرائه ويوورد بعضًا من رسائله. ويروي الأصحابياني عدداً من قصائده في الخزيمة، ج ١، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣٤) عن هذا النوع من الألقاب انظر مقالة H.BUSSE عن عَزَّ الدولة في: E.I<sup>2</sup>, IV, p.306 307 ويسمه القلقشندي في الصبح، ج ١٠، ص ٣١، أمين الدين بدلاً من أمين الدولة. FATTAL, Statut légal, p. 137 (٣٥)

(٣٦) الكامل، ج ١٠، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، ٣٥١ - ٣٥٧، ٣٧٨ - ٣٩٧. ماري، ص ١٤٧ - ١٥٠. المنظم، ج ٩، ص ٥٥. البداية، ج ١٢، ص ١٣٧. خريدة المصر، ج ١، ص ١٣٢ - ١٣٤. شيخو، شراء، ص ٢٨٨ - ٢٩١.

(٣٧) حضرة الخليفة (قصره) وحضرت السلطان. أنظر I.GOLDZIEHER في مقالته Über Wiener Zeitschrift für die Kunde der Morgenlandes XIII (1899), p.329. Dualtitel

(٣٨) إلى الجنوب من محطة قطارات بغداد الشهابية اليوم.

(٣٩) الكامل، ج ١٠، ص ٢٤٠.

(٤٠) تجد أشعاره في الخريدة، ج ١، ص ١٣٥ - ١٤٠. شيخو، شراء، ص ٢٩١ - ٢٩٢ و ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٤١) عن دلالات هذه الكلمة، انظر: G.WIET, Soieries Persanes, p.38-39

(٤٢) الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٢. أفضل هذا التاريخ ١٠٧٣/٤٦٦ - ١٠٧٤ الذي يعطيه ابن أبي أصيبيعة في الصفحة ٣٤٣ من عيون الأنبياء.

(٤٣) ابن القسطي، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. المنظم، ج ٩، ص ١١٩، البداية، ج ١٢، ص ٤٩٤. MAKDISI, Ibn 'Aqil, p. 407-409

(٤٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٤٥) يوضح ابن العربي في تاريخ الزمان، ص ١٢٥، أن الشيخ أقنه: «بأن الاتّحاد الحبّي والأفونمي على زعم النساطرة لا يتّسّر تصوّره في الطبع الإلهي» وهذا أمر يوافق عليه ابن العربي طبعاً.

(٤٦) إلا أن تكون هي الرسالة التي ينسبها STEINSCHNEIDER إلى «يوسف اللبناني» في: Islamo-christiana, 4, (1978), p.249-250, no. 31.3 السسطوري على يوسف إسلامه من أجل أسباب مادية. فيرد عليه يوسف مظهراً فضل القرآن على الإنجيل لأسباب فلسفية ودينية. تجد ملخصاً لرسالة ابن جزلة، المكتوبة سنة ١٠٩٣/٤٨٥ في الوفيات، رقم ٨٢٢.

(٤٧) Ibn Aqil, p. 356-357, 366, etc مع مصادر.

(٤٨) وكان بعض «الوعاظ الكاذبة» يرتّب في مجلسه من يقوم ويُدعى أنه «رأي في النام سيد المرسلين» وأنه أسلم من جراء ذلك. أنظر الجبوري، كشف الأسرار، ط ١٢٠، ١٨٨٥/١٣٠٢، ص ٣٤ - ٣٥، والقصيدة الساسانية لأبي دلف الخزرجي (القرن ٩ - ١٠) تحقيق وترجمة The Medieval Islamic Underworld, The Banū Sāsān in Arabic C.E. BOSWORTH Society and Literature, 2 vol., Brill 1976, pp. 112, 196 (49) et (59), 296 (19) والحواشي . ٣١٥ - ٣١٤

(٤٩) ELISSÉÉF, Thèmes, p. 145. لم يسمح للرهبان أن «يرفعوا» جنة صبية نصرانية أسلمت، بلا شهود، على قبر عاشقها المسلم ثم ماتت ل ساعتها، لأن ذلك اعتبر من حق المسلمين.

- على درب عمورية أسلمت بلدة نصرانية بأسرها وكذلك عبد المسيح الراهب الديرياني الذي صار اسمه عبدالله الغريب، طبعة صبيح، القاهرة. د.ت. ج ٢، ص ٢٩٧ - ٣٠١.
- (٥٠) في كتاب التوأمين لابن قدامة المقدسي (ت ١٢٢٣/٦٢٠) نجد في «ذكر جماعة ممن أسلم» ثلاثة نصارى الأول هو أبو إساعيل الموصلي الذي هدته آية من القرآن الكريم والثاني شاب (يُدعى عبد المسيح؟) صاحب الحجاج إلى مكة والثالث طبيب نصري كوفي بالإسلام على ما تصدق به من إطعام فقير وصحبه الأربعين، كتاب التوأمين، تحقيق جورج المقدسي، دمشق، ١٩٧١، ص ٢٨١ - ٢٩٢.
- (٥١) من أسرة بني جهير القرية النفوذ، انظر مقالة كلود كاهن عنها في E.I.<sup>2</sup> II, p. 394-395 بعنوان Djahir (Banū) . وتضيّق طبعة بيروت للكامل في التاريخ الاسم بفتح الهاء: جَهِير (؟).
- (٥٢) في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة.
- (٥٣) ماري، ص ١٤٢.
- (٥٤) (١٠٩٢ - ١٠٧٢)، انظر E.I.<sup>2</sup>, III, p.225-226, par M. Th. HOUTSMA.
- (٥٥) سقط العدد «١٠» من «١٨» في نص ماري، ص ١٣٧، س ٢١. ويلحظ في خلاك حفل الرساممة سيامه الرئيس ابن الفتح سعد الله «بن نظام الملك»؟. عن مكيخا: ماري، ص ١٣٧ - ١٥٢، صليبا، ص ١٠٢، ابن العربي، ج ٢، العمود ٣١٠ - ٣١٢. توجد عناصر من الفصل الحاضر في مقالة لي بعنوان: Makkiha 1er et Ibn al-Wāsitī في Le Muséon, 91 (1978), p. 449-471.
- (٥٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٢١.

---

## ٢٨ - المستظهر (٤٨٧ - ١٠٩٤ / ٥١٢ - ١١١٨)

---

كان أبو العباس أحمد المستظهر بالله في السادسة عشرة من عمره لما خلف أبيه في ظل سلطنة بركيارق،<sup>(١)</sup> وبدأ خلافة دامت أربع وعشرين سنة «لم يكدر يؤق له في تاريخها السياسي على ذكر يُذكر»،<sup>(٢)</sup> وقد وزرَّ الملك بن نظام الملك للسلطان بركيارق. أمّا وزير الخليفة فكان، في بداية الخلافة، عميد الدولة أبو منصور بن جهير التغلبي الذي ورثه الخليفة الشاب عن أبيه المقتدي.

في العام نفسه، أي ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، قتل طبيب مشهور يُدعى أبو نعيم (أو نعيم؟) بن ساوا الواسطي الذي يرجح أن يكون نصرانيًّا نظرًا إلى اسم أبيه. ولا نعلم شيئاً عن ظروف مصرعه ولا هل كان ذلك قبل خلافة المستظهر أم خلاها.<sup>(٣)</sup> في العام التالي هدم فيضان دجلة جدار قصر الخلافة من جهة الحرير، وقد أوقفت الحروب بين سلاطين السلاجقة أعمال الترميم، وكانت بغداد تصبح نوبة ليوسف بن آبق التركماني من أمراء تاج الدولة تُشن<sup>(٤)</sup> الذي اكتسح المنطقة المجاورة.

### نزاعات داخل الكنيسة

لن أعيد هنا ما قلته في موضع آخر<sup>(٥)</sup> عن السجال الكنسي الذي نشب بين مكيخا الجاثليق وابن الواسطي الراهب المتطلب، والذي انتهى (في العام ١٠٩٧) بحرمان ابن الواسطي ثمّ بما أنزله الجاثليق به من عقوبة العمى «بمعجزة»، وهي عقوبة تعدّ طفيفة إذا ما قيست بما أظهره مكيخا، في أحوال أخرى، من مقدرة رهيبة على تعجيل آجال أعدائه بالدعاء عليهم.



«وما أخلَّ بحرف واحد». ولما كان من غد ذلك اليوم ومثل ابن الواسطي بين يدي مولاه أحب الخليفة أن يستثبت منه صحة زعم الجاثليق فسأله: «أنت إذا ما صلَّيت تذكر في صلاتك الجاثليق فقال نعم. وقال له: ما يصح أن تخلَّ بها؟ فقال ما يجوز...» فلما سمع الخليفة إقرار المذنب، أحس بأنه قد حشر نفسه في قفير النحل، فصرف الطبيب قائلاً: «إذا كان لا يجوز إلا أن تذكر اسمه في صلاتك فأيُّش يدخلنا نحن بينكم، ولا يجوز أن تخالفه؟» ثم وجه في الحال ورفع الحراسة عن الجاثليق، فأطلق سراحه فعاد إلى دار الروم «وطاب قلبه».

كان ابن الواسطي حتى ذلك التاريخ قد انزوى في كنيسة الأصلية بمحلة العتيقة، حيث استمر في إقامة الصلوات وتوزيع القربان على جماعة من أصحابه مستهترًا بأمر الحرمان.

وقد توسط الوزير في مصالحة الرجلين، فاستدعاهما إلى داره، وأمر ابن الواسطي بأن يقبل يد الجاثليق، فاكتفى الجاثليق بهذا القدر، ولم يطلب منه أكثر ليرفع الحرمان.

ولم يطل الوقت حتى حلَّ عيد كنيسة العتبة<sup>(١٠)</sup> «في منتصف الصوم الملاياني»، فترأس الجاثليق الاحتفال واحتجب عنه ابن الواسطي. إلا أن القس الطبيب حضر يوماً مراسم دفن بعض أعيان النصارى حيث واجه الجاثليق فقبل يده حسب العادة، ولكنه لم يلبث أن غادر المكان. بعد ذلك نجده في كنيسة رعيته بسوق الثلاثاء.

## ملك الفرنج بيت المقدس

في حوالي هذه الفترة، أي في العام ٤٩٢/توز ١٠٩٩، استولى الصليبيون على بيت المقدس وأعملوا السيف والسيف في أهلها وركبوا شتى صنوف الفظائع حتى في حرم المسجد الأقصى. ولما بلغ الخبر إلى بغداد بكى الناس بالمدينة كلها، وهب خطباء المساجد كلَّهم يستنهضون المؤمنين إلى الجهاد<sup>(١١)</sup>. ولكن ثمة أمر حري بالانتباه: لا ذِكر لأية حادثة ضد النصارى لا في تواريخ المسلمين ولا النصارى. وهذا من الأمور التي لا بد من ذكرها.<sup>(١٢)</sup>

ويجدر بنا في هذا المجال أن نلاحظ مع E. SIVAN (١٣) «أنَّ الجهاد لم يكن له، طوال القرن الثاني عشر، أيَّ تأثير في أحوالِ أهلِ الْذَّمَّةِ إلَّا إِبَانِ حصارِ أنطاكية (١٠٩٨) وحصارِ حلب (١١٢٤)».

وقد تغير موقف عامة المسلمين في العهد الأيوبى في مصر بخاصة، إِبَانِ فتنيَّةِ ١٢١٩ و١٢٤٢. في الفتنة الأولى، يبدو أنَّ الملك الكامل كان يوافق على ما جرى من تعديات توقع منها أن تخلى جُواً مؤائياً لجمع المتطوعين للقتال في دمياط، أمّا في الثانية فقد عاقب صلاح الدين مثيري الفتنة. وقد اندلعت، في دمشق سنة ١٢٥٠ وبعد أيام من استسلام القديس لويس، «هبة محدودة» أخرى من تلك الهبات «التي تظهر في لحظات الهياج الشديد»، فقد انقلب الجماهير المسلمة النشوانة على النصارى المحليين الذين ربما كانوا قد سُودوا وجوه أصنامهم في كنائسهم حزناً على هزيمة الفرنج. (١٤) لذلك نفهم أن يكون المسلمون قد رُدُوا على ما اعتبروه استفزازاً.

في هذه الحالات كلها كانت الفتن تعبيراً عن ارتياح (ربماً) كان له ما يسوغه أحياً من تعاون النصارى مع العدو، أمّا العامل الفعال فهم عامة المدن الكبرى يقودهم غالباً خطباء أو وعاظ متشددون، ولسنا، إذَا، أمام حملات اضطهاد تنظمها السلطة. ويؤكّد هذا الأمر ما يبدو من تأسف ابن القيم (القرن ١٤) على تساهل الملوك، إذ يقول: «لو علم ملوك الإسلام بخيانته النصارى الكتاب ومكتابتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنّهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان لثاهم ذلك عن تكريهم وتقليلهم الأعمال». (١٥) ولكن الحقيقة أنَّ «ملوك الإسلام» كانوا على بينة من واقع الحال وكانوا يعرفون أنَّ هذه الاتهامات كانت باطلة في معظم الأحيان.

لذلك لم يتغيّر الموقف المبدئي لفقهاء ذاك العصر من جراء الحملات الصليبية. فقد ظلّوا يميّزون بين الموقف من نصارى الداخل وبين الموقف من نصارى الخارج، حتى إنَّ رجلاً من أكثر الناس حمية للجهاد، مثل موفق الدين بن قدامة (ت ٦٢٠/١٢٢٣) قد أفتى بوجوب رعاية ذمة أهل الْذَّمَّةِ. (١٦) ولكن، لنعد إلى بغداد.

## فتنة أخرى

إن تاريخ حرمان ابن الواسطي (١٠٩٧) ومثله ظروف هذا الحرمان تجبرنا على تمييز قضيته هذه عن أزمة أخرى، أشد منها غموضاً، أدت إلى إبعاد الجاثليق عن مقره لفترة قصيرة.

كانت مدينة الحلة إمارة يحكمها الغساني سيف الدولة<sup>(١٧)</sup> صدقة بن مزيد وكانت الملاذ العادي، في ذلك العصر، لكن تضطّرّه الظروف إلى الابتعاد عن بغداد كما رأينا من قبل عند الكلام عن بني الموصلايا.<sup>(١٨)</sup>

ولما سُخطَ على مكيحا الجاثليق أراد أن يستجير بأمير الحلة العربي الذي كان الخليفة يحتاج كثيراً إلى قوّته ليصون هيبة الخلافة في وجه سلاطين التركمان وأمرائهم. بيد أنَّ رجلاً يُدعى ابن حبشي<sup>(١٩)</sup> اعترض على ذلك وحمله على مغادرة الحلة. لا ريب أنَّ مكيحا قد استنزل الغضب الإلهي على غريمه، فانهدمت داره. ولكن الجاثليق اضطرَّ إلى التفتيش عن ملاد آخر.

هل اندفع عندئذ جنوباً حتى وصل إلى بلدة النيل؟<sup>(٢٠)</sup> هذا ما لا نستطيع البُثُّ فيه. وفي أثناء انتباذه من بغداد حاول الحزب المناوي له، في طائفته نفسها، أن يستقدموا يشوع يهوب مطران نصبيين لينصبُوه جاثليقاً بدلاً منه. أمّا مكيحا الذي كان غادر بغداد لتوجه إلى الحلة، فقد كان بالمدائن، على بعد ٣٥ كِيلومِترَّاً بـلغة الخبر، فأقبل يصلّي. ولما نهض من صلاته قال: «قضيت الحاجة ومات الرجل»، يعني المطران. وكان هذا قد توقف في طريقه من نصبيين إلى بغداد، عند دير مار ميخائيل قبل دخوله الموصل، أي على مسافة أربع مئة كِيلومِترٍ ونِيَفٍ من الموضع الذي كان فيه الجاثليق، فمات هناك.

أمّا مكيحا فقد رجع، بعد مدة من النيل إلى بغداد. ولن أعود هنا إلى كراماته «الانتقامية»<sup>(٢١)</sup> (فتحَ ست جثَّ مسجَّلة في ملفه) ولا إلى مصنفاتِه المكتوبة، فقد درس هذان الأمران في مقالة Le Muséon المذكورة آنفًا.

### عود إلى ابن الواسطي

هل كان لطبيب الخليفة ضلع في أزمة ١١٠٤ - ١١٠٥ الجديدة وإبعاد

الجائيليق مؤقتاً؟ على آية حال حصل ابن الواسطي سنة ١١٠٥ (في ٢٩ آذار تحديداً)<sup>(٢٢)</sup> «لقربه من الخدمة الشريفة الإمامية المستظهرية»<sup>(٢٣)</sup> وخدمته للجوانب المحترمة وأفعاله «المرضية الحسنة» على إعفاء النصارى ببغداد من لبس الغيار.

بهذا العمل كان الطيب يحقق نبوءة مكيخا بأنه سيؤدي خدمات جليلة للنصارى، ولكن توقيت هذه الخدمة يربكنا. لما كان أمر العفو لا يوافق تغیر الخليفة ولا تبدل الوزير (كان قوام الدولة في الوزارة منذ أيار - حزيران ١١٠٣) فقد يجوز لنا الظن أنّ الطيب قد أجل تدخله متعمداً (لأنّ لبس الغiar كان مفروضاً منذ ١٤ عاماً) ليتنفس نفوذه (؟) أو ربما اختار زمن السخط على الجائيليق ليبيّن أنه أقدر منه على التأثير في مصير جماعة النصارى؟ آية تكن الحال، فإنّ ماري المؤرخ يختصص ما يقارب الصفحة (وهذا نادر جداً) للثناء علىمناقب القس المتطيّب «الذي كان أujeوبة زمانه». وهو يذهب إلى حد امتداح إخلاصه في «العمل بالترتيبات البعية» (؟) والدفاع عن العقيدة (النسطوريّة) القوية ضدّ «الفرق المبائية» أي ضدّ اليعاقبة والموارنة،<sup>(٢٤)</sup> تحديداً.

تدل إشارة من ابن الأثير<sup>(٢٤)</sup> ترد تحت العام ١١٠٨/٥٠١ على أنّ مجد الدين أبا المعالي هبة الله بن المطلب<sup>(٢٥)</sup> كان، في ما روی، يكثر من استعمال الذميين في دواوينه. ولما كانت عليه مأخذ أخرى طلب السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى من الخليفة عزله. ثمّ لمّا عدل السلطان عن موقفه، لأسباب نجهلها، وسمح للخليفة باستعادة وزيره، شرط عليه شروطاً منها: «العدل وحسن السيرة وأن لا يستعمل أحداً من أهل الدقة». ربما كان من المقيد أن نعرف من أين جاء الضغط لفرض الشرط الأخير. فمن المستبعد أن يعزى ذلك إلى قرار مباشر يصدر عن السلطان، لأنّه لم يكن له من العمر إلا ستة وعشرين عاماً ولأنّ الوزير عمل في خدمته هو من بعدما عزل من منصبه.

### موت مكيخا وخلافته

مات مكيخا من بعدما عاد إلى دار الروم يوم الأربعاء ١٢ شعبان ١١٠٩ آذار ١١٠٩. ولا تذكر المصادر شيئاً عن ظروف وفاته ولا عن سنّه يومئذ.

أما ماري الذي لم يزل متنازعاً بين إعجابه بابن الواسطي وبين خشيه من هيبة مكيخا (تراه يترحم على كلّ منها كلما أتى على ذكر اسم أي منها) فيختصر سيرة حياة الجاثليق بكلمات قلائل: «وما عرف له أمر يكره لا في صباح ولا في رهبنته».

وبعد وفاة مكيخا شغر كرسى الجاثلقة مدة سنتين من دون أن تذكر المصادر النصرانية سبباً لذلك. ولا سبيل إلى استقراءه من المصادر الإسلامية التي لا تتكلّم في تلك الفترة إلاّ عن وقائع الحرب مع الصليبيين وتبدل الوزراء. ولا خبر أيضاً عن تفاصيل انتخاب خلفه.

XXVIII كان إيليا بن المقلّي<sup>(٢٦)</sup> مطران حزة والموصل، ولم يبرز إلاّ يوم سيامته في ٥ شوال ١٦٥٠/٤ نيسان ١١١١. وكان في مقدمة الأعيان النصارى الذين حضروا سيامته القسّ «الأجل» أمين الدولة موفق الملك أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم الغياثي المعروف بابن التلميذ، ساعور البيمارستان العضدي،<sup>(٢٧)</sup> ومعه زعماء الطائفة وجمهور النصارى.

نرى هنا واحدة من أشهر أسر الأطباء النصارى. وكان الذي صادفه الآن ينتمي إلى بني غيث عن طريق أمّه، وكان يتقن السريانية واليونانية والفارسية والعربية، وصنّف تصانيف كثيرة في الطب<sup>(٢٨)</sup> ونظم قصائد عدّة (وكان يكاتب مرضاه نظمه).<sup>(٢٩)</sup> وكان له ابن، هو رضيّ الدولة أبو نصر، مات مخنوتاً في بعض دهاليز داره. وقد عمر أمين الدولة حتى أدرك جاثلقة يشوع يهب البلدي<sup>(٣٠)</sup> سنة ١١٦٤/٥٥٩، وكان آنئذ يناهز المئة عام.<sup>(٣١)</sup>

إلى الأسرة نفسها كان يتسبّب طبيب شاعر آخر مشهور هو معتمد الملك (أو معتمد الدولة) أبو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ،<sup>(٣٢)</sup> الذي عاش حتى آخر خلافة المستظرifer (حوالى ١١١٨/٥١٢) وكان له تلاميذ كثُر في الطب، وأقام فترة في أصفهان. وقد أسلم المجد بن الصاحب،<sup>(٣٣)</sup> ابن أمين الدولة قبل وفاته أبيه، وهو الذي ورث أموال ابن عمّه المغدور وكتبه (حمل اثنى عشر جلاً).

لا يجوز لنا الكلام عن هؤلاء الأطباء النصارى من غير أن نلمح إلى

المنافسات التي كانت تستشرى بين جماعات أو أسر الأطباء. من ذلك أن أمين الدولة هبة الله بن التلميذ كان عرضة لافتراءات طبيب يهودي يُدعى أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكاً كان يشاطره خدمة الخليفة المستضيء. ولما بَيَّن التحقيق الذي أمر الخليفة بإجرائه بطلان الافتراءات غُزِّل ابن ملكاً وأُبعد من الخدمة. وقد أسلم بعد مدة، ونجد في ما بعد في خدمة الخليفة المستتجد. (٣٤)

للحظ عابرين أنه نظرًا إلى الجو العام المؤاي الذي أوجده المستظهر، ونظرًا إلى الجو المحلي المتسامح في ظل ولاية خصيّ أرمنيّ الأصل هو مجاهد الدين، (٣٥) توصل المفريان ديونيسيوس موسى، بعد سنة ١١١٢، إلى أن يستحصل من الخليفة على الإذن بإعادة عمارة كنائس تكريت المهدمة، أو على الأقل تلك التي ظلت في يد النصارى منها. والظاهر أن ذلك لم يحرّك دواعي العاقبة للعودة إلى المدينة التي هربوا منها، ولم يبق (ولأجل قصير) إلّا جماعة صغيرة من النصارى في ما كان يعد مركز القطاع الشرقي من الكنيسة السريانية المغربية. (٣٦)

مات الخليفة المستظهر سنة ٥١٢/آب ١١١٨، عن واحد وأربعين عاماً، ولي الخلافة فيها مدة أربعة وعشرين عاماً. (٣٧) ويُثني ابن الأثير عليه بقوله: «وكانت أيامه أيام سرور للرعية، فكانها من حسنها أعياد». . . على آية حال ربما كان هذا صحيحاً حتى بالنظر إلى النصارى، بعد أيام أبيه.

## الحواشي

(١) E.I.<sup>2</sup>, I, p. 1083-1084, s.v., par CL. CAHEN.

(٢) الصفدي، الواقي، ج ٧، ص ١١٥٧، الرقم ٣٠٤٣، E.I.<sup>1</sup> III, p.825-826, s.v. par K.V. ZETTERSTEEN.

(٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٤، ٢٥٥.

(٥) Le Muséon, 91 (1978), p.449-471.

(٦) هذا، مع الأسف، الخبر الوحيد الذي يرويه عنه ابن أبي أصبيعة. وبكتنا نجد في مصادر أخرى أن أبي سعيد المعوج صاحب الديوان والمظفر بن الدواطي الحاجب، ورجل ثالث يُدعى الركابي يتكلّفون الذهاب لزيارة الطبيب في داره.

(٧) ويدهب ماري (ص ١٥١) إلى أنَّ هذه الدار «كانت مقطوعة الدرجة» (للتأكد من استحالة هرب السجين منها؟).

(٨) يقول PAYNE SMITH في معجم Thesaurus ، ص ٥٢١ - ٥٢٢، مستشهاداً ببر علي، أنَّ الشذوذية هي كالبرنس. ومعلوم أنَّ البرنس القديم كان أقصر من البرنس المعروف اليوم، إذ كان يقتصر على تعطية الرأس والكتفين.

(٩) نذكر أنَّ المتصور كان يُعدُّ صلاة الأخبار مستجابة وغير مأمونة العواقب.

(١٠) لا ذكر لهذا العيد في قائمة أعياد أديرة بغداد التي يوردها الشاشتي في الديارات الطبعة الثانية، بغداد ١٩٦٦، ص ٤ - ٣، إلَّا أنَّ يكون هذا هو دير الزريقية الذي لا يعرف عنه شيء، والذي كان عليه يقع يوم الأحد الثاني من صوم النصارى الكبير، حوالي سنة ١٠٠٠ للميلاد.

(١١) البداية، ج ١٢، ص ١٥٦، على رواية ابن الجوزي. ربما دعانا هذا إلى التخفيف من حدة قول S. RUNCIMAN : «كان من شأن هذا التعبير عن التعصب المسيحي الدموي أن يولد

History of the Crusades, I, p. 287.

(١٢) يلاحظ كلود كاهن بحقه: «أنَّ مصير النصارى المقيمين داخل مملكة السلاغقة قد ظلَّ من دون تغيير. فقد راعى السلاغقة، ورثة التقاليد الإسلامية السنّية، عهد النزعة الشرعية الذي منحته دولة الإسلام لرعاياها غير المسلمين»، في An Introduction to the First Crusade Turcobyzantina et Oriens Christianus, Variorum Reprints, Londres, 1974, B. p. 9.

L'Islam et la Croisade, p.180-181, Chrétiens sous les Ayyoubides, p.124, 129-30. (١٣)

(١٤) أبو شامة، ذيل الروضتين، تحقيق الكوثري ، القاهرة، ١٩٤٧ ، ص ١٨٤ ..

(١٥) ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(١٦) ابن رجب، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق الفقئي ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(١٧) لقد بينَ جورج المقدس في: Notes on Hilla, p.249-59 أنَّ المدينة كانت قائمة قبل سيف الدولة الذي ربطها باسمه وزينها، وأنَّ بداية السلالة يجب أن ترقى إلى الأعوام ٣٤٥ - ٣٥٠ (ص ٢٥٩ - ٢٦٢).

(١٨) يقدِّمُ الكامل، ج ١٠، أمثلة عدَّة منها: زعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير سنة ١١٠٣ ، قبل أن يصير وزيراً بلقب قوام الدولة (ص ٣٦٦). سعيد، الوزير المعزول سنة ١١٠٣ أيضاً (ص ٣٧٧). الوزير أبو القاسم، من جديد سنة ١١٠٨ (ص ٤٣٨) إلخ. ويقول ابن الأثير هنا: «وكان [دار سيف الدولة] ملجاً لكل ملهوف». وقد استمرَّ ديس بن صدقة، وكان من أجود أهل الأرض، في القيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به أبوه، حيال أبي الحسن أخي الخليفة المسترشد، مثلاً. انظر مناقب المدينة، في هذا الشأن في كتاب الفخراني لابن الطقطقي، ص ٣٠٢.

- (١٩) نجد في الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٠، بعد ستين من هذه الحادثة رجلاً يُدعى حبشي بن جكرمش كان يملك على جزيرة بن عمر. هل الشخص المذكور هنا هو نفسه؟
- (٢٠) صليباً، ص ١٠٢، (أثر المسيحية) Assyrie Chrétienne, III, p.252. وكان سرجيس أسقف نفّر والنيل والنعمانية قد حضر سيامته.
- (٢١) واحدة فحسب من هذه الكرامات تتعلق برجل غير نصراني، بأمير تركي أقطع على ناحية السالمية بالخالص، فاستولى على بعض ضياع الجملقة. فلما ضربه المرض اعتذر عما بدر منه ورَدَ المال فشفاه الجنائز.
- (٢٢) وفي هذا رد على سؤال جورج مقدسي الذي يقول (Ibn 'Aqil, p161): «إن المؤرخين في حيرة من تفسير سبب» عفو الخليفة... المتنظم، ج ٩، ص ١٤٣. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤.
- (٢٣) لا يذكر وجود هؤلاء في العراق إلا نادراً. وعلى الضد من ذلك، لا كلام هنا عن المكاكنة الذين نصادفهم كثيراً في مواضع عده.
- (٢٤) الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٤.
- (٢٥) وزير من المحرم ٥٠١ / آب - أيلول ١١٠٧ حتى رجب ٥٠٢ أو ٥٠٣، الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٨، ٤٧٠، ٤٧٨.
- (٢٦) ماري، ص ١٥٢ - ١٥٣، صليباً، ص ١٠٢ - ١٠٤.
- (٢٧) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٤٩ - ٣٧١. شيخو، شعراء، ص ٣١٥ - ٣٣٤ و ٣٩٤ مع مصادر. وكان باب داره بسوق العطر إلى جانب الباب الغربي لقصر الخلافة في الشارع الذي ينزل إلى شاطئ دجلة.
- (٢٨) له رسالة في الدفاع عن الإيمان المسيحي في خطوطه فريدة هي خططه: Diarbékir 193 (Catal. A. SCHER, dans J.A., Nov. Déc., 1907, p. 414-415) New Finds of Syriac Manuscripts in the Middle East, ZDMG, sup. I, vol. 2, 1969, p.480.
- (٢٩) ومن هؤلاء «المكاكنة» الكاتب النصراني جمال الرؤساء أبو الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد البغدادي، شيخو، شعراء، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.
- (٣٠) صليباً، ص ١٠٦.
- (٣١) فقد كان يجلس مذ كان يزور الخليفة المقaldi، بسبب علو سنه، ابن العربي، المختصر ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
- (٣٢) شيخو، شعراء، ص ٣١٠ - ٣١٤ و ٣٩٤.
- (٣٣) المرجع نفسه، ص ٣١٨.
- (٣٤) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٧٤ - ٣٧٦.
- (٣٥) ابن العربي، ج ٢، العمود ٣١٨.

(٣٦) يمبل المؤرخون من مغاربة السريان الذين يروي عنهم ميخائيل السرياني (ج ٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧) إلى التشاوُم في ما يتعلّق بهذه الحقبة: من ذلك أنَّ ديونيسيوس بن صليبي أسقف آمد يتحدّث عن «أيام الاضطراب التي نعيشها»، ومنه ما يكتبه يوحنا أسقف كيسوم: «ال أيام منهكة، وقد ألم بجيلا وهن عظيم لأن جماعتنا السريانية كلها قد هلكت وسُحقت ». (٣٧) الكامل، ج ١٠، ص ٥٣٤ - ٥٣٥. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣٧ .

---

## ٢٩ - المسترشد (١١٣٥ - ١١١٨ / ٥٢٩ - ٥١٢)

---

بدأ أبو منصور الفضل المسترشد بالله<sup>(١)</sup> بن المستظهر، سنة ١١١٨/٥١٢ خلافة دامت قرابة ثانية عشر عاماً، استهلت منذ بدايتها بشعار الإصلاح. فقد أمر بكسر جرار الخمر التي كانت لأبيه، وطرد المغنيات والغنيين.<sup>(٢)</sup> على إثر حلم تراءى له فيه أن أباه ينذره بالابتعاد عن قبره لثلاً يحيط به إليه، استولى على قصر أبي طاهر يوسف بن أحمد الحزّي صاحب المخزن، من بعدهما ألقى القبض عليه، فوجد فيه «كنيسة ومذبحاً وألة هم» فلما سُئل صاحب المخزن عن ذلك حاول أن يتنصل من التهمة قائلاً: «لي امرأة نصرانية قد عملت ذلك من دون علمي».<sup>(٣)</sup>

في العام ١١٢١/٥١٥ نشهد أمراً، صار مألفاً بعد ذلك، ألا وهو التهديد بفرض الضرائب المميزة من أجل ابتزاز أهل الذمة، واعتصار المال منهم.<sup>(٤)</sup> أما صاحب هذه الفكرة الرائعة فكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه.<sup>(٥)</sup> إقترح الذمّيون على السلطان صيغة مربحة من بعدها هددوا بلبس الغيار: فقد تقدّموا بدفع مبلغ من المال قبل السلطان عشرين ألف دينار وخصص أربعة آلاف أخرى لل الخليفة.

يمدّر جورج مقدسي من المبالغة في التبسيط التي ينطوي عليها القول إنَّ الخليفة كان يقوم بدور «حامِي الذمة في وجه السلطان»: إذ قد رأينا أنَّ الخليفة نفسه قد أخذ حظه من المال الذي دفعوه.<sup>(٦)</sup>

ويذهب الباحث نفسه إلى استنتاج عام<sup>(٧)</sup> يبدو صحيحاً في معظمها، وإن كان لا بدّ لنا من التمييز بين السلاجمة أنفسهم وبين البعض من وزرائهم كنظام الملك،

الذى تعرّفنا إليه مثلاً. هاكم ما يقول جورج مقدسي: «لم يكن الحكام السلاجمقة يتحلّون بالتسامح حيال الأقليات الدينية، بل بعدم الاعتزاز». <sup>(٨)</sup>

«أما سوء المعاملة الذى كانت هذه الأقليات تتعرّض له أحياناً فيعزى إلى المكانة الاجتماعية الفعلية الرفيعة التي كان يتمتّع بها اليهود والنصارى بسبب دورهم الإداري أو المالي لدى الحكام. ولم يكن العلماء وهم لسان حال الشعب، يلاقون من الحكام أذناً صاغية لدعواهم ضدّ الأقليات إلاّ كلما كان هؤلاء الحكام يجدون مصلحتهم في الإصغاء. فمن ذلك أنه كلما احتاج الحكام إلى المال لم يكن عليهم إلاّ تهديد الأقليات بتطبيق القيود، فيحصلون على المال. على آية حال لم يكن الموظّفون المسلمون أنفسهم بمنجاة من مصادرات الحكام. وقد عانى اليهود والنصارى من المصادرات نفسها بوساطة هذه الأساليب. كان بذل الأموال يبطلفائدة تطبيق القيود التي كانت لا تميّز بين اليهود والنصارى. كان كلّ من يقدر على دفع الأموال يعاني أكثر من غيره، سواء أكان من النصارى أم من اليهود، ولم يكن لاعتبارات الدينية أي مدخل في هذا الشأن. لم يكن اليهود يخضعون لهذه التهديدات من حيث هم يهود، بل من حيث هم يملكون المال، مثلهم في ذلك كمثل الوزراء والعمداء والشحّنات والتجار، وذلك كلما احتاج الخليفة أو السلطان إلى المال».

الأغلب أنها كانوا بحاجة إليه في العام ١١٣٠/٥٢٥، إذ إنه قد أعيد فرض القيود على الذمة مجدداً. <sup>(٩)</sup>

وفي نهاية العام ١١٣١/تشرين ٥٢٥ مات الجائليق إيليا الثاني بن المقلوي عن جثّة دامت واحد وعشرين عاماً وسبعة أشهر. وكان هذا «الشيخ الفاضل العالم الماهر» الذي لا نعرف عنه إلاّ النذر اليسير، «قد حكم بالحقّ والنصفة بين القوي والضعف والغني والفقير».

إبن الواسطي جائليق منتخب  
لا نعرف شيئاً عما حلّ بالقسّ المتّبّع بعد وفاة الخليفة المستظهر سنة

١١١٨، ولا في أثناء جثلقة إيليا الثاني خلف مكيخا. فقد دامت المفاوضات في ما بين أعيان العلمانيين والمطارنة المسيمين، بشأن اختيار خلف لإيليا، منذ وفاته في تشرين ١١٣١ حتى أوائل حزيران ١١٣٢. وعندها وقع الاتفاق على ابن الواسطي، فكتب له الشلموثر وحمل إلى داره بسوق الثلاثاء. وبعد موعدة عَرَّ فيها (حسب الأعراف) عن عدم استحقاقه هذه الرتبة الرفيعة خلص إلى القبول، فترك منصبه وتطبيبه واعتكف في كنيسة محلته بالعتيقية في غرب بغداد.

ولكن الأقدار ما شاءت أن يُسام ابن الواسطي جاثليقاً. فقد ألت به وعكة بعد ثلاثة أيام وانتابته الحمى، ثم أخذته بعد أسبوع، فمات يوم الاثنين ١٠ حزيران ١١٣٢، بعد ثلاثة وعشرين عاماً من وفاة خصميه مكيخا. وقد دُفن في كنيسة محلته خلف البيم، إلى جانب والده. ويقول ماري عنه كما قال عن مكيخا، قبل الترجم علىهما: «وما عرف له أمر يكره لا في صباه ولا في رهبنته».

## برصوما الأول

XXIX جاء بعد إيليا بن المقلوي برصوما أسقف «مرعيث» ثالين حيث نزل نوح، في ما يروى، من السفينية ومعه صحبة الشهانون. وكان برصوما رجلاً زاهداً ورعاً تقىً مشهوداً له بحسن تدبير رعيته،<sup>(١٠)</sup> كما كان معروفاً برأوه الصادقة.

لا تفاصيل لدينا عن انتخابه إلاً منذ جاء لِيُسام جاثليقاً ببغداد حيث كان قد نزل بدار أبي الفضل بن داود الكاتب بالبادرية. وفي الثامن من شوال ٥٢٨ / الأول من آب ١١٣٤ استقبله شرف الدين علي بن طراد الزيني، وزير الخليفة المسترشد منذ سنة ٥٢٢،<sup>(١١)</sup> فخلع عليه طرحة<sup>(١٢)</sup> ودفع إليه عهد الخليفة بإقراره جاثليقاً، ثم عاد برصوما في موكب من الحجاب وفرسان الأتراك إلى كنيسة سوق الثلاثاء. وبعد ثلاثة أيام، في ١١ شوال / ٤ آب، جرت رسامته بالمدائن على ما جرت به العادة.

إنتهت جثلقة برصوما القصيرة (أقل من سنة ونصف) في خضم من الصعوبات. نهيت قلية دير الروم وكنيسته، وأخذت الكتب السريانية والعربية

والآثار كله لأن الجاثيلق لم يكن قادرًا على تلبية المطالب الباهظة المتذرعة بأتفه الأسباب. تراكمت عليه الديون ولم يكن له مال ليدفع، فتمنى الموت وحنّ في حزن إلى أيامه في نصيبين حيث كان ينعم بالهدوء والاعتبار. فغادر دار الروم ولاذ بكنيسة سوق الثلاثاء مختبئاً، ثم مات هناك في ربيع الآخر ٥٣٠/كانون الثاني ١١٣٦. <sup>(١٣)</sup>

قبل ذلك بأشهر قلائل، في ذي القعدة ٥٢٩/آخر أيلول ١١٣٥، قتل الخليفة المسترشد <sup>(١٤)</sup> غيلة في حبس السلطان مسعود، ومثل بجثته وكان له من العمر ٤٠ عاماً وولي الخلافة أقل من ١٨ عاماً. <sup>(١٥)</sup>

## الحواشي

(١) البداية، ج ١٢، ص ١٨٨ - ١٨٩ E.I<sup>١</sup>, III, p.824, par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) نقرأ في تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٢١: «وقد وقعت على العرب بللة واضطراب حتى صاروا يقولون: هؤلاء من نصيبيهم الناس أمراء للمؤمنين يغتصبون في المحرامات. ولا عجب بعد هذا أن يزول الملك من يد العرب». <sup>(١٦)</sup>

(٣) الكامل، ج ١٠، ص ٥٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٩٥، المتنظم، ج ٩، ص ٢٢٨.

E.I<sup>١</sup>, III, p.138-139, par M. Th. HOUTSMA

(٥) *Ibn'Aqil*, p.147

(٦) المرجع نفسه، ١٦١ - ١٦٢.

(٧) وفي وسعنا تأييد هذا إذا رجعنا إلى ما يكتب ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٢٢: «إن الترك... الذين لا يفهون شيئاً من الأسرار المقدسة ويعذّبون النصرانية ضلالاً لأجل ذلك، لم يكن من عادتهم الاستخار عن العقائد ولا اضطهاد أحد بسبب عقيدته كما كان يفعل الروم الأشرار المهاطين». ويشهد O.TURAN بهذه الفقرة ليبرز «التفهم الواسع» و«التسامح» الذي تحلى به الترك «حيال الأعراق والأديان الأجنبية» (ص ٦٥ - ٦٦). ويرى هذا المؤلف أن كل «المفروقات» التي قد تقع عليها في ذلك العصر، إنما كانت تحصل خارج بلاد الأناضول، أي خارج قلب المملكة السلجوقية.

(٨) المتنظم، ج ١٠، ص ٢٠, p.161

(٩) ماري، ص ١٥٣ - ١٥٨. صليباً، ص ١٠٤ - ١٠٥. ابن العربي، ج ٢، ص ٣٢٨.

(١٠) الكامل، ج ١١، ص ٢٦.

- (١٢) دوزي، المعجم المفصل، ص ٢١٢.
- (١٣) وقد مات بذات الرئة على قول ماري. أما ابن العربي فيروي في تاريخ الزمان، ص ١٤٧، تحت العام ٥٢٩ (؟) وفاة جاثليق النساطرة ويسميه «برجبارا» (بدلًا من برصوما). وهو على هذه الرواية قد خرج إلى البستان ليلاً فوطئ حيّة فلدغته. وذكر بعضهم أنّ الحية لم تلدغه لكن الرعب قضى على حياته».
- (١٤) ثمة روايات أخرى عند ابن الطقطقي، ص ٢٤٣. ويقول هذا الكاتب إنه رأى قبر الخليفة في مراغة سنة ٦٩٧/١٢٩٨.
- (١٥) الكامل، ج ١١، ص ٢٧ - ٢٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣٧.

---

## ٣٠ - الراشد (١١٣٦ - ٥٣٠ / ١١٣٥)

---

كان أبو جعفر المنصور الراشد بالله، بن المسترشد صنيعة من صنائع الوزير شرف الدين علي بن طراد الزياني،<sup>(١)</sup> وكان في الثانية عشرة من عمره لما أخذت له البيعة بالخلافة. وقد استمرت في خلافته القصيرة المناوشت بين الأمراء، ولم يطل الوقت بال الخليفة الصغير حتى فرّ من بغداد هرباً من السلطان مسعود.

وقد اجتهد في توجيه الفتاوى في خلعه، فكان من جملة ما نقم عليه: «أنه خرق حرجه جواري أبيه وشرب الخمر وترك الصلاة ولعب بالكتاب وتمادي في الظلم والعدر وسفك الدماء الركيبة».<sup>(٢)</sup>

مضى الخليفة الصغير المخلوع إلى الموصل أولاً حيث أنزله عباد الدين زنكي في ضيافته إلا أنه ما لبث أن قُتل غيلة بظاهر أصفهان.<sup>(٣)</sup>

لا تأتي المصادر على ذكر النصارى الذين عانوا، كغيرهم، من جور العساكر المتخالفة، ومن انعدام الأمان بين معركتين، إذ كان العيارون ينطلقون ويعيشون في الأرض فساداً.<sup>(٤)</sup> لذلك نفهم لمَ عجز برسومها الجاثية عن دفع الإتاوات التي طلبت منه كلها، ولم يكن في وسع الأقلية النصرانية، خلال تلك الفترة المضطربة، إلا الاحتماء ببعض زعماء العصابات من «فتوات» الحي وتلبية طلباته كلها.

## الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ٤٢ - ٤٣، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣) الكامل، ج ١١، ص ٦٢ - ٦٣. يلاحظ ابن الأثير في هذا الشأن أنَّ كلَّ سادس من الخلفاء كان يخلع ورئاً يقتل، ويورث قائمة بذلك.

(٤) الكامل، ج ١١، ص ٤٥. وبعدهم محمد أركون في كتابه عن مسكونيه، ص ١٦٤ «من الطبقات الخطرة... المؤلفة من صغار الناس المستبعدين غالباً من الوظائف ومن كل مشاركة متنظمة في مكاسب الحياة... [وهم] الستد الاجتماعي الفعال للحنابلة والشيعة المناضلين».

أما Two Statesmen of Medieval Islam، Herbert MASON فيقدم في الصفحة ١٢٩ من La Haye-Paris, 1972 من الأغاني. الدراسات الأساسية في هذا الموضوع هي دراسات CAHEN في E.I.<sup>2</sup> Cl. في عنوان عيارون، فتوة، حماعة وما يحيل إليه كاهن في ختام كلَّ من هذه المقالات. نجد قائمة بالأخبار المتصلة بالعيارين ببغداد في، Arabica, VI, (1959) Mouvements populaires، p.25-26.

---

## ٣١ - المقتفي (٥٣٠ - ١١٣٦ / ٥٥٥ - ١١٦٠)

---

أبو عبدالله محمد، أخو المسترشد<sup>(١)</sup> وعم سلفه المخلوع، بويع له بالخلافة في العام ٥٣٠/أيلول ١١٣٦، ولقب بالمقتفي لأمر الله.<sup>(٢)</sup> وكان الحسين بن عمرو كاتبه وعليّ بن الراهبة طبيبه نصريانين.<sup>(٣)</sup>

بعد أحداث «يطول ذكرها» كان من جرائتها بقاء كرسي الجائفة شاغراً مدة سنتين، اختير لخلافة برصوما الذي مات في كانون الثاني سنة ١١٣٦، مرشح نفسه على الجائفة من قبل، هو مطران باجرمي.

XXX عبد يشوع بن المقل<sup>(٤)</sup> الموصلي. وكان الوزير شرف الدين بن طراد الرئيسي<sup>(٥)</sup> قد تدخل لترجح كفته.

عندما صار من الممكن الشروع في مراسيم التولية من قبل الخليفة: خلع الطرحة (كما ذكرناه عند تولية برصوما)، العهد<sup>(٦)</sup> وموكب التشيع بالحجاب والأتراء، بقيادة حسام الشرف (كذا) أبي الكرم بن محمد الماشمي<sup>(٧)</sup> صاحب الشرطة (كان هذا الموكب إذن أعلى رتبة من موكب برصوما).

جرت رسامة عبديشوع الثالث في ٧ ربيع الأول ٥٣٣ / ١٣٨١ في الشهر نفسه أزال السلطان مسعود، عند نزوله بيغداد، المкос (وتقدّم أن لا ينزل جندي في دار عامي من أهل بغداد إلا بإذنه، فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان).<sup>(٨)</sup>

في هذه الفترة بدأ الخليفة يتحرّك للتحرّك من سيطرة السلجوقة مستغلًا

انقساماتهم.<sup>(٩)</sup>

ثم استفحلت إتاوات العيارين وبلغت ذروتها حتى إن إعادة تولية شحنكية بغداد لرجل شديد حديد كمجاهد الدين بهروز في العام ٥٣٦ - ١١٤٢، لم تعد تكفي للقضاء عليهم. ذلك لأن ولد الوزير شرف الدين وابن القاورت أخاً امرأة السلطان مسعود كانوا يسطان حمايتها على العيارين ويقاسمونهم المكاسب.<sup>(١)</sup>

كان لا بدّ من انتظار العام ٥٣٨ / ١١٤٤ لكي يأتي ملوك صارم اسمه إيلذكر كان نائباً على شحنكية بغداد فيحصل من السلطان على الإذن بضرب العيارين وكبس «عقديهم» ابن القاورت وابن الوزير. فأخذ أخو زوجة السلطان وصلب وهرب ابن الوزير «وريء ابن قاورت مصلوبًا فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم». <sup>(٢)</sup>

في هذه الأثناء استمرت جثالة ابن المقل، في ما يليه، من دون أحداث تذكر. وقد تمكّن من إعادة عماره بعض المباني وبخاصة مباني دار الرؤوم، وهذا يدلّ على أن تلك الفترة كانت هادئة. على أية حال، ثني مصادرنا على حسن تدبيره وتنتقد بخله وحبه لجمع المال. كان قليل التصدق على الفقراء والمساكين، وربما كان مرد ذلك إلى خشته من أن تركه الديون كما ركت سلفه.

فلج عبدشوع وعجز عن الكلام ورأى نفسه يموت فيكى على اضطراره إلى مفارقة هذا العالم، ثم فارق في جمادى الثانية العام ٥٤٢ / ٢٥ تشرين الثاني ١١٤٧ عن جثالة دامت أقلّ من عشر سنوات.

## أحوال النواحي الغربية من المملكة

لم تتحدث عن القسم الغربي من الكنيسة السريانية أكثر مما يتحدث مؤرخ من ذلك القسم (البطريريك ميخائيل) عن بغداد، وذلك لأن مشكلات المغاربة من السريان تختلف كثيراً عن مشكلات المشارقة منهم. لقد كان يحكمهم أمراء مسلمون محليون صغار، منقسمون بعضهم على بعضهم، مشتغلون بصراعات ضدّ الصليبيين. (أو معهم) إلخ.

واثمة حدث يحتلّ مكاناً عظيماً في أخبار المغاربة من السريان، إنه فتح الراها

على يد زنكي سنة ١١٤٥. إنَّ الكلام عنه ليبعدنا عن موضوعنا<sup>(١٣)</sup> لولا أنَّ مظهراً من مظاهير ردة فعل النصارى على تلك النكبة يكشف لنا عن مواقفهم من نكبات هذه.

فقد نشأ عندئِـ سجال عظيم بين النصارى: «هل تأتي التجارب وتنزل البلايا والكوراث بمشيئة الله أم لا؟». إنَّها على وجه الإجمال مشكلة الشَّرّ القديمة التي انقسمت حولها آراء المفكّرين السريان في ذلك العصر<sup>(١٤)</sup> (يُذكَر يوحنا المارديني، دينيسيوس برصلبيي، باسيليوس برشمانا).

ويتطرّق ميخائيل السرياني نفسه، غالباً، إلى هذه المسألة، وهو يختصر حجاجه في ما يتعلّق بحادثة أهل حصن زياد الذين غرقوا لدى عبورهم الفرات للمجيء إلى عيد مار أغريبا (بلاد جوباس) في تشرين الأول ١١٥٢، إلى حجج ثلاثة:

- الحجّة الأولى: إنَّه يجب الامتناع عن محاولة سبر حكمة الله في خلقه.
- الثانية: ربما كان البلاء عقوبة، لأنَّ أعياد الأديرة كانت في معظم الأحيان مناسبات للهُوَ أكثر مما كانت مناسبات للصلوة.
- الثالثة: إنَّ الضحايا لم يذهبوا سدى، على آية حال، فالروثيون يهلكون، أما المؤمنون فلا... ولكن لنعد إلى بغداد.

## حدود التسامح

شهد العام ١١٤٩/٥٤٤ (أي خلال خلو كرسى الخليفة) وصول الوزير الخلبي أبو مظفر يحيى بن هبيرة،<sup>(١٥)</sup> الملقب بجلال الدين ثمّ بعون الدين. وكان من بين شيوخه الشيخ الفيلسوف أبو منصور الجواليقي (ت ١١٥٠/٥٤٥)، الذي تروي<sup>(١٦)</sup> عنه وحزة غير مباشرة وجهها الخليفة المقتفي إلى أمين الدولة بن التلميذ الطبيب المشهور ذي الفضل والأدب الغزير: ذلك أنَّ الشيخ لما استعمل في تحية الخليفة صيغة غير معهودة استجرأ الطبيب النصراوی على تنبيه إلى ذلك. فما كان من الجواليقي إلا أنَّ توجّه بالكلام إلى الخليفة، من غير التفات إلى ابن التلميذ،

وقال: «يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية» ثم استغل مزئنته على الطبيب فأضاف هذه الكلمات غير الودودة: «يا أمير المؤمنين، لو حلف حالف أنّ نصراتيأ أو يهوديأ لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضي لما لزمته كفارة الحنت لأنّ الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختم الله إلا الإيمان» فأشنّ عليه الخليفة قائلاً: صدقت وأحسنت في ما فعلت! وكأنما ألقم ابن التلميذ حجرًا مع فضله وغزاره أدبه». نجد هنا مرة أخرى تطبيق مفهوم «حدود التسامح» التي لا يجوز للذمي تجاوزها من غير رادع.

وعلى العكس من هذا نجد الطبيب النصراوي نفسه، أمين الدولة بن التلميذ يتطاول إلى ملامة السلطان مسعود على قلة اكتراثه له مستعملاً عبارات جريئة جدًا.

يظهر الخبر، كما يرد في كتاب الفخرى،<sup>(١٧)</sup> السلطان مسعوداً في مظهر صياد كبير يزيّن كلابه بثياب من الحرير المطرّز والأسوار، بينما لا يبالي إلا قليلاً بطبيبه ولذلك أنسد الطبيب قائلاً:

مَنْ كَانْ يُلِسْ كَلْبَهْ وَشَيْءًا وَيَقْنَعْ لِي بِجَلْدِي  
فَالْكَلْبُ خَيْرٌ عَنْهُ مَنْيٌ وَخَيْرٌ مِنْهُ عَنْدِي  
وَلَا يَذْكُرْ صَاحِبُ الْفَخْرِيَّ أَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ سُخْطَ هَذَا الْقَوْلِ.

وفي حوالي العام ١١٣٧ تذكر المصادر خبراً عن واحدة من أتعس حالات المروق من الدين والارتداد المتكرر، وكأنه من علاتم اضطراب ذلك الزمن: فقد عُيّن راهب من مغاربة السريان، اسمه هارون السجستاني<sup>(١٨)</sup> من دير مار متى، أُسقّفاً على الحدث من «بلاد الروم»، فأسلم في ظروف لا نعلم عنها شيئاً،<sup>(١٩)</sup> ثم ارتد إلى النصرانية تائباً فلم يُقبل في أبرشيته. بعد ذلك لحق بالقدسية وصار على مذهب الخلقيدونيين (المملكانين). وإذا عاد إلى كنيسته أذن له بطريركه بإقامة القدس ولكن المفريان لام البطريرك على هذا الإذن. فلما علم هارون بذلك أسلم للمرة الثانية ثم عاد إلى مذهبه ومضى إلى القدس فرفضه مغاربة السريان، فأصعد إلى لبنان حيث قبل به الموارنة ومات هناك. ولا يبدو أنّ ارتداده مرّتين عن الإسلام قد أثار آية ردّة فعل لدى السلطات الإسلامية.

XXXI كانت رسامة يشوع يهب المسماة ابن الحائث<sup>(٢٠)</sup> جاثليقا يوم الأحد الثاني من تكريس البيعة سنة ١١٤٩.<sup>(٢١)</sup> وينسب اختياره إلى «أبي منصور»؟ الطبيب المشهور بن الكاتب الحكيم».

بدأت جثلقة ابن الحائث بسنة خير و خصب، سنة ٥٤٥ / ١١٥٠، شوهد فيها أهل السواد يرجعون إلى ضياعهم.<sup>(٢٢)</sup> ولكن السنة التالية جاءت بوباء اكتسح بغداد.<sup>(٢٣)</sup>

شهدت السنوات اللاحقة استغلال الخليفة المقتفي صراعات السلجقة في ما بينهم، في محاولته لتوسيع رقعة نفوذه. وقد حالفه النجاح فيحلة وواسط ولكنه أخفق مررتين أمام تكريت.<sup>(٢٤)</sup> وهو أول من استبدل بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه... من حين تحكم الملايلك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن» على قول ابن الأثير.<sup>(٢٥)</sup> ولعل ذلك يعزى إلى شجاعة المقتفي الشخصية، وإلى إدارة ابن هيبة الوزير، وإلى بسط يد صاحب الخبر، مثلما قد يعزى إلى الظروف: موت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ / ١١٥٢، وهزيمة السلطان سنجر في السنة التي أعقبتها.<sup>(٢٦)</sup> وقد كان ذلك علاما على زوال نفوذ السلجقة في رأي جورج مقدسی.

يقول G. WIET<sup>(٢٧)</sup> العصر السلجوقى من حيث العلاقة بالنصارى على الوجه التالي: إن «سلطين الإسلام»، فرسان المذهب السنى الحنفى، قد اضطهدوا حتى الشوافع «الذين نظموا نظام عقائد كان موجها بلا شك لمناهضة البدع، ولكنه أدخل في الإيمان عنصراً عقلانياً... عُدّ تطاولاً على عقيدة السلف الصالح». ولقد كان من المنطقي أن يضطهدوا النصارى كذلك (مثلاً فعل المتوكّل من قبل) لأنهم كانوا هم أيضاً مسؤولين عن تلك «الانحرافات». إلا أن الأحوال كانت قد تغيرت، وكان النصارى في ذلك الوقت أضعف من أن يكونوا خطرين. ولهذا لم يبق في تلك الحقبة إلا الأطباء وتناقض عدد الكتاب كثيراً فإن من كان منهم لا يزال في مناصب يحسد عليها، فهولاء كانوا قد تعلموا كيف يظهرون بمظهر أكثر تواضعاً...

وإذا زلت قدم بعضهم فتعذر طوره، فقد كان ثمة من ينبهه: وقد مرّ معنا، متذليل، ما كان من أمر ابن التلميذ مع الشيخ الجاويقي.

### الأطباء من بني الأثري

في خلافة المقتفي كان الطبيب النصراوي أبو الغنائم سعيد بن هبة الله الأثري<sup>(٢٨)</sup> ساعور البيهارستان العضدي. وكان والده هبة الله بن عليّ بن الحسين، المكتفي أيضاً بأبي الغنائم طبيباً وفيلسوفاً وكانت له مصنفات في الطب والفلسفة، ومات حوالي العام ١٠٨٠. وقد ألف أبو الحسن عليّ، أخو سعيد وابن هبة الله كتاباً في الطب لزميل نصراني له سنتعرف إليه عما قليل.

وفي الجيل الثالث نصادف أبا عليّ الحسن بن عليّ المذكور، أمّا سعيد فقد خلّف ابنًا اسمه أبو الحسن عليّ كان لا يزال حيّاً سنة ١١٨٤.

أمّا الطبيب الذي ألمحنا إليه فهو أبو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى، المعروف بالنيلي نسبة إلى مسقط رأسه، أو بالواسطي نسبة إلى نزوله بواسطه: وكان أدبياً شاعراً ومات سنة ١١٦٥/٥٦٠.<sup>(٢٩)</sup>

ثمة خبر عن طائفه اليعاقبة ينمُ عن الاستقرار الذي خيم على بغداد سنة ١١٥٢: ففي تلك السنة رمَّ المفريان إغناطيوس لعازر كنيسة مار توما ببغداد. وعلى الصدّ من ذلك واجه هذا المفريان نفسه بعض المتابعين<sup>(٣٠)</sup> سنة ١١٥٩، بسبب قسّ، يُدعى إبراهيم، أراد خلع زوجته المسنة ليتزوج امرأة شابة. ويذهب ميخائيل السرياني إلى أنّ هذا القسّ قد تسبّب في قضية تل أعفر بالتواطؤ مع سلطات الموصل.

كانت هناك فتاة أحبت البقاء على نصرانيتها من بعدما أسلم أبوها. وقد وافق قساوسة تل أعفر على تكريس زواجهما النصراوي من بعد مراجعة إغناطيوس لعازر المفريان. ولكن السلطات المدنية تدخلت فور تلقّيها الخبر. فألقى المفريان المسؤول في السجن وأهين ثمّ أفتدى بعد أربعين يوماً بثلاث مئة دينار. وقد ظلت الفتاة، التي ألقى في السجن أيضاً، متمسكة بإيمانها الراسخ، ثمّ ترَهبت ودخلت ديرًا

بالقدس من بعدهما أفرج عنها. وقد نظمت قصائد سريانية عدّة في قصة هذه الفتاة بحيث عوقب القس المفtri عليها عقوبة إلهية (طبعاً) ومات بعيد ذلك بقليل.<sup>(٣١)</sup> حوصل الخليفة في عاصمته من العام ٥٥١ حتى ربيع الأول ٥٥٢ لأنّه رفض إعلان محمد بن محمود، حفيض ملكشاه سلطاناً. وقد أعاد العامة الخليفة واستعملوا النار الإغريقية في دفع المهاجرين. ثم آل الأمر إلى انسحاب السلطان من تلقاء نفسه لأنّه اضطر إلى محاربة أخيه الذي استولى على همدان.

بيد أنّ العاصمة التي خلصت من الحصار وقعت فريسة وباء وحرائق مدة شهرين.<sup>(٣٢)</sup> أمّا الخليفة فقد مرض سنة ٥٥٤ مرضًا شفي منه وزيره لشفائه بغداد<sup>(٣٣)</sup> فرحاً، ثم توفي في السنة التي أعقبتها في ١٢ آذار ١١٦٠<sup>(٣٤)</sup> خلّفاً ذكرى رجل عادل «فرح به المسلمون»<sup>(٣٥)</sup> ويذهب أبو طالب الماشمي<sup>(٣٦)</sup> إلى أن «أيام المقتفي كانت نضرة بالعدل، زاهراً بفعل الخيرات، وكان على قدم من العبادة قبل إفشاء الأمر إليه، وكان في أول أمره متشاغلاً بالدين ونسخ العلوم وقراءة القرآن، ولم يُر مع ساحتنه ولين جانبه ورأفته - بعد المعتصم خليفة في شهامته وصرامته وشجاعته مع ما خُصّ به من زهد وورعه وعبادته ولم تزل جيوشه منصورة حيث يَمْتَ». .

ونضيف مع ابن الجوزي أن بغداد وال伊拉克 قد لبثا منذ ذلك الوقت في حوزة الخليفة.

## الحواشي

- (١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢، يورد ابن الأثير قائمة بخلفاء كانوا أحوجاً، اثنين، ثلاثة، أربعة.
- (٢) E.I.<sup>١</sup>, III, p. 765, par K.V. ZETTERSTEN
- (٣) زيارات، أسماء، ص ٣، ولا يذكر مصادره.
- (٤) ماري، ص ١٥٦ - ١٥٨ (وهذه آخر ترجمة عنده). صلبيا، ص ١٠٥ - ١٠٦. ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٢٨.

(٥) يصحّح ماري، تحقيق جيسموندي، ص ١٥٨، س ٤، حيث نجد «ابن طازد الريبي». (٦) تجد نسخة من هذا العهد في ماري، ص ١٥٨، وتجد جزءاً من النص في، H.F. AME-

DROZ, The Tadhkira of Ibn Hamdun, in JRAS, 1908, p. 467-470.

## وثيقة نسخة عن عهد جاثلين في مقالة Tadkira of Ibn Hamdun: LAWRENCE I. CONRAD

<sup>١٠٤</sup> إلى إحسان عباس، الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٨١، ص ٨٣ - ١٠٤.

(٧) هل هو نفس الشري夫 أبو الكرم والي بغداد العام ٥٣٢/١١٣٨؟ الكامل، ج ١١، ص ٦٣.

(٨) في ذي الحجة / آب - أيلول من السنة نفسها قتل واحد من أشهر عباري بغداد، هو ابن بكان، الكاما ، ٢، ١١، ٦٣-٦٤

<sup>(٩)</sup> الكامل، ج ١١، ص ٧١. لعله نفس كمال الدين أبو الفتوح محمد بن علي بن طلحة الذي ابْنَى المدرسة الكامالية العام ٥٣٦. وقد تصرف في العام ٥٣٥ بعد عوده من الحج، المصدر نفسه، ص ٨٠، ٨٩.

(١٠) ابن العري، تاريخ الزمان، ص ١٥٥، في العام ١١٣٩/٥٣٤.

(١١) الكامل، ج ١١، ص ٨٩.

٩٥) المصدر نفسه، ص ١٢)

(١٣) ولكن لا بدّ من الإشارة مرة أخرى إلى حياد المؤرخ الرهاري المجهول الذي يبني (ص ٩٩) على الآتابك عباد الدين زنكي (ت ١١٤٦) لأنّه قبل الإنجيل، فيما روي، عندما استقبل في المدينة.

(١٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

(١٥) أحد الوزير دار القوارير من ابن الخليفة بأن ترد إليه إثر «مأاجن الطيب في حضرته» ياقوت، إرشاد، ج ٧، ص ٢٤٣ R. LEVY, *A Baghdad Chronicle* P.165, citant.

tant.

(١٦) ابن خلkan، وفيات، ج ٥، ص ٤٤٢ - ٤٤٣، السيوطي، ص ٤٤٢.

<sup>١٧</sup>) الفخری، ص ٤٦.

(١٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣٠١. يلمع برصليبي إلى أن «الكثيرين تركوا دينهم قهراً.. تحت نير الأئوريين» يعني إثبات حكم الآتاك زنكي أمير الموصل (؟).

(٢٠) حسب ناسخ أخبار ماري، ص ١٥٨، صلبيا، ص ١٠٦ - ١١٠. ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٣.

(٢١) وهذا لا يوافق العام ٥٤٢ للهجرة، الذي يذكره ابن العربي.

(٢٢) الكامل، ج ١١، ص ١٤٦.

. ١٥٢) المصدر نفسه، ص (٢٣)

(٢٤) ابن العري، *تاريخ الزمان*، ١٧٠.

(٢٥) الكامل، ج ١١، ص ٦٢٥.

(٢٦) مصادر و مراجع في ١٤٧ p. Ibn 'Aqil, والخواشي.

- (٢٨) عن بني الأثري أنظر ابن أبي أصيحة، ص ٣٩٩ - ٤٠١ ، وأيضاً G. TROUPEAU, Re-cherches sur un médecin philosophe de Bagdad: Ibn Aṭrādī, dans Mémorial Mgr. G. Khouri-Sarkis, Louvain, 1969, p. 259-262; S.KHALIL, dans Islamochristiana, 2 (1969), p. 215-216.
- (٢٩) شيخو، شعراء، ص ٣٣٥ - ٣٤١ .
- (٣٠) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣١٦ - ٣١٧ . ابن العبري، ج ٢ ، ص ٣٤٨ . مقال للمطران بولس بهنام في مجلة لسان المشرق الموصلىة، المجلد ١ ، ١٩٤٩ ، العددان ٦ و ٧ ص ٣٥ .
- (٣١) يكثر ورود أمثل هذه «العدالة الفورية» تحت أقلام المؤرخين للنصارى، سواء لتشجيع أبناء ملتهم أو لردع من يقصدهم بالشرّ. وبعد صفحات من ذكر هذا الخبر يورد ميخائيل السريانى ما كان من أمر وال ظالم تولى أمر مارددين فجار على أهل المدن والقرى واغتصب فناء الكنيسة ليعطيه للمسلمين ولكنه وقع عن فرسه في اليوم التالي. ولما قرع سن الندم لم يستطع رد ما كان غصبه من خشية العرب (المصدر نفسه، ص ٣٣٧ - ٣٣٨). لتألحظ في هذا السياق أن الاستيلاء على أفنية الكنائس لبناء المساجد فيها أمر تشهد المصادر على تكراره، أنظر مثلاً الكامل، ج ٧ ، ص ٧٨ ، حيث نجد بمحض جامعاً بلزق كنيسة وكذلك الصق مسجد بدبر مار قرياقوس بالأنبار، الشابشى، الديارات، ط ٢ ، ص ١٦٠ - ١٧٠ . لذلك نجد قدراً لا يأس به من السذاجة في قول O. TURAN ، ص ٧١، إن التفاصيم والانسجام اللذين خلقاً وقثيقاً (القرن الثاني عشر) على العلاقات بين المسلمين والنصارى، كانوا قد بلغا حدّاً بعيداً حتى إن الكنائس والمساجد كانت متلاصقة بمدينة «دبيل» (دوين) . . .
- (٣٢) البداية، ج ١٢ ، ص ٢٣٤ . الكامل، ج ١١ ، ص ٢١٢ - ٢١٦ .
- (٣٣) البداية، ج ١٢ ، ص ٢٤٠ . الكامل، ج ١١ ، ص ٢٥٢ .
- (٣٤) الكامل، ج ١١ ، ص ٢٥٦ . تاريخ الزمان، ص ١٧٤ .
- (٣٥) البداية، ج ١٢ ، ص ٢٤١ .
- (٣٦) مذكور في السيوطي، ص ٤٤١ .

---

## ٣٢ - المستجد (٥٥٥ - ١١٦٠ / ٥٦٦ - ١١٧٠)

---

نجا أبو المظفر يوسف، الملقب بالمستجد بالله، بن المقفعي، من إحدى مؤامرات الحريم منذ أول أيام خلافته: فقد أرادت أم أخيه الأصغر أبي علي، وهي أم ولد تركية، قتلها وتولية الأمر لابتها.<sup>(١)</sup>

إنَّ صورة أحوال النصارى في خلافته جزئية، مثلها في ذلك مثل صورة أحواهم في خلافة أسلافه الأقربين. ومن الجائز أن يكونوا قد استفادوا كغيرهم من المقهورين، من إزالة المكوس والضرائب.<sup>(٢)</sup>

ويأتي الخبر الأول عنهم من الموصل حيث أرسل الأمير جمال الدين، الذي «امتاز، على قول ابن العربي، بعطفه وحسناته الوافرة»،<sup>(٣)</sup> مفريان العيادة إغناطيوس لغازار، سنة ١١٦١، إلى جورجي ملك الكرج ليفتدي منهم رهطاً من عرب الموصل أسرهم الصليبيون الكرج. وكانت عودة الأسرى محل احتفال عظيم بالموصل: وقد واكبت المفريان والأسرى فرقة من الفرسان الكرج جالت جولة العرضة في شوارع المدينة رافعة الصليبان على رؤوس الرماح.

لذلك نجد الحروب الصليبية تصبح أكثر «حضوراً» بالنسبة إلى نصارى القسم الشرقي من المملكة العباسية. وإننا لنلمس ما خلفه مشهد عرضة الصليبان (وهو أمر لم يكن ليعقل وقوعه بدار الإسلام في ذلك العصر) في أذهان نصارى الموصل من خلال نقش عمله بعض الرهبان من أعمال الموصل لماربئنام «الأمير» الذي استشهد في عصر الساسانيين. ولم يتردد النحات في أن يسبغ عليه درعاً دلائلاً، وأن يجعل على رأسه تاج نبلاء الصليبيين وفي رجليه ما يتعلمه هؤلاء من أحذية حديدية مدبة الرأس، وفي أعلى رمحه صليبياً.<sup>(٤)</sup>

في السنة عينها (١١٦٢/٥٥٧) تذكر المصادر شاعرًا نصريًا ولد ببغداد وعاش بواسطه، هو الرئيس أبو غالب بن عيسى بن بابا<sup>(٥)</sup>.

ولأتنا لنقترب من بغداد مع خبر يقع بتكريره ويتعلق بشركوه عمّ صلاح الدين الكبير وبأبيه أيوب، الكرديين الديليين، اللذين كانا يعملان في خدمة مجاهد الدين بهروز، أمير المدينة الذي صادفناه ببغداد، والذي يقول عنه ابن العربي الآن إنه كان محباً للنصارى.<sup>(٦)</sup> في العام ١١٦٣/٥٥٩ قتل شركوه رجلاً نصريًا «عزيزًا على قلب الأمير». ثم هرب القاتل وأحwoه من الموصل خوفاً من عقوبة الأمير، ومذاك بدأ يلمع نجم الأسرة.

لنذكر عابرين، في العام ١١٦٤ - ١١٦٥، وفاة طبيب كبير ببغداد هو أمين الدولة بن التلميذ (الذي صادفناه سابقاً) عن تسعين سنة «وكان متضلعًا من مختلف العلوم ووحيد عصره في الطبّ وخيراً راسخاً في الفصاحة ونحو العرب وشعرهم لا ينقص عنهم على وفضلاً وتقلب أيام حياته في خضمِ العيش والقرب من الملوك».<sup>(٧)</sup>

ويبدو أنَّ ابن العربي الذي يكتب هذا الكلام ينسى قليلاً المضائق الصعبة التي قاسها هذا الطبيب وأبناء ملته. ذلك أنَّ هذا المؤرخ يميل، كما لاحظنا من قبل إلى الثناء على أحوال الماضي عندما يقيسها «بويارات» عصره، أي بعد قرن من الزمان، وربما أعطتنا هذه الملاحظة فكرة عن اتجاه الضغط الاجتماعي - الديني المتتامي الذي تعرض له النصارى. فقد كانبقاء على النصرانية ببغداد يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وكانت الطوائف النصرانية هناك تتقلص باستمرار.

ويقع الخبر التالي في الموصل. فقد أوكل قطب الدين مودود، أمير المدينة، القلعة والوزارة إلى أسير قديم من أنطاكيه هو الخصي النصري عبد المسيح الملقب بفخر الدين. وقد أبعد فخر الدين هذا لدى وفاة سيده، سنة ١١٦٩/٥٦٥، عماد الدين زنكي عن تولي الإمارة وجعل مكانه سيف الدين غازي، ولما أطاح نور الدين بعد المسيح سنة ١١٧١/٥٦٦، تسمى هذا بعد الله وأظهر الإسلام، وهذا ما أثار له أن يحمي عن النصارى.<sup>(٨)</sup>

ولهذا السبب، «وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَصِيرَ عَضُدًا لِلنَّصَارَىِ الْمُوصَلِ» الذين كان نور الدين قد فرض عليهم شروطه اصطحبه نور الدين معه إلى حلب «فَأَنْزَلَ ذَلِكَ بِالنَّصَارَىِ كَرِبَّاً عَظِيْمًا». <sup>(٩)</sup>

إِلَّا أَنَّ مَا لَا يُذَكِّرُهُ الْمُؤْلَفُونَ النَّصَارَىِ هُوَ أَنَّ نُورَ الدِّينَ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابُ أُخْرَى لِإِزْاحَةِ فَخْرِ الدِّينِ، فَضْلًا عَنِ الْأَسْبَابِ السِّيَاسِيَّةِ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَزِيرَ الْخَصِيِّ كَانَ قَدْ أَشَارَ سُخْطَةً أَهَالِيَّ الْمُوَصَّلِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا أَرْهَقُوهُمْ بِهِ مِنْ ضَرَائِبٍ وَمَكْوُسٍ. وَقَدْ حَطَّ نُورُ الدِّينَ تَلْكَ الأَعْبَاءَ عَنِ كَوَافِلِهِمْ حَالَ وَصُولِهِ إِلَى الْمُوَصَّلِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدِمْ عَلَى التَّشَدُّدِ فِي الانتِقامِ مِنَ الْوَزِيرِ الَّذِي كَانَ يَحْظَىُ بِحُمَّاهِيَّةِ أَمْرَاءِ آخَرِينَ. <sup>(١٠)</sup>

آخَرُ نَصَارَىِ نَصَادِفُهُ فِي خَلَافَةِ الْمُسْتَنْجِدِ هُوَ طَبِيبُهُ أَبُو غَالِبِ بْنِ صَفِيَّةِ. <sup>(١١)</sup> إِنَّ دُورَ هَذَا الطَّبِيبِ فِي اغْتِيَالِ الْخَلِيفَةِ لَا جَدَالَ فِيهِ، عَلَى مَا يَبْدُو. فَقَدْ كَانَ عَلَى عَلْمِ بَنِيَّةِ مَوْلَاهُ أَنْ يَقْبِضَ عَلَى قَطْبِ الدِّينِ أَسْتَاذِ الدَّارِ، فَفَضَّلَ أَنْ يَنْذِرْ قَطْبَ الدِّينِ. فَتَقَرَّرَ أَنَّ إِغْلَاقَ بَابِ الْحَمَامِ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَرِيضِ مِنْ شَأنِهِ أَنْ يَعْجَلَ أَجَلَهُ. <sup>(١٢)</sup>

وَتَنْسَبُ رَوَايَةُ أُخْرَى قَرْارِ الْأَغْتِيَالِ إِلَى امْرَأَةِ مِنْ نِسَاءِ الْخَلِيفَةِ كَانَتْ تَغَارِي مِنْ امْرَأَةِ أُخْرَى مِنْ نِسَائِهِ هِيَ بَنْسَجُ بْنَتُ عَبْدِ اللَّهِ الرُّومِيَّةِ. <sup>(١٣)</sup> وَلَكِنَّ أَيَّةً تَكُنُ الْعَلَةُ فَالْمُنْفَذُ كَانَ وَاحِدًا. تَعْقِيْلًا عَلَى ذَلِكَ يَذَكُّرُ ابْنُ أَبِي أَصْبِيَّةَ كَلْمَةً أَمِينَ الدُّولَةِ الطَّبِيبِ الْكَبِيرِ: «لَا يَنْبَغِي لِلْطَّبِيبِ أَنْ يَدْخُلَ الْمُلُوكَ فِي أَسْرَارِهِمْ».

إِنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يَثْبِي بِهِ ابْنُ الْأَئِمَّةِ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَغْدُورِ يَفْسُرُ لَنَا لَمْ قُلْتَ الْأَخْبَارُ عَنِ النَّصَارَىِ فِي خَلَافَتِهِ الَّتِي دَامَتْ أَحَدَ عَشَرَ عَامًا، يَقُولُ: «كَانَ الْمُسْتَنْجِدُ بِاللهِ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْفَاءِ سِيرَةً مَعَ الرَّعْيَةِ، عَادِلًا فِيهِمْ كَثِيرٌ الرَّفِقُ بِهِمْ، وَأَطْلَقَ كَثِيرًا مِنَ الْمَكْوُسِ، وَلَمْ يَنْزِكْ بِالْعَرَاقِ مِنْهَا شَيْئًا، وَكَانَ شَدِيدًا عَلَى أَهْلِ الْعِيْثَ وَالْفَسَادِ وَالسَّعَايَةِ بِالنَّاسِ.. وَرَدَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْوَالِ عَلَى أَصْحَابِهِ». <sup>(١٤)</sup>

إِلَّا أَنَّ مِيخَائِيلَ السَّرِيَافِيَّ يَتَهَمُّمُ ابْنَ الْبَلْدِيَّ، وَزَيْرَ الْمُسْتَنْجِدِ مِنْذِ

١١٦٨ - ١١٦٧ / ٥٦٣ ، بأنه كان يبغض النصارى ويأنه قد حبس بعض العاقبة .  
وسوف نتعرّف أكثر في عهد الخليفة التالي .

رُبما نسب إلى هذه السنوات الأخيرة حادث يؤسف له وقع ببغداد إبان جملة  
يشوع يهب الخامس أي بين العام ١١٤٩/٥٤٤ والعام ١١٧٥/٥٧٠ من دون  
تحديد دقيق: إنه إعدام عدد غير محدد من الأسرى الفرنج . صعن النساطرة لما  
رأوا، وعدُوا الفرنج شهداء وواروهم في فناء كنيسة سوق الثلاثاء أمام الرواق  
الصيفي للصلوة بين الكو狄ن .<sup>(١٥)</sup> وسوف نرى من بعد أمثلة أخرى أدى فيها  
شطط السلطات المدنية إلى تقريب نصارى المشرق، وحتى النساطرة، من أوائل  
الصلبيين البعيدين عنهم جدًا في المكان القريبين منهم في الإيابان . وقد أسهم ذلك  
في تعزيق المُهَوَّة بين الذميين وبين المسلمين .

على أية حال مات المستجند مخنوًا في التاسع من ربيع الآخر ٢٠/٥٦٦  
كانون الأول ١١٧٠ .

## الحواشي

- (١) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٧ . ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٧٤ .
- (٢) ابن الطقطقي، ص ٢٥٥ .
- (٣) ابن العربي، ص ١٧٤ . ويقول ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣١٨: «وكان في ذلك عزاء عظيم للنصارى والمسلمين بسبب إطلاق الأسرى» .
- (٤) أنظر صورة النقش في كتاب أثور المسيحية، ج ٢ اللوحة F . - الصليب في حلقتى الأذن من اختراع الفنان .
- (٥) شيخوخ، شعراء، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ .
- (٦) تاريخ الزمان، ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٢٧ . تاريخ الزمان، ص ١٧٧ - ١٧٨ . دائرة المعارف (بيروت)، ج ٢، ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .
- (٨) وقد رأينا وضعاً مشابهاً لدى كتاب دور قرقى . ونجد مثلاً مشابهاً في خبر ابن النحال الكاتب الذي أسلم عندما استولى الملك العادل على السلطة سنة ١١٨٣/٥٧٩ ، ثم اجتهد في حشر النصارى في مناصب عدّة . حتى قيل في هجائه:

- فقاقي دين المسيح في دولة العا  
ذا أمير واذا وزير واذا وا  
لي واذا مشرف على الديوان  
أبو شامة، كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٥٢.
- (٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
- (١٠) ELISSEEFF, Nür al-Dīn, p. 619-620, 657-661, 679 سنة ١١٧٣ . وفي العام ١١٧٥/٥٧١ أسره صلاح الدين ثم أطلقه، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٩٢ . - أنظر نصوصاً أخرى عنه في كتاب شيخوخ وحشيمه، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام (٦٢٢ - ١٥١٧)، جونية - روما، ١٩٨٧ ، ص ١٨٩ ، الحاشية رقم ٣ . - وقد ظهر هذا الكتاب بعد كتابي هذا واقتبس منه بوفرة. وقد أتاح لي ذلك استدراك بعض الأخطاء وتصحيحها.
- (١١) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٤٧ - ٣٤٩ .
- (١٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٠ .
- (١٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨٦ . نساء الخلفاء، ص ١١١ - ١١٥ . مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ١٦٣ - ١٧٢ .
- (١٤) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٢ . وكذلك يعتبره ابن كثير (البداية، ج ١٢ ، ص ٢٤١ - ٢٦٢ ) من أفضل خلفاء بنى العباس ومن أعدتهم في الرعية .
- (١٥) صليبا، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، والمفرد الكود: أي كرسى القراءة.

---

## ٣٣ - المستضيء (٥٦٦ - ١١٧٠ / ٥٧٥ - ١١٨٠)

---

نصبه قَتَّلَهُ أبيه. وكان أبو محمد الحسن، المستضيء بأمر الله حلبياً.<sup>(١)</sup> وكان الأولى به أن يكون كذلك، ورِبَّا كان مبدراً.<sup>(٢)</sup> وقد كان من شأن النزاعات بين الأمراء والوزراء<sup>(٣)</sup> (وهو صرخة في بعضها) ومسلسل النكبات الطبيعية (فيضانات، حرائق، زلازل، أوبئة، غلاء، الخ). أن تحول دون قيامه بدور أكبر من الدور المتواضع الذي قام به، حتى إنَّه قد خطب له مصر، من حيث لا يدرى، وذلك بفضل نور الدين وصلاح الدين<sup>(٤)</sup> الذي كان سيدها المطاع.

مع ذلك فقد أقدم المستضيء يوم ولِي الأمر على إجراء سلطوي: أمر بقطع رأس شرف الدين أبي جعفر أحمد بن البلاي، وزير أبيه المستججد منذ العام ١١٦٧ - ٥٦٣، لأنَّه حاول منعه من خلافة أبيه.<sup>(٥)</sup> وينهَب ميخائيل السرياني<sup>(٦)</sup> إلى «أنَّه لَمَا كان الوزير الذي أعدَّ عدواً للنصارى، فقد أحبَّ الخليفة الجديد النصارى من كرهه للوزير. ومن ذلك أنَّه أطلق بني توما، أولئك الأمراء المؤمنين الذين كانوا محبوسين ورَدَ عليهم دورهم وكتائبهم».

وسوف نصادف مرَّة ثانية (في خلافة الناصر) سليل هذه الأسرة اليعقوبية الطبيب أمين الدولة صاعد بن هبة الله بن توما وأبنائه الذين كانت كنيستهم، كنيسة مار توما، بالقرب من باب المحْوَل.<sup>(٧)</sup>

في العام ١١٧٢، وإثر تسلُّم مبلغ عظيم من المال، أخذ الخليفة الجديد، (أو أصحاب دواوينه على الأقل) قراراً لصالح اليعاقبة ضدَّ مسلمي جزيرة ابن عمر الواقعة إلى الشمال من الموصل. ذلك لأنَّ المسلمين كانوا قد وضعوا اليد على دير

لليعاقبة كان بها وحبسوا بالموصل مطرانهم باسيليوس الذي حاول أن يتدخل. فأُعيد الدير إلى أصحابه وأطلق المطران.<sup>(٨)</sup>

وينبغي لنا أن نذكر هنا أنَّ يعاقبة جزيرة ابن عمر كانوا عرضة لتدابير كيدية دبرتها السلطات المحلية: ففي العام ١١٤٣ قبض عامل المدينة على مطرانهم ولم يفرج عنه إلَّا لأجل فدية بُذلت له،<sup>(٩)</sup> كما أنَّ المطران الذي خلفه لم يفلح في الحصول دون بناء مثذنة على مقربة من كنيسة طائفته لأنَّه أهمل حل ما جرت العادة بحمله إلى «علماء العرب» على حد قول ابن العربي.<sup>(١٠)</sup>

لقد سبب تشدُّد نور الدين الأتابك متاعب كثيرة للنصارى بدمشق وحلب والموصى وسواها.<sup>(١١)</sup> فقد زاد المكسوس وأعاد فرض الضرائب المميزة من قص الشعر وعقد الزنانير. كما أمر بتفصيل ما استحدث من كنائس، في تصييبين مثلاً. وقد بيَّنت في موضع آخر<sup>(١٢)</sup> كيف أنَّ قابلية الرشوة لدى بعض المؤوسين، كابن عزرون مثلاً، كانت عاملاً على تخفيف هذه الإجراءات أو على المبالغة فيها كلما عنَّ للرؤساء فرض هذه الإجراءات.

«لقد صرف الخليفة المستضيء عن النصارى مُهِمَا غضب نور الدين وحقدده»،<sup>(١٣)</sup> إذ يرى أنَّ هذا الأخير كتب إلى المستنجد قبل عام من وفاته رسالة يحرّضه فيها على توعُّد النصارى بالقتل إذا لم يسلموا، لأنَّ «هذا مكتوب في القرآن (كذا): يحكم المسلمين ٥٠٠ عام<sup>(١٤)</sup> لا يسيئون فيها إلى النصارى. وهذه الأعوام قد انقضت». . . وكان أن ردَّ عليه المستضيء. ولما كان الخليفة الجديد غير حريص على استقدام رجل أطاح حتى الآن بالخلافة الفاطمية بمصر وادعى «النبوة» (?) فوق ذلك، أرسل إليه رسالة تأنيب تقول: «ليس لك أن تسمى نفسك «نبياً» . . . أنت لم تفهم حديث الرسول عن السنين، والله لا يأمر بقتل الناس من غير ذنب يستحق القتل». ويختتم ميخائيل السرياني بالقول معلقاً: «وقد أفاد النصارى من هذا أيضاً . . . أما نحن فيجب علينا أن نفهم أنَّه لئن أدن الله للعرب والأتراب أن يسودوا علينا بسبب خطايانا، فإنه من عظيم رحمة لنا لم يتركنا في أي وقت ولا بأيَّة حال ولن يتخلَّ عنَّا، بل إنَّه في عنایته الإلهية يحفظنا ويخلصنا من أعدائنا، لأجل محبه لكتنيسته».

كانت وفاة نور الدين، سنة ٥٦٩ / ١١٧٤، بالرغم من عناء طبيبه النصارى رحبابايا،<sup>(١٥)</sup> «خبرًا سارًا» للنصارى وال المسلمين على السواء.<sup>(١٦)</sup> وقد أعلن ابن عمه سيف الدين غازي الأفراح فشرب الجميع وسکروا.<sup>(١٧)</sup> وسوف نرى من بعد العلاقات التي قامت بين البطريرك ميخائيل الأول وبين هذا الأمير.

أما جاثليق النساطرة يشوع يهوب الخامس البلدي فقد مات سنة ٥٧٠ / ١١٧٥، عن تسعين سنة وجلقة دامت أكثر من ستة وعشرين عاماً. وقد أدت الكريمات على قبره بكنيسة درب دينار بسوق الثلاثاء إلى اجتذاب الحجاج إلى الكنيسة.<sup>(١٨)</sup>

### إيليا الثالث

XXXII      بعد خلو كرسى الجائزة حوالي ثمانية أشهر لا نعلم عنها شيئاً، انتخب مطران نصيبين الياس أبو حليم الملقب بالحدبى مع أنّ أصله من ميافارقين. وليس بين أيدينا أي خبر عن انتخابه، ولا ذكر في التراجم لأى علماني نصارى كان أم غير نصارى.<sup>(١٩)</sup> كلّ ما نعلمه هو أنه «لم يكن فيهم من يماثله على وحكمه وكروماً وحسنّاً وبلاحة وفصاحة» الخ. وقد سيم سنة ٥٧١ / ١١٧٦ كانون الثاني .

ولاذ عاد إلى دار الروم وجد القليلة خراباً، فجدد عمارتها لينزل فيها، كما جدّد عمارة كنيسة دير ماري بدور قفي وغيرها من الأديرة والكنائس، وهذا دليل على هدوء الأحوال واستقرارها.

إنّ أعمال إيليا الثالث الأدبية معروفة جيداً.<sup>(٢٠)</sup> أما ما بهمنا هنا فهو هذه العبارة التي يذكرها صليبا في ترجمته: «وكان مع أوصافه الجميلة بحسن الخلق والخلقية سخياً متلائماً للهمال في عمل الخير مع الناس الضعفاء والمساكين ومع الأشرار الذين من غير الدين ومع الحكام المتولين لأجل إقامة جاه النصارى».

ولما كان صليبا قد قال سابقاً إنّ الله قد أنعم عليه وأجرى الخيرات من بين يديه فإننا نفهم من ذلك أنّ الجاثليق لم يكن يجد صعوبات تذكر في إرضاء همّاته من رسميين وغير رسميين، وأنّ النصارى قد نعموا في أيامه بالسلام، في حدود ما

كانت تسمح به ظروف ذلك الوقت، لنلاحظ مرة أخرى أن الحملات الصليبية المعاصرة له لم تولد، فيها يبدو، مشاعر عداء للنصارى ببغداد.

لذكراً أيضاً أنَّ الخليفة وإن صنفه بعض المؤرِّخين في جلة «أصدقاء النصارى» فهذا لا يعني أنَّ أصغر الأمراء في كلَّ مدن المملكة وبلداتها كانوا يتربَّسون خطاه، ويقتدون به. ولئن أمكن أن يُقال عن أحدهم، مثلما قيل عن نجم الدين أمير ماردِين (الذِي مات سنة ١١٧٦ من بعدهما حكم المدينة مدة اثنتين وعشرين سنة) إنَّه «عامل النصارى وكنائسهم وأديارهم خير معاملة»،<sup>(٢١)</sup> فهذا لا يعني أنَّ ولايته لم تشهد بعض التعذيبات التي ربما وقع بعضها من باب ردِّ الفعل على ضحاياها أنفسهم.

فمن ذلك أنَّ قسًا راهبًا من رهبان دير بكره، بجبال ماردِين، يدعى الحسن بن كليب ترك النصرانية وأسلم سنة ١١٧١، فكان من جراء ذلك أن وضع العرب يدهم على ديره ثم حوله الأكراد إلى مسجد. إلا أنَّ الراهب ارتدَ إلى النصرانية ومضى إلى القدس. فما كان من صاحب ماردِين إلا أن قبض على أخي المذنب وعذبه حتى الموت.

وفي العام التالي، أخذ بماردين أيضاً رجل من أعيان اليعاقبة، يُدعى برصوما، كان يزني بأمرأة عربية فغلب وأفلت من الموت وما كاد، وصودرت أمواله. ولما كان قد أعاد عمارة كنيسة مارتوما على أيام حسام الدين، أخذت تلك الكنيسة ليعمل منها مسجداً.<sup>(٢٢)</sup>

نحن في الحالتين أمام ردَّ فعل إسلامية على ما اعتبر استفزازاً. ولكن هل يجوز إدانة ردَّة الفعل تلك حسب معايير ذلك العصر؟

ونحن نجد، على الضَّد من ذلك، أنَّ الولاة المسلمين كانوا يتصرفون، في معظم الأحيان، بكثير من الحلم وضبط النفس. فمن ذلك أنه في الفترة نفسها ظهرت بالرُّواحَة جماعة منشقة من الأرمن واتهمت سواها من الأرمن والمغاربة من السريان بمكتابة قيسر الروم ومؤامرته على تسليم المدينة، فما كان من صاحب حلب إلا أن طرد المفترين.<sup>(٢٣)</sup>

وفي خبر آخر أتهم البطريرك ميخائيل نفسه بذلك، وكان المتهم (بكسر الماء) أحد أسافته المدعو دنحا - يوانيس الرقّي،<sup>(٢٤)</sup> فسيق ميخائيل إلى معسكر سيف الدين أمير الموصل. وإنَّ كلام البطريرك في الرد على مستجوبيه لذو دلالة على شجاعة زعماء النصارى إذا ما لمسوا التعاطف من ولاة الأمر المسلمين حين يمثلون أمامهم. فقد قال لهم البطريرك «إنَّ الله لم يأمر الملوك بتدبیر شؤون الإيمان بالسيف. ومنذ أن ساق الله الملك إلى المسلمين لم يقدم أي ملك من الملوك العادلين على دوس شريعة الله بالأرجل، بل أطاعها والتزم حدودها. وقد فرض المسلمين على النصارى وبإذن الله تعالى، شتى صنوف الإذلال الجسدي، إلا أنهم لم يدعوا لأنفسهم أي سلطان على العقيدة...».

ولما رفعت القضية إلى الأمير لينظر فيها أمم دنحا البطريرك «أخذ العرب وتنصيرهم» فاضطرم غضب بعض الحاضرين لدى سماع هذه الكلمات وأرادوا رجم البطريرك. ولكن من حسن الاتفاق أن أتيح له الوقت ليتكلّم وثبت أن القضية المشار إليها هي قضية ابن كلبي وأنها تتعلق براهب لا برجل عربي، فبرئت ساحة الخبر وأخلي سبيله فغادر معسكر الأمير. وقد حاول دنحا الإيقاع ببعض الخليل لدى الخليفة ولكنه طرد من الحضرة ولم يؤبه لافتراءاته.

هل كان من جملة ما اتهم به البطريرك ميخائيل أنه تلقى عهد توليه من أموري ملك بيت المقدس وأنّ هذا العهد قد جدّده بعذوبين الخامس الأبرص سنة ١١٧٩<sup>(٢٥)</sup> ولئن كانت القضية قد أثيرت فيبدو أنه لم يلتفت إليها أحد، لأجل ما لم تزل عليه حال مغاربة السريان من الحرارة، لأنّهم لم يزل لهم أخوة في المذهب يبلاد ملكتين متحاربتين: روم وساسانيون ثمَّ روم ومسلمون والآن صليبيون ومسلمون، وذلك خلافاً حال مشارقة السريان.

في العام ٥٧٥ / آذار ١١٨٠، وفي جلقة إيليا الثالث، انتهت خلافة المستضيء التي دامت ما يقارب العشر سنوات. وبيئي ابن الأثير على الخليفة بما يلي: «كان عادلاً حسن السيرة في الرعية... وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وكان حلّيماً قليلاً المعاقبة على الذنوب محبّاً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حيدراً ومات سعيداً». (٢٦)

## الحواشي

- (١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٦ .
- (٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١، ٤٥٩ .
- (٣) E.I.<sup>١</sup>, III, s.v., par K.V. ZETTERSTEEN .
- (٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٧ .
- (٥) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١. ابن الطقطقي، ص ٢٥٥ .
- (٦) ج ٣، ص ٣٤٤ .
- (٧) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
- (٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٥٠ - ٣٥١ . ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٦٨ .
- (٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٥٥ .
- (١٠) ابن العبري، ج ٢، العمود ٣٤٦ . - بينما كان المفربان إغناطيوس لعاذر يعرف فيما مضى كيف يتذمّر أمير الحفاظ على صداقتهم والتوصّل إلى بناء الكنائس ببغداد ويرطلي أو ترميم ما تهدم منها.
- (١١) يشير الأستوري (ص ١٤ - ١٨) إلى تأثير وزير الموصل أبي جعفر الجواد الأصفهاني (أنظر E.I.<sup>٢</sup> ص ٥٠١ - ٥٠٢ تحت عنوان Djawad). وقد أخذ نور الدين قرار بإبعاد النصارى عن الخدمة في الدواوين إثر الرجوع من الحجّ، وثُمَّ دور لرؤيا النبي بالمنام. - يلاحظ KRENKOW في كتابه *Tarikh Baghdad* ص ٧٧، ٧٧، في هذا المجال أنَّ رؤى النبي «قد لعبت في العالم الإسلامي دوراً مشابهاً للدور الرسائل المابطة من السماء في بلاد النصارى».
- (١٢) كتاب: Nisibe, p. 99-100
- (١٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٠ - ٣٤٤ . - لم يلتفت N. ELISSEEFF إلى هذا الصن الذي يبدو كرواية قصصية للأحداث، ولم يتمّ به.
- (١٤) أو ٦٠٠ سنة تنتهي في العام ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م على قول وزير صاحب المغرب في رجب سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٧٧ . - وقد أرجف F. LOVSKY بمثل هذا بحق اليهود في عصر الموحدين بالأندلس سنة ١١٤٦، أنظر F. LOVSKY في: *L'antisémitisme chrétien*, CERF, 1970, p. 206-207
- (١٥) الذي أدرك ابن العبري ابنيه في شيخوختهما، وكانتا هما أيضاً من الأطباء المذكورين، تاريخ الزمان، ص ١٨٩ .
- (١٦) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٥٣ . يقع الراهاوي المجهول على حياده المعهود، إذ يئي (ص ١٢٧) على فضائل الأمير. - ويشير E. SIVAN في ص ١٢٠ من كتابه *Chrétiens sous les Ayyoubides*

- جزءاً من «سياسة تميل إلى التشدد في مراعاة أحكام الشريعة» وهي سياسة كانت تأخذ بالشدة نفسها في التعامل مع المسلمين التهاونين بالشرع، ومن ذلك فرجهم بموت الأمير.
- (١٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٦٢ - ٣٦١. الراوي المجهول، ص ١٢٩.
- (١٨) يلاحظ صليبا، ص ١٠٦، أنَّ طوائف ثلاثة فقدت رؤسائِها في هذه السنة عينها (٥٧٠): فالنصارى فقدوا الجاثلية (يقرأ هكذا بدلاً من الخليفة)، والمسلمون فقدوا قاضي القضاة (روح بن أحد، البداية، ج ١٢، ص ٢٩١)، واليهود فقدوا دانياً، رأس الجالوت.
- (١٩) صليبا، ص ١١٠ - ١١٢. ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٣٠، ٣٦٨ - ٣٧٠.
- (٢٠) دائرة المعارف، بيروت، ج ٢، ص ٤٤١ تحت عنوان ابن الحديثي. SAMIR KHALIL Islamochristiana, 2 (1976), P. 201-202
- في إثبات الإيمان والاعتقاد وصحة دين النصرانية».
- (٢١) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٩٣.
- (٢٢) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨.
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٥١، ٣٥٢.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٨ - ٣٦٠.
- (٢٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٧٣.
- (٢٦) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩ - ٤٦٠. البداية، ج ١٢، ص ٣٠٤.

---

## ٣٤ - الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ / ١١٨٠ - ١٢٢٥)

---

تلقب أبو العباس أحمد بن المستضيء بلقب الناصر لدين الله،<sup>(١)</sup> يعني عزمه على نصرة دين الله. وفي خلافته اضطررت أحوال شرق المملكة من جراء تقلب التحالفات بين المغول وخوارزم شاه. أما في الغرب فقد استعاد صلاح الدين القدس، ولكن الخليفة لم يكن كثير الاهتمام بمدافعة الصليبيين. وسوف نرى من بعد ما كان تصوّره للحكم، إلا أن نزواته هذا «الرجل الغريب»<sup>(٢)</sup> تضفي كثيراً من التشويش على ما كان يدبّره من تدابير.

بدأ الإصلاح الداخلي عندما نظم حاجب الباب حملة على المنكرات ببغداد سنة ١١٨١/٥٧٧. ثم في العام ١١٨٢/٥٧٨ - ١١٨٣/٥٧٩ أو في ذي الحجة ٥٧٩ / آذار - نيسان ١١٨٤<sup>(٣)</sup> أمر الناصر بإقصاء النصارى من الدواوين. أما الدواعي إلى هذا الأمر<sup>(٤)</sup> فمختلف فيها: فمنها فساد الكتاب النصارى وصلفهم، على قول، ومنها أن الخليفة قد صار يُعدّ مجرّد وجودهم إذلاً للمسلمين، على قول آخر. وقد أدى الأمر الخليفي إلى صرف الكثيرين من الخدمة، فكان ممن صرفوها بنو النظام وابن الأشقر من ديوان الأرض بالرغم من تدخل ابن البخاري، الوزير المفوض، للدفاع عنه. وقد دخل كتاب نصارى آخرون الإسلام ليحتفظوا بمناصبهم. ونجد فيهم أبا غالب بن زطينا (ت ٦٠١ - ١٢٠٤ / ١٢٠٥) وأحد أولاد ابن الأشقر الذي حصل فوراً على المنصب الذي شغر بعدما رفض أبوه الإسلام.<sup>(٥)</sup>

ولنلحظ عابرين في هذه السنوات شعبية الخليفة الناصر في صفوف تقاة

المسلمين الذين خالطهم ابن جبير لدى زيارته بغداد في صفر ٥٨٠ / أيار - حزيران ١١٨٤ . فقد أتيح لهذا الـحالـة أن يشهد الخليفة مرتين كتب على أثرها:<sup>(٨)</sup> «ظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة ، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهازاً ، وهو مع ذلك يجب الظهور للعامة ، ويؤثر التنجُّب إليهم ، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعداوا بأيامه رخاءً وعدلًا وطيب عيش ، فالكبير والصغير منهم داعٍ له».

وقد كان الـحالـة وصف ، قبل بعض صفحات من قوله هذا ، ما آلت إليه العاصمة العباسية من حال تناقض ، مناقضة مرّة ، الصورة المثالية التي كانت آنذاك قد استقرت في أذهان الناس ، والتي كانوا يتناقلونها في أطراف دار الإسلام وأكثافها : «(فهي) قد ذهب أكثر رسّمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها . وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه من قبل إنجاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص».<sup>(٩)</sup>

### أطّباء نصارى

على الرغم من الأمر الرسمي بإبعادهم ظلّ الأطّباء النصارى يحيطون بال الخليفة . أمّا أشهرهم والمقدّم عليهم عند الناصر فهو رئيس الشمامسة أبو الخير<sup>(١٠)</sup> ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمّل من بني المسيحي ، النيلي الأصل (أو الحظيري؟) . كان أبوه قد أخذته منذ طفولته إلى ابن التلميذ (ت ١١٦٥) الذي علمَه أولى مسائل حنين بن إسحق .

كان أبو الخير قد طعن في السن وخدم الخليفة الناصر منذ سنين لما أصيب الخليفة سنة ٥٩٨ - ١٢٠١ ، عرض بعثاته . وقد ارتاب الناصر منه وكاد أن يأمر بقتله لما رأى عجزه عن مداواته بما يشفيه .

وقد مات هذا الطبيب بعدما غازل المثلثة ، سنة ٦٠٨ / ١٢١٢ وخلف كتاب الاقتضاب في الطبّ ومحضره «انتخاب الاقتضاب» وأشعاراً بالسريانية . ويُقال إنّه ترك تركة عظيمة المقدار .

وكان أبو الحسن (أو الحسين) صاعد،<sup>(١١)</sup> أخو أبي الحسن الأكبر، طبيباً أديباً فيلسوفاً منطقياً، ووضع كتاباً في الدفاع عن النصرانية فضلاً عن كتاب الصفوة في الطب، ومات سنة ١١٩٥/٥٩١، وكان هو أيضاً محبياً إلى الناصر.

وقد صار أخوه الثالث الأصغر، سبريشوع، جائلاً<sup>(١٢)</sup> سنة ١٢٢٦ وسوف نلتقيه من بعد.

كان الجيل التالي من بني المسيحي أقل شهرة وأسوا سيرة. فقد ارتكب أبو علي<sup>(١٣)</sup> ابن أبي الحسن رئيس الشمامسة أخطاء مهنية عدّة وبدد ما خلفه له أبوه من ثروة في الفسق والمجون. وقد قُبض عليه وحُكم عليه بالقتل سنة ٦١٧ / أيار ١٢٢٠ ولكنَّه افتدى نفسه بستة آلاف دينار جمعها من بيع الكتب والنفائس التي كانت لأبيه.

وفي أسرة المسيحي عينها نجد، في خدمة الناصر أيضاً أبو الفرج المتطلب الذي توفي سنة ٦٠٠ / آذار ١٢٠٤<sup>(١٤)</sup>، وأخرجت جنازته ليلاً<sup>(١٥)</sup> وحضرها حشد عظيم من النصارى في كثير من الشموع، ودفن في كنيسة الكافيين.

رأينا من قبل أن أبو الحسن الكبير عجز عن شفاء الناصر سنة ١٢٠١/٥٩٨ - ١٢٠٢ . فاستدعي واحد من أفضل جراحي الكرخ هو ابن عكاشه. وبعد عدّة علاجات غير مجدية توصل طبيب نصراني آخر هو أبو نصر سعيد بن أبي الحسن (غير الأول) بن عيسى<sup>(١٦)</sup> إلى مداواته بالمرهم المحلل للحصى. فأغرق بالهدايا وأذن له الخليفة بأن يأخذ ما يقدر على حمله من مال. زد على ذلك أن أبي الخليفة والوزير ابن المهيـ وعدهـ أمراء آخرين غمروه بالصلات وعلائم التشريف، كما أنَّ الناصر أجرى له رزقاً سنويًّا يصل إليه حتى يوافيه الأجل.

ومن أشهر في ذلك العصر أيضاً أبو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراني الطبيب الشاعر، المتحدّر من الطيب، المولود بالبصرة التي أقام بها حتى وفاته سنة ١١٩٣/٥٨٩ ،<sup>(١٧)</sup> صاحب المقامات.

كان هؤلاء الأطباء يعالجون المرضى في البيمارستانات، ومنها البيمارستان العضدي الذي وصفه ابن جبير حين زار بغداد، سنة ١١٨٤/٥٨٠ ، بهذه العبارة:

«بين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخيس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرثبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مراافق المساكن الملكية، والماء يدخل إليه من دجلة». (١٨)

### البطريرك ميخائيل والسلامقة

في القسم الغربي من الخلافة العباسية، أي بلاد سلاجقة الروم (آسيا الصغرى)، كان لميخائيل الأول بطريرك المغاربة من السريان (اليعاقبة) علاقات ودية جدًا بالسلطان قلوج أرسلان الثاني (١١٥٥ - ١١٩٢) قاهر الإمبراطورية البيزنطية في العام ١١٧٦. وقد جرت لقاءات الرجلين في العامين ١١٨١ - ١١٨٢ (١٩)، بخاصة. لا يذكر ميخائيل كيف كان ابتداء أمر العلاقات، ولعلها انجررت عن زيارة تهنئة وهداياً بمناسبة فتح السلطان ملطية سنة ١١٧٧، على أية حال، يذكر ميخائيل أنَّ السلطان لما اجتاز بالمدينة سنة ١١٨١ «استخبر عن حقارقي... وأرسل إلى رسالة موَدةً وعصا رعوية وعشرين دينارًا حمراً. فاندهش الجميع لذلك!».

في تموز من السنة التالية اجتاز السلطان بعلطية مرَّة ثانية فاستدعاي البطريرك وأرسل لصاحبه موكب شرف ضمًّ ثلاثة أمراء في «جمع من الفرسان». فتحير عقل ميخائيل: «دهشت لما رأيت أمراً خارجاً عن العادات... وانتابني الخوف وذهب وهي إلى أنه ربما قد دُسَّ الحنظل في العسل». (٢٠)

وكان السلطان قد رسم بأن يكون دخول البطريرك عليه «على ستة النصارى بالصلب والإنجيل... فاستكثر النصارى من الشموع وشكروا الصليبان في أطراف القنا وجهروا بتزانيهم في الصلاة». فلما حصل البطريرك بين يدي السلطان الراكب على فرسه، في ما يبدو، لم يدعه يترجَّل عن مطئه ولا تركه يقْبَل يده بل عانقه، ثم سار الموكب السلطاني إلى الكنيسة حيث تليت الصلوات والأدعية لنصرة السلطان.

وقد حَطَّ السلطان الجزية عن دير [مار برصوما] وأهداه «كُفًا من الذهب

الحرّ، مطعّماً بالجواهر واللآلئ، فيها ذخائر من القديس بطرس». (٢١) ولم ينزل السلطان يستقبل البطريرك في مجلسه طيلة الشهر الذي نزل فيه بالمدينة. وقد دارت الأحاديث حول موضوعات «المسيح والأنبياء والموارين الخ»، وهذا يدلّ على أنّ ذلك السلوكي على الأقلّ كان يهتمّ بالسائل الدينية. وربما حضر بعض المناظرات فيلسوف السلطان «وهو رجل فارسي بلغ العبارة يدعى كمال الدين». (٢٢) وجرياً على عادة الملوك الذين يصطحبون البطاركة في حلّهم وترحالم، أمر السلطان ميخائيل بأن يصحبه.

وفي ما بعد كتب قلچ أرسلان، لدى انتزاعه اثنين وسبعين حصناً من الروم، رسائل عدّة إلى البطريرك، يقول في إحداها، على يد كاتب نصراني في أغلب الطنّ: «من قلچ أرسلان سلطان بلاد الروم والشام وأرمينية الأكبر إلى ميخائيل البطريرك صديق السلطنة والداعي لنا بالنصر. نذكر أنَّ الله أعزَّ ملكتنا في هذه الأيام بدعائك... ونذكر أنَّ الله أنعم علينا بهذه الأشياء كلّها استجابة لصلواتك. نطلب إليك ألا تكف عن الصلاة لدوام ملكتنا. حفظك الله». (٢٣)

نقتصر من هذه الواقع على أنَّ السلطان كان يعُد صلاة البطريرك مستجابة، وأنه كان يجهله لأجل ذلك، ولا نعرف هل تغيّر هذا الموقف من بعدهما انقلب الزمان عليه في أواخر حياته. أمّا من جهة البطريرك فنلحظ صيغة التعجب وعسر التصديق أمام لطف الكبار وحسن التفاهيم إليه: «وهذا أمر غير معهود»؛ كما نلحظ خشيته من أن يُدْسِن الحنظل بالعمل.

وأنا لو لم أخشى المبالغة في التبسيط لقلت إنَّ الاعتقاد الخرافي (بقوى الأخبار الغيبية) كانت له اليد الطولى في تشكيل الصلات بين أوائل السلاجقة وأحبار النصارى. إلّا أنَّ الاعتقادات الخرافية كانت تقوم أحياناً بدور مناقض مثلما حدث سنة ١١٥٢ إذ ألقى في روع قره أرسلان أنه «حيثما تبني كنيسة جديدة يموت أمير البلد» فأمر بتهديم كنيسة للأرمين في ناحية حنزيط وصليب القدس. (٢٤)

ولنلحظ في هذا المعنى أيضاً تعليق ميخائيل السريانـ (٢٥) على ذكر وفاة أمير حصن كيفا نور الدين محمد سنة ١١٨٥: «لقد حلّت عليه العقوبة لأنَّه كان قد

انتزع أعمدة المرمر من الكنيسة وأدخلها في جملة بناء داره فهات». كان النصارى يعتقدون هذا الاعتقاد لـما فيه حمايتهم، وقد كان يشاطرهم اعتقادهم هذا بعض المسلمين. وقد أدركتُ أنا آغا كردياً، من نواحي العَقْر بشمالي العراق، كان يقول لي إنه لا يعجب من أن داره تنهار دائمًا «لأنها قد بنيت على كنيسة قديمة».<sup>(٢٦)</sup>

وقد شهد العام ١١٨٦ اشتراك النصارى والمسلمين في خوف عظيم. فقد تبّأ المنجمون بكارثة تحلي بها الرياح في ١٤ أيلول من ذلك العام. فاحتضر الملوك وكل المقتدرين الأقبية والسراديب تحت الأرض أو أبتووا الدور المتينة. ولما جاء ذلك اليوم توقف البيع والشراء في انتظار الكارثة. ولكن لما مر ذلك اليوم من دون أن يحصل شيء مما قيل «ازدرى الملوك المنجمين وبندوهم لما يخدعون الناس بصناعتهم». ولئن كان ميخائيل السرياني يقول: «إن النصارى والراسخين منهم في الإياعان بخاصة لم تكن تغّرّهم هذه الأباطيل» فهو مع ذلك يضيف أنهما «واظبا على إقامة الصلوات والبواعيث، وعلى الصوم والصدقات». وبعد أن يتبّع ما يُنسب إلى النجوم من حق ومن باطل، خلص البطريرك إلى أن التنجيم قد يفيد في معرفة الغيب ولكن الله قادر على تغيير مجرى الأحداث «لرأفته بالبشر».

## فتح صلاح الدين بيت المقدس

كان احتلال الصليبيين قسماً من بلاد المسلمين قد أدى إلى نوع من التعابيش القائم على توازن غير مستقر. فمن ذلك أنه لما أراد الفرنج، سنة ١١٨٣/٥٧٨ تحرّب مسجد داريَا إلى الجنوب من دمشق،<sup>(٢٨)</sup> أندروا « بأنكم إذا خربتم الجامع جدّدنا عمارته، وخرّبنا كلّ بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكّن أحداً من عمارتها» فتخلّى الفرنج عما كانوا عزموا عليه. ولعلّ مساومات أخرى قد جرت بين الفريقين.<sup>(٢٩)</sup>

إلا أنّ كفة المسلمين لم تزل تميل إلى الرجحان، حتى جاء العام ١١٨٧/٥٨٣ بحدث كان له وقع النكبة في العالم النصراني بأسره شرقاً وغرباً: إنّه فتح صلاح الدين القدس.

بكى النصارى السريان كلّهم سرّاً على سقوط المدينة المقدّسة في قبضة صلاح

الدين، مع أن المسلمين لم يتصرّفوا فيها بنفس الوحشية التي أظهرها الفرنج<sup>(٣٠)</sup> لما ملكوها. وبعد سنة من ذلك نجد رَبِّن عزيز، وهو من يعاقبة بروطلي القرية من الموصل، يؤرّخ الفراغ من نسخ مخطوطة «بالسنة الأولى بعد الفتح الرهيب لبيت المقدس»<sup>(٣١)</sup>. وبعد ستين سنة، أي سنة ١٢٤٧، كتب سبريشوع الخامس جاثليق النساطرة إلى البابا إينوكتوس الرابع: «كان من الواجب على كنائس المسيح كلها وعلى الأديرة وكل المؤمنين في الشرق والغرب أن يلبسوا المسوح ويجلسوا للأحزان ويبكونوا على بيت المقدس وعلى ما حلّ به في أيامنا»<sup>(٣٢)</sup>.

وقد أحْسَنَ السريان أنهم مسؤولون قليلاً عن هذه النكبة. فمن ذلك ما يكتبه البطريرك ميخائيل: «لقد خُذلَ الفرنج بسبب خطايانا نحن، ومرّقا إرباً... وأنا أقول إنّه لو لا خذلان الله لما حلّ بهم هذه الهزيمة»<sup>(٣٣)</sup>.

إنَّ نصارى بغداد وإن ظلُّوا غير مبالين<sup>(٣٤)</sup> بعراقة الأسرى من فرسان الفرنج «بدر وعهم ورایاتهم المنكوبة»، فإنَّ بوسع المرء أن يجزر غيظهم العاجز الكظيم لما رأوا صلاح الدين قد بعث إلى الخليفة الصليبي الذي كان قد نصب على قبة الصخرة بالقدس (وهو صليب برونزي ملبيس بالذهب) «ليدفن تحت عتبة بوابة بغداد المسماة بباب النبي الشريف ويستبقى منه جزء مكشف بحيث يدوسه المارة بالأرجل ويصقون عليه»<sup>(٣٥)</sup>.

يبدو أنَّ نَبَأَ فتح القدس قد أدى إلى موجة اضطهاد للنصارى في أماكن شتى من المملكة العباسية، وإن كنا لا نملك شهادات أخرى غير شهادة ميخائيل السرياني الذي عاصر<sup>(٣٦)</sup> الحدث وكتب يقول: «إنَّ ما أنزله المسلمون من احتقار وإهانات وشتائم بالشعب النصراوي المصطهد بدمشق وحلب وحرّان والرُّها وأمد وماردين والموصل وسائر أنحاء المملكة لأمر يعجز عن وصفه الكلام». لم يكن من شأن ذلك كله إلَّا أن يعمّق الهوة التي فصلت بين النصارى والمسلمين، ويعزّز المشاعر التي برزت سنة ١٢٥٨، لدى دخول التتر بغداد.

وقد أسهمت هذه الأحداث أيضًا في خلق فراغات جديدة في صفوف النصارى. لا نملك أسماء من أسلم منهم ببغداد في تلك السنوات. أما بدمشق فإن

طبيب صلاح الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح الياس بن جورجيس الملكاني المذهب والملقب بموقّع الدين بن المطران<sup>(٣٧)</sup> قد أسلم «جُبًا للدنيا الزائلة» على قول ابن العربي<sup>(٣٨)</sup> الذي يضيف أنه «ما عتم أن مات وأضحمه ذكره»، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٨٥ / نيسان - أيار ١١٨٩.<sup>(٣٩)</sup>

في السنة التالية، ١١٩٠ / نيسان ٥٨٦، مات الجاثليق إيليا الثالث أبو حليم عن حوالي ستين سنة قضى منها أكثر من ١٤ سنة في كرسي البلاطة.<sup>(٤٠)</sup> إن التراجم التي كتبها لأعياد الرب «بلغة مذهبة رائعة»<sup>(٤١)</sup> معروفة جيداً، كما أن أرجازه البالغة الصنعة لم تزل تنشد في حفلات الزفاف والجنائز بالعراق.

لم يشغل كرسي البلاطة بعد موته إلا ثلاثة أشهر فيها يبدو. ذلك أن يابالاها بن قيوما<sup>(٤٢)</sup> الموصلي، مطران نصبيين «لَا رأى أَنَّ لَا الأساقفة ولا البغداديين يريدونه»، وكان رجلاً جسراً، دفع سبعة آلاف دينار لصاحب بغداد فأجبر الأساقفة على اختياره وسيامته. وهذه التفاصيل مذكورة في تاريخ ابن العربي اليعقوبي المذهب، الذي قلماً يلين قلبه على النساطرة.

XXXIII وكانت سيامة يابالاها الثاني في أواخر صيف سنة ١١٩٠ / ٥٨٦.<sup>(٤٣)</sup>

### هنا يظهر ابن فضلان

رأينا جورج مقدسي يقول لنا من قبل «إن الصحوة الستية التي ميّزت القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، لم تكن من صنع الخلفاء ولا السلاطين، بل كانت للعلماء فيها حصة الأسد».<sup>(٤٤)</sup> ومن الشواهد الدالة على دور هؤلاء العلماء ما جرى في خلافة الناصر إذ ذكر أحد مدرسي المدرسة النظامية الخليفة بواجهه حيال أهل الذمة. أما هذا العالم فهو أبو عبدالله محبي الدين محمد بن محبي. وكان أبوه، أبو القاسم جمال الدين محبي فقيها شافعياً يدرس في النظامية. وقد كان ابن فضلان<sup>(٤٥)</sup> قد درس على أبيه ثم في خراسان، ثم خلف أبيه في التدريس لما مات هذا سنة ١١٩٩. بعيد ذلك<sup>(٤٦)</sup> أرسل إلى الخليفة رقعة طويلة<sup>(٤٧)</sup> يقول فيها: «مذهب الشافعي... يقضي أن الماخوذ من أهل الذمة.. في كل سنة أجراة

عن سكناتهم في دار السلم<sup>(٤٧)</sup> والارتفاع بمرافقها لا يقتدر في الشع بمقدار معين في طرف الزيادة ويقتدر في طرف النقصان بدنيار». لأن «منهم من هو في خدمات الديوان وله المعيشة السيئة غير تركته يده المتده إلى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل. ولعل الواحد منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة».

ثم ضرب هذا العالم أمثلة على الامتيازات المتاحة للذميين ومنها: «أن ابن حاجب القيصر<sup>(٤٨)</sup> أقام ابن محز الفقيه من طرف موضع كان به وأقعد مكانه ابن زطينا<sup>(٤٩)</sup> كاتب المخزن»، ومنها أنَّ ابن ساوا<sup>(٥٠)</sup> كاد يولى على واسط الخ... وبعدهما ذُكر بما استئنَّهُ الحلفاء الراشدون أمثال عمر وعليٌّ من سنة التشدُّد في معاملة الذمة قال: «ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام (بغداد)».

ثم ثُمَّ هذا الفقيه بانتقاد كلَّ أولئك الذميين «من أصحاب المكاسب الجزيئة»<sup>(٥١)</sup>: فمنهم أطباء لا يحجبون عن الدخول على الأعيان «معما يحيطون في المعالجات... ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل من مسائل حنين وحسن قوائم من تذكرة الكحالين... ومنهم أرباب المعاش من العطارين والمخلطين والكساريين أصحاب المكاسب الظاهرة والارتفاعات الكثيرة بأموال التجار المسلمين... ومنهم أصحاب الحرف والصناعات من الصاغة وغيرهم» الذين يتلاعبون في الذهب والفضة، ومنهم الجهابذة والصيارة الذي يستغلون مكاسبهم غير المشروعة لإغواء نساء المسلمين وصبيانهم «وبذل جزيل المال في تحصيل أغراضهم في الفساد ورفاهية العيش والتلذذ في المأكل والمشاب. ثم ما زالوا على اختلاف الزمان يؤخذون بالصغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم». ثم ذُكر ابن فضلان «بالشروط» (التي ينسبها إلى عمر بن الخطاب) وبينَ أنَّ هذا «ما جرت به العادة» أيام الموكِّل وأنَّ المقتنى كان آخر من فرضها. فاطلع الخليفة على الرقة ولم يرَد على الفقيه. وسوف نلتقي هذا الفقيه عينه في خلافة المستنصر ولكن في موقع يمكنه هذه المرة من تنفيذ آرائه المتشددة.

يفهم من هذا إذن أنَّ كثيرين من النصارى كانوا يحتلُّون مناصب مهمة في السنوات الأولى من خلافة الناصر. ونجد من بين الذين احتاجَ ابن فضلان على

توليتهم أمور الناس رجلاً كثر الحديث عنه: إنه أبو الغنائم نصر بن ساوا (واسمها الأصلي عديشوع<sup>(٥٢)</sup>) الذي خلف الأمير علاء الدين تناوش الناصري على الدجيل والداقوق من بعدهما مُنع من توليِّ النظر بواسط. إلا أنه ما لبث أن اتَّهَم في العام ٦٤٠ / كانون الأوَّل ١٢٠٧ بتدبير موت سلفه بالسم، ثم أدين. وكان قد أخرج ١٠٠٠ دينار ليفتدي نفسه بها، فما دفع عنه ماله. فقطعت يداه ورجلاه ثم صُلب أمام دار الأمير. ويعتبره صليباً «شهيداً».

مهما يكن من الأمر، فالظاهر أنه لم يقع اضطهاد عام في تلك الفترة، لأنَّ صليباً نفسه يختم ترجمة يابالاها الجاثيلق قائلًا: «وفي أيامه كان النصارى آمنين في عيش هنيء».

والحق أنَّ طائفة النصارى لم تعد تخيف أحداً، باستثناء بعض المتعصبين الذين يودون إذلال «القلة الباقيَة»، أو أصغر طفاة الأرياف الذين يودون أن يعتصروا منهم آخر دينار يمتلكونه. من هذا المنظور يكتب R. ARNALDEZ عن فخر الدين الرازي (ت ٦٠٩ / ١٢٠٩) فيقول إنَّ كتابات هذا المتكلِّم المسلم «تُوحِي في قوَّةَ بَأْنَ الْأَمْرَ كَانَ قَدْ حَسِمَ فِي عَصْرِهِ وَفِي بَيْتِهِ (فَالْأَزْمَاتُ اللاحقةُ قَدْ جَاءَتْ مِنْ بَيْتَاتٍ أُخْرَى): فَقَدْ صَارَ فِي حُوزَةِ الإِسْلَامِ نَظَامٌ دَفَاعِيٌّ لَا يُخْرِقُ، وَعِلْمٌ كَلامٌ وَطِيدٌ لِأَرْكَانِهِ وَلَمْ تَعْدِ النَّصَارَى، مِنْ حِيثِ هِي نَظَامٌ حَيَا وَتَفَكَّرَ، تَمَثَّلَ خَطَرًا عَلَى الْعِقِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ أَكْبَرَ مَا كَانَ نَصَارَى دَارِ الإِسْلَامِ يَشَكَّلُونَ، مِنَ الْوِجْهَةِ السِّيَاسِيَّةِ، خَطَرًا عَلَى السُّلْطَةِ الْزَّمِنِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ».<sup>(٥٣)</sup>

أمَّا عن الأحوال العامة فقد كان من شأن أمر الخليفة الناصر، سنة ٦٠٤ / ١٢٠٧، بإلغاء المكوس على المبيعات وبناء «دور ضيافة» ليفطر فيها القراء<sup>(٥٤)</sup> في رمضان، كان من شأن ذلك الأمر أن يجهزنا لو لم نعلم أنَّ هذا الخليفة المتقلب المزاج قد أمر بعد قليل بخلاف ذلك: ألغى دور الضيافة وأعيدت المكوس. وقد وقع في السنة عيناً في بيان من ناحية باب كلواذى ربيماً أصحاب نصارى سوق الثلاثاء المجاورين لهذا الباب، وفيهم الجاثيلق الذي كان ينزل هناك.

تذكر هنا وفاة طبيب نصري آخر من بغداد، إنه المهدب بن هبَّيل من تلاميذ

أبي البركات الطبيب اليهودي. وكان قد مارس المهنة في مدينة خلاط بأرمينية ثم رجع إلى الموصل وبها مات سنة ١٢١٣/٦٠١ عن حسن وتسعين سنة. وله من الكتب كتاب المختار الذي لم يزل مستعملًا حتى أيام ابن العربي.<sup>(٥٥)</sup>

ثم تمرّ عشر سنوات ينعم فيها النصارى بهدوء البال ويوافي الأجل يابالاها الثاني بعد واحد وثلاثين عاماً ونيف. سنة ٦٦٨ / ١٢٢٢ آخر كانون الثاني، فيدفن بالعتيقه في كنيسة السيدة مارة مريم<sup>(٥٦)</sup> المعروفة بكنيسة العتيقه، أي بالحي الجنوبي الغربي من بغداد. وكان يابالاها ظاهراً ذكياً خبيراً بالمداراة واجذاب قلوب الناس متقدماً عند الملوك.

### سبرি�شوع بن قيوما

XXXIV بعد موت الجاثليق يابالاها الثاني، اجتمع أساقفة المشارقة من السريان «وطلب كل واحد منهم الرياسة لنفسه»، على قول صليبا. ربما كانت هذه علامه طيبة: كان المنصب مرغوباً فيه لا عنه! انقسم العلمانيون إلى حزبين: منهم أقلية ترشح الأسقف سبريشوع بن المسيحي الذي كان، فضلاً عن علمه وفضله وتقواه، من أخوة الأطباء المشهورين منبني المسيحي، وهذا مما لا بأس فيه. وأماماً الأكثرية من العلمانيين فكانت تفضل أن يتُخَبَّط الأسقف سبريشوع بن قيوما،<sup>(٥٧)</sup> الذي كان، على قول صليبا، ابن أخي الجاثليق السابق، فتعلّم عليه فن السياسة «والعلاقات العامة»، وكان مثل عمّه: «يكاتب الشعب ويستميل قلوبهم».

ويروي ابن العربي، الذي لا ينفي لسانه عن القدر بالنساطرة، نفس قصة الرشوة المدفوعة إلى الوالي، ويدرك المبلغ نفسه أيضاً (٧٠٠٠ دينار)... أمّا الوسيط فكان الطبيب اليعقوبي الواسع النفوذ، أمين الدولة، الذي ستتكلّم عنه فيما يلي. وافق الخليفة الناصر على الانتخاب والباقي معروف: سيامة، زيارات رسمية، الخ. لنعد إلى الوسيط. كان أمين الدولة أبو الكرم صاعد بن توما،<sup>(٥٨)</sup> المعروف بفضائله، طبيباً وكاتباً وزيراً لنجم الدولة أبي اليمن نجاح الشراي ثم صار من خواص الخليفة الناصر «حتى أوكل إليه تدبيرسائر أمور الملكة وتدير شؤون أبنائه وبناته<sup>(٥٩)</sup> ونسائه» وكذلك تدبير دواوين عدّة وجعله مبتهلة وزير.

إلا أن سيرة هذا الطبيب اللامع آلت إلى نهاية مأساوية إذ قُتِلَ غيلة سنة ١٢٢٣/٦٢٠. لأي سبب؟ لا نعرف شيئاً مؤكداً غير عدد القتلة. يقول ابن أبي أصبيعة إنه خاطب «رجلين من الجندي، بما فيه بعض المكره» فتعقباه وطعناه بالسكاكين فأعدما. إلا أن رواية ابن العربي أدق تفصيلاً، وتبدو بدسائس قصور بغداد أشبه.

يقول ابن العربي إن الخليفة الناصر عَشَّي وصار شبه أعمى وكان يخفي ذلك لثلاً يعزل. وكانت مكاتباته مع الوزير تكتبه امرأة خطّها يشبه خطّه، هي السيدة نسيم صاحبة تاج الدين رشيق الحصي. ولكن الوقت لم يطل بالوزير مؤيد الدين القمي حتى استраб من الأمر، فاستفسر من الطبيب، فأطلعه على عمي الخليفة، فجئ على نفسه، وساعته عاقبة أمره. إذ أمر الخليفة أبي قمر الدين بقتله ثم صلبها فوراً لأنهما رَبِّا شهدا بما علمَا، وأرجف بأن تجافيه مع الجنديين كان السبب في اغتياله.

وما يوحى بأن رواية ابن العربي صحيحة في معظمها هو ما عقب قتل الطبيب من مصادرة الخليفة ما خلفه القتيل من نقد ٨٠٠٠ و ١٣٠٠٠ دينار والكافر عنها سوى ذلك من متاع (قيمه مليون دينار) وتخليته لأولاده الثلاثة، شمس الدولة وفخر الدولة وتاج الدولة<sup>(٦٠)</sup> الذين كانوا من أصحاب الجاه والشهرة.

## موت الخليفة والجاثلية

دامت جثة سبريشع بن قيوما أقل من ثلاثة سنوات، ومات سنة ١٢٢٥/١١ حزيران، بعدما دبر الرعية تدبيراً حسناً، ودفن بالقرب من عمّه.

ومات الخليفة الناصر في السنة نفسها في ٦ تشرين الأول. «وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، فخرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكه وأموالهم» على قول ابن الأثير.<sup>(٦١)</sup> أما ابن العربي<sup>(٦٢)</sup> فقد حفظ لنا ذكرى جولاته متذكرةً في أسواق بغداد، مؤكداً أنه كان يقتل كل من كان يتعرّف له؟. كان الناس يتهارون من أمامه «وكان الرجل إذا سار مع امرأته ليلاً خاف أن يجدّثها حديثاً

كيفما كان إذ كانا يخافان أن يكون الخليفة معهما في البيت أو في النافذة أو على السطح». (٦٣)

لنظر، بعد هذا الفولكلور، إلى تقويم جدي لسياسته في الحكم قدمته إنجليكا هارتمان: (٦٤) كان هو نفسه شيخاً (٦٥) من شيوخ الخنابلة، واستعان باليول الدينية القائمة ليعيد السلطة إلى الخلافة ويتخلص نهائياً من نفوذ السلاغقة. وللتوصيل إلى هذا المدف لم يعد هذا الخليفة مجرد «تأييد مطالب أولئك العلماء الذين كان يحتاج إليهم للتقارب من العامة». (٦٦)

ولئن كان لم يستعمل هذا الأسلوب، كما أظن، في التعامل مع مطالب ابن فضلان، فإن ذلك يعود إلى سببين: أولها أن النصارى والأطباء منهم بخاصة (مثل أمين الدولة الذي بقي حتى العام ١٢٢٣) كانوا لا يزالون يتمتعون بنفوذ كافٍ ليحولوا دون إصغاء الخليفة إلى مقالة الفقيه ابن فضلان. (٦٧) وثانيهما أنّ الأمر لم يعد يستحق الاهتمام، لأنّ عدد النصارى قد أصبح ضئيلاً وإن كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة.

## الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩. وهو أحد الرجلين اللذين يصفهما هيربرت ماسون في كتابه *Two Statesmen of Medieval Islam* أَمَا الثاني فهو ابن هبيرة الوزير، وكُنا ننتهي لو أنّ لهذا الكتاب فهرساً. انظر F. TAESCHNER E.I<sup>1</sup>, III, p. 920-921 par HARTMANN, *An Nasir Li Din Allah*, cit.

(٢) CAHEN, *Baghdad au temps de ses derniers califes*, p. 300-301.

(٣) الكامل، ج ١١، ص ٤٧٦.

(٤) استناداً إلى مضمار الحقائق وسر الخلائق للملك المنصور، مذكور في كتاب HARTMANN عن الناصر، ص ٢٩٧، رقم ١٣.

(٥) استناداً إلى سبط ابن الجوزي، مرآة، ص ٣٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ - ٢٩٨. يلاحظ الأستوي، ص ١٩ - ٢٣ (من غير ذكر التاريخ) أنّ صلاح الدين أصدر أمراً ماثلاً بتحريض من قاضي دمشق محى الدين بن الزكي الذي نراه يدح صلاح الدين سنة ١١٨٣/٥٧٩ ويصلّي معه في قبة الصخرة سنة ١١٨٧/٥٨٣.

الكامل، ج ١١، ص ٤٩٧ - ٥٥١. أمّا المحجج التي ساقها القاضي فهي: اختلاسات الكتاب النصاري من مختلف الرتب، ورذائلهم: السكر والزنا حتى بالنساء المسلمات، وتسللهم حتى إلى داخل قصور الأمراء. وهو يورد على ذلك مثال رجل مسلم اضطر إلى تقبيل يد كاتب نصراني، عظيم الفوز عند الأمير، ليتمكن من بلوغ حاجته. - وينه布 الأستوي (ص ١٠ - ١١) إلى أن حيل الكتاب النصاري واختلاساتهم كانت تمحى من تشيد الكنائس والأديرة أو تجديد عمارتها بينما مساجد المسلمين تتداعى إلى الحراب. - ولن يتهم النصاري بحرق مساجد المسلمين بمصر ودمشق إلا في القرن الرابع عشر (المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤). - عن هذه النقطة الأخيرة أنظر صلاح الدين التمجد حريق الجامع الأموي بدمشق، ١٢٣٩/٧٤٠ في مجلة المجمع العلمي بي دمشق، ٣١ (١٩٥٦) ص ٣٥ - ٤٧.

ويتقد D.R. MACDONALD في كتابه *The Religions Attitude and Life in Islam* ، ص ٣٣ - ٣٤، المنجد لأحنه «اعترافات» المتهمن «على ظاهرها».

- (٧) محمد بن تقى الدين الأيوبي، مضمون الحقائق، ص ٧٤.
- (٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٣.
- (٩) المصدر نفسه، ص ١٩٣. وهو يقابل الواقع المحزن باستعلاء البعثادين وافتخارهم ببغداد: «قد تصوّر كلّ منهم في معتقده وخلده أنَّ الوجود كله يصغر بالإضافة إلى بلدِه».
- (١٠) ابن العبرى، المختصر، ص ٤١٦. ابن أبي أصييعة، ص ٤٠٣ - ٤٠٥: ابن القسطى، ص ٤٢٨؛ BAUMSTARK p.306 HARTMANN, P. 299; دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠ .
- (١١) ابن القسطى، ص ١٤٤ - ١٤٥. ابن أبي أصييعة، ص ٤٠٦ . GCAL, II, p. 200. دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠ . HARTMANN, P. 299; Islamochristiana, 2, p. 225 (no. 22.17) avec réf.
- (١٢) ابن القسطى، ص ٢٦٨. الحوادث الجامعية، ص ١٣ . HARTMANN, P. 298
- (١٣) ابن الساعى، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٣٢ . HARTMANN, P. 299
- (١٤) هل كان ذلك إبان فترة كان يحظر على النصارى فيها إخراج جنائزهم نهاراً؟
- (١٥) ينسب إليه ابن أبي أصييعة كتاب الاقضاب، ص ٢٩٨ - ٣٠١، ٣٠٢؛ دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠ . HARTMANN, P. 298
- (١٦) ياقوت، إرشاد، ج ٧، ص ٢٩٧؛ ابن القسطى، ص ٢٣٦؛ شيخوخ، شعراء، ص ٣٤٧ - ٣٥١ .
- (١٧) التي حقق القسم الأول منها الأب أنتناس الكرمي، ونشرها في مجلة الشرق، ٣ (١٩١٠)، ص ٥٩١ - ٥٩٨.
- (١٨) رحلة، ص ٢٠١ .
- (١٩) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩٤، ٣٩١ - ٣٩٥ .

- (٢٠) إنَّ O. TURAN الذي يصوِّر العلاقات بين سلاطين السلاجقة وبين النصارى بصورة مثالية، يغفل هذه الجمل المترضة، أنظر كتابه، ص ٧٦ - ٧٨.
- (٢١) حبذا لو كنَّا نعرف مصدر هذه المذخائر.
- (٢٢) الفقيه الشافعي كمال الدين بن يونس، أنظر ابن خلkan، وفيات، ج ٥، ص ٣١٢ - ٣١٣. وقد درَس لاحقاً بالموصل حيث «كان أهل الذمة يقرأون عليه التوراة والإنجيل ويشرح لهم هذين الكتابين شرعاً يعترفون أنَّهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله»، على قول ابن خلkan. وانظر أيضاً كتاب أسامي عاتوي كوز الفكر العربي، بيروت ١٩٨١، ص ٦٧، ٧٤.
- (٢٣) ثُمَّة مثال على هذه الصلوات الطقسية في المخطوط العربي والكلداني، رحاني - شرفه رقم ٦٤٩ (فهرست بهنام سوبي، الورقة ٣١ - ٣٢). - وانظر أيضاً الترجمة السريانية لإليا أبو حليم، تحقيق يعقوب نعمو، الموصل، ١٨٧٣، ص ٣٠٦ - ٣١٠.
- (٢٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٠٧ - إنَّ O. TURAN الذي يورد الخبر (ص ٩٣) ينسبه إلى أسباب منها «القرب من ديار المسلمين»، لأنَّ العرب عنده أشدَّ تعصُّباً من الترك.
- (٢٥) ج ٣، ص ٣٩٦.
- (٢٦) عن الاعقاد بالمصائب التي تحُلُّ بالذين يقتبسون الكنايس، أنظر F.W. HASLUCK Christianity and Islam Under the Sultans, Oxford (1929), I, p. 21-22.
- (٢٧) ج ٣، ص ٣٩٧ - ٤٠٠؛ وقد كان أورد نبوءة كاذبة أخرى من نبوءات المنجمين في المصدر نفسه، ص ٣٥٢.
- (٢٨) الكامل، ج ١١، ص ٤٨٤. - ويقال إنَّ بلاً، مؤذن الرسول، أقام فيه.
- (٢٩) بعدمَا أخذ الصليبيُّون عكا، أراد صلاح الدين تهديم كنيسة القيامة بالقدس، إلا أنه عدل عن قصده خشية أن ينتقموا من المساجد ببلاد النصارى، Claude CAHEN, Indigènes et Croisés, Syria, XV (1934), p. 355, note على تكليفه بالنصارى تنكيلاً يخفي معه الانتقام من تجار المسلمين في أراضي الروم. مذكور في: PERLMANN, Asnawi, p. 202
- (٣٠) ولكن علينا ألا نغفل أيضاً عن رواية شاهد عيان هو الرهاوي المجهول (ج ٢، ص ١٥٠) الذي يتميَّز عادة بالحاديَّات، ولا عن رثاء البطريرك الأرمني غريغوريوس دغا، في Recueil des historiens des Croisades. Documents arméniens, t.I, p. 279-280 أبي أصبيعة: «ولم يسلم من البيت المقدس من الأسر والقتل وزون القطعية سوى بيت هذا الحكيم المذكور (أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانه) وكتب له كتاباً إلى سائر مالكه يربِّ ويحرِّا بمساحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى فأعفوا منها إلى الآن»، ص ٥٨٧ - ٥٨٩. ويدعُ كلوذ كاهن الذي يورد هذه الجملة في: Indigènes et Croisés, p. 351-360 إلى أنها تتطوّي على مبالغة. وعلى الرغم من التعذيات

التي ارتكبها عسكر صلاح الدين فإن الرجل كان يتحمّل مبناقب «الفارس» الأصيل كما تشهد به قرائن علة. وإنّ الرأي الذي يرويه عنه جوائفيل، مؤرخ الحروب الصليبية، فيمن يمرّون من دينهم ليستحقّ أن يورد هنا: «لم يُرّ فقط نصارىً صالحاً حسّن إسلامه ولا مسلماً صالحًا حسّنت نصرانّيته»، Saint Louis, Paris, 1963, p. 84.

(٣١) Wright, P. 257-258 . المخطوطة السريانية، رقم ٣١٨ بالمتحف البريطاني.

S. GIAMIL, Genuinae relationes inter Sedem Apostolicam et Assyriorum Orientalium (٣٢)

seu Chaldeorum Ecclesiam, Rome, 1902, p. 2

(٣٣) ج ٣، ص ٤٠٤ .

(٣٤) يقول E. SINAN: «أبدى نصارى المشرق لا مبالغة تامة حيال الصليبيين، محركهم المزعومين» في الصفحة ١٢١ من كتابه: Chrétiens sous les Ayyoubides . - ليس هذا ما يتراءى لقارئه ميخائيل السرياني أو تاريخ الراهواي المجهول. أنظر مقالتي:

Chrétiens syriaques entre Croisés et Mongols. Symposium Syriacum, Rome 1972; in Orientalia Christiana Analecta no. 197 (1974), p. 327-341.

(٣٥) وترى مصادر أخرى (حبيب الزيارات، السمات المميزة، ص ١٥ ، الصليب في الإسلام ص ١٠ ) فيه صليبياً من صلبان الصليبيوت، أي صلبان الحرب لا «الصلبيب الحقيقي». - عن أحد صليب الصليبيوت، في خطين سنة ١١٨٧، أنظر عماد الدين الأصفهاني الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، مصر ١٣٢١ هـ. وقد أرسل صليب خطين إلى دمشق مع عدد من وجوه الأسرى، وقد حلّه مقلوّنا الفاضي ابن أبي عصرون لدى دخوله الاحتفالي إلى المدينة، أنظر أحمد بن إبراهيم الحنفي، شفاء القلوب في متناقب بني آل أبيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، ١٩٧٨، ص ١٢١ .

(٣٦) يتّهي تاريخه إلى العام ١١٩٥، وقد مات هو سنة ١١٩٩ .

. J. NASRALLAH dans Abu'l-Faraq al-Yabrudi, dans Arabica XXIII (1976) p. 20-22 (٣٧)

الصفدي، ج ١١، ص ٤٠ - ٤٣ ، رقم ٣٩٤٦؛ ابن أبي أصبيعة، ص ٦٥١ - ٦٥٩ .

(٣٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢١٤ .

(٣٩) البداية، ج ١٢ ، ص ٣٤٧ . - يذكر في العام ١١٩٥، حظر قرع التراقيس بالرثاء، وقد نزل من جراء هذا الحظر «كرب عظيم بالنصارى»، ميخائيل السرياني، ج ٣ ، ص ٤١٣ . وكان الحظر يأمر من الملك العادل، أي أنه كان محلّاً لا شاملاً.

(٤٠) وكان من ضيوفه في القلية أبو سعيد الحسن بن خليل بن المبارك بن المحضاري الماردوني. وكان قد برع في العلوم ثم اختار حياة العزلة، وقد توصل أحد زملائه القدامى في الدراسة وهو قطب الدين إيلغازي الثاني الأرتقى إلى إنفاسه بالدخول في خدمته من بعدهما ملك على ديار بكر سنة ٥٧٢ / ١١٧٦ - ١١٧٧ ، وأحاطه بالعناية والاحترام. وقد رفض دعوة يروق شاه

بن قلچ أرسلان الذي أراد أن يجعله وزيره، وربما جاء إلى بغداد بعد وفاة قطب الدين سنة ١١٨٤/٥٨٠، حيث نزل بجوار إيليا الثالث أبو حليم (١١٧٦ - ١١٩٠). أخيراً عاد إلى بلاده ماردين حيث مات سنة ١٢٠٣/٦٠٠. وقد أثرت عنه قصائد تمجدها في الجامع المختصر، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤١) صليبا، ص ١١٥؛ ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٤٢) أمّا من جهة سلاطين سلاجقة الروم فقد تغيرت الأحوال عنّا كانت عليه أيام العلاقات الطيّبة بين البطريرك ميخائيل وقلچ أرسلان. ففي أيام غياث الدين (١١٩٢/٥٨٨) كان على نصارى أرزنجان أن يدفعوا ٣٠٠٠ درهم للحصول على الإذن بالخروج في موكب حتى الفرات يوم عيد عمومية المسيح (الغطاس). وقد استمرّ هذا العرف حتى أيام ركن الدين، راجح زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، خطوطه المتحف البريطاني العربية ٢٣٣٢٥ (أ) مذكورة في كتاب الصليب في الإسلام لحبيب الزيات، ص ٨٨ - ٨٩. ونجد في هذا النص ذكر جاثليق (أ) يدعى مار حسيا. والحق أنّ هذا اللقب الذي يعني «السيد الطاهر» كان يطلق على المطارنة كلّهم.

(٤٣) أنظر أعلاه ص (٢٨١). وقد رأينا ابن عزرون لدى نور الدين، ومحبي الدين الراكي لدى صلاح الدين وأبن بدران لدى المقتندي، الخ.

(٤٤) الجامع المختصر، ص ١١ - ١٣؛ دائرة المعارف، ج ٣، ص ٤٣٣؛ أنظر ختصر عمله في

Bishr FARES, Vision chrétienne et signes musulmans (Mém. Inst. Eg. 56, 1961), p.

25-26.

(٤٥) قبل العام ١٢٠٧، لأنّ ابن ساوا مذكور في الرقعة التي ستتكلّم عنها.

(٤٦) في الحوادث الجامعية، ص ٩٣: مقتطفات منها في شذرات تاريخية، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٥٩٩، الخزانة التيمورية، ص ٤ - ٣، ٤٣ - ٤٧.

(٤٧) أي دار الإسلام، وهي خلاف دار الحرب.

(٤٨) يذكر هذا الحاجب في العام ١١٩٩/٥٩٥، ابن الساعي، جامع، ص ١٦.

(٤٩) أسلم أبو الفضل جبريل بن زطينا قبل وفاته سنة ٦٢٦/١٢٢٨، شيخو، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(٥٠) هو أبو الغيثان نصر بن ساوا الذي سنتقيه سنة ٦٠٤/١٢٠٧.

(٥١) يدلّنا هذا النص على بنية الطائفتين النصرانية واليهودية في ذلك العصر.

(٥٢) ابن الساعي، جامع، ص ٢١٩ - ٢٢٠. صليبا، ص ١١٥. ابن العياد، شذرات، ج ٥، ص ٩. - كانت داره بدرب القيار حيث كانت أيضًا مدرسة لفقهاء الختابلة. هل كان بجيرانه ضلع في اتهامه؟ - وقد صارت داره، دار ابن ساوا، إلى غيره سنة ٦٠٦، جامع، ص ٢٨٩، ١٤.

Les chrétiens selon le commentaire coranique de Rāzi, dans Mélanges Islamologiques, (٥٣)

نُوٰدُ . Volume à la mémoire d'ARMAND ABEL, éd. par P. SALMON Brill, 1974, p. 57

لفت الأنظار إلى الفقرة التي يتكلّم فيها ابن العربي في تاريخ الزمان، ص ٢٤٩، عن وفاة فخر الدين الرازي عن ثلث وستين سنة هجرية.. «وكان من أفضلي فقهاء زمانه وقد استثار العرب وما برحوا يستبررون بتصانيفه الكثيرة. ضارع أوريجانيس الذي بعدما استفاد علماء الكنيسة بتاليه، عادوا فاعتبروه هرطوقياً وكذلك الرازي فقد اعتبره العرب كافراً مجازاً أريسطو في آرائه».

(٥٤) الكامل، ج ١٢، ص ٢٧٨.

(٥٥) تاريخ الزمان، ص ٢٥٠.

(٥٦) يجعلها ابن العربي برعاية والدة الله، وهذا قول لا يتفق وعقيدة النساطرة.

(٥٧) صلبياً، ص ١١٥ - ١١٧. ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٧٢.

(٥٨) أتى هنا الأسماء والتاريخ الوارد في تاريخ ابن العربي الذي يفترض أن يكون أخباره لأنّه من طائفته. أمّا ابن أبي أصيبيعة فسيمّيه أبو الفرج صاعد بن هبة الله بن توما، وترجمته مشابهة لترجمة ابن العربي. دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٥٩) قد صار في العام ١٢٠٣/٦٠٠ - ١٢٠٤ وكيلًا لدى ختنا خاتون، بنت الملوك سنقر الطويل، ابن الساعي، جامع، ج ٩، ص ١٢١. الصفدي، الواقي، ج ١٦، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. ابن أبي أصيبيعة، ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٦٠) وقد رأينا من قبل المستضيء يطلق أجدادهم سنة ٥٦٦ / ١١٧٠. - ثمة قصيدتان بالسريانية في مدح الاثنين الآخرين نظمهما سوريوس يعقوب البرطلي مطران مار متى سنة ١٢٢٣، تجدهما في نهاية إحدى مخطوطات مطرانية السريان الأثرية بالموصل. انظر فهارس المخطوطات السريانية في العراق، ج ٢ (بغداد، ١٩٨١) ص ١٦٤، رقم ١/٣٤ حيث يسمّيان فخر الدولة ماري وتاج الدولة أبو طاهر. وانظر MINGANA مخطوطة سريانية رقم ١٠٠ ( Catalogue I, col. 247-248 ) وفي فهرسه (العمود ١٢٢٣) يظنّ من شأنه أنّ ماري كان راهباً.

(٦١) الكامل، ج ١٢، ص ٤٤٠. - ييد أنّ ابن الطقطقي يطبع في سرد مناقبه ويعدّه من أفضلي الخلفاء وأنّهم ذكرًا، الفخرى، ص ٢٥٧.

(٦٢) تاريخ الزمان، ص ٢٦٩.

(٦٣) كان عيون الناصر في دور المسلمين والأسوق على ما يذكره ابن الطقطقي، ص ٢٣ و ٢٥٧.

(٦٤) Dans: *Orientalia Suecana XXII* (1973) p. 52-61

(٦٥) يعطي Georges VAJDA في مقالة Une liste d'autorité du calife al Nâsir, *Arabica* 6 (1959), p. 173-177 أسماء المحدثين الحنابلة.

(٦٦) يذهب H. LAOUST في مقاله : *Le précis de droit d'Ibn Qudāma* , Inst. Fr. Damas, 1950, P. XX إلى أنَّ الناصر كان ينوي إعادة بناء وحدة الإسلام الأولى بمحاولته مصالحة السنة والشيعة .

(٦٧) ورئاً كان الخليفة أميل إلى الحنابلة، المتشدّدين عادة، ولذلك لم يستحسن أن يبنّيه على الصواب مدرُّس شافعي شاب . - عن سياسة الناصر الدينية، أنظر أيضًا LAOUST, Ibn Batta, p. CXXV

---

## ٣٥ - الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣ / ١٢٢٥ - ١٢٢٦)

---

كان أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله ابن سلفه الناصر، ولكنه كان يختلف عنه اختلافاً بيّناً، وكانت خلافته القصيرة (أقل من عشرة أشهر) مثل الريع لشعبه بالرغم من المجاعة والوباء اللذين ضرباً البلاد سنة توليه الخلافة.

فقد ألغى الزيادات في المكوس التي أحدثها والده، والفرق في زنة الذهب والدنانير، والمطالعات اليومية التي كان يكتتها حراس الドُرُب عن اجتماع الناس بعضهم بعض، ورخص الأسعار، وأخرج كل من كان في السجون، وأمر بإعادة ما أخذ منهم وعدل<sup>(١)</sup> في الناس وأحسن إلى الجميع. فلما «قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال، قال لهم: أنا فتحت الدّكّان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم أعيش؟». <sup>(٢)</sup>

فكان ما خيف أن يكون في الرابع عشر من رجب من العام ٦٢٣. ويختم ابن الأثير صفحات عدّة في الثناء على هذا الخليفة قائلاً: «ولم أزل، علم الله سبحانه، مذ ولي الخلافة أحاف عليه قصر المدة لثبات الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخواني أن تقصر مدة خلافته، لأنّ زماننا وأهله لا يستحقون خلافته». <sup>(٣)</sup>

ويضيف ابن العربي خبراً مهّماً عنه: فقد أمر بناء جسر ثانٍ على دجلة لأنّ بغداد ظلت مئتي سنة بجسر واحد. <sup>(٤)</sup>

سبريسنون بن المسيحي

أما خلف سبريسنون بن قيوماً فكان مطران باجرمي، أبو الفضل بن

أي الخير، سبرشوع بن المسيحي<sup>(٥)</sup> من أسرة أولئك الأطباء البغداديين الذين صادفناهم من قبل. وقد انتخب بالإجماع بعد خلو الكرسي ما يقارب السنة. ويَتَّهِمُ ابن العربي كالعادة، بأنه حصل على المنصب «بالذهب»<sup>(؟)</sup> سواء من ماله أو من مال أخوه «الرجالات الأخير والأطباء المشاهير». وقد منحه الخليفة الظاهر عهد التولية مع إعفائه من الرسوم.

دامـت جـثـلـقـةـ ابنـ المـسـيـحـيـ وـاحـدـاًـ وـثـلـاثـينـ عـامـاًـ، فـيـ خـلـافـةـ الـظـاهـرـ وـالـمـسـتـعـصـمـ. يـشـنـيـ الجـمـيـعـ عـلـىـ حـسـنـ تـدـبـيرـهـ أـمـرـ الرـعـيـةـ، وـلـكـنـاـ لـاـ نـجـدـ شـيـئـاـ فـيـ التـرـاجـمـ الـمـخـصـصـةـ لـهـ عـنـ أـحـوـالـ النـصـارـىـ فـيـ عـصـرـهـ، أـيـ أـوـاـخـرـ أـيـامـ بـنـ الـعـبـاسـ. مـنـ الـجـائزـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـاقـاتـ أـسـرـةـ الـجـائـلـيـقـ بـأـهـلـ الـطـبـ، وـبـالـتـالـيـ بـأـهـلـ الـبـلـاطـ قـدـ سـهـلـتـ خـلـقـ جـوـوـرـيـ فـيـ التـعـامـلـ مـعـ النـصـارـىـ عـلـىـ وـجـهـ الـإـجـالـ. كـانـ هـذـهـ الـظـرـوفـ مـؤـاتـيـةـ جـدـاـ، وـهـذـاـ مـاـ حـدـاـ بـأـيـ صـاعـدـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ دـوـاستـ لـأـنـ يـشـدـ قـبـلـ ذـلـكـ بـحـوـالـيـ الـقـرـنـ:

لـمـ رـأـيـتـ الـجـسـمـ ذـاـ اـعـتـلـالـ وـدـبـتـ الـلـامـ فـيـ أـوـصـالـيـ  
دـعـوـتـ شـيـخـاـ مـنـ بـنـيـ الـجـوـالـ بـطـرـيقـ عـمـ جـائـلـيـقـ خـالـ<sup>(٦)</sup>

ويروى أنَّ حادثة يوسف لها قد وقعت في أيام الظاهر، أيَّ في العام ١٢٢٥ - ١٢٢٦ (من غير أن يعرف شيء عن مداخلها ومحارجها) للمفراني العقوبي إغناطيوس داود لما أراد أن يرى مدينة تكريت «التي كان يقيم فيها المطرانة فيما غرب من السنين». ولكن، ساء ما فعل، إذ ما كادت رعيته الصغيرة تفرغ من استقباله حتى اتَّهمَ لدى الخليفة بتهمة غير معروفة. فأمر الخليفة<sup>(؟)</sup> بنَهْبَ دور النصارى: وفرضت سلطات تكريت المحلية على المفراني وعلى أعيان النصارى غرامات قدرها ٢٠٠٠٠ زوزي وسجنتهم. ولم يطلقوا إلاً بعدما تدخل الآتابك لؤلؤ<sup>(٧)</sup> الذي كان يهبُ لنجلة من يدفع له أكثر، وسوف نلتقيه من بعد.

## الحواشي

(١) يقول ابن الأثير: «فلو قيل إنَّه لم يلِ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل

- صادقاً» وهو الذي صرف ابن فضلان ووكله بالنظر في شؤون البيمارستان، وذلك بعد شهرين من توليه الخلافة (أي في كانون الأول ١٢٢٥)، الصفدي، ج ٥، ص ٢٠١ - ٢٠٣، الرقم ٢٢٦٠.
- (٢) يعني أنه جاء متأخراً، إشارة إلى المثل القائل: يا فاتحه دَكَانه بعد العصر ماذا تبيع وماذا تشتري؟
- (٣) الكامل، ج ١٢، ص ٤٤١ - ٤٥٧، ونجد شاء مماثلاً في تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٤٨٥.
- (٤) تاريخ الزمان، ص ٢٧٠، وكذلك ابن الطقطقى (ص ٢٦٣) الذي يشير إلى السير في المجهاه واحد على كلّ من الجسرتين المتوازتين (كما كان من قبل بين طيسفون وبهارسir).
- (٥) صلبيا، ص ١١٧ - ١١٩. ابن العربي، العمود: ٣٧٢، ٤٠٢ - ٤٠٠.
- (٦) الشعالي، ب Hickman، ج ٤، ص ٤٢٧؛ عن الشاعر أنظر دائرة المعارف، ج ٣، ص ٥٨.
- (٧) ابن العربي، ج ٣، العمود: ٣٩٠.

---

## ٣٦ - المستنصر (١٢٣ - ١٢٢٦ / ٦٤٠ - ٦٢٤)

---

سلك أبو جعفر المنصور، الملقب بالمستنصر بالله<sup>(١)</sup> سيرة أبيه الظاهر في الخير والإحسان إلى الناس<sup>(٢)</sup>. وقد بقي اسمه مرتبطاً بالمدرسة المنسوبة إليه ببغداد، المستنصرية «التي لم يعمر في الدنيا مثلها» على قول ابن العربي<sup>(٣)</sup> والتي «رتب فيها أربعة مدرسین لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة مدرساً، وأضاف إليهم ثلاثة مئة فقيه» كان يجري عليهم الأرزاق، وشيد فيها حاماً خاصاً لا يدخله غيرهم وأقام لهم طبيباً خاصاً يعالج مرضاهم، الخ. والحق أن تلك كانت المرأة الأولى التي أذن فيها للمذاهب السنية الأربع بالتدريس في وقت واحد.<sup>(٤)</sup>

ولكن ثمة إشارة صغيرة حزينة نجدها في تاريخ ابن العربي، إذ يتحدث في العام ١٢٢٥ / ١٢٢٧، عن طبيب رهاوي يدعى حسنون انتهى مهملاً في حلب لأنه نصرافي، مع أنه كان بارعاً.<sup>(٥)</sup> وهكذا جاء الزمن الذي حلم به الجاحظ في خلافة المتوكّل، الزمن الذي حلّ فيه الأطباء المسلمين محلَّ الأطباء النصارى، وصاروا مقبولين لدى الجميع.

### ابن فضلان مرأة ثانية

انتقل هذا الفقيه الشديد الحماسة إلى المدرسة المستنصرية، منذ تأسيسها، من بعدما درس في النظامية ثم بمدرسة أم الناصر. وقد عهد إليه في العام ١٢٢٨ / ١٢٢٩ بديوان الموالي والرسوم والأوقاف، الخ.، ثم صار محتسب دار الإسلام كلها.<sup>(٦)</sup>

عندئِلٍ تَكُنْ من أَنْ يَفْرُضُ عَلَى أَهْلِ الْذَّمَةِ مِبَادِئِ الصَّارِمَةِ وَيَذَلِّ حَتَّى  
أَصْحَابُ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَّةِ مِنْهُمْ. وَاسْتَنَدًا إِلَى تَفْسِيرِ حَرْفِ الْلَّائِيَّةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ التُّوْبَةِ  
أَصْرَّ فِي الْعَامِ ٦٢٧ / ١٢٣٠ عَلَى أَنْ يَأْتِي كُلُّ ذَمَّيِّ بِنَفْسِهِ نَهَارًا وَيُؤَدِّيِ الْجُزْيَةَ «عَنْ  
يَدِ»<sup>(٧)</sup> وَاقْفًا طَوْلَ مَدَّةِ الْعَمْلِيَّةِ.

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَجْبَرَ أَبَا عَلَيَّ بْنَ الْمُسِيحِيِّ سَاعِدَ الرَّبِيعِيَّ الْبَهْرَاسْتَانِ عَلَى الْخُضُورِ لِأَدَاءِ  
الْجُزْيَةِ (مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى قَصْرِ الْخَلِيفَةِ) وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَمَنَّعَ وَتَمَارِضَ وَأَرَادَ أَنْ  
يَدْفَعَ بِوَسْطَيْهِ . . . وَمُثَلِّهِ أَحَدُ رُؤْسَاءِ الْيَهُودِ، الَّذِي أَرَادَ الْمُجِيءَ بَعْدَ الْمَغْرِبِ . . .  
كَانَ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَخْضُعوا، بِلَا إِسْتِثنَاءٍ، هَذِهِ الْاِجْرَاءَتِ الْمَذَلَّةِ.<sup>(٨)</sup> كَانَ فِي وَسْعِ  
ابْنِ فَضْلَانَ أَنْ يَتَهَجَّ بَعْدَمَا تَكُونَ مِنْ أَنْ يَبْثِتَ لِكُلِّ ذَمَّيِّ وَجْهَ خَصْرَوَهُ لِلْإِسْلَامِ  
وَكُونَهُ، بِعِبَارَةِ أُخْرَى، عَضْوًا فِي طَبَقَةِ اِجْتِمَاعِيَّةِ أَذْنِيِّ. وَلَا تَذَكَّرُ الْمَصَادِرُ هُلْ فَضْلَانُ  
بعْضُ النَّصَارَى دَخَلَ الْإِسْلَامَ عَلَى الْخُضُورِ هَذِهِ الْمَذَلَّةِ، وَلَا هُلْ كَرَرَ ابْنُ فَضْلَانَ  
هَذِهِ الْاِجْرَاءَتِ عَلَى تَوَالِيِ السَّيْنِينِ . عَلَى أَيَّهُ حَالٌ، تَوَفَّ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَرْبِعِ  
سَنَوَاتٍ فِي الْعَامِ ٦٣١ / ١٢٣٣ .

وَثُمَّةِ مَثَلٌ آخَرٌ عَلَى التَّعَصُّبِ نَجْدَهُ، فِي الْعَامِ ٦٣٠ / ١٢٣٢، بِدِمْشِقِ مَتَمَثِلًا  
فِي شَخْصِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَيَّ الْمَهْبَبِ الطَّبِيبِ الْمَلَقْبِ بِذِخْوارِ.<sup>(٩)</sup> وَكَانَ هَذَا الطَّبِيبُ  
قَدْ أَسَاءَ إِبْيَانَ خَدْمَتِهِ الْأَيُوبِيَّيْنَ إِلَى الْعَدِيدِ مِنْ زَمَلَائِهِ الْأَطْبَاءِ. «وَكَانَ مَكَارًا شَتَّانَمًا  
شَرَهَا نَهَمًا» عَلَى قَوْلِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ . وَلَمَّا مَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عِنْهَا، وَقَفَ مَنْزَلَهُ مَدْرَسَةً  
لِلْطَّبَّعِ عَلَى أَنْ لَا يَطَهُ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا . وَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّرْطُ لَا يَزَالُ نَافِذًا  
الْمَفْعُولُ حَتَّى أَيَّامِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ.<sup>(١٠)</sup>

بَيْدَ أَنَّ هَذِهِ الصَّعَائِرَ تَهُونَ إِذَا مَا عَلِمْنَا بِالْأَحْدَاثِ الْعَظَامِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا حَبْلِ  
الْأَيَّامِ الْآتِيَّةِ . إِنَّ تَارِيخَ ابْنِ الْأَئِثِرِ الَّذِي يَصْلِحُ حَتَّى الْعَامِ ٦٢٨ / ١٢٣٠ - ١٢٣١  
يُشَيرُ إِلَى الْخَطَرِ الدَّاهِمِ . فَفِي هَذَا التَّارِيخِ شَنَّ التَّرَغَّبُ فِي الْعُقْمِ وَصَلَوَاهُ بِهَا إِلَى  
الْكَرْخِيَّيْنِ (كَرْكُوكُ، عَلَى بَعْدِ يَقْلَلٍ عَنْ مَيْتَيِّ كَلْمِ مِنْ بَغْدَادِ).<sup>(١١)</sup>

وَمَعَ ذَلِكَ، اسْتَمَرَتِ الْحَيَاةُ عَلَى مُنْوَاهَا، فَقَدْ نَقْلَ طَبِيبَ يَعْقُوبِيَّ مِنْ الْمُوَضِّلِ،  
يَدْعُى أَبُو يَوسُفَ بْنَ مُوسَى بْنَ يَوسُفَ، فِي ٢٧ صَفَرَ ٦٢٦ / ٢٢ كَانُونَ الثَّانِي

١٢٢٩، كتاباً في الطب إلى العربية وزينه بصورة للمؤلف ديوسكوريد.<sup>(١٢)</sup> ولا زال بعض النصارى يحصلون على بعض المناصب المهمة: ففي العام ١٢٣٢/٦٣١ وبواسطة ابن حاچب القيصر،<sup>(١٣)</sup> صار هبة الله بن زطينا النصراوي (الذي لم يتب والده جبريل في الإسلام) خلفاً لابن الحاجب المذكور في رئاسة الديوان ثم عين كاتباً للسكة.<sup>(١٤)</sup>

وفي العام ١٢٣٦/٦٣٤ أيضاً، عين مجاهد الدين أبيك أحد العلوّين خواجاً له، وأحد النصارى، ويدعى تاج الدولة ماري بن صاعد، وكيلًا.<sup>(١٥)</sup> وعلى الضد من هذا نجد غلاماً يقتل سيده النصراوي سنة ١٢٣٤/٦٣٢، ويطلق، لأنّه مسلم شافعي.<sup>(١٦)</sup>

ليس من الممكن إذن أن نرسم خطوط سياسة ثابتة. فقد كان استعمال الجزرة أو العصا مع النصارى يتناوب حسب الأشخاص والظروف. أمّا الشيء الوحيد الثابت فكان تقلب الغد على النصارى.

في العام ١٢٤٢/٦٤٠ مات الخليفة المستنصر<sup>(١٧)</sup> عن خلافة دامت سبعة عشر عاماً. كان تقليعاً عادلاً، أحبه الجميع ولم يؤثر عنه قرار سياسي مهم ولا علاقات خاصة بالنصارى.

## الحواشي

(١) E.I.<sup>1</sup>, III, p. 820 par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) الكامل، ج ١٢، ص ٤٥٨. النهي، تاريخ دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٠. البداية ج ١٣، ص ١٥٩.

(٣) تاريخ الزمان، ص ٢٧١.

(٤) LAOUST, Ibn Qudama, p. XLV. البداية، ج ١٣، ص ١٣٩ - ١٤٠. - يصحح F. KRENKOW وصاحبة كتاب PINTO, The Librariés من الصفحة ٢٢٣ إنّ مكتبة هذه المدرسة قد خربها هولاكو. والحق أنّها كانت لا تزال قائمة بعد ذلك بأكثر من قرن.

(٥) تاريخ الزمان، ص ٢٧٣.

(٦) ويذكر أنه قد أرسل في سفارة إلى الروم، الصفدي، ج ٥، ص ٢٠١ و ٢٠٠، رقم ٢٢٦٠.

(٧) لهذا عدّت الجزية إجراء انتقامياً، ويمكن أن تكون فكرة عن تفسير كلمة «صاغرون» من منهاج الطالبين لمحي الدين التوسي الشامي الدار الشافعي المذهب (١٢٣٣ - ١٢٧٨): «وتؤخذ [الجزية] بإهانة في مجلس الأخذ ويقوم الذي يطأطئ رأسه ويضعها في الميزان ويقبض الأخذ لحيته ويضرب هرمته، وكله مستحب وقيل واجب. فعل الأولى، له توكييل مسلم بالأداء وحالة عليه وأن يضمنها. قلت هذه الهيئة باطلة ودعوى استحبابها أشد خطأ والله أعلم».

(طبعة د.ت. ص ١٣٩).

(٨) شذرات تاريخية، ص ٥٩٦.

(٩) ابن أبي أصيحة، ص ٧٣٦ - ٧٢٨. وفي دمشق بستان معروف «بستان ذخوار»، انظر - ELI SEEFF, La description de Damas d'Ibn Asakir, Inst. Fr. Damas, 1959, p. 153 et 156

notes.

(١٠) تاريخ الزمان، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(١١) الكامل، ج ١٢، ص ٤٩٧ - ٥٠٣.

Bishr FARES, Philosophie et jurisprudence illustrés par les Arabes, dans Mélanges (١٢)

L. Massignon, t.II (PIFD, 1957, pp 95-96).

(١٣) يذكر هنا نصريان آخران: ابن كاتب القيسر (إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك) وأخوه الشاعر تاج الملك إسحق، الصفدي، ج ٥، ص ٣٤٠، رقم ٢٤٠٩.

(١٤) شيخوخ، المشرق، ص ٥٩٦ - ٦٠٧.

(١٥) شذرات تاريخية، ص ٦٠٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

(١٧) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢٨٨ - ٢٨٩. ويروي المفضل بن الفضائل (ت. قبل ١٣٨١ - ١٣٨٢) في النهج السديد، أن الخليفة لم يمت بل كان محبوساً ببغداد. وقد عاش مع التتر في غرب العراق، من بعدهما أطلقوا سنة ١٢٥٨، ثم ذهب إلى مصر واستقبله بالقاهرة السلطان الملك الظاهر يوم الخميس الثاني من رمضان سنة ١١٦٥ آب ١٢٦٠. ويذكر من بين الذين حضروا استقباله النصارى حاملي الإنجيل. وقد اختفى في أثناء معركة لاسترجاع بغداد من قراغغا سنة ١٢٦١ أو ١٢٦٢ (؟) P.O. XII, 423-432.

---

## ٣٧ - المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ - ١٢٤٢)

---

امتدت جثلقة سريشوع بن المسيحي أربعة عشر عاماً في ظل خلافة أبي أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر. إن هذا الرجل الذي كان آخر خلفاء بني العباس، لم يكن أبداً في مستوى الظروف الحرجة التي اضطرّ إلى مواجهتها. فقد كان «رجالاً خيراً متدينًا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان، حمل كتاب الله تعالى وكتب خطّا مليحًا... إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة. وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني... وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب<sup>(١)</sup> جلوسًا ليس فيه كبير فائدة<sup>(٢)</sup> وكان عقله «عقل الصبيان لا يميز الخير من الشر، أفق زمانه بلعب الحمام والإلتهاء بالطيور»،<sup>(٣)</sup> ولم تكن لديه «الفطنة ولا القوة الكافيتان لدرء الخطر المغولي»<sup>(٤)</sup> الذي كان على وشك الإطاحة به وبخلافته.

إن حال النصارى في أواخر أيام الخلافة هذه<sup>(٥)</sup> تأتي، أكثر من أي وقت مضى، متأخرة في الأهمية عن الأحداث الجسمانية.<sup>(٦)</sup>

لا نكاد نشعر، لدى وفاة الجاثليق سريشوع (٦٥٤ / ٢٠ أيار ١٢٥٦)، أي قبل ستين من سقوط بغداد، ولدى إقامة عملاء هولاكو اتصالات بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي،<sup>(٧)</sup> لا نكاد نشعر بأصاغر العمال الذين ما زالوا يمارسون تدابيرهم القهيرية لاعتصار ما يقدرون عليه من الناس المغلوبين على أمرهم، والذين نجد في صفوفهم أهل الذمة، في أغلب الأحيان.

فمن ذلك أن ابن الصليحية «ناظر ديوان التركات ختم على جميع ما في

القلالية» عقب وفاة الجاثليق. و«في اليوم الثالث جاء والي بيت مال المسلمين وعمل باليد القوية غير الواجب وفتح المخوم وأخذ جميع ما وجد في القلالية والكتب والبيرونات<sup>(٨)</sup> وأحضرها قدام الخليفة (?) ورد الكتب ووهب البيرونات لابن وحيد (?) واشتريت منه من مال التوقف وأعيدت «من أجل خلف الجاثليق»، على قول صليبا.

أما عن اختيار هذا الخلف فإنَّ السيناريyo الذي جرت به عادة القوم، مع الأسف، قد صار «طبيعيًا» إلى حدَّ أنه يبدو غير معقول إذا ما نظر إليه في سياقه التاريخي: ففي هذه السنة نفسها (١٢٥٦) خلقت إيلخانة «بلاد المغرب» التي ولأها مونكا، الخان المغولي الكبير، إلى هولاكو أوغل وأمره بأخذ بغداد وإبطال الخلافة. وفي حال قد تبدو لنا اليوم أشبه بحال اللاوعي، انطلق الأساقفة المسيحيون في مكائد़هم التقليدية «وطلب كل واحد الرياسة لنفسه». <sup>(٩)</sup> واستمرّت المحاكمات أكثر من عشرة أشهر، وتراجحت الآراء بين أربعة مرشحين.

مرة أخرى، نجد ابن العربي اليعقوبي يقدم لنا التفاصيل: وضعت السلطات المدنية الجائفة في المزاد عملياً. ووصلت المزايدة إلى أربعين ألف دينار ذهبًا، وقد كاد دنحا، مطران إربيل الذي دفع عربوناً قدره ٤٠٠ دينار، أن يجمع بقيّة المبلغ لولا أن حاول بعضهم أن يسدّ عليه الطريق إذ اتهمه لدى السلطات الإسلامية بمكابة... ملك التتر، فمن علائم هذا الزمن نسيان الروم، لقد تغيّر اسم العدو! أما النصارى الذين فرق دنحا فيهم الرشا فقد أنذروا «بأنَّ كلَّ ما يصلكم منه اليوم سيطلب منكم أضعافه غدًا». <sup>(١٠)</sup>

أصفع خواص الخليفة إلى ما اتهم به دنحا، واستدعى الخليفة (?) المرشحين، ففضل «كهل نصيبين»، المطران مكيخا، على «فتى إربيل»، دنحا، الذي كان عليه أن يتّظر دوره.

مكيخا

تسليم مكيخا، إذا، العهد والطريقة وعاد إلى كنيسته بسوق الثلاثاء

XXXVI

على بغلة مزيّنة، يواكبه اثنان من أكابر الأمراء يرفعان فوق رأسه عهد الخليفة. بعد ذلك جاءت مراسيم السيامة والزيارات التقليدية على ما جرت به العادة. وكان ذلك في ربيع العام ١٢٥٦.

لا نسمع بعد ذلك ذكرًا للجاثيلق حتى إحكام الطوق المغولي على بغداد. إذ لما رأى الخليفة أن لا أمل يرجي، ألقَّ وفداً ضمَّ الوزير العلقمي ونجم الدين عبد الغني بن دريوس<sup>(١١)</sup> والجاثيلق مار مكيخا. وأمرهم «أن يأخذوا ذهبًا كثيرًا ونفائس ملكية وخليلاً عربية» وأن يطلقوا من السجن السفراء الذين بعثهم التتر من قبل وأن يخلعوا عليهم الخلع الستة ويلبسوهم الثياب الفاقحة وأن يصجبوهم إلى لدن ملك الملوك. كان على الوفد أن يطلب الأمان للخليفة وأولاده وأهله وأن يعتذر بأن ما بدر من تأخير في تسليم المدينة وبيع معاملة الموفدين المغول، إنما يعزى إلى سوء مشورة بعض الحوننة من أصحاب الخليفة. فإن رأى ملك الملوك أن يمن عليهم بالحياة صاروا جميعهم عبيده ورعاياه ودفعوا الجزية.<sup>(١٢)</sup>

استقبل هولاكو الوفد، إلا أنه استيقاهم في عسكره ومضى في المحصار. معلوم ما عقب ذلك من المأسى: سقوط بغداد والمذابح التي تعرض لها أهلها على أيدي الكُرُج الصارى، حلفاء المغول، وقتل الخليفة<sup>(١٣)</sup>... أما نصارى بغداد فإن الجاثيلق جعلهم في الكنائس من بعدهما رجع بالأمان لهم من عسكر المغول. وقد بقي هو في كنيسة سوق الثلاثاء، ولم يصب أحد من طائفته بمكره، وذلك بأمر صريح من دوقور خاتون زوجة الأيلخان الأول النسطورية.<sup>(١٤)</sup>

أما وقد وصلنا إلى النهاية فما علينا أن ننظر إلى الأمام، فقد كفانا مؤونة ذلك كتابي «النصارى السريان في عصر المغول Chrétiens Syriaques sous les Mongols». إنَّ ما يهمّنا هنا هو كيف نظر نصارى بغداد أنفسهم إلى الوراء، إلى جمل تلك الفترة التي كانوا فيها رعايا العرب.

لا مراء في أنَّ النصارى قد اعتبروا دخول المغول خلاصاً لهم، وابتھجوا لانتصار هؤلاء وعدُّوا ذلك علاماً على سقوط «بابل الجديدة».

وكان من أشمت الناس ببغداد الخلفاء، رجل أرماني يدعى كيراكوس

الجزروي الذي كتب في هلاكها يقول: <sup>(١٥)</sup> «كانت بغداد مَدْحُوشة حيازتها عصا الملك أشبه شيء بعلقة تمسّ الدماء: ابتلعت العالم كلَّه ثم قاعات عنديَّ كلَّ ما بلعت... ولما طفح كيل مظلماها قدام الرب <sup>(١٦)</sup> عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور... وقد دامت سيادة الطاجيك العدائية القاسية ٦٤٧ سنة». <sup>(١٧)</sup>

ولا سبيل إلى أن ننكر أيضًا مشاطرة النصارى، في معظمهم، رأي إسطفان أوربليان <sup>(١٨)</sup> الذي عَدَ هولاكو ودوغوز خاتون بمثابة «قسطنطين وهيلانه جديدين» وأداتين من أدوات الانتقام الإلهي من أعداء المسيح». ومن هذا القبيل أيضًا أنه لم يأر أحد المصوّرين من السريان اليعاقبة، في أيار ١٢٦٠، أن يعبر بالصورة عن انتصار الصليب (في المخطوطة السريانية رقم ٥٥٩ من مكتبة الفاتيكان)، استعاد تصوّر البيزنطيين لقسطنطين وهيلانة المسكين بالصلب، ولكنه أضفى على هذين ملامح هولاكو ودوغوز خاتون. <sup>(١٩)</sup> ونجد خلاصة ذلك كلَّه في شهادة الأخيرة اقتبسها مار코 بولو من النصارى المحليين إذ كتب يقول: «وأظنَّ أنَّ رِبَّنا أراد الثأر لنصاراه الذين كان الخلفاء يكرهونهم أشدَّ الكره» (كذا). <sup>(٢٠)</sup>

## الحواشي

(١) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٢) ابن الطقطقي، ص ٢٦٦.

(٣) البداية، ج ١٣، ص ١٥٩. تاريخ الزمان، ص ٢٨٩.

(٤) E.I.<sup>١</sup>, III, p. 825; par K.V. ZETTERSTEEN . - يروي ابن شاكر الكتبى أنه بينما كان هولاكو يطلب من حليفه بدر الدين لؤلؤ منجنيدات وآلات للحصار، كان المستعصم يكتب إلى الأمير نفسه ليبعث إليه... جماعة من المغنين. ويُقال إنَّ بدر الدين صالح بربما: «انظروا إلى المطلوبين وابكون على الإسلام وأهله». فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٦.

(٥) إنَّ الرسوم المالية التي كان لؤلؤ صاحب الموصل يفرضها على المفريان إغناطيوس صليبيا الثالث سنة ١٢٥٣ لم تعد تصل إلى الخلافة العباسية، لأنَّ صاحب الموصل هذا كان قد أصبح في هذا التاريخ حليقًا للمغول Assyrie Chrétienne, II, p. 422 . وأيضاً- Chrétiens Sy-

. plaques sous les Mongols, p. 12

(٦) لم يكن الخبر التالي الذي جرى بمصر في ظلَّ الملك الصالح الأيوبي (٦٣٨ - ١٢٤٠).

- (١٤٨) ليستوقدنا (لخروجه عن نطاق بحثنا) لو لم يتع لابن القِيَمْ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، فرصة قول بعض الكلمات غير الروحية المعتبرة عن عقلية المتصفين: مدار الكلام على كاتب نصراني يدعى أبو الفضل بن دخان الملقب بخاوس الدولة (؟) أو مخاضر الدولة (؟): «ولم يكن في المباشرين أمكن منه. وكان قذاة في عين الإسلام وبثة في وجه الدين. ومثاليه في الصحف مسطورة ومخازيه خلدة مذكورة حتى بلغ من أمره الله وقع لرجل نصراني أسلم برؤه إلى دين النصرانية» ثم آل أمره إلى الذبح. - ويروي غازي الواسطي الأحداث نفسها بجزء من التفاصيل (ص ٤٠٠ - ٤٠٣) ولتكن يجعلها في ظل العاكس (ص ١١٦٠ - ١١٧١).
- (٧) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٤٠٠.
- (٨) البيرون من علام الأنجار ويوازي في شكله البرنس المعروف في ذلك الزمن.
- (٩) صليبا، ص ١١٩ - ١٢١. ابن العربي، ج ٢، العمود ، ٤٠٢ - ٤٢٤ . ٤٢٦
- (١٠) يعترف ابن العربي نفسه، بأمانة، أن دنحاً رُدَّ المال الذي افترضه لأنَّه لم يجد الوقت ليدفعه إلى أصحاب المناصب المسلمين من بعدما وصل المغول.
- (١١) عن عبد الغني بن دريوس الراجِ الذي صار جليس الخليفة وصاحب مشورته، أنظر ابن الطقطقي، الفخرى، ص ٣١ - ٣٢ .
- (١٢) تاريخ الزمان، ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .
- (١٣) انظر: P.O. XII, p. 334
- (١٤) تاريخ الزمان، ص ٢٩٨ .
- (١٥) Journal Asiatique, 1858, p. 492 .
- (١٦) نجد نغمة مشابهة لدى مؤرخ مسلم، هو المقريزي في كتاب السلوك، ج ١ ، ص ٤٠٩ : «فصحَّ حديث حبيب ابن أبي ثابت، عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة، أنَّ رسول الله قام فقال: «يا معاشر قريش إنَّ هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاه حتى تحدثوا أعمالاً تخربكم منه. فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شرَّ خلقه، فالتحوكم كما يلتخي القضيب».
- (١٧) لا نرى كيف توصل هذا الكاتب إلى حساب هذا العدد.
- (١٨) في: RUNCIMAN , III, p. 304, note 2 L'Histoire de Siounie
- (١٩) Le Muséon, 83 (1975), p. 59-64
- . La description du monde, tr. L. HAMBIS, Paris, 1955, p. 28 (٢٠)

## خاتمة

إن شهادة النصارى السريان بزوال دولة بني العباس لا تترك شكّاً في حقيقة مشاعرهم: كان ذلك بالنسبة إليهم يعني الخلاص من نظام حكم تميّزي وظالم. أو هذا ما كانوا يعتقدونه على الأقل.

وأظنّ أن الصفحات السابقة قد أثبتت أنّ النصارى لم يتعرّضوا للاضطهاد الحقيقى، إلا نادرًا جدًا في خلافة بني العباس. لقد عانوا، مثلهم في ذلك كمثل مواطنיהם المسلمين، من آثار الأحداث الداخلية كالاضطرابات السياسية بخاصة. أمّا من حيث هم نصارى فربما أصابتهم أحيانًا عقابيل العداوات والنزاعات الخارجية مع أمراء يُقال عنهم نصارى أي بيزنطيين أو صليبيين. وكان عليهم أن يدفعوا ثمن قلة تبصرهم كلّا انساقوا إلى ما كان المسلمين يدعونه استفزازات: الجنائز الصالحة، قرع النواقيس، التيه بالثراء، الخ. أمّا العوامل المؤذية إلى ضمور جماعة النصارى، وهي ممّا يصعب قياسه، فمن أهمّها مناخ متزايد التقلّل من الضغط الاجتماعي والتميّز الشرعي، أو حتى الإذلال: الضرائب الخاصة، وقوانين التميّز بالملابس التي كانت تفرض بين الفينة والفينية والتي كانت ترسّخ فيهم الشعور بالخارج بعدم الانتفاء، أو حتى بالانتباذ.<sup>(١)</sup>

ولئن كان من قد بقي من نصارى المشرق يرفضون، إلى أن سقطت بغداد، العالم الذي ما زالوا يعيشون فيه منذ ستة قرون ونيف، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ رفضهم إنما يعزى إلى كون هذا العالم نفسه قد تشدّد في أخذهم بقوانين لم تتح لهم فرّصاً سياسية متكافئة، ولم تعاملهم معاملة مواطنين متمتعين بحقوق المواطنة التامة، بل معاملة الهامشين.<sup>(٢)</sup>

لا بدّ لنا هنا من أن نستعيد الكثير مما قيل في المؤتمر الخامس الذي عقده مركز البحوث الاجتماعية البروتستانتي في استراسبورغ في تشرين الأول ١٩٧٦،<sup>(٣)</sup> حول موضوع الهماسية والتهميش (أي النبذ إلى هامش الجماعة).

فمما يُؤسف له أنه حيثما كان «ما هو ديني» وثيق التمازج «ما هو اجتماعي»، كان السبيل الوحيد إلى الاندماج هو الدخول في الديانة السائدة التي لا تلبث أن تصبح ديانة الأكثريّة.<sup>(٤)</sup> فإذا رفض المتميّز إلى الأقلية الدخول، وقف المتميّز إلى الأكثريّة منه أحد موقفين: التسامح أو العداوة.<sup>(٥)</sup>

إن مسألة «هل الإسلام متسامح أم غير متسامح» لم تزل تناوش بالعقل تارة وبالهوى طوراً. ومثلها السؤال: «هل هو كذلك من حيث الماهية أم من حيث صيرورته على تعاقب القرون؟».

ومع أنَّ هذه المسألة قد استدعت أجوبة رائعة،<sup>(٦)</sup> فإنني لأظنَّ أنَّ مجرد طرح القضية على هذه الصورة قد أدى، على مدى التاريخ الذي استعرضناه في هذا الكتاب، إلى تشويه العلاقات بين أناس من ديانات متباعدة. إذ ربما كان للتسامح وجه سلبيٍّ، كأن يشعر المتسامح مثلاً أنَّ الحق بيده دون الآخر، وأنَّه هو الأقوى وأنَّ بمقدوره أن يرفق، وبالتالي، بمن هو أضعف منه. فالمفهوم اليوم من التسامح هو تنازل التسامح عن بعض حقه وشعوره لذلك. بأنه متتفوق مع أنَّ دلالة «تسامح» المؤلقة من مادة سمح وزن تفاعل) تفيد وقوع فعل التساهل والتلاين من طرفين لا من طرف واحد.

ولقد صنَّف مؤلف عربيٍّ معاصر<sup>(٧)</sup> في «التسامح» كتاباً مقتطفات بعنوان: *La tolérance* ومن اللافت للنظر فيه أنَّ الكاتب لم يجد ما يمثل حضارة الإسلام، بعد نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأحاديث الخلفاء الراشدين، إلا بعض نصوص المتصرف، قبل الوصول إلى محاولة محمد عبد الإصلاحية. وهذا يدلُّ على التصلُّب الذي أدخله بعض الفقهاء والذي أدى إلى اضمحلال النصرانية بصورة شبه كلية في دار الإسلام. كما أنَّه يفسِّر لنا قول هذا المؤلف ببرارة: «ماذا يمكن أن يكون مدلول لفظ «التسامح» كما تشكَّل حتى الآن؟ إنَّه تصور ضيق المحدود

جدًا ضمن واقع لا يفتأ يتتوسّع ويتجدد. إن استعمالات اللفظ نفسها تتم عن توازن مزيف، فيها اهتمام بصون الوضع الراهن (*Statu quo*) أكثر مما فيها دعوة إلى تضامن الإنسان مع الإنسان». <sup>(٨)</sup>

بدلاً من طرح مسألة «التسامح» ربما كان من الأولى أن ينظر إلى ما تتطوي عليه البيانات من إمكانيات مُغفلة غالباً (مع الأسف) للانفتاح على الآخر.

إن في القرآن الكريم، طلما أنَّ الحديث عن الإسلام هنا، نصوصاً رائعة في هذا المعنى: «ولو شاء الله بجعلكم أمة واحدة ولكن ليسلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون». الآية ٤٨ من سورة المائدة.

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلَّا بالتي هي أحسن إلَّا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون». الآية ٤٦ من سورة العنكبوت. «ولتجدُن أقربهم موذة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قُسِيسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَئِمَّهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ». الآية ٨٢ من سورة المائدة.

ومن سوء الطالع أنَّ الظروف التاريخية في الفترة التي درسناها قد شاعت، بعون الفقهاء المسيطرین أن يغلب الحرف على الروح (ولا يجدي استثناء المتصوفة من ذلك شيئاً لأنَّهم كانوا هم أنفسهم هامشين)، وأن يتعلَّق أهل الفروع بinterpretations ضيقية لآيات أخرى (تلك التي أوردنها في المقدمة) وبمبادئ (اعتبرها هؤلاء) من الشرع.

إذاً من الّيّن الجليّ أنَّ مفهوم «أهل الذمة» الشرعي (غير القرآن) الذي أحلَّ محلَّ مفهوم «أهل الكتاب»، إنما هو مفهوم موروث من الساسانيين ومن المجتمع القديم كله. إنَّ المرء ليتمنَّ لو أنَّ هذا المفهوم لم يمثل إلَّا وضعًا عابرًا لأنَّه وليد ظرف تاريخيٍّ محدودٍ.<sup>(٩)</sup> إلَّا أنه استمرَّ على مدى قرون طويلة لأنَّه لم يكن في مقدور أحد أنْتَهِ أن يتصرَّف العلاقات بين الجماعات البشرية إلَّا من حيث هي علاقات بين سيدٍ ومسود. وحربيَّ بنا أن لا ندين تلك الذهنية لأنَّ الناس كلَّهم كانوا يفكرون

بهذه الطريقة في تلك الفترة. ومن السهل على المسلم في هذا الإطار أن يرد على النصارى الغربي بحجج تستهدفه من حيث هو نصارى غربي، منها المأخذ على محاكم التفتيش<sup>(١٠)</sup> وما إلى ذلك. ربما كان التسامح في القرون الخواли موقعاً كريماً. ومع ذلك، فإنَّ التاريخ إذ يربينا الشسطط الذي أدى إليه ذلك التصلب يقدر أيضاً أن يرشدنا إلى الخطر الناجم عن اعتبار كل جماعة نفسها مركزاً وبندها «الآخرين» إلى المهامش.

ونحن إن لم تخلص من هذه النظرة (التقليدية التي لا يكاد ينجو منها أحد) ونضع أنفسنا بلا تردد في عالم اليوم التعديي، فإنَّا سنبطي قدماً فيما نفعله معظم الأحيان، سنبطي كلَّ مَنْا في نجواه الذاتية.<sup>(١١)</sup>

كُنَا سنغلق هذا الكتاب على حزن عظيم، حزن لإخفاق تلك الأجيال كلُّها في العيش سعداء سوية وإن اختلف بعضهم عن بعض، لو لم نكن نرجو أن يعلمنا إخفاقهم البحث عن سبيل آخر، ولا أقول «تعلمنا أخطاؤهم» إذ من يحقُّ له أن يحكم<sup>(١٢)</sup>؟

## الحواشي

(١) لا أرى في الطائفية بلبنان «سُلْطَنًا في جسد البلد» كما قيل، بل «جسماً مضاداً» أفرز سابقاً من أجل المناعة. ولكنه أضحي اليوم قد تختلطه الزمن لأنَّه من خلافات حال كانت واقعاً فيها مضى.

(٢) يقول P. RONDOT. المرجع المذكور، ص ١٢٩، الشيء نفسه بطريقة مختلفة: «إنَّ علاقات الإسلام بالشعوب التي عُلبت ولم تسلم، تقوم على مبدأ عام ذي وجهين: التسامح الديني، والتمييز الاجتماعي». - وهذه هي النتيجة نفسها التي يصل إليها E. STRAUSS, The Social Isolation of Ahl al-Dhimma, in P. Hirschler Memorial Book, Budapest, 1949, p. 73-94 ELIYAHU ASHTOR, The Medieval Near East, Variorum Re-prints, 1978, VII.

(٣) أنظر CERDIC في فهرس المصادر. وكذلك Jacques GELLARD, Marginalité de l'Eglise [Catholique] en France?, Etudes, janv. 1979, p. 81-100.

- (٤) CERDIC ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ (D. BENSIMON). إنَّ تناقض عدد الجماعة يضيف مؤشرًا إضافيًّا على الهمشريَّة، ويسبِّب الهمشريَّة الإحصائيَّة. المرجع نفسه، ص ٦٩، (F.A. ISAMBERT).
- (٥) المرجع نفسه، ص ٦٨، (F.A. ISAMBERT).
- (٦) كجواب كلود كاهن، *L'Islam et les minorités confessionnelles*.
- (٧) هو زغلول مُرسى.
- (٨) ص ٢٥٣.
- (٩) لم يتوصَّل العالم المسيحي، جلة، إلَّا مؤخرًا إلى تفهُّم «أنَّه من غير الممكن الثبات على لحظة عابرة من التاريخ» على حد قول الأب Y. CONGAR في: *Lefèvre, Le Cerf, 1976, p. 82*.
- (١٠) إنَّ الموقف السجالي العقيم، المستشهد بمعاملة غير المسيحيين في أوروبا العصر الوسيط شائع جدًّا، ومنه مقتاولة محمد حيدر الله لأحكام أهل الذمة، ص ٨٦ - ٨٩، لابن قيم الجوزية. والحق أنَّ الماضي ليس أمراً يُدان أو يُدافع عنه، بل لا بدَّ من فهمه لإعداد المستقبل. ومع ذلك فإنَّ دراسة تاريخية مقارنة لهذه الظواهر في الشرق كما في الغرب ربيًّا أثمرت ثمارًا طيبة إذا ما خلت من الأهواء: ولعلَّها تقدَّمنا إلى اكتشاف عوامل مشتركة بين الذهنيَّات الدينيَّة كلَّها. أنظر Paul VEYNE, *Comment on écrit l'histoire*, Seuil, 1971, p. 157-158 .
- أنظر L'intransigeance chrétienne, jusqu'à mort d'homme, Claude GERSET, Dans Lumière et Vie (Lyon), XXVIII (1979), no. 14 p. 17-33.
- (١١) يجب أن لا يُستهان باللقاءات التي يصغى فيها الفريقيان بعضهم إلى بعض باحترام وتقدير، وهذه بداية طيَّبة للحوار الحقيقى.
- (١٢) علينا أن نذكُّر هنا أيضًا بـ Paul VEYNE الصفحات ٢١٩ - ٢٢٤ بخاصة حيث يعالج «الأحكام التقويمية في التاريخ» *Les jugements de valeur en histoire*» فهو يشهد لي بأنَّ «ذكر الفرق بين قيم (بعض الناس) وفيينا نحن ليس من الحكم عليها في شيء».

## ملحق ألفيائي في التعريف بغيريبي هذا الكتاب

الأسكول	: المدرسة الجثلقية، وكانت في سلوقية أولاً ثم ببغداد.
الباعوث	: وجعها بواعيث، صلاة تضرع «والباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين» (لسان العرب).
البراج	: صاحب أبراج الحمام.
البيرون	: رداء كالبُرُّس القديم الذي كان يغطّي الأكتاف فحسب، وهو من علام الأحبار.
البيم	: دكة قليلة الارتفاع في وسط كنيسة النساطرة يقوم عليها الإكليلوس لتلاوة الصلوات باشتئانه القداس.
تعديل السواد	: ولاية قضاء السواد.
التوقيع	: توقيع الرشيد مثلاً، أي قراره.
الجعفريات	: من أنواع السفن المستعملة بأنهار العراق في القرن الرابع للهجرة.
جوباس	: بُليدة كانت بالقرب من ملطية.
الحِب	: وجمعه الحُبَاب، إناء كالجلرة.
حزنِيط	: هي تلنزيت (Tilenzit) الحالية، بالقرب من «مرات سو» بتركيا اليوم.
الديراني	: صاحب الدير أو وكيل الدير.
زوزي	: دنانير أو دراهم.
الساعور	: رئيس أطباء البيمارستان.
السايوم	: الأسقف الذي يحق له انتخاب الجاثلين.

السليع	: أحد الحواريّن أو تابعيهم.
السينكسار	: كتاب ترجمة القديسين وأعمالهم يقرأ في الكنائس يومياً.
الشاشةية	: وجمعها شاشيات، عرقية أو طافية تلف على العرامة.
الشحنكية	: وظيفة الشحنة.
الشهار	: لفظة سريانية بمعنى السهار، وهو من يتولى ترتيب صلاة الليل في الكنائس.
الصوم	: المناسب إلى «مان» أي السيد، والمقصود صوم النصارى أربعين يوماً أسوة بالسيد المسيح.
الماراني	: السمك المملح.
الصير	: جمعه أعمار، الذير.
العمر	: البطركة أو الجاثلة.
الفطركة	: قانون الإيمان : يقابل الشهادتين في الإسلام.
المسيحي (Credo)	
القلالية	(أو: صوفعة الراهب، أو مقرّ الجاثليق أو المطران).
قورس	: مدينة بنواحي حلب (ياقوت).
الكود	: كرسي القراءة، وهو شبه حائط قليل الارتفاع يوضع عليه كتاب القراءات من العهد القديم أو من رسائل الحواريّن.
المستخرج	: رجل كان يحضر استجوابات المصادررين، أي أولئك الذين كان يؤمّل استخراج المال منهم وإن بالتعذيب.
المسيم	: الأب المسيم كالسايوم، أطليبه أعلى.
المفريان	: المطران الأكبر الذي يرأس الأبرشيات السريانية الغربية الموجودة في أراضي الكنيسة السريانية الشرقية.
ناطر الكرسي	: مدير كرسي الجاثلة في انتظار انتخاب جاثليق جديد.
النطارة	: وظيفة الناطر.



## فهرس الموضوعات

ت

- تبشير: ٢٥١ ، ٥٨
- تجسس (اتهام به، ارتقاب): ٧٢ ، ٨٧
- ٢٧٦ ، ٢٥٩ ، ١٩٢ ، ١٤٨ ، ٨٨
- ٣٤٦ ، ٣١٤
- تدخل السلطات في الشؤون الكنيسة: ١٤٩ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٥٧ ، ١٤٠
- ٢٥٧ ، ٢٥٦ - ١٨٣ - ١٨١ ، ١٧١
- ٣٢٩ ، ٢٨٤ ، ٢٦٧
- تراث كنسية علنية: ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٥٥ - ٢٥٤ ، ١٤٦
- ترجمات: ٦٧ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠
- ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ٣٣١ ، ٣٨٢ - ٣٨٣
- تسامح: ٣٣١ ، ٣٨٢ - ٣٨٣
- تعاليم الإنجيل (عدم الالتزام بـ): ١٤٦
- تهميشه: ٣٨٢ - ٣٨١
- النجسم وعلم الفلك: ٦٦ ، ٧٤ ، ١٦٦ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٧٦
- ٣٥٥ ، ٢٨٢

ث

- الثغور (معاملة نصارى): ٥٧ ، ٤٦ ، ٥٨
- ٧٠ ، ٥٨

هـ

- اتهام بعض النصارى بعضهم: ٤٩ ، ٤٦ ، ٥٤ - ٥٥ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١١٥
- ٣٤٦ ، ٣٣٤ ، ٢٧٧ ، ٢٥٩ ، ١٤٨
- الأخبار (خروجهم في الحملات العسكرية): ٨٨ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ٣٤٤
- أراذل على أبواب الكنائس: ٢٥٥ ، ٣٤٤ ، ٢٨٤
- إرتداد المسلمين: ٢١١ ، ١٣٩
- ارتفاع المنازل: ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٧٥
- إستباحة القبور: ٧٨ ، ١٤١ ، ٢٤٧
- «إسفرازات» النصارى: ١١٦ ، ٢٨٣ ، ٣٢١ ، ٢٩٨
- إضراب: ٢٨٥
- «أعداء» الإسلام، القرآن: ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٦٦
- الانتقال إلى الإسلام، أسبابه: ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٤٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٦٩ ، ١٥١ - ١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٤٦ ، ١٩١ ، ١٧١ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ٢٨٣ ، ٢٦٥ ، ٢٢٨ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ ، ٣٢٢ ، ٣١٧ ، ٣٠٥ - ٣٠٢ ، ٢٩٢ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٥٦

## ج

- الجزية، خراج، مكوس إلخ. : ٤٣، ٣٢، ٦٧، ٥٤، ١٧٢، ١١٥، ٨٨، ٧٢، ٤٣، ٢٣٩، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٤٦، ٣٥٨، ٢٧٦، ٢٤٣ - ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٧٣  
الديارات = حُمَارَاتٍ: ١٠١، ١٦٧  
الرهبان (ضرائب على): ٥٧، ١٩٨  
الروم (أسوأ من): ٢٥٤، ٣٠٨  
جنائز: ١٢٦، ١٤٠، ١٤٨، ١٧٤، ٢٦٢ - ٣٥٢، ٣٨١، ١٧٥  
جنابة النصارى: ٦١، ٨٥

## ز

- زَيْنَار («قطع زَيْنَار»): ١٥٤، ١٥١، ٣٤٤، ٢٦٥، ١٧٠

## س

- سراري النصارى: ٩٣، ٩٠، ٩٣، ١٢٢  
سفارات: ١٩٣

## ش

- شتم القرآن أو الرسول: ١٣٩، ١٨٠  
الشروط التّعمرية: ٣٣، ١٣٩ - ١٤٠، ١٤٣، ١٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٥٨  
الشعر (قص): ٣٤٤  
شعراء: ٢٨٢  
الشهادة المفروضة على المتقلين إلى الإسلام: ٨٦ - ٨٧  
شهداء: ٥٨، ٧٠، ١١٠، ١٠٣، ١٢٦  
٣٥٩، ٣٤١، (١٩٠)، (١٤٨)  
الشيطان (صورة): ١٤٤

## ح

- الحج (مناسبة للصلب): ٤٧، ٨٩، ٣٤٨، ١٣٨  
حرائق المساجد: ٢٦٤، ٣٦٣  
الحروب الصليبية (أثرها في النصارى): ٣١٣، ٣٤٦، ٣٤١، ٣٥٥، ٣٦٣  
حظر التسمي بأسماء المسلمين: ١٤٠  
حظر الخروج إلى السوق يوم الجمعة: ١٤٣

## خ

- خشية الانتقام: ٣٥٥  
الخمر: ٥٢، ٨٤، ٩٠، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٧، ٢٢١، ٢٠٧، ٢١٧، ٢٠٠، ١٧٥، ٣٦٣، ٣٢٢، ٢٩٨، ٢٨٧، ٢٨٠  
خنازير: ١٤٠، ٨٤، ١٠٩  
خيل: ٢٦٣، ١٤٣، ١٧٣

## ص

- قرص رصاص في العنق: ١٥٤ ، ٥٥  
٣٠١
- قرى مخصوصة: ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ١١٢ ، ١٧٥  
قطع الأيدي: ٦٥  
فلانس: ٥٧  
٣٧٩
- صلوات الأخبار (أنظر: كرامات): ٥٦ ، ٩٣ ، ١٧٣ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٥٤  
الصلب: ٥٧ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٨١ ، ٢١١  
قلنس: ٣٥٣ ، ٣٣٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٤  
٢٦٦ ، ٢٩٩
- الصلب، شعار المسلمين المتمردين:

## ك

- الكتاب النصارى (إيعاد): ٦٥ ، ١٣٧  
١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٣٢٣ ، ٣١٤ ، ٣٠٠  
٣٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٤٠  
٢٨٠ ، ٣٥٠ ، ٣٤٠  
كرامات، رؤى، أحلام (أنظر صلوات  
الأخبار): ١١٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥  
٢٤٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢١٥ ، ١٨١  
٣١٢ ، ٣٠٤ ، ٢٦١ ، ٢٥٨ - ٢٥٧  
٣٤٨ ، ٣٤٥ ، ٣٢٢  
كنائس، ديارات، أعيار (بناء، هدم،  
ترميم، نهب): ٥٦ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٤  
١٢٦ - ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٠٨ ، ١٠٦  
١٦٨ ، ١٤٣ ، ١٤١ ، ١٤٠  
٢٢٢ ، ٢٠٦ ، ١٩٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢  
٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٢ ، ٢٢٦  
٢٦٧ ، ٢٦٣ ، ٢٥٨ - ٢٥٧  
٣١٨ ، ٢٩٨ ، ٢٨٥ ، ٢٧١  
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣  
٣٦٣ ، ٣٥٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥  
٥٧ كني بالحديد الحامي:

## ع

- عجرفة النصارى: ٤٦ ، ٤٧ ، ٧١  
١١٠ - ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ٢٥٤  
٣٥٠ ، ٢٩٧  
العدالة الفورية: ٣٣٧ ، ٣٣٥  
عدد النصارى: ٢٢٤  
العربية (حظر تعلم): ١٤٣ ، ٥٧  
علم الصنعة: ٤٨ ، ٤٩  
عهد الجاثليق: ٢٨٨ - ٢٨٩  
عهد النصارى: ١٥ ، ١٣٩

## غ

- الغرامة (حق الجاثليق بفرض): ١٩٦  
غلان النصارى: ٧٠ ، ١١٤ ، ١٤٢  
١٨٠  
الغيار، (وانظر الزمار): ٥٧ ، ٨٥ ، ٩٢  
١٤٣ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨١  
٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣١٦ ، ٣٠١ ، ٢٩٧  
٣٤٤ ، ٣٨١

ل

لحية النصارى: ٥٧، ٣٧٥

لواط: ٧٢، ١٣٤، ٢٢٩، ٢٦٠

ن

نساء مسلمات (زنا بـ): ١٣٩، ٢٥٧

٣٦٣، ٣٤٦

نوافيس: ١٠٩، ١٠٩، ١٢٦، ١٤٠، ٣٦٥

٣٨١

م

المحتسب: ٣٧٢، ٧٠

المحنة: ١١٨، ١٢٤، ١٣٦

خارج لتحاشي دخول الإسلام: ٨٦

مرتدون أقيم عليهم الحد: ٥٨، ٩٥

١٤٨، ١٢٦

مظاهرات جماعية: ٢٥٥

مقابر: ١٤١

مناظرات مع المسلمين: ٥٦، ٦٩، ٧٣

٩٥ - ٩٦، ١١٤، ١٧٠، ١٧٧

٣٥٤، ١٩٩، ١٨٦

هـ

حجرة النصارى: ٨٧، ٢١٧، ٢٢٦

٢٤٥ - ٢٤٦

عودتهم ٢٧٤

و

واجب النصيحة: ٥٣، ٦٩، ١٠٩

١١٧، ١٥٠

## فهرس الأماكن

- ب -

- آمد: ١٢٣ ، ١٨٠ ، ٢٩١ ، ١٨٥ ، ٣٥٦
- الأبلة: ٩٢
- أثور: ٣٠٨
- أربل: ٣٧٧
- أرجان: ٢٤٣
- أرزنجان: ٣٦٦
- أسبانيا: ١١٠
- إيسكدرية: ٢٨٩
- أصفهان: ٣٢٧ ، ٣١٧
- الأقصى (المسجد): ٣١٣
- الأنبار: ٤٢ ، ٩٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٦ ، ١٧٨
- أنطاكية: ٨٨ ، ١٢٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٤
- أنقرة: ١٢٧
- الأهواز: ١٨٦ ، ١٠٥
- الإياثخية: ١٣٠
- إيرينوبوليس: ١٩٢
- باب المحوّل: ٥١ ، ٣٤٣ ، ٢٣٢
- باب النبوي الشريف: ١٨٨ ، ٣٥٦
- باجرمي: ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩
- البادريّة: ٣٢٤
- بانوهادر: ٢٢٧
- البحرين: ١٤٣
- برطلي: ٣٤٨ ، ٣٥٦
- برمشا: ١٧٢
- بشمان: ١٢٦
- البصرة: ٤٣ ، ٥٨ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ١٤١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٠٥
- ٣٥٢ ، ٢٤٣ ، ٢٣٦ ، ٢٢٧ ، ١٧٣
- بلاشاباد: ٥١
- بلد: ١٠٩ - ٢٨٥ ، ١١٠
- بهراسير: ٤١ ، ٣٧١ ، ٥٠
- بيت الحكمة: ٨٢ ، ١٤٧ ، ١١٧ ، ١٧٢
- بيت بغض: ٧٢ ، ٧١
- بيروي: ٧١

- ت -

- التاج: ٢٥٥
- تكلريت: ٥٣ ، ١٠٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩
- ٢٠٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢
- ٣١٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ٢٨٥

- ب -

- باب أبرز: ٣٠٣
- باب الشهاسية: انظر الشهاسية
- باب الطاق: ٢٢٣

الحلّة:	٢٢٩، ٣٠٣، ٣١٥، ٣٣٣	٣٧٠، ٣٣٩
حص:	١٤٨	٣٣٤، ٢٨١
حنزيط:	٣٥٤	١٩٤
الحيرة:	٤١، ٦٤، ٦٩، ٧٢، ٨٣، ٨٩	٢٨٦
	١٢٦، ٢٢٤، ١٢٥، ١٠٥، ٩٠	٢١٨ تورينو (كفن):

## - خ -

الخالص:	٣٢٠
خزانة الحكمة:	٨٢
الخلد:	٢٤٩، ٥١
خوارزم:	٣٥٠، ٢٦٢
خبير:	١٢١

## - د -

دار الروم:	٨٢، ١٣٤، ١٧٤، ١٧٩
	٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢٣، ٢١٧، ٢٠٩
	٢٨٢، ٢٧٩، ٢٦٧، ٢٦٠، ٢٤٤
	٣١٣، ٣١٢، ٢٩٨، ٢٨٧، ٢٨٦
	٣٤٥، ٣٣٠، ٣٢٤، ٣١٦

دار السلم: ٣٥٨

دار العلم: ٢٥٣

دارا: ٢٩٨

داريا: ٣٥٥

داوقى: ٣٥٩، ٢٦١، ٢٥٤، ٧٦

دبىق: ٧٠

دبيل: ٣٣٩

دجبل: ٣٥٩

درب القبار: ٣٦٦

دكة الشهاسية: ١١٨

ثمانون: ٣٢٤

## - ج -

جزيرة ابن عمر: ٦٤، ٢٨١، ٣٢٠، ٣٤٣

جسر بقداد: ٣٦٩

الجعفري (قصر): ١٤٩

جنديسابور: ٤٣، ٥١، ٥٣، ٧١، ٧٨، ١١٢، ١٤٦، ١٣٣، ١٤١، ١٠٢

٢٨٤، ٢٤٣

جوپاس: ٣٣١

## - ح -

الحدث: ٣٣٢

حديثة الموصل: ٢٠٩، ٧٨، ٥٤

حرّان: ٣٥٦، ٧٥، ١٠٨

حرّة: ٣٠٥

حسن زياد: ٣٣١

حسن كيفا: ٣٥٤

حطين: ٣٦٥

حلب: ٧٠، ٢١٦، ٢٦٦، ٢٧٨، ٣٥٦، ٣٤٤، ٣١٤

- دير مار سرجيس: ١١١  
 دير مار فشون: ٦٩، ٥١، ١١٢، ٦٩  
 دير مار قسطنطين: ٤٨  
 دير مار قرياقوس: ١٤٣  
 دير مار ماري: أنظر دير قنٰي  
 دير مار متى: ٤٧، ١٠٩، ٣٣٢  
 دير مار ميخائيل: ٣١٥، ٢٤٠  
 دير واسط: ٤١  
 دير يزدفن: ١٤٣  
 دير يونان: ٩٠  
 ديرا: ٢٤٦

- ر -

رأس العين: ١٢٣  
 الراقصة: ٩٥، ٧٠  
 الرحبة: ٢٧٨  
 الرصافة: ٥١، ٢٥٥، ٢٦٤  
 الرقة: ٨٨، ٩٠، ١٠١، ١٢٩، ١٨٥  
 الرملة: ١٩٤  
 الرياحا: ٨٨، ١٠٨، ١١٤، ٢١٦  
 ٣٧٢، ٣٣٠، ٢٤٦، ٢٧٤  
 الري: ٢٤١، ١٠٧، ١٦٣، ١٨٥

- ز -

الزعفرانية: ١٨٣، ١٨٢

- س -

سامراء: ٤٢، ٨٢، ١٠١، ١٢٤ وما بعد

دمشق: ١١٢، ١٤٨، ١٩٦، ٣٤٤، ٣٥٥  
 دور قنٰي: ١٤٤، ١٧٢، ٢٠٧، ٣٤١  
 دوقره: ٦٩، ٥٦  
 ديار بكر: ٣٦٥  
 دير أبا يوسف البلدي: ٢٠٩  
 دير برصوما: ٣٥٣  
 دير بكره: ٣٤٦  
 دير بني الصقر: ١٣٠  
 دير بيت حالا: ٦٩  
 دير بيت عابي: ١١٢  
 دير الرواحب العقوبيات: ٢٥٨  
 دير الروم: ١٧٩، ٢٥٤، ٢٢٤  
 دير الزريقية: ٣١٩  
 دير زكا: ١٠١  
 دير الطين: ٧٢  
 دير عانا: ١٠١  
 دير العاقول: ٢٣٣  
 دير العذاري: ١٠١  
 دير عين قنا: ١١٠  
 دير قنسرين: ٦١  
 دير قنٰي (أو قنٰي): ١٧٤، ٢٤٧، ٢٦٣، ٣٤٥، ٢٨٠  
 دير الكامول: ٢٨١  
 دير كليلشوع (مار سبر يشوع): ٩٣، ٢٥٤، ١٧٩، ١٧٣، ٩٤  
 دير مار حنانيا: ٢٩١  
 دير مار سبر يشوع (بواسط): ٢٩٧

- 
- الطيهان:** ٢٦٨ ، ٥٣
- طيزناباذ:** ٩٠
- طيسفون:** أنظر المائين
- 
- عـ -**
- عانة:** ٢٨٤
- العتيقية:** ٥١ ، ١١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢
- ٣٦٠ ، ٣٠٥**
- عرقلون:** ٢٠٦ ، ١٩٤
- العضدي (البيهارستان):** ٢٣٤ ، ٢٤٠ -
- ٣٥٢ ، ٣١٧ ، ٢٩٦ ، ٢٤١**
- عكا:** ٣٦٤
- 
- قـ -**
- قبة الصخرة:** ٣٥٦ ، ٣٦٢
- القدس:** ٨٨ ، ٢٧١ ، ٣١٣ - ٣١٤
- القرج (قناة):** ٢٨٧
- القطنطينية:** ٢٧٧ - ٢٧٦ ، ٣٣٢
- القصر:** ٢٦٦ ، ٢٧٩
- القصر الأبيض (بطيسفون):** ٥١
- قصر الحصن:** ٢٣٨
- قصيـر عمرة:** ٢١٠
- ٩٠**
- قطربـل:**
- قطـيعة الدقيق:** ٢٣٩ ، ٢٥٧
- ٢٩٨**
- قورس:** ١٢٩
- فيـصرية:** ١٩٤
- 
- شـ -**
- الشـيمـاسـية:** ٥١ ، ٨٢ ، ١١٨ ، ١٠٦ ، ١٧٤ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٨٠
- ٢٨٧**
- شيراز:** ٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧
- ٢٦٥**
- 
- طـ -**
- طاـقـ كـسـرى:** ٥٠
- طـبرـسـان:** ١٢٨ ، ١٦٣
- طـرابـلسـ (الشـام):** ٢٢٦
- طـلـيبـ:** ٣٥٢

- ك -

- كنيسة مار أخودمه (بتكريت): ٢٩٩  
 كنيسة مار إصطفانوس (بالدور): ٢٥٨  
 كنيسة مار بنهام (بطرابلس): ٢٢٦  
 كنيسة مار جرجس: ١٣٠  
 كنيسة مار سرجيس وباخوس (بتكريت): ٢٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٥١ ،  
 ٣٥٢ ، ٢٧٨  
 كاشغر: ٢٧٧  
 كربلاء: ٢٦٤ ، ١٣٦  
 الكرخ: ٢٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٥١ ،  
 ٣٧٣  
 الكرخي: ٤١  
 كركوك: ٤١  
 كرمان: ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٧١ ، ١٤١ ، ١٢٥ ، ٢٢٤ ، ٤١ ،  
 ٢٧١ ، ٢٥٨ ، ٢٤٠ ، ٢٢٧  
 كلواذى: ٣٥٩ ، ٢٤٠  
 كنيسة الأصيغ العبادى (السيدة): ٧٢ ،  
 ٢٨٧ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، ١٧٤  
 كبيسة أهل كسرى: ٢٥٨  
 كنيسة الخضراء (بتكريت): ٢٩٩ ، ٢٠٦  
 كنيسة العتيقة (السيدة): ٣٠٥ ، ٢٢٣ ،  
 ٣٦٠ ، ٣٢٤ ، ٣١٣  
 كنيسة العذراء (يعسلون): ٢٠٦  
 كنيسة العذراء (بسوق الثلاثاء): ٢٥٤ ،  
 ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٩ ،  
 ٣٧٧  
 كنيسة القديس توما (بيغداد): ٥١ ،  
 ٢٣٩ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٣٤ ،  
 ٣٤٣  
 كنيسة القديس توما (باردين): ٣٤٦  
 كنيسة القديس ضوميط (بنصبين): ٥٣  
 كنيسة القيامة: ٢٧١  
 كنيسة كوخى: ٢٢٨  
 كنيسة كيسوم: ٨٧  
 كنيسة مار أخودمه: ١٣٠

- ل -

- لاشوم: ٦٩  
 اللاذقية: ٢٧٨

- م -

- ماردين: ١٢٣ ، ٢٩١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ،  
 ٣٥٦ ، ٣٦٥  
 ماروى: ٦٩  
 المتركية: ١٤٩  
 المحمدية: ١٣٠  
 المحول: ٢٩٧  
 المختار (قصص): ١٣٣  
 المدائن: ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٦٩ ،  
 ١١٠ ، ١٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧  
 ٣٢٤ ، ٣١٥ ، ٢٨٨ ، ٢٥٥ ، ٢٢٧  
 مدرسة إبراهيم بر داشتداد: ٧٢ ، ١١٠  
 مراغة: ٣٢٦  
 مرج دابق: ٨٨  
 مرو: ٢٤٧  
 المستنصرية: ٣٧٢  
 مشهد أبي حنيفة: ٣٠٤ ، ٢٨٥ ، ٢٦٢

نهر المعلُّ: ٢٨٤  
النهر والنات: ٢٧٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣  
النوبة: ١٢٧ - ١٢٨  
نيساپور: ٧١  
النيل: ٣٣٤ ، ٣١٥ ، ٢٨٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٣  
مَلْطِيَّة: ٦ ، ٢٤٣ ، ٢٧٤ ، ٣٥٣  
المُوَصَّل: ٥٥ ، ٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٣٩ ، ٣٠٥ ، ٣٣٤ ، ٣٠٨ ، ٢٨١  
مِيَافَارِقِين: ٣٤٥ ، ٢٩٦ ، ٢٨٧ ، ٢٤١  
مَصْرُ: ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨  
مَعْلَثَا: ٢٢٧ ، ٢٢٩  
مَلَطِيَّة: ٣٤٣ ، ٣٤٠  
الموصل: ٥٥ ، ٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٣٩ ، ٣٠٥ ، ٣٣٤ ، ٣٠٨ ، ٢٨١  
مَيَافَارِقِين: ٣٤٥ ، ٢٩٦ ، ٢٨٧ ، ٢٤١  
نَجْرَان: ١٧٢  
نَسْطُور (قَبْر): ٩٢  
النَّظَامِيَّة: ٣٧٢ ، ٣٥٧ ، ٣٠٤ ، ٢٦٩  
النَّعْمَانِيَّة: ٢٨٤  
نَفْرُ: ٢٨٤  
نَهْر صَرْصَر: ٧٨

- ٥ -

الهاشميَّة: ٤٢ ، ٦٤  
هرقلية: ١٠١  
هِذَان: ٣٣٥

- ن -

- ٦ -

واسط: ٦٥ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٧ ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٣٩

## فهرس الأشخاص

- ٤٠١ -
- |   |  |
|---|--|
| <p>إبراهيم بن بحبي (الوالي): ٥٥</p> <p>إبراهيم القرشي: ١٠٨</p> <p>إبراهيم الأبرش: أنظر أئوب، إبراهيم<br/>ابن آدم: ٢٤٤</p> <p>إبن أبي ذؤاد: ١٣٣</p> <p>إبن أبي القرافق: ٢٠٢</p> <p>إبن أسلم: ١٨٢</p> <p>إبن الأشقر: ٣٥٠</p> <p>إبن إصطفانوس: ٢٩٢</p> <p>إبن أووان (?): ١٩٩</p> <p>إبن البخاري: ٣٥٠</p> <p>إبن بدران: ٢٩٧، ٣٦٦</p> <p>إبن بطلان (أبو الحسن): ٢٧٨</p> <p>إبن البقاع: ٢٤٧</p> <p>إبن البلدي (شرف الدين أحمد): ٣٤٠<br/>٣٤٣</p> <p>إبن البنا (أبو علي): ٢٨٦، ٢٨٥</p> <p>إبن التلميذ: أنظر هبة الله بن أبي العلاء</p> <p>إبن جابر: ٢٦٤، ٢٦٧، ٣٥١</p> <p>إبن جبير: ٣٥١</p> <p>إبن جزلة: أنظر بحبي بن عيسى</p> <p>إبن جهير (أبو منصور، عميد الدولة):<br/>٣١٣، ٣١١، ٣١٢، ٣٠٥</p> <p>إبن حبشي: ٣١٥</p> <p>إبن الخطّار: أنظر الحسن بن سوار</p> <p>إبن دليل: ١٩١</p> | <p>أبا (الجاثليق): ٦٤ - ٤٢، ٤٢</p> <p>أبا (المطران): ١٢٥</p> <p>أبان (الأمير): ٤٢</p> <p>أبان بن عبد الحميد اللاحقي: ٥٨</p> <p>إبراهيم (الأسقف): ٩٣</p> <p>إبراهيم (الثالث، الجاثليق): ١٨٧</p> <p>٢٠٨، ٢٦٠، ٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٦</p> <p>إبراهيم (الثاني، الجاثليق): ١٢٥ - ١٤٠</p> <p>إبراهيم (صاحب بيت المال): ١٢٥</p> <p>إبراهيم (طبيب المنصور): ٥٦</p> <p>إبراهيم (اليعقوبي): ٣٣٤</p> <p>إبراهيم (الكاتب): ١٩٥</p> <p>إبراهيم بن أئوب الأبرش: ١٦٦</p> <p>إبراهيم بن أئوب (الجهبز): ١٩٥</p> <p>إبراهيم بن بكس: ٢٤٠</p> <p>إبراهيم بن حдан الشيرازي: ١٨٥</p> <p>إبراهيم بن المهدى: ١٤١</p> <p>إبراهيم بن مهران: ١٢٨، ١٦٢</p> <p>إبراهيم بن عيسى بن نصر السوسي: ٢٥٠</p> <p>إبراهيم بن نوح الأنباري: ١٦٥، ١٤١</p> <p>إبراهيم بن هارون: ١٦٣</p> <p>إبراهيم بن هلال الصائب: ٢٤٨، ٢٢٦<br/>٢٥٣</p> <p>إبراهيم بن الوكيل (أبو إسحق): ٢٢١</p> |
|---|--|

- ابن محرز: ٣٥٨  
 ابن مسلم: ٢٨٣  
 ابن مطر: ٨٨  
 ابن المعتز: ١٩٧، ١٨٥  
 ابن مقلة (محمد بن علي): ١٩٥، ٢٠١، ٢٠١  
 ابن المهدى: ٣٥٢  
 ابن النحال: ٣٤١  
 ابن نصيحة: ٢٢٧  
 ابن هبيرة: ٣٣٣، ٣٦٢  
 ابن وحيد: ٣٧٧  
 ابن يوسف (الواسطي): ٢٤١  
 أبو إسحاق بن ثوابة: ٢٢٦  
 أبو إسماعيل (الموصلى): ٣١٠  
 أبو البركات (الطبيب): ٣٦٠  
 أبو تغلب فضل الله (الغضنفر، عَدَّةَ  
 الدولة): ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٨  
 أبو تمام: ١٣٥  
 أبو الحسن (أخو المسترشد): ٣١٩  
 أبو الحسن (البرمكي): ١٥٠  
 أبو الحسن بن إسحاق: ٢٥٩  
 أبو الحسن بن بهلول: ٢٢٩  
 أبو الحسن بن عبد الله: ٢٧٩  
 أبو الحسن بن غسان: ٢٤٠  
 أبو الحسن بن مالك: ٢٥٢  
 أبو الحسن بن المقلد (?): ٢٠٣  
 أبو الحسين (البريدى): ٢٢٧، ٢١٥  
 أبو الحسين (البصري): ٢٧٦  
 أبو الحسن بن دنحا: ٢٢٩  
 أبو الحسين بن سبر يشوع: ٢٧٦
- ابن الدهان: ٩٧  
 ابن رائق (محمد): ٢٠٨، ٢١٤ - ٢١٥  
 ابن زرعة: أنظر عيسى بن إسحق  
 ابن زهمان: ٢٢٩، ٢٣٥  
 ابن ساوا: أنظر نصر بن ساوا  
 ابن سرجويه: ١٤٩  
 ابن سعدان: ٢٤٢  
 ابن سكره: ٢٩٢، ٢٨٣  
 ابن سلمون: ٩٩  
 ابن سنجلاء: أنظر سعيد بن عمرو  
 ابن شيرزاد: ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٠  
 ابن الصليحية: ٣٧٦  
 ابن الطباخ: ٥٤  
 ابن الطبرى: ١٨٣  
 ابن الطيب: ٢٤٥  
 ابن طولون: ١٧٧، ٢١٨  
 ابن عبدالوس: ٢٠٤  
 ابن عزرون: ٣٤٤، ٣٦٦  
 ابن عقيل: ٢٩٤  
 ابن عكاشه: ٣٥٢  
 ابن العميد: ٢٤٢  
 ابن الفرات: ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩  
 ابن فرجونا: أنظر عبدالله بن فرجويه  
 ابن فضلان (الكاتب اليهودي، أبو علي):  
 ٢٨٣، ٢٨١  
 ابن فضلان (محى الدين محمد): ٣٠٨  
 ٣٧٣، ٣٧٢، ٣٦٢، ٣٥٨ - ٣٥٧  
 ابن فضلان اليهودي: ٢٠٥  
 ابن القاورت: ٣٣٠  
 ابن مالك: ٢٠٥

- أبو عمران (أولاده): ٢٤٦  
 أبو عمرو (الكاتب): ٢٤٨  
 أبو عمرو بن شريح: ٢٠٤  
 أبهر عيسى: ٢٢٦  
 أبو غالب (الطيب): ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٣  
 أبو غالب بن زطينا: ٣٥٠  
 أبو غالب بن صفية: ٣٤٠  
 أبو غالب بن عيسى بن بابا: ٣٣٩  
 أبو غالب بن هبة الله (الأصبهني)، تاج الرؤساء: ٣٠٣ - ٣٠٤  
 أبو الفرج (المسيحي): ٣٥٢ ، ٢٤٣  
 أبو الفرج بن التلميذ: ٣٠٥  
 أبو الفرج بن يعقوب: ٢٥٥  
 أبو الفضل بن بهانش: ٢٨٠  
 أبو الفضل بن داود: ٣٢٤  
 أبو الفضل بن دخان (خاصّ الدولة): ٣٨٠  
 أبو قابوس: أنظر عمرو بن سليمان  
 أبو القاسم (المغربي): ٢٧٧  
 أبو القاسم بن جهير (زعيم الرؤساء): ٣١٩  
 أبو القاسم بن عيسى بن علي: ٢٤٥  
 أبو القاسم بن حما: ٢٧٠  
 أبو عشر الفلكي: ١٦٦  
 أبو منصور (الدراجي): ٢٥٧  
 أبو منصور (الطيب): ٣٣٣  
 أبو موسى: قارن موسى (؟)  
 أبو نصر بن إسرائيل: ٢٦٢  
 أبو نصر بن الصلت: ١٧٧  
 أبو نعيم بن ساوا (الواسطي): ٣١١  
 أبو نواس: ١٣٤ ، ١٠١
- أبو الحسين بن كشكرايا: ٢٤٠  
 أبو الحسين بن المصلايا: ٣٠٣  
 أبو داود (؟) ابن المعتصم: ١٢٦  
 أبو دلف: ١٢٦  
 أبو رفاعة بن كامل: ٢٥٣  
 أبو زكار يحيى بن نعман: ١٥٧  
 أبو ذكريا: ٢٤٨  
 أبو سعد: ٢٨٠  
 أبو سعد بن سمعا: ٣٠١  
 أبو سعيد (السيرافي): ٨١٩٩  
 أبو سعيد (الكاتب): ٢٥٥  
 أبو سعيد (العميد): ٢٨٤  
 أبو سعيد بن يشفور: ٢١٤ - ٢١٥  
 أبو سليم بن أبي عمران: ٢٤٦  
 أبو سهل (المسيحي): ٢٦٠  
 أبو طاهر (البلدي): ٢٨٥  
 أبو الطيب: ٢٤٨  
 أبو العباس بن فراس: ١٨٦  
 أبو العباس الفضل: ٦٢  
 أبو العباس الوارثي: ١٥٩  
 أبو عبيد: ٢٤٨  
 أبو عصمه: ١٠٦  
 أبو علي (الدورقي): ٢٦٢  
 أبو علي بن أبي الخير (المسيحي): ٣٥٢ ، ٣٧٣  
 أبو علي بن غسان: ٢٤٠ ، ٢٢٣  
 أبو علي بن مكحنا: ٢٤١  
 أبو عمر بن عدي: ٢٢٦  
 أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (الحمدادي): ١٨٤  
 أبو عمر والد متى: ١٩٦

- إسحاق بن نصیر: ٢١٨ ، ١٧٧  
 إسحاق بن يحيى (المسيحي، أبو سهل):  
     ٢٥٦ ، ٢٤١  
     إسحاق (الحرانی): ٤٨  
     إسحاق أسد بن جانی: ١٤٦  
     إسرائیل (أسقف کسکر): ١٧١  
     إسرائیل (الجائليق): ٢٢٧  
     إسرائیل (الشهید): ٤٢  
     إسرائیل (على الجند): ١٩٨  
     إسرائیل بن زکریا (الطیفوری): ١٤١ ،  
         ١٥١ ، ١٦١  
     إسرائیل بن عیسی (أبو الفرج): ١٩٦  
     إسرائیل أسعد بن أبي الفتھ الیاس بن  
         جورجیس بن المطران (أبو نصر،  
         موقف الدین): ٣٥٧  
     أسکرچ: ٢٢٨ ، ٢١٨  
     إساعیل بن بلبل: ١٧٥  
     إساعیل بن صالح: ٨٨  
     إساعیل بن المعتر: ١٦٦ ، ١٦٠  
     إساعیل بن موسی (أبو سعد): ٢٢٣  
         الأشعري (أبو موسی): ٦٠ ، ٣٠٠  
     اصطفن (بطریرك الملکانیة): أنظر  
         ثیودوسیوس  
     اصطفن بن یعقوب: ١٩٢ ، ١٩٥ ،  
         ٢١١ ، ٢٠٦  
         الأعز الدھستانی: ٣٠٢  
         إغناطیوس داود: ٣٧٠  
         إغناطیوس صلیبا: ٣٧٩  
         إغناطیوس لعازر: ٣٤٨ ، ٣٣٨ ،  
         إغناطیوس مرقس برقی: ٢٦٥ - ٢٥٩  
         ٢٦٦
- أبو نوح (الأنباری): ٧٢ ، ١١٠ ، ١٤١  
 أبو نوح (الأھوازی): ٢٦٢  
 أبو الھیجاء (الجرجانی، الناصح): ٢٦٢  
     ٢٦٥  
 أبو یاسر: ١٩٠  
 أبو یعقوب (الأھوازی): ٢٤٠  
 أبو یوسف (القاضی): ١٠٣  
 أبو یوسف یعقوب (الأنصاری): ٨٤ ،  
     ٨٥  
 أبي رام: ١١٤  
 أتابک: ٣٠٠  
 الأثری (بنو): أنظر هبة الله بن علی بن  
     هبة الله (أبو الغنائم)، علی بن هبة الله  
     (أبو الحسن)، الحسن بن علی (أبو  
         علی)، علی بن سعید (أبو الحسن)  
 أثناسیوس الصندلی: ٤٨  
 أحمد (الخصبی): ٢٠١ ، ١٩٥ ، ١٨٤  
 أحمد (المدبر): ١٣٣  
 أحمد بن إسحق بن برصوما: ١٠٦  
 أحمد بن إسرائیل: ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٦٦  
 أحمد بن علی (الکوفی، أبو عبدالله):  
     ٢١٣ ، ٢٠٧  
 أحمد اخرسیطو دولو (بطریرك  
     الإسكندریة): ٢٨٩  
 أحمد الأخطل: ١٦٩  
 أحمد أذین: ١٦٧  
 أحمد الآربوسیون: ١٤٧  
 أحمد أزدانقاذار: ١٦٧  
 إسحاق (الوکیل): ٢٢١  
 إسحاق بن حنین (أبو یعقوب): ١٨٦  
 إسحاق بن علی (القناوی): ٢٠٠

- إينوست (الثالث) : ٢٩١  
 إينوكتوس (الرابع) : ٣٥٦  
 إيوانيس (البطريرك) : ٤٨  
 أيوب (الأبرش) : ١٥٢  
 أيوب الخلقيوني: ١٢٧  
 أيوب بن إبراهيم: ١٣٧
- ب -
- باسيليوس** (أسقف جزيرة ابن عمر):  
 ٣٤٤  
 باسيليوس (الأول، البلدي): ١٠٩  
 باسيليوس (الثاني): ١٤٩ - ١٤٨  
 باسيليوس (الرابع) : ٢٩٨  
 باسيليوس بزارا بن طاهر: ٢٥٧  
 باطا: ٢٥٤  
 باغر (التركي): ١٦٣  
 بعجم: ٢١٧ ، ٢١١ ، ٢١٣  
 بختيشوع بن جبرائيل: ٩٠ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤١ - ١١٧  
 ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٤٣
- بختيشوع بن جورجيس: ٨٢ ، ٧٨ ، ٧٧  
 بختيشوع بن يوحنا (يحيى): ١٧١  
 ٢٠٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠١  
 بختيشوع (آل): أنظر جورجيس،  
 بختيشوع، جبرائيل، يوحنا (المطران)،  
 جبرائيل بن عبدالله، عبيد الله  
 بدر (الأمير): ١٨١ - ١٨٣ ، ١٩٥
- بدران فهروز: ٣١٢  
 البرامكة: أنظر خال، يحيى، جعفر،  
 الفضل، أبو الحسن
- أفريم (المطران): ٧٢ ، ٧١  
 الأفшиن: ١١٦  
 الأكراد: ٢٣٩ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩  
 ٣٤٦ ، ٣٣٩  
 ألب أرسلان: ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١  
 الياس (الأول، بطريرك الروم): ١٩٢  
 الياس (المطران): ٣٠٩
- أم جعفر: ١٠٣  
 أم موسى: ١٩٠  
 الأمين: ١٠٥ - ١٠٦  
**الأباري**: أنظر أبو نوح، إبراهيم،  
 إسرائيل، أحمد، عيسى  
 أنوش (الجائليق): ١٧٣ - ١٧١  
 أوجين (أبو العلاء): ٢٨٤  
 أوريغانوس: ٣٦٧  
 الأوزاعي: ٨٣ ، ٣٩  
 إيتاخ: ١٣٧  
 أيتينkin (السليفاني): ٢٨٦  
 إيشوع بر نون: ١١٢ - ١١٠  
 إيشوع يهوب (البلدي): ٣١٧ ، ٣٣٣ - ٣٤٥
- إيشوع (الثالث): ٤١  
 إيشوع (المطران): ٣١٥  
 إيشوع بن حزقيال: ٢٦٦  
 إيليا (أسقف الأنبار): ٢٠٨ - ٢٠٩  
 إيليا (الأول، الجائليق): ٢٢٨ - ٢٧٩  
 إيليا (الثالث أبو حليم): ٣٤٥ - ٣٥٧  
 إيليا (القس): ٣٠٤  
 إيليا (مطران مرو): ٢٤٧  
 إيليا بر شينايا: ٢٧٨  
 إيليا بن المقل: ٣١٧ - ٣٢٤

- تاوفيلا (الرهاوي) : ٨٩  
 تشن (تاج الدولة) : ٣١١  
 تداوس (والد أبي تمام) : ١٣٥  
 تنامش (الناصري، علاء الدين) : ٣٥٩  
 تشوخ (بني) : ٧٠  
 التوحيدى (أبو حيان) : ٢٥٠  
 تو زون (أبو الوفا) : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠  
 توفيل قيسر الروم : ١٢٤  
 توما (أسقف كسكروت) : ٧١  
 توما بزازا : ٢٥٩  
 توما (بني) : أنظر صاعد بن هبة الله (أمين الدولة)، شمس الدولة، فخر الدولة،  
 تاج الدولة (ماري)
- ث -
- ثابت بن سنان : ٢٠٩  
 ثابت بن هارون (أبو نصر) : ٢٣٦  
 ثاودوسيوس (بطريرك الملكانية) : ٢٠٦  
 ثمل (الذلفية) : ١٩٠  
 ثيودوسيوس (المطران) : ٨٨ ، ٧٥  
 ثيفيلوس بن توما : ٦٦ ، ١٠٠
- ج -
- الجاحظ : ٦٥ ، ١٣٩ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٤٦  
 ٣٧٢ ، ١٤٧  
 جبر بن هارون : ١٦٣  
 جبرايل (الكحال) : ١١٧  
 جبرايل بن بختيشوع (أبو عيسى) : ٨٢ ، ٨٩  
 ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١١  
 ١٤٢
- برخمورو: أنظر ابن الحمار (؟)  
 برصوما (الأول): ٣٢٤ - ٣٢٩  
 برصوما (الماردبيني): ٣٤٦  
 بركيارق: ٣٠٦ ، ٣٠٦ ، ٣١١  
 البريدي: أنظر أبو الحسين  
 البريديون: ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦  
 البساسيري: ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠  
 بشر (كاتب الحمداني): ٢٠١  
 بشر بن هارون: ١٦٣  
 بشر بن هارون بن جلا (أبو نصر):  
 ٢٧٠ ، ٢٥٣ ، ٢٣١  
 الشمورية: ١١٥  
 البطريق: ٦٧  
 بغا (الشارب الصغير): ١٤٩  
 بغا (الكبير): ١٦٣  
 بكم (البيتبوري): ١١٨  
 بلحارث (النجرانيون): ١٧٢  
 بنان: ١٩٥  
 بنفسج بنت عبد الله: ٣٤٠  
 بهاء الدولة: ٢٦٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧  
 بهنام (مار): ٣٣٨  
 بولس بن حنون: ١٢٦  
 البوهبيون: ٣٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ وما بعدها  
 البيضاوي (؟): ٢٥٨
- ت -
- تاج الدين رشيق: ٣٦١  
 تادرروس (المطران): ١٨٧ ، ١٨٨  
 تاذسيس (الجحاثيقي): ١٤٩ - ١٤١  
 ١٧٠ ، ١٥١

- الحاكم بأمر الله: ٢٧١  
 جيشي بن جكرمش: ٣١٥  
 حبشية: ١٦١  
 حبيب (الراهب): ١٧٢  
 الحجاج بن مطر: ١١٧  
 الحجاج بن يوسف: ٤١  
 حسام الدين: ٣٤٦  
 حسام الشرف بن محمد (الهاشمي): ٣٢٩  
 حسان بن سنان (التخخي): ٤٤  
 الحسن بن إبراهيم (الشيرازي، أبو علي  
 الخازن): ٢٢٦ ، ٢٢٤  
 الحسن بن خليل بن المبارك بن محضار (أبو  
 سعيد): ٣٦٥  
 الحسن بن زيد: ١٦٣  
 الحسن بن سليمان بن الجمال (أبو علي):  
     ٢١٨  
 الحسن بن سهل: ١١٠ ، ١١٧  
 الحسن بن سهل (أبو علي): ٢٦٠  
 الحسن بن سوار (أبو الخير، ابن الخطاب):  
     ٢٤٢ ، ٢٤٥  
 الحسن بن علي بن الأثري (أبو علي):  
     ٣٣٤  
 الحسن بن الفضل بن سهلان (أبو محمد):  
     ١٦٥  
 الحسن بن كلبي: ٢٤٧ ، ٢٤٦  
 الحسن بن منصور (أبو غالب): ٢٦١  
     ٢٦٧  
 الحسن بن نصر: ٢٤٧  
 الحسن بن وهب: ١٨٨  
 حسنو: ٣٧٢  
 الحسين بن إسماعيل: ١٧٣
- جرائيل بن زطينا (أبو الفضل): ٣٥٨  
     ٣٧٤  
 جرائيل بن عبدالله بن بختيشوع: ٢٤١  
     ٢٧٨  
 جبريل بن محمد (دبوس الدولة): ٢٥٤  
 جحظة البرمكي: ٧٦  
 جرجس (ال耕耘اني، البطريرك): ٤٨  
     ٦٦ ، ٥٣  
 جرجس بن ماسويه: ١١٠  
 جرمقان = سرياني: ١٢٨  
 جرمقاني (أشخاص): ٦٥  
 جرير (بنو): ٢٩٦  
 جعفر بن المكتفي: ١٨٥  
 جعفر بن يحيى البرمكي: ٨٤ ، ٨٣  
 جلال الدولة (الدين؟) بن بهاء الدولة (أبو  
 ظاهر): ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥  
 الجمال (?)، جلا: أنظر الحسن، بشر بن  
     هارون  
 جمال الدين (أمير الموصل): ٣٣٨  
 جمال يحيى أبو القاسم: ٣٥٧  
 الجمل (بني): ٢٦٨  
 جليلة بنت أبي تغلب: ٢٥١  
 الجواد الأصفهاني (أبو جعفر): ٣٤٨  
 الجواليقى (أبو منصور): ٣٣١ - ٣٣٢  
     ٣٣٤  
 جورجي (ملك الكرج): ٣٣٨  
 جيورجيس (الجائليين): ١١٢  
 جورجس (الراهب): ٧١ ، ٦٩  
     - ح -  
 الحارث بن بختيشوع (الخازن، أبو  
     سعید): ٢٧٩

- ٣٠٤ الدامغاني (أبو عبدالله) :

١٢٢ دانيال بن الطيفوري :

١٩٥ دانيال بن العباس (الكاتب) :

٢٠١ داود (أبو سليمان) :

٤٨ داود (أسقف دارا) :

٢٠٦ داود بن ديلم :

٩٧ داود بن سرابيون :

١٨٢ داود بن سلم :

٣١٩ ديبس بن صدقة :

٤١ دستكبي :

١٦٣ دليل بن يعقوب :

١٦٣ دنابير :

١٥٥ دنحا (أبو زكريما) :

٣٤٧ دنحا (إيوانيس الأسقف) :

٣٧٧ دنحا (المطران) :

٢٢٩ دنحا (الوزير) :

٣٧٨ دوقور خاتون :

٦٠٤ ديلم (الطيب) : أنظر داود

٢٤٣ ديلم (المطران) :

۲

- ذخوار: أنظر مهذب ذكى: ٢١١

1

- الرازي (فخر الدين): ٣٦٧  
رأس الحالات: ١٩٩

- الراشد: ٣٢٧ - ٣٢٨  
 الراضي: ١٨٧ ، ٢٠٣ - ٢٠٩  
 بن عزيز: ٣٥٦  
 الربيع بن يونس: ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٩  
 رجاء (الطبيب): ٢٨٤  
 رحابايا: ٣٤٥  
 الرحيم: ٢٧٨  
 الرشيد: ٣٤ ، ٧٨ ، ٨١ - ٩٦  
 رضي الدولة بن التلميذ: ٣١٧  
 ركن الدولة: ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩  
 روحي - أنطوان (الشهيد): ٩٥  
 روزبهان: ٢٢٤  
 الروم: أنظر الملوكانيين  
 رومانوس: ٧٠

- ز -

زيدة: ٩٤ ، ٩٣ ، ٨١  
 الزطّ: ٢٥٩  
 زعارة: ٤٧  
 زنكي: ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩  
 زهمان بن هندي: ٢٢٩  
 زيرك: ٢٠٧  
 زين الدين: ٢٩٣

- س -

سابا: ٢٢٦  
 سابور (الراهب): ٢٦١  
 سابور بن أردشير (أبو نصر): ٢٥٣ ، ٢٥٥  
 سبـر يـشـوع زـنـبـور: ٢٨٣ - ٢٨٧  
 سـبـر (الـشـانـيـ الـجـاثـلـيـقـ): ١١٢ - ١١٣  
 سـبـر ١٢٥ - ١١٥  
 سـبـر بـنـ قـيـوـمـا: ٣٦١ - ٣٣٣٣٦٠  
 سـبـر الـمـسـيـحـيـ: ٣٦٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٢٣٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦  
 سـبـكـتـكـيـنـ: ٣٧٧  
 سـبـكـتـكـيـنـ: ٢٥٧  
 سـرجـيـسـ (الـجـاثـلـيـقـ): ١٤٩ ، ١٧٠  
 سـرجـيـسـ (الـطـبـيـبـ): ٤٧ ، ٩٧ ، ١٤٧  
 سـرجـيـسـ (الـمـطـرانـ): ٩٦ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٧٣  
 سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ: ٣٠٠  
 سـعـدـ اللهـ جـوـهـرـ: ٢٨٨  
 سـعـدـونـ: ١٩٥  
 سـعـيدـ: ١٨٠  
 سـعـيدـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ (التـسـتـرـيـ،ـ أـبـوـ  
 الحـسـينـ): ١٩٤ ، ١٩١  
 سـعـيدـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ (الـوـاسـطـيـ،ـ أـبـوـ  
 الفـرـجـ): ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٣ - ٣١٢  
 سـعـيدـ ٣١٥ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤  
 سـعـيدـ بـنـ أـبـيـ الـخـيـرـ بـنـ عـيـسـىـ (أـبـوـ نـصـرـ):  
 سـعـيدـ ٣٥٢  
 سـعـيدـ بـنـ دـاـوـدـ (الـمـسـيـحـيـ): ٢١٧ ، ٢٢٣  
 سـعـيدـ بـنـ سـلـمـةـ:ـ أـنـظـرـ سـلـمـةـ بـنـ سـعـيدـ  
 سـعـيدـ بـنـ الشـيـاسـ: ٢٩٢  
 سـعـيدـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ (الـنـيـلـيـ): ٢٦٨  
 سـعـيدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ (أـبـوـ الـحـسـنـ): ٢٧٩  
 سـعـيدـ بـنـ عـمـرـوـ بـنـ سـنـجـلاـ (أـبـوـ الـحـسـنـ):  
 سـعـيدـ ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩  
 سـعـيدـ ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦

- شارمان: ١٠٤  
الشافعي: ٨٣  
شبيب بن شيبة: ٤٧  
شجاع: ١٣٨، ١٩٥  
شرف الدولة (أبو الفوارس، زين الملك):  
٢٤٥، ٢٤٣، ٢٤٢  
شفب: ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥  
٢٠٠  
شليمون: ٥٦، ٥٤  
شمس الدولة بن توما: ٣٦١  
الشيرازي (أبو الفضل العباس): ٢٣١  
٢٣٣، ٢٣٢  
شيركوه بن أبوب: ٣٣٩

- الصاحب بن عباد: ٢٤٨، ٢٤١  
صاعد بن أبي الحير (أبو الحسن): ٣٥٢  
صاعد بن ثابت (أبو العلاء): ٢٢٩  
صاعد بن خلدون: ١٦٢، ١٧٢، ١٧٤  
صاعد بن هبة الله بن توما (أمين الدولة،  
أبو الكرم): ٣٤٣، ٣٦٠ - ٣٦١  
٣٦٢  
الصالح (الملك): ٣٧٩  
صالح بن الرشيد: ١١١  
صالح بن علي: ٤٠  
صالح بن وصيف: ١٦٨  
صدقة بن دبيس (سيف الدولة): ٢٩٩  
٣١٥، ٣٠٣

- ٢٢٨، ٢٢٧  
سعید بن الفروخان (أبو عمرو): ١٩١  
سعید بن منصور بن الموصليا (أبو  
الخير): ٣٠٢  
سعید بن هبة الله (الأثردي، أبو الغنائم):  
٣٣٤  
سعید بن هبة الله بن الحسين (أبو  
الحسن): ٣٠٤، ٢٩٦  
السفاح: ٤٤ - ٤١  
سفیان الثوری: ٩٩  
السلاجقة: ٣٦، ٢٥٦، ٢٧٥ وما بعدها  
سلطان بن الحسين بن ثمال (الحفاجي):  
٢٦١  
سلطان الدولة (أبو شجاع): ٢٦٢  
٢٧٢، ٢٦٣  
سلمة بن سعید: ١٣٨، ١٦٢، ١٧٣  
سلمویہ بن بتان: ١٢٥، ١١٧  
سلیمان بن ابراهیم الجنید: ١٣٧  
سلیمان بن داود بن بابان (?): ١٢٥  
١٢٦  
سلیمان بن وهب: ٦٥، ١١٠، ١٣٣  
سلیمان بن وهب (أبو العلاء): ٢٣١  
سمحا (أبو سعد): ٣٠١  
سان بن ثابت: ١٩٣، ٢١٠، ٢٠٧  
سنجر: ٣٣٣  
سنقر (الطويل): ٣٦٧  
سهل بن هارون: ١١٧  
سوّار بن عبد الله: ٥٨  
سورین: ٤٣ - ٦٩  
سيف الدولة: ٢٤٠، ٢٢٩  
سيف الدين غازی: ٣٤٧، ٣٤٥، ٣٣٩

- عبد الملك (الخليفة): ٤٤  
 عبد الملك بن صالح (العامل): ٨٧  
 عبده، محمد: ٣٨٢  
 عبدالوس: ٢٣٤  
 عبدالون (التكريبي): ١٠٩ - ١١٠  
 عبدالون بن مخلد: ١٧٤ - ١٧٢، ١٦٢  
 عبد يشوع (الأول): ٢٢٧، ٢٣٥ - ٢٤٣  
 عبد بن بحرizin: ١٠٢  
 عبد بن العارض: ٣٠٥ - ٢٨٧  
 عبد بن المقلبي: ٣٢٩ - ٣٣٢  
 العبيدي (أبو الحسن): ٢٨٠  
 عبيد الله بن بختيشوع: ٢١٠، ٢٧٨  
 عبيد بن سليمان: ١٨١، ١٨٢  
 عبيد بن هبة الله الأصبعي (أبو طاهر): ٣٠٣ - ٣٠٤  
 عثمان بن سعيد: ١٤١  
 عجيف بن عنبرة: ١٢٧  
 عز الدولة بختار: ٢٣٨ - ٢٣١  
 عز الملك: ٣١١  
 عزير: ١٥٤  
 العزيز (الفاطمي): ٢٤١، ٢٥٢  
 عضد الدولة فناخسو: ٢٣٨ - ٢٤٢  
 عطارد (الشهيد؟): ١٤٨  
 عفيف (القائمي): ٣٠٤  
 العلاء بن الحسن الموصلايا (أبو سعد): ٣٠٣، ٣٠٢، ٢٨٨  
 علون: ١٩٦  
 علي بن إبراهيم بن بكس: ٢٤١  
 علي بن أبي طالب: ٣٥٨، ٥٠  
 علي بن بسام: ١٧٧  
 علي بن بشر: ٤٤  
 علي بن الحسن بن مسلمة: ٢٨٠  
 علي بن الحسين: ١٨٨  
 علي بن حمزة (الكسائي): ١١٦  
 علي بن الرايبة: ٣٢٩  
 علي بن سعيد (الأثردي): ٣٣٤  
 علي بن سهل بن رين (الطبرى): ١٢٨، ٢٩٤، ١٤٦  
 علي بن طراد (الترىبى): ٣٣٠ - ٣٢٤  
 علي بن عباس: ٢٤١  
 علي بن عبد العزيز (أبو الحسن ابن حاجب النعمنا): ٢٥٩، ٢٦٦  
 علي بن علي: ٢٩٣  
 علي بن عيسى الجراح: ١٨٨، ١٥٦، ١٨٨، ٢١٦، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٨  
 علي بن عيسى (الكحال): ٢٦٠  
 علي بن منيع قرواش: ٢٩٣  
 علي بن نصر بن علي (أبو الحسن، ابن الطيب): ٢٤٥  
 علي بن هبة الله (الأثردي، أبو الحسن): ٣٣٤  
 علي بن هيثم (جونقا): ١١٨  
 علي بن يعقوب (أبو القاسم): ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٤  
 عمارة بن حمزة: ٧٦  
 عمانوئيل (الجاليليق): ٢٠٩ - ٢٢٨، ٢٢٦، ٢٢٨  
 عمر بن الخطاب: ٣٧، ٤٥، ٦٠، ٨٥، ٣٥٨، ١٣٩، ١٤٠، ٣١٠  
 عمر بن عبد العزيز: ٣٣، ٤٥، ١٣٩  
 عمر بن يوسف: ١٧٨

- ف -

- الفارابي: ١٩٠  
 فاطمة بنت أحمد: ٢٤٤  
 الفتح بن خاقان: ١٣٠، ١٣٩، ١٤١، ١٤٧  
 ١٦٢، ١٥٢، ١٤٨  
 ٩٧  
 فثيون (المترجم): ٢٢٨  
 فثيون بن أبيوب (؟): ٢٢٨  
 فثيون فوطيوس: ١٥٧  
 فخر الدولة (البيهقي): ٢٣٩، ٢٦١  
 فخر بن توما: ٣٦١  
 فخر الملك: ٢٥٩، ٢٦٣ - ٢٦٤، ٢٦٧  
 فرج: ١٩٧  
 فروخان: ١٩١  
 الفزارى (أبو إسحاق): ١٠٤  
 الفضل (الطيب): ٢٩٦  
 الفضل بن جعفر (أبو الفتح، ابن خنزابه): ١٩٩  
 الفضل بن الريبع: ٩٤  
 الفضل بن مروان: ١٢٤  
 الفضل بن يحيى (البرمكى): ٨٤، ١٠١، ١٠٣، ١٠٢  
 فضلان (الطيب): ١٦٣  
 الفضيل بن عياض: ١٠٤  
 فتون: ٢٣١  
 فهد (المسيحي، أبو عمرو): ٢١٧  
 فهد بن إبراهيم (أبو العلاء): ٢٥٢  
 الفيض بن أبي صالح: ٧١

- ق -

القادر: ٢٤٤، ٢٥٣ - ٢٦٨، ٢٨٦

- عمرو (الخارج): ١٠٨  
 عمرو بن سليمان (أبو قابوس): ٨٣، ١٠١  
 عمرو بن يوحنا: ١٣٤  
 عون (الراهب): ٢٨٢  
 عون (العبادي): ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٥، ١٠١، ١٠٥  
 العيارون: ٣٢٧، ٣٣٠  
 عيسى (أبو قريش): ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٧٨  
 عيسى (الأنساري، أبو نوح): ١٥٢، ١٦٢  
 عيسى بن إسحق بن زرعة (أبو علي): ٢٤٢، ٢٦٠، ٢٤٨  
 عيسى بن ثيف (الرومى، أبو السمع): ٢٥٠  
 عيسى بن شهلوفا: ٥٢ - ٥٤  
 عيسى بن علي: ٢٤٥  
 عيسى بن فروخان شاه: ١٤٤، ١٦٩  
 عيسى بن نسطورس: ٢٥٢  
 عيسى بن يحيى (المسيحي، أبو سهل): ٢٤١، ٢٥٦  
 عيسى بن يوسف (ابن العطار): ٢٠٠

- غ -

- غالب (الطيب): ١٨٠، ١٩٢، ١٩٥  
 الغز: ٢٨١  
 غنام (المرتد): ١٣٠  
 غيث الدين: ٣٦٦

- ك -

- الكامل: ٣١٤  
 الکرج: ٣٣٨، ٣٧٨  
 الکمال محمد بن طلحة: ٣٢٩  
 الکندي: ٧٧  
 کورتکین (أبو الفوارس): ٢١٤  
 الکوکبی: ٢٤٦  
 کیريلوس (القديس أخو مثودیوس): ١٥٧

- ل -

- لعازر: أنظر شبّا  
 لعازر (الماردبي): ١١٤  
 لوقا (المطران): ٢١٢  
 لؤؤ (بدر الدين): ٣٧٩، ٣٧٠  
 لاونون (الرياضي): ١١٧  
 لويس (القديس): ٣١٤  
 الليث (الشهيد): ٧٠

- م -

- مار حسيا: ٣٦٦  
 ماردة: ١٠١  
 ماري (الأسقف): ٢٨٤  
 ماري بن جابر (أبو بشر): ٢٤٧  
 ماري بن صاعد بن توما (تاج الدولة): ٣٦١، ٣٦٤  
 ماري بن طوبى: ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣  
 ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمل: ٣٥١

- القاسم بن الرشيد: ١٠٠  
 القاسم بن عبيد الله: ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨  
 القاھر: ١٨٧، ٢٠١ - ٢٠٠  
 القائم: ٣٠٢، ٢٩٠ - ٢٧٤  
 قبريانوس: ٥٦، ٥٥، ٥٣  
 قبیحہ: ١٦٥، ١٥٢  
 قدامة بن جعفر: ١٨٨  
 قدامة بن زید: ١٣٧  
 قرابغا: ٣٧٥  
 القراریطي (أبو إسحاق محمد بن أحمد الإسکافی): ١٩٦ - ١٩٧، ١٩٤

- قراطیس: ١٢٢  
 فرۃ العین: ٣٠١  
 قره ارسلان: ٣٥٤  
 قریاقوس (البطریرک): ١٠٩، ٨٨  
 قریش بن بدران: ٢٨٠  
 قسطا بن لوقا: ١٥٠  
 الشیری (أبو نصر): ٣٠٤  
 قطب الدین (أستاذ الدار): ٣٤٠  
 قطب إیلغازی (الثانی): ٣٦٥  
 قطب مودود: ٣٣٩  
 قلچ ارسلان (الثانی): ٣٥٣ - ٣٥٤، ٣٦٦

- تمر الدين (أبناء): ٣٦١  
 قوام الدولة: ٣١٩  
 قورش (الشهید): ٥٨  
 القیصر (ابن حاجب): ٣٧٤، ٣٥٨  
 قیقباذ بن هزارسب: ٢٩٩

- محمد بن علي (أبو الفضل): ٢٨٨  
 محمد بن عناز: ٢٣٦  
 محمد بن قاسم (أبو العيناء): ١٧٦  
 محمد بن محمود بن ملكشاه: ٣١٦، ٣٠٢  
 محمد بن موسى (الخوارزمي، أبو بكر): ٢٥٨  
 محمود بن سبكتكين: ٢٥٧، ٢٦٤  
 محمود بن محمد بن ملكشاه: ٣٢٢، ٣٠٦  
 عبي الدين (أبو كاليجار): ٢٧٨، ٢٧٧  
 عبي الدين بن الزكي: ٣٦٦ - ٣٦٢  
 مخارق (أم المستعين): ١٦٢، ١٧٦  
 مخلد (بني): أُنْظَر صاعد، عبدون  
 مدرك (الشيباني): ١٣٤  
 مروان: ٤٧  
 المرياني (أبو أيوب): ٥٠  
 مزيد (بني): أُنْظَر الخلة  
 المسترشد: ٣١٩، ٣٢٢ - ٣٢٥  
 المستضيء: ٣١٨، ٣٤٣ - ٣٤٧، ٣٦٧  
 المستظاهر: ٢٩٦، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٨  
 المستنصر: ٣٢٣  
 المستعصم: ٣٠٧، ٣٧٦ - ٣٧٩  
 المستعين: ١٥٣، ١٦٢ - ١٦٣، ١٧٦  
 المستكفي: ٢٢١، ٢١٣، ٢١٧  
 المستججد: ٣١٨، ٣٢٨ - ٣٤١، ٣٤٤  
 المستنصر: ٣٥٨، ٣٧٠، ٣٧٢ - ٣٧٤  
 مسرور (الخادم): ١٢٥، ٩٠  
 مسعود (السلطان): ٣٣٢، ٣٣٠ - ٣٢٩  
 مسعود: ٣٣٣  
 مسعود بن الحسين (الشريف): ٢٠٥  
 المسيح: ٣٠٤
- المازيار: ١٢٨، ١٤٦  
 ماسويه بن يوحنا: ٨٢، ١٠٢، ١١٠  
 ماكيريس: ٧٠  
 المأمون: ٣٤، ٨٣، ٨٢، ١٠٥، ١٠٦  
 ٢٥٠، ١٧٨ - ١١٨  
 المأنيّة: ٦٧، ٧٠، ١١٧  
 ماهوّة: ٦٥  
 التقى: ٢١٣ - ٢١٩  
 التقى: ٢٣٦  
 التوكّل: ٦٧، ٧٢، ٧٤، ٨٢، ١٢٥  
 ، ١٣٦، ١٣٢ - ١٥٢، ١٦٢، ١٦٣  
 ، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٨، ١٩٥  
 ، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٣٣، ٣٥٨  
 متّى بن يوحنّا (أبو بش): ٢٠٧، ١٩٩  
 مجاهد الدين أبيك: ٣٧٤  
 مجاهد الدين بهروز: ٣١٨، ٣٣٠  
 المجد بن الصاحب: ٣١٧  
 المحسن: ١٩٥، ١٩٩  
 محفوظ بن عيسى (المسيحي): ٣٣٤  
 محمد (الشيباني): ٨٥  
 محمد (غيث الدين): ٢٩٩  
 محمد بن أبي الساج: ١٩١  
 محمد بن إينال: ٢١١  
 محمد بن بقية (أبو طاهر، الناصح): ٢٣٨، ٢٣٣  
 محمد بن جليل: ١٤٣  
 محمد بن جهير (أبو نصر، فخر الدولة): ٢٨٨، ٢٩٦  
 محمد بن الحسن: ١٧١  
 محمد بن طاهر: ١١٤  
 محمد بن عبدالله بن طاهر: ١٦٣، ١٧٣

- المقتدي: ٢٩٦ - ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣  
٣٦٦
- المقتفي: ٣٢٩ - ٣٣٥  
٢٩٥
- المقوس: ١٧٩ ، ١٨٥ - ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣  
٢١٧
- مكيخا (الأول): ٣٠٣ ، ٣٠٥ - ٣١٧  
٣٢٤
- مكيخا (الثاني): ٣٧٧ - ٣٧٨  
الملكيون، الملکائیة: ١٩٢ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٠ ، ٣٥٧  
٣٢٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٥  
ملكشاه (السلطان): ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠١
- ملكشاه بن محمود بن ملكشاه: ٣٣٥  
ملکی صادق (المطران): ١٤٩
- مهد الدوّلة (سعید بن مروان): ٢٤١  
المتصر: ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦١  
المذر بن النعمن (العبادي): ٢٢٣ ، ٢١٢  
المتصور (الخليفة): ٤٢ ، ٤٦ - ٥٩ ، ٦٦  
٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ١٣٠  
المتصور بن أحمد بن دارست (أبو الفضل): ٢٨٤  
المتصور بن عيسى بن مار سرجيس (أبو علي): ٢٨٤  
المهتمي: ١٦٧ - ١٦٨  
المهدي: ٥١ ، ٦٥ ، ٦٦ - ٧٤ ، ٨١ ، ٩٩ ، ٨٢  
المهذب (ذخوار): ٣٧٣  
المهذب بن هبل: ٣٥٩  
المهليي: ٢٥٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨
- المسيحي (آل): أنظر سعيد بن داود (أبو علي)، فهد (أبو عمرو)، علي بن عون (أبو الحسن)، عيسى بن يحيى (أبو سهل)، أبو الفرج محفوظ بن عيسى (أبو العلاء)، ماري بن هبة الله (أبو الخير)، صاعد بن أبي الخير، سبر يشوع (أبو الفضل)، أبو علي بن أبي الخير، أبو الفرج المطبي: ٢١٣ ، ٢٢٢ - ٢٢٣  
المظفر بن الدوّاتي: ٣١٨  
المعتز: ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٧٠ ، ١٦٦
- المعتصم: ١١٥ ، ١٢٤ - ١٢٩ ، ١٤٧ ، ٣٣٥
- المعتضد: ١٧٨ - ١٧٣ ، ١٩٥ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٢٥ ، ٢٠٥
- المعتمد: ١٧٥ - ١٧٠  
معدان (بنو): ٢٧٩ ، ٢٥٨
- المعروف (الكرخي): ٦٣  
المعري (أبو العلاء): ٢٨٣  
معز الدولة (أحمد بن بويه): ٢٣٠ - ٢٢٠
- المعوج (أبو سعيد): ٣١٨  
المفضل بن عبد الرزاق (الأصفهاني، سعيد الملك): ٣٠٢
- ملحق (أبو صالح): ١٩٥  
مقاتل بن حكيم العكي: ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٠
- المقدار: ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ - ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٨٦
- ٣٠١

- ناصر الدولة (صاحب مifarقين): ٢٩٦  
 ناصر الدولة بن حдан: ٢١٦ ، ٢٠٩  
     ٢٤٤ ، ٢٢٩  
 نبط: ٢٦٣ ، ١١٨ ، ١٣١ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ، ٢٦٣  
 نجاح (الشرابي، أبو اليمن): ٣٦٠  
 نجم الدين: ٣٤٦  
 نسيم (الست): ٣٦١  
 نصر (صاحب الجيش): ٥٣ ، ٤٧  
 نصر بن ساوا (عبد يشوع): ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧  
 نصر بن ثابت (العقيلي): ١٠٩ - ١٠٨  
 نصر بن هارون (أبو منصور): ٢٤٠  
     ٢٤٢  
 النظام (إبراهيم بن سيّار): ١٣٤  
 النظام (بني): ٣٥٠  
 نظام الملك: ٣٠٠ - ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١١  
     ٣٢٢  
 نظيف بن يمن: ٢٤٢ ، ٢٣٤  
 نقفور: ٩٢  
 سور الدين (زنكي): ٣٤٢ ، ٣٤٠  
     ٣٤٤  
 نور الدين (محمد): ٣٥٤
- ٥ -
- الهادى: ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩  
 هارون (الرشيد): أنظر الرشيد  
 هارون (السجستانى): ٣٣٢  
 هارون بن حنون: ٢٢٨  
 هارون بن المراضي: ٢٠٦  
 هبة (توما): ٢٨٥ - ٢٨٦  
 هبة الله (الحمدانى): ٢٢٩
- الموارنة: ٦٦ ، ٣١٦ ، ٣٣٢  
 موسى بن إسرائيل (الكوفي): ٦٨  
 موسى بن بغا: ١٦٢ ، ١٦٨  
 موسى بن كيفا: ٢٢٧  
 موسى بن مصعب: ٧٥ ، ٧٢ ، ٦٤ ، ٥٥  
 موصلايا: أنظر العلاء بن الحسن، سعيد  
 بن منصور، هبة الله بن الحسن، أبو  
 الحسين  
 الموقف (أبو أحمد): ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٤  
     ١٧٥ ، ١٧٦  
 موفق الدين بن قدامة: ٣١٤  
 مؤنس (القشيري): ١٨٠ ، ١٩٠  
     ٢٠٦ ، ٢٠١ ، ١٩٧ ، ١٩٥  
 مونكا: ٣٧٧  
 مؤيد الدولة (أبو منصور): ٢٤٨  
 مؤيد الدين (القمي): ٣٦١  
 مؤيد الدين بن العلقمي: ٣٧٦ ، ٣٧٨  
 ميخائيل (السريانى، البطريرك): ٣٤٥  
     ٣٤٧  
 ميخائيل (الطيب، صهر بختشون):  
     ١١٧ ، ١١٢ ، ١١١  
 ميخائيل بن يوحنا بن ماسويه: ١٣٢  
 ميشا: ١٦٧  
 ميكائيل: ١٠٧  
 مينا (الأول): ٦٠

- ن -

الناصع: أنظر محمد بن بقية (أبو الميجا)  
 الناصر (ال الخليفة): ٣٤٣ ، ١٩٨ - ٣٥٠

- ي -

- بابالاهابن قيوما: ٣٥٧ - ٣٦٠  
اليقطاني: ١٩٦  
يانيس: ١٩٥  
يجي (أبو نصر): ٢٩٦  
يجي (الجزرقاني): ١٢٩  
يجي (النحوئ): ١٨٦  
يجي بن إبراهيم: ٤٣  
يجي بن أكثم: ١٢١  
يجي بن البطريق: ٧٥، ١١٧  
يجي بن خالد (البرمكي): ٨١ - ٨٣، ٨٨، ١٠١، ١٥٥، ١٩٨  
يجي بن رستم (الطوريانى، أبو سهل): ٢٤٥  
يجي بن سعيد: ١٠٨  
يجي بن سعيد بن ماري (أبو العباس): ٣٥٢  
يجي بن سهل (السديد، أبو بشر): ٢٨٢  
يجي بن صاعد بن يحيى بن التلميذ (معتمد الملك): ٣١٧  
يجي بن عدي (أبو زكريّا): ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٩  
يجي بن عيسى بن جزلة (أبو علي): ٣٠٤  
يجي بن المنجم: ١٥٠ - ١٥١  
يجي بن هبيرة (أبو مظفر، جلال الدين): ٣٣١  
بروق شاه: ٣٦٥  
يزدان بخت: ١١٧  
يعقوب (الثانى الجائلىق): ٤٣  
يعقوب (النصيبى): ٢٣٧

- هبة الله بن أبي العلاء الغياثى بن التلميذ (أبو الحسن، أمين الدولة، موقق الملك): ٣١٧، ٣١٨، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٩  
هبة الله بن زطينا: ٣٧٤  
هبة الله بن علي (أبو نصر، تاج الرؤساء): ٣٠٣  
هبة الله بن علي بن الحسين (الأثردى): ٣٣٤  
هبة الله بن علي بن ملكا (أبو البركات): ٣١٨  
هبة الله بن الفضل بن صاعد (أبو الفتح): ٣٢٠  
هبة الله بن محمد بن المطلب (أبو المعالى مجذ الدين): ٣١٦  
هرمزد (الطيب): ٢٤١  
هلال الصائب: ٢٧٨  
هولاكو: ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨  
المهيش بن خالد: ١٣٧  
هيلانه: ٨٧

- و -

- الواشق: ١٣٠، ١٣٢ - ١٣٣، ١٦٧، ١٩٨  
الواسطي: أنظر سعيد بن إبراهيم وهب: ١١٠  
وليد (الخلقيدوني): ١١٤  
وليد (المغربى، أبو علي): ٣٠٤

- يعقوب (والد دليل): ١١٠  
 يعقوب بن إبراهيم بن حبيب  
 (الأنصاري): أظر أبو يوسف  
 يعقوب بن إسحق: ١٦٥  
 يعقوب بن كلس: ٢٥٢  
 يعقوب بن يقطان: ١١٤  
 اليهود: ٥٧ ، ١٤٦ ، ١٢١ ، ١١٦ ، ٧٣ ، ١١٧ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ٨٢  
 ، ٢٧٤ ، ٢٦٣ ، ٢٠٥ ، ١٩٩ ، ٢٩٧ ، ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٣٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣١٨ ، ٣٠٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣  
 يوانيس (الجائليق): ١٧٩ - ١٨١ ، ١٩٨  
 يوانيس بن عيسى (الجائليق): ٢٥٦ - ٢٨٦ ، ٢٦١  
 يوحنا (الخامس): ١٤٩  
 يوحنا (المطران): ٦٦  
 يوحنا بن الأعرج (الجائليق): ١٨١  
 ٢٠٥ ، ١٩٦ ، ١٨٧  
 يوحنا بن بختيشوع (الطيب): ١٠٢ ، ١٧١  
 يوحنا بن بختيشوع (المطران): ١٤٢ ، ١٨١ - ١٨٣  
 يوسف (بطريرك الإسكندرية): ١١٥  
 يوسف (القسن «الساهر»): ١٨٦  
 يوسف (اللبناني): ٣٠٩  
 يوسف (المطران): ٧٣ - ٧٢  
 يوسف بوسنايا: ٢٣٩  
 يوسف القصیر (المطران): ١٢٦  
 يوسف بن آبق (التركماني): ٣١١  
 يوسف بن أهد المزّي (أبو طاهر): ٣٢٢  
 يوسف بن صليبا: ١٢٦  
 يوسف بن عمر (الثقفي): ٤١

## فهرس المحتويات

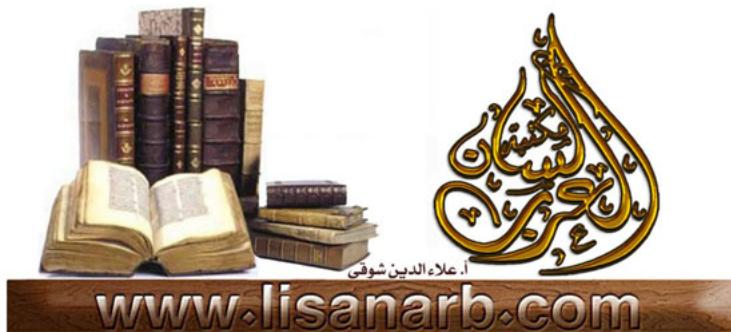
### المصادر والمراجع

٧	أ - المصادر العربية
٧	١ - الكتب والمقالات
١٥	٢ - الدوريات
<b>ب - المصادر والمراجع الأجنبية</b>	
١٦	١ - الكتب والمقالات
٢٨	٢ - الدوريات والسلالس
<b>مقدمة المترجم</b>	
<b>المقدمة</b>	
٣١	١ - السفاح (١٣٢ - ٧٤٩ / ١٣٦ - ٧٥٤)
٣٣	٢ - آبا الثاني ([٧٤١ - ٧٥١])
٤٣	٣ - سورين (٧٥٣ - ٧٧٣)
٤٣	٤ - المنصور (١٣٦ - ٧٥٤ / ١٥٨ - ٧٧٥)
٤٥	٥ - المهدى (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥)
٤٨	٦ - حنان يشوع الثاني (٧٧٥ - ٧٧٩)
٦٨	٧ - طهانوس الأول (٧٨٠ - ٨٢٣)
٧١	٨ - الهادى (١٦٩ - ١٧٠ / ٧٨٥ - ٧٨٦)
٧٤	٩ - الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩)
٨٠	١٠ - الأمين (١٩٣ - ١٩٨ / ٨٠٩ - ٨١٣)
٨٣	١١ - المأمون (١٩٨ - ٢١٨ / ٨١٣ - ٨٣٣)
١٠٧	١٢ - إيسوع برنون (٨٢٧ - ٨٢٣)
١١٠	١٣ - جيورجيوس بن الصباح الثاني (٨٣١ - ٨٢٧)
١١٤	VI

- ١١٤ ..... VII - سَبْر يَشُوع الثَّانِي (٨٣٥ - ٨٣١)  
 ١٢٦ ..... ٨ - الْمُعْتَصِم (٢١٨ - ٢٢٧ / ٨٤٢ - ٨٣٣)  
 ١٢٧ ..... VIII - إِبْرَاهِيم الثَّانِي (٨٥٠ - ٨٣٧)  
 ١٣٤ ..... ٩ - الْوَاقِع (٢٢٧ - ٢٣٢ / ٨٤٧ - ٨٤٢)  
 ١٣٨ ..... ١٠ - الْمُتَوَكِّل (٢٣٢ - ٢٤٧ / ٨٦١ - ٨٤٧)  
 ١٤٢ ..... IX - ثَادِيسِيس (٨٥٣ - ٨٥٨)  
 ١٥١ ..... X - سَرْجِيس الأَوَّل (٨٦٠ - ٨٦١ / ٨٧٢ - ٨٦٢)  
 ١٦٣ ..... ١١ - الْمُتَصَر (٢٤٨ - ٢٤٧ / ٨٦٢ - ٨٦١)  
 ١٦٤ ..... ١٢ - الْمُسْتَعِن (٢٤٨ - ٢٥١ / ٨٦٢ - ٨٦٢)  
 ١٦٧ ..... ١٣ - الْمُعْتَز (٢٥١ - ٢٥٢ / ٨٦٦ - ٨٦٦ / ٨٦٩ - ٨٦٦)  
 ١٦٩ ..... ١٤ - الْمُهَدِّي (٢٥٠ - ٢٥٦ / ٨٦٩ - ٨٦٩ / ٨٧٠ - ٨٦٩)  
 ١٧٢ ..... ١٥ - الْمُعْتَمِد (٢٥٦ - ٢٥٧ / ٨٧٠ - ٨٧٩)  
 ١٧٣ ..... XI - أُنُوش (٨٨٤ - ٨٧٧)  
 ١٧٥ ..... XII - يَوْحَنَّا (٨٨٤ - ٨٨٤ / ٨٩٢ - ٨٨٤)  
 ١٨٠ ..... ١٦ - الْمُعْتَضِد (٢٧٩ - ٢٧٩ / ٩٠٢ - ٨٩٢ / ٢٨٩)  
 ١٨١ ..... XIII - يَوَانِيس (٨٩٣ - ٨٩٩)  
 ١٨٣ ..... XIV - يَوْحَنَّا بْن الْأَعْرَج (٩٠٥ - ٩٠٥ / ٩٠٥ - ٩٠٥)  
 ١٨٧ ..... ١٧ - الْمُكْتَفِي (٢٨٩ - ٢٩٥ / ٩٠٢ - ٩٠٢ / ٢٩٥ - ٢٨٩)  
 ١٨٩ ..... XV - إِبْرَاهِيم أَبْرَازَا التَّالِث (٩٣٧ - ٩٠٦ / ٩٠٦ - ٩٣٧)  
 ١٩٢ ..... ١٨ - الْمُقْتَدِر (٢٩٥ - ٢٩٥ / ٩٣٢ - ٩٠٨ / ٣٢٠ - ٣٢٠)  
 ٢٠٢ ..... ١٩ - الْقَاهِر (٣٢٠ - ٣٢٠ / ٩٣٤ - ٩٣٢ / ٣٢٢ - ٣٢٢)  
 ٢٠٥ ..... ٢٠ - الرَّاضِي (٣٢٢ - ٣٢٩ / ٩٤٠ - ٩٣٤ / ٣٢٩ - ٣٢٩)  
 ٢١١ ..... XVI - عَامِنُوئِيل (٩٣٨ - ٩٦٠)  
 ٢١٥ ..... ٢١ - الْمُقْتَبِي (٣٢٩ - ٣٢٩ / ٩٤٤ - ٩٤٤ / ٣٢٣ - ٣٢٣)  
 ٢٢٢ ..... ٢٢ - الْمُسْتَكْفِي (٣٣٣ - ٣٣٤ / ٩٤٦ - ٩٤٤ / ٣٣٤ - ٣٣٣)  
 ٢٢٤ ..... ٢٣ - الْمُطَبِّع (٣٣٤ - ٣٦٣ / ٩٧٤ - ٩٤٦ / ٣٦٣ - ٣٣٤)  
 ٢٢٩ ..... XVII - إِسْرَائِيل (٩٦١ - ٩٦١)  
 ٢٢٩ ..... XVIII - عَبْد اِيْشُوعُ الْأَوَّل (٩٦٣ - ٩٦٣ / ٩٨٦ - ٩٨٦)  
 ٢٤٠ ..... ٢٤ - الْطَّاعِن (٣٦٣ - ٣٦٣ / ٩٧٤ - ٩٧٤ / ٣٨١ - ٣٨١)  
 ٢٤٥ ..... XIX - مَارِي بْن طَوْبَا (٩٨٧ - ٩٨٧ / ١٠٠٠ - ١٠٠٠)

- ٢٥٥ ..... ٢٥ - القادر (٣٨١ - ٤٢٢ - ٩٩١ / ٤٢٢ - ١٠٣١)
- ٢٥٨ ..... XX - يوانيس بن عيسى (١٠٠١ - ١٠١٢) (١٠١٢ - ١٠١٢)
- ٢٦٤ ..... XXI - يوحنا بن نازوك (١٠١٢ - ١٠٢٠) (١٠٢٠ - ١٠٢٠)
- ٢٦٨ ..... XXII - ايشوع يهوب بن حرققال (١٠٢٥ - ١٠٢٥) (١٠٢٥ - ١٠٢٥)
- ٢٧٠ ..... XXIII - إيليا الأولى (١٠٢٨ - ١٠٤٩) (١٠٤٩ - ١٠٤٩)
- ٢٧٦ ..... ٢٦ - القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ - ١٠٣١ / ٤٦٧ - ١٠٧٥ - ١٠٣١)
- ٢٨١ ..... XXIV - يوحنا بن الطرغال (١٠٤٩ - ١٠٥٧) (١٠٥٧ - ١٠٤٩)
- ٢٨٥ ..... XXV - سبز يشوع زببور (١٠٦١ - ١٠٧٢) (١٠٧٢ - ١٠٦١)
- ٢٨٩ ..... XXVI - عبد ايشوع بن العارض (١٠٧٥ - ١٠٩٠) (١٠٩٠ - ١٠٧٥)
- ٢٩٨ ..... ٢٧ - المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧ - ١٠٧٥ / ٤٨٧ - ١٠٧٥ - ١٠٩٤)
- ٣٠٧ ..... XXVII - مكيخا الأولى (١٠٩٢ - ١١٠٩) (١١٠٩ - ١٠٩٢)
- ٣١٣ ..... ٢٨ - المستظر (٤٨٧ - ٥١٢ - ١٠٩٤) (١١١٨ - ١٠٩٤ - ٥١٢)
- ٣١٩ ..... XXVIII - إيليا بن المقلبي (١١١١ - ١١٣١) (١١٣١ - ١١١١)
- ٣٢٤ ..... ٢٩ - المسترشد (٥٢٩ - ٥١٢ - ١١١٨ / ٥٢٩ - ١١١٨ - ٥١٢)
- ٣٢٦ ..... XXIX - برصوما الأولى (١١٣٤ - ١١٣٦) (١١٣٦ - ١١٣٤)
- ٣٢٩ ..... ٣٠ - الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠ - ١١٣٥ / ٥٣٠ - ١١٣٦ - ٥٢٩)
- ٣٣١ ..... ٣١ - المقفي (٥٣٠ - ٥٥٥ - ١١٣٦ / ٥٥٥ - ١١٣٦ - ٥٣٠)
- ٣٣١ ..... XXX - عبد يشوع بن المقلبي (١١٤٧ - ١١٣٨) (١١٣٨ - ١١٤٧)
- ٣٣٥ ..... XXXI - يشوع يهوب (الخامس) البلدي (١١٤٩ - ١١٧٥) (١١٧٥ - ١١٤٩)
- ٣٤٠ ..... ٣٢ - المستجد (٥٥٥ - ٥٦٦ - ١١٦٠ / ٥٦٦ - ١١٦٠ - ٥٥٥)
- ٣٤٥ ..... ٣٣ - المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ - ١١٧٠ / ٥٧٥ - ١١٧٠ - ٥٦٦)
- ٣٤٧ ..... XXXII - إيليا الثالث (١١٧٦ - ١١٩٠) (١١٩٠ - ١١٧٦)
- ٣٥٢ ..... ٣٤ - الناصر (٥٧٥ - ٥٧٥ - ١١٨٠ / ٦٢٢ - ١١٨٠ - ٥٧٥)
- ٣٥٩ ..... XXXIII - يابالها الثاني (١١٩٠ - ١٢٢٢) (١٢٢٢ - ١١٩٠)
- ٣٦٢ ..... XXXIV - سبز يشوع بن قيوما (١٢٢٥ - ١٢٢٥) (١٢٢٥ - ١٢٢٥)
- ٣٧١ ..... ٣٥ - الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣ - ١٢٢٥ / ٦٢٣ - ١٢٢٥ - ٦٢٢)
- ٣٧١ ..... XXXV - سبز يشوع بن المسيحي (١٢٢٦ - ١٢٥٦) (١٢٥٦ - ١٢٢٦)
- ٣٧٤ ..... ٣٦ - المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ - ١٢٤٢ / ٦٤٠ - ١٢٤٢ - ٦٢٣)
- ٣٧٨ ..... ٣٧ - المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ - ١٢٤٢ / ٦٥٦ - ١٢٥٨) (١٢٥٨ - ٦٥٦ - ١٢٤٢)
- ٣٧٩ ..... XXXVI - مكيخا الثاني (١٢٥٧ - ١٢٦٥) ([١٢٦٥ - ١٢٥٧])

٣٨٣	الخاتمة .....
٣٨٨	ملحق ألقبائي في التعريف بغيرب الكتاب .....
٣٩١	فهرس الموضوعات .....
٣٩٥	فهرس الأماكن .....
٤٠١	فهرس الأشخاص .....
٤٢٠	فهرس المحتويات .....



أنجزت المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل،  
لبنان - عارياً، طباعة هذا الكتاب  
في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٩٠

٩٠/١/٣١ - ٢ - ٠٠٩٩٠٢